

الجزء ٤

رواية

هنال محمد سالم

الطاووس الأبيض

رواية

الطاووس الأبيض

الجزء الرابع-

منال محمد سالم

2021

نوع العمل: رواية

اسم العمل: الطاووس الأبيض الجزء الرابع

اسم المؤلف: منال محمد سالم

الطبعة الأولى (إلكترونية) 2021

الناشر: موقع قصص وروايات بقلم منال سالم

التدقيق اللغوي: منال محمد سالم

تصميم الغلاف: منال محمد سالم

التصميم الداخلي: منال محمد سالم

جميع حقوق النشر الإلكترونية محفوظة لموقع قصص وروايات بقلم منال سالم

[/https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSalem](https://www.facebook.com/LoveStories.by.ManalSalem)

إهداء-

"إلى كل قارئ على وجه البسيطة .. اقرأ بخيالك، وعش الأحداث بوجدانك"

منال سالم

تنويه-

تم نشر فصول الأجزاء الثلاثة الأولى في أعمال منفصلة تحمل نفس الاسم (الطاووس الأبيض)، ويبدأ ترقيم الفصول الجديدة من الفصل المائة وستة عشر، وذلك استكمالاً لما سبق من تتابع للأحداث المشوقة ..

أغلفة الأجزاء السابقة

الجزء الأول



الجزء الثاني





الفصل المائة وستة عشر

تهادت في خطواتها وهي تواصل التقدم للأمام، إلى حيث أشار لها عند الطاولة المستديرة المقاربة للشاطئ، قبيل المغرب، سبقها بخطوتين ليتمكن من إزاحة مقعدها قليلاً كنوع من اللباقة حتى تجلس عليه، فابتسمت في رقة لتهدئته، تحرك بعدها وجلس إلى مقابلها. دقيقة من الصمت سادت بينهما قبل أن تقطعها "ريم" متسائلة:

-مش هاتقولي جايني هنا ليه يا "ماهر" بيه؟
أسند الأخير متعلقاته على سطح الطاولة، وقال بوجهٍ تزيّنه ابتسامة عذبة:
عشان نتكلم على راحتنا.

ثم طلب منها بجدية:
وأتمنى نشيل الرسميات بينا.

لم تبدُ مرحبة بتلك الفكرة، فاكثفت بالصمت لبعض الوقت، وتطلعت بعيداً عن وجهه، نحو زرقة المياه الداكنة. حاول "ماهر" تجاذب أطراف الحديث معها فاستطرد مجدداً:

-إنتي عارفة إن أمر "فيروزه" يهمني، باعتبرها زي أختي "علا"، واللي مرت بيه مكانش هين، وخصوصاً إن صاحبنا كان...

ملّت من تكراره لنفس الحجج المستهلكة كلما طلب الالتقاء بها، لذا تلك المرة لم تتحمل تبريره لرؤيتها، وقاطعته بصوتٍ ثابت، وتعاير وجهه كانت تميل للرسمية:

- "ماهر" بيه حضرتك وضحتلي الأسباب كلها قبل كده، وأنا كتبتها في المفكرة بتاعتي، وحقيقي مقدرش أفاتح المريضة بتاعتي في أسرارها بدون ما تكون هي مستعدة لده، وفي نفس الوقت مقدرش أطلع أسرارها لحضرتك لمجرد إنك عايز تظمن عليها، وإن كنت حضرتك مش واثق فيا، وحاسس إنني مقصرة معاها يبقى تقدر تشوف بديل.

شعر بالخرج لانكشاف أمره، وحمم محاولاً تلطيف الموقف:

مش كده خالص، بالعكس أنا مبسوط إنها معاكي.

حملت فيه بنظراتٍ مشككة وهي تسأله:

طيب، أومال في إيه؟

أخبرها دون احتراز، وبتجريد اسمها من أي لقب يمكن أن يبقى الحاجز الوهمي بينهما قائماً:

- "ريم" بصراحة كده أنا باستريح للكلام معاكي، وجايز موضوع "فيروزه" ده حجتني عشان أعرف أشوفك، بدل ما ترفضني.

تفاجأت من اعترافه، واحتفظت بلامح وجهه غير مقروءة حينما ردت
متسائلة بهدوء:

-وايه اللي يخليني أرفض؟

قال مبتسمًا في بلاهة:

-مش عارف.

اكتفت بتلك الابتسامة الحمقاء، ولم تلاحقه بأسئلتها، ثم نظرت حولها في
غير وجهة محددة، إلى أن توقفت عيناها على الأمواج، كأنما تتأمل حركتها
المتتابعة، شتت نظراتها عنها حينما أردف يسألها:

تحبي تشري إيه؟

اعتذرت بلباقة:

-مش عايزة، شكرًا.

ألح عليها بلطف:

-يبقى إتني زعلانة مني.

صارحته بما يختلج صدرها الآن من مشاعر مزعوجة:

-لا، بس محبش أحس إن في حد مقلل مني.

من تلقاء نفسه اعتذر منها بشدة:

-وأنا استحالة أعمل كده، وحقك عليا لو كنت ضايقتك من غير قصد.

التوت شفتها ببسمة صغيرة، وقالت وهي تومئ برأسها:

-اعتذارك مقبول.

استرخى في جلسته، وأصر عليها بسؤاله؛ ولكن تلك المرة بعينين لامعتين
في اهتمام كبير:

حطب تمام، ها تشري إيه بقى؟

.....

لليوم الرابع على التوالي تأتي في نفس موعدها، وتسير في نفس الشارع
بثيابها السوداء لتتجه إلى دكانها، حينها فقط يشعر وكأن يومه قد بدأ
بوجودها، فيزداد نشاطًا، ولا تفارق البسمة محياه. اضطر "تميم" أن يرضخ
لتعليمات أبيه، وألا ييارح مكانه سوى عند الضرورة القصوى، منعًا للقييل
والقال، في مجتمع يستسهل نشر الشائعات بدلاً من تحري الدقة، وإيقاف
النميمة. بصوته الجهوري نادى على أحد عماله، ومستخدمًا يده في الإشارة
أيضًا:

خذ ياض هنا.

امثّل لأمره، وقال صاعراً:

-نعم يا معلم.

لف "تيم" ذراعه حول كتفي العامل، ومال على أذنه يُحادثه، بصوتٍ تعمد خفضه:

هتعدّي على دكان الأبلّة، بتاع لوازم السبوع، وتأخذ واد معاك، تشوفوا طلبتها، إن كان في حاجة تتروق ولا تتنقل، وتقولها الحاج "بدير" هو اللي باعتني.

أوماً برأسه في طاعة، وغمغم بجديّة:

-ماشي الكلام.

ربت على جانب ذراعه بضعة مرات هاتفاً بلهجةٍ احتفظت بصرامتها، دون أن يرخي ذراعه عن كتفيه:

-وما تخلوهاش تعمل قشاية، مفهوم؟

لم يعارضه العامل، بل أظهر له انصياعه الكامل:

-أوامرك يا ريسنا.

ربّته أخرى خفيفة على جانب ذراعه قبل أن يحرره وهو يوصيه:

-يالاً أوام، وماتسيبوهاش إلا لما تقفل.

همّ العامل بالركض في اتجاه الطريق المؤدي إليها وهو يردد:
عينيا.

فرك "تميم" كفيه معًا في انتشاء، وعيناه معلقتان في الطريق أمامه، ليهنهم
مع نفسه وهو يدور بنظراته في المكان متتبعًا خطوات العامل:
على الأقل كده أطمئن عليكي، ولو حتى من بعيد لبعيد.
حاد بنظراته عنه، ليلتفت نحو أبيه الذي ناداه:
- "تميم"!

هلل معلنًا استجابته له:
جايلك يا حاج.

توجس من احتمالية ملاحظته لاهتمامه الزائد بمتابعة ما يدور في دكانها،
فجاهد ألا يبدو مرتبكًا أمامه، لذا دنا منه حتى وقف قبالة، وانتظر سؤاله
التالي له، متوقعًا أن يكون عنها؛ لكن لحسن حظه سأله:
إيه الأخبار عندك يا "تميم"؟ الرجالة جهزوا النقلة؟

هز رأسه قائلاً بارتياح:
كله تمام يا حاج.

استحسن "بدير" اجتهاده في عمله، وتابع متسائلاً:

-حلو، عملت إيه في دكان العجلاتي؟

بعد لحظة من التفكير، استخدم "تميم" يده في التوضيح حينما جاوبه:

-كلمنا المهندس، وخذ المقاسات وهيعرض على "هيثم" الرسم.

زم شفتيه هاتفاً وهو يستدير ليجلس على مقعده الخشبي:

-خير.

سبقه "تميم" في خطواته ليقربه منه، فربت والده على جانب كتفه امتناناً

من صنيعه، انتظر ريثما جلس الأخير، وسحب كرسيه إلى جواره مستطرداً:

-صحيح، كنت عايزك في موضوع يا حاج.

تحولت كامل أنظار "بدير" إليه، قبل أن يستقيم بكتفيه ساعداً له بالكلام:

-قول.

تنحنح ممهداً لموضوعه:

-دلوقتي "هيثم" فاتحني من مده قريبة، في موضوع شرا شقتي القديمة.

تعقدت ملامحه متسائلاً بدهشة:

-شقتك؟!

أعاد سرد الموقف بصورة أخرى مُبسطة:
هو مش شرا على أد ما نقول عليه إنه بدل!
طالعه بنظراتٍ جادة وهو يكرر عليه في صيغة تساؤلية:
أنا مش فاهم حاجة، يعني مالها شقتك؟ عايزها منك ليه؟
ببساطةٍ علل له الأسباب التي قصها عليه ابن خالته:
هو عاوز ينقل فيها مع مراته، ويبيع بيت أمه، مش عايز يفضل فيه، وأنا
اقترحت عليه نبدل.
استغرب "بدير" كثيراً مما سمعه، ولسان حاله يتساءل:
ليه كده؟
جاوبه كذلك في حيرة:
معرفش دماغه فيها إيه.
بهزات متعاقبة من رأسه أردف في صوتٍ جاد:
عمومًا أنا هتكلم معاه بعدين، ويالا عشان نشوف ورانا إيه، الشغل
مايستناش حد.
نهض "تميم" من على كرسيه أولاً وهو يرد، ليحمله بعدها بكفه:

حاضر يا حاج.

.....

تأكدت من ضبط الأكمام معًا، قبل أن تطوي القميص النظيف، وتضعه فوق كومة الملابس المرتبة، تلك التي انتهت من طيها وتنظيمها. أدارت "همسة" رأسها في اتجاه زوجها الجالس على الطرف الآخر من الفراش، يتطلع إلى التلفاز بنظراتٍ شاردة، مدت يدها وأمسكت بقطعة أخرى من الثياب، وسألته بحذر:

برضوه مش عايز تروح تشوفها؟

فهم أنها تقصد والدته دون أن تفسر ذلك علنًا، فقال بتعابير جامدة:
-لا.

تهدت تخبره بما يُقارب الرجاء:

يا "هيثم" مهما كان دي أمك، وأكيد زيارتك ليها هتفرحها.

التفت يحدجها بنظرة منذرة وهو يشدد عليها:

قفلي على الموضوع ده يا "همسة"، مش عايز أتكلم فيه ثاني.

تأملت وجهه المتجهم، فأدركت أنه لا يمزح، لذا لم تستمر في محاولتها اليائسة لإقناعها بالعكس، وهسهست في استسلام:

براحتك.

غير زوجها من مجرى الحوار متسائلاً بصوتٍ لان قليلاً:

ميعادك إمتى مع الدكتور؟

بعد زفيرٍ سريعٍ أجابته مستفيضة في التوضيح:

بكراً على المغرب، اتفقت مع "فيروزة" تعدي عليا ونروح سوا.

لم تتبدل ملامحه المتجهمه عندما علق:

اعتذري لها.

سألته باسترابة:

ليه؟ في حاجة؟

جاوبها بتعابيرٍ حاول أن تكون مسترخية قليلاً:

هاجي معاكي، فمالوش لازمة نخليها تيجي.

ابتسمت لاهتمامه، وقالت في استحسان:

ماشى يا حبيبي، أنا هاعرفها الصبح، عشان برضوه لو وراها تخلصها،

افتتاح محلها قرب.

قال وهو يعاود التحديق في شاشة التلفاز:

-ربنا معاها.

.....

بمديلها الورقي مسحت العرق المتجمع عند مقدمة رأسها، بعد أن أغلقت الباب خلفها، لتتجه بعدها نحو غرفتها، وتضع آخر مجموعة من الأكياس الممتلئة بالنواقص أرضاً، تبتعتها والدتها وهي تجفف كلتا يديها بمنشفة المطبخ القديمة، ألقت عليها نظرة ماسحة، وسألتها بنبرة محترمة:

-عملي إيه النهاردة؟

ابتسمت رغم التعب، وأجابتها:

-الحمد لله، هانت، معدتش إلا حاجة بسيطة.

سألتها بحاجبين معقودين:

هتنزلي ثاني؟

فركت "فيروزة" جبينها بيدها، وحللت من عقدة حجابها الأسود قائلة بزفير مرهق:

-لا، مش مستاهلة.

ردت في حبور:

على خيرة الله، كمان أختك اتصلت.

أخرجت "فيروزة" منامتها من الرف الأوسط بضلفة الدولاب، ووجهت
أنظارها نحو والدتها تسألها:

هي كويسة؟

هزت "آمنة" رأسها إيجاباً وهي ترد:

-أيوه، بتقولك هاتروح مع جوزها عند الدكتور بكرة، فمافيش داعي تعطلي
نفسك.

ردت بعد زفير متعب:

-أوكي، طالما مش هتبقى لواحدها، وأنا كمان هاستغل الوقت ده، واشتري
الكام حاجة اللي نقصاني، بحيث أبقى قفلت المحل من كل حاجة.

ابتسمت والدتها معقبة:

-ربنا يعينك يا بنتي، وأنا من بدري هاخذ خالك ونطلع على دكتور العلاج
الطبيعي، الصراحة الراجل مش متأخر علينا، عامل كل اللي في وسعه
عشان خالك يرجع يقف على رجليه.

دعت له بصدق:

-ربنا يجيب الشفا من عنده.

أمنت عليها مرددة:

يا رب.

تساءلت "فيروزه" وهي تحمل أشياءها لتتجه إلى الحمام:

-أومال "كوكي" فين؟

جاوبتها وهي تشير بيدها نحو الخارج:

-أكلت ونامت جمب أبوها.

حررت شعرها المعقود ليتنفس الهواء، وأخبرتها:

حائزة أبقى أشوف يوم كده أفسحها فيه، حرام هي بقالها كثير محبوسة،

ويوم ما بتخرج بندويها يا عند دكتور، يا عند مركز العلاج الطبيعي.

أشفقت عليها عمتها، ورددت في عطف:

-أه والله، غلبانة أوي البت دي ...

لكن سرعان ما تبدلت نبرتها للتفاؤل وهي تحتتم جملتها:

-بس ربنا عوضها خير بيكي، ما إنتي أختها الكبيرة.

ظهرت ابتسامة صغيرة على ثغرها عندما ردت:

-ربنا يخليكي لينا يا ماما.

تحركت والدتها خلفها، وأضافت:

-صحيح سمعت في التلفزيون إن احتمال الجو يقلب آخر النهار، مش فاهمة
كانوا بيتكلموا عن منخفض كده جاي.

علقت عليها بتهكم:

هو حد يصدق بتوع الأرصاد يا ماما، ما هو على طول يقولوا هتطلع برد،
نلاقه حر، هتمطر، منلاقيش ولا نقطة نزلت، سيها على الله.

رغم عدم اقتناع ابنتها بهذا التحذير إلا أنها أكدت عليها:

-إنتي خلصي بس بدري، وخدي بالك.

قالت كنوع من الواجب:

-ماشي.

أكملت بعدها سيرها نحو الحمام لتغتسل من عناء يوم آخر كان مشحونًا
بالكثير من المهام، انقضت غالبيتها على خير، وأكسبتها المزيد من الثقة،
والشعور بالقدرة على الإنجاز.

.....

هدهدت رضيعها في لطف حذر، حتى يستغرق في نومه الهائئ، بعد أن
انتهت من إطعامه. تطلعت إليه "هاجر" بعينين تعكسان حزنًا عميقًا، لم
ترغب أن ينشأ صغيرها على ماضٍ غير مشرف خلفه له والده المخادع، ربما

قد يعايره به أحدهم عندما يشتر عوده، ويعي ما يدور حوله. أرجأت التفكير في مستقبله المجهول مؤقتًا لتحملق في وجه والدتها التي أطلت عليها متسائلة في محبة عظيمة:

حبيب قلبي نام؟

ردت بابتسامة هادئة:

أه الحمد لله.

أراحت نصفها السفلي على الفراش، لتبدو في مواجهة ابنتها، ثم استطردت تسألها، وهي تشملها بنظراتها المهمة:

فكرتي يا حبيبتي في الموضوع إياه؟

من البادرة الأولى لم يتفقه ذهنها لمقصدها، فردت متسائلة:

موضوع إيه؟

أجابت بابتسامة عريضة، وهي تربت على ركبتيها، كنوع من إظهار الألفة لها:

- "سراج" العريس، أرد على أبوكي وأقوله إيه؟

اكتسبت ملامحها طابعًا منزجيًا، وقالت في ضيق لم تخفه:

لسه بفكر يامه ...

ما لبث أن فقدت انضباط أعصابها، وسألتها بألم محسوس في صوتها، وهي بالكاد على وشك الانخراط في البكاء:

هو إنتو مستعجلين على إيه؟ للدرجادي أعدتي معاكو مضيقاكم؟ فعازين تجوزوني؟

استنكرت "ونيسة" محدودية تفكيرها، وهتفت مبررة دوافعها:

حاشا لله، ده بيتك يا هبله، وقسمًا بالله أبوكي ما نطق بكلمة، ده أنا من نفسي اللي جتلك، وقولت أزن عليك عشان تاخدي الموضوع بجدية ...

ثم مدت يدها لتمسح عبراتها المناسبة على خدها، وتابعت بحنو أمومي:

ده إن كان على أبوكي عايزك ماتفرقيش حضنه لثانية، ده احنا اتعلقنا بـ "سلطان" الصغير أكثر منك.

سحبت "هاجر" نفسًا عميقًا لتثبط به نوبة البكاء التي هاجمتها، ربما بسبب وضعها الحرج، فأصبحت أكثر حساسية عن ذي قبل، مدت ذراعها قليلًا لتلتقط منشفة ورقية من علبة المناديل الموضوعة على الكومود، نفخت فيها أنفها، واقتضبت قائلة:

-ربنا ييسر.

استمرت "ونيسة" في تهوين الأمر عليها بترديد:

-واتي بكرة لما ابنك يكبر هيبقى نفسك تفرحي بيه، وتجويزه النهاردة قبل
بكرة، وقتها هتحسي بيا، وتفتكريني، ما هو فرحتنا بعيالنا ماتتصوفش.

نظرت إليها في صمت، فأتمت والدتها كلامها بحذر:

-بصي أنا مش هضغط عليك، لما توصلي لرأي ابقي عرفيني، المهم عندي
تبقى مرتاحة ومتهنية في حياتك.

حررت زفرة خائفة من صدرها وهي تعقب عليها:

إن شاء الله.

غادرت بعدها "ونيسة" الغرفة، وعينا "هاجر" تتابعها في وجوم، لن تنكر
أنها ترغب في تذوق طعم السعادة، في استعادة ما كانت تتنعم به من دلالٍ
وغنج؛ لكنها في نفس الوقت تخشى من التجربة، خاصة مع رواسب العداوة
القديمة؛ وإن كانت ترى -على الرغم من غرابة الوضع- مدى الانسجام
والألفة بين شقيقها و"سراج"، وذاك أكثر ما يثير الحيرة والتساؤل في عقلها
المزدحم بمخاوفه!

.....

بضغطة شبه قوية من ركبته على الحقيبة الجلدية العتيقة، الموضوعة على
أرضية غرفة جده، تمكن "تميم" من جر السحاب في مجراه بعد أن علق
لأكثر من مرة، وغلقها. استقام بعدها واقفاً، وزحزح الحقيبة -الثقيلة

نسبيًا- من طريقه ليتركها إلى جوار الدولاب الخشبي، ثم استدار ناظرًا إلى
جده مخاطبًا إياه:

-كده أنا عبيت كل الحاجات اللي إنت مش محتاجها في الشنطة دي،
عايزني أوديتها فين بعد كده؟

حرك "سلطان" حبات مسبحته بحركة ثابتة بكتا يديه، ورد على مهلي:
طلعهم بقي لله.

ارتفع حاجبا حفيده للأعلى في دهشة وهو ينطق بتلقائية:
كلهم؟

دون إعادة تفكير أكد عليه:

-أه .. هاعمل بيهم إيه؟ مش جازي يكون حد محتاجهم أكثر مني؟
بدا مبتسمًا في رضا وهو يكمل باقي كلامه:

-وبعدين خليني أخذ ثواب إدخال البهجة على مؤمن.

أحس "تميم" بالفخر من نزعتة الدينية المترسخة فيه، دومًا ينشد في جلوسه
معه اكتساب أو تجديد عادة طيبة قد غفل عنها، لالتهائه الدائم بالعمل
ومشكلاته. تقدم ناحيته، وانحنى على أعلى رأسه ليقبله منها قائلًا في حبور
شديد:

-ربنا يباركلنا في عمرك يا جدي.

تطلع إليه "سلطان" بمحبة كبيرة، وسأله وهو يمسح برفق على جانب ذراعه:

قولي إنت أحوالك إيه؟

اعتدل واقفاً، وأخبره:

-أنا تمام الحمد لله.

لثانية من الزمن صمت دون أن تحيد نظراته عنه، ثم سأله موجزاً،
وبابتسامة صغيرة ذات مغزى على محياه:

-وبنتنا؟

وكان مارد الحب قد انتفض من مصباحه السحري ليستفيض في التعبير
عن مشاعرها، فباح له دون تردد أو خوف، وبريق يشع بالأمل يتراقص في
حدقتيه:

-ياه! مش متخيل لما بشوفها قصاد عيني بيحصلي إيه ..

تهديدات -ويا لها من تهديدات- خرجت من صدره خلال وصفه العميق:

-بحس إن الدنيا كلها بتضحك، وقلبي من جوايا عايز يطير، ويروح لحد
عندها.

قهقه الجد ضاحكاً قبل أن يعلق بمرح:

إنت حالتك بقت صعب أوي.

شاركه بالابتسام وهو يرجوه بما بدا مزاحًا:

أه والله يا جدي، ما تكثف الدعاء كده عشان ربنا يكرمني بسرعة.

بثقة تامة ردد عليه:

قولتلك قبل كده، كل شيء بأوان إلى أن يأذن الله.

دون تشكيكٍ صدق قائلاً:

ونعم بالله.

سعلة خفيفة خرجت من جوف "سلطان"، تبعها نهوضه من مقعده، ليمشي

بتؤدة متجهًا نحو فراشه، استلقى عليه، وحفيده من خلفه يدثره بالغطاء،

أدار جده وجهه ناحيته، وقال له:

روح مدد في فرشتك، وراك من بكرة هم كبير، أبوك قالي على النقلة

الجديدة.

حك "تميم" مؤخرة عنقه بأصابعه، ليخفف من التيبس العالق في فقراته،

وهو يُجاذبه بتذمرٍ ظاهر كذلك على قسماته:

-أيوه، رحلة بحرية، والقبطان بتاعها حنبلي أوي، ده ناقص يعمل كشف
هيئة للخضار والفاكهة، بس لو ظبطنا معاه الحاجة على الشعرة، هنرزق
من وسع.

بدا المجهود المبذول في عملهم شاقًا، لذا دعا له بصدق:

-ربنا يوسع عليكم من رزقه.

اعترض عليه "تميم" بعبوس، وهو يلقي عليه نظرة تحمل مدلولاً بعينه:
-بس كده؟

كان مستمتعًا بما يعايشه من مشاعر نقية، فراح يتذاكى عليه قائلاً:
-ويكرمك يا واد بنت الحلال.

أشار "تميم" بيديه في الهواء وهو يلح عليه:

-الأبلة يا جدي، خلي الدعاء واضح ومباشر.

بصعوبة كتم "سلطان" ضحكته السعيدة، وزجره بجدّة كان يعلم جيدًا أن
حفيده لن يسيء فهمها:

-إنت هتتأمر كمان؟ طفي النور، وخليني أنام.

نكس "تميم" رأسه في حزنٍ مفتعل، وقال في طاعة:

-ماشي يا جدي، تصبح على خير.

تشاءب الجد قائلًا بنبرة انخفضت بشكل ملحوظ:

-وانت من أهله...

مشى "تميم" ناحية باب الغرفة ليتفاجأ بجده يضيف من خلفه بصوت كان مسموعًا إليه:

-ويجعلها من نصيبك يا رب.

ابتهجت أساريره، وقفز قلبه في فرحة، تتضاعف لأقصاها كلما نبضت الرغبة بداخله.

.....

ظل مرابطًا أمام باب الدكان الأممي، مركزًا بصره على المارة، ومنتظرًا عودة أحد أصحابه ليسلم إليهم الأمانة التي تركها المحامي لديه، فالأخير قد أكمل الناقص من الأوراق القانونية الخاصة بدكان "فيروزة"، من أجل استخراج ترخيص مزاولة المهنة، السجل التجاري، وأيضًا البطاقة الضريبية. كانت حركة المارة شبه محدودة، نظرًا لسوء الأحوال الجوية، وبالتالي سعت الغالبية لتترك الشارع، والمكوث في المنازل من أجل الاحتماء من الهواء الشديد.

هب العامل واقفاً على قدميه، وأسرع نحو سيارة "تميم" حينما رآه يصفها في الزقاق الضيق، توقف أمام مقدمتها، وبأنفاس شبه لاهثة ناداه:
يا معلم! يا معلم.

ترجل "تميم" من سيارته، ونظر إليه باسترابة وهو يسأله:
- في إيه؟

للحظة انتابه هاجساً بحدوث أمر خطير، خاصة مع الاضطراب الحادث في الطقس، لهذا لاحقه متسائلاً في جزع انعكس على ملامحه:
- حد حصله حاجة؟

رد نافياً ليطمئنه على الفور:

- لا يا معلم، كله تمام، واحنا مأمين على البضاعة.

هتف به بخشونة:

-أومال في إيه؟

امتدت يده المسكة بالحافظة البلاستيكية إليه، وواصل إخباره:

-المحامي جاب الورق ده، ووصاني أسلمه بالإيد ليك أو للحاج "بدير".

أخذه منه "تميم"، وتفقد محتواه على عجلة قبل أن يقول في هدوء:

-كويس ...

لم تر تخ ملاحه وهو يتابع إلقاء أوامره على العامل:

قفل الدكان وهاتلي المفاتيح، وخلي باقي العمال تروح، النهاردة أجازة على حسابي.

وكأنه منحه جائزة استثنائية بكلامه التلقائي، فافترت شفتا العامل عن ابتسامة عريضة وهو يمتدح كرمه:

تعيشلنا يا معلم، ربنا يخليك لينا.

انصرف بعدها نحو الدكان، وبقي "تيم" في مكانه حائرًا، أدار رأسه ناحية الطريق الآخر المؤدي لدكانها، وتطلع للفراغ الممدود على مرمى بصره مخاطبًا نفسه:

أنا باصص على محلها من الصبح كان مقفول، معتقدش هتفتح في الجوده. راوده للحظة فكرة استحسنها للغاية، بل وأراد بالفعل تحقيقها في التو، لما لا يزورها ويقدم لها الأوراق؟ أليست حجة مناسبة ومنطقية، وفي نفس الآن لا تدعو للاستراية؟ لم يفكر مرتين، كان قد حسم أمره، واستقر خلف عجلة القيادة، وتعابير وجهه زاخرة بعلامات الحب.

.....

بمهارة قيادية عالية، تمكن "تميم" من تفادي بعض السائقين المرععين في الشارع الرئيسي، رغم عدم عمل المكابح بكامل طاقتها، جراء تجمع مياه الأمطار في برك عميقة، زادت كذلك من صعوبة سير المارة في الطرقات. بحث عن بقعة شاغرة على مقربة من بيتها ليوقف سيارته؛ لكن للأسف تعذر عليه هذا وسط تواجد عشرات السيارات المصفوفة. ركز نظراته جيدًا فوجد مساحة بالكاد ستكون كافية لإيقاف سيارته، أسرع في اتجاهها ليلبغها قبل أن يصل أحدهم إليها قبله، ابتسامة انتصارٍ ظهرت على ثغره عندما نجح في ركنها.

استدار محدقًا في البيت الذي أصبح يبعد عنه بعشرات الأمتار بنظرة العاشق الواله، كان من المحمود أنه تواجد على مسافة بعيدة، وإلا لافترض أمره! استطاع أن يلمح من زاويته حينما أخفض رأسه "خليل" وشقيقته، وتلك الصغيرة "رقية" يترجلون من سيارة أجرة، حقًا رؤية شخص ما من طرف من يحب تطرب النفس بقدرٍ جميل؛ كأنما قد التقى بشيء منه! جعل خطواته سريعة إلى حدٍ ما ليلحق بهم، كان سائق العربة قد أنزل المقعد المدولب من الصندوق الخلفي. تدخل "تميم" قائلاً:

-الجماعة تبغي، تسلم يا اسطا.

ابتسمت "آمنة" لرؤيته، ورحبت به وهي تخرج من حافلة تقودها الأجرة:

إيه الصدفة الحلوة دي؟

رد مجاملاً:

ده من حظي الحلو إني أقابلكم.

وقبل أن تفكر "آمنة" في إعطاء السائق أجرته، تولى عنها هذا، مانحاً إياه أكثر مما يستحق، ليظهر الأخير امتنانه الكبير بسخائه:

متشكر يا باشا.

شكرته في حرج بادي عليها:

تعبت نفسك ليه بس يا ابني؟ ده أنا كنت بأطلع الفلوس وأحاسبه.

رد مبتسماً:

دي حاجة بسيطة، مش قضية يعني.

التفت "تميم" بعدها لينظر للصغيرة التي حاوطته من خصره قائلة بسعادة:
-عمو.

ربت على كتفها، ومسد بجنو على رأسها وهو يبادلها الترحيب الودود:

إزيك يا حلوة؟ عاملة إيه؟

هتفت في مرح وهي تنظر إليه ببراءة:

-الحمد لله كويسة.

حول "تميم" أنظاره في اتجاه أبيها يسأله في اهتمام:

-أخبارك إيه يا عم "خليل"؟

بتلعثم حاول التغلب عليه أجابه:

-الحمد لله.

رد عليه "تميم" وهو يتجه إليه ليعاونه على الاستقرار في مقعده:

-يستاهل الحمد، شايف حالتك أفضل بكثير.

علقت "آمنة" في حبور:

-لأ ولسه، لما نواظب على العلاج، مش هحتاج الكرسي إلا قليل أوي.

دفع "تميم" المقعد إلى مدخل البيت الطويل، ومنه اتجه إلى ما قبل الدرج

بمسافة خطوة، ليجد بعدها "خليل" يشير إليه، فخدق فيه بغرابة قبل أن

يرى "آمنة" تتقدم في خطواتها لتمنحه عكازًا طبيعيًا لم يكن قد لاحظته سابقًا،

ناولته لشقيقتها، ليتعاونوا معًا في مساعدته على الوقوف على قدميه. من

جديد تدخل "تميم" لم يد العون له وهو يوجه ذراع "خليل" نحو

الدرابزون ليقبض عليه، كوسيلة مدعمة لتثبيتته خلال صعوده:

-اسند عليا، أنا هطلعك.

.....

لم يضجر من تباطؤ خطواته أثناء محاولة "خليل" تعويد قدميه شبه العاجزين على استعادة قدرتهما على المشي، ليدرك أن هناك نعمة أساسية قد يغفل المرء عن شكر المولى عليها، استمر في دعمه لئلا تلفت ساقه حول الأخرى ويتعثّر، فينكفئ على وجهه حتى بلغ الدور الأول، هناك وجد "آمنة" تنتظرها ولسانها يلهج بعبارات الشكر:

-كتر خيرك يا ابني، جمالك دائماً مغرقانا.

بعتابٍ ودود خاطبها "تميم":

-مافيش بين الأهل جمال يا حاجة، واحنا عيلة واحدة.

ردت مؤكدة بمحبة:

طبعا، ده احنا نتشرف بكم.

ركز "تميم" نظره على "خليل" الذي أوشك على بلوغ عتبة المنزل، وسأله في اهتمام:

-إنت كويس يا عم "خليل"؟ معلش ضغطنا عليك النهاردة.

هز رأسه قائلاً بأنفاس متعبة، وبصوتٍ كان متقطعاً:

-أه، الحمد لله .. أدي..ني بت..عود.

شد من أزره قائلاً:

-ربنا يقويك، إنت أدها وإدود.

تأكد من إدخاله المنزل، حينئذ قربت "آمنة" الكرسي المدولب منه،
ليجلس وهو يزفر مطولاً نتيجة المجهود المضاعف الذي بذله، بعدها ضغط
"خليل" على زر تحريك مقعده ليتجه إلى الداخل، في حين اختطف "تميم"
نظرة سريعة باحثة عن طاووسه باليهو المتسع؛ لكن لسوء حظه لم تكن في
الأرجاء. عاد ليحملك في وجه والدتها التي سألتها:

-أجييلك تشرب إيه؟

رفض بتهديب:

تسلمي يا حاجة مالوش لزوم تتعبي نفسك ...

ثم مد يده بالحافظة المطوية، وتابع معللاً سبب وجوده:

-ده أنا كنت جايب الورق ده للأبلة.

سألته في استغرابٍ وهي تأخذه منه:

-ورق إيه؟

أشار بيده موضحاً:

-تراخيص المحل بتاعها، المحامي جابها الدكان عندنا من شوية، وخوفت
تتهدل.

راحت تشكره في امتنانٍ يستحقه:

-والله ما عارفين نقولك إيه، داوشينكم معانا وآ...

قاطعها بطريقته المعاتبة قبل أن تُهَيِّجَ جملتها:

-تاني يا حاجة؟ قولنا إيه؟

ابتسمت وهي ترد:

خلاص مش هتكلم، بس لازمًا تشرب حاجة، مسافة ما ترتاح من السلم
هاكون عملاك عصير طازة.

كنوع من المجاملة، وربما لرغبة خفية في نفسه، استطرد موافقًا:
مش هكسفك.

انتقى أريكة عند الركن، وعلى مقربة من باب المنزل ليجلس عليها، حل
الإحباط على ملامحه عندما تأكد من عدم وجودها بالمنزل، تصنع الابتسام
وقد رأى "رقية" تُقبل عليه متسائلة:

-عمو، إنت مش بتيجي تزورنا ليه؟

أجابها بعفوية:

ما أنا موجود أهوو.

جلست على الأريكة المجاورة له، واسترسلت بتلقائية طفولية وهي تشير بكفيها:

عارف، بكرة هيجيلنا بيبي صغنن أد كده.

برزت عيناه في صدمة، وردد بخوفٍ دب في قلبه:

-بيبي؟

لوهلة اعتقد أنها تتحدث عن وجود جنين ينمو في أحشاء "فيروزة"، مما قد يريك كافة الحسابات، كادت الهواجس تنفث في رأسه لولا أن أوضحت له الصغيرة:

-أه، "همسة" هاتيجب واحد ألعب بيه.

تنفس الصعداء بارتياح، وهسهس مع نفسه:

-يا شيخة خضيتيني.

لم ينكر أن قلبه اطمئن للنبا الصحيح؛ لكن ذلك لا يعني كرهه لرؤيتها تحظى بمولود تختبر معه أعظم إحساس خلقت به الأثى، ما كان يدور في رأسه في هذه اللحظة أن الجديد من العقبات قد يرجئ شروعه في خطبها،

ويؤخره لبعض الوقت. انتبه "تميم" للصغيرة التي كانت ما تزال تنظر إليه؛ وكأنها تنتظر تعليقه، فأردف قائلاً:

-وماله يا حلوة، إتي تاخدي بالك منه.

ردت عليه بهرج وهي تشير إلى فمها:

-هاكله في بؤه، كدهون.

تحولت أنظارهما نحو الباب الذي فتح، وأطلت منه "فيروزة" مُلقية بالتحية:
-السلام عليكم.

خفق الفؤاد لرؤيتها بكامل الوجاهة، والنعومة، والجمال المميز الذي انحصر-
في شخصها؛ كأنما لا تبصر عيناه سواها من النساء، قفز واقفاً من مقعده،
ورد عليها مبتسماً ابتسامة بلهاء:

-وعليكم السلام، إزيك يا أبله؟

دنت منه "فيروزة" ترمقه بنظرة غريبة، قبل أن تسأله بلهجة مالت للرسمية
قليلاً:

-خير يا معلم في حاجة؟

كانت تخاطبه بثباتٍ وهي تنظر في عينيه، ومع هذا كان مرتبكاً، متخبطاً،
يبحث عن الكلمات المناسبة لينطق بها، بدا وكأنه بحاجة لفسحة من الزمن

ليستجمع شتات نفسه أمام سحر النظرات الفيروزية الآسرة. قطع تواصلهما
البصري الذي دام لثوانٍ صوت "آمنة" الهاتف بفرع:

-كويس إنك رجعتي يا "فيروزة"، ده الجو قلب هوا جامد.

استدارت ناظرة إلى والدتها التي تابعت وهي تقدم المشروب للضيف:

-اتفضل يا ابني.

رد وهو يتناوله منها:

-شكرا يا حاجة.

سحبت "آمنة" ابنتها للجانب لتهمس لها بقلبي:

حازين نلم الغسيل بدل ما يطير، وتقل الشبايبك كلها.

ردت بإيماءة من رأسها:

حاضر يا ماما.

اعتذرت "آمنة" من "تميم"، وهي تحاول الابتسام رغم التوتر الظاهر على
محياتها:

متأخذناش يا ابني، خد راحتك، احنا بس بنأمن على البيت بدل ما الهوا
والمطرة يهدلوا الدنيا.

قال في تفهم:

-ولا يهملك.

انسحبت من أمامه لتتجه نحو الشرفة القريبة حتى تجمع الثياب المعلقة على الحبال قبل أن تنتزعها الرياح العاصفة، بينما توجهت "فيروزة" نحو النافذة الموجودة في نهاية البهو لتغلقها؛ لكن لشدة الهواء، عجزت عن جمع الضلفتين معًا، بل فقدت القدرة على الإمساك بإحدهما، وظنت أنها ستنخلع لولا أن رأت ذراعًا قويًا -تأتي من ورائها- قد امتدت لتسحبها عكس حركة الرياح العاتية، وبالأخرى ثبت الضلفة الخشبية. سمعت "فيروزة" صوت "تميم" من خلفها يردد:

-دي نوة أكيد.

لم تترك الضلفة كذلك، وتشبثت هي الأخرى بها لتضمها إلى مثيلتها وهي ترد:

-فعلاً نهبوا عليها من إمبراج.

الحق يُقال أنه لولا دعمه لما تمكنت أبدًا من استعادة الضلفة وغلق النافذة دون خسائر. من منظور حسه المرهف في تلك اللحظة، وبعيدًا عن أي آمنيات مؤجلة؛ كانت أقرب ما يكون إليه وهي في كامل وعيها، وإن أولته ظهرها. ففي أقصى أحلامه المستبعد حدوثها الآن، رجا أن يراها مبتسمة،

تغازل الضحكة شفيتها، ويداعب البهاء المغربي صفحة وجهها؛ لكن أن
تحتويها أحضانه، أن يشعر بها بين ذراعيه، كان حقًا يفوق كافة ما اشتاق
تحقيقه. تراجع عنها سريعًا، قبل أن تدرك مدى الحرج الذي يُمكن أن تشعر
به، إن اكتشفت أنها كانت محاصرة بين ذراعيه، دون أن يلمسها، لم يرغب
في إشعارها بالسوء. ترك مسافة خطوتين، وغض بصره عنها رغم اشتياقه
للظفر بنظرة أخرى من لؤلؤتها، فقط لو تسمع صوت القلب الصارخ بجها

!!

.....

الفصل المائة وسبعة عشر

هناك نوع من الدفء المغربي، تشعر به يسحبك إلى محيطه، بطواعية تامة منك، لا تقدر على مقاومته، ولا تطمح في الاستغناء عنه، هكذا استشعرت للحظات هذا الشعور الغريب خلال محاولتها غلق النافذة بمساعدته. التفتت "فيروزة" لتواجه "تيم" فوجدته يدور بعينيه في المكان، وليست كما توقعت يحدق بها، تحركت لتبدو قريبة منه، واعترفت في لطف: تسلم، مكوثش هاعرف أقفله لوحدي.

قابل اعترافها العادي بآخر نزق وهو يتجراً على إدارة وجهه للنظر إليها:
أنا موجود عشانك ...

تدارك زلة لسانه، وصحح بتلثم لا يعلم كيف يصيبه في وجودها:

قصدي عشان لو احتاجتوا هنا حاجة.

ابتسمت وهي ترد:

-شكرا ليك، دايماً تعبينك معانا.

قال في حماس دون أن يحيد بنظراته الوالهة عنها:

-إنتي أؤمري بس.

هذه النظرات التي يمنحها لها كانت من نوع خاص، ليست عابرة، ولا شهوانية جائعة، بها شيء ما دوماً ينفذ إليها بغرابة، فيضاعف من إحساسها بصدق ما يتلفظ به دوماً. تحولت أنظارها نحو الشرفة عندما نادى "آمنة" عالياً:

-يا "فيروزة"، التندة شكلها هتطير.

تلقائياً اندفع "تميم" نحو البلكون ليسبقها قبل أن تصل إلى والدتها، وطلب منها في صرامة:

-ارجعي لورا شوية يا حاجة.

كومة من الغسيل المبتل تكونت على الأرضية الزلقة، بعد أن نجحت في جمع الثياب قبل أن تفقدها، انحنى لتعلم ما تناثر بمعاونة "فيروزة"

و"رقية"، في حين قام "تميم" بسحب المظلة للأعلى وجمعها بقوة واضحة كانت حقًا لتعجز الاثنتان عن فعل ذلك مثله.

دقائق وأصبح الوضع بداخل المنزل على ما يرام، حقًا كان وجوده في مثل هذا التوقيت الحرج ذي فائدة كبيرة لأهل المنزل. أصرت "آمنة" على إكرام ضيفها بسخاءٍ، فألحت عليه قائلة:

-لازم تفضل معنا للغدا، ما يصحش تنزل كده بعد التعب ده كله.

اعتذر بهذيب:

تعب إيه بس، دي حاجة بسيطة، أنا معملتش حاجة، نخليها مرة ثانية. مع كلماته الأخيرة كان ينظر في اتجاه "فيروزة"، ولحسن حظه كانت تتطلع إليه، فجعلت داخله يخفق في ربكةٍ لذيذة. باعد أنظاره عنها ليحدق في وجه "آمنة" عندما خاطبته:

-أنا عارفة إن أكلي مش زي الحاجة والدتك، بس هيعجبك إن شاء الله.

رد "تميم" بخرج:

-ما تقوليش كده، ده على عيني وراسي، بس معلش عشان مش عامل حساي، وورايا شوية أشغال ..

ادعى تطلعه في شاشة هاتفه المحمول لينظر إلى الوقت، واختتم جملته:

ده أنا يدوب أمشي.

اعترضت "آمنة" في حزنٍ طفيف:

على طول كده؟

هتف مجاملاً:

-ربنا يجعله عامر بحسكم ...

تشجع لينظر من جديد في وجه فيروزته، وسألها:

مش عايزة حاجة يا أبله؟ الورق كله بتاع المحل عندك، لو نقص عليكي

حاجة عرفيني، واحنا نكلم المحامي يخلصه.

اتضح سبب مجيئه لزيارتهم في المنزل، والذي لم تتمكن من معرفته في البداية

نظرًا لانشغال الجميع في تأمين البيت من تبعات حالة عدم استقرار الطقس.

لم تكذب عيناه حينما رآها تبتسم في رقةٍ وهي تشكره:

تعبناك معانا، إن شاء الله ترتاح مننا الفترة الجاية.

رغم عفوية جملتها إلا أنها أشعرته بالضيق، وهتف محتجًا باندفاع طفيف:

-لا متقوليش كده، إتي بس شاوري واللي نفسك فيه هيحصل.

حافظت على ثبات بسمتها الطبيعية، وأومأت له برأسها في خفة، فتابع

مخاطبًا "آمنة" بعد نحنة بسيطة:

عن إذنك بقي يا حاجة.

بدأ يتحرك في اتجاه الباب، وعبارات الدعاء تسبقه، توقف لمرة أخيرة عند أعتابه يلتقي نظرة على من تزيد من نبض الفؤاد، وتنعش فيه الرغبة في الحياة، رفع يده ملوحًا بالوداع، ووجهها المبتسم لا يفارق مخيلته.

-والله ما في زيه في الزمن ده.

رددت "آمنة" تلك العبارة المادحة وهي تعاود أدراجها تجاه كومة الثياب التي وضعتها على الأريكة، وافقتها "فيروزة" الرأي، وزادت عليها في تلقائية جعلتها تتعجب من نفسها:

-ده حقيقي، مافيش مرة اتأخر عن الواحد فيها سواء قال كده أو لا.

تصلبت قليلاً باندهاش بعد أن انتهت لما تلفظت به من وصفٍ لصفاتٍ طيبة متأصلة به، وتطلعت إلى والدتها تراقب ردة فعلها، توقعت أن تسألها عنه؛ لكن على ما يبدو كانت مشغولة بتقسيم الثياب ما بين جافة، وشبه مبتلة، ومبتلة. سحبت شهيقةً عميقًا، وقالت وهي تنسحب:

-أنا هبص على الورق اللي بعته المحامي، وأشوف "كوكي" بتعمل إيه في الأوضة.

علقت عليها "آمنة" بوجهٍ منكب على ما في يدها:

ماشي يا حبيتي.

وسيلة مناسبة للهروب من التفكير الغريب الذي شاب عقلها، والالتقاء
بشيء غير استحضار مواقفه الشهمة في ذهنها.

.....

للحب صنوف وأصناف، تظهر حينما يهيم العاشق على وجهه في وادي
الغرام، يبحث عن الوجد بين طيات الفؤاد، وحين يجده، لا يجعله يبارح ما
بين يديه مهما كانت الصعاب. ظل قلبه يخفق في حاس متقد طوال هبوطه
على الدرجات، أمنيته البسيطة تحولت لذكرى عظيمة، آثارها ستلازمه
كنوع من السلوى لبضعة أيام. خرج "تميم" من البناية، وسار على الرصيف
وقد بدأت الأمطار بالهطول، أخفض رأسه ليحتمي من الزخزات الهابطة
عليها، ودار بعينه يمينًا ويسارًا يتفقد المارة.

لمح سيدة كبيرة، تقف على الرصيف في منتصف الطريق بين الضفتين،
تحاول العبور مع كم الأكياس التي تحملها، لم يتردد في مساعدتها، وأسرع
ناحيها يسألها:

حاجة مساعدة يا حاجة؟

أجابته بأنفاس شبه لاهثة:

يخليك يا ابني ساعدني أروح الناحية الثانية، الشنط ثقيلة وآ...

لم تكمل طلبها، حيث تناول عنها كل الأكياس، وطلب منها التأبط على ذراعه لتستند عليه، ورغم خطواتها البطيئة إلا أنه بدا صبورًا للغاية، ولم يتعجل سيرها، تأكد من إيصالها لوجهتها المنشودة، فدعت له في صدق:

-ربنا يجازيك خير يا ابني ويعوضك بالحلال.

تسلمي يا حاجة.

قالها وهو يومئ برأسه عائداً إلى الجهة المقابلة، لا يعلم أن جزاء معروفه الطيب كان النجاة من لوح معدني سقط بغتة على بُعد عدة خطوات منه، إن لم يكن قد ذهب وساعد تلك السيدة، لربما هشم رأسه. تسمر في مكانه مذهولاً، وحملق في التدمير الذي أحدثه في البلاطات الحجرية مردداً:

-لطفك يا رب.

التفت برأسه للجانب، حيث ترك السيدة، لم يجدها، فعاد للتحديق مجدداً في اللوح المكسور هاتفاً بقلب ينبض بقوة:

-إنت المنجي يا رب.

جاء من خلفه أحد الغرباء يسأله:

-حصلك حاجة؟

هز رأسه بالنفي، فتابع الغريب كلامه:

-إنت فلت بأعجوبة الحمد لله.

لهج لسان "تميم" بالشكر دون انقطاع حتى ركب سيارته، وتحرك بها وهو يكاد لا يصدق ما حدث لتوه!

.....

استغل تجمع العائلة على مائدة الطعام ليقص عليهم ما وقع معه من حادث غريب، نجا منه بفضل الله ورعايته. انقبض قلب "ونيسة" ونهضت عن مقعدها لتلف حول الطاولة، وتتنظر إلى ابنها بعينين فاحصتين كأنما تضعه تحت جهاز الأشعة لتتفقد ما لحق به من ضرر، استنكر ما تفعله قائلاً بمرح متذمر:

-يامه أنا كويس والله.

شمלתه بنظراتها أكثر، وعاتبته بغريزة أمومية:

مكانش ليه لازمة النزول من أول اليوم وهو وحش كده.

علق عليها الجد قبل أن يضع ملعقة الطعام في جوفه:

-لا يمنع حذر من قدر، سببها على الله، احنا ندعي إن ربنا يحفظه.

أوماً "تميم" إيجاباً مستحسنًا رأييه وهو يرد:

-صح يا جدي.

بينما أضاف "بدير" مُشيدًا بحُسن أخلاقه:

ما هو اللي يعمل خير يلاقي خير.

التفت نحو أبيه مؤيدًا إياه كذلك:

مضبوط.

رجعت "وينسة" إلى مقعدها ولسانها يدعو له:

ربنا يوقفك ولاد الحلال زي ما بتقف مع الغريب قبل القريب.

ضحكت "هاجر" قائلة وهي تهدد رضيعها:

-أيوه يامه ادعيله وباب السما مفتوح دلوقتي.

احتج عليها "سلطان" بنوع من الدعابة:

ليه هي كانت قافلة قبل كده؟ ادعوا ربنا في أي وقت، وهو -سبحانه-

عليه الاستجابة.

قال "تميم" مبتسمًا:

-ونعم بالله ...

ثم أخفض صوته مكملاً باقي عبارته، وتلك اللمعة الخفيفة تتراقص في عينيه:

أنا عارف كويس هدعي يايه.

عم الصمت من جديد إلا من أصوات ملامسة المعالق للصحون. لفت
"ونيسة" الانتباه إليها عندما تشدقت قائلة بترددٍ طفيف، مخاطبة زوجها:
يا حاج، ممكن بعد إذنك .. آ.. تخلي "سراج" يجي يتكلم مع بنتنا الأول،
ده لو ميضايكش.

اختلج وجه "هاجر" حمرة حرجة للغاية من نزق حديثها، وكزت على
أسنانها تلوم والدتها في خجلٍ منزع:

يامه! هو احنا اتفقنا على كده؟ مش قولتي هتكلميه على جنب؟

استدارت تنظر إليها، وبررت تصرفها:

ما مسير الكل يعرف، هي دي حاجة تستخبي؟

أنهى "بدير" جدالهما قبل أن يبدأ بقوله الحاسم:

حاضر، هخليه يجي عندنا في الصالون، و"هاجر" تكلم معاه وتشوف
دماغه، وبأقولك من تاني اعملي اللي يريحك، مش مفروض عليك حاجة.

حاولت أن تبسم لتخفي حرجها، وقالت بتعجل:

متشكرة يابا.

هتفت "ونيسة" برجاء، وعيناها تنظران للأعلى:

-ربنا يجعل الفرح يدق بابنا.

أمن عليها الجد "سلطان" وهو يدير وجهه ناحية حفيده:

-يا رب.

بدا وكأنه المقصود بدعائه، فمحم "تميم" متسائلاً بتلك خفيف:

-بتبصلي ليه يا جدي؟

رد عليه "سلطان" بتعابير جادة، وبنبرة جمعت بين الحزم والمرح:

عاجبني أبخلق هنا، عندك مانع؟

أحنى حفيده رأسه على جانبه من الطاولة، وقال وهو يسحب بمعلقته قدرًا من الأرز:

براحتك يا سيد الناس.

.....

في غفلة منه، سرق المفتاح الاحتياطي لمنزل عمه، ليتمكن من التسلل إليه، في أول فرصة سنحت له بعد تعافيه قليلاً من آثار الاعتداء الأخير أمام باحة منزله. تجول "فضل" بخطوات شبه عرجاء في اليهو المعتم، لم ينر أي مصاييح حتى لا يثير الريبة، استعان بالإضاءة المنبعثة من هاتفه المحمول ليرى على أثرها. ما زالت ذاكرته تحتفظ بوصف للمنزل من الداخل رغم قلة

عدد مرات زيارته، اتجه نحو الردهة التي احتوت ثلاث غرف نوم؛ واحدة للأبوين، وأخرى للابنتين، وثالثة لمن يأتي من الضيوف. وضع يده على مقبض غرفة النوم، تلك التي يعلم أنها تخصها، كانت غير موصودة، فوج إليها دون عناء وهو يُحدث نفسه:

-شكلها متسهلة.

مرر ضوء الهاتف على الأثاث القديم بروية، إلى أن توقف عند الدولاب المجاور للنافذة؛ كان مكوناً من ضلفتين صغيرتين على الجانب، يفصل بينهما ضلفة كبيرة نسبياً، تلك التي تتدلى فيها الثياب المعلقة. تحرك في اتجاهه قاصداً فتحه، نظر في محتويات الضلفة الأولى الصغيرة، كانت تضم بعض الأغذية، والملاءات النظيفة، بالإضافة إلى عددٍ من المناشف القطنية المرتبة في صفين متجاورين، دقق النظر في الصورة المثبتة من الخلف، كانت لـ "همسة"، لوى ثغره قائلاً بامتعاض:

-إنتي متلزمينش.

انتقل للضلفة الأخرى الموجودة في المنتصف، ضمت بعض المعاطف الثقيلة، والمزيد من أغذية الوسائد، غمغم في سخط:
-حاطين هلاهيل هنا؟ إيه القرف ده.

أغلق الضلفة، وعيناه تحديق في الأخيرة، فتحها ونظر بتفحص لما احتوته،
تأكد أولاً من أنها تعود لـ "فيروزة"، فصورتها القديمة وهي في سنٍ أصغر
كانت مثبتة بشريط لاصق على ظهر الضلفة، انتزعها من مكانها، وطواها
ليضعها في جيبه، ثم أكمل تفتيشه الودع بتأنٍ. وجد على الرف العلوي ضالته
المنشودة، قطعة مهمة من ثيابها الداخلية، والمصنوعة من قماش الداتيل،
ربما قد تركتها لعدم حاجتها إليها؛ لكنها كانت غايته لتنفيذ مطلب ذلك
المشعوذ الذي لجأ إليه. ابتسامة خبيثة برزت على ثغره وهو يرفعها نصب
عينيه ليتأمل لونها الأخضر، توعدها بعينين تتوهجان بطريقة شيطانية:

-استني الخراب اللي هيجل على دماغك !!

الفصل مائة وثمانية عشر

كيسًا بلاستيكيًا أخرجه من جيبه ليدس فيه قطعة الثياب التحتية، ثم أمسك باللفافة بيده، وأغلق الضلفة، وشعوره بالانتشاء مضاعف عن ذي قبل. خرج "فضل" مثلما جاء كاللصوص، تلفت حوله ليضمن عدم رؤية أحدهم له، ومشى مشية العرج عائدًا إلى منزله لئلا يثير الريبة. استوقفه رنين هاتفه المحمول، فتطلع إلى شاشته بعد أن استله من جيب قميصه، قرأ اسم والدته عليه، فأجاب على اتصالها ببرود:

حائزة إيه يامه؟

سمع صوتها عصبياً إلى حد ما وهي تسأله:

إنت اختفيت فين يا "فضل"؟ روح أطل عليك في الأوضة ملاقتكش.

علق عليها بفضاضة:

هو أنا لازم أدكي خط سيري قبل ما أخرج؟ عيل بريالة عشان تقلقي عليا؟

أخبرته باستياء سمعه في نبرتها:

ما إنت عارف أبوك منبه علينا بعد اللي حصل، ماتتحرکش إلا بأمره.

أحكم قبضته على اللفافة، وكذب في ادعائه:

-اطمني، أنا خرجت أجيب عيش من الطابونة.

سألته بإيجاز:

-ولاقيت؟

التوى ثغره مكملًا باقي كذبه السريع:

-لا .. شطبوا.

ردت عليه في ضيق:

حطب تعالى أوام، قبل ما الجو يقلب بزيادة، دي غير إني مش ناقصة أخذ

كلمتين في جنائي بسببك.

نفخ قبل أن يقول منهيًا المكالمة:

حطيب، جاي.

أغلق معها الاتصال، وأجرى آخرًا أكثر أهمية، بدا حذرًا خافت الصوت

وهو يتساءل:

-أيوه يا شيخ، المطلوب جبته، أعمل إيه ثاني؟

جاءه هسيس صوت يطلب منه:

عدي عليا بكرة آخر النهار، وماتنساش المعلوم عشان تأخذ نتيجة
مضمونة.

اعترض بتبرم:

هو الأسياذ لازماً يقبضوا غالي كده؟ ماتخليهم يحنوا عليا حبتين، ده أنا
على باب الله.

رد عليه الطرف الآخر بوضوح:

خلاص ماترجعش تزعل لو العمل مجابش مفعوله.

على مضض غمغم:

ماشى .. هاجييلك الفلوس مش ناقصة مليم.

قطع الاتصال، وواصل تدمره الساخط بوقاحة أكبر:

حار ونار في جتت أهلك إنت كمان!

.....

حل المساء، وأصبحت الطرقات شبه خاوية من المارة تقريباً، لكون
الطقس ما زال سيئاً، أما الأمطار فلم تتوقف إلا لدقائق، وتعود إلى ما
كانت عليه متوسطة الحدة، وغزيرة في بعض الأحيان. تحدثت "همسة"

هاتفياً مع والدتها، وقالت وهي تجفف الأرضية المبتلة بخرقة قديمة تجرها
بقدمها:

-لأ يا ماما مش هنزل، "هيثم" مش راضي.

استحسنّت "آمنة" بقائها في المنزل بترديدها:

-كده أحسن، إتي مش ناقصة بهدلة، ولا يجيلك دور برد تتعبي بزيادة.

قالت وهي تنحني بحذرٍ لتأتي بالخرقة المبتلة:

-معاك حق، ربنا يكملها بالخير.

أوصتها والدتها كالعادة:

-يا رب يا حبيبتي، قفلي الشبايك كويس، وحطي تحت قديمة تشرب
مياه لو حاجة سربت.

ابتسمت وهي ترد:

-ما أنا عملت كده.

امتدحت حرصها على القيام بواجباتها المنزلية على أكمل وجه:

-ناصحة طول عمرك يا ضنايا.

رفعت "همسة" أنظارها فرأت زوجها يتأهب للنزول، تعجبت من حاله،
وخبرت أمها بتلقائية لتهي الاتصال معها:

حبيب يا ماما، أنا هاقل عشان أشوف "هيثم".

ردت عليه تدعوها:

سلميلي عليه أوي، وأبقي هاتيه وتعالوا قضا يوم معانا، بقالكوا كثير
مجتوش عندنا.

لم تعطها وعدًا، وقالت بجدية:

إن شاء الله .. حاضر، هسأله وأعرفك.

مع السلامة.

مع توديعها لوالدتها تحركت "همسة" نحو الأمام، إلى حيث يقف زوجها أمام
المرأة المثبتة إلى جوار باب البيت، سألته في استغراب:

إنت نازل يا حبيبي؟

أجاب وهو يدس قدميه في حذائه:

أه .. "تميم" كلمني ورايحين الدكان نبص على الحاجة اللي فيه.

لاحقته بسؤالها التالي، وبتعابير تبدو قلقة:

مش إنتو مأمنين على البضاعة؟
التفت ناظرًا إليها، وأجاب بعد زفيرٍ سريع:
-أيوه، بس المطر شديد، والحرص واجب.
كان محققًا في تصرفه الحذر، فأوصته:
خلي بالك من نفسك، وسوق على مهلك، الأرض مزحلقة، والفرامل
هتلاقيها مش أد كده.
ابتسم في حنو، وداعب وجتها بيده وهو يقول:
-بقيتي شاطرة وبتفهمني في العريبات.
قالت بوجهٍ مرتخي التعبيرات:
-لأ دي معلومات على أدي من اللي بقراه على النت.
انخفضت يده لتمسح على بطنها المنتفخ، وقال بنوعٍ من التوصية:
-ماشي يا "هموس"، خدوا بالكم من بعض.
أومأت برأسها قائلة قبل أن تشب على قدميها لتطبع قبلة لطيفة على خده:
-حاضر.

.....

سحبت "آمنة" طرف الملاءة غير المشدود، وحشرته في جانب الفراش لتجعله مستويًا، واستدارت برأسها تخاطب ابنتها التي كانت تحقق في النافذة الموصودة من خلف الزجاج:

-أختك عملت طيب لما أجلت ميعاد الكشف بتاعها.

قالت وهي تنقر بأناملها على الزجاج:

-كانت هتنزل إزاي؟ تبقى تروح في وقت ثاني.

علقت عليها "آمنة" وهي تطوي الغطاء السميك:

-أيوه .. ربنا يفكها، الحبسة وحشة على الناس.

بنفس التعابير المتوترة، والنظرات المسلطة على الطريق الغارق ببرك المياه المتفاوتة في عمقها، استطردت "فيروزة" تكلمها:

-أنا شاغل بالي لو فضلت تمطر كده، إن المياه تسحب جوا المحل، وتبهدل الحاجة اللي رصاها.

سألتها والدتها بحاجبين معقودين:

-هو إنتي مش حطاها على رف عالي؟

أدارت رأسها ناحيتها، وجاوبتها:

-أه، بس مافيش حاجة مضمونة في الجو ده.

لعت شفتيها، وردت:

-ربنا يستر.

تنفست "فيروزة" في عمق، وتابعت تخبر والدتها بنبرة عازمة:

-أقولك إيه يا ماما، أنا هروح أنقل الحاجات لفوق وأرجع بسرعة.

بدت مدهوشة للغاية من قرارها، وسألتها في استهجانٍ مال للرفض:

-يعني هتنزلي في الجو ده؟

أجابت وهي تتحرك في اتجاه الدولاب لتخرج ملابسها منه:

مضطربة .. وبعدين مش هتأخر، هارجع على طول.

احتجت عليها بخوفٍ طبيعي:

يا "فيروزة" في خطر عليكى وآ..

قاطعتها بحسم معللة أسبابها:

-اطمني، مسافة السكة، مافيش حد هيفاف على مصلحتي أدى.

جاءت من خلفها توصيها:

مش عارفة أقولك إيه، خلي بالك، وامشي بعيد عن عمدان النور.

ألقت "فيروزة" بثيابها على الفراش، وردت بهزة بسيطة من رأسها:

-تمام.

.....

سلط كشف هاتفه المحمول على تلك البقعة المعتمة من الدكان، ليتأكد من عدم تسرب المياه عبر الشقوق إلى مفاتيح الكهرباء الخاصة بثلاجة الفاكهة الكبيرة، الموجودة في مؤخرة المكان، تأكد من سلامة الوصلات، ومن جفاف الحائط قبل أن يعاود أدراجه نحو "تميم" الذي كان مشغولاً بإزاحة المياه التي تسيل لمنتصف الدكان، نتيجة انسداد معظم بالوعات الشارع وامتلأها بمياه الأمطار. سأله الأخير بملامحه الجادة:

-بصيت على لوحة الكهرباء؟ مافيش عليها مياه؟

رد "هيثم" مؤكداً وهو يضع الهاتف في جيبه:

-أيوه شوفتها، مافيش فيها حاجة.

قال وهو لا يزال يحرف المياه للمدخل:

-زي الفل، بدل ما يحصل ماس وتعملنا قفلة، وساعتها لا قدر الله هتقلب بكارثة.

رد عليه مستخدماً يده في الإشارة نحو الخلف:

-ربنا يستر، بس الحتة اللي ورا عاوزة تتوضب، البوهية قشرت في ساعتها.

أعطاه السبب المنطقي لحدوث ذلك عندما علق عليه:
من الرطوبة، ما إنت عارف، هنكلم النقاش يشوفلنا علاج ليها.
أحضر "هيثم" ممسحة من الجانب، وقال وهو يمد يد العون:
-يكون أحسن.

تابع ابن خالته يأمره في جدية وهو يشير نحو كومة من الأخشاب:
سيبك إنت من ده، وخط ألواح الخشب دي هنا، خليها تحجز المياه
شوية، بدل ما تسرق جوا الدكان أكثر.

ظهر التردد على محياه وهو يشاوره في الأمر:
تفتكر هتنفع؟ البلاعات مسدودة، والبحر كمان عالي، مش ملاحقين.
رد دون تفكير:

محدثش كان عامل حسابه إنه هيحصل كده، خلينا نأمن على حاجتنا.
لم يجادله كثيرًا، واتجه إلى حيث توجد الأخشاب مرددًا:
ماشى الكلام.

.....

ما يزيد عن الساعة تقريبًا- من العمل المتواصل لبناء سدٍ مؤقت من الأخشاب عند منتصف المسافة من مدخل الدكان وحتى نهايته، لضمان احتجاز المياه قبل أن تمتد لبقية المكان، حيث تتراص أقفاص البضاعة المليئة بالثمار. نجح كلاهما في نزع المياه حتى المدخل، وتشكيل حاجز أولي كزيادة في التأمين. اعتدل "هيثم" واقفًا، وقال وهو يضع يديه أعلى منتصف خصره:

لو فضل الوضع كده الحتة كلها هتتهدل، محدش هيعرف لا يطلع ولا ينزل.

مسح "تيم" المنطقة المحيطة بدكانه، وقال بتعابير منهكة قليلاً:
-الله أعلم ببقية الدكاكين والمحلات، بس احنا عملنا اللي علينا.
علق "هيثم" مازحًا:

-كويس إنها ما يتمطرش كل يوم، كان زمانا رايحين الشغل بفلوكة.
استساغ استظرافه، وشاركه قائلاً:
-لأ وبالعوامات الكاوتش، هايبقى شكلنا مهزق أوي.
قهقه ضاحكًا قبل أن يضيف:

حامين في بحر الغدر.

أشار له "تميم" بيده قائلاً بصيغة شبه أمرة:

حط يالا بينا، خلينا نلحق نروح.

رد عليه وهو يخرج من جيبه هاتفه الذي بدأ في الرنين:

ماشي الكلام...

أجاب "هيثم" على اتصال زوجته يُعلمها:

-أيوه يا "همسة"، احنا خلصنا، وراجعين في الطريق.

صمت للحظات ليصغي إليها قبل أن يرد بتعابير لم تكن مرتخية:

ماشي حاضر، هاشوفها.

انتظره "تميم" في السيارة حتى يتهيأ مكالمته دون مقاطعة منه، وما إن

استقر إلى جواره حتى طلب منه "هيثم" بتعابير شبه متذمرة:

معلش يا "تميم" عايزين نطلع على محل أخت "همسة" نبص عليها هناك.

تلقائياً ردد لسانه في لهفة، وذلك الوميض المهتم يلمع في حدقتيه:

-الأبلة، مالها؟

أجابه بزفيرٍ منهك:

موجودة هناك، بتعمل زي ما احنا عملنا في الدكان ...

وليضمن "هيثم" عدم اعتراضه لاحق بالقول:

معلش فيها شوية عطلة لينا.

لم يكن ممانعًا على الإطلاق من فعل أي شيء يخصها، بل على العكس ظهرت آثار سعادته لرؤيتها -لمرة ثانية في نفس اليوم- على تعابير وجهه؛ كأنما أشرقت وتوهجت بفعل تأثير الحب. تصنع "تميم" الجدية، وأخبره بعد نحنة خشنة وهو يقود سيارته في اتجاه دكانها:
-لأ يا سيدي عادي، هو احنا ورانا حاجة.

.....

بعض المساعدة قد تفيد كثيرًا في مواقف بعينها، خاصة تلك التي تتطلب مجهودًا عضليًا زائدًا. كانت "فيروزة" بين الفنية والأخرى تتوقف لتستريح بعد أن قامت بمفردها بنقل معظم ما رصته على الأرفف السفلى، وجمعه في مكان واحد بترتيب متسق، ليسهل عليها إعادته لاحقًا في مكانه بعد أن تنتهي تلك الأزمة. انتفضت في فزع عندما سمعت صوتًا يُلقى عليها التحية:
سلام عليكم.

التفتت دفعة واحدة لتجد "هيثم" عند الأعتاب، لم تتوقع وجوده في هذا التوقيت، وضعت يدها على صدرها الناهج لتهدئه من تأثير الخضة المبالغته، ثم خاطبته بعد أن سحبت شهيقاً عميقاً:

هو إنت، إزيك يا "هيثم"؟ و"همسة" عاملة إيه؟

سألها وهو يدور بنظراته في دكانها؛ كأنما يتفقد الضرر الواقع عليها:

الحمد لله هي بخير، إيه الأخبار عندك؟

أخبرته ببساطة وهي تشير بيديها للرفوف الخاوية:

-زي ما إنت شايف، كل حاجة متبهدة، والخشب شرب مياه لما قال يا بس.

تحولت أنظارها عنه لتحقق في ذاك الذي جاء من خلفه يُحييها بخرج وهو ينظر إليها ملء عينيه:

مساءك فل يا أبله.

تفاجأت من وجوده هو الآخر، وردت بتعابيرٍ ما زالت تعكس دهشتها:

مساء النور يا معلم.

تقدم ناحيتها محاولاً أن يبدو غير مهتر الصوت وهو يُكلمها:

لو أعرف إنك هنا ..

عدّل سريعاً من كلامه ليتابع بحذرٍ وهو يدير أنظاره في اتجاه ابن خالته:
-قصدي عندنا خبر إنك موجودة كنا جينا وساعدناكي من بدري.
امتدت يدها لتضبط مقدمة حجاب رأسها، وردت بعفوية:
-أنا مقولتش لحد، أكيد ماما كلمت "همسة"، وعرفتها، صح؟
كانت تنظر وهي تحتتم جملتها بصيغة تساؤلية في اتجاه "هيثم" الذي أكد
صحة تخمينها بقوله:
-أيوه.

حمم "تميم" معقباً وهو يوزع نظراته بتساوٍ بين الاثنين، لئلا يرتاب ابن
خالته في أمر اهتمامه الزائد بها:
-معظم الناس هتلاقها نزلت تطل على محلاتها، زيك كده.
تحركت "فيروزة" عائدة إلى المسند الزجاجي، ووضعت عليه قطعتين من
مستلزمات السبوع، وتحدثت إليهما في جدية:
-عمومًا أنا قربت أخلص.
لحق بخطواتها ليلح عليها:
-ارتاحي إنتي، شوفي عايزانا نعمل إيه.

استدارتها كانت سريعة وفي مواجهته، بمسافة لا تتجاوز خطوة، التقت فيها نظراته التي تفيض عشقًا بها، بعينها اللاتين تتطالعانه في اهتمام تعجبت منه؛ كأنما تحاول رؤيته من منظور آخر غير المعتادة عليه، سرعان ما تداركت تحديقها فيه، وتخرجت من اقترابها غير المقصود منه، لذا تراجعت مشتتة نظراتها عنه وهي تقول:

-أنا مش عايزاكم تلخبطوا الي عملته.

مثلها تراجعت لبضعة خطوات؛ مخفضًا نظراته في ارتباكٍ محبب إليه، وقال وهو ينظر بتمعن للأرفف، كأنما يفتش عن شيءٍ نسيت حمله:

-ماشي يا أبله.

انتفضت "فيروزه" في ارتعابٍ مع الصوت القوي الذي انتشر- في الأجواء، كدويٍ عظيم، من تلقاء نفسه فسر "هيثم" سبب حدوثه:

-السما بترعد برا جامد.

ردت وهي ترتجف قليلًا:

-ربنا يعديها على خير.

دنا "تميم" من ابن خالته رافعًا بصره للأعلى وهو يغمغم:

-شكلها ليلة فل.

تحدث "هيثم" في لهجة سريعة متوجسة، وهو يشير بيده للأمام:
-ألق يا "تميم"، لوحة الكهرباء الي جنب دكان الحاج "هنداوي" بتقطع.
اتجهت أنظاره إلى حيث أشار، وهتف على الفور وقد رأى شرارات متتابعة
مصحوبة بصوت متقطع تنبعث من اللوح الكهربائي:
-ده كده فيها ماس، معاك رقمه نكلمه؟
رد وهو يعبث بأزرار هاتفه:
-أيوه.

التفت "تميم" برأسه يأمر "فيروزة" التي وقفت إلى جواره لتتأمل بفضول إلى
ما يحدث:

-أفصلي الكهرباء عن محلك احتياطي.

همت بالاعتراض عليه:

-بس كده آ...

قاطعها في صرامة:

-اسمعي الكلام، فين مكانه عندك؟

هزت رأسها في طاعة، واتجهت إلى الحائط الموجود به اللوح، لتفصل القابس المغزي للكهرباء في دكانها؛ لكنه سبقها في خطواته، وامتدت يده قبلها لتقوم بتلك المهمة، تطلعت إليه في غرابة؛ لكنها زادت مع سؤاله:

في لوح خشب هنا عندك؟

هزت كتفها متسائلة:

مش عارفة، بس إنت عايزه ليه؟

أجابها وهو يدور بعينه باحثًا بين الأرفف عن قطعة يسهل استخدامها: هتنزل بيه سكينه العمومي بتاعه، لحد ما يتصرف.

وجد ضالته، وأسرع للخارج؛ لكنها استوقفته بخوفٍ كان طبيعيًا:

خلي بالك، الكهرباء مافيهاش هزار.

أدار رأسه لينظر إليها بوجهٍ بشوش، وقال بدلالة معينة لم يتفقه لها ذهنها بعد:

-الأعمار بيد الله، ولو الواحد قابل وجه كريم دلوقتي هيبقى راضي ومبسوط.

أوصته رغم ذلك:

-خذ بالك برضوه، الحرص واجب.

اتسعت ابتسامته بعذوبة شديدة - كأنما فاز بكامل حظ الدنيا- مع تلك
الوصية الغالية، وقال بقلبٍ يرفرف في سرور وابتهاج:
ماشي كلامك يا أبله !!

.....



الفصل مائة وتسعة عشر

فعل الخيرات، لا يحتاج إلى لحظة من التردد للإقدام عليه، وإنما هي سمة متأصلة غرزت في النفس منذ الصغر، تعود صاحبها على القيام بها أينما تطلب منه هذا دون أن يشعر بالندم، كما أنه لا ينتظر عبارات الشناء عليها. تحرك "تميم" باللوح الخشبي الجاف - بخطوات سريعة- متجهًا إلى حيث تنبعث شرارات الكهرباء من الأسلاك العارية، ومن خلفه جاء "هيثم"، وعلى مسافة لا تبعد نسيًا عنهما وقفت "فيروزة" تراقب المشهد بقلب شبه وجل، فإظهار البطولة في بعض المواقف قد تودي بحياتك في الأخير، فكيف له أن يضحي بحياته هكذا ببساطة لأناس لا تجمعهم به أدنى صلة؟! كتلة من اللهب اندفعت مرة واحدة جعلت "تميم" يتراجع تلقائيًا للخلف لينأى بنفسه من الخطر، ويحمي وجهه من الشرارات الحارقة، حذره "هيثم" بتوجس، وهو يضع يده على كتفه:

خذ بالك.

رد في قلق لم يخفه:

-ربنا يستر ...

حاول مد اللوح الخشبي نحو مفاتيح الكهرباء لفصل التيار عنها وهو يتساءل:

-كلمت الحاج هنداي؟

أجابه ابن خالته، وعينه تركزان على ما يفعله:

-أه، ونازل من فوق.

طقطقات أكثر حدة أجبرتها على اتخاذ خطوتين للخلف، صاح خلالها
"هيثم" محذراً بجزع:

-حاسب.

بكفين مضمومين إلى صدرها، اشأبت "فيروزة" بعنقها محاولة رؤية ما
يحدث في الأمام، شعرت بخوف غريزي يتسرب إلى بدننها كلما ارتفع صوت
الطقطقات الخفيف؛ فتابعة الموقف وهي في قلب الحدث، يختلف كلياً عن
سماعه كقصة عابرة وسط ثثرة عادية. ركزت كامل انتباهه عليه، وانزلق
لسانها يدعو له سراً:

-ربنا يسترها عليه.

بالكاد نجح "تميم" في إخفاض أول مفتاح ليفصل عنه التيار الكهربائي،
وخاطب ابن خالته:

-لسه السكنينة الثانية.

حذره ابن خالته من جديد وهو يضغط بيده على كتفه:

خلي بالك.

نظر إليه "تميم" قائلاً بتبرم:

إنت موترني على فكرة.

أبعد "هيثم" يده عنه، ورفعها للأعلى كتعبير عن عدم إزعاجه له، فواصل الأول عمله بحرص شديد، ونجح في إخفاض المفتاح الآخر ليصبح اللوح بلا أي خطورة. تهد "تميم" في ارتياح، ولهج لسانه شاكراً:

-الحمد لله، ربنا سترها، ولحقناها.

وضع "هيثم" يده على صدره قائلاً بزفير طوي:

-ربنا كريم.

تساءلت "فيروزة" من خلفها في توتر:

إيه الأخبار؟

استدار "تميم" برأسه ليواجهه، وقال وبين شفثيه ابتسامة عذبة:

-اطمني، عدت على خير.

رأى البسمة تزين محياها وهي تطرد الهواء من رثتها في ارتياح مرعدة

بصوت مرتخي سمعه:

الحمد لله.

تحولت الأنظار نحو الرجل الخمسيني الذي خرج من باب جانبي للبنية
القصيرة يتساءل في لهفة قلق، وهو يلف جسده بقفطانه البني:

خير يا ولاد؟ حصل إيه؟

أجابه "هيم" أولاً بوجه متقلص في عضلاته:

كان في ماس هيجصل لولا ستر ربنا.

جحظت عينا الرجل، فحاول "تميم" طمأنته:

اطمن يا حاج "هنداوي"، فصلنا الكهرا خلاص، والدنيا أمان.

تنفس الأخير الصعداء، وشكره بتعابير عبرت عن امتنانه العظيم:

ده من لطف ربنا إنك موجود، بالله كان زمان النار قادت في الحتة كلها،
ما هو معظم البيوت هنا خشب، ولا كان حد هيدري ولا يحس إلا بعد
خراب مالطة.

علق "تميم" في سرور:

ده من رحمة ربنا بينا.

ربت الحاج "هنداوي" على جانب ذراعه مردداً بحبور:

-ربنا يجازيك خير عننا.

خاطبه "هيم" بلهجة مالت للجديّة:

هاتوا كهربائي يظبط اللوح ويقفله بدل ما هو مكشوف كده.

استدار برأسه ناحيته ليوجه كلامه إليه:

من زمان وأنا عايز أعمله، بس بأتلخ في حاجات كثير، وأنسى.

أضاف "تميم" بابتسامة صغيرة:

-أهوو جت الفرصة اللي يتعمل فيها.

هتف يؤكد عليه دون إعادة تفكير:

من النجمة بأمر الله هيحصل.

لحظات وكان بعض الجيران قد هبطوا من منازلهم لرؤية ما يحدث بعد أن استقرت الأوضاع، وخف تساقط الأمطار. تركهم "تميم" مع ابن خالته يحكي لهم بإيجاز عن بطولتهم في نجدة الزقاق بمن فيه، وعاد إلى مهجة الفؤاد التي لم تتوقف عن منحه ابتسامة أقل ما يقال عنها أنها كالبدور في تمامه، امتدحت سرعة بديهيته ومهاراته العضلية قائلة:

-برافو عليك، بتعرف تتصرف في المواقف اللي زي دي.

بإشراقة كانت لتراها عظيمة على وجهه لولا العتمة السائدة في المكان حادتها
بجمايس:

-الواحد ياما شاف، وخذ خبرة من اللي سبقوه.

تنحت للجانب ليتمكن من العودة إلى داخل دكانها، وإعادة اللوح الخشبي
الذي اقترضه في مكانه، تبعته في هدوء، وسألته بفضول ما زال يراودها من
حين لآخر:

-إنت بتعمل ليه كده؟

التفت ببطء ليتطلع إليها مليًا بنظراتٍ جاهد ألا تكون كاشفة لأمره، قبل
أن يرد عليها متسائلًا:

-بعمل إيه؟

أجابته بعد زفيرٍ سريع:

-بتساعد غيرك قبل ما يطلب حتى ده منك.

ابتسم وهو يجاوبها:

عشان بحب كده.

انقشعت المسافة ما بين حاجبيها، وقالت بما يشبه الاستهجان؛ كأنما
تستحضر في ذهنها مواقف عشوائية من انعدام الرجولة معها:

-مش كل الناس زيك.

نظر إليها بغرابة، فأكملت موضحة:

-إنت حالة فريدة.

سألها بتوجيس طفيف:

-وده حلو ولا وحش؟

جاءه ردها محايدًا عندما ردت:

-يعني أفكر إنه على حسب تقدير اللي قصادك.

لم ينكر "تميم" أنه كان في قمة استمتاعه بحديثه المطول معها، بدا وكأنه يجالسها في جلسة رومانسية على أضواء الشموع الخافتة، ووسط بتلات الزهور الناضجة، ودَّ لو دام الحال لفترة من الزمن دون أن يقاطعهما أحد. انتبه لإطالته في نظراته الشاردة على معالم وجهها، وعلق عليها على مهلي:

-مش مهم عندي يقدر ولا لا، كل اللي بيبقى فارق معايا إني أعمل الصح واللي مقتنع بيه.

شعر بلمحة من الاستنكار في صوتها وهي تعقب:

-بس اعذرني اللي زيك بقوا قليلين أوي.

كان تعليقه تلقائيًا ومندفعًا:

-كفاية إني فريد في نظرك ..

رفعت حاجبها للأعلى في دهشة، ورأى تأثير كلامه العفوي على توتر ملامحها، ثم عدل من مقصده قائلاً:

-يعني بتعامل بأخلاقي الحلوة دي مع الكل.

اكتفت بالإيماء برأسها، فحاول أن يغطي على هفوات لسانه المتكررة بتغيير مجرى الحوار، فاستطرد يخبرها:

-وعلى فكرة محلك بقى شكله عظيمة أوي، إن شاء الله يكون فاتحة خير عليكى وعلينا ...

خشي أن يُساء تفسير فلتة غادرة من لسانه الأهوج، لذا صحح لها من جديد:

-وعلى الكل أقصد..

تنحى بعدها بصوت خشن ليسألها:

-إنتي خلصتي؟ ولا إيه نظامك؟

أجابته بهزة مؤكدة من رأسها:

-أيوه ..

أشار لها بيده وهو يتحرك نحو الخارج قائلاً بلهجة بدت آمرة:

حبيب تعالي معانا نرجعك البيت، مايصحش تمشي والطريق متبهدل كله.

اعتذرت منه بلامح جادة:

مالوش لازمة، دي الحكاية كلها خطوتين.

التفت يرمقها بنظرة جمعت بين الرجاء واللطافة قبل أن يصر عليها:

مش هاقبل ترفضني، أنا مستني برا.

تحرك مجددًا فاستوقفته بندائها:

معلم "تميم"!

صوتها الناعم المنادي باسمه هكذا في لهفة، جعل الدماء تتدفق في شرايينه

ليخفق قلبه، كأنما تهلل في سعادة لأنها اختصته بذاته بمنحة مميزة فريدة

بنطق حروف اسمه. التفت كليًا ليواجهها بتعابير يغلفها مسحات من

السرور، حمم متسائلًا:

أيوه.

دنت منه حتى أصبحت على بعد خطوة، عند أعتاب باب محلها. وقف

كلاهما يتطلعان إلى بعضهما البعض في صمتٍ لحظي، قطعتة بإخباره

بابتسامة منمقة، مصحوبة بنظرة كانت واثقًا أنها دافئة، بل ورجا من الله أن

تدوم للأبد:

-شكرا على كل حاجة.

عجز عن الرد، كأن الكلمات فرت من بين شفثيه، أمام هالة البهاء التي تخدر بها حواسه، كلما أصبح قريبًا منها، وبات في محيط تأثيرها القوي. غادرت المكان ولم تغادر فؤاده، وإنما تربعت منذ اللحظة الأولى لانطلاق جذوة الحب على عرشه، واستقرت في قرارٍ مكين.

.....

جلس ثلاثتهم في السيارة، وبدأ "تميم" يشق طريقه متقدمًا نحو الشارع الرئيسي بسرعة شبه بطيئة، لكون المنطقة غارقة في بركٍ غير ضحلة من تراكم مياه الأمطار. أخفضت "فيروزة" نظراتها لتحقق فيما تسرب من مياه إلى داخل السيارة، وهتفت تخاطبها في انزعاج:

-مش معقول المياه عالية للدرجادي.

بادر "تميم" بالرد عليها قبل زوج توأمتها مفسرًا سبب تلك الأزمة:

ما هو النوة المرادي شديدة، والبلاعات مش قادرة تقاوم، ده غير منسوب المد بتاع البحر.

علق "هيثم" ساخرًا:

-الناس مش محتاجة تروح البحر، احنا جنبناه لحد عندهم، توصيل للمنازل.

ضحكت على طرفته، ورأها "تميم" من انعكاس مرآته الأمامية، فتضاعفت النبضات الولهة طالبة بالمزيد من الضحكات النضرة. سرعان ما لاحظ تبدل تعبيراتها المسترخية لأخرى شبه حادة وهي تستطرد متسائلة وهي تشير بيدها عبر الزجاج:

هو مين الي متشعبط هناك كده؟

سألها محاولاً النظر إلى حيث أشارت مع متابعتها لقيادة السيارة:
فين؟

أوضحت أكثر بقولها:

هناك، ناحية المواسير دي.

بدت زاوية الرؤية جيدة من ناحية "هيثم" الجالس أمامها، فأطل برأسه مسلطاً نظراته على البقعة المشار إليها، وأردف قائلاً بتخمين:
شكله حرامي.

شهقت "فيروزة" مرددة في صدمة:

معقولة؟

ركز "تميم" بصره نحو منطقة أخرى، لاحظ وجود ما يدعو للريبة، فقد وجد أحدهم يدور بعينه في المكان، وهو يرتكن بظهره على دراجة بخارية؛

كأنما تم تكليفه بمراقبة المنطقة وتأمينها، احتدت نظراته نحوه، وأشار ناحيته بسبابته قائلاً:

ده في واد "ناضورجي" مستنيه قدام أهوو.

ردد "هيثم" وهو يفرك كفيه معاً:

-كمان، طب هدي العربية شوية.

ابتسم له "تميم" ابتسامة مغترّة وهو يغمز له:

-شكل الليلة النهاردة فل على الآخر.

بادله الابتسام ورد:

متوصي بينا.

لم تفهم "فيروزة" ما الذي يدور بينهما من حوارٍ غامض، وسألتهما:

هنعمل إيه؟

تهادت سرعة السيارة بشكلٍ ملحوظ حتى توقفت تماماً، والتفت "تميم"

برأسه ليخاطبها بلهجته الآمرة:

خليكي في العربية ماتنزليش، احنا هنتعامل.

اتسعت عيناها مذهولة؛ لكنه تابع أوامره وهو يفتح الباب:

-اقفلي بالقفل من جوا.

هتفت مقترحة من تلقاء نفسها:

ما نبليغ البوليس.

أجاب عنه "هيثم" بانتشاء متحمس طغى عليه:

هنكلمهم لما يتروق عليهم الأول عشان يلماوا الجثث.

برزت عيناها أكثر في محجريها من مجرد تخيل المشهد الدموي في رأسها، لم يكن بمقدورها شيء لمنع هذا العنف الوشيك، فقط تقدمت بجسدها للأمام لترى من داخل السيارة ما يحدث بالخارج.

.....

سار الاثنان متجاورين إلى بعضهما البعض، بأكتاف منتصبه، وخطوات ثابتة، تم عن شموخ وقوة ظاهرة على جسديهما، أجلى "تميم" أحبال صوته بنحنة خشنة، ليستطرد بعدها قائلاً:

عايزين نشوف أخبار عضلاتنا إيه؟

وافقه "هيثم" الرأي وهو يشمر عن ساعديه:

بالظبط.

بصوت جهوري رن صداه في جنبات البنايات صاح "تميم":

بمجرد أن هبط اللص الآخر عن ماسورة المياه التي استغلها في الصعود،
حتى قبض عليه بقية المتواجدين بالشارع، وأبرحوه ضربًا حتى لم يعد في
جسده عظمة سليمة. زم "هيثم" شفثيه معترضًا:

-أنا ملحقناش نعمل حاجة.

قال وهو يهز كتفيه في هدوء:

-حظه بقى.

.....

بأعصابٍ ما زالت مشدودة، ظلت "فيروزة" حبيسة السيارة، تتلهف في
خوفٍ وقلق لمعرفة ما الذي آلت إليه الأمور، خاصة بعد ازدحام المنطقة،
وتعذر الرؤية من الحشد الذي تجمع في لمح البصر. تنفست الصعداء بمجرد
أن رأت الاثنين يخترقان الصفوف ويقبلان عليها، بقيت عيناها على "تميم"
تفحصه بتلقائية؛ كأنما تتفقد إن كان مصابًا من عدمه، طمأنها بابتسامةٍ
جعلتها ترتبك، وتستعيد إحساسًا كانت تتعمد دفنه في أعماقها، فتح الباب
وجلس خلف المقود يخاطبها قبل أن تشرع في سؤاله:

-الناس قاموا بالواجب قبلنا.

استقر "هيثم" في مكانه مضيئًا عليه:

-كنتي هاتشوفي مفرمة، بس يا خسارة.

ابتسم "تميم" وهو يتابع مازحًا:

-الحناقات جاية كثير، ماتستعجلش.

على عكس ما توقع استنكرت "فيروزه" ميول كليها للعنف البدني،
وصاحت معبرة عن رأيها في استهجان:

-هو إنت بتتبسطوا من الحاجات دي؟

اندهش "تميم" من ردة فعلها الحادة، وأدار رأسه ليتطلع إليها عن كثب،
والحيرة تملأ عقله، خاطبته مباشرة كأنما تنذره:

-أخبرتها ممكن تكون وحشة.

لم يستسغ "هيثم" كلامها، لذا رد عليها بنبرة غير مبالية:

-ربنا بيكملها معانا بالستر.

اتجهت أنظارها إليه، وقالت بشيء من العصبية:

-أنا مش بحب كده.

لاحظ مدى التوتر الذي صارت عليه، فاعتذر منها على الفور:

خلاص يا أبله حقك علينا، احنا أكيد مش بنبقى نازلين نتخانق، في ورانا
شغل ومصالح بنسعى عليها.

في حين هسهس "هيثم" ساخرًا منها:
طرية.

حذره "تيم" بوجه اشتد على الأخير، ونظراتٍ أكثر صرامة:
-"هيثم"!

كز على أسنانه مبرطمًا:
-أديني ساكت.

قاومت "فيروزة" ذكريات العنف التي بدأت في مناوشتها، وجعل بدنها
يرتجف من تذكر قساوة الضربات الوحشية التي نالت منها في لحظات
قوتها، وأوقات ضعفها. طرأ ببالها أن تكون توأمتها تعامل بالمثل من زوجها،
وتخشى البوح بهذا، لهذا دون ترددٍ سألته بلهجةٍ شابهة التهديد:

-أوعى تكون بتتعامل كده مع "همسة"، والله ما هسكتلك.

أدار رأسه للخلف لينظر إليها بضيقٍ، ثم سألها في انزعاج:

-وايه اللي دخلها دلوقتي في الخناقة اللي مامتش دي؟

كانت إجابتها مباشرة ومنطقية:

طالما ده أسلوبك وارد لو زعلتك في حاجة تمد إيدك عليها وآ...

قاطعها نافيًا في حدة، وقد وجمت قسماته:

-ماحصلش...

وأضاف عليه "تميم" مؤكّدًا بجديّة تامة:

-ولا هيحصل!

بدت غير مقتنعة بما يقولان، فأعاد عليها "تميم" خطابه بتريث:

-أحنا مش كده يا أبله، بنعرف امتي نتعامل ومع مين.

رمقته بتلك النظرة المتشككة فكرر عليها:

-واستحالة نمد إيدنا على واحدة ست مهما حصل.

أشاحت بوجهها بعيدًا عن نظراته المثبتة عليها، رافضة تقبل أي عذر يبرر

العنف الجسدي. سحبت "فيروزة" حقيبتها من جوارها، وضمت إلى

صدرها، ثم كتفت ساعديها حولها؛ كأنما تشكل بها درعًا يقيها شرورًا لم

تتعاف كليًا منها بعد، لتغمغم في سخطٍ بوجهٍ قد انقلب بكامله من أثر

الذكرى:

-كلام!

رأى "تميم" الوجوم الذي استبد بملامحها، والتعاسة التي احتلت نظراتها،
حز ذلك في قلبه بشكل كبير، ثمّت قسامتها عن انعدام واضح في عدم
تصديق ما تفوه به من حقيقة التزم به على مدار سنوات عمره، التفت
يطالع الطريق بعينين غائمتين، وخاطب نفسه قائلاً بعزم:

دي حقيقة، ومسيرك هتتاكدي !!

.....

الفصل المائة وعشرون

الإيذاء النفسي يبقى أثره عالقًا في الذهن، لا يمحي من الذاكرة بعد بضعة أيام، دومًا يطفو على السطح كلما تعرض الشخص لمواقف شبيهة، تضغط على أعصابه، وتحفز خلايا عقله على استعادة ما مضى. حاولت "فيروزة" تخطي تلك العقبة، والتأقلم مع تبعاتها؛ لكن إحساس الألم والضرب الموجه انتشر في أوصالها؛ كأنما قد تلقت للتو نفس التعنيف الشرس في كل مرة أبدت فيها مقاومتها لما يفرض عليها جبرًا.

نظرة تعيسة سددها لذاك الذي ادعى لتوه أنه لم يمس امرأة بسوء، جال بمخيلتها ذكرى تطاوله على زوجته في حضرتها، كأسلوب صارم منه لإيقاف اتهاماتها المخزية آنذاك تجاه توأمتها، لقد لجأ لنفس الأسلوب القاسي لإخراسها، عاملها بخشونة، وهذا أكثر ما تخشاه في منح ثقتها له أو لغيره؛ لكن ما لبث أن عادت لتتذكر أنها منحته صفقة قاسية أخرجته بها أمام الغرباء، انتقامًا منه على شيء لم يفعله عند دكانه، ومع هذا لم يُعاملها بالمثل رغم المناوشات اللفظية بينهما في أول الأول، وإيحاءه برغبته في إيذاها إن كانت خاصته.

الكثير من التخبط والحيرة عصف بعقلها فأصبحت صافنة الذهن، غير منتبهة لتوقف السيارة عند بيتها، صوته المنادي جعلها تلتفت إليه بتعابيرها الواجمة:

- احنا وصلنا يا أبله.

استدارت ناظرة من نافذتها إلى مدخل البناية، وقالت بقليلٍ من الحرج:

٢.. شكرا.

على الفور ترجلت من السيارة دون أن تنبس بالمزيد، وبقيت أنظار "تميم" عليها، والذي سرعان ما لكز بقبضته ذراع ابن خالته يأمره:

- انزل معاها وصلها .. ما يصحش.

كان الضيق ما زال مستبدًا بـ "هيثم"، فعلق معترضًا بتبرم:

ليه هي قاصر؟

رمقه بتلك النظرة القوية وهو يخبره:

- خلي عندك ذوق، وبعدين بدل ما يكون في حد مستخبي كده في الضلمة يطلعها، وقولها تقفل باب المدخل وراها.

كان محققًا في حرصه الزائد، خاصة بعد تجربة صدامهم مع اللصوص، لذا قال على مضضٍ وهو يفتح الباب:

حبيب .. أما نشوف آخرتها

تابعها بنظراتٍ ممتمة وهما يختفيان بالداخل، ولسانه يردد بصوتٍ خفيض:

-ربنا يقرب البعيد وتعرفني إنك مهما عملتي عمري ما هزعل منك.

رفع "تميم" يده ليضعها على جانبه الأيسر متابعًا بزفير طويل:

-إمتي موجودة جواد ده.

دقائق وخرج "هيثم" قادمًا نحوه، استقر من جديد إلى جواره، فاستطرد

يسأله:

-كله تمام؟

-أيوه، خلاص وصلتها ...

لم يحاول "تميم" الاستفسار عنها أكثر من هذا، يكفيه أن يجدها في مأمن

من أي أذى ليطمئن ولو بقدرٍ بسيط، عاد ليقود السيارة وابن خالته يعلق

في فتور:

-العربية محتاجة تنضف وإلا هتعمل ريحة.

ألقي نظرة شبه فاحصة على المياه المتسربة للداخل بسبب ارتفاعها

بالشوارع، وقال في لهجة جادة:

-بكرة هوديا المغسلة، بس إدعي ربنا يبقى الجو عدل.

حرك "هيثم" رأسه متمتما:

يا رب.

.....

تأكدت من وضع آخر طبق قامت بغسله في مكانه، قبل أن تخرج من المطبخ وتغلق الإضاءة خلفها، كانت والدتها ما زالت مستيقظة وتجلس أمام التلفاز تتابع أحد الأفلام العربية القديمة في البهو المتسع، جلست "فيروزة" إلى جوارها، وترددت للحظات قبل أن تستطرد قائلة بوجه غامض في تعبيراته:

حائزة أسألك في حاجة يا ماما.

لم تنظر ناحيتها، وردت بأذان صاغية:

قولي يا حبيبي، أنا سمعكي.

فركت أصابع كفها معًا، وتشجعت لتقول:

هو "هيثم" مد إيدته على "همسة" قبل كده؟

ارتفع حاجبا "آمنة" للأعلى في استنكارٍ مصدوم، وهتفت تلومها:

ليه الكلام ده يا بنتي؟

بتعاير ما زالت غير مقروءة أجابتها:

ده مجرد سؤال عادي.

نفت والدتها على الفور وهي تشير بيدها:

ماحصلش أبدًا، ده بالعكس على طول بتشكر فيه.

باعدت "فيروزة" أنظارها عنها، وطلبت منها بما يشبه الرجاء:

برضوه ابقِي اسألِيها بينك وبينها، اطمني منها، مش هنخسر حاجة.

علقت عليها "آمنة" بتوجسٍ قلق:

ليه اللي خلاكي تقولي كده؟ هو في حاجة حصلت؟

بالكاد خنقت غصة علقت في حلقها قبل أن تبرر لها:

لا، مافيش، أنا بس بطمن على أحوالها، معدتش في حد مضمون في الزمن ده.

ابتسمت أمها وهي تخبرها بحسن نية كعادتها:

مش كل الناس مؤذية يا بنتي، في ولاد حلال موجودين حوالينا.

ظلت "فيروزة" تتطلع أمامها بعينين واجمتين، ظهر فيها الألم، وخاطبت

نفسها بصوت بقي حبيس أعماقها:

أنا معرفتش غير المؤذنين وبس.

.....

قاوم على قدر المستطاع إشعال سيجارة أخرى للتنفيس عما يستعر
بداخله من احتراقٍ لا يعرف سبباه؛ لكنه كان يزداد قوة كلما تذكر علامات
الأسى المرسومة على ملامحها، وتلك النظرة المليئة بهمومٍ لا يعرف كيف
تحويلها بداخلها، كم تمنى أن ينفذ إلى روحها، ليزيح عنها ما يؤلمها! استند
"تميم" بمرفقيه على حافة سور شرفته، محدقًا في الفراغ بنظراتٍ لا ترى
سوى طيفها، تصلب جسده مع اللمسة الحنون على ظهره، فاستدار
برأسه للجانب ليجد والدته تقف إلى جواره وهي تسأله:

سرحان في إيه يا حبيبي؟

ادعى الابتسام وهو يرد:

-ما فيش حاجة يامه.

سأله "ونيسة" في اهتمام:

-الشغل ماشي معاك كويس؟ ولا فيه مشاكل؟

قال بعد زفيرٍ بطيء:

من ده على ده، بس كله بيعدي الحمد لله.

ربتت على كتفه تدعوه له بجنو:

-ربنا يصلح حالك يا حبيبي، ويسرك كل عسير.
ابتسم لها وهو يحني وجهه على مقدمة رأسها ليقبلها:
يا رب.

عمّ الصمت بينهما للحظات، قطعتة "ونيسة" هاتفة بتردد ملحوظ عليها:
-بأقولك إيه يا ضنايا، إنت كنت كلمت "سراج" صاحبك عشان أختك؟
فرك طرف ذقنه بيده، وقال:

-اتلبخت والله، بس بكرة الصبح هاطلبه، وأبلغه باللي هي عايزاه.
أشرفت الابتسامة على تعبيراتها، واستمرت تدعو له في عاطفة:
-ربنا يفرحني بيك إنت وأختك ويعوضكم كل خير يا رب.
بادلها الابتسام، ولف ذراعه حول كتفها مرددًا:
-الله كريم.

سألته مجددًا في نبرة مهتمة:
-مش عايز حاجة قبل ما أناام؟
أخفض ذراعه، وقال:
-تسلمي يا أمي.

غادرت "ونيسة" الغرفة، وتبعها "تميم" بنظراته إلى أن أغلقت الباب خلفها، فتابع تحديقته الشارد هامساً بأنين:

يا ريتني أقدر أعرف اللي جواكي!

.....

أمسكت بالمقشة اليدوية، وقامت بجمع وكنس بقايا اللب الذي بصقه ابنها على السجادة، لتعيد الغرفة إلى ما كانت عليه من نظافة وترتيب قبل أن يأتي ويفسد عليها مجهودها. تسمرت "سعاد" في مكانها مشدوهة بعد أن قذف بقبلته في وجهها، وصاحت تلومه في استهجان:

عروسة إيه دي اللي أشوفها لك؟ يا ابني ده احنا لسه مش عارفين نحل مشكلتك مع أم عيالك وآ...

قاطعها "فضل" في حدة بعد أن تجشأ بصوتٍ مقرز:

-بوز الإخص دي ماتجيش سيرتها، هي السبب في النحس اللي أنا فيه.

رمقته بتلك النظرة غير الراضية؛ لكنه تابع بوعيدٍ صريح:

-اصبري عليا بس أفوق من اللي أنا فيه، وهحاسبها هي والبأف اللي جابته يعلم عليا هنا وياخدني على خيانة.

واصلت "سعاد" توبيخها اللائم له وهي تنحني لتزيل ما جمعته من أوساخ
بالجاروف والفرشاة:

-إنت مش ملاحق تعادي مين ولا مين؟ ما تخليك في حالك، وتشوف
أكل عيشك، ده الأبقى ليك ولعيالك من بعدك.

صاح في سخط، وتلك النظرة الكريمة تطل من عينيه:

-وأحرم نفسي من متع الدنيا ليه؟ ده من حقي.

اعتدلت في وقفها، وأوشكت على متابعة تحذيرها له؛ لكنه أسكتها قبل أن
تبدأ بترديده الفظ:

-بأقولك إيه يامه، روعي نامي، الكلام معاكي زي قلته، لا هيودي ولا
هيجيب.

نظرت إليه في استياء، واستدارت منصرفه من غرفته قائلة:

-ربنا يهديك لحالك.

.....

صدق فيما أخبره به بالأمس، حيث اشم "تميم" رائحة عطن بسيارته جراء
امتلاء بدنهما بالمياه غير النظيفة، لذا كان أول ما قام به بعد نزوله من البيت

هو الاتجاه بها إلى مغسلة السيارات. أعطى المفاتيح لأحد العاملين بالمكان،
وأوصاه مشددًا:

- روق عليها، عايزها تبقى فلة من جوا.

قال العامل في حماس واثق:

- هخليالك على الفبريكا يا سيد المعلمين، كأنها عروسة.

رفع "تميم" ذراعه، ووضعها على كتفه ليربت عليه بقوة طفيفة وهو يتحدثاه:
- أما نشوف كلام جد ولا أونطة.

هز رأسه مؤكدًا عليه:

- يا باشا ده المغسلة كلها تحت أمرك، ولو الشغل معجبكش نعيده ثاني ...

ثم أشار له ليجلس وهو يدعو:

- مسافة بس ما تشرب الشاي هتكون خلصانة.

عقب في استحسان:

- ماشي يا سيدي.

سحب "تميم" مقعدًا، وجلس بعيدًا عن الضجيج المحاوط به، واذ بذلك العامل يأتي إليه بعد بضعة دقائق وفي يده حافظة نقود حمراء اللون، ناوله إياها قائلاً:

معلم "تميم" لا قيت البوك الحريمي ده واقع تحت الكنبه اللي ورانا.

نظر إليه في دهشة قبل أن يأخذها من يده، بينما انصرف العامل ليكمل مهمته دون الحاجة للحصول على أي تفسيرٍ منه. تفقد "تميم" الحافظة بنظراتٍ فاحصةٍ مستريية، سرعان ما تبددت حيرته إلى نوعٍ من الصدمة اللذيذة، خاصة وقد رأى نقشة لريشة الطاووس المميزة تزين حوافه الجانبية؛ وكأنه حاز على قطعة تلامسها، وجد نفسه يضمها إلى صدره بابتسامة بلهاء لا يعرف أنها تشكلت على ثغره.

تدارك نفسه، وأخفى في لحظة ملامح الوله التي تباعته ل يبدو جاد التعبيرات، تردد كثيراً في فتحها والتأكد من امتلاكها لها، برر لنفسه تصرفه في عزم:

ما جاز تكون مش بتاعتها.

رغم يقينه بأنها تعود إليها، إلا أن رغبة الفضول التي استحوذت عليها كانت لها الغلبة، ألقى نظرة خاطفة على من حوله ليتأكد من عدم تركيز أحدهم معه، تسلل إليه شعور الارتياح لانشغال الأغلب، فتشجع لفتح حافظتها،

اضطربت دقات قلبه بخفقان متتابع أصاب كافة حواسه بنوع من الشعور المتقد، مع رؤيته لصورتها الشخصية الموضوعة على الجانب خلف غلاف شفاف، سرت رجفة طفيفة في كامل بدنه وهو يتأملها بنظراته المتيمة عشقًا بها، دومًا تثير فيه كتلة من الأحاسيس التي لا يشعر بها سوى معها، تلقائيًا تحرك إصبعه ليلمس وجهها في بطء كأنما يريد أن ينسخ ملامحها في وجدانه، وقبل أن تفيض به عواطفه الجياشة، وتطغى على إدراكه العقلاني، أغلق الحافظة، وأطبق عليها كفه مستشعرًا بقوة هذا الشعور المشتاق المضطرم في فؤاده. هب واقفًا من مكانه، وصاح بلهجة جاهد ليخفي ارتباكها فيها وهو يخاطب عامل المغسلة:

-أنا رايج مشوار وراجعلك ثاني.

رد عليه الرجل وهو منكفئ على مقدمة سيارته:

براحتك يا معلم.

بخطوات أقرب إلى القفز، عبر الطريق في خفة وهو يدور بنظراته سريعًا على الجانبين. في الظاهر أراد إعادة ما فقدته دون قصد منها؛ لكن في الباطن أراد ملء الروح بنظرة من جوهريتها، لعل النفس تهدأ، والقلب يسكن!

.....

جثت على ركبتيها لتنظر أسفل الفراش، قبل أن تستقيم واقفة لتفتش في
نفس الأدراج التي بحثت فيها منذ لحظات، تحركت والدتها على خطوتها،
وأخبرتها في حيرة:

دوري يا بنتي كويس، جاز شيلتيها هنا ولا هنا.
ردت "فيروزة" في عصبية وهي تشير بيدها نحو حقيبتها:
-أنا متأكدة إنها كانت جوا الشنطة.
سألته والدتها بشك:

-مش يمكن نستيا في المحل؟
قالت وهي تتجه نحو التسريحة في يأس حائر:
-احتمال برضوه، هاروح أدور هناك.
لفت حجابها حول رأسها، وأكملت حوارها معها في ضيق:
-ربنا يستر وما تكونش ضاعت.
عادت "آمنة" لتسألها من جديد:
هي كان فيها فلوس كثير؟

نظرت لها من طرف عينها، وأخبرتها وهي تحكم غلق طرفي الحجاب معًا
بدبوس صغير:

مش أوي، بس هايبقى موال عقبال ما أطلع بطاقة ثانية.

حاولت بث الأمل فيها، فرددت في تفاؤل:

إن شاء الله ربنا هيعترك فيها.

رغم عدم اعتقادها في عشورها عليها إن كانت فُقدت حقًا غمغمت في تعجل:
يا رب.

خرجت من الغرفة لتتجه إلى باب المنزل، وهناك التقطت حذاءها من
دولاب الأحذية، انتهت لصوت قرع الجرس، فتساءلت "فيروزة" وهي
تكمل ارتداء الفردة الأخرى:

مين جاي السعادي؟

ردت عليها والدتها وهي تسير ناحيته:

مش عارفة.

كانت "فيروزة" الأسبق في فتحه، تفاجأت من وجوده أمامها، فهتف في
استغراب يشوبه الدهشة:

معلم "تميم"!

الأحلام بعيدة المنال أصبحت قيد التحقيق الآن، وكأن وقت استجابة الدعوات قد أزف، وها قد لمس بؤادر ذلك. أخفض "تميم" رأسه بعد نظرة سريعة إليها، ثم استطرد مرحبًا:

صباح الخير.

تخرجت من وقاحتها غير المقصودة، وردت بعد أن ضغطت على شفيتها للحظة:

صباح النور.

مد يده ناحيتها بحافظتها قائلاً:

-تفضلي.

أخذتها منه بتعابير ابتهجت في سرور، ورددت بنبرة أكدت له سعادتها بعثوره عليها:

-إيه ده؟ إنت لاقيتها، ده أنا قلبت الدنيا عليها.

لم يقاوم رغبته القوية في النظر إليها في تلك اللحظة، ويا ليت ما فعل! فلامحها المشرقة سلبته عقله، فشرذ يطالعها يامعان، كأنما يريد أن تبقى صورتها عالقة في ذهنه إن فارقتها وذهب مضطراً هكذا للأبد. لم تكن منتبهة

لطريقة تحديقه بها، مما منحه الفرصة لضبط انفعالاته قبل أن تستريب في أمره، تنحنح يخبرها بعد ذلك:

-كانت واقعة في العربية.

انضمت إليهما "آمنة"، وهتفت مرحبة به بودٍ شديد:

-اتفضل يا معلم "تميم"، مش عيب يا "فيروزة" تسبيه واقف على الباب كده؟

على الفور اعتذرت منه ببسمة زادت من قسماتها نضارة:

-أنا أسفة مخدتش بالي..

تنحت للجانب، وأشارت له بيدها:

-اتفضل.

قال وهو يوزع نظراته بينهما:

-لا مافيش داعي، أنا كنت جاي أرجع الأمانة، خفت لا ماتلقهاش وتقلقي.

كررت عليه "آمنة" شكرها على صنيعه الطيب:

-والله كتر خيرك يا ابن الأصول، يا عيني دي كانت شايلة هم إنها تكون ضاعت.

تلقائياً تحولت أنظاره نحوها مجدداً، فوجدها تتفحص ما بداخلها، لهذا سألها:

-في حاجة ناقصة فيها؟

أجابته وهي تخرج هويتها لترفعها نصب عينيه:

-لا، مافيش، ده أنا بتأكد من البطاقة.

شقت ابتسامة عذبة طريقها على شفثيه مع رؤيتها تبتسم في نعومة،

واستطرد يكلمها:

-معالي حق يا أبله ...

السعادة بكافة معانيها حلت عليه في تلك اللحظات العابرة، ودّ لو استمرت

لساعات وساعات؛ لكن ما باليد حيلة، أبعد عينيه عنها، وقال في حرج:

-احم .. لا مؤاخذه يعني، أنا بس كنت .. فتحتها عشان أشوف بتاعة مين،

ولما لاقيت صورتك آ...

جاهد ألا ينظر إليها وهو يتم جملته:

-أنا أكدت إنها تخصك.

كانت مشغولة بإعادة ترتيب محتويات حافظتها وهي ترد:

-تمام، تسلم يا معلم "تميم"، أنا مش عارفة أشكرك على إيه ولا إيه؟

تجراً مرة أخرى لينظر إليها بتلك النظرة الساهمة، قبل أن يرد في لطيف:
-ما فيش بينا شكر، أنا تحت أمرك يا أبله في أي حاجة.
أحست "آمنة" بعدم تقديرها لضيئها الذي أغرق عائلتها بالكثير من
المجاملات، فأصرت عليه تستضيفه:
-يا معلم ما يصحش كده، اتفضل عندنا شوية، تشرب شاي، وآ...
قاطعها معتذراً بلباقة:
-وقت ثاني، المهم عم "خليل" بخير؟
ردت بإيماءة من رأسها:
-أه الحمد لله.
استأذن بعدها في تهذيب:
-دائماً يا رب، عن إذنكم، وأشوفكم على خير.
تقدمت "آمنة" خطوة لتودعه بمزيد من الحرارة:
-تسلملنا يا ابني، شرفت وأنست، ده بيتك في أي وقت تشرف فيه.
وقفت "فيروزة" في مكانها تخاطب والدتها بحيرة:
-هو لسه في ناس كده؟

استدارت "آمنة" لتواجهها وهي ترد مادحة:

-بصراحة ما شوفتش في شهامته ولا جدعنته.

تحركت ابنتها خطوتين لتتجاوزها، وقالت بعد تهيدة سريعة:

-ده حقيقي ...

سرعان ما سيطر على نبرتها حزناً خفياً حين تابعت:

يا رب يفضل كده، ومايجيش يوم واتصدم فيه زي غيره!

لم تعلم أنه ما زال واقفاً على السلم يرهف السمع إلى حديثها العابر عنه

بجاس متقد، خفقة قابضة آلمت صدره مع جملتها الأخيرة، فجعلته يزداد

تخبّطاً وريبة في أمرها، ما زال ذلك السؤال الحائر يدور في رأسه وهو

يكمل هبوطه على الدرج:

-ليه اللي حصلها وأنا معروفش ???!!!

.....

الفصل مائة وواحد وعشرون

طلبت تغيير مكان لقاءهما المعتاد إلى آخر، لانشغالها معظم اليوم في متابعة الحالات المرضية هناك، وبالرغم من ترددتها إلا أنها شعرت بالسوء لرؤية هؤلاء المسنين في حالة إهمال وهجر بعد أن تخلص عنهم ذويهم. أحست "فيروزه" بالضيق يستبد بصدرها، خاصة مع سماعها لمقتطفات عابرة عن كيف انتهى بهم المطاف هنا، لا يعانون من أعراض التقدم في السن والعجز فقط، وإنما قساوة الإهمال، وقلة الاهتمام. استدارت تنظر في اتجاه "ريم" التي لوحث لها بيدها وهي تقبل عليها أثناء هتافها:

تعال يا "فيروزه"، هنقعد هناك.

في معظم مقابلاتها دوماً تجذب "ريم" اختيار الأماكن المفتوحة، والمتخمة بدرجات مختلفة ومتفاوتة من الخضرة لتلتقي بها، ولم تكن "فيروزه" ممانعة، فقد كانت بحاجة لبعض التغيير في نمط حياتها الذي أصبح شبه روتيني، ورؤية أماكن جديدة ربما لم تكن لتأتي إليها من تلقاء نفسها. انفردت الاثنتان ببعضهما البعض، وجلستا عند بعض الأرائك الشاغرة في نهاية الحديقة. استطردت "ريم" تسألها عن المستجد في أوضاعها المعيشية، وأصغت إلى ردودها بانتباه تام قبل أن تقول مباشرة:

-في جزئية دائماً احنا بنلف وندور حوالينا من يوم ما بدأنا مشوارنا سوا.

قطبت جبينها متسائلة بتحفظ:

إيه هي؟

بأسلوبها الهادئ أجابتها:

إنتي عارفها كويس، وبتجنبي الكلام عنها، مع إني حابة إنك تتخطي العقبة دي، وتواجهيها، اعتبرها زي تحدي جديد ليكي.

ظلت ملامح "فيروزة" متجهة قليلاً، وقد فطنت إلى ما تحاول فعله، وتأكدت من مسعاها عندما أضافت:

-يمكن أنا عندي لمحة بسيطة عن اللي شوفتيه في تجربتك مع "آسر"، وده من كلام "ماهر"، بس أنا عاوزاكي إنتي اللي تحكي، تتكلمي، تطلعي اللي جواكي ...

حل المزيد من الوجوم على تعبيراتها، حتى نظراتها تبدلت من الاسترخاء للتحفز، بينما استمرت "ريم" تُحادثها:

صدقيني ده هيفيدك أوي.

ما تريد معرفته ليس بهذا القدر من اليسر- لتفصح عنه بسهولة، فقد احتاجت لكل شجاعتها لتطمره في أعماق أعماقها، لذا قررت الانسحاب من

هذا اللقاء دون تفكير، هبت "فيروزة" واقفة، وعلقت حقيبتها على كتفها،
لتقول بوجه جامد كالبحر:

-سامحيني يا دكتورة، أنا مضطربة أمشي، عندي شغل.

وقفت "ريم" بدورها، وخاطبتها بلين الكلام وهي تتحرك ناحيتها:

- "فيروزة"، الهروب مش هو الحل ...

وضع يدها على ذراعها وأكملت:

-أحياناً نبقى مضطرين نواجه أكثر حاجة بنخاف منها عشان نعدي، ونكمل
طريقنا صح.

سحبت ذراعها من قبضتها، وقالت بصوت أجوف:

-دي صفحة وقفلتها.

ردت عليها بإيماءة سريعة من رأسها:

-صح، بس رواسبها لسه عايشة جواكي ..

وقبل أن تعارضها استمرت في التوضيح لها:

-وأنا دوري أساعدك تتخطي العقبة دي وإنتي بكامل قوتك، وشجاعتك،

بحيث مافيش حاجة ترجعك لورا، تمنعك من إنك تحققي اللي بتحلمي بيه.

ثم ابتسمت لها قائلة بتأكيد:

-كمان أنا حاسة إنك هتعملي ده من نفسك قريب.

بطريقة ما نجحت في إثنائها عن عنادها قليلاً، فجذبتها "ريم" من مرفقها، وطلبت منها الجلوس بهذيب:

-مش معقول هنفصل واقفين، ده احنا لسه يدوب بنتكلم، ممكن تتفضلي لحد ما أجيب حاجة ناكلها سوا؟

تنفست "فيروزة" بعمق قبل أن تعاود الجلوس على مقعدها، في حين انصرفت "ريم" لدقائق، لتأتي وفي يدها وعاءٌ يحوي ثمار الفاكهة الطازجة. أسندته على الطاولة، وجلست في الجهة المقابلة لتستأنف بعدها كلامها:

-ليه رأيك النهاردة نتكلم عن حد ليه أثر طيب وإيجابي معاك؟
هزت كتفها مرددة في فتور:
عادي.

اشتربت عليها وهي تشير بإصبعها نحوها:

-بس حد يكون خارج دائرة الأسرة.

نظرت إليها في غرابة، لتسألها بعدها:

-زي مين مثلاً؟

فكرت "ريم" قليلاً قبل أن تسهل عليها:

-ممكن من الجيران، أصدقاء في الشغل.

شردت "فيروزة" لبرهة تحاول اختيار أحدهم لتحدث عنه، بدت حائرة بعض الشيء، إلى أن وقعت أنظارها على ثمرة التفاح، حينها فقط تجلت صورته في ذهنها وهو يبتسم لها بابتسامة غريبة، كأنما يخصها بها، ارتفع حاجباها للأعلى، وقد ازدحم عقلها بالمزيد من الذكريات عنه، أصبحت ملامحها شاردة بشكل ملحوظ. راقبتها "ريم" عن كثب، إلى أن قطعت استغراقها في التفكير لتسألها:

-الظاهر في حد معين في دماغك، صح ولا أنا استنتجت غلط؟

عادت إلى وعيها، وأجابت برّد شبه مائع:

-يعني.

ابتسمت "ريم" لتجاوبها، وتابعت أسئلتها لها:

-تقدري تكلميني عنه شوية؟

تحفزت دفاعاتها من جديد لترد بإنكار:

-وليه ماتكونش واحدة؟

اعتمدت على هدوء نبرتها وهي تبرر لها:

ده مجرد تخمين، مش فارق إن كان واحد ولا واحدة، المهم يكون ليه تأثير إيجابي على حياتك الفترة اللي فاتت.

أطلقت "فيروزه" زفرة طويلة محملة بالتردد، لتخبرها بعدها وهي ترمش بعينها:

-عمومًا هو واحد.

علقت بإيجاز دون أن تفتّر بسمتها الرقيقة:
-تمام.

من أسفل الطاولة فركت "فيروزه" أصابعها معًا في توتر، كأنها تنشد بتلك الحركة الحصول على بعض القوة والثبات وهي تبوح لها بشيء اعتبرت مجرد تطرقها إليه أمر حرج:

مش قادرة أحدد طبيعة شخصيته إيه، ساعات كثير بحس إنه شهم أوي، فريد من نوعه، وساعات ثانية بأقلق منه، وأخاف.

حافظت "ريم" على نعومة بسمتها وهي تنتقل لسؤالها التالي:

طيب نسأل كده ليه ممكن تخافي منه؟

تجرات وهي تجيبها:

عشانه مش مفهوم بالنسبالي.

سألتها في هدوء:

من ناحية إيه؟

بعد لحظة من السكوت قالت وهي تستحضر في مخيلتها مواقف متداخلة
له معها:

تصرفاته، طريقته معايا مختلفة.

تساءلت في نبرة مهتمة:

مختلفة إزاي؟

انتشر التردد على تعابير "فيروزة"، فاستطردت "ريم" توضح لها بلباقة:

أنا أسفة إني بسألك ورا بعض بالشكل ده، بس عايزة من كلامك ده عنه
أكون صورة ليه بوضوح.

ضغطت على شفيتها في ربكة، وتحاشت النظر ناحيتها كلياً، لتركز بصرها
على ثمرة التفاح وهي تخبرها:

حساه مهتم بيا بزيادة أوي، زي ما يكون مستني أطلب منه أي حاجة
عشان يعملها بسرعة.

صمتت "ريم" لهنية قبل أن تعلق عليها:

ما يمكن تكون دي طبيعته مع كل الناس.

أكدت عليها بأنفاس مالت للاضطراب:
- ده حقيقي، بس معايا أكثر، وأنا حاسة بكده.
نقرت "ريم" بإصبعها على الطاولة، ثم تشدقت قائلة:
- ما يمكن يكون اهتمام من نوع ثاني.
زوت ما بين حاجبها مرددة في استهجان:
- نوع ثاني، مش فاهمة!!
اتسعت بسمتها قليلاً وهي تجيبها:
- حب مثلاً.
جحظت عيناها في صدمة، ما لبث أن تحولت لحالة من الهجوم وهي تصيح
في عصبية:
- لالا، استحالة، إيه الهبل ده؟ حب إيه؟ مش معقول، مافيش حاجة
من دي، أنا مش قادرة أستوعب إن آ...
قاطعتها "ريم" بتريث:
- اهدي، أنا مقولتش حاجة غلط، وارد يحصل إن الشخص ده يكون
بيحبك.

صاحت بنفس الحدة، وقد أريد وجهها بتعابير غاضبة:
-أنا محدش بيحبني، ده مجرد اهتمام عادي، ليه بتقولي كده؟
حاولت امتصاص نوبة انفعالها وتثبيطها بإخبارها بهدوء واضح:
-بالراحة يا "فيروزة"، أنا مقولتش إنك بتحبيه، بس طبيعي إن مشاعرنا
تتحرك وتنجذب ناحية حد ثاني، ومش شرط الحد ده يبادلنا نفس
الشعور، ده توقعي.

ردت عليها تسألها في حدة:

-دكتورة "ريم" ممكن تتكلم عن حاجة ثانية؟ ولا أمشي؟
أشارت لها بيدها قائلة دون أن تتبدل قسماتها الهادئة:
-حاضر ..

تركتها للحظات تستعيد انضباط نفسه قبل أن تستطرد مرة أخرى:
-صحيح احنا ناويين نعمل حفلة هنا نحتفل بيها بالمسنين، ونرفه عنهم، إيه
رأيك لو تعملي الديكور بتاعها؟
نظرت إليها متسائلة في دهشة:
-أنا؟

أكدت عليها ببساطة:

-أيوه، ليه لأ؟

ظهر التردد على محياها وهي تخبرها:

-بس أنا لسه مبتدي، خبرتي قليلة في تجهيز الحفلات، مافيش داعي، ممكن أبوظ الدنيا.

قالت عن ثقة:

-بالعكس أنا متوقعة إنك هتعملي أقصى- جهدك عشان تنجحي، وده هيساعدك تنطلقي أكثر ...

أوشكت على الاحتجاج والرفض؛ لكنها أصرت عليها:

-مش هاقبل بالرفض، يالا منتظرة منك حاجة رقيقة زيك.

لم تنكر أن إحساسًا قويًا بالحماس انتابها، كأن تلك الطيبة تعرف كيف تعيد إليها ما افتقدته، نظرت إليها في امتنان، وقالت:

-شكرا يا دكتورة "ريم".

بطريقتها الناعمة في الحوار أكدت عليها:

-لسه فاضل في مشوارنا سوا شوية خطوات، وأنا واثقة إنك هتقدري تتجاوزي أي تجربة ...

عمدت إلى بث المزيد من الثقة إليها فأضافت:

قليل أوي الي عنده قوتك يا "فيروزة"، ماتستقليش بده، واوعي تخلي
حد يحبطك أو يمنعك عن أحلامك.

هزت رأسها وهي ترد باقتضاب:

حاضر.

منذ اللحظة التي لجأت فيها للعلاج، بدأت "فيروزة" في ترميم الشروخ
العميقة في روحها واحدًا تلو الآخر؛ لكن ظل واحد بعينه يحتاج لمعجزة
لمداواته.

.....

بناءً على مكالمة هاتفية منه، جاء على وجه السرعة إلى دكانه ليقابله، والقلق
مسيطر عليه. وجود والده كذلك عزز الشعور بالخوف داخله، خشي-
"سراج" أن يكون طلبه قد قوبل بالرفض، حبس أنفاسه، واضعًا يده على
قلبه -مجازًا- وهو يستمع إلى الشرط الذي أدلت به "هاجر"، تنفس
الصعداء بعد أن عرف ماهيته، وقال مبتسمًا في سرور:

أنا تحت أمر ست البنات.

علق عليه "تميم" وهو يقرب كوب شايه من فمه ليرتشف منه:

-معلش بنتقل عليك، بس ده شرطها.
هتف نافيًا وجود أدنى شكوى بشأن ما تريد:
يا معلم اللي تؤمر بيه، أنا موافق على طول.
أضاف "بدير" قائلاً بصوته الرخيم:
-وأنا بقتراح تكون الست الحاجة معاك، ويبقى في مكان برا.
هز "سراج" رأسه موافقًا:
-وماله، شوفوا اللي يريحكم وأنا راضي بيه.
خاطبه "تميم" بلامح جادة:
-يبقى نخلي المقابلة على بكرة العشا بأمر الله، وأنا هتصل أكد عليك.
ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه "سراج" الذي هلّل في رضا:
على بركة الله.
ربت "بدير" ييده على كتف ضيفه، وقال:
-مش هنعطلك أكثر من كده يا "سراج"، قوم شوف مصالحك.
رد عليه بنفس التعابير المبتهجة:
-متقولش كده يا حاج، أنا في الخدمة.

منحه ربتة أخرى على كتفه وهو يردد:

تسلم.

نهض "سراج" من كرسيه الخشبي، واستأذن بالذهاب:

سلامي للحاج الكبير.

رد "تميم" وهو يقوم من مكانه ليودعه:

-الله يسلمك.

ألقى عليها التحية مجددًا قبل أن يغادر الدكان، تبعه "تميم" بنظراته حتى

استقل سيارته وابتعد عن مرمى بصره، ليقول بعدها في ضيق:

-الواحد مش مصدق إن عمره ضاع على كدبة.

تهد والده وهو يهون عليه الأمر:

-كله مقدر ومكتوب يا ابني، وده كان نصيبك.

سحب شهيقًا عميقًا ملأ به رئتيه، قبل أن يلفظه بعدها مرددًا:

-الحمد لله.

قصد "بدير" تغيير مجرى تفكيره لشيء آخر، فاستطرد يخبره بابتسامة

ماكرة، وتلك النظرة المتسلية ظاهرة على وجهه:

عرفت إن أبلتك هتفتح الدكان بتاعها كمان يومين.

جلس "تميم" على المقعد بعد أن قربه من أبيه، وسأله في لهفة مراهق حديث العهد بالحب:

-إيه ده بجد؟ هي جت هنا؟

كان سعيدًا لنجاحه في صرف أحزانه بالتطرق إلى ذكرها، تأمل ردة فعله المتشوقة، وجاوبه:

-أيوه، عدت عليا النهاردة عشان تعرفني، وتعزمني.

لعن سوء حظه لعدم تواجده معظم اليوم في الدكان بسبب انشغاله في إتمام بعض التوريدات، ومع هذا أخفى استيائه الطفيف ليقول في حماس:

-لازم نوجب معاها يابا، نعملها حاجة محصلتش.

رد عليه قائلاً مع هزة صغيرة من رأسه:

من الناحية دي متقلقش ...

ثم شدد عليه بلهجة غير مازحة:

-بس مش عايزك تظهر في الصورة، أنا هتكفل بكل حاجة، ما إنت فاهم مش عايزين كلام يتنتور على الفاضي يمسه ولا يضايقها.

ورغم عدم اقتناعه إلا أنه قال على مضض:

-ماشي يا حاج، اللي تعوزه ...
احتفظت عيناه بتلك الومضة المثيرة وهو يتم جملته:
-المهم هي تكون مبسوطه.

.....

في الشعور بالألم الجميع يتساوى، أما في الفرح فتتباين ردات الفعل! بقلبٍ يدق في ترقبٍ وخوف، تطلع "هيثم" إلى شاشة التلفاز بعينين تلمعان بعبراتها السعيدة، حيث أبصر ما ينمو في أحشاء زوجته، بينما نظرت إليه "همسة" في محبةٍ عظيمة، لم تتوقع أن تنتابه تلك المشاعر الجميلة لمجرد رؤية مبهمة، بدا في أوج سعادته وهو يتابع الحركات غير المفهومة للجنين، لم يحد بنظراته عنه والطبيب يخاطبه:

-ما شاء الله، أنا شايف كل حاجة تمام، النمو طبيعي، والسائل الأمينوسي كويس.

ردد في سعادةٍ أكبر:

-الحمد لله يا رب.

أخبرهما الطبيب في هدوء وهو يكمل فحصه الروتيني على بطنها المنتفخ بجهاز السونار:

-والعضو الذكري كمان باين أهوو.

اتسعت عينا "همسة" في ذهول، وسألته بأنفاس مرتبكة:

هو .. ولد؟

أكد عليها بثقة:

-أيوه.

التفتت تنظر إلى زوجها المصدوم لتكرر على مسامعه:

-أنا حامل .. في ولد.

ضحك الطبيب قبل أن يؤكد لها مرة أخرى:

-أيوه يا مدام، ولا إنتو كنتو عايزين بنت؟

تكلم "هيثم" في فرحة شديدة:

-أي حاجة، أنا راضي، المهم يجي بالسلامة ...

احتضن كف زوجته بين راحتيه، وهنأها:

-مبروك يا "هموسة".

ردت بوجه مبتسم على الأخير:

-الله يبارك فيك يا حبيبي، إن شاءالله يكون سندك وضهرك.

نهض الطبيب من مقعده المجاور لسريرها الطبي، واتجه إلى الجانب الآخر من الغرفة ليوصيها بنبرة مرتفعة:

عايزيك يا مدام الفترة الجاية تهتمى بالأكل الصحي، ويكون فيه حديد وكالسيوم، ده مهم جدّا كل ما اتقدمنا في الحمل.

تلك المرة رد عليه "هيثم"

حاضر يا دكتور أنا هتابع معاها.

ابتسم له الطبيب، وحادثه بلطافة:

-وانت بقى تفكر في اسم حلو للمولود وماتتعبش المدام معاك.

قال وأنظاره بالكامل مسلطة على حبيبته:

-ده أنا هاشيلها على كفوف الراحة.

.....

لم تستطع تأجيل تلك الزيارة لتهنئة ابنتها على تأكيد نبأ حملها في جنين ذكر، وكأنها قد حازت على كأس بطولة دولية، جاءتها "آمنة" في نفس اليوم بال مساء مع توأمها وابنة خالها الصغيرة، مكثن جميعًا في غرفة نومها حول فراشها، قالت "فيروزة" أولاً وهي تمسح برفق على ذراعها:

إن شاء الله تبقي أم جميلة لأحلى حزمبل.

نهرتها "آمنة" في حدة غريبة:

-بس متقوليش كده لأختك، ربنا يكملها اللي فاضل على خير.

مالت "فيروزة" على شقيقتها لتهمس لها بمزاح:

-أمك من أنصار الذكور ولا إيه؟

أخفت ضحكتها بيدها، وردت بصوتٍ خفيض:

-مش عارفة.

هتفت "رقية" بمرح وهي تقفز على الفراش:

-أنا عاوزة أَلعب بالنونو.

وبجتها "آمنة" هي الأخرى بصرامة:

-بطلي تنطيط يا "كوكي"، واقعدي، بلاش الخايلة دي.

اعترضت عليها "همسة" بعبوسٍ صغيرة:

-سببها يا ماما على راحتها.

قفزت الصغيرة مرة أخرى وهي تسألها:

-هتديني النونو؟

قهقهت ضاحكة وهي ترد:

هاسيدبولك يا قلبي.

وضعت "آمنة" قبضتها على ذراع ابنتها تستحثها:

-اسمعي كلام الدكتور أم حاجة، عايزينك تقوميلنا بالسلامة.

بالطبع لم يكن في مقدورها مجادلتها، فقالت في طاعة:

حاضر يا ماما.

أمسكت "رقية" بعباءة عمتها، وطلبت منها وهي تتلوى بجسدها:

-عمتو، عاوزة أروح التويلت؟

نهضت من مكانها لتصحبها وهي ترد:

تعال.

جاءتها فرصة على طبق من فضة لتستفرد بتوأماتها، وتسألها عما شغل بالها

بشأنها، لهذا لم تضع الوقت، واستطرد قائلة بغموض:

-بأقولك يا "همسة"، عاوزاكي تكوني صريحة معايا في حاجة كده.

نظرت لها بغرابة، وأخبرتها في قلق:

-في إيه يا "فيرو"؟

لعت شفتيها، ثم سألتها بحذر، وكامل نظراتها المتفرسة عليها:

محصلش كده في مرة .. إن آ.. "هيثم" مد إيده عليكي؟

استنكرت ما قالته بوجه ممتع:

إيه الكلام ده؟

ألحت عليها بلهجة جادة للغاية:

معلش ريحيني.

رغم الحيرة المسيطرة عليها لتفكيرها في ذلك إلا أنها أكدت عليها بما لا يدع أدنى مجال للشك في عقلها:

-أبدًا والله، بالعكس ده أنا مبحسش بالأمان غير وأنا معاه.

في تلك الأثناء كان "هيثم" قد انتهى لتوه من إحضار المشروبات لضيوفه، استرق السمع دون قصدٍ منه للحوار الصادم بين الشقيقتين، غامت ملامحه كليًا، وشعر بالغضب يتصاعد في صدره لتشكيكها المتكرر في معاملته لزوجته. زفر الهواء ببطءٍ ليكبح غيظه، أراحه إلى حد كبير ردود "همسة" عليها، فهذا ذلك من الاحتقان المتزايد بداخله، سمعها تضيف أيضًا:

-وعلى فكرة أي حاجة عملها زمان قبل ما تتجوز مش فارقة معايا حتى أعرفها، يهمني هو بقى إيه دلوقتي.

قبل أن تلعب برأسها قرر "هيثم" الدخول وهو ينظر إلى "فيروزة" في
حدة، رحب بها بسخافة، وبتعابير عبرت عن انزعاجه منها:
منورة يا أبله.

بادلته نفس الرد السمج:
-أهلاً بيك يا جوز أختي.

.....

سحابة من الدخان الكثيف انطلقت دفعة واحدة من المبخرة الكبيرة
الموضوعة أمامه بعد أن وضع بها حفنة من البخور، ولسانه ينطق بعبارات
متلاحقة بصوت خافت للغاية. تراجع "فضل" برأسه للخلف، وسعل
باختناق لعدة مرات، قبل أن يطلب من الرجل -الخمسيني- الجالس إلى
جواره على المصطبة العريضة:
-كفاية يا شيخ، هاموت.

ضم الرجل طرفي قفطانه الأسود ليخفي بدلته السوداء القديمة، وتطلع إليه
من طرف عينه بنظرة ساخطة، ثم ألقى المزيد في المبخرة، كأنما لا يعبأ
برغبته، وييده الأخرى أدار حبات مسبحته مغمغماً بكلمات غير مفهومة.
تنحنح "فضل" بصوت متحشرح ليجلي أحبال صوته، وعلى غير استساغة
منه أخرج رزمة من النقود، ليناوله إياه، وهو يقول بغير رضا:

خد يا شيخ.

بمجرد أن أخذها بدأ في عدها سريعًا، ثم حدجه بنظرة أشد نقمًا على وجوده وهو يخاطبه:

دول ألف جنية بس!!!

بلزاجته غير المقبولة علق عليه قائلًا:

حلوين يا شيخ، لفهم أوام بدل ما يتقل بركتهم.

ألقى بالرزمة في حجره، وهدر به في عصبية:

إنت بتستعبط يا جدع إنت، دول حق الأسياد، فين أجرتي أنا؟

احتج عليه "فضل" بوجه منقلب:

ما إنت طالب كثير يا شيخ، هاجيبك منين؟

أشاح الرجل بوجهه الحائق عنه، وهدر في غيظ:

خلاص بناقص منه ده عمل، إنت اللي عايزني مش أنا.

دمدم "فضل" بترمتٍ وهو يخرج من جيب قميصه بعض الأوراق النقدية:

خلاص خد الـ 500 دول كمان.

خطفهم الرجل من يده، ونعته علنًا:

-أعوذ بالله منك، بخيل.

اشتاط "فضل" من تهكمه الصريح عليه، وقال بتعابير مستاءة للغاية:

ليه الغلط بس يا شيخ؟!

نظر له شزراً قبل أن يرد:

هو إنت خليت فيها شيخ؟

أشار "فضل" بيده وهو يخبره:

حطب انجز كده، واعملنا عمل يطلع من نافوخها.

بعد زفير سريع التفت ينظر إليه متسائلاً:

جبت حاجة من قطرها؟

برزت ابتسامة عريضة على محياه وهو يرد:

-أيوه، وصورتها كمان.

هز الرجل رأسه متمماً:

-حلو..

دس "فضل" يده في جيب سرواله القماشي ليخرج لفافة بلاستيكية سوداء، أعطاه للرجل الذي فتحه لينظر بداخله، تلمس قماش الدانتيل للثوب الداخلي بيده وهو يسأله:
- كانت لبسائه؟

حك مؤخرة عنقه قائلاً بنظرات استغراب:
- مش عارف، هي تفرق يعني؟
اختلج وجه الرجل بعلامات السخط، وقال في قنوط:
- أه طبعاً، أومال هي جيب مفعول إزاي؟!
فكر "فضل" قليلاً، ثم أخبره بعد نحنة سريعة:
- هو أنا لاقيته في الدولار.

تفحص الرجل اللباس التحتي بعينين كالجمهر قبل أن يتكلم:
- شكله مش ملبوس.

بنظرة عبثية خبيثة سأله "فضل" بوقاحة:
- هو إنت خبرة في الحاجات دي يا شيخ ولا إيه؟
رمقه بتلك النظرة الدونية وهو يرد:

-لأ ببيان عليه يا فالح.

ضحك "فضل" في لؤم وهو يستظرف:

-خبرة إنت يا شيخ.

لم يعلق عليه الرجل، واكتفى بمنحه نظرة احتقارية، قبل أن يعاود التحديق في الصورة الفوتوغرافية ليضيف بعدها:

-أنا هعملك على الصورة، وأدفنه في قبر لسه مفتوح.

توهجت عيناه بشراسة وهو يعقب في انتشاء:

حلو الكلام، بس ده هيخلص امتي؟

فرك الرجل ذقنه الطويلة كأنما يهذبها، ثم قال:

هكلمك، بس الأسياد هيحتاجوا آ...

قاطعه قبل أن ينهي عبارته محتجًا في تمر صارخ:

هما أسيادك دول مفاجيع ولا إيه؟

زجره الرجل صائحًا في عصبية رافضة لتطاوله غير المقبول:

-مش ليا، للأسياد يا ابن الأصول!!!

نهض "فضل" من مقعده غير المريح، وأخبره ببرود سمج وهو يلوح بيده في الهواء:

-أما أشوفك خلصت العمل نبقى نراضي الأسياد.

سدده له الرجل نظرة حاقدة للغاية ظلت تتبعه وهو يتحرك نحو باب غرفته المعتمة قبل أن يسبه في غلي:

-واحد بنخيل وجعان !!

.....

الفصل المائة والثاني والعشرون

بالكاد تحامل على نفسه ليتجنب النظر إليها طوال الدقائق التالية، لم يرغب في افتعال المشاجرات معها؛ لكنها استثارت عصبته بشكوكه غير الصحيحة، ربما لم يكن منذ البداية يسير على خطٍ مستقيم، ومع هذا سعى جاهداً لئلا يعود إلى ما كان عليه سابقاً من الاستهتار والرعونة. اتجهت أنظار "هيثم" نحو "آمنة" التي هتفت تشكره بامتنان واضح:

دائماً عامر يا حبيبي.

أوماً برأسه معقباً:

تسلمي يا حماتي.

جمعت الكؤوس الفارغة في الصينية، وأوشكت على الخروج من الغرفة لوضعهم في أماكنهم بالمطبخ بعد تنظيفهم؛ لكن اعترضت "فيروزة" طريقها قائلة بإصرار:

هاتيهم يا ماما، أنا هوديههم المطبخ

شعور الكره والنفور كان متبادلاً مع زوج شقيقتها، لم تحبذ البقاء معه في نفس المكان، وهي تكن له قدرًا لا بأس به من الضيق، اعتمادًا على خبرتها السابقة معه، وإن كانت تسعى للنظر إليه من منظور مختلف.

.....

سحبت نفسًا عميقًا، وأدت مهمة تنظيف الكؤوس على وجه السرعة، ثم أعادت ترتيب الفوضى الحادثة في المطبخ، قبل أن تلتفت لتجده واقفًا عند أعتابه يرمقه بتلك النظرة الحادة. أبعدت "فيروزة" عينيها عنه، وبدأت إلى حد ما عصبية في حركتها، تقدم "هيثم" منها متسائلًا بحنقٍ رغم انخفاض نبرته وهو يغلق باب المطبخ خلفه قاصدًا الانفراد بها:

-إنتي عايزة مني إيه؟

قطبت جبينها مرددة في جديةٍ شبه حائرة، وقد تعلقّت أنظارها بالبواب المغلق:

-أفندم.

سألها مباشرة، ووجهه يعكس استيائه العظيم منها:

-بتلعي في دماغ مراتي ليه؟

تفقه ذهنها إلى سبب طرحه هذا السؤال تحديدًا، على الأغلب تلصص عليها، وسمع حوارها مع توأمتها. بشجاعةٍ لحظية رفعت رأسها إليه، نظرت له بتحدٍ وهي ترد:

-والله أنا من حقي أطمئن على أختي، وأتأكد إنها كويسة.

بدا وكأن وجهه يفح نارًا من غضبه، فهتف بنبرة مالت للارتفاع قليلاً:

-إنتي خايفة عليها مني؟

أجابته بنزقٍ دون أن تهتز منها شعرة:

طبيعي أخاف وأقلق من واحد زيك معروف هو كان إيه، وعمل إيه زمان .. ده لو كنت ناسي.

لم يكن "هيثم" من ذوي القدرة على ضبط انفعالاتهم، خاصة حينما يتم استدراجه نحو منطقة الغضب، زادت وتيرة التوتر بينهما، وصاح بها بغلظة:

-أنا مقولتش إني ملاك، بس مراعي ربنا في مراتي، فماتجيش إنتي وتخريبها.

رددت في تهكم، وهي تنظر إليه في عدم تصديق:

-أخريها؟ إنت عارف كويس إنت اتجوزتها إزاي.

بادلها نظرة بغیضة قبل أن يدمدم قائلاً:

مضبوط، بس حبيتها، ومستعد أعمل أي حاجة عشان تبقى مبسوفة معايا، وهي ماشتكتش.

هزت كتفها قائلة بنصف ابتسامة، كأنما تسخر منه:

-أتمنى تفضل كده.

بلغ غضبه مبلغه، فهدر بها في تشنج، وقد اشتعلت نظراته نحوها:

- في إيه؟ إتي بتعاملي معايا كده ليه؟

توترت من عصبيته الزائدة، خاصة أنها نشطت ذاكرتها بمشاهد حملت نفس الأوجه القميئة الغاضبة التي ألحقت بها الأذى وبشدة. عفويًا تراجعت خطوتين للخلف لتتأى بنفسها منه، بينما استمر "هيثم" في الصياح بحدة وهو يلوح بذراعه أمام وجهها:

- عمري ما جيت جمبك، ولا أذيتك، وعارف إنك مش طيقاني، ولا أنا بقبلك كمان ...

تفاجأت من اعترافه الفظ هكذا علنًا، وحملت فيه بصدمة لجرأته على الإفصاح عن ذلك بسهولة، كأنما كان يتحين الفرصة للنطق بهذا دون ندم أو خجل، استمرت في الابتعاد عن محيطه، في حين أنه واصل هديره بها مهددًا:

- بس متقلبيش عليا مراتي وتخليها تكرهني، عشان مش هسكت!

لم تظهر إحساسها بالخوف في تلك اللحظة، فنفس التعابير الحارقة جعلت بدنها يقشعر، وهتفت في شجاعة غير حقيقية:

- أنا بحذرك!

انتفض يلوح بذراعه بعدائية أمام وجهها وهو يكرز على أسنانه:

-وأنا قولتلك مليون مرة أنا بحبها، ليه مش مصدقة؟

ثم التقط بيده أحد الأطباق الصغيرة، وقذفه أرضاً ليتحطم في عنف جعلها تنفض خوفاً، وهو مستمر في صياحه الذي ارتفع على الأخير:

-عاوزاني أعملك إيه عشان أثبت إن نيتي صادقة؟

اتسعت عيناها رهبة منه، وتراجعت بظهرها للخلف حتى التصقت بحافة الحوض وهي ترتجف كلياً من طريقته، رغمًا عنها استحضرت في عقلها وجه "آسر" وتصرفاته العنيفة معها، فأصبحت تراه متجسداً أمامها بدلاً من منه، متذكرة كيف استحقرها، وعاملها بدونية قبل أن تتحول معاملته لطريقة بدائية ووحشية ترسخت معاملها العنيفة في الذاكرة قبل الجسد، وظلت آثارها ملازمة لها إلى الآن. تسمر الأخير في مكانه متابعاً لومه الصارخ بها:

-إنتي إيه؟ معنديش دم؟ ابعدي عننا بقى، وسبينا نعيش كويسين.

انتصبت شعيرات جسدها أكثر، وأصابها انتفاضة أخرى مصحوبة بوخزات حسية جعلتها غير قادرة على الصمود، بالكاد نجحت في التمالك حينما جاءت "آمنة" على إثر صراخه، لتتساءل بعد أن فتحت الباب ووزعت نظراتها الحائرة بينهما:

-في إيه يا "هيثم"؟

كانت والدتها تظن في البداية أن الصباح قادمًا من الخارج لكونه غير واضح؛ لكن ما إن أرهفت السمع وتأكدت أنه يأتي من داخل المنزل، حتى أسرعَت ناحية المطبخ لتفقد الأمر، بقيت نظراتها تتجول على الاثنين في تخطيط وهي تتساءل:

-في إيه يا ولاد؟ حصل إيه؟

لعن "هيثم" من بين أسنانه بصوتٍ خفيض؛ لكن بدت أصابع الاتهام تشير إلى "فيروزه" من طريقته العصبية، قالت الأخيرة فجأة بصوتها المهتز:

-أنا .. هামشي يا ماما.

رمقتها والدتها بنظرة مليئة بالشك وهي تسألها:

-تمشي؟

بلعت ريقها وادعت كاذبة بتلعثم:

عندي مشوار، مش هتأخر.

تقلصت تعابير وجهها، وهتفت مستنكرة ذهابها المريب:

-مشوار إيه السعادي؟ في إيه يا "فيروزه"؟

لم تنظر ناحيتها وهي تواصل الكذب:

-حاجات خاصة بالمحل، عن إذنك.

كانت بحاجة للهروب من هذا الجو المطبق على صدرها قبل أن تنهار،
وتكسب شفقة ليست بحاجة إليها ممن يكن لها الكراهية، فرت بخطوات
راكضة نحو الخارج صافقة باب المنزل خلفها. اعترضت "آمنة" طريق "هيثم"
وسألته بتوجس:

حصل إيه يا ابني؟ وكتو قافلين الباب عليكم ليه؟
زفر سريعاً قبل أن يجاوبها:

مافيش يا حماتي، دي كانت بتوصيني على "همسة" عشان ماتعهاش في
الحمل.

برقت عينها في خيفة وهي تخبره:

أوعى تكون ضايقتك بكلامها، أنا عارفة بنتي، بس هي والله طيبة.
صمت ولم يجيبها، فأظهرت قسماته امتعاضاً صريحاً، عادت تسأله وهي تتأمل
البقايا المتناثرة للطبق المهشم

حطب وإيه البهدلة دي؟

قال في جمود:

-الطبق وقع مني.

ربتت على كتفه في رفيق، وطلبت منه وهي تشير برأسها:

-ربنا يسترها معاكو .. روح لمراتك وأنا هنضف الأرضية.

انسحب مغادرًا المطبخ وهو ما زال على حالته الحائقة، اتجه إلى الشرفة ليبقى بها للحظات حتى يهدأ تمامًا قبل أن يعود إلى زوجته مدعيًا أن شيئًا لم يكن.

.....

ترجل من سيارته بعد أن أوقف المحرك، ثم استقام واقفًا، وأوصد بابها ليستند برفقه بعد ذلك على سقفها المعدني، أطلق "تميم" ضحكة سريعة، وأكمل الحديث في هاتفه المحمول مع أقرب رفاقه بمرح:

ده إنت هتلاقينا فوق دماغك يا صاحبي، بارك للحاج والحاجة، وإن شاء الله نقوم بالواجب وزيادة.

قهقه ضاحكًا من جديد قبل أن ينطق وسط ضحكاته القصيرة:

-هيطلع زي أبوه أكيد، عصب شديد زي كل رجالة عيلة "حرب".

لف ميدالية مفاتيحه حول إصبعه وهو يتابع كلامه:

-هاجيبك بنفسك أبارك طبعًا، هو التليفون ده ينفع.

احتفظ وجهه بابتسامته العذبة وهو ينهي المكالمة:

-الله يسلمك.

أعاد "تميم" الهاتف إلى جيب بنطاله الجينز، وسار على مهل متجهًا إلى مدخل بنايته، بدا وكأن الحظ قد أعطاه منحة أخرى من عطاياه، فبهيته الساحرة أطلت عليه من وسط العتمة كقبس ينير الظلام؛ لكنها لم تكن ككل مرة مبتسمة مشرقة، كانت محنية الرأس، تسير في عجالة، فلم تره، واصطدمت بكتفه خلال اندفاعها الأهوج للأمام، ارتدت تلقائيًا للخلف، واعتذرت ممن صدمته وهي ترفع رأسها إليه:

-أسفة.

وقف "تميم" قبالتها يمنعها من المرور، وتأملها عن كثب بدقة، نظراتها الكسيرة حزت في قلبه، وأشعرته بانقباضة غير مريحة في صدره، سألها على الفور وهو يتفرس في معالم وجهها بنظرة شمولية:

-إزيك يا أبله؟ إنتي بخير؟

لم تتجراً على إطالة النظر إليه، أخفضت عينيها الدامعتين، تقاوم الشعور بالخوف والمذلة، ازداد إحساسه بأنها ليست على ما يرام، سألها مرة أخرى بإلحاح ملتحاح:

-في حاجة حصلت؟

ارتجافة يدها المسكة بحقيبتها تضاعفت، ومع هذا قالت بوجوم تعيس:

-لا.. ومن فضلك حاسب.

لم تنتظر رده، بل تجاوزته لتخرج من المدخل وهي تمسح بظهر كفها دمعة
فرت من طرفها، التفت يتبعها بعينه مرددا بتعابير مبهوتة:
شكلها مش طبيعي.

لم يستطع الصعود للأعلى وتركها ترحل هكذا، حسم أمره وقرر الذهاب
خلفها، للغرابة كانت كمن يركب الريح، تطير لا تسير، مما اضطره لاستقلال
سيارته للحاق بها، بقيت نظراته مرتكزة عليها خلال قيادته، ولسانه
يتساءل بقلبي:
هي رايحة فين كده؟

.....
قادتها قدمها إلى تلك البقعة التي احترق عندها أول أحلامها، وجدت
"فيروزة" نفسها تجلس على الكورنيش تحرق في الفراغ بعينين تسبحان في
الدموع المفعمة بكل الألم، استجدائها لتعاطف الغير لم يكن من خياراتها
المطروحة؛ لكن أن تعايش إحساس البغض، المصحوب بالانتقاص من
النفس كان كافيا لإعادتها للمنطقة المظلمة في أعماقها، تلك الذكريات التي
أرادت تحصينها بعشرات الأسوار الوهمية لتمنع حتى نفسها من العودة إليها.
تصلبت في مكانها غير عابئة بالنظرات الفضولية المتطلعة إليها وهي تبكي في
صمتٍ مرير.

بالرغم من وجود تحذير صريح بعدم صف المركبات هنا، إلا أنه لم يهتم بالمخالفة التي سيتلقاها، وأوقف سيارته بمحاذاة رصيف الكورنيش، هبط "تميم" منها متجهًا إلى حيث يجلس طاووسه الحزين، رأى الدموع تفرق وجهها، كان من رابع المستحيلات أن يتركها هكذا، دون أن يكون إلى جوارها، حتى وإن نبذته، جلس إلى جوارها تاركًا مسافة متر بينهما، وقلبه يعتصره الألم، كور قبضته ضاغطًا على أصابعه حتى ابيضت مفاصله، واستطرد فارضًا نفسه عليها في الحديث:

أنا عارف إني مش من حقي أدخل في شئونك، بس مش همشي من هنا إلا لما ترجعي بيتك.

كان قد التفت إليها مع ختام جملته، لم تنظر ناحيته مطلقًا، ولم تنطق بكلمة، بدا وكأنه يخاطب نفسه، لولا رؤيته لعبراتها المنهمرة على خدها من زاويته- لظن أن وجهها تحول لقطعة جامدة من الحجر، استبدت به هواجسه الخائفة عليها، وسألها في قلق كبير:

إنتي كويسة؟

استطاع سماع شهقاتها المكتومة رغم إطباقها على شفيتها بقوة، لتمنع انفلاتها من بينهما. نهاج صدرها، وتشنج جسدها الملحوظ أكد له احتمالية تعرضها لنوبة أخرى، اقترب منها يناديها بنبرة خائفة:

إنتي سمعاني يا أبله.

تجراً على تحريك يده ناحية قبضتها المتشنجة على الكتلة الحجرية الجالسة عليها، حاول لمسها، فانتفضت قابضة على كفه بقوة متصلة جعلته يدرك مدى سوء حالتها، حينها ناداها باسمها مجرداً:

- "فيروزه"!!

وقف قبالتها يخاطبها؛ لكنها لم تسمعه، بدا صوته بعيداً للغاية، بل ويزداد تباعدًا، كأن أحدهم يشوش صوته ليصبح غير واضح، رمقه بنظرة غريبة رأت فيها لهفة حقيقية مطلة من عينيه، وخوف صادق لم يكن بحاجة لتزييفه، ابتسمت في سخرية مريرة، وسط الهلاوس التي تخوضها الآن أيعقل أن تكون طبيبتها محقة بشأن ما أخبرتها به في وقت سابق؟!

كانت غير فاقدة لقدرتها على التفكير والاستنتاج، استنزفت مقاومتها، ونفذت آخر ذرات صمودها لهذا اليوم، لهذا أغمضت عينيها مستقبلة غيمة الظلام التي حاوطتها بترحاب شديد، فتراخى جسدها، وكادت تفتش الأرضية الصلبة لولا أن تلقفها بذراعيه.

حملها "تيم" بجذير وسط دهشة المارة، ليسرع في خطاه متجهًا إلى سيارته، أحدهم كان يلحقه متسائلًا:

هي مالها؟

لم ينظر لهذا المتطفل، واكتفى بمنحه ردًا يرضيه:

-المدام تعبانة شوية.

ظن الرجل أنه يتحدث عن زوجته، فقال في تفهم:

-ربنا يشفي عنها، ألف سلامة.

تجاهله ليهبط بها عن الكورنيش، وعاد إلى سيارته ليمدها في المقعد الأمامي وهو حريص كل الحرص على الانتباه لها. لف حول سيارته، ليجلس خلف المقود وغمغم راجيًا وهو ينظر إلى وجهها الشاحب نظرة مرعوبة:

-استر يا رب، عديها على خير يا كريم !!!

.....

الفصل مائة وثلاثة وعشرون

من أجرم هكذا في حقها لتغدو هشة من الداخل والخارج؟ حالها تبدل، وأحوالها تغيرت، لم تعد تلك القوية المعتدة بنفسها، بل كانت تذبل يومًا بعد

يوم؛ وكأن رصيدها من الكفاح قد انتهى! وحين أفاقت من دوامتها، وبدأت تستعيد ما افتقده، عادت لنقطة الصفر خالية الوفاض، كأنما لم تحرز شيئاً. تطلع "تميم" إلى وجه "فيروزة" الغائب عن الوعي بقلقي بالغ، أظهرت ملامحه مدى خوفه عليها، قاد سيارته إلى أقرب مشفى وسط تركيزٍ شبه ضائع، كان ينظر إليها بين الفنية والأخرى، آملاً ألا تتدهور حالتها للأسوأ، خاصة أنه اختبر معها لأكثر من مرة شعور السقوط في بئر ظلامها.

بالكاد بلغ المشفى بأعصابٍ شبه متلفة، صاح عندما عبر البوابة الرئيسية منادياً بصوته الجمهوري:

عايز دكتور.

أوقف سيارته عند المدخل الرئيسي، وترجل منها منادياً بنفس الصوت الهادر:

حد يساعدي أوام.

رفع أنظاره للأعلى بعد أن فتح الباب الملاصق لـ "فيروزة" ليجد بضعة ممرضين يهرولون في اتجاهه بحاملٍ طبي، امتدت ذراعه خلف ظهرها، وأسفل ركبتيها، ثم حملها من على مقعدها، وعاونهم في تمديدها على الحامل، قاموا بدفعها وإدخالها إلى الطوارئ في الحال، أسرع في خطواته ليلحقهم؛ لكن استوقفه أحد الموظفين طالباً منه:

-مش هينفع يا أستاذ، حضرتك تعالى معايا عشان تملّي البيانات بتاعتها.
على غير إرادته اضطر أن يتراجع ليسير مع الموظف؛ لكن ظل قلبه -
ووجدانه- معلقًا بها!

.....

لا يعرف بالضبط كم مرة نظر فيها إلى ساعة هاتفه المحمول، ليحسب الوقت
الذي مر عليها منذ أن اختفت بالداخل، احترقت أعصابه من الانتظار،
وكاد يصل لحافة الانهيار من شدة خوفه عليها، تنفس بعمق لمرات عديدة،
ليثبط ما يعتري صدره من مشاعر مستعرة، أراد المساعدة فمنح الطبيب
المكلف بتفقد حالتها لمحات غير مرتبة عن طبيعة ما شهده في حالته،
ليساعده على التشخيص الصحيح. جال بخاطره أن يهاتف "هيثم" ليستعلم
منه عن الأسباب التي أدت لوصولها لتلك الحالة السيئة، لم يفكر مرتين،
وضغط على زر الاتصال به، حياه في اقتضاب، ثم سأله بلا تمهيد:

هي الأبله كانت عندكم يا "هيثم"؟

تردد صوته قبل أن يجاوبه:

-أيوه، بس مشت من بدري.

احتدت نبرة "تميم" وهو يعقب عليه بتعابير غائمة:

ما أنا شوفتها، وحالتها زي الزيت.

ما كان من ابن خالته إلا أن قال له دون تجميل:

-بصراحة أسلوبها يحرق الدم، ما إنت عارف طريقته معايا.

بدأت معالم الصورة تتضح في ذهنه، فسأله بعد زفيرٍ ثقيل:

إنتو شديتوا مع بعض؟

تنحنح في خفوتٍ ليجيبه بحذرٍ:

حاجة زي كده.

انفجر صائحًا فيه دون أن ينتبه لتواجده في رواق المشفى الهادئ:

مش أنا منبه عليك يا "هيثم"!!؟

رمقته ممرضة ما تسير على مقربة منه بنظرة محذرة، فرفع يده كنوع من

الاعتذار غير الشفهي، ركز مع رد "هيثم" المبرر له:

هي اللي مستفزة اقسم بالله.

كز على أسنانه مانعًا نفسه من شتمه، وسأله على مهلٍ كأنما بهذا يحاول

ضبط أعصابه:

-حكيلي على اللي حصل بالضبط.

بعبارات موجزة سرد له ما حدث من مشادة كلامية انتهت سريعًا دون
أضرار فعلية من وجهة نظره. اشتاطت نظراته بشكل واضح، وتفشى- في
وجهه حمى الغضب، يكاد يُجزم من يتطلع إليه في تلك اللحظة أن ملامحه
تبدو كقنبلة موقوتة، صوت أنفاسه كان مسموعًا وهو يخبره:

طيب، خليك عارف بقى إن جالتها الحالة إياها في الشارع، ووقعت من
طولها، وأنا نقلتها على المستشفى.

هتف مصدومًا:

-إيه ده، معقولة؟!

عنقه "تميم" بزجرة شبه مسموعة:

يا ريت تكون مرتاح دلوقتي.

حاول التبرير فقال بتلعثم:

- "تميم" أنا ...

لم يعطه الفرصة لإيضاح موقفه، وقاطعه بلهجة صارمة تحمل في طياتها
الإنذار المهدد:

-اسمعي، وماتقطعينش ثاني، اللي حصل حصل خلاص، بس من هنا
ورايح مافيش أي صدام معاها، ماشي؟

رد دون نقاش:

حبيب.

استطرد يكمل بعدها:

تاني حاجة، ماتبلغش حد من أهلها لحد ما أطمئن الأول، وأشوف إن كان
الوضع يستاهل يعرفوا ولا لأ، مافيش داعي للشوشرة على الفاضي.
بالطبع لم يكن ابن خالته في وضع يخوله بالجدال معه، فأبدى طاعته قائلاً:
- ماشي.

ضغط على زر إنهاء المكالمة وهو يبرطم في غيظٍ متزايد:

هي كانت نقصاك يا "هيثم"!!

دس هاتفه في جيبه، وانحنى بجذعه قليلاً للأمام، ليستند بمرفقيه على
ركبتيه، وواضعاً وجهه بين كفيه منتظراً بأعصابٍ متلفة سماع ما يطمئنه.

.....

وجد في قربه منها كل السعادة الممكنة، وفي بعده عنها كل التعاسة المروعة،
لما لا تريح قلبه المشتاق، ويحدث بينهما الوصال؟ أم تراها تتركه على جمر
العشق يقات؟ بعد برهةٍ من انخراطه وسط حزمة لا بأس بها من الأفكار

السوداوية غير المبشرة بالمرّة، حل ظل طويل عليه، فرفع رأسه ببطء لينظر لصاحبه؛ لكن سرعان ما قفز واقفاً ليسأله:

خير يا دكتور؟

ابتسم الطبيب وهو يُبلّغه بصوته الهادئ:

فاقت والحمد لله، كويس إنك ادتني فكرة عن حالتها.

سأله في لهفة، وكامل نظراته عليه:

-يعني بقت أحسن؟

هز رأسه قائلاً بتردد بائن على وجهه قبل نبرته:

ده على حسب ...

حملق فيه "تميم" بوجومٍ شديد، بينما استمر الطبيب في سؤاله:

هي بتاخذ أدوية؟

أجاب بعد تفكيرٍ سريع:

-أيوه، أنا كنت جبته ليها قبل كده.

تساءل الطبيب وهو ينظر ملياً إليه:

-بانتظام؟

انعكست الحيرة على قسماته، وأجابه:

مش عارف.

أخبره الطبيب كنوع من التحذير:

ضروري تتأكد، بحيث الحالة دي متكررش ثاني ليها، ونصيحتي ليها تبعد
عن أي ضغوط نفسية الفترة الجاية.

أوما برأسه هاتقًا:

حاضر، اللي تشوفه يا دكتور.

مد الطبيب يده ناحيته بوصفة طبية دونها سابقًا، ثم قال:

دي شوية مهدئات مافيش منها ضرر عليها، تقدر تصرفها من الصيدلية
اللي هنا.

أخذها منه وهو يشكره:

ماشي يا دكتور، تعبناك.

.....

تأكد من إحضار ما يلزمها من أدوية قبل أن يتجه إلى الفراش الطبي
المستلقية عليه بغرفة الطوارئ بالمشفى، لم يتم نقلها لغرفة خاصة بسبب
إصرارها على المغادرة، كما أن حالتها لم تكن تستدعي البقاء تحت الملاحظة.

اجتاح دوار مؤلم رأسها وهي تنزل ساقها عن طرف الفراش الضيق، مما اضطرها للتشبث بحافته للحظاتٍ حتى تستعيد اتزانها، أقبل عليها "تميم" بعد أن حددت له الممرضة مكانها بين بقية المرضى المفصولين عنها بجواجز قماشية بيضاء اللون، نظر إليها في خوفٍ وسألها بجزع:

-إنتي كويسة؟ أناديلك حد من الدكاترة يشوفك؟

رفعت يدها لتشير له قبل أن تتكلم بصوتٍ نرم عن تعبها:
-لا.. ما فيش داعي.

تطلع إليها بنفس الخوف، لكنه تنهد بارتياح مخاطبًا إياها بعفوية تامة:
خضتيني عليكي.

رفعت "فيروزة" عينيها الحزینتين لتحقق فيه باستغرابٍ، لم يندم لاعترافه النزق، رغب في أن تعلم بأهميتها الشديدة عنه، أن ما تعانيه بمفردها يؤثر عليه بقوة، قرأت في تعابيره اهتمامًا مبالغ فيه، فضاعف من شكوكها، بل إنه أوشك على تأكيد ما ناقشته في وقت سابق مع طبيبتها، أخفضت رأسها وهي تشعر بالارتباك والتخبط، لم ترغب في استنباط أمور وهي في تلك الحالة. استجمعت قوتها لتنهض بجذير، فتقدم منها "تميم" خطوة مقترحًا في تهذيب:

حائزة مساعدة؟

لف دوار آخر سريع برأسها مما جعلها تترنح، ومع هذا نجحت في التماسك،
والاستناد بقبضتها دون قصدٍ على ذراعه الممدودة إليها، سحبتها على مهلي
وهي تعتذر منه:

سوري.

حمحم بخفوتٍ:

-ولا يهملك، أنا موجود معاكى لحد ما أوصلك البيت.

ثم أشار لها نحو طريق الخروج متابعًا كلامه ببسمة صغيرة:

-اتفضلى يا أبله.

تباطأت في سيرها لئلا تدع الدوار المزج يعصف برأسها، ولم يتعجل "تيم"
ذهابها، كان متمهلاً في خطاه ونظراته تراقبها بحرص واضح. لن ينكر أن
الحزن الذي احتل قلبه خف بقدرٍ كبير بعد أن عادت إلى وعيها، وبادلتة
الحديث، وإن كان بكلماتٍ مقتضبة؛ لكنها تكفيه ليرضى.

.....

تردد للحظاتٍ قبل أن يفتح لها الباب الملاصق للمقعد الأمامي لسيارته
لتجلس فيه، توقع أن يُقابل عرضه بالرفض، وربما تطلب استئجار سيارة
أجرة؛ لكن على غير المعتاد استقرت به في صمتٍ، وكان في أوج فرحته،

غير مصدق أنها اختارت أن تكون إلى جواره مجازًا. أغلق الباب بهدوء وهو يخبرها بابتسامة عريضة:

حمدلله على سلامتك.

دار حول مقدمة سيارته، وجلس بسعادة لا توصف خلف المقود لينطلق بعدها بسرعة بطيئة نسبيًا، في حين أراحت "فيروزة" رأسها على الجانب، تتطلع إلى معالم الطريق بنظرات جمعت مختلف درجات التعاسة. ما زال التردد ممسكًا بـ "تميم" وهو يحاول جذب أطراف الحديث معها، بدت له فرصة لا تعوض، ليس فقط للحوار معها، وإنما أيضًا لانتشال الحزن من نفسها الكسيرة. أجلى صوته، واستطرد يخاطبها وهو يختلس النظرات ناحيتها:

-الفترة اللي فاتت إنتي كنتي مضغوطة في تجهيز كل حاجة في محلك لواحدك، ده تلاقيه تعبك ...

لم تنظر نحوه، واستمرت في تحديقها الشارد للطريق، فتابع مقترحًا:
-أما ربنا يفتحها عليك شوفيلك بنت ولا اتنين يقفوا معاك يساعدوكي ويخففوا الحمل شوية.

كانت نظراته مشتتة، ونبرتها إلى حد كبير معذبة وهي تتساءل:

هو أنا للدرجادي وحشة؟

تعجب من سؤالها الغريب، وأجاب نافيًا بما ظهر وكأنه تغزل بها:

إنتي أحلى من البدر في تمامه، أجمل ما شافت عيني.

انخفضت نبرته مع اختتام جملته الأخيرة متوقعًا أن تهال عليه بتأنيب عنيف؛ لكنها بقيت صامته، لا تنظر في اتجاهه، تألم قلبه في حرقه، وأخبرها بعد زفير سريع:

إنتي جدعة أوي، مافيش زيك، ماتخليش حاجة تكسرك.

لدهشته التفت تنظر إليه في حزن عميق، بدت غير مقتنعة بما يحاول بثه في نفس تهشمت مرة بعد مرة، فلم يبق إلا الفتات ليدعس كذلك تحت الأقدام! بادلها نظرة صامته محملة بما يضره قلبه لها، رجا أن تنفذ تلك النظرة العميقة إليها، لترى داخل روحه الذائبة عشقًا فيها. قطعت تواصلهما البصري لتعاود التحديق في المعالم المتداخلة من الطريق.

بعد بضعة دقائق كان يصف سيارته أسفل بيتها، انتظر أن تتحرك من مكانها وتخرج؛ لكنها ظلت جالسة، غير مدركة أنه أوقف المحرك، ناداها بصوت شبه هامس وهو يشملها بنظراتها الحانية

يا أبله!

استدارت ناظرة إليه في غرابة، فأخبرها ببسمة لطيفة وهو يشير بسبابته:

ده البيت.

كأنما قد أفاقت لتوها من سرحانٍ مريب، دقت النظر حولها، واستوعبت
ما قاله لتضع يدها على قفل الباب وتترجل من السيارة، تبعها قائلاً في
توجسٍ تسرب إليه:

-أنا هستنى هنا شوية لحد ما أطمئن إنك طلعت.

هزت كتفها قائلة بعدم مبالاة:

-اللي إنت عايزه.

أولته ظهرها وتحركت بنفس الخطوات البطيئة، فهتف يوصيها بقلبٍ يحزه
الأم:

-خدي بالك من نفسك ...

انزلق لسانه متابعاً بحذرٍ تلك المرة:

-إنتي غالية عند الكل ...

أطبق على شفثيه ليحبس الحروف في جوفه وهو يكمل في لوعة:

-وأولهم أنا.

.....

برزت عيناها في استنكارٍ حائق بعد أن رأتها من الشرفة تترجل من سيارته، وعلى الرغم من علمها الجيد بأن صاحبها لا غبار على أخلاقه، إلا أن ألسنة البشر- لا تعرف التمييز، يميلون لاختلاق الأكاذيب، وترويح الشائعات من بضعة كلمات ملفقة. اختلجت تعبيرات "آمنة" بحمرة مستاءة، دارت بنظراتها في المكان لتتأكد من عدم رؤية أحدهم لابنتها قبل أن تنسحب من مكانها لتتجه إلى باب المنزل، والضيق يتزايد في صدرها. انتظرت بصبرٍ فارغ صعودها على الدرج، لتخرج إليها تسحبها من ذراعها من على أول البسطة، ثم دفعها بعصبيةٍ إلى الداخل، أغلقت الباب وسألتها بصوتٍ محموم:

-كنتي فين يا "فيروزة"؟

طاقتها المستخدمة للتبرير لم تكن متوفرة بالقدر الكافي، فأثرت الصمت، وواصلت سيرها المتخاذل نحو غرفتها، مشيت "آمنة" ورائها تسألها في نبرة شبه متعصبة:

-مش دي عربية المعلم "تميم" اللي إتي نازلها منها؟ هو إتي كنتي معاه؟
تهدت "فيروزة" بعمقٍ، وسألتها بصوتٍ خافت وهي تجر ساقها الهزيلتين:

-هتفرق؟

استبد بها ضيقها، وبلغت عصبيتها أقصاها فصاحت بها تؤنبها:
يا بنتي ردي عليا، بدل ما الناس تأكل وشي!!
وكانها انتزعت فتيل لغم دفن في حقة سالفة دون أن تعي خطورته،
احتدت نظرات "فيروزه"، واشتاطت وهي تلومها:
-الناس؟ هو ده اللي يهكم الناس هاتقول إيه؟ مش فارق معاكي أنا؟!!
أخبرتها ببساطة:
-أيوه، ما احنا مش عايشين لوحدها ...
ثم رمقتها بتلك النظرة اللائمة وهي تتابع في قساوة لا تخلو من الاستفزاز:
-ده غير إنك أرملة، وأصحاب النوايا السوء ممكن يفكروا إن السكة سالكة،
وإنك آ....
لم تتحمل سماع هذا الافتراء الظالم وتسكت عنه، قاطعتها في عصبية
ارتفعت وتيرتها في ملح البصر:
-نعم؟ إيه الكلام ده؟
ردت عليها والدتها بنفس الحدة:
-أنا بوعيك باللي ممكن يتفهم غلط، الناس مش بتسيب حد في حالة.

اهتاجت "فيروزة" صارخة في وجهها، ومشاهد غير سارة تصارع بضروة
لاقتحام عقلها:

-الناس، الناس، الناس!!

لم تحو "آمنة" ابتها، واستمرت في الضغط عليها:

-أيوه الناس، لازم نعملهم اعتبار.. إنتي مش عايشة لوحداك على جزيرة
مقطوعة.

ارتعشت أطراف "فيروزة" في عصبية مخيفة، وهدرت بكل ما اعتراها سابقًا
من حرقه مؤلمة:

عشان خاطر الناس دول أنا اتهمت واتهدلت ...

كانت والدتها على وشك الرد؛ لكن أخرسها صياح "فيروزة" الرهيب:

عشان كلام الناس اللي خايفة عليهم اترميت في الغربة لوحدي من غير
سند ولا ظهر يحميني.

استمرت في رفع نبرة صراخها وهي تخبرها بألم لا يزال نابضًا بها:

عايزة تعرفي حصلي إيه هناك؟

رمشت "آمنة" بعينها في ارتعاب فزع، فتعاير ابنتها، وحركاتها الانفعالية أخبرتها أنها في وضع سيء، دنت منها لتهديها؛ لكنها نبذت ذراعها وتراجعت مبتعدة عنها لتتابع في حنق:

هاقولك، خدت على دماغي، وبقيت أضرب كل يوم، وأتذلل وأتهان بأبشع الطرق، ومش قادرة أفتح بؤي ولا اشتكي.
نهج صدرها، وهدرت أنفاسها مع قولها:

أنا كنت بين الحياة والموت، مرمية في المستشفى، محدش دريان بيا.
انتزعت حجابها عنها، وأدارت رأسها للجانب وهي تُحدث فرقًا في شعرها، لتتطق بعد ذلك بنفس الصوت الصائح:

-بصي- شوفي كويس الغرز اللي مدرياها دي، من "آسر" بيه سليل العائلات المحترمة، اللي بتدعيه بالرحمة على طول

هبطت الصدمة عليها كصاعقة بعد أن رأت ما ترك من أثر في فروة رأسها، وبدأت عينها تحتجزان العبرات فيهما، في حين أرخت "فيروزة" يديها، واستقامت واقفة لتخبرها باعتزازٍ مخلخل:

هو اللي عمل كده فيا، عشان الشجاعة خدتني ووقفت قصاده وقولت لأ، كفاية ذل واستعباد وآ...

عجزت عن إخبارها بما اختبرته، وعاشته من معاناة بشعة أودت بها للحضيض. انخفضت نبرتها نسيًا، وتهدل كتفها في انكسار واضح عندما قالت بصوتٍ مهزوم:

-كل على اللي فاضل فيا ...

سرعان ما عاد الهياج ليستبد بنبرتها وهي تضيف:

-أنا كنت هموت على إيدته لولا إن ربنا كتبلي عُمر جديد.

رجتها والدتها في خوفٍ وقد فاضت عيناها بالدمع تأثراً:

-اهدي يا "فيروزة".

صياحها الصارخ أجبر الصغيرة "رقية" على الاستيقاظ من نومها بفزع، خرجت متسللة على أطراف أصابعها من غرفة أبيها النائم بعمق بسبب تأثير الأدوية الثقيل، فركت عينيها الناعستين، وتقدمت للأمام، وجدت ابنة عمها تتشاحن مع أمها في عصبية هوجاء، وقفت عند باب غرفتها، تتشبث بحافته، أو الأخرى أنها تختبئ وراءه خوفاً مما يحدث بينهما.

أمسكت "فيروزة" بمزهريّة صغيرة، التفت أناملها حولها بقوة، وصاحت بنظراتٍ عكست ظلاماً مخيفاً:

طالما الناس هيتحكموا في حياتي، أنا مش عايزاها، ولا عايزة الناس.

تحركت "آمنة" في عشوائية تحاول منعها من التصرف برعونة وهي تستعطفها:

-استني يا بنتي، اسمعيني بس.

نفضت يديها اللاتين تحاولان إيقافها، وقذفت بالمزهرية في عنفٍ مفرط نحو التسريحة، فسقطت مرآتها الكبيرة مهشمة بدويٍ مفرع، شهقت "آمنة" في رعبٍ، وصرخت "رقية" بخوفٍ، بينما امتدت قبضة "فيروزه" لتمسك بقطعة من الزجاج الحاد، وتطلعت إلى والدتها بنظراتٍ جوفاء خالية من الحياة وهي تخبرها:

-أنا خلاص تعبت من كل حاجة، بعمل اللي يريح الناس، لكن أنا فين من ده كله؟؟

لطمت "آمنة" على صدغها مستغيثة:

-يا لهوي، الحقوني يا ناس، غتوني!!

اشتدت قبضة "فيروزه" على نصل الزجاج القاطع، غير عابئة بالجروح التي نتجت عنها، ولا بالدماء التي نزفت منها، تخشب جسدها، وهدرت بأنفاسٍ منفعة، وقد كست عيناها قساوة مخيفة:

-أنا هريحكم كلكم مني!!!!

.....

الفصل المائة وأربعة وعشرون

باسترخاءٍ ظاهرٍ عليه وهو مستلقي على فراشه، ضم ساقه فوق الأخرى،
وأراح ظهره للخلف مستندًا على وسادتين تحتاجان لإعادة نقض القطن
المحشو بداخلهما، نظرة سريعة سددها نحو باب غرفته الموصود، قبل أن

يتجراً على إخراج قطعة الثياب التحتية المحتفظ بها أسفل إحدى الوسّادتين
للنظر إليها عن كثب. رفعها "فضل" إلى مستوى نظره وهو يتحسس
ملمس قماشها الدانتيل، مستحضراً في ذهنه لحظة عودته إلى المشعوذ -
مدعي المعرفة والعلم - ليأخذها منه عنوة، بعد أن انتهى لقائه به بدقائق وهو
يقول بتهكم مستفز:

-ماظنّش إنها هتفيدك في حاجة.

ضّاقت عينا الرجل في استنكارٍ، وهتف يوبخه:
يا ساتر عليك.

دسها في جيب بنطاله، وأشار بإصبعه مشدداً:
ماتنساش اتوصى بالعمل.

بوجهٍ منقلب أخبره وهو يضع حفنة من البخور على مبخرته:
قولتلك لما هخلصه هعرفك.

علق عليه في سخرية مليئة بالصلف:
-ماشي يا .. بركة.

أفاق من شروده السريع وهو يفرك يابهامه الملمس القماشي، ثم قال
بابتسامة بغیضة:

هاتروحي مني فين يا بنت عمي؟

اسودت نظراته، وعكست شرًا دفينًا وهو يتابع وعيده:

ده أنا هاطلع كل البلى الأزرق على جتتك.

يا "فضل"!!

نداء والدته القادم من الخارج أجبره على إخفاض ذراعه، وإخفاء قطعة

التياب أسفل وسادته ليصبح بعدها بصوت خشن:

-أيوه يامه.

أخبرته بصوتها المرتفع:

-تعالى شيل صينية الأكل عشان تتعشى.

وسد ذراعه خلف رأسه، وادعى بالكذب:

هاتيالي يامه، مش قادر أقوم من مكاني.

لحظات وأتت إليه حاملة صينية الطعام، بدت غير قادرة على الوقوف

باستقامة، ولم يكلف نفسه عناء النهوض لتناولها عنها، انتظر حتى وضعها

على طرف الفراش، تأمل ما حضرته له، وقال بتعابير غير مبتسمة:

-إنتي محطيش البيض المقلي على الفول؟

نظرت له قائلة بحاجيين معقودين:

-الزبدة خلصت، بكرة الصبح أبقى أشتري.

اعتدل في رقدته، وقال وهو يقطع رغيف الخبز إلى أجزاء صغيرة:

حطب اعميلي شاي في الخمسينة يظبط دماغي قبل ما أنام.

قالت وهي تزفر في ضيق:

-حاضر يا "فضل"، إياكش تبطل طلبات وتريجني.

ملاً فمه بالطعام، ييلعه دون مضغه جيداً، كان يأكل بنهم شديد، وكأن

رغبته في الانتقام قد أصابته بجوع غريب.

.....

التدخين .. عادة سيئة كان بحاجة للإقلاع عنها كلياً، وها هو يجتهد في

مسعاه لأن يدخن أقل من المعتاد بكثير، حتى يتوقف عن فعل ذلك تماماً،

ومع هذا كانت في بعض الأحيان وسيلته المتاحة لطرد الشحنة المشتعلة

بداخله، فإن بقت كما هي لربما جعلته يتصرف بغير حكمة؛ لكن في كل

الأحوال البقاء على تلك العادة ليس بالمحمود على المدى الطويل. انتظر

"تميم" مرتكناً على جانب السيارة يهز ساقه في عصبية، ومكتفياً لساعديه

أمام صدره، وعينه تتطلعان إلى الأعلى، دعت الحاجة للإمساك بشيء ما

يفركه ليخفف من التوتر، ففضل البحث عن ولاعته، لم تكن بجيبي
بنطاله، فأنحنى يفتش عنها من النافذة؛ لكنه رأى كيس الدواء الذي ابتاعه
موضوعًا كما هو على الكرسي الخلفي، غمغم يؤنب نفسه في انزعاج:
إزاي نسيته!

التقطه بيده، وأوصد سيارته عاقدًا العزم على توصيله لها، لكونه يعلم مدى
حاجتها لتناول أدويتها في هذا الظرف المرضي الحرج. سحب شهيقًا عميقًا،
وأُسرع في خطاه متجهًا للداخل. بدأ في الصعود بخطوات سريعة على
السلم، فاسترعى انتباهه الصراخ القادم من عند طابقها، تهادى في سيره،
وأرهف السمع لما قيل بوضوح، حلت الصدمة على رأسه فأصيب بوخزات
قابضة في صدره، جعلت أصابعه تشتد على حافة الدرابزين، بدا وكأنه
سيسقط من هول ما سمعه مصادفة، بل وجسد عقله تلقائيًا مشاهدًا
تخيلية لما يمكن أن تكون ذاقته من ويلاتٍ قاسية بمفردها دون دعمٍ أو
مساعدة، أو حتى قدرة على إيقاف بطش ذلك الوغد الحقير. استشاطت
نظراته، واصطبغت بشرته بحمرة حارقة صعدت إلى وجهه، مشاعره المدافعة
عنها جعلته في تلك اللحظة راغبًا في الشار لها، في تمنى عودة الزمن إلى
الوراء من أجل قتل هذا القميء قبل أن تمسها يدها بسوء. ثقلت أنفاسه،
وظهر بوضوح محاولته المضنية لتحجيم ما يستعر بداخله حاليًا. انتفض مع
صراخ "آمنة" المستغيث:

-الحقوني يا ناس!

تحرك سريعًا نحو باب المنزل يقرع جرسه، ويدق على بابه في عصبية
امتزجت بالخوف، كاد يحن وهو واقف بالخارج عاجز عن اقتحام المنزل،
أوشك أن يحطم الباب لولا أن فتحت الصغيرة "رقية" له لتخبره وهي
ترتعث:

-الحقنا يا عمو.

ظهرت علامات الرعب على كل تفصيلة من وجهها، سألتها "تميم" في جنح:
فين عمتك والأبلة؟

أجابت ببكاء وهي تشير بيدها:

جوا.

كان يعرف الطريق جيدًا إلى غرفتها، لم ينتظر الإذن للسماح له بالدخول،
اقتحم البيت قاصدًا نجدتها من أي ضرر قررت إقام نفسها فيه، بسبب
إتلاف أعصابها وإيصالها لحافة الانهيار.

بحظت عيناه فرعًا وقد رأى يدها القابضة على قطعة من الزجاج مخضبة
بالدماء الغزيرة، ووالدتها جاثية قبالتها تتوسلها في حرقة:

- "فيروزة"، حرام عليك يا بنتي.

نفضت ذراعها الممدودة إليها بقسوة، وهدرت في غير وعي:

-سيدوني بقي، خلوني أموت وأرتاح.

لم يقف متجمداً كالمشاهد كثيراً، بل اندفع ناحيتها جاثياً على ركبته، بعد أن ألقى بكيس الدواء جانباً، ثم قبض على معصمها، ونظر إليها راجياً:

عشان خاطري أنا سبيه.

تطلعت إليه بعينين غائرتين، بها نظرات خاوية، ليست كتلك النظرات المعتاد عليها منها، وإن كانت في كثير من الأحيان فاترة. صرخت به "فيروزة" في شراسة وقد اشتدت قبضتها على القطعة الزجاجية:

-ابعدوا عني، أنا تعبت من كل حاجة، كفاية بقي، عايزين إيه مني؟!

نظرت "آمنة" في عجزٍ أولاً إلى "تميم" تستجدي به، قبل أن تحملق في ابنتها تستعطفها ببكاء:

حقك عليا يا بنتي.

أشار "تميم" بعينين صارمتين لأُمها لتفسح له المجال ليتمكن من التعامل معها بروية، فتراجعت زاحفة للخلف وكامل نظراتها على وجه ابنتها، وضعت يديها على فمها تكتم شهقاتها المذعورة، في حين استطاع "تميم" الانتقال من

موضعه ليغدو في مواجهة طاووسه الجريح، حاول تخلل أناملها المحكمة بشدة على قطعة الزجاج بيده الطليقة وهو يطلب منها بصوتٍ خفيض لكنه أمر: سبيه.

وكانها تخاطب طيفًا وهميًا لا وجود له، واصلت "فيروزة" الصراخ باهتياج: -كفاية بقي تعذيب فيا.

حافظ على ثبات نبرته رغم الألم الذي يجتاحه عندما قال: -محدث هيجي جمبك.

جُرحت أصابعه وهو يمررها في فراغٍ حاول إيجاده بين أناملها والنصل الحاد، بقوة ذكورية كانت مضاهية لها في قوتها الناجمة عن انفعالها العصبي، لم يأبه للجروح التي نالت منه، ولم يكثرث لو تقطع جلده واهترئ، يكفيه ألا تصاب بالأذى .. بقيت عيناه عليها، لا يرى سواها، بالرغم من كونه متيقنًا أنها لا تراه فعليًا، غضبها المتفجر حجب عنها الصواب، رمقها بنظرة دافئة بث فيها كل ما اعتمر كيانه منذ لحظة إدراكه لحبه لها، أرادها وسط غياهب الظلام المستبد بها حاليًا أن تبصر- نقاء مشاعره، وقد كان له ما رجا، النظرات المشتاطة بدأت تسترخي، تتطلع إليه في حدة أقل عما مضى، شاركها الألم ظاهريًا وباطنيًا، حاول احتواء غضبها الأعمى بصبره الحليم، وبعد مثابة حذرة كانت قبضته تحمي كل يدها الجريحة من النصل،

انتزعها منها وهو يبادلها نفس النظرات الحانية. في تلك اللحظة تحديدًا كانت "آمنة" ممتنة لوجوده، شاكرة لحضوره معها، وإلا لكانت خسرتها للأبد. هتفت من ورائه قائلة بنهناتٍ باكية:

أنا هاطلب الدكتوراة بتاعتها تلحقها.

صوتها أجب من جديد الغضب في ابتها، فصرخت عاليًا: -كفاية.

وقبل أن تفكر في التقاط أي قطع زجاجية أخرى، قبض "تميم" على معصمها بكفيه مثبتًا إياها في مكانها، لينعها من تكرار المحاولة أو الإقدام على شيء أكثر تهورًا. قاومت "فيروزة" تحجيمه لقواها الغاضبة، وواصلت الصراخ الهيستري، فما كان منه إلا هتف:

بسرة يا حاجة الله يكرمك.

دنت "رقية" منها، وتساءلت في ارتعاش لا يزال مسيطرًا عليها:

هي مالها؟

سلط "تميم" أنظاره عليها، وأمرها بحزم:

خليكي واقفة بعيد...

هزت رأسها في طاعة، وتراجعت إلى البقعة التي كانت تختبئ بها، حاول
كذلك طمأنتها، فتصنع الابتسام وقال:
-متقلقيش عليها هاتبقى كويسة.

عادت عيناه تتأمل وجه "فيروزة" الغاضب، هزها في رفقٍ لتستجيب
لكلامه وهو يخاطبها:

-إنتي أقوى حد عرفته، ماتستسلميش!

ضاقت عينها في شراسةٍ تخللها القليل من الدهشة، وكأنها تبحث وسط
ما تجابهه عن منفذ للخروج؛ لكن افعالاتها الشائرة أبت أن تتركها بعد أن
تفجرت بداخلها، هاجت وماجت وصرخت بألمٍ حتى خارت قواها،
وسكنت في جمود مريب. تضاعف خوف "تميم" عليها، وصاح في حنقٍ
وهو يدير رأسه نحو الباب:

-الدكتورة ردت ولا لأ؟!!!

حينما عاود التحديق ناحيتها كان منكسة لرأسها، شعر بارتخاء تشنج
معصمها أسفل قبضتيه، رأى كتفها وهما يتهدلان، وأنفاسها المنفعلة تخبت،
فاستطرد يخبرها بصوتٍ مال للخفوت؛ لكنه كان صادقًا للغاية:

-أنا جمبك .. على طول.

.....

انتهى الطبيب الذي استدعاه من تضميد جروح يدها قبل أن يعالج جروحه هو الآخر، بالطبع أعطاه نصائح إرشادية بضرورة عرض المريضة على طبيب نفسي، فتقبل نصائحه بصمت، وأوصله إلى الخارج مع نفقة مالية سخية. استدار ناظرًا إلى الصغيرة "رقية"، كانت جالسة على الأريكة منكشة على نفسها، تضم ركبتيها إلى صدرها، تحرك ناحيتها، وجلس إلى جوارها يسألها يارهاقي:

إنتي عاملة إيه؟

بعينين حراوين من البكاء سألته في براءة:

هي.. "فيروزة" هتموت؟

انقبض قلبه من مجرد الفكرة، ازدرد ريقه، ثم لف يده حول كتفها نافيًا بوجه متقلص العضلات:

-لا بعد الشر عليها، هي بس كانت مضايقة شوية ...

تصنع الابتسام وهو يكمل:

-ودلوقتي هتبقى كويسة.

بدت غير مقتنعة بكلامه، ولم يكن في حالة مزاجية رائقة تجعله قادرًا على اختلاق الحجج لها لتبديد مخاوفها، مسد "تميم" يده على شعرها كأنه يمشطه، وسألها في لطيف:

-إنتي كده مش اتأخرتي على ميعاد نومك؟ بابا هيزعل منك.
اعترفت له بنفس البراءة وهي تنظر إليه:
-أنا خائفة.

ربت على كتفها في تعاطف متفهم، ثم أخبرها ببسمة صغيرة تشككت على زاوية فمه:

حد يخاف والمعلم "تميم" معاه؟
ما كان من الصغيرة إلا أن حلت ساعديها، وارتمت في أحضانه قائلة بعفوية الأطفال:
-أنا بحبك.

مسح على ظهرها في رفي، وهو يتطلع إليها مليًا، قبل أن ينطق:
-إنتي كل الناس بتحبك.

نهضت من جواره مبتسمة، لتختفي بالداخل، وعيناه تتبعاعها، تهيدة بطيئة خرجت من بين شفثيه يلاحقها اعترافه الهامس:

-أنا بقي بحب بنت عمك .. أوي.

قرع الجرس فقام "تميم" متجهاً إلى الباب ليفتحه متوقفاً الزائر المتأخر؛ كانت الطبيبة "ريم"، نظرت إليه بتفحص وهي تتساءل:

-ده بيت "فيروزه أبو المكارم"؟

بادلها السؤال بآخر وهو ينظر إليها نظرة شمولية متشككة:

-حضرتك الدكتورة بتاعتها؟

أجابت في هدوء:

-أيوه.

تنحى للجانب وتابع فيما يشبه الرجاء وهو يشير بيده:

-اتفضلي حضرتك، احنا مستنيينك من بدري.

هزت رأسها في تفهم، واتجهت إلى حيث أرشدها لتقوم بمهمتها وهي تعلم تمام العلم أن ما ينتظرها بالداخل ليس بالجميل.

.....

جلوسه بالخارج أصبح غير ضروري، لا معنى له، وربما غير مقبول؛ لكنه كان مستعداً لتحمل كل اللوم والتوبيخ في سبيل سماع ما يسره من أخبار. جاءت "آمنة" بوجهها الباكي إليه، حيث يجلس بمفرده باليهو، وبالقرب من

باب المنزل، أعدت له فنجان قهوة، واعتذرت منه وهي تنظر إلى يده
الملتفة بالشاش الأبيض:

-أسفة يا معلم على اللي حصلك.

أخذه منها بيده الأخرى غير المصابة، وقال في هدوء:

-المهم نطمئن على الأبلة.

وكأنه ضغط على زر البكاء لديها، فراحت تنوح له شاكية في حسرة:

-أنا معرفش إيه جرالها، احنا يدوب كنا بنتكلم ..

نظرت إليه من طرف عينها، وهي تتابع بجذري:

-ومتأخذنيش يعني أنا بوعيا للصح.

فهم أنه المقصود من تلميحتها المبطن، وحمم قائلاً:

-أكيد، حقك طبعا يا حاجة، محدش يزعل من كده ...

ثم عمّد إلى تبرير موقفه موضحاً:

-بس بنتك كانت في المستشفى.

لطمت على صدرها بتعابير وجه ذاهلة جعلتها تتوقف لحظياً عن البكاء

والنواح، فرغت فمها للحظة لتلحق شفيتها بعدها وتسأله في جزع:

حصلها إيه؟

لم يمنحها الجواب بسبب رؤيته للطبيبة وهي تعود إليهما، تعلق أنظاره
القلقة بهما، وبادر بسؤالها:

ها يا دكتورة؟ بقيت عاملة إيه دلوقتي؟

وزعت نظراتها المستهجنة بين الاثنين، وخاطبتها بما يشبه التأييب:

حضراتكم ببساطة كده هديتوا كل اللي تعبنا فيه الفترة اللي فاتت،
ووصلتوها للانهيار.

دافعت "آمنة" عن نفسها قائلة:

أنا ملحققتش أقولها حاجة.

ركزت "ريم" نظرها عليها، ونطقت بتعابير مستاءة:

مش لازم تكون من النهاردة بس، دي تراكبات على فترات طويلة.

استطرد "تميم" يخبرها هو الآخر:

أنا كنت جايها لسه من المستشفى، وكانت حالتها آ...

قاطعته قائلة بلهجة غلفتها الرسمية:

ما أنا شوفت الدواء الموجود جوا، وده أكدلي إنها مكانتش في حالة طبيعية.

عادت "آمنة" للعويل مجددًا، فقالت:

-وأنا كنت أعرف منين إنها تعبانة؟

انخرطت في بكاء سهل استدعائه وهي تكمل:

-والله كل الحكاية إني خايفة عليها وعلى سمعتها، كنت بفضفض معاها وآ...

لم تستسغ "ريم" ما تحاول تبريره من أضرار ألحقت الأذى الجسم بمريضتها المكافحة، فقاطعتها بلوم واضح:

يا مدام بنتك مثال للأخلاق والأدب، إزاي تظني فيها حاجة وحشة لمجرد إنها بتعافر عشان تقف من ثاني على رجلها؟!!!

سألها "آمنة" وهي تبكي في حزن:

-يعني أنا السبب؟

تنفست بعمق، ثم ردت كنوع من التوجيه الناصح:

مافيش داعي نرمي اللوم على بعض، المهم كلنا نتوحد في سبيل إنها تكمل علاجها وتتخطى المرحلة دي.

من تلقاء نفسه هتف "تميم" مؤيدًا إياها:

كل اللي هاتقوله هيتنفذ بالحرف يا دكتورة.

بنفس الطريقة المليئة بالغباء أردفت "آمنة" قائلة: كأنما تتجنب الهجوم والالتهام على شيء لم يحدث من الأساس:

-والله كلامي كان نابع من خوفي على سمعتها، الناس مابترحمش حد، وخصوصًا لو واحدة كانت متجوزة ولا أرملة.

اشتاط "تميم" غضبًا من كلامها، والتفت يحدجها بنظرة قاسية قبل أن ينطق مهددًا:

قطع لسانهم، وأنا كفيل أخرسهم كلهم، وإنتي عرفاني.

رمشت بعينها رهبة منه، ثم ردت عليه في توتر:

يا معلم إنت راجل، مافيش لوم عليك.

نفس أسلوب الإدانة المبتذل لشخص حيييته، وهذا ما لم يقبل به أبدًا، ثارت ثائرتة، وهتف بصوت متشنج رغم عدم ارتفاعه:

يا حاجة لولا إن الظرف غير مناسب كنت جبت أهلي واتقدمت لخطوبة بنتك.

اتسعت عينيها مذهولة من عرضه غير المتوقع، بينما عنفته "ريم" في إنكار واضح على ملامحها قبل نبرتها:

إيه الكلام ده؟

هسهست "آمنة" مكررة في عدم تصديق، كأنما لم تستوعب حقًا ما صرح به:

ت.. تخطبها؟

كان على وشك الرد عليها؛ لكن قاطعتها "ريم" بعصية طفيفة:

-كلمني من فضلك، جواز إيه اللي بتتكلم عنه دلوقتي؟

نظر إليها بتحفر شبه غاضب، فأملت مبررة اعتراضها:

-دي إنسانة محطمة من جواها، عايزها تخوض تجربة جديدة مانعرفش أثارها هاتكون عاملة إزاي عليها!!

أصغى للمنطق العلمي البارز في كلامها، ولم يعقب، فاستمرت تشرح له:

-المفروض الأول نعالج اللي فات قبل ما نزود همومها بحاجة هي مش مستعدة ليها.

أطلق "تميم" زفرة ثقيلة من صدره، وقال بنظرات ثابتة:

-وأنا عايز اللي فيه مصلحتها.

تنفست الصعداء لعقلانيته، وردت عليه بتمهل:

-يبقى الأفضل نتجنب الكلام عن المواضيع دي دلوقتي، ولو بشكل مؤقت.

هز رأسه مرددًا في تفهم:

ماشى.

استدارت "ريم" لتنظر إلى "آمنة" قبل أن تقترح بحذر:

-كمان أنا أفضل الفترة الجاية تكمل العلاج تحت ملاحظتي.

سألها "تميم" في لهفة يشوبها كل الخوف:

-يعني إيه؟

حولت أنظارها نحوه، وأجابته:

-أنا عايزة أقلها لمكان مناسب تستجم فيه بعيد عن أي توتر.

صاحت "آمنة" متسائلة في حسرة وهي تضرب على صدرها:

هو بنتي ضاعت خلاص؟

ضجّر "تميم" من تشاؤمها المستثير للأعصاب، ونهرها بخشونة:

-يا حاجة بالله عليكى تهدي وتخلينا نفهم.

هزت رأسها في طاعة، فعاود النظر إلى "ريم" التي أخبرته بتريث:

-أنا بأروح زيارات يومية لدار مسنين مستواها معقول، فيها قسم للحالات النفسية، فاقترح إن "فيروزة" تتواجد هناك لكam يوم تحت متابعتي المباشرة.

رحب "تميم" بالفكرة، وقال دون تردد:

-اعملي الصبح يا دكتورة، واحنا موافقين.

همت "آمنة" كعادتها بالاحتجاج على طلبها:

-بس كده الناس هتفتكر إنها الشر برا وبعيد بقت آ....

أخرسها "تميم" بنظرة قاسية محذرة:

محدثش ليه دخل، الناس هتنفعنا يايه؟ مصلحة الأبله فوق أي اعتبار.

خشيت من جموح غضبه نحوها إن استمرت في الجدل معه، فلاذت بالصمت مهابةً منه، بينما استمر في قوله:

-الدكتورة تعرف أكثر مننا يا حاجة.

دمدمت في خنوع:

-أأكد ...

ثم وجهت كلامها إلى "ريم" قائلة:

-لا مؤاخذه الكلام خدني وماجبتلكيش حاجة تشريها.

ردت الأخيرة في تهذيب:

-مافيش داعي.

أصرت عليها بصوتٍ ما زال محتقًا:

-لأ ما يصحش.

غادرت وهي تكفكف العبرات المنسابة من عينيها، في حين حملت "ريم" بفضول لهذا الشخص المائل أمامها تسأله دون حرج:

-أنا أسفة في السؤال، بس ممكن أعرف إنت مين؟ يعني صلة القرابة إيه مع العيلة؟

سهل لها إجابته قائلاً:

-ابن خالتي متجوز أختها ..

رمقته بنظرة حائرة قبل أن تتساءل مرة أخرى:

هو إنت على طول متواجد في محيط الأسرة؟

نظر لها في استغراب وهو يقول:

-مش فاهمك.

رتبت أفكارها في رأسها سريعًا لتتطرق بعدها بوضوح:

-أقصد هل ليك تعامل مباشر مع "فيروزة"؟

تردد بشكلٍ شبه ملحوظ وهو يخبرها:

آ.. يعني.

هزت رأسها دون أن تعقب مما دفعه لسؤالها بفضول:

-بتسألني ليه يا دكتورة؟

تطلعت إليه مليًا، وأصابه ذلك بالضيق، لهذا تكلم بقنوط:

مش معنى إني مش من العيلة إني ماخدش موقف يخدم الأبله، لأ أنا بفهم
كويس وآ..

قاطعته برفع يدها أمام وجهه:

-لأ عادي، أنا بس بتأكد كده من حاجة.

زاد الفضول الحائر بداخله، وسألها في صبرٍ شبه نافذ:

حاجة إيه؟

حاولت تبرير موقفها بشكلٍ عملي لا يفشي أسرار مريضتها:

-يمكن ماتفهمنيش، بس ده أسلوب بتبعه مع "فيروزه" كريمة إننا نتكلم
عن الأشخاص اللي ليهم دور إيجابي في حياتها، وجايز تكون واحد منهم.

سألها مباشرة، ونظراته ضاقت بشكٍ مستريب:

هي قالت عني حاجة مخصوص؟

بملاح غير مقروءة أجابته برد دبلوماسي:

دي مجرد تخمينات عادية، ماتشغلش بالك.

بدا غير مقتنع بردها العائم، ومع هذا لم يناقشها كثيرًا، فأنهى الكلام معها
بانسحابه:

ماشى يا دكتورة.

ربما كانت عالقة في هذيانها المضلل، لا تعي غالبية ما يحدث معها؛ لكن فور
أن سرى مفعول المهدئات في شرايينها، بدأت في الاسترخاء مستسلمة
للاستكانة الإجبارية المقدمة لها، ومع هذا بدا عقلها شبه متيقظ لما يدور
بالخارج، فالتقطت أذناها كلماته المدافعة باستماتة عنها، شعرت بالأمان
يتخللها، بسكينة غريبة تنتشر في أوصالها، إلى أن نطق بعرضه المفاجئ،
فتفتحت عينيها مصدومة !!!

.....

الفصل المائة والخمسة وعشرون

الزواج، التطرق إلى هذا الأمر بدا كالقشة التي قسمت ظهر البعير، جلبت لها تلك الكلمة العفوية أسوأ الذكريات على الإطلاق، فاستحضرت بقوة عجزت عن مقاومتها لمحات مؤلمة لما خاضته، ما بذلت أقصى طاقاتها، وسعت إلى تجنبه، ونكرانه للأبد كأنه لم يكن أصبح واقعًا محسوسًا تعايشه الآن، حيث طغت أبشع ذكرى على عقلها، وغطت بكفاءة على كل ما عاثته سابقًا.

تجسدت صورة الكائن المشوه المدعو "آسر" نصب عينيها، بوجهه المستفز، وتعايره الكارهة، رآته حيًا في كامل الوقاحة، والدناءة، والخسة وهو يمل

عليها مساوئها كأنثى لا تصلح لإغراء أي رجل بسبب بشاعتها، المسخ الموجودة عليه في جسد منفر يدعو المتطلع إليه للتقرز والاشمئزاز، تألمت للذكرى، وعجزت عن نقضها من مخيلتها، اقتحمت واحدة أخرى أشد وطأة عقلها، بما اكتشفته لاحقًا من مساوئ وضیعة بعد أن أزيح الستار، وظهرت حقيقته لها.

أنين مكتوم بدأ يخرج من بين شفثيها على صوت نحيب خافت، وعيناها تبكيان بغزارة، لمسة لم تكن مستعدة لها شعرت بها على كتفها، فانتفضت رغم القيد الوهمي الذي تشعر به يكبل كل جسدها، فيجعلها غير قادرة على الحركة، ارتفعت نهبات بكائها، والصوت الرقيق الخافت يناديهما:
- "فيروزة".

سيطر عليها هذيانها، وتداخل الصوت مع أصوات وهمية حاضرة في ذهنها المشوش، لتبدو وكأنها تخاص صراعًا قاسيًا بمفردها. هزة أخرى على كتفها وهذا الصوت يكرر:

- "فيروزة"، "فيروزة"!

تشنجت مع اللمسة، وكانت أكثر نفورًا لأي تقارب جسدي، لأي لمسة بريئة على أطرافها، كزت على أسنانها، وأصدرت أنينًا مختنقًا مما جعل اليد

تبتعد عنها؛ لكن الذكرى لم ترحل، ازدادت قساوة، إطباقًا على صدرها،
إيلامًا لقلبها.

.....

في خضم جدالهم الطويل، فشلت الصغيرة "رقية" في النوم، كانت رهبة ما
رأته اليوم ما يزال مسيطرًا عليها، تقلبت على الفراش بجوار أبيها، وضمت
دميتها إليها، استحثها فضولها على النهوض والاطمئنان على ابنة عمها،
فقامت بجذرٍ لتطلع إلى أبيها، كان غارقًا في النوم العميق، فهبطت عن
الفراش، وتسلمت خارجة من الغرفة لتتجه إلى "فيروزة". أرادت رؤيتها
دون أن يمنعها أحد، وساعدها تواجد عمها والبقية بالخارج، ركضت بخفة
نحو غرفتها، وقفت عند الباب تستند على إطاره، وتسترق النظرات للغرفة
المظلمة، حين سمعت أنينها تشجعت للذهاب إليها. صعدت على الفراش
ووضعت يدها على كتفها تناديا:

- "فيروزة".

ارتجفت مع الرعشة التي شعرت بها منها، سمعتها تئن بما يشبه النحيب،
فزاد خوفها، وضعت يدها تهزها ونادتها مجددًا

- "فيروزة"، "فيروزة"!

لكن الصوت المختنق لم يتوقف، فزادت رعبها، وابتعدت عنها لتطلب المساعدة من البالغين القادرين على فهم ما بها.

.....

قدمت لها مشروبًا باردًا لترتشفه بعد انتهائها من مهمتها العاجلة، حاولت "آمنة" أن تقوم بواجب الضيافة كما اعتدت رغم المحنة التي تمر بها أسرتها، اعتذرت من "ريم" للمرة الرابعة في نفس الثلاث دقائق التي وقفت تتحدث فيها إليها، وقالت:

عطلناكي يا دكتورة، ونزلناكي من بيتك في الوقت ده.

أخبرتها بهدوء وهي تحاول الابتسام بلطف:

ده واجبي، بس يا ريت من الصبح بدري تجييوها على المستشفى ...

مدت يدها داخل حقيبتها لتخرج منها بطاقة ورقية صغيرة، وتابعت وهي تمررها إليها:

عنوانها في ظهر الكارت ده.

أخذتها منها "آمنة"، وهزت رأسها في امتنان. استدارت كافة الرؤوس فجأة نحو زاوية بعينها، عندما سمعوا النداء المرتعش:

-عمتو ..

تحركت "آمنة" نحو الصغيرة تعانيتها بوجه شبه حانق:

إنتي لسه صاحية يا "كوكي"؟

تمسكت بدميتها، وضمتها بذراعها إلى صدرها؛ كأنما تحتمي بها، قبل أن تقول
بشفاه مقلوبة:

- "فيروزة" بتعيط جامد جوا.

صاحت عمتها بتعابير مدهوشة:

إيه؟

بينما رددت "ريم" في صدمة متعجبة:

إزاي؟

تساءل "تميم" على الفور في وجه صعدت فيه تعابير الخوف المختلطة
بالغضب:

إنتي يا دكتورة مش مدياها مهدئات؟

أجابته في حيرة قلقة:

أيوه، بس جرعة بسيطة، لأنني معرفش خدت أد إيه في المستشفى.

دون إضاعة للوقت في البحث عن تفسير يوضح سبب إفاقتها، اندفع ثلاثتهم للداخل، تاركين الصغيرة خلفهم؛ لكن "تميم" عاود أدراجه، وطلب منها في صوتٍ جاهد ليبدو هادئًا:

هي هتبقى بخير، متخافيش.

لا يعلم إن كان يطمئنها بتلك الكلمات أم يطمئن نفسه؛ لكنه رغب حقًا في إخراجها من دوامة المآسي التي تقضي على روحها وتمزقها بالبطيء. أمسك التردد بخطواته وهو يتحرك في الردهة عاجزًا ما بين التدخل ومساعدتها، وبين التراجع والانتظار في مكانه احترامًا لخصوصيتها؛ لكن أي خصوصية منشودة لمريض على شفا خطوة من الموت؟!

.....

بمجرد أن ولجت إلى غرفتها، دارت "ريم" حول فراشها لتكون في مواجهة وجهها، نظرت إلى عينيها الزائغتين، وألقت نظرة شاملة على حالتها تقيم بها وضعها ظاهريًا، أدركت أنها في حالة غير جيدة، تحتاج للتعامل الفوري معها، وإلا لساءت كثيرًا. مدت يدها لتمسح على وجنتها برفق وهي تناديهما:

- "فيروزة"، سمعاني.

كأنما تُحدث الفراغ، لا استجابة منها، تنظر إلى ما لا تراه إلا في ذهنها، كررت ندائها، وهي تخفض يدها نحو كتفها:

- "فيروزة"، ردي عليا، إنتي عارفة أنا مين؟

مع لمستها العادية لها تشنجت بالكامل، وتخشبت بشكلٍ يدعو للخوف،
كما زاد الأئين المنتحب ليصبح صرخة متحشجة، اعتدلت "ريم" في وقفها
وهتفت في جدية شديدة:

-لازم تتنقل فورًا المستشفى عندي، ماينفعش يتسكت أبدًا عن الحالة
دي.

اضطر أن يتجاوز عن التقاليد الملزمة ليقف عند أعتاب غرفتها ينظر إليها
في خوفٍ يفوق جميع المتواجدين حولها، كان جسد "فيروزة" ما يزال يهتز
بعصبية، شعرها محلول، ومهوش، ومطروح على الوسادة. لم يكن في
استطاعته الوقوف مكتوف الأيدي ينتظر هلاكها، صاح آمرا والدتها:

-يا لا يا حاجة، أنا خدها في عربيتي، حطي عليك أي عباية بسرعة.

نظرت إليه "آمنة" بنظراتٍ تائهة وهي تسألها:

حطب و"كوكي"، هاعمل فيها إيه؟ مش معقول أسيدها لوحدها وآ....

قاطعها قائلاً بجسم:

هايتها معانا يهدومها كده.

هزت رأسها في انصياح:

حبيب .. على طول.

ثم أسرع باحثة عما ترتديه على ثيابها المنزلية، نظرة شمولية فاحصة ألقاها "تميم" على غرفتها باحثًا عن وشاح رأسها، وجده ملقى على الأرض بجوار الدولاب، اتجه ناحيته، وانحنى ليلتقطه، ثم أعطاه لـ "ريم" قائلاً بنفس اللهجة الآمرة:

غطي دماغها بيه.

رمقته الأخيرة بنظرة غامضة؛ كأنما تحاول النفاذ إلى عقله، وشكوكها حوله تزداد لحظة بعد أخرى. فور أن عادت "آمنة" إلى الغرفة، تحرك "تميم" صوب الفراش، مرر ذراعيه أسفل جسد "فيروزة"، وحملها وهي ما زالت تنتفض في ألم جعل ما بين ضلوعه ينبض بقسوة، التصقت رأسها ب صدره، وشعر بكل الرجفات تضربه؛ كما لو كانت تبت له معاناتها، ارتفع الغليل بداخله، واستعر الغضب في جوارحه لاعتنا اللحظة التي لم يتخذ فيها موقفًا صارمًا تجاه شبيه الرجال هذا حين اكتشف ماهيته الخسيسة! سار بها بخطوات شبه سريعة إلى الخارج، تتبعه "ريم"، ومن ورائها هرولت "آمنة" والصغيرة "رقية" بعد أن أغلقت الباب، من موقعها ألقت نظرة حرجة على "تميم" وابنتها التي يحملها، لتدمدم مع نفسها بهسيس مزعوج:

-الناس هتقول إيه علينا لو شافونا كده!!!

.....

استقر الجميع في سيارته فيما عدا "ريم"، بالمقعد الخلفي تمددت "فيروزه"، ووالدتها إلى جوارها تحتويها في أحضانها، وفي الأمام جلست "رقية" بدميتها، انتظر لهنية ريثما تتحرك الطبيبة بسيارتها ليتبعها، بقيت نظراته تتوزع ما بين الطريق تارة، وبين الوجه الأشبه بالموتى الماكث بالخلف، اشتدت أصابعه على المقود، وبدت ملامحه أقرب لحجر متصلب من القساوة التي ملأته. إحساسه بالذنب يتضاعف مع كل لحظة يراها تتألم فيها، صمته عن حقيقته جعله بشكل غير مباشر متورطاً في إيذاء أكثر من أحب وعشق.

حاول التركيز في القيادة، وإرجاء مشاعر الغضب واللوم إلى أن يطمئن عليها، بضعة دقائق وكان يعبر بسيارته حديقة متسعة، في نهايتها ظهر ثلاثة من المباني. عند البقعة المخصصة للركن، أوقف سيارته، ثم ترجل من مكانه، والتفت فاتحاً الباب المجاور لـ "فيروزه"، انحنى من جديد يمرر ذراعيه خلف ظهرها، وأسفل ركبتيها ليحملها، وصوت الطبيبة يوجهه:

تعالى من هنا يا أستاذ.

ألقي نظرة خاطفة نحو المبنى المتجه إليه، كانت واجهته زجاجية، على ميمنته يوجد مبنى آخر يماثله في الحجم والشكل؛ لكنه أكثر ارتفاعاً، لم يهتم بدراسة

محيطه الآن، واتجه إلى البوابة الخاصة بهذا المبنى، انحرف منها نحو ردهة متوسطة المسافة، في نهايتها رأى سلمًا طويلًا، التفتت "ريم" لتخبره بلامح شبه حرجة:

معلش مافيش أسانسير في الناحية دي.

وكأنه اشتكى لها وزن ما يحمله، لم يكثرث للأمر وهتف في وجوم:
قوليلي بس هنوديهيا فين.

أشارت بيدها للأعلى وهي تتكلم:

-الدور الثاني.

غمغم من بين أسنانه بنفس التعابير المتجهمّة:

إن شاء الله العاشر، المهم نلحقها.

.....

لجأ إلى الصبر كوسيلته المتوفرة حاليًا للتماسك وسط ما يمر به معها من أحداث غير مبشرة، شعر بأن سكينًا يشق قلبه وهو يحاول فقط تخيل ما جابهته بمفردها وهو يستعيد ذكرى اعترافاتها النزقة في عقله، كان كمن حُبست الدماء في عروقه فأصبح شبه عاجز عن الحركة، يجلس متقوقعًا في

مكانه، وعيناه تتحركان في توتر، لم يتبق أمامه سوى الدعاء سرًا بقلب
يتمزق ويحترق من الألم:
نجيها يا رب.

أحبها بالقدر الذي جعله غير قادر على تخيل الحياة بدون وجودها شريكة
إلى جواره، تشاطره كل لحظة فيها صغيرة كانت أم كبيرة، رغمًا عنه زحفت
دموعه الخائنة إلى حدقتيه، تنفس بعمق ليقضي عليهم؛ لكنها أبت إلا النزول
في صمت، مسحهم قبل أن يلحظه المتواجدون من حوله، وحول أنظاره
نحو الصغيرة "رقية"، تلك التي افترشت الأريكة الجلدية بجسدها الضئيل
ومنامتها الوردية الظريفة لتنام عليها، أشفق على حالها، وأدار رأسه في اتجاه
"آمنة" التي أغلقت مصحفها الصغير لتمسك به وهو ينظر إليها، محمقًا قائلاً
في صوت شبه متحشرح:

إن شاء الله نطمئن عليها.

رأى التردد على قسبات وجهها، وأيضًا في نظراتها الحذرة نحوه، وهي تخبره
متلعثمة في صيغة كانت تساؤلية:

معلم "تيم" .. إنت جاد في اللي قولته ؟!!!!

.....

الفصل المائة وستة وعشرون

الكلمة الشفهية في عرفهم تعني الالتزام، إن نطق بها علنًا أصبحت واجبة النفاذ. رغم ما به من مشاعر مختلطة احتوت على الخوف، الضيق، القلق، والندم، إلا أنه كان بارعًا في إخفاء هذا الصراع، وتطلع بنظرات قوية نائمة إلى "آمنة" التي كانت على عكسه تظهر ارتعابها، ليس لأنها تخشى - من تدهور حالة ابنتها، وإنما لخوفها مما قد تتجرأ الألسن على قوله بهتانًا وبالزور، وهذا ما لم تكن لتقبله به أو تتحمله مطلقًا. طرد الهواء بثقلٍ من رئتيه، وأخبرها مؤكدًا بصوتٍ خشنٍ رخيم:

أيوه يا حاجة ...

استرخت تعبيراتها لحظيًا قبل أن تتبدل للتوتر بعد أن وبخها بجمود:

بس ماضنش لا ده المكان، ولا الوقت اللي ينفع نتكلم فيه.

رددت بحرج وهي ترمش بعينيها:

-أنا معاك في كده، أنا قصدي .. إنه مش آ...

قاطعها بلهجته الجامدة الجافة، وتلك النظرة المحذرة تطل من عينيه الحادثتين:

-حاجة "آمنة" صحة بنتك دلوقتي أهم، نطمئن عليها وإن شاء الله خير.

حاولت أن تجبر شفقتها على الابتسام وهي ترد:

طول عمرك ابن أصول.

شعر بضرب من الاستياء يصيبه من تعليقها السقيم، وقال مصححًا في

غلظة ملحوظة:

-أنا مش بعمل معروف فيكي، ولا ده جميل محتاج شكر عليه ...

حملت فيه بعينين متسعيتين، فأكل بصوت غلفته رنة من الألم:

-أنا لو بتقدم لبنتك لأنها إنسانة مميزة، تستحق تعيش حياة أحسن من اللي

كانت فيها.

وقبل أن تفكر في التعقيب عليه، رفع يده المضمّدة أمام وجهها يأمرها بلهجة غير قابلة للنقاش:

-ويا ريت نخلي الكلام في ده بعدين.

بلعت ريقًا غير موجود في جوفها، وردت برأس شبه ذليل:

-اللي تشوفه يا معلم.

لم يكن بحاجة لسماع أي تملق كاذب لأمر لطالما رغب بحدوثه؛ لكن ليس بأي طريقة تجعل طاووسه يشعر بالمهانة والانتقاص. ابتعدت أنظاره المزعوجة عنها ليحرق مجددًا في الصغيرة النائمة على الأريكة، لا ذنب لها لتقضي ليلها خارج الفراش، وترى ما لن يجعلها تنهأ بأحلام سعيدة لفترة من الوقت. حادت عيناه المحترقتين عنها لتتظر إلى الطبيبة القادمة من على بعد، نهض على الفور من مكانه، وانتظر قدومها بتوتر غطى كافة وجهه، وقفت "آمنة" هي الأخرى، وتحركت مقتربة من الطبيبة، لتشرع في سؤالها:

هي بقت عاملة إيه دلوقتي؟

أجابتهما "ريم" وهي تنظر إليهما بتساو:

لسه مش قادرة أحدد، هي تحت تأثير المهدئات.

دمدم "تميم" بضيق وهو يضع يده أعلى رأسه:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

بينما تساءلت "آمنة" في حيرة لا تخلو من خوفها:

-وهتفضل على الحالة دي كثير؟

مطت شفيتها للحظة قبل أن ترد:

-ده يعتمد على مدى تجاوبها للعلاج، وحاليًا مقدرش أجزم بأي حاجة،
وخصوصًا بعد اللي شوفته.

تساءل "تميم" بلهفة، وقد غزاه القلق الشديد:

-يعني رأيك إيه يا دكتورة غير إنها تفضل هنا؟

على ما يبدو لم تفهم مقصده من هذا السؤال، فاتجهت أنظارها إليه لتسأله
بتحفظ:

-هو حضرتك معترض على وجودها؟

نقى على الفور مبررًا غرضه:

-لأ بالعكس، أنا بأحاول أفكر معاكى إزاي أساعدها.

لانت نظراتها إليه، وقالت بعد تنهيدة سريعة:

-هشوف المناسب .. يا ريت تديني رقم تليفونك.

قال بإيماء موافقة من رأسه وهو يخرج هاتفه من جيبه:
تحت أمرك.

تبادل سريعاً معها أرقام الهواتف المحمولة، لتشير "ريم" بعد ذلك بيدها وهي تخاطبها:

-وجودكم مالوش داعي، تقدرُوا تتفضلُوا.

تحركت "آمنة" خطوة في اتجاه الطيبة التي بدأت بالسير، وتساءلت:
بكرة الصبح أنا هاجي وأجيب لها هدم، في حاجة ثانية أوضيها مع حاجتها؟

دعكت "ريم" جبينها بإصبعيها، وأخبرتها:

-لا، بس أفضل إن حضرتك تجيبي حاجات فيها ألوان فاتحة ومبهجة،
مافيش داعي للألوان الغامقة.

قالت دون نقاش:

-ماشي يا دكتورة.

أعاد "تميم" الهاتف إلى جيب بنطاله الأمامي، واتجه إلى الأريكة ليحمل
الصغيرة النائمة، بينما سارت "آمنة" من خلفه تتبعه وهي تدعو الله بصوت
كان مسموعاً إليه:

يا رب عديها على خير، واسترها معاها.

هسهس مؤمناً عليها بخفوت شديد:

يا رب.

.....

ما الذي يمكن إطلاقه على ليلة بائسة كذلك؟ رأى واختبر معها جزءاً من الجانب الآخر المخفي في شخصيتها، هذا الجزء الهش الذي تحاولت تغطيته تحت قناع صلب. كلما تذكر ما مرت به، شعر بالألم يمزق قلبه، بشيء قاسٍ ينخر بداخله ولا يعلم كيف يوقفه، تلمس بيده ضماده الطبي، ورغم الوخزات المتكررة من آن لآخر إلا أنه لم يكثرث، شاغله الأكبر كان هي. زحفت العبرات إلى حدقته، ولم يقاومها، كان مخنوقاً للحد الذي جعله راغباً في البكاء، لم ينتبه للطرقات الخفيفة على باب غرفته، لذا حلت عليه الدهشة المصحوبة بالتوتر حين رأى شقيقته تطل برأسها من فُرجة مواربة وهي تسأله:

إنت صاحي يا "تميم"؟

أولاها ظهره، وحاول مسح ما بلل وجهه بظهر كفه، ثم أخبرها بصوت كان مختلفاً بعض الشيء:

أيوه يا "هاجر"، عايزة إيه؟

تقدمت نحوه، وسألته باسترابة:

-إنت كويس؟

أجابها بعد شهيق عميق وهو يدعي الابتسام:

-أه يا "أم سلطان"، ناقصك حاجة أجيبالك؟

انخفضت نظراتها نحو يده، ورأت اللفافة الطبية حوله، فسألته في لهفة قلقة:

-ليه اللي حصل لإيدك؟ إنت بخير؟

حاول تخبئة يده خلف ظهره، وقال وهو مستمر في الحفاظ على ابتسامته المخادعة:

-اطمني، دي حاجة بسيطة، يومين وهتخف.

ربتت على ظهره قائلة:

-سلامتك يا خويا.

نظر إليها في عطف، وتمتم:

-الله يسلمك ..

جلست إلى جواره على طرف الفراش، ولاذت بالصمت لبعض الوقت، مما دفع "تميم" لسؤالها بزفير أوضح إرهابه:

قوليلي عايزة إيه؟

خفضت رأسها، وتحاشت النظر إليه وهي تخبره بتلثم كبير:

-بصراحة كده، أنا .. جاية اسألك.. عن "سراج".

قطب جبينه متسائلاً بتعابير ظهرت جادة للغاية:

-ماله؟

لعلت "هاجر" شفيتها، وقالت:

-يعني .. أقصد اللي كان بينكم زمان، والحبس، وآ...

قاطعها في هدوء:

- "هاجر" ده كان نصيب، ماتحطيش ده حجة، المهم إتي رأيك يكون إيه.

فركت أصابع كفها معاً، وتابعت بنفس التردد:

-أنا متلخبطة، ومش عارفة أخذ قرار ..

تأملها في صمت، فاستجمعت جأشها لتعترف له:

مخبيش عليك خايفة من اللي جاي، وابني حطاه فوق أي اعتبار.

رفع "تميم" ذراعه، ولفه حول كتفها، ثم خاطبها بلين الكلام:
- بصي، اسمعيه الأول، وبعد كده قولي رأيك، بس صدقيني "سراج" مش
زي ما كان الواحد مفكر زمان، مسيرك تعرفيه كويس.
نظرت إليه بنفس النظرات الحائرة، فطمأنها بقوله:
- وبرضوه بأكد عليكي من تاني، أيّا كان اختيارك إيه، فاحنا معاكي فيه.
ابتسمت وهي ترد:
- ربنا يخليك ليا، إنت أحسن أخ في الدنيا.
نهضت من جواره، وأخبرته وهي تتجه نحو باب الغرفة:
- ويا رب يقدرني وأعملك كل حاجة تسعدك زي ما بتسعدنا.
حانت منه نظرة ممتنة لدعمها المعنوي، وقال:
يا رب.

انسحبت في هدوء، تاركة إياه بمفرده، فاستلقى على ظهره، والحزن ما زال
مخيمًا عليه، غطى "تميم" عينيه بمرفقه، وقد تمكن التعب منه، ليس الجسدي
فقط، بل فاقه النفسي في ألمه غير المرئي، دعا الله كثيرًا من أجلها، آملًا أن
يصبح الغد أفضل لها قبل أن يكون له.

.....

-أهوم يامه جوم.

نطق "سراج" بتلك العبارة بابتسامة عريضة ملأت محياه وهو ينهض من مقعده، ليبدا في مرمى البصر، رفرف قلبه طرباً لحضور حبيبته، وسريعاً هندم من ياقة قميصه، ثم أخفض عينيه ليتأكد من ترتيب باقي ثيابه، فتلك المرة استبدل الجلباب بما يجعله يلاقي استحساناً من العروس المرتقبة، عاود التحديق في وجه "هاجر" المتورد خجلاً، كم أسعده رؤيتها بعد طول انتظار! رددت والدته الجالسة على يساره بنبرة متمنية لتشتت انتباهه عنها:

-ربنا يجعل في وشك القبول يا ابني.

هتف في شوق يسوده الرجاء وهو يخلق فيها مجدداً:

يا رب، يا رب.

تقدمت "ونيسة" أولاً، وصاحت مرحبة بلطف:

-السلام عليكم.

أقبل عليها "سراج" وهتف مبتسماً في سرور كبير:

-وعليكم السلام، إزيك يا حاجة؟ شرفتينا، مجيتك النهاردة على راسي والله.

ردت مجاملة:

-تسلم يا رب.

نهضت والدة "سراج" من مكانها، وامتدت يدها لتصافحها أولاً، قبل أن تهال عليها بالأحضان والقبلات الحارة وهي تبادلها الترحيب الحميمي:

يا مرحب بالناس الغالية، عاملة إيه يا حاجة "ونيسة"؟

قالت بتعابير هادئة:

بخير والحمد لله.

ظهرت "هاجر" من خلفها وهي تحمل رضيعها، أرادت القدوم به اليوم لتؤكد على أنه يحتل قائمة أولوياتها، مهما كانت عروض الزواج المقدمة لها، تحاشت النظر إلى وجه "سراج"، والتفتت محدقة في وجه والدتها التي استطردت قائلة بودّ أليف:

أهلاً بعروستنا الجميلة، هما اللي ييقعدوا في البيت ييحلوا بزيادة.

نجلت من مجاملتها، وردت:

تسلمي على ذوقك.

أضافت مؤكدة بضحكة مرحة:

دي الحقيقة، وابني عارف إني مش بجمال.

تلقائياً أبصرت "سراج" من طرف بصرها، وهمت في حياء:

شكراً ليكي.

امتد ذراعا "سراج" قاصداً حمل الرضيع وهو يداعبه:
- يانهاري على العسل ...

أعطته له في ارتباك ملحوظ، واختلست النظرات إليه، فوجدته ينظر لها
بغربة نمت عن مشاعر ما، رفضت التصديق بها في البداية. استمر
"سراج" في ملاطفة الصغير قائلاً:
- شوفتي يامه الطعامة.

تعلقت أنظار والدته بالرضيع "سلطان"، وقالت بابتسامة لا تقل عن
ابتسامة ابنها حماساً:
- ماشاء الله، ربنا يباركك فيه.

أردف "سراج" مضيفاً وهو يشير برأسه لتجلسا:
- اتفضلوا يا جماعة، تحبوا تشربوا إيه؟
عاتبته والدته في لطيف:

- بالراحة يا "سراج"، خليه يخذوا نفسهم الأول، ماتبقاش كده مستعجل.
أكتفى بالصمت، وجلس في مقابل "هاجر" ليملي عينيه من رؤياها،
وأجلس طفلها على حجره، وظل يهدده في محبة أبوية لم تكن مكتسبة
بالمرة. نطقت والدته بعد لحظات من الصمت الحرج:

عاملة إيه يا "هاجر"؟

التفت ناظرة إليها وهي ترد:

-الحمد لله.

عم الصمت مجدداً إلا من بعض أسئلة روتينية مقتضبة، تولت فيها الوالدتان التعليق لكسر الحرج الملحوظ بين الطرفين، استدارت "أم سراج" برأسها نحو ابنها تطلب منه بهرج:

-بأقولك إيه سبيلنا الكتكوت الحلو ده معانا شوية، وقوم فرج عروستنا الحلوة على منظر البحر، ده حتى هواه يشرح القلب.

وكانها منحتة الإذن بقولها الصريح، لم يعارضها، ونهض من مقعده، ثم أعطاه الرضيع مردداً بنحنية خفيفة:

-أحم .. حاضر.

أضافت عليها "ونيسة" ضاحكة؛ كأنها تشاركها الرأي:

-واحنا هنطلب المشاريب لحد ما ترجعوا.

نظرت "هاجر" إلى والدتها بتردد، فاستحثتها على التحرك، فقامت بتكاسلٍ من مقعدها، ليتبعها "سراج" قائلاً بنوع من التوجيه وهو يشير بيده:

-اتفضلي يا ست البنات.

رمقته بنظرة سريعة من طرف عينها وهي ترد موجزة:
-شكرا.

تابعتهما الأنظار وهما يغادران المكان نحو الشاطئ الرملي ليحظيا ببعض
الخصوصية، فاستطردت "ونيسة" تخاطب مُضيفتها:

-كان نفسي أشوفك من زمان يا حاجة والله، بس الظروف.

ردت بتعابير بشوشة وهي تلاعب الرضيع بيدها:

-القلوب عند بعضها، منهم لله اللي كانوا السبب.

أطلقت زفرة مهمومة قبل أن تقول بلامح شبه تعيسة:

-ربنا خلص، وارتاحنا.

لم تختب ابتسامة "أم سراج" وهي تخبرها:

-شوفي يا حاجة المثل يقول ما محبة إلا بعد عداوة.

ابتسمت وهي تعلق:

-مضبوط، ربنا ما عاد يرجع الأيام دي ثاني.

أضافت مؤكدة عليها بنفس التعابير الهادئة:

يا رب، وأنا مش محتاجة أمدح في ابني، بس ربنا وحده اللي عالم أنا ربيته
إزاي، ولو شاء المولى وبقي في نصيب، مش عايزاكي تقلقي، بنتك هي
بنتي، هعاملها بما يرضي الله.

نظرت إليها بمحبة، وعلقت:

-الأصل الطيب حقيقي بيان.

دعت "أم سراج" بصدق وعيناها تلمعان في سعادة:

-ربنا يديم المعروف بينا، ويجعلها جوازة الهنا عليهم يا رب.

هتفت مبتسمة في رضا:

يا رب.

الحق يُقال أن "ونيسة" لم تتوقع مثل هذا الترحاب الشديد، دار بخلدها أن
تكون مقابلة عادية روتينية، بها بعض التحفظات، والاشتراطات، كما
يحدث بالعادة، خاصة مع من تزوجت سابقًا، لا أن تكون على هذا القدر
الكبير من التقدير والاحترام؛ وكأن ما مضى فترة تم محوها من الزمن، لبدأ
بهذا اللقاء عهدًا جديدًا يسوده السلام، الألفة، وأيضًا الحب العميق

!!

.....

الفصل المائة وسبعة وعشرون

إن أخبرها أحدهم أنها بعد تلك السنوات ستسير على الرمال بصحبة غريب، وبعلم أهلها لم تكن لتصدق هذا مطلقاً، وتدعوه بالمجنون؛ لكن ها هو يحدث الآن، تنهذى في خطواتها مع من تقدم لخطبتها؛ وكأنها مراهقان عاشقان يقضيان وقتاً مميزاً مع بعضهما البعض. نظرت "هاجر" إلى أي شيء حولها ما عداه، بدت مشوشة الأفكار، مضطربة المشاعر. تنحنح "سراج" في خفوت ليلفت انتباهها إليه بعد أن طال صمتها، وحين يئس من تجاوزها هتف قائلاً وهو يشير بيده:

-البحر رايق النهاردة، حتى مراكب الصيد كثير.
نظرت إلى حيث أشار، وأومات برأسها قائلة باقتضاب:
-أيوه.

تابع متشجعاً بعد سماع صوتها؛ وإن كان محدوداً:
-الواحد من وقت للتاني بيحب ييجي يمشي عليه.
بدت "هاجر" متخبطة للغاية، لا تجد من الكلمات ما يسعفاه للتجاوب معه، ليس لأنها معترضة على تواجدها بقربه؛ وإنما للموقف الحرج برمته، فهي غير معتادة على مثل تلك الأمور، غالبت حياتها، وقالت بإيجاز:

-تمام.

لم يفقد الأمل في إزالة الحاجز الرسمي بينهما، واستأنف قائلاً بنوع من الغزل المستتر:

هو في أحلى من كده، المياة والهواء و .. الوجه الحسن.

ضغطت "هاجر" على أناملها في توترٍ، وحاولت التغاضي عما سمعته لتسأله بتلعثم دون أن تنظر إليه:

هو أنا ممكن أسألك سؤال؟

بدا مرحباً للغاية، فقال:

-تفضلني يا ست البنات، أنا تحت أمرك.

تنفست بعمقٍ، وخاطبته بصوتٍ غلفه الضيق والحرع معاً:

-يعني .. اشمعني اخترتني أنا؟ كان قدامك أحسن مني وظروفهم غيري، ده طبعاً بعيد عن اللي كان حاصل بينك وبين "تميم" أخويا.

تجاوز ما قالته أولاً، ليوضح لها ببطءٍ، كما لو أنه يؤكد على قوله:

موضوع أخوكي كان فيلم واتحبك علينا كلنا.

نطقت في تهكم، شاعرة بغصة مريرة تضرب في حلقها:

من جوزي طبعًا.

رد عليه بتعابير شبه منزعة للتطرق إلى سيرته:

هو ما يستهلكيش من الأول.

زفرت زفرة عالية، وغمغمت بحني:

-ربنا ينتقم منه.

إفساد لحظته معها لم يكن بالأمر المطروح، لهذا قال "سراج" مبتسمًا بغير تصنع:

سيبك من اللي فات، وخلينا نبص للي جاي من حياتنا.

توجست خيفة من خوض التجربة، وما يتبعها من أقاويل محتملة قد تنقص عليها حياتها معه، خاصة أنه لم يسبق له الزواج، وزيجتها المنقضية ليست حسنة السمعة، فالكل عَلم بمساوي "محرز" وجرائره المشينة، أرادت إثناؤه عن رأيه، والتفكير بمنطقية وهي تعلق عليه:

يا معلم "سراج" ليه تربط نفسك بواحدة معاها عيل، وتشيل هم مش همك؟ إنت في غنى عن ده كله، وآ...

قاطعها في تجهم:

متكلميش لو سمحتي.

التفت نحوه لتعارضه بعناد؛ لكنه كان الأسبق في التكلم، وهو يرمقها بتلك النظرة العميقة:

من غير حلفان، أنا عاوز كده، ده غير إني أول مرة أشيل فيها ابنك حسيت إنه حته مني، كأنه ابني، والمفروض كان يبقى كده.

حتى في ألطف أوقاتها مع زوجها لم تحظَ بمعسول الكلام العذب، فقط يستخدمه وقت الحاجة من أجل إسداء خدمة ما له عن طريق والدها، لم تكن نواياه محبة صافية كما ظلت توهم نفسها، قاومت ما يعتريها من ضيق، وحادت بنظراتها المتوترة عنه، لتنظر إلى الأمواج المتكسرة على الشاطئ بوجوم، سمعت "سراج" يخبرها:

-صحيح مكانش عندي أمل إن ده ممكن يحصل في يوم من الأيام، وبصراحة مكوتتش عاوز أتجوز، ولا ليا لي الرغبة، بس سبحان الله، كل شيء نصيب، وليه وقته.

مع تلك الكلمات تذكرت أيضًا ما كانت تبذله من جهدٍ للاستحواذ على مشاعره، وإسعاده بالدلال والغنج رغم ما كان بها من إرهاق نفسي لمعاملته الجافة -وأحيانًا العنيفة- معها، لم تشتك يومًا قساوته عندما تستبد به رغباته الذكورية ويطلبها إلى الفراش، بل كانت تمتدح حسن معاشرته لها، رغم عدم حدوث ذلك، قلما كان في وعيه وهو يمنحها نوبة من الحب

العاصف، كان في الأغلب راجعًا لتأثير ما يتعاطاه من الحشيش، وبعض أقراص الهلوسة حين يخرج ويجلس مع رفاقه لوقت متأخر. بمرور الوقت، والاعتیاد أصبح ما بينهما روتينيًا، لا تجذب حتى حدوثه، وتتذرع بالحجج والأعذار لتهرب من ندائه. أفاقت من الذكرى التعيسة على كلام "سراج" القائل:

-والناس مصدقت تطلع عليا كلام مش ولا بد، بس ولا فرق معايا.
تشجعت لتنظر إليه مرة أخرى في حرج، فابتسم وهو يؤكد عليها:
يا ست البنات أنا مش عايزك تقلقي، أنا هشيلك فوق راسي، وابنك غلاوته من غلاوتك...
استمرت تحلق فيه بنظراتٍ متردة عبرت عن خوفها، فاعترف لها عن قصدي:

-وانتي غلاوتك عندي من زمان.
تورد وجهها خجلًا من كلامه، فتابع بجرأة وهو يحتويها بنظراته الهائمة:
أنا عارف إنه ما يصحش أقولك كده، بس عايزك تعرفي إن عيني ماشفتش أحلى منك، ولا كان نفسي أتجوز غيرك.

أحست بتلاحق دقائق قلبها من فرط الحرج والارتباك، بدت كمن عاد بها الزمن للوراء لتسمع ما تمت سماعه في فترة المراهقة، وربما أيام زواجها الأولى، من تلك الملاحظات الجميلة. جف حلقها، ورمشت بعينها محاولة الابتعاد عن محيط نظراته المتعلقة بها، في حين واصل "سراج" الاسترسال في التعبير عن مشاعره بصدق:

من أول لحظة شوفتك فيها حسيت إن قلبي اتخطف، وقولت هي دي اللي هاتكون مراتي.

لم تعرف "هاجر" ما الذي أصابها لتبدو بتلك الربكة أمام سيل الأحاسيس الفياضة التي غرقت فيها، كأنما افتقرت لهذا الشعور طوال ما عاشته من حياتها، ركزت نظرها على حركة الأمواج، عليها تتماسك في حضوره، مستشعرة ارتفاع نبضات قلبها المتأثر بجديته، وربما احمرار بشرتها لعذوبته، لن تنكر أنها شعرت بنفسها كأنثى قادرة على جذب الرجال؛ ولدهشتها استلذت بهذا الشعور. أسبل "سراج" عينيه نحوها يرمقها بمحبة وهيام وهو يملئ على أذنيها بالمزيد:

دفنت مشاعري جوايا، وقفلت عليها بعد ما بقى نصيبك مع "محرز"، لأ وال.... كان عارف إني ناوي أخطبك، وراح لعب لعبته عشان ياخدك ليه، بس شوفي حكمة ربنا، بعد ما اتفرقنا ربنا أراد إنه يجمعنا من ثاني.

أغمضت عينيها للحظة شاعرة بالحق قد يتكون داخلها، بل ويتصاعد ضد هذا المخادع الذي عرف كيف بحيله المحكمة أن يوهم الجميع بأنه الزوج الصالح، وكانت هي أول ضحاياه، وبقيت هكذا حتى آخر لحظة، عندما تكشف كل الحقائق. توقفت "هاجر" عن السير، واستدارت تخبره بوجه شبه متوتر في تعبيراته:

- احنا بعدنا عن الجماعة.

كأنه لم يسمع ما قالت، ونظر لها ملء عينيه متسائلاً في لهفة:
- رأيك إيه؟ موافقة؟

طالعه بنظرة ما زالت مترددة، فأكدت عليها:

- كل طلباتك أوامر، إن شاء تطلبي لبن العصفور، إنتي بس وافقي، وهتشوفي الهنا كله معايا.

شعرت بأن حالها تبدل للأحسن مع ما يمليه عليها من وعود لم يتخللها الزيف، لوهلة عقد عقلها -بديهيًا- مقارنة سريعة بين ما كان يعدها به "محرز" ولم يحرز منه شيئاً، وبين ما تسمعه الآن ويدو فيه كل العزم، لم ترغب في التعجل، وقالت متهرة من الرد:

- شكل "سلطان" تعبهم، هاروح أشوفه.

اعترض طريقها وهي تستدير ليقول مبتسمًا:

خذي كل الوقت الي عايزاه في التفكير، المهم ما ترفضيش.

تمسكه بها أعجبها بشكلٍ ما، أرضى بها غرور الأنثى لسعي الرجل ورائها، وجدت نفسها تمنحه ابتسامة رقيقة وهي تتجاوزه لتمر. مع تلك الإشارة المبطنة منها أحس "سراج" بأن أحلامه على وشك التحقيق، فرددت في حماس:

يا رب .. هانت.

.....

عند إحدى الزوايا بالسوق الشعبي، جلست على صندوق بلاستيكي قديم ينحس المشروبات الغازية، وأخذت تفرز ثمار الكوسة بيدها، واحدة تلو الأخرى في المشنة الموضوعة قبالتها، لتنتقي منها الأصغر حجمًا، ثم أشارت نحو مشنة أخرى قائلة بصيغة أمر:

هاتي كوسة من الصغيرة دي.

ناولتها البائعة بعض الثمار وهي ترد صاغرة:

ماشى يا حاجة.

أعادت إليها "سعاد" واحدة كبيرة إلى حد ما وهي تقول:

-بلاش دي، مش هتتحشى.

تابعت عملية الفحص الدقيق والانتقاء للثمار حتى ضجرت البائعة مما تفعله،
فأخبرتها على مضض:

يا حاجة ده إتي فرزتي كل الموجود عندي في الفرشة.
عاتبها "سعاد" ضاحكة:

يا ولية ما كله بتمنه، وهحسبك زيادة حبتين.

ارتضت البائعة بهذا الاتفاق، وتركها تفعل ما يحلو لها ببضاعتها، انضمت
إليها امرأة ثالثة، أخذت تقلب في ثمار الطماطم بدقة، ثم رفعت عينيها
لتتطلع مدهوشة إلى "سعاد" الجالسة بجوار البائعة، أسرعت ناحيتها
ترحب بها في ود شديد:

إزيك يا ست "أم فضل"؟

نظرت "سعاد" إلى من تخاطبها، وقالت وهي ترفع حاجبها للأعلى:

- "أم الهنا"، إزيك يا بت، عاملة إيه؟

أجابتها بابتسامة عريضة:

بخير يا حاجة، عاش من شافك، قليل أما بتيجي نواحي السوق.

مصمصت شفتيها، وقالت:

-الحاج "إسماعيل" الله يديه الصحة بيقضيلي كل طلباتي.

امتدحت صنيعه بترديدها:

-ربنا يبارك في عمره ...

ثم ما لبث أن دنت منها لتسألها في خبث؛ وكأنها تتعمد استفزازها بشكلٍ مستتر:

-ألا صحيح، سمعتي عن دخلة "سها"، أم عيال ابنك "فضل"!!؟
تناقصت المسافة ما بين حاجبيها بشدة، ورددت بتعابيرٍ مصدومة:
دخلتها؟

أصابت المرأة هدفها، فقالت بتفاخرٍ لتغيظها:

-أيوه على زينة شباب عيلة "عبد المنعم"، ده حتى دايرين في البلد يقولوا
إنها على الأسبوع الجاي، والكل معزوم، هايوزعوا دبايح، وإيشي- محمر
ومشمر.

زمت شفيتها قائلة بتبرم وهي توليها وجهها:

-ربنا يسهلها.

مالت "أم الهنا" عليها، لتهمس لها في أذنها بلووم:

-بيني وبينك يا حاجة، في كلام ثاني بيتقال عن إن لا مؤاخذه سي
"فضل" جاب ورا، ومعدتش ينفع بحاجة لما اتضارب مع "رشيد" أيام
العركة الأولى.

انتفضت "سعاد" ثائرة، وهتفت مدافعة عن ابنها باستماتة؛ وإن كان ما
تنطق به مزيئا بالزيف:

قطع لسان اللي يقول كده، ابني زي الفل وصاغ سليم، ولولا عياله
وحلفانات أبوه عليه مكاتتش عدا اللي حصل ده على خير، ده اتاخذ غدر
يا "أم الهنا"!

حكّت المرأة جبينها، وعلقت:

-أبوه صح، ده كانت المضاربة عند داركم.

أضافت "سعاد" بعصية وقد تلون وجهها بجمرة منفعة:

غير ياختي ما احنا بنفهم في الأصول كويس، واللي يجي عند باب بيتنا
حتى لو غلط فينا، جاب الحق علينا، ولازمّا نعامله بالحسنى!!
ردت عليها في تقدير:

-أنا قولت كده برضوه، سي "فضل" لا ممكن يسكت أبداً عن حد هانه.

حاولت "سعاد" تجنب الحديث مع تلك الفضولية، والتفتت تخاطب البائعة
بجدّة بائنة في نبرتها:

-اوزني دول، مش هأخذ أكثر من كده.

ردت البائعة بوجه فاتر:

عينيا ليكي يا حاجة.

ادعت "أم الهنا" انشغالها بتفقد ثمار البطاطس، ثم استطردت قائلة من
جديد:

طب وسي "فضل" هيعمل إيه في عياله؟ هتسيبهم للغريب يربوهم؟

نهضت بثقلٍ وهي تشعر بالألم يضرب ركبتيها، ثم نظرت إليها بنظراتٍ حائرة
قبل أن تجيبها:

-أحنا ما بنرميش عيالنا، "سها" أمهم وهتريهم كويس، بس هيفضلوا عايشين
في خير أبوهم، وإن كان سايبهم فعشان طيبة قلبه.

اقتربت عليها في عبثية:

مضبوط، ما تجوزيه يا حاجة، ده لسه شاب، وأكيد عايز واحدة تدلعه
وتناغشه، وبالمرّة تاخذ العيال تريهمله.

سدت لها نظرة امتلأت بالحنق قبل أن تشيح بوجهها الممتع عنها وهي
تغمغم:

هـيـحصل قريب ..

وجـهـت "سعاد" كلامها للبائع بلهجة لاذعة قليلاً:

ـخلصـتي الميزان يا ولية؟

أومأت برأسها وهي تناولها الكيس:

ـأه يا حـاجة.

فتحت "سعاد" حافظة نقودها الموضوعة داخل كيس قماشي صغير تلفه بها،
ثم أخرجت منها ثمن ما اشترته، وأعطته لها قائلة بقسماتٍ وجهٍ غائمة:
ـخـدي حسابـك.

ربت بيدها القابضة على الحافظة على كتف المرأة وهي تودعها بنفس
اللهجة المزعوجة:

ـفوتـك بالعافية يا "أم الهنا".

ابتسمت لها وهي ترد في عشمٍ بدا مفتعلاً:

ـيعافيكـي يا حـاجة، وأمانة السلام يوصل لأبا الحاج "إسماعيل".

لم تنظر ناحيتها وردت في جمود:

إن شاء الله.

تأرجحت الأكياس في يدها وهي تسير بخطواتٍ متعجلة لتبتعد عنها، وعن السوق برمته، ولسانها يردد في استياءٍ حانق:

هنسلم من كلام الناس ده دلوقتي إزاي؟!!!!

.....

بعد اتصالٍ موجز وغامض معها، وافق على مقابلتها في مكانٍ عام من أجل الاتفاق على بعض القواعد الهامة لترسيخها كمبادئ أولية في علاج "فيروزة"، لم يكن ليتأخر أبدًا عن أي شيء يخصها، لذا كان على الموعد يبحث عن "ريم" بين الجالسين في المقهى الحديث، أشارت له بيدها ليلمحها، فسار ناحية طاولتها، ابتسمت قائلة وهي تشير له بالجلوس:

- في ميعادك مضبوط يا أستاذ "تميم".

جر المقعد للأمام، وسألها بتعابير توزعت ما بين قلق وحادثة:

- أوامري يا دكتورة، إتي طلبتي تشوفيني ليه؟ في حاجة حصلت للأبلة ثاني؟

ردت نافية بنبرتها الهادئة:

-لأ اطمئن، هي حاليًا أحسن شوية بالعلاج المهدئ، بس الزيارة هتفضل ممنوعة عنها لفترة.

زفر مليًا قبل أن يردد وهو يضغط على شفتيه؛ مستحضرًا في ذهنه آخر ما كانت عليه معه من انهيار عصبي مؤلم له قبل أن يكون لها:

-مش هنقول غير الحمد لله، ياذن الله تقوم من اللي هي فيه قريب.

علقت بنفس الأسلوب الهادئ:

-إن شاء الله، بس ده مش هيحصل من غير دعم اللي حاليها.

رد بإيماءة من رأسه:

-أكيد.

أراحت "ريم" مرفقيها على الطاولة، وراحت تحادثه بلامح جادة:

- "فيروزة" عانت تجربة قاسية من كل النواحي، مخليها في وضع رافض لأي تجاوب.

أضاف عليها "تميم" بسخطٍ صريح:

-وطبعًا ال (...) "أسر" كان ليه يد في كده؟

تفاجأت من معرفته بهويته، مع ما صاحبه من وصفٍ مهين لشخصه، ولذا

انزلت تسالاه في صدمة انعكست آثارها على تعبيرات وجهها:

إنت تعرفه؟

أخبرها بشفاه مقلوبة:

حصل بيني وبينه كلام على السريع قرئت فيه شخصيه ال (...).

تخرجت من استخدامه لوصف جارج، وطلبت منه:

مافيش داعي للإهانة دي يا أستاذ "تميم".

رمقها بنظرة عبرت عن نوايا غير محمودة نحو هذا البغيض، إن كان لا يزال

على قيد الحياة، وهو يعقب في حقدٍ متنامي بداخله:

يا ريتها تيجي على أد كده، ده أنا كان نفسي آ...

بتر عبارته عن عمدٍ لينهيا بتعايرٍ ناقمة:

ولا بلاش، هو فلت!

حاولت تجاوز نقطة الاحتمام تلك بقولها الجاد:

المهم أنا غرضي من كلامي معاك إننا نختار ناس معينة يكون ليها تأثير

إيجابي في حياتها.

نظر إليها في اهتمام، فأتمت على مهلٍ، مؤكدة على ما تنطق به:

-وأنا هنا بتكلم عن تأثير قوي، مش مجرد حاجة عابرة والسلام، وخصوصًا إن وجودهم هيحسن من حالتها المعنوية والنفسية.

تعذر عليه استنباط غرضها مما سردته، فقال في صبرٍ بدا نافذًا:

-أنا مش فاهمك يا دكتورة.

أدركت أن المواجهة في الحديث معه لن تجدي نفعًا، لهذا لجأت للحديث بوضوح متجاوزة عن حرجها:

-أستاذ "تميم" حضرتك قولت إنك عاوز تتجوز "فيروزة"، بس مايكونش فرض عليها.

هز رأسه قائلاً دون لحظة ترددٍ:

-أيوه.

انتقلت لسؤالها الثاني وقد كانت متحفظة بعض الشيء:

-اسمحلي أسألك من غير لف ودوران، إنت بتحبها؟

قبل أن يمحنها الجواب، رجته في لباقة:

-أتمنى يكون ردك عليا واضح وصریح.

قال بعد زفيرٍ سريع:

-أيوه يا دكتورة.

أعادت عليه تساؤلها بنوعٍ من المراوغة:

-أيوه إيه بالضبط؟

كرر سريعًا بتعابير جعلها غير مقروءة لها:

-أنا بحبها.

حاصرته بسؤالٍ آخر أكثر جراءة:

هي تعرف بده؟

هز رأسه نافيًا:

-لا.

ابتسمت وهي تعقب:

قولت كده برضوه.

سد لها نظرة منزعة تعبر عن عدم ارتياحه لتطرقه للحديث معها عن

مشاعره المقدسة؛ وكأنه لا يحق لغير طاووسه مشاركته هذا الشعور.

تقلصت عضلات وجهه بشكلٍ واضح مع سؤالها التالي:

طيب هل أسرتك عندها مانع في الارتباط بيها؟

قال بجدّة طفيقة رافضاً ما تفعله من تدخل غير مقبول في شؤونه:

-ما فيش كلام رسمي يا دكتورة.

ردت بعملية:

-أنا بتكلم في العموم.

تحامل على نفسه وأخبرها بتعابير المتجهمّة:

-ما ظنش في مشكلة، أبويا عارف وموافق، وأمي مرحبة بفكرة إني اتجوز
تاني، مش فارق معاها مين ...

نظرت إليه بنظرة غريبة كأنما تدرسه، ليسألها بعدها بنفاذ صبر:

-بس لحد دلوقتي أنا مفهمتش غرضك إيه من الأسئلة دي كلها؟ يعني أكيد
إنتي مش جاية تعملي معايا تحقيق.

جاوبته بابتسامة مهذبة رسمتها على ثغرها:

-اهدى يا أستاذ "تميم"، أنا كل غرضي إني عايزة "فيروزة" تتعامل مع ناس
بيحبوها من غير ما يتصنعوا ده، ويكونوا بُعاد عن محيط أهلها، لأن من
الطبيعي إن الأهل بيحبوا ولادهم، فهيكون في اختلاف في ردة الفعل.

ضاقّت نظراته المتشككة نحوها، فتابعت بلطف:

حابة إنها تحس إنها مهمة عند ناس تانيين، وجودها فارق معاهم، وأكد كلامهم هياثر فيها.

لانت تعابيره قليلاً، فواصلت على نفس المنوال بأسلوبها الذكي:
-وخصوصاً إنها اتكلمت معايا عن شخص مجهول بياثر فيها بشكل معين.
شعر بخفقة عنيفة تقصف قلبه، جمعت ما بين الرهبة والخوف، انعكس تأثير حديثها عليه، فتحفز في جلسته، وسألها بتوجس:
مين ده؟

أجابته وهي تهز كتفها:

ما أنا قولتلك هي محدتش هو مين!
سرعان ما استبد به الخوف المقلق؛ لكنه تبدد إلى حد كبير مع نطقها النزق:
-وتخميني إنه جازي يكون إنت ..
فغر فمه مردداً:
أنا؟

حافظت على رقة بسمتها وهي توضح له:

في حاجات حصلت قصادي أوحيت بده، وأنا مش هاقول إني لمحة
وذكاة عشان أقدر أخمن؛ لكني بفهم كويس جدًا في شغلي، وبلاحظ اللي
يحصل من حواليا وأجمع أطراف الخيوط ببعضها، ولو ربطته باللي دار
بيني وبينها من كلام، فالاحتمالات كلها بتدور حواليك.

شعر بنشوة فرحة تتخلل أوصاله، بشيء ممتع يطرب آذانه، فإن كانت
"فيروزة" قد تحدثت عنه، فإنه حتمًا استحوذ على قدر من تفكيرها، ويا له
من محظوظ لينال هذا التقدير الغالي منها! رأت "ريم" ما بدر على ملامحه
من سعادة خفية، واتسعت ابتسامتها قائلة:

أنا دوري هنا أوجه "فيروزة" ناحية الجانب الإيجابي اللي يخدم في علاجها.
زاد الحماس على وجهه، ولمعت عيناه بوميض متحمس، انتصبت بكتفها
مُفصحة له عما يدور في ذهنها:

-وبدرجة كبيرة إنت هايكون ليك دور معايا.

بلا لحظة واحدة من التردد، ودون أن يرتد له جفن، نطق بكل ما يجيش
في صدره، ويستعمر جوارحه من حب جارف لأي أم:

أنا جاهز يا دكتورة لأي حاجة ترجعها أحسن من الأول

!!!

.....

أزاحت الستائر البيضاء الحاجبة لضوء الشمس للجانب، لتتمكن من فتح باب البلكون الواسع، وتدلف للداخل وهي تسحب شهيقًا عميقًا ملأت به رئتيها بالهواء المنعش الذي غزاها بترحيب استجبته، مشت حتى بلغت حافة السور الحجري، ومدت ذراعيها على طوله لتستند عليه. كانت "فيروزة" محظوظة لوجودها في تلك الغرفة المطلة على هذا المشهد الخلاب الجامع بين الخضرة النضرة لحديقة الدار، والزرقة المبهجة لمياه البحر. ربما نجح تأثير الطبيعة في منحها قدرًا من السلام النفسي- الداخلي، فأصبحت إلى حد كبير هادئة الانفعالات بعد مرور بضعة أيام، وحين انقضى- على وجودها ما يقرب من ثلاثة أسابيع كانت متوازنة، متمسكة، وقادرة على الكلام.

التفت برأسها للخلف لتتطلع إلى القادمة من ورائها وهي تسألها في نبرة مهتمة:

عاملة إيه النهاردة؟

ابتسمت لها، فتابعت "ريم" بلطف:

أحسن؟

أومأت برأسها وهي ترد:

الحمد لله.

طردت دفعة من الهواء ونظرت إلى ثوبها الأبيض الطويل الذي امتدحته
"ريم" كذلك:

-اللون ده عليكي حلو، كان عندي حق إني أصمم تغيري الألوان الغامقة.
ردت بهذيب:

-شكرا ليكي.

ثم سألتها وهي تشير بيدها نحو باب البلكون:
-هننزل تحت ولا ..؟

قاطعتها حاسمة الأمر دون أن تفتر ابتسامتها:

-لا خلينا نتكلم في التراس، حتى المنظر من عندك تحفة.

تشكل على ثغرها بسملة لطيفة وهي ترد:

-ده حقيقي.

تحركت الاثنتان معًا لتجلسا على المقاعد المريحة الموضوعة في الركن أسفل
تعريشة خشبية لحجب الشمس قليلاً، خاصة حين تكون في ذروة وهجها،
لم تتعجل "فيروزة" الكلام، بل مسحت بنظراتها المتأنية التفاصيل الآسرة
لنظراتها، مانحة لنفسها الفرصة للاستمتاع بالمزيد من نقاء الطبيعة،

استطردت "ريم" مهمتها تناديا بهدوء بعد مرور لحظات من السكوت الغريب:

- "فيروزة".

خرجت من شرود لا تعرف كيف توصفه؛ لكنه حتماً يريحها بشكلٍ كبير، وردت باقتضاب:

نعم.

تشجعت لتطلب منها في صيغة تساؤلية بهدوء حذر:

مجاهش الوقت الي تتكلمي فيه؟

تحفزت "فيروزة" في جلستها، فتابعت موضحة لها؛ كأنما تستحث نزعة المقاومة بداخلها، بنفس الحرص:

أنا عارفة إنه مش بالساهل نطلع الي جوانا، بس طول ما إنتي رافضة تتجاوبي معايا، ولا مليون علاج هينفع، هنفضل واقفين عند نقطة البداية، بنلف وندور حواليا؛ لكن مش بنتقدم.

اشتدت قبضتا "فيروزة" المستريحتين على مسندي مقعدها، وظهر التشنج على تعبيرات وجهها، ومع هذا استمرت "ريم" في مخاطبتها بنبرة لم تبدل، وبوجود ابتسامتها الرقيقة:

عاوزاكي تطمني، وبأقولك من ثاني، اللحظة اللي هتقرري تتكلمي فيها،
هي دي اليوم اللي بترمي فيها الماضي ورا ضهرك.

اتسعت بسمتها أكثر حين أكدت عليها:

-وبرضوه مش هضغط عليكي .. هسيبك براحتك، وكله راجع لاختيارك،
وأنا معاكي في أي.

ثم توقفت عن الحديث تتأمل تعابيرها الجامدة؛ لكن عيناها نطقت عن
حزن عميق وراسخ، بعد ما يزيد عن دقيقتين نطقت "فيروزة" أخيراً بنبرة
غلفها الألم:

-هو أنا وحشة؟

تفاجأت "ريم" من تجاوبها، ولم تظهر تعبيراتها أدنى تغير، بل ارتدت قناع
الثبات وهي تسألها بهدوء شديد:

-مين قالك كده؟

اختنق صوتها، وبدأت الدموع في التجمع في مقلتيها وهي تتابع بصعوبة بائنة
عليها:

-هو أنا .. ماينفعش أكون س... ست؟

مالت "ريم" نحوها، ووضعت يدها على قبضتها لتربت عليها بجنون، ثم
أخبرتها بنفس التعابير المبتسمة:

إنتي جميلة جدًا، وآ..

قاطعتها بنهضة شاهقة وهي تنفض يدها عنها لتضم ذراعيها إلى صدرها:
أنا مسخ من جوايا، مشوهة.

لاحظت "ريم" عدم انتظام أنفاسها، وتلاحقها بشكلٍ أقلقها، فنهضت من
مكانها تقول في جدية:
خدي نفسك.

وقفت قبالة مقعدها، وأخذت تمسح على جانبي ذراعيها في رفي صعودًا
وهبوطًا، بحركة متكررة، لتشعرها بالأمان. استمرت على ذلك تهديء من
روعها لدقيقة أو أكثر قبل أن تدعمها لفظيًا:

إنتي في كل حالاتك حلوة، شعلة من النشاط، والقوة، والمثابرة.

بكت "فيروزة" في أنينٍ موجوعٍ وهي تعترف لها:

قتلني بكلامه، قضى على كل حاجة كنت مفكراها حلوة، خلاني شوفت
عيوبي الحقيقية.

من وجهة نظرها إفصاحها عما تكبته في أعماق أعماقها كان الخطوة المنشودة،
السبيل لإخراجها من بئر الظلام الغارقة فيه، عليها فقط أن تكون حذرة في
سحبها إلى النور. تراجعت عنها لتجلس من جديد في مقعدها، وسألتها دون
تغير في رنة صوتها:

-وايه هي عيوبك؟

أطبقت "فيروزه" على عينيها بقوة، مقاومة ألم إحياء الذكرى، وألم معاشة
التخيل، ارتفع صوت شهقاتها عندما تابعت:
مسخ، نص ست، ماينفعش حد يقرب مني.

كانت "ريم" تملك من المعلومات، ولديها من الفطنة والذكاء، ما يخولها لربط
أطراف الخيوط معًا، استنبطت أن لانتكاستها الصادمة ارتباطًا وثيقًا
بسفرها غير الآمن خارج البلاد، خاصة في فترة زيجتها، تلك التي أخبرها
عنها "ماهر" بتفاصيل مسهبة تعتمد على ما جمعه من معلومات أمنية
متنوعة المصادر؛ لكنها كانت منقوصة لديها، اكتمل جزء كبير من الأحجية
الناقصة، وأصبحت ترى بوضوح ما قد بدا محجوبًا عنها منذ بدء خطة
العلاج الطويلة مع مريضتها. علمت أنها مجازفة غير محمودة العواقب، ومع
هذا سألتها بنزق، كمن يضغط على بثرة للتخلص من صديدها حتى تلتئم:
ده كلام "آسر" ليكي؟

علا الشهيق الباكى، وزادت الانتفاضات، فطلبت منها بصوتٍ جاد:
-اهدي .. خلاص.

لكنها لم تستجب لها، مما دفعها للنهوض مجددًا، والمسح على جانب ذراعها
بنفس الحنو وهي تردد في أذنها بصوتٍ قوي ثابت باعث على الأمان:
-"فيروزة"، متخافيش، اللي قالك كده مش موجود معانا، مش هيعملك
حاجة، وكلامه ده كله مالوش قيمة.

رفضت الإصغاء لها، وهتفت في حرقه موجوعة:

-دي الحقيقة أنا وحشة من جوايا، أنا آ....

صاحت بها "ريم" في صوتٍ بدا مرتفعًا نسيبًا:

-ما تخلّيش كلام إنسان مريض زي ده يحطملك.

فتحت عينيها لتنظر إليها من بين دموعها، وكررت باختناقٍ عبر عن مدى
الأم المستبد بها:

-أنا مشوهة يا دكتورة، مشوهة، ومن زمان أوي ...

تلك المرة لم تقاطعها، تركتها تستفيض في إخراج ما يؤذيها، فباحث لها:

من وقت الحريقة، اتحرقت من برا، وبعد كلامه بقيت من جوا كمان.

استرعى انتباهها الغموض المغلف لحديثها، فقالت بهدوء، وفضولها يزداد
بداخلها لمعرفة تفاصيل بزوغ المشكلة:

حبيب ممكن تحكي لي ظروف الحريقة دي.

لا مهرب الآن من تعرية نفسها المهشمة، وروحها الممزقة، لطلما أرادت فعل
هذا، التخلص من العبء الثقيل على كتفها، علّها تنشد بذلك راحتها
الضائعة، بدأت في سرد ما خاضته من معاناة لازمتها منذ اللحظة التي
اختبرت فيها موت أحدهم حرقاً نصب عينيها، بكل ما اعتراها من ألم وأذى،
جسدت هذا بحركات جسدها المرتعشة، بلمساتها المرتجفة لبقعة من كتفها،
كأن الألم اختزل في هذا الجزء، تلك المرة تركتها دون مقاطعة، لم تسألها، ولم
تستحثها على الهدوء، تركتها تفرغ مكنونات صدرها حتى سكنت
وسكنت. حينئذ جاء دورها المهني لتعالج تلك الشروح العميقة، وترأب
الصدع في روحها المنهزمة. تكلمت "ريم" بصوت لا يحمل الشفقة؛ وإنما
أظهر الاعتزاز:

- "فيروزة" هو قال كده عشان يهز ثقتك في نفسك، إتي لو اتأذيتي زمان،
والأثر فضل معاك، فده لأنك عملي حاجة بطولية، حاجة تخليكي تفخري
بنفسك ...

من وسط أنهار دموعها تطلعت إليها في قهرٍ عاجز، فأُكملت "ريم" على نفس الشاكلة:

طبيعي طفلة في السن ده تكون مرعوبة، خائفة، مش عارفة تتصرف، بس إتني كنتي شجاعة، تصرفك أكبر من سنك، ضحيتي بنفسك عشان تنقذي غيرك، ده الأهم هنا.

للغربة لاحظت خبوت شهقات بكائها، فواصلت القول وهي تشير بيدها إلى كتفها الذي كانت تضغط عليه بيدها:

-الأثر موجود عشان يفكرك أد إيه إتني قوية، شجاعة، مختلفة.

ارتخت أصابعها المتشنجة عن كتفها، وبدأ ذراعها في الهبوط حتى استقر في حجرها، بينما استأنفت "ريم" حوارها معها:

-ويا ما ناس كانت حلوة ومزوءة من برا، ولما سقط القناع عنهم طلّعوا أسوأ ما يكون.

لاذت "فيروزة" بالصمت، إلا من صوت بكائها، فبكل تهكم ناقد أعلنتها "ريم" لها:

ده وصف "آسر"، شياكة، لباقة، مظهر مخادع، أما على الحقيقة ففيه كل الموبقات.

رأت تبدل ملامحها للدهشة والاستغراب، فأوضحت لها بابتسامة ما زالت ساخرة:

-ماستغريش إني بقولك كده، أنا عارفة كل حاجة عنه من "ماهر"، ولأنه مهتم جدًا بيكي، ما بخلش عني بأي معلومة تساعدك تتجاوزي أزمته.

ارتفع حاجبا "فيروزة" للأعلى في صدمة؛ لكن "ريم" تجاوزت تلك النقطة لتمتدح شجاعته في تفاخرٍ شديد:

-النهاردة بس أقدر أقول إنك البطلة الحقيقية.

ثم نهضت من مكانها، وقالت بوجه بدا أكثر إشراقًا عما مضى:
-كفاية كلام، وتعالى معايا.

هزت "فيروزة" رأسها بالرفض وهي ترد:
-مش عاوزة.

أمسكت بكف يدها، وحاولت إجبارها على النهوض وهي تجربها:
-لا، ده احنا عاملين يوم رياضي على البحر، خرينا نطلع الطاقة السلبية من جواكي.

ما زالت باقية على عنادها؛ لكنها ألحت بما يشبه النصيحة:

-ياللا يا "فيروزة"، صدقيني ده هيفرق معاك، إتي هتحسي بده.

طاقتها للمقاومة والاحتجاج نفذت مع آخر اعترافاتها الخطيرة، لهذا بضغطةٍ لطيف استطاعت إقناعها، فنهضت مستسلمة للطاقة الأخرى التي تحاول إحلالها بداخلها كبديلٍ للانكسار والألم.

.....

في جنح الليل، حين خفت حركة الأرجل بهذا الطريق المؤدي للمقابر، كان يسير متسللاً وهو يتلفت حوله؛ كأن هناك من يترصد به في الظلام، الاهتزازة المزعجة في هاتفه الموضوع بجيب بنطاله جعلته يقطع السير، وينزوي خلف أحد الأشجار ليحجب على هذا الاتصال المنفر، بمجرد أن نطق بالتحية، جاءه صوت "فضل" المقيت يهزأ به:

-إيه يا عم الشيخ، كل ده عشان تخلص العمل؟ هما الأسياد غضبانين عليك ولا إيه؟

خرج صوته كهسيس الأفعى وهو يخبره:

-مش كنت مستني أما حد يموت ويدفن وتبقى تربته مفتوحة طازة.

سأله بسخرية واضحة في نبرته:

-ها ولاقيت؟

بعد زفيرٍ مسموعٍ له أجابه:

-أيوه، مجمع كام عمل ورايح أدفنهم فيه.

علق في تهكم سافر:

-كمان، يعني مش رايح مخصوص عشاني، أومال قابض مني شيء وشويات
ليه؟!!!

كاد الرجل أن يخرج عن شعوره، فارتفعت حدة الغضب في صوته وهو
ينذره:

- "فضل"، احنا فيها، تفكنا من العمل ده وآ...

قاطعه متراجعا:

-لأ خلاص، هي جت على دي ..

شتمه الرجل بصوتٍ خفيضٍ للغاية، و "فضل" ما زال يكلمه:

-كمل يا شيخ، وطمني لما تدفنه.

بصبرٍ نافذ قال:

طيب.

ثم ضغط على زر إنهاء المكالمة ليتابع سيره الحثيث وسط المزروعات حتى
بلغ وجهته، مقابر البلدة. من جديد نظر حوله بنظراتٍ سريعة متوترة، قبل
أن يتعجل في خطواته متجهاً نحو وجهةٍ بعينها، رأى أحدهم في انتظاره يلوح

له بيده من مسافة بعيدة، وبالذراع الآخر يرفع مصباحًا لينير به الظلمة المنتشرة في المكان، أقبل عليه وهو يومئ برأسه. ما إن بات على بُعد بضعة خطوات منه، حتى شعر بثقلٍ يحثم على كتفه؛ كأن أحدهم قد ضربه بعنفٍ عليه، تأوه في ألمٍ يخالطه الفرع الشديد، والتفت برأسه لينظر في هلعٍ إلى من تسبب في هذا، معتقدًا أن أشباحه لها كامل الدور في إرعابه، انتفض مرة أخرى مع الصوت الجمهوري القائل:

-وقعت يا حلو.

بدأ وعيه في استيعاب ما يحدث، واختطف نظرات شاملة على من ظهروا أمامه، تساءل سريعًا وهو يحاول تبين ملامحهم القاسية:

-إنتو مين؟

ابتسم صاحب الصوت الأجش، وأخبره وهو يزيد من قبضته على كتفه:

-أنا الحكومة يا سيدي، وجاين نوجب معاك إنت والأسیاد.

جف حلقه كليًا، وابتلع ريقه قائلاً بكذب:

-يا باشا أنا معملتش حاجة، جاي أقرى الفاتحة على روح حد قريبي.

رفع الضابط حاجبه للأعلى هاتفًا في استهجان متهم:

-السعادي؟

رد عليه بتوتر:

هو في مانع؟

أكد عليه بلمحة من السخرية:

-أه طبعًا، وخصوصًا لما يكون معاك البلاوي دي.

ألقى بالكيس الصغير من يده، وتلعثم مدعيًا:

-دول مش .. آ...

دفعه الضابط بغلظة قاسية من كتفه، ليرتد تلقائيًا للأمام وهو يخبره:

-بقولك إيه، احنا هنزج الأموات؟ لينا قسم نتكلم فيه!

وقبل أن يبادر بالاعتراض أتاها صوت الضابط آمرًا:

-خدوه على البوكس.

حذره الرجل بصوت مرتعش وهو يقاوم الاعتقال من القبضة الأمنية:

-اللي عملتوه ده مش هيعدي على خير.

أشار الضابط بيده لأفراد قوته بالتحرك وهو ما زال يخبره بسخرية هازئة

منه:

-وماله، خلي عفاريتك توكلك محامي من عندهم عشان يطلعوك.

دمدم الرجل في غيظٍ وهو يسير مكبلاً بالأصفاد، ومنكس الرأس:

منك لله يا "فضل"، عملك فقر زيك !!!

.....

الفصل المائة وتسعة وعشرون

بجسدٍ بدا متحفزًا للغاية، ونظراتٍ تعبر عن قلقٍ بالغ، جلس "سراج" في حضور "بدير" عند دكانه بمفردهما، بعد أن طلب منه القدوم لإطلاعه على أمر هام، لم يقم الأخير بتفسير ما يريد البوح به في المكالمات، وفضل الحديث

معه وجهًا لوجه. لم يرتشف "سراج" أي رشفة من كوب شايه، وتساءل
بتعابير المتوترة، وساقه اليسرى تهتز في عصبية من أسفل جلبابه
خير يا حاج "بدير"؟

استند مٌضيفه بكفيه على رأس عكازه، ونظر في عينيه قائلاً باستهلالٍ
غامض:

شوف يا "سراج" يا ابني، اللي عايز أقولهولك ده بعيد عن أي مواضيع
اتكلمنا فيها سابق.

ضاعفت كلماته الشكوك بداخله، وتوقع حدوث ما قد ينغص عليه يومه،
ازدرد ريقه، وأنصت إليه وهو يتابع:

إنت ابن حلال وجدع، ومهما مرينا بتجارب، لازمًا تيجي حاجات نتعلم
منها، هو الإنسان مخلوق عشان كده، يغلط ويتعلم، ويفيد غيره.

علق بتوترٍ متزايد:

معاك حق.

أضاف "بدير" بابتسامةٍ منمقة:

إنت إنسان معدنك طيب، وأصيل.

ربت "سراج" على صدره كتعبير عن امتنانه، بينما أكمل "بدير" بنفس النبرة
الرزينة:

-والظروف خلقتنا نشوفك من حطة ثانية خالص غير اللي كانت متصورالنا.
أتاه تعقيبه مناسبًا:

ما محبة إلا بعد عداوة يا حاج، وربنا يديم الحب بينا.
أوما برأسه مرددًا:

مضطبوط، بس الأهم من كلامي ده كله، احنا مش عايزين النفوس تبقى
شايلة من بعض.

أكد عليه عن ثقة تامة:

-لا يا حاج متقولش كده، أنا برضوه كنت زبي زيكم، والحمدلله إن الغمة
انزاحت.

همهم في اقتضاب:

-ربنا كريم ...

انتظر لهنية مراقبا ردات فعل "سراج" لينطق بعدها مبتسمًا في حبور:

-المهم يا ابني، تقدر تشرفنا في أي وقت يناسبك البيت، احنا منتظرينك.

وكأنه لم يستوعب ما قاله بعد، هبطت عليه صدمة الأنباء السعيدة لتشل
تفكيره لحظياً، بعد بضعة ثوانٍ هتف متسائلاً في غير تصديق:

بجد؟ هي .. ست البنات .. وافقت؟

نظر له "بدير" بحاجبٍ مرفوعٍ للأعلى، وأردف مازحاً:

-أومال يعني هاجي اتفق معاك كده من نفسي؟

اعتذر في تلبك:

-سامحني يا حاج، مقصدهش.

حافظ "بدير" على صفاء ابتسامته، وأكمل:

-الحاجة أمها بلغتني، وأنا بعرفك.

هلل في سعادة كبيرة لا يمكن للرائي إنكارها:

يا فرج الله، أنا مش عارف أقول إيه .. أجيب شربات للحنة كلها.

رد عليه حماء المستقبل:

-في الليلة الكبيرة هنعمل الحلو كله.

اعترض عليه في جدية يشوبها كل التهذيب:

-لا يا حاج، لو مافياش إساءة أدب ليك، أنا متكلف بكل حاجة.

أخبره ببساطة وقد فترت ابتسامته قليلاً:

-الأمور دي هنتفق فيها بعدين.

علق عليه بإصرارٍ أشد:

معلش يا حاج، إنتو على عيني وراسي، أنا مش عايز من ست البنات إلا شنطة هدموها وبس، وكافة شيء هي هتختاره بمعرفتها وعلى ذوقها، اللي تشاور عليه هييجي إن شاء الله يكون إيه.

بوجهٍ مسترخي في التعبيرات خاطبه:

-ربنا يزيدك من فضله، ضبط مع الحاجة والدتك، واحنا مستنينك.

قفز واقفاً من مقعده ليرد بابتهاج مضاعف:

-ده أنا رايحها مخصوص أقولها، ما هو كلام التليفونات ده ماينفعش.

ضحك على تلهفه المتحمس، وقال:

-وماله.

استأذن بالانصراف مردداً:

تسلم يا حاج على ذوقك، عن إذنك بقي.

أشار له بيده مودعاً إياه، ولسانه يتمتم في رضا:

صبرتي ونولتي يا "هاجر"، ربنا يعوضك خير.

.....

لم يكن مولعًا بمواقع التواصل الاجتماعي، ولا من هواة متابعة أخبار الآخرين على شبكة الإنترنت؛ لكنه وجد نفسه ينشئ حسابًا على موقع الفيس بوك، لينضم لمن سبقوه بالاشتراك عليه، ليس لأجل غرض ما سوى رؤيتها، فكانت أول الاقتراحات المقدمة له؛ وكأن الذكاء الاصطناعي قد أدرك مدى حبه العميق لها، فيسر له السبيل إلى ما يخصها. انتفض حين قرأ اسمها، ورأى صورتها التي بدت وكأنها تضحك له. أحس بدوي قصف غير قابل للسيطرة انتشر في قلبه، فأصبح عاجزًا عن العودة إلى حالة السكون التي كان عليها منذ دقائق.

اعتدل في رقدته على الفراش، وأخذ يتفقد محتويات ما أظهرته في حسابها الشخصي، لم يجد الكثير، بعض المنشورات البسيطة، وبتواريخ قديمة، ومع هذا بدا متحمسًا لمتابعة ما كتبه، كان في أوج استمتاعه وهو يتأمل صورة نشرتها مع توأمتها في سن الطفولة، ووالدهما الراحل في المنتصف مبتسمًا، يحمل كل واحدة على ذراع، وجد نفسه يدعو له:

-ربنا يرحمك يا عم "علي"، ويرحم موتانا جميعًا.

مضى عليه جزءًا كبيرًا من الليل وهو يدور بداخل حسابها مرارًا وتكرارًا، عاجز عن استدعاء النوم بسبب نوبة الحماس الجديدة التي تفشت في وجدانه، تنهد عميقًا وأغمض عينيه مناجيًا:

يا رب قرب البعيد، وصبرني على اللي فاضل.

كان آخر ما أبصرته عيناه صورتها الضاحكة قبل أن يزحف النوم إلى جفنيه، فلازمه طيفها في منام لم يذكر منه شيئًا سوى أنها كانت معه.

.....

تنقلت عينها ما بين صفحات المجلة المليئة بأفكارٍ قد تعزز من الحس الفني لديها، فأخذت تقرأ بتركيز النصائح المقدمة من أصحاب تلك الأفكار عليها تستفيد في نهاية المطاف، وساعدها على ذلك مساحة الهدوء المدعمة بالمناظر الخلابة التي يطل عليها بلكون غرفتها الواسع، توقفت عما تفعل لتنظر إلى الجانب حين نادتها "ريم":

فاضية شوية يا "فيروزه"؟

أغلقت المجلة، ووضعتها على حجرها قبل أن ترد بلامح جادة:

أيوه.

تقدمت ناحيتها قائلة بابتسامتها اللطيفة:

-في ناس جاين مخصوص عشانك.

عقدت حاجبها متسائلة في استغراب:

-مين؟ دي ماما كانت عندي الصبح ومعها "همسة" وخالي و"رقية"، هما رجعوا ثاني؟

أجابتها بنفس الوجه المبتسم:

-لا، دول مجموعة ثانية بتحبك أوي.

كررت سؤالها بعلامات حائرة تكسو كامل قسماتها:

-مين؟

اتسعت ابتسامتها اللطيفة وهي تخبرها بنظراتٍ احتوت على مكرٍ غير ضار:

-هتعرفهم أول ما تشوفهم .. جاهزة أناديهم؟

هزت كتفها قائلة، وهي تحكم ربط طرفي حجاب رأسها الأبيض حول وجهها: أوكي.

تأهبت في جلستها، وثبتت أنظارها على مدخل البلكون تنتظر بنوعٍ من التحفز الضيوف الغامضين، وفي ذهنها يدور تخمينًا أقرب للصح بأن القادم

رفيقتها "علا" مع شقيقها، خابت توقعاتها مع رؤية "بدير" يلج للبلكون
الشاسع بعكازه، نهضت واقفة لتردد في ذهول لا يخلو من الفرحة:

حاج "بدير"، مش معقول.

دنا منها متسائلاً باهتمام وحنو:

إزيك يا بنتي؟

ردت على الفور وهي تبتسم لرؤيته:

الحمد لله تمام.

لم تكن قد أفقت بعد من صدمتها الفرحة لتجد "سلطان" قادمًا من الخلف
يمشي على مهل ويهتف بصوته الأجلج:

هو مش جاي لوحده، جدك "سلطان" معاه.

تضاعفت فرحتها كثيرًا، وتقدمت ناحيته تخاطبها بتعابير مبتهجة:

إزي حضرتك؟ عامل إيه؟ أنا مش مصدقة والله.

أجابها بعد تهيدة مرهقة:

الحمد لله، طمنينا عليكي إتي.

خاطبته بصوت ما زال مسرورًا:

-أنا بقيت أحسن.

ربت على كتفها، وقال:

-دائماً يا رب ...

ثم جال ببصره على مزيج المناظر الطبيعية الآسرة للأنظار، وتابع في إعجاب:
هي الأعدة هنا فعلاً ترد الروح.

أشارت لهما بالجلوس وهي تسرع نحو الأرائك التي يفتش بها المكان:
-اتفضلوا ارتاحوا.

قبل أن يجلس "سلطان" خاطبها بصوتٍ تحول للجدية:

-في واحد جاي مخصوص يقولك كلمتين.

تعقدت تعابيرها متسائلة:

-مين ده؟

خفقة مباغته أصابت قلبها عندما رآته يطل عليها بابتسامة غريبة أشعرتها أن
سعادته لرؤيتها تفوق ما قد رآته هي في مجمل حياتها، رمشت بعينيها في
ارتباكٍ حرج، شعرت "فيروزة" بانبعاث حرارة طفيفة من وجنتيها،
واستنكرت الاضطراب الذي يعتريها عند رؤيته بعد أن باحت بكل شيء،
شئت أنظارها عن "تميم" لتجد زوج توأمتها واقفاً إلى جواره، رمقته بنظرة

مزعوجة، وهي تقاوم ذكرى آخر لقاء جمع بينهما، ظهر الامتعاض على
محياتها، وتنحت للجانب وهي تزفر ببطء. صاح الجد منادياً:
تعالى يا "هيثم".

حمم "تميم" بضيق ملحوظ وهو يدفعه من ظهره للأمام:
-تفضل.

أمسك التردد بخطوات ابن خالته وهو يغمغم في صوت خفيض:
-ما بلاش ..

دفعه "تميم" بخشونة أكبر وهو يحده بتلك النظرة الصارمة قبل أن يقول:
-يالا خيلنا نخلص.

سحب شهيقاً عميقاً طرده على الفور، وواصل التقدم للأمام حتى بلغ
مقعدها الذي استقرت جالسة عليه، ظل واقفاً، ووزع نظراته المتردة على
زوج خالته، والجد "سلطان"، ومن قبلهما "تميم"، تنحنح بصوت خافت
قبل أن يخاطبها باقتضاب:

-إزيك؟

أدارت وجهها للناحية الأخرى، وقالت بوجوم:
-الحمد لله.

تابع بما بدا وكأنه سخافة غير مستحبة:

مبكرش إني كنت بتضايق لما بشوف نظراتك ليا، عشان اتجوزت
أختك، بس آ..

توقف عن الكلام للحظات ليفرك وجهه نازحاً أي تردد مسيطر عليه، ثم
تابع:

بس ده مايدنيس الحق إني أعمل اللي عملته المرة اللي فاتت.

حانت منها التفاتة سريعة لترد في اقتضاب:

حصل خير.

بلع ريقه، وأكمل:

حقك عليا، أنا .. أسف.

كانت "فيروزه" على وشك الرد عليه، لكنه رفع يده أمام وجهها ليمنعها عن
الكلام، واستأنف موضحاً سبب اعتذاره التالي، بما عكس الصدمة على
ملامحها:

مش على المرة اللي فاتت، أنا بتأسف عن اللي عملته زمان، وإنتي ..
متكلمتيش عنه ...

انقبض قلبها بشدة، وبدأت ملاحظها في الشحوب، حاولت إيقافه قبل أن
يكشف السر قائلة بلعثة سادت نبرتها:

مافيش داعي.

لم يكن "هيثم" جيدًا في قراءة تعبيرات وجهها، ولم يملك من الفراسة ما
يخوله لفهم بواطن الأمور من مجرد إيماءة أو نظرة مستترة، لهذا استمر ناطقًا
بما أزاح الستار عن الماضي المدفون:

-يوم حريقة دكان أبويا الله يرحمه !!

.....

الفصل المائة وثلاثون

بحركة رتيبة متكررة ظل يمرر يده أعلى رأسه الذي حلقه مؤخراً ليفرّكها كأنما قد استغرق في التفكير في أمرٍ ما، خاصة بعد أن نما إلى مسامعه إلقاء القبض على المشعوذ الذي لجأ إليه على أمل فعل شيء خارق لإيذاء "فيروزة". آنذاك تخلص من شريحة الهاتف غير المسجلة وألقى بها في

المصرف ليقطع أي صلة قد تدينه، وبفرض أن انتشرت بعض الشائعات والأقاويل سينكرها تمامًا كعهده مع الكذب.

لم يسلم "فضل" من التفكير في هذا الموضوع حتى استحوذ على عقله ذكرى رؤيته لطليقته السابقة وهي تزف إلى غيره في حفل زفاف لم تشهده بلدتهم من قبل، وكأنها تزوج للمرة الأولى، فـ "رشيد" لم يدخر وسعه في دعوة كل المعارف والأقارب والأصدقاء للحضور، وأنفق بسخاء على هذا الحفل.

وقتها أراد أن يفتعل فضيحة مُخرجة للجميع، أن يفسد على المدعوين فرحتهم الواضحة، خاصة "سها"، فيصيبها الكدر، وتصبح نذير شؤم لزوجها السمج - كما ينعته، لهذا دون إعادة تفكير اقتحم السرداق المقام فيه العرس، وصاح مهلاً:

فين عيالي؟ أنا مش هاسيهم لغريب يريهم.

وكانها رأت شبحاً للتو، تصلبت "سها" في مكانها تتطالع بعينين مدعورتين وجه "فضل" الحائق، ورددت في توتر وهي تهم بالنهوض:

إنت جاي آ..

أمسك "رشيد" بيدها ليجبرها على الجلوس، وقاطعها في صوت خفيض مسموع لها؛ لكنه في نفس الوقت صارم:

-استني!

هتف فيه أحد المدعوين ينهره عن تصرفه الفظ:

عيب اللي بتعمله يا "فضل"، مايصحش كده.

زأر عاليًا بصوته المزجج وهو يلوح بذراعه:

محدث يقولي عيب، أنا عاوز عيالي، أنا مش نطع عشان أسبيهم لواحد زي ده!

هنا نهض "رشيد" من مقعده يهدده بوجه غائم التعبيرات، وصوت جهوري مرعب:

غلط هنا ماسمحلکش، وإلا هبهلك قصاد أهل البلد كلهم، مش هاخليك تعرف ترفع عينك في أصغر عيل هنا!

أحس "فضل" بالخرج من تذكيره علنا بواقعة إهائته، وهدر في غيظٍ وقد برزت عروق وجهه المحترقة:

-إنت بتقول إيه؟

توسلت "سها" لزوجها ترجوه:

عشان خاطري يا "رشيد".. مش عايزين فضايح.

التفت ناظرًا إليها ليخاطبها بلهجة قوية:

-الفضايح ليه هو...

ثم استدار ناحيته ليكمل كلامه بنبرة متهمّة:

-ولا نسي العلقّة اللي كانت قصّاد داره.

همهمات جانبية ارتفعت في الأرجاء، أعقبها صياح "فضل" المتذمر، وهو يشير بسبابته نحوه، كنوع من حفظ ماء الوجه أمام هذا الملاء:

-إنت خدتني غدر.

تحفز "رشيد" في وقفته، وابتسم من زاوية فمه قائلاً:

-أنا فيها، هعدمك العافية قدام الكل، وأرجع أقعد جمب مراقي، ولا كان حاجة حصلت.

تلون وجهه بحمرة متوترة، واشتاتت نظراته على الأخير، كان يعلم جيدًا أنه إذا تورط معه في شجار -ولو بالأيدي- لهُزم شر هزيمة، وأريق ماء وجهه وأصبح علكة في ألسن الجميع. ظهر الاضطراب على محياه، وأصبح كالتائه للحظات، لولا أن جاءته نجدة من السماء حين تدخل أحد أهالي البلدة يسأله في عقلانية:

-هو حد منعك عنهم يا "فضل"؟

ادعى انشغاله بالنظر إليه، وحول أنظاره نحو آخر يخاطبه:

خدم يا "فضل" وامشي، دول لحكم.

أصعب ما اختبرته الآن هو ابتعاد صغارها عنها، فغمغمت "سها" ترجوه في ألم:

"رشيد"، عيالي.

إن كان الأمر بيده لمنعه من أخذهم؛ لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن خطة هذا الديء الظهور بمظهر الشهامة والرجولة أمام الجميع لاكتساب بضعة نقاط يحسن بها من موقفه المتخاذل، لهذا مال "رشيد" على زوجته وأخبرها بهدوء:

-اصبري، هاجيهمك بالعقل.

ولأنها تثق في قراراته التزمت الصمت، وهزت رأسها بالإيجاب، لتشير بعدها لصغارها بالتحرك. صعد "فضل" على المسرح الخشبي ليختطف أولاده وهو يدعي محبة أبوية زائدة عن الحد:

-تعالوا يا عيال، تعالوا يا حبايبي.

قالت واحدة من الصغار ببراءة:

-عاوزة ماما.

وكأنها رمتها بالشرر فصراخ بها وهو يدفعها:

بس يا بت، ويالا انجروا كلكم قدامي.

لم يعجب "رشيد" معاملته غير الآدمية مع الصغار، وكرر قبضة يده بتحفر، استطاع أن يلمح الدموع الرقاقة في عيني زوجته، قبل أن تسأله بقلبٍ مَجُوع:

هتسيهم يا خدهم؟

امتدت يده لتمسك بيدها، ضغط برفق يابها على ظهر كفها، ثم نظر إليها قائلاً وهو يجلس مجدداً في مقعده:

-الي زي ده مش هيستحملهم، هيبعتهم لك تاني، اسمعي مني.

دمدمت في حرقه ودموعها تنفر من طرفيها:

حسبي الله ونعم الوكيل فيه.

صاح "رشيد" عاليًا بنوعٍ من التفاخر، كأنما يقصد استفزازه:

-اطمنت عليهم، نكمل بقى فرحتنا الكبيرة، عشان ألحق أخذ عروستي وتنفسح.

من بين أسنانه هتف لاعتنا:

-الله يحرقكم، إياكش تتقلب بيكم العربية!

أفاق من الذكرى على صياح أطفاله وهم في غمرة لعبهم الحماسي، إربد وجهه بالغضب، وهدر في خشونة أرعبتهم:

ما كفاية دوشة بقي، خوتوا دماغي.

جاءت والدته على صوت صراخه تسأله في استنكار:

-في إيه يا "فضل"؟ مالك مش طابق نفسك ولا العيال ليه؟

هدر في صبر نافذ وهو يضرب مقدمة رأسه:

صدعت يامه.

أشارت "سعاد" لأحفادها تأمرهم بنبرة حانية لكنها في نفس الوقت حازمة:

خشوا يا عيال العبوا جوا.

انتظرت ذهابهم لتعاتب ابنها:

بالراحة عليهم شوية.

لم يكثرث بما قالته، واشتاتت نظراته مغمغماً في غيظ:

هي مفكرة كده إنها ارتاحت لما رميتهم عندي.

صححت له من تلقاء نفسها:

يا ابني ده إنت اللي جبتهم وآ...

قاطعها في عصبية :

-كنت بأكد فيها، بأحرق دما...

نظرت له في ضيق، فأكل متوعداً:

-بس والله ما سايها، ده أنا هقرفها قرف الليون على الشجر.

وقبل أن يكمل وصلة وعيده الأهوج جاء "إسماعيل" من الخارج بتعابير
ناقمة للغاية، ضرب بعكازه على الأرضية، وصاح فيه بزجرة غير مبشرة بخير:

-واد يا "فضل"!

اعتدل في جلسته، ولم ينهض، ثم تساءل بسماجة:

-أيوه يابا.

لكزه بطرف عكازه متسائلاً بوجهٍ مشدود، ونظراتٍ مشتعلة:

-إنت ليك علاقة بالدجال إياه اللي اتمسك من كام يوم؟

لطمت "سعاد" على صدرها قائلة:

- دجال، يا ساتر يا رب!!

ادعى الغباء، وتساءل في سخافة:

- أنت بتكلم على مين يا بابا؟

هدر أباه في نفاذ صبر:

يا واد ماتستعبطش عليا، الحكومة ناشرة صور الحاجات اللي لاقوها معاها
بعد ما قبضوا عليه، وكان فيهم صورة بنت عمك، واللي قابلني من أهل
البلد عرفني بالحكاية دي.

تمسك بكذبه، وأنكر معرفته به بانفعالٍ مفتعل:

- وأنا مالي، هو كل بلوى تحصلها يبقى "فضل" السبب؟ ما أنا أهوو كافي
غيري شري وقاعد في حالي.

لم يبدُ والده مقتنعًا بهذا الاستعراض الهزلي، وعلق في تقم:

- أنا حاسس إن الموضوع ده مخرجش براك.

حاد بنظراته عنه، ونطق في نفور:

- أنا مش فاضي للعب العيال ده!

لكزه "إسماعيل" مجددًا في ساقه وهو يعنفه:

-أومال فاضي لإيه؟ ده إنت ليل نهار قاعد زي الحريم كده في البيت، لا
شغلة ولا مشغلة.

هب واقفًا، واحتج في سقم:

ما بلاش قلة قيمة يابا.

تدخلت "سعاد" للتلطيف بينهما، فقالت برجاء وهو تضع يدها على كتف
زوجها:

-بالراحة عليه يا حاج.

نفض يدها عنه، وقال في يأس:

-أنا استعوضت ربنا فيك.

انصرف وهو يبرطم في سخط، فتبعته نظرات "فضل" الحائرة، ليهتف
بعدها متذمرًا؛ كأنما يشكو شدته:

-هو ماله حائط نقره من نقري ليه؟ ما يسيني في حالي!

ردت عليه "سعاد" قائلة وهي تربت على صدره:

-أبوك بيتفك معاك بكلمتين، اسمعله وإنه ساكت.

تشجج ملوحًا بذراعيه:

يامه أنا زهقت، محدش حاسس بيا.

يا حبيبي بكرة ربنا يرزقك بنت الحلال، ويعوضك خير، ده إنت لسه
شباب، وفي عزك...

أصدر صوتًا محتجًا كتعبير عن عدم اقتناعه، فأخبرته بنظراتٍ ثعلبية:

إيه مش مصدقي، طب شاور على أي واحدة وأنا أجوز هالك.

نطق فيما يشبه التحدي:

هتقدري؟

قالت عن ثقة:

جرب.

عاود الجلوس على الأريكة الخشبية، وثني ساقه للأعلى ليستند بهرقه على
ركبته، ثم قال مبتسمًا في ازدياء:

طب أنا عاوز "فيروزة".

صمت مليًا، فرمقها بنظرة ساخرة منها؛ لكنها عادت لتسأله بتعابير غامضة:

هي دي اللي هتريحك؟

رفع حاجبه قائلاً:

أيوه.

قالت عن يقين مريب دون أن تفكر:

خلاص .. هجوز هالك.

أخفض ساقه، واعتدل مردداً في ذهول مصدوم:

أيه ده بجد؟

ابتسمت وهي ترد بعد أن مسحت برفق على جانب ذراعه:

أيوه، طالما هي دي اللي هتريحك .. وعلى رأي المثل الضفر عمره ما يطلع من اللحم.

تجدد الأمل بداخله للانتقام من شخصها بهذا العرض غير المتوقع من قبل والدته، فأصابته نشوة غريبة، جعلته في قمة غروره الواهي.

.....

اعتبرته -مجازاً- سراً من الأسرار الكونية، والذي لا يجب الإطلاع عليه مُطلقاً، أو حتى التطرق إلى تفاصيله، ليس لأنها تخشى من إفشائه، وإنما لرهبتها من إحساس تسببها في إيذاء غيرها دون قصد، وإلا لكانت نطقت

منذ البداية بما عرفته. نظرت "فيروزه" إلى "هيثم" بنظرات غلفها القلق والخوف، لعقت شفثيها، وطلبت منه بأنفاس شبه مضطربة:

-مافيش داعي، خلاص آ...

قاطعها بإصرار:

-أنا عايز الكل يعرف عشان أرتاح.

ردت رافضة بعناد، وبؤبؤاها يتحركان في عصبية:

-مالوش لازمة ننبش في الماضي.

قال بعندٍ يفوقها:

-لأ لازم، أنا مش هافضل عايش كده.

فشل مسعاها لمنعه من الكلام، وانطلق يسرد تفاصيل جريمته في الصغر، متجاهلاً توسلاتها الصامتة، تطلع إلى الأوجه المكددة به قبل أن يخفض رأسه نادمًا، بينما تهاوت "فيروزه" جالسة في مكانها ودقات قلبها ترتفع في صخب. كانت "ريم" واقفة بالخلف تراقب وتسجل ردات الفعل المتباينة، أرادت لمريضتها أن تتخلص من كافة ما يثقل كاهليها، أن تتجاوز كل البقاع المظلمة القابعة بها، لتتحرر من كل القيود التي تعيقها عن المضي- قدمًا في

طريق شفائها، وها قد بدأت خطتها العلاجية تؤتي ثمارها عن طريق المواجهة المحتومة.

رغمًا عنها تدفقت العبرات من عينيها بغزارة، لم تعرف سبب هذا البكاء، هل لتعزية الماضي الأليم؟ أم إشفاقًا على شخص بات في نظر المحيطين به مدانًا؟ وللمفاجأة وجدت دعمًا غريبًا لشخصه، حيث قال "سلطان" أولاً:

-يا ابني محدش معصوم من الخطأ، وإن كنت عيل، مش لاقى اللي يوجهك صح.

نطق "هيثم" بصوت ظهر فيه اختناقه:

-أنا بتعذب كل ما افكر اللي عملته.

رد عليه الجد في هدوء:

-ربنا غفور رحيم، هو مكتوبه يكون شهيد، ولعل ده يشغله زلاته زمان.

أكد عليه "بدير" بنفس النبرة الهادئة:

-صح يابا، ربنا ليه حكمة في كل حاجة بتحصلنا.

لم يشارك "تيم" في التعليق، اكتفى بالإصغاء لاعترافات ابن خالته، وعيناه مثبتتان عليها، أراد بكل جوارحه حين رآها تبكي أن يحتضنها، أن يحتويها بين ذراعيه ويهون عليها الأمر، أن يهمس في أذنها بكلمات مطمئنة تبث لها

الأمان، وتطيب من روحها المعذبة، بدت في عينيه رقيقة للغاية، هشة
ككعكة لذيذة المذاق، أطلال النظر متناسيًا كافة الوعود، ومتجاوزًا عن
الأعراف، ويا ليت ما أطل! فقد أحرجه والده عمدًا:

ما تقول حاجة يا "تميم"، ولا إنت مش معانا؟!

حمحم مرددًا بتحرج، وقد أمسكت به "فيروزة" ينظر إليها بتلك النظرة
الحانية:

-لا إزاي يا حاج، كل اللي بتقولوه تمام.

سأله في تحدٍ:

حطب احنا قولنا إيه؟

وضع يده على مؤخرة عنقه هاتفًا بتلعثم:

٢.. كلام .. كبير.

استطرد "سلطان" ملطفًا من الأمر وابتسامته الوقورة:

-ابنك مايجبش يكرر كلامك يا "بدير"، بيسمعه وينفذ من أول مرة.

ثم وجه أنظاره إليه متسائلًا:

مش صح؟

على الفور أيده حفيده:

-أيوه طبعا.

تقدمت "ريم" في خطواتها لتقف إلى جوار "فيروزة" خلال حوار أربعتهم معًا، وضعت كلتا يديها على كتفيها، وأخبرتها بصوت شبه خافت:

-أنا عايزاكي ترمي الماضي ورا ضهرك، معدتش في حاجة تقلقك.

انكشاف أمرها أمامهم لم يكن من السهل عليها، خاصة صاحب النظرات النافذة إليها، تصدع الحاجز الأخير بينهما جعلها في موقف متردد وحرص، همست بصوت بالكاد وصل إليه:

-أنا خائفة.

حملق فيها بلهفة، وتأملها وهي تعترف لطبيعتها:

-مش عايزة أتأذى من حد ثاني، تعبت.

وجد "تميم" نفسه يرد بتلقائية، وقد اتخذ وضعية دفاعية عنها:

-محدث هيسمح بكده.

اتجهت الأنظار إليه، فتابع بجرأة غريبة وهو يشير بيده:

-بصي شوفي الي حواليلي دول بيحبوكي أد إيه، مش محتاجين سبب لده.

وافقه الجد الرأي، وأضاف عليه:

مضطرب .. وبعدين يا بنتي كل حاجة بتحصل في حياتنا لسبب، واللي بنمر
بيه مهما كان صعب ده ابتلاء واختبار من ربنا، يا يشوفنا هنصبر ونقول
الحمد لله، يا إما نعترض وساعتها مش هنلاقي إلا السخط وزوال النعمة.

مسحت "فيروزه" دموعها التي تبلل خديها، بينما استمر "سلطان" في
مخاطبتها بابتسامة اعتزاز:

-إنتي حبك اتخط جوا قلوبنا كده من عند ربنا، غلاوتك في غلاوة عيالنا
...

ثم تحولت أنظاره نحو "تميم" وهو يكمل بنبرة ذات مغزى:
-ويا عالم بكرة تلاقي عوض ربنا ليكي إزاي، مش كده يا "تميم"؟
تنحني قائلاً بتحرج:
-أه .. طبعاً.

رددت "ريم" على مسامعها من جديد قائلة بتفاؤل:

-سمعتي يا "فيروزه"؟ حبهم ليكي تلقائي.

وزعت نظراتها بينهم، وقالت في تردد:

-أنا...

قاطعها الجد قائلاً بنبرة جمعت بين اللين والحسم:

-احنا عاوزينك تخرجي من هنا قريب، الدكان موحشكيش، كفاية كده.

صيح له "تميم" بابتسامة عريضة:

-اسمه محل يا جدي.

هتف معانداً، وبنوع من التهديد المبطن:

-لا هو دكان، ولا آ...

تراجع قائلاً في طاعة أضحكت من حوله:

-ماشي يا جدي، اللي تقوله يمشي علينا كلنا.

انتقلت الأعين نحو "هيثم" بعد أن صرح "بدير" بهدوء:

-قولها يا "هيثم" على المفاجأة اللي مضرها لمراتك.

رمقته "فيروزة" بنظرة متسائلة وهي تكرر:

-مفاجأة؟!

أكد عليها "بدير" بإيماءة من رأسه:

-حاجة بقاله فترة بيجهزها.

توقف عن الكلام ليشير بعينه إلى "هيثم"، فقال الأخير بتردد ملحوظ:

-أنا مكوتنش عايز أجيب سيرة إلا لما كل حاجة تخلص...

وقبل أن يساء فهمه تابع:

-بس إتي مش غريبة، وهتحفظي السر.

تلك الكلمات المنتقاة بعناية أشعرتها بالتقدير المعنوي، وبأن هناك بادرة احترام طيبة ستسود بينهما في المستقبل. عفويًا تحولت عيناها نحو "تميم" الذي صاح يمتدحها بكلمة بدت كغزل أكثر منها لقبًا:

طبعا دي الأبله.

توردت وجنتاها في ربكة، وحاولت تجاوز هذا التلبك الحرج بالتركيز مع "هيثم" حين أردف موضحًا:

-أنا جبت شقة ثانية لـ "همسة"، هي مش جديدة أوي، بس اتفقت مع "تميم" أخذ بيته القديم وهو ياخذ بيت أمي، وأدفعله الفرق، وأوضبه عشان تسكن فيه.

ارتفع حاجباها في دهشة وهي تقول:

-معقولة!

استأنف مكملًا الإفصاح عن باقي مفاجآته السارة:

ده غير المحل اللي اشتريته عشان أقف فيه لوحدي، وكلها كام يوم ويشغل، ويحيلنا منه رزق حلو.

أدركت مع عزمه الواضح نواياه الطيبة لتأسيس حياة أسرية مستقرة تختلف عما تهيأت له سابقًا، لكونها بكده، وتعبه، واجتهاده الشخصي، ابتسمت لسعيه الدؤوب في تحقيق هذا، وهتفت تهنئه في حبور:
مبروك، ربنا يوفقك.

حك طرف ذقنه، وهو يضيف:

-أنا مش عايز حد يقول بعد كده إني اعتمدت على غيري عشان الجوازة دي تكمل.

أصغت إليه "فيروزه" باهتمام يتخلله الإعجاب، خاصة وهو يعترف بصدق:
-"همسة" ربنا بعتها لي نعمة في وقت أنا كنت ضايع فيه، خدت يا أيدي، وطلعتني من القرف، وربنا يقدرني وأسعدها بالحلال.
رد عليه "سلطان" يدعمه عن ثقة:

هتقدر طالما نويت، واستعنت بالله.

حمم "بدير" هاتقاً وهو يجمع طرفي قفطانه:

- احنا طولنا عليكي النهاردة.

نظرت إليه، وقالت بابتسامة صغيرة ناعمة:

-أنا فرحانة بوجودكم.

تهد الجد معقباً بمكر، وعينه تتحولان عن قصد نحو حفيده:

-واحنا أكثر يا بنتي، بس لو تعرفي.

يا لسعاداته! جده بشحمه ولحمه يهد له السبل لترى عظم الحب في عينيه، فقط لو تفتح الباب لقلها وتتأمل ما يحويه من عشقها. أضاف "بدير" مبتسماً:

-عايزين المرة الجاية نيجي نشوفك في بيتك.

هزت رأسها بالإيجاب، بينما استطرد الجد متابعاً بما بدا له وكأنه استمتاع من نوع مختلف:

-بالمناسبة، "تميم" كل يوم بيروح الدكان بتاعك يقف على إيد العمال ينصفوه، ويخلوه زي الفل، عشان ترجعي تنوريه، الزباين مستنينك،

وأولهم بنتنا "هاجر"، حلفانة لتعملي الزواء عندنا في البيت، واحنا ما بنكسرش لبناتنا كلمة.

تلقائيا عرفت عيناها الطريق إلى وجهه، فنظرت إلى تعابير المبهجة بتأمل، ورأت ذلك الوجع الفرح الذي يزداد وضوحًا في عينيه كلما تطرق أحدهم إلى سيرتها، رمشت بجفניה، وهتفت معترضة بخجل:

-بس أنا أصلاً الفترة اللي جاية مش مرتبة أموري ولا آ...

قاطعها "سلطان" رافعًا يده أمام وجهها، وبتعابير شبه عابسة:

-إنتي برضوه بنتنا، هتزعيني؟ ودي أول حاجة أطلبها منك.

ابتسمت في نعومة وهي ترد نافية:

-لا.

بادلها الابتسام ملمحًا بلؤم:

-ومش هاتبقى آخر حاجة.

التفت "سلطان" برأسه نحو حفيده يسأله بصيغة أمرة:

-فين مفتاح الدكان يا "تميم"؟

امتدت يده داخل جيب قميصه الأزرق، وأخرجه منه ليناوله إياه قائلاً:

-أهوو يا جدي.

كان المفتاح معلقًا في ميدالية الطاووس التي أهداها لها، بريقها الفضي-
انعكس في نظرات "فيروزة"، وزاد لمعانًا عندما تابع الجد "سلطان" عن
قصدٍ وهو يغمز له:

-أيوه كده خليك حاطه جنب قلبك عشان ما يضعش، ما هو الي متشال
في القلب دايماً متصان.

أحست "فيروزة" بأن الكلام موجه لها، وإن كان مستتراً، فوجدت نفسها
ترتبك، وشعرت بتشعب حمرة دافئة في بشرتها، على الأغلب كانت
ملحوظة للمتواجدين، حاولت الحفاظ على ثبات تعبيرات وجهها، ونظرت
إلى الجد عندما قال وهو يمد راحته بالمفتاح:

-اتفضلي .. ربنا يجعله فاتحة الخير عليكي وعلينا.

أخذته منه متممة بصوتٍ أظهر حرجها:

يا رب.

هتف "سلطان" قائلاً وهو يوزع أنظاره عليهم:

مش يالا بينا، ولا الأعدة هنا عجبتكم؟

رد عليه "تميم" مبتسمًا بابتسامة عريضة:

-أعدة الأبله مايتشبعش منها.

غازلها الجد عن عمدٍ وهو مسلط كل أنظاره عليها:

هي كلها على بعضها حلوة وزى القمر.

تخرجت للغاية من عذب كلماته، وأخفضت رأسها متحاشية النظرات
المتجهة إليها، بينما قالت "ريم" في تهذيبٍ وهي تشير بيدها:

-اتفضلوا يا جماعة.

شدد "سلطان" بلهجة مزجت بين العطف والجدية:

-خلي بالك من نفسك.

ردت بإيماءة من رأسها:

حاضر يا جدي.

وضع يده على كتفها متابعا بنفس اللهجة المؤكدة:

-ومن غير ما تقولي إنك عايزة حاجة، احنا معاك، وجمبك، وفي ضهرك،
هنفضل على طول وياكي لحد ما تقابل وجه كريم.

لم تستطع كبح مشاعرها ولا منع نفسها من الارتقاء في حضنه الدافئ بعد
كل ما قيل، وكل ما شعرت به في حضرتهم؛ وكأنهم أعادوا لها ما ظنت أنها

أضاعته للأبد! ألقت "فيروزه" برأسها على صدر الجد "سلطان"، ورددت
بصوتٍ كان متأثراً للغاية، وعيناها تلك المرة تحتويان على دموع الفرحة:

-ربنا يخليكوا ليا !!

.....

الفصل المائة والحادي والثلاثون

مع تلك الضمة، المليئة بالحنان والمحبة، والمصحوبة بالعبارات الأبوية الصادقة، لملت شتاتها المبعثر، وتطيت نفسها الجريحة، حتى أن كلمة النهاية قد وُضعت لتعلن انقضاء تلك الفترة البائسة التي امتدت لسنوات في حياتها، لتبدأ بعدها عهدًا مليئًا بكل الأمان، التطلعات، والأحلام قابلة التحقيق. استلت "فيروزه" نفسها من حضن الجد "سلطان"، ونظرت إليه قائلة وهي تمسح دموعها بظهر كفها:

-لولا وجودكم في حياتي كنت آ...

قبل أن تتم عبارتها قاطعها مؤكدًا بسمه وقورة:

-أحنا معاكم على طول.

أضاف عليه "بدير" وهو يشير بيده:

هنستناكي ترجعي بيتك يا غالية.

علق عليه "سلطان" مازحًا:

-صحيح الأعدة هنا حلوة، بس البيت والشارع كله مضلم من غيرك.

ابتسمت للطافتها الواضحة، وأومأت برأسها مرددة:

-حاضر.

من خلفهم وقف "تميم" يتأمل كل ما يصدر عنها؛ كأنما يأمر عقله بتسجيل تلك اللحظات في ذاكرته، فلا تُمحى بمرور الوقت، أراد أن تدوم ابتسامتها، أن تزاح همومها، ألا يوجد للحزن مكانًا في حياتها. نطق لسانه بنزق العذب من الكلام:

هستناكي، متطوليش الغيبة.

التفتت ناظرة إليه بنظرة غريبة حائرة، في حين حدجه "بدير" بنظرات متوعدة غير راضية عن تجاوزه، وقال مصححًا عنه بصوت أجش:

علينا كلنا، هو يقصد كده.

تراجع "تميم" أمام نظرات أبيه الصارمة، وأخفض رأسه ليأمره الأخير بلهجته الجافة:

-اسبقنا إنت و"هيثم".

حمحم قائلاً وهو يهز رأسه:

حاضر يا حاج.

انتظر "سلطان" ذهابه ليعاتب ابنه في لين:

بالراحة عليه يا "بدير"، ما إنت عارف ابنك حنين، وقلبه رهيف مع الغالي.

وكأنه أراد بهذا أن يُريها ما قد تغض البصر عنه طواعية منها لرفضها تكرار التجربة، لهذا مهد لها السبيل لتتظر عن كشٍ إلى محبته غير الزائفة، لعلها تنفذ إلى قلبها، وتزيل ذلك الصداً عنه. عاد "سلطان" ليخاطب "فيروزة" بأسلوبه الحاني:

مش هوصيكي يا بنتي، يومين بالكثير ونلاقكي منورة حتتك.

أظهرت امتثالها له، وقالت في رقة:

حاضر يا جدي.

.....

في البهو المتسع الخاص بدار الرعاية، اجتمعت "ريم" بعائلة "سلطان" بعد أن انتهت زيارتهم الودية لمريضتها، ظهر الامتنان، والعرفان بالجميل في نظراتها قبل أن تسترسل بلطف شديد:

-حقيتي اللي عملتوه النهاردة حاجة عظيمة، وأكيد هتساهم بشكل كبير في شفائها وخروجها بسرعة من هنا.

رد عليها "بدير" بتعابير الجادة:

-أنا منقدرش نتأخر عنها، ومش محتاجين ندعي حاجة مش فينا.

استدارت ناحيته تشكره:

-ربنا يكثر من أمثالكم.

ثم أكل وهي تشير بكلتا يديها:

-الحافز الإيجابي، والدعم القوي مهم جدًا في الوقت ده، و"فيروزة" لو اتحسننت هايكون طبعا بعد فضل ربنا بسبب دوركم.

دعا لها الجد "سلطان" وهو يتسم:

-ربنا يكمل شفاها على خير، ويحسن ما بين إيديكي.

بادلته الابتسام، وعلقت في تهذيب:

-شكرا لذوقكم.

تحركت "ريم" نحو "تيم"، وتنحنحت تستأذنه:

-ممكن كلمتين يا أستاذ بعد إذنك.

التفت مخاطبًا والده، وجده في احترام:

ثواني وهارجع على طول.

قال "بدير" وهو يومئ برأسه:

-أنا أعددن منتظرينك هنا.

هتف "هيثم" وهو ينهض من مقعده:

-أنا هاسبقكم على الدكان.

هز الجد رأسه في استحسانٍ قبل أن يودعه:

-ربنا يفتح عليك وعلينا أبواب الرزق.

بتعابيرهِ القلقة، تحرك "تيم" في خطوات سريعة ليتبع الطيبة التي توقفت

عند الحاجز الرخامي الخاص بموظفي الاستقبال، سألها في توجيس:

-خير يا دكتورة؟ في حاجة؟

أجابته بلامح مسترخية:

-لأ، اطمئن، أنا بس حبيت أشكرك على جنب على مساعدتك ليا، إنت أثبتلي إن الحب ممكن يعمل المعجزات.

لم يعرف إن كان يضحك أم يشعر بالغرور من حاله؛ لكن كل ما يخصه من مشاعر لا يحق لغيرها التمتع بها، لهذا حافظ على جمود تعابيرها، وأخبرها ببساطة:

-إنتي عارفة كويس إني مقدرش أتأخر عن أي حاجة تخصها، ولو حكمت إن أرمي نفسي في النار عشانها مش هتردد للحظة.
جاءه تعليقها صريحا:

-زي ما هي رمت نفسها عشانك زمان.

أوضح لها بنفس التعابير الجادة:

هي مكاتنش تعرفي، ولحد النهاردة كانت بتنكر إني نفس الشخص، لولا بس إن "هيثم" اتكلم.

تنفست بعمق قبل أن تطلب منه بنبرة عملية:

-أستاذ "تيم"، لو ربنا أراد وعلاقتكم اتطورت للجواز تكون صبور معاها، "فيروزه" على أد ما تبان قوية؛ لكن من جواها متدمر، وحتى لو اتعالجت وبقت أحسن، لسه في شروخ محتاجة إنها تتلئم.

قال كأنما يقطع وعدًا على نفسه دون أن يتسم:

-اطمني يا دكتورة، يأذن بس ربنا ويجعلها من نصيبي، وأنا مش هاخلي حاجة تمسها.

افترت شفتها عن بسمه لطيفة وهي تردد:

-أنا مطمنة عليها معاك، وربنا يجمعكم على خير.

هزة خفيفة من رأسه أعقبها قوله الجاد أيضًا:

متشكر يا دكتورة.

حبه العذب المنزه عن أي أطماع كان ملء كل قلبه، وعينييه، وكيانه، من يُدركه هم العاشقون، ومن يُصدق به هم المرتشفون من رحيقه المُسكر.

.....

انتفاضة غير موفقة من على الفراش قامت بها، وهي تستمع هاتفيًا إلى ما أخبرتها به إحدى صديقاتها حول انتشار منشورٍ ما خاص بقيام أحد الدجالين بالسحر لإضرار بعض الأشخاص، ومن بين الصور المعروضة كانت صورة توأمتها. حل الدهول على قسّات "همسة" واختلط بالخوف الشديد، بلعت بصعوبة ريقها، وصاحت متسائلة في جزع، ويدها موضوعة على صدرها الناهج في انفعال:

-إنتي متأكدة من الكلام ده؟

أكدت عليها رفيقتها مرة أخرى:

-أيوه، والله هي صورتها.

حاولت التماسك، وطلبت منها وهي ترتجف قليلاً:

حط ابعتيلي البوست كده أشوفها.

ردت قائلة:

-حاضر، هاقفل معاك وأجييها لك.

شكرتها بصوتٍ ما زال قلقاً:

-تمام يا حبيبتي، هتعبك معايا معلش.

رددت في تفهم:

-لأ عادي، أشوفك على خير.

-إن شاء الله

قالتها وهي تهوي المخابرة الهاتفية معها لتنظر بعينين جاحظتين إلى الرسائل
ولسانها يردد في صدمة محملة بالارتياح:

-أعمال! هي "فيروزة" ناقصة!!

شهقة مسموعة انطلقت من بين شفيتها حين رأت ما تم إرساله لها،
وصرخت في استنكارٍ مذعور:

-دي فعلاً هي!

شحب لون وجهها، وأحست بتسارع دقات قلبها، مع دوار خفيف برأسها،
عاودت الجلوس على الفراش، وتساءلت في هلع:

-مين عاوز يأذيها بالشكل البشع ده؟!!!

ظلت تردد في لوعة:

-استر يا رب، عديها على خير، احفظها من كل شر.

نظرت "همسة" إلى كفيها المرتعشين، وضمتهما معاً محاولة إيقاف تلك الرجفة
التي استبدت بها، وجدت نفسها تتساءل في خوفٍ أكبر:

-دي لو عرفت ممكن تتنكس ثاني، طب اتصرف إزاي؟!!

سيطرت عليها حيرتها، وأكملت معبرة عن الصخب المنتشر في رأسها:

-واستحالة أقول لماما، هي لو عرفت مش هتخبي حاجة عنها، وبكده أنا
بضرها.

بالكاد سعت لضبط أعصابها قبل أن تتلف من الارتعاب، وظلت تردد
لنفسها:

إن شاء الله يومين والبوست ده يختفي من على النت، والناس هتنسى.
واصلت التنفس بعمق لتستعيد انضباط أنفاسها وهي ما زالت تدعو في
تضرع:

يا رب احفظها وما تضرناش فيها أبدًا.

.....

اسودت ملامحه، وأظلمت نظراته بشكلٍ واضح عندما عرضت عليه زوجته
اقتراحها بطريقتها السلسة؛ وكأن الأمور بين العائلتين على وفاق تام، ولم
ينشب بينهما أي صراع، خاصة ذلك الأخير الذي نجا منه ابنه بأعجوبة من
الموت. على حين غرة، هب "إسماعيل" واقفًا، وضرب برأس عكازه على
الأرضية في عصبية قبل أن يصيح أمرًا:

مش عايز سيرة في الموضوع ده ثاني.

قطبت "سعاد" جبينها، ونظرت إليه نظرة غبية وهي ترد متسائلة:

ليه يا حاج؟

تجاهل الرد عليها، وخاطب ابنه بغلظة، ووجهه ينتفض بعلامات الغضب:

-إنت ناسي اتعمل فيك إيه يا "فضل"؟ ولا وصل الأمانة الي عليك!!؟

ادعى بالكذب بعينين كسيرتين:

-يا بابا بجبها، ودي لحمي وعرضي، ومهما عملت فأنا مسامح.

التوى ثغره في تهكم صارخ قبل أن ينطق:

حطب خلي حد غيرك يقول كلام غير ده، جايز ساعتها أصدق.

قبل أن يعلق عليه ابنها، هتفت "سعاد" تدعم اقتراحها بتفاؤل كبير:

-سييلي الموضوع ده يا حاج، وأنا هتصرف فيه، الحاجات دي الحريم بتخلصها وآ...

قاطعها هي الأخرى بصبر نافذ:

"-سعاد"، أنا معدتش فيا حيل ألم ورا ابنك، شيلي الحكاية دي من مخك.

حركت شفيتها لتعترض؛ لكنه أخرسها صائحًا:

-مش هاعيده تاني، مافيش نقاش ولا رجوع في كلامي، سامعين.

ضغطت على شفيتها في تبرم غير مقتنعة به، ورمقته بتلك النظرة المحتجة،

في حين لاذ "فضل" بالصمت ريثما انصرف والده، ثم انفجر شاكيا إياه لها:

-شايقة يامه؟ أهوو على طول مكسر ماديقي.

ابتسمت له في حنو، وقالت:

-ماتشلس هم، أنا هحلهالك.

ألح عليها بسماجة:

-أه يامه، حليها..

ثم استرق قلبها بادعاء الحزن وهو يكمل:

-اجبري بخاطري بدل ما أنا مقهور في نفسي كده.

هتفت متعهدة له وهي ترفع يدها لترت على صدغه:

-متقلش يا ضنايا، أمك هتعملك كل اللي نفسك فيه.

استرخى "فضل" في جلسته، وإحساسه بالانتشاء يزداد بداخله، ربما
يبتسم له الحظ، وتفعل والدته ما عجز عن فعله، وتأتي له بها، ليذيقها من
صنوف الانتقام أشكالاً وأنواعاً، سرعان ما أخفى فرحته الخبيثة ليأمرها:

-بقولك إيه، ودي العيال دول عند البومة أهم، كفاية كده عليهم، وخليني
أفوق لنفسي.

دون جدال أظهرت طاعتها الكاملة له، فقالت مبتسمة في سرور؛ وكأنها
أُمته التي تسترضيه لا أمه:

طالما إنت عايز كده ماشي.

.....

كل خاطرات نفسه عنها، وأمنياته بالاجتماع بها منذ إدراكه بزوج برعم
الحب بداخله احتفظ بها في سراديب عقله، إلى أن يشاء المولى، ويجمع
بينهما برباط الزواج المقدس، حينها فقط سيطلق العنان لشرارات الحب،
والمشاعر، وكافة الأحاسيس لتبوح بما يطرب الفؤاد ويرويه. بعد تنبيهات
شديدة اللهجة، ووعود تلك المرة نافذة اضطر "تميم" أن يتعد مرغمًا عن
محيط طاووسه، نأى عنها بروحه المشتاقة لرؤية بصيص منها اتباعًا لأمر
والده الصارم بعد تجاوزاته غير المقبولة خلال زيارته لها. كان صارمًا في هذا
الشأن، وكان محققًا في غضبه منه؛ لكن للقلب أهواء يتعذر على المحب
مغالبتها .

استعان بالصبر وتشبث به لما يقرب من عشرة أيام، بعد عودتها السالمة
إلى منزلها، كان لا يظهر في الدكان إلا في مراتٍ معدودة، بعد أن يستأذن
والده بالحضور، ويتأكد من عدم تواجدها، حيث كُلف بمتابعة العمل مع
"هيثم"، وأيضًا بالتوريد لإحدى سفن الرحلات الماكثة بالميناء البحري، مما

استحوذ على غالبية وقته، وأصبح الكد والشقاء رفيقاه مؤخرًا، ومع ذلك بقي القلب قبل العقل مشغولاً بها.

كان "تميم" مرهقًا للحد الذي جعله عاجزًا عن النوم بأريحية، بمجرد أن يستلقي على الفراش، يسقط في سبات سريع ليستيقظ بعد بضعة ساعات وهو ما زال يشعر بالتعب، ربما كان ذلك يساعده في الانتهاء عن التفكير فيها ليلًا؛ لكن مع النهار تراوده خلصة أحلام اليقظة، فيقاومها بأقصى ما يستطيع، وإن كان يسمح لقدرٍ منها بتسليته، وتهوين بعدها عنه.

ذلك النهار، عاد إلى منزله مبكرًا، بعد أن تأخر وصول إحدى شاحنات نقل الفاكهة، فعرج إلى المطبخ، وهناك استرق السمع لحديث "هاجر" مع والدته دون أكتراثٍ، خلال إحضاره لكوبٍ ليملأه بالماء البارد. قالت شقيقته ضاحكة:

- ده أنا دوختها معايا، وهي الصراحة عندها أفكار حلوة، خلت الدنيا بسيطة.

دعت لها "ونيسة" في ابتهاج:

-رنا يسعدك يا حبيبتي، ويتملك على خير.

ضمت "هاجر" حاجبيها معًا في عبوسٍ مفتعل، وتساءلت وهي تضع يدها أعلى خصرتها:

-مش المفروض العروسة اللي زي تريجلها يومين كده قبل كتب الكتاب؟

أخبرتها والدتها وهي تكمل تقشير ثمرة البطاطس:

-ليكي عليا يومها مخليكيش تحطي إيدك في قشاية.

زمت شفيتها هاتفة في تدمر:

-والله أنا حاسة إن "سراج" هيجي يلاقيني بأسيق الأرض.

أناها تعقيب والدتها ساخرًا:

-وماله، عشان يعرف إنه متجوز ست بيت نضيقة وزى الفل.

احتجت "هاجر" بتدلي:

-هو إنتي هتاخدي صفه من دلوقتي؟

كتمت والدتها ضحكها المازحة معها، فاشتاطت غيظًا، ووجهت حديثها إلى شقيقها:

-ما تتكلم يا "تميم"؟ يرضيك كده.

سحب "تميم" قطعة من الجزر المقشر، وقطعها بأسنانه، قبل أن يرد وهو يلكوها:

-بصي لو فكر يزعلك في يوم هاخلصك عليه.

هتفت تدافع عنه في استنكارٍ:

-بعد الشر.

وضعت "ونيسة" إصبعيها على طرف ذقنها، ورددت بنظراتٍ مأكرة:

-شوف البت!!

تساءل "تميم" بعد أن ابتلع ما في جوفه:

طبخالنا إيه يامه؟

أشارت نحو الموقد، وأخبرته بابتسامة عريضة:

-عملالك أنارب بالملوخية إنما إيه حكاية، هتاكل صوابع وراها.

علق في استحسانٍ:

تسلمي يا ست الكل.

سألته "ونيسة" في اهتمام:

-إنت نازل دلوقتي؟

أجابها وهو يقرب باقي الجزرة من فمه:

-كمان ساعة، مستني تليفون من الحاج "عوف".

ردت عليه بإيماءة من رأسها:

-كويس أكون حضرت السفرة عشان تأكل.

وضع "تميم" يده على كتف والدته ليربت عليه في حنو، بينما استطردت "هاجر" قائلة بمكر، وكل عينيها على وجه شقيقها:

"-فيروزة" عزمانا على افتتاح المحل بتاعها، هت حضر يا "تميم"؟

لم ينظر ناحيتها، وقال متهرباً من الرد:

عندي شغل.

تساءلت "هاجر" في تعجب:

غريبة، يعني إنت عارف ومش هت حضر؟

جمع "تميم" البقايا التي انتهت والدته من تقشيرها بيديه، ووضعها في سلة القمامة خلال كلامه الجاف تقريباً معها:

-أيوه، أبوكي قالي، باركولها بالنيابة عني.

ابتسمت في لؤم وهي تحاصره بسؤالها العبيث:

-وبرضوه مش هتيجي؟ هيجيلك قلب؟

كعادته لم يجذد أبدًا استباحة غيره لما يخصه، فقال بتعاير جادة للغاية:

-شوفي يا "هاجر" وراكي إيه.

ثم انصرف من المطبخ وهو يزفر بصوتٍ مسموع، استغربت شقيقته من ردة فعله الجافة، ونظرت إلى والدتها متسائلة بصوتٍ خفيض:

هو مالـه؟

لم تبدُ "ونيسة" مهتمة بتفرس ملامحه لمعرفة ما الذي يؤرق باله، كان الرد حاضراً ومنطقياً، فهتفت تأمر ابنتها:

سيبي أخوكي في حاله، وهاتي كام لمونة من التلاجة أما أعملهم ليون خلاط يروق بيها دمه، ده محدود حيله ليل نهار.

ردت بعد زفير ممتعض:

حاضر.

اتجهت إلى التلاجة لتفتش في واحدٍ من الرفوف عن الليمون؛ لكن صوت قرع الجرس جعلها تتوقف عن البحث، اعتدلت في وقتها، والتفت إلى والدتها التي أشارت لها قائلة بصيغة بدت آمرة:

-روحي شوفي مين على الباب الأول.

تهدل كتفاها وهي تخطو نحو الخارج؛ لكن "تميم" رفع يده أمام وجهها يخبرها:
خليكي أنا هفتحه.

طيب

قالتا وهي تتراجع عائدة إلى المطبخ، ليكمل بعدها سيره نحو الباب بتكاسلٍ
متعب. أدار المقبض ليفتحه، وآخر ما جال بخاطره أن تكون "فيروزته"
حاضرة أمامه بشحمها ولحمها! أبصرت عيناه البهاء الساحر الذي ملأ الفراغ
من حولها، فجعله عاجزاً عن النظر إلى ما سواها، تركزت كامل حواسه
معها، وانفرجت شفتاه عن بسمه نقيه عذبة، ليس لأنها تتطلع إليه في اهتمام
غير اعتيادي منها، وإنما لتلك الابتسامة الرقيقة المتشكلة على ثغرها وهي
تهمهم مرحبة:

مساء الخير عليك !!

.....

الفصل المائة والثاني والثلاثون

عشرة أيام ثقال، عجاف، مروا عليه بغير يسرٍ، لمحة منها جعلته يرتوي بعد
لوعة واشتياق، كان كمن يسير في قيظ الصحراء، يبحث عن ماء يطفئ به
اللهيب المستعر في صدره، ويبلل جوفه الذي أصابه القحط، فجاءت هي
بنسماتها العليلة، ورياحها اللطيفة، لتشيع في روحه السكينة والهناء، ارتوى
بعد عطش، امتلأ بعد جوع، ويا له من شعور!

انتبه من شروده المتطلع في حُسن غير متكلف، في جمال غير مبهرج، حين
نطقت بابتسامة صغيرة:

-أنا أسفة لو كنت جيت من غير ميعاد...

وكأن الحروف فرت من على لسانه، حلق فيها بنظراته الهائمة الدافئة،
وأصغى بقلب يخفق في سعادة لباقي كلامها:

-بس كنت اشتريت لـ "هاجر" الحاجات اللي طلبتها، وخوفت تتهدل
مني، فقولت أجيها وأسيها هنا لحد ما أجهزها للحفلة.

بادلها الابتسام وهو يرد مرحبًا بجملة لا تعبر عن قدر بسيط عما يسود
بداخله:

-إنتي تيجي في أي وقت، ده بيتك يا أبله.

النظرات التي يمنحها لها كانت إلى حد كبير تشعرها بالألفة، بشيء يتخطى
المجاملة بكثير، تغاضت عما تفكر فيه الآن، وردت في تهذيب وهي تخفض
رأسها:

-شكرا لك.

امتدت يدها لتلتقط عنها الأكياس وهو يستأذنها:
عنك.

اهتمامه البسيط بها ضاعف من الإحساس الغريب -واللذيذ- المتنامي
بداخلها، قالت في حرج وهي ترفع رأسها لتنظر إليه بوجه شبه متورد:
عشان ماتعبكش.

أصر عليها بتعاير شاعت فيها المرح:

-ودي تيجي، عيب والله.

قدمت يديها للأمام، فتناول عنها الأكياس وهو حريص كل الحرص ألا يلمس أناملها، رغم ازدياد المشاعر الحسية وانطلاقها في وجدانه، ظل باقياً في مكانه؛ لكنه تنحى للجانب ليفسح لها بالمرور وهو يدعوها للدخول:
-تفضلي يا أبله.

أطرقت رأسها قائلة بصوتٍ شبه منخفض:
شكراً.

جاء صوت "هاجر" متسائلاً وهي تشد الحجاب على رأسها:
-مين يا "تميم"؟

أجابها بنبرة عالية إلى حد ما؛ كأنما يؤكد على الرابط العزيز بين الاثنين:
صاحبتك الغالية يا "هاجر".

أتت على الفور وهي تهتف مرحبة بوجه مبتسم للغالية:
-وأنا عمالة أقول البيت نور.

دون انتظارٍ احتضنتها وضممتها بكلتا ذراعيها في حميمة عميقة، لتدل على مدى سعادتها برؤيتها، اندهشت "فيروزة" من هذا الاستقبال الحار، وانسلت من أحضانها قائلة بابتسامة لطيفة:

-شكرا على ذوقك.

جففت "ونيسة" يديها في منشفة صغيرة، وانضمت إليهم متسائلة:

-هو احنا عندنا ضيوف؟

صححت لها "هاجر" بضحكة مسموعة:

ضيوف مين، دي "فيروزة".

مثل ابنتها انطلقت الأم ترحب بها بنفس الحرارة وأشد، قبلتها من وجنتيها بعشرات القبلات، بعد أحضان أمومية دافئة، وهي تردد:

يا 300 مرحبا، نورتي يا غالية، ده احنا لازمًا نفرش الأرض ورد ..

تراجعت عنها "فيروزة"، بينما استمرت "ونيسة" في ترحاها وهي تسحبها من ذراعها نحو غرفة المعيشة:

-تعال يا حبيبي، اتفضلي، مش هتفضلي واقفة كده على الباب.

حاولت التلمص من تلك الدعوات المغرية، واعتذرت بلباقة:

-مافيش داعي، شكرا ليكم على كرمك ...

ثم وجهت باقي حديثها لـ "هاجر"، ويدها تشير إلى "تيم":

دي حاجتك اللي كنتي عايزاها.

تهللت أساريها في سعادة كبيرة، وركضت نحوه لتأخذ أشياءها قائلة:

-الله، بجد؟ ده أنا لسه بأحكي لأمي، وبأقولها دوختها معايا.

علقت عليها "فيروزة" مبتسمة في رقة:

ده شغلي، مافيش فيه تعب.

صاحت "ونيسة" قائلة بإصرارٍ وهي تشير بيدها نحو الأريكة:

هتتكلمي على الواقف كده، تعالي ارتاحي من المشوار.

بنفس الأسلوب اللطيف اللبق قالت:

-مافيش داعي، أنا كنت بجيب الحاجة وآ...

قاطعتها في عبوسٍ رافضة التنازل عن دعوتها:

-والله ما ينفع أبدًا، ده أنا لسه عاملة لمون فريش بالنعناع، اسألي "تميم" عنه.

ردت عليها ابنتها تمتدح صنيع يديها:

-ولا أجدها معصرة، لما تدوقيه هتعرفي.

تلقائياً اتجهت أنظار "فيروزة" نحو "تميم" الذي أخفض نظراته عنها حين أمسكت به يتطلع إليها، ثم سرعان ما عاودت النظر إلى "ونيسة" التي هتفت تأمر ابنتها:

هاتيه بسرعة لحبيبتنا.

قالت "هاجر" وهي تومئ برأسها قبل أن تختفي بالداخل ومعها متعلقاتها: على طول أهوو.

جلست "فيروزة" على الأريكة، وإلى جوارها "ونيسة" التي ظلت تمنحها من الابتسامة الودودة ما جعلها يشعر بالمزيد من الألفة والمحبة الصافية، في حين ظل "تميم" باقياً على مسافة بينهما، بالكاد تحرك من مكانه، ربت والدته على ذراع ضيفتها لتتنبه لها قبل أن تضيف:

مسافة ما تشربي اللمون يكون الأكل استوى، عشان أجهز السفرة، وتتغدي بقي معانا.

اعترضت عليها بشدة، وقد ظهر الارتباك عليها:

-لالالا، مش هاينفع والله، ده أنا يدوب أنزل.

ارتفع إصبعها نحو طرف ذقنها، وضعتها عليها كتعبير عن انزعاجها، وعاتبها في تدمر:

-يادي العيبة؟ تنزلي كده من غير ما تقوم معاكي بواجب، والله عمك الحاج
يزعل مني.

عضت على شفها للحظة قبل أن تنطق:

-وقت ثاني معلش.

عادت "هاجر" إليهم وهي تحمل صينية تضم كوبين زجاجين من عصير
الليمون الطازج، قدمت الكوب الأول للضييفة العزيزة، قبل أن تقدم الآخر
لشقيقها الذي رمقها بنظرة غامضة غير راضية عن هذا التصرف العبثي
المقصود منها، بطرف عينه التقط التفات رأس "فيروزة" نحوه، حتمًا كانت
تتابع خطوات شقيقته، وربما أخرجها ذلك بشكلٍ ما، شتت "تميم" نظراته
عن شقيقته لينظر إلى والدته التي هتفت في استنكارٍ:

-شوفي صاحبتك يا "هاجر"، عايزة تنزل كده من غير ما نضايفها!

بررت لها "فيروزة" سبب رفضها على الفور:

-والله عشان الحاجة متتبدلش أنا جبتها على طول على هنا، مرة ثانية.

أمام إصرارها اضطرت "ونيسة" ألا تضغط عليها، وسألتها في تجهم:

حطب اشربي اللمون، ولا ده كمان لأ؟

قالت مبتسمة في رقة:

حاضر.

ثم رفعت الكوب إلى شفيتها لتذوق أشهى عصير ليمون لم تذوق في
حلاوته من قبل، لم تنكر أنه جاء في وقته فجعلها تنتعش، عفويًا اتجهت
عينها نحو "تميم" وشقيقته تخاطبه:

ما تفضل يا "تميم"، ده اللمون الي إنت بتجبه.

هتف في رسمية وهو يرمقها بتلك النظرة المحذرة:

متشكر يا "هاجر".

لم تستطع "هاجر" منع نفسها من القول؛ لكن بصوت خفيض، وتلك
النظرة المتسلية على وجهها، خاصة أن كان يقف مستندًا إلى جوار شجرة
صناعية تزين الركن:

-لمون وشجر أهوو.

أعطاه الكوب بعد أن ارتشف منه مقدار قليل، وقال في لهجة رسمية
بحثة:

طيب يامه أنا نازل.

سألته "ونيسة" في دهشة لا تخلو من الاستنكار:

مش هتتغدى إنت كمان؟

أخرج هاتفه من جيبه، وقال بتعابير شبه جامدة:

الحاج "عوف" بيرن عليا، تلاقيه في الدكان دلوقتي، أنا هاروحله.

لاحقته والدته بسؤالها الأموي المهم:

هتزل على لحم بطنك؟

هز رأسه قائلاً بصوت جاف، ودون أن ينظر في اتجاه "فيروزة" التي كانت تتطلع إليه بتعجب:

هخلص معاه على طول، وأرجع، مش هتأخر.

اعترضت عليه "هاجر" وهي تومئ بحاجبها:

بس الأكل هيبرد.

سدد لها نظرة قوية قبل أن يرد:

هاكله لو كان طوبة...

لم تبدُ تعابير لهينة وهو يكمل مخاطبًا والدته:

ده كفاية تعبك في عمايله يا ست الكل.

دعت له الأخيرة بلامح ممتنة للغاية:

-ربنا يوقفك ولاد الحلال ويراضيك زي ما بتراضيني دايماً.

في تلك اللحظة تحديداً، تمت "فيروزة" أن تحظى بنظرة محترمة منه، لا تعرف ما الذي أصابها لترغب في هذا، واندفعت تلوم نفسها للتفكير في شأنه أمام عائلته الوقورة، ومع هذا لم تتحقق أمنيتها البسيطة، ولم ينظر إليها، بل انطلق متجهاً إلى الباب ليخرج من المنزل دون أن يودعها مثلما اعتادت أن يفعل، وهذا ما أثار حفيظتها. تبدد ضيقها مثلما تشكل في لمح البصر عندما جلست "هاجر" على الأريكة الجانبية، واستطردت تكلمها:

فرصة يا "فيروزة" تشوفي المكان وتقولي هنعمل إيه هنا.

تنحنحت مرددة باقتضابٍ وهي تشدد من قبضتها المسكة بالكوب:

-أوكي.

.....

عند مدخل البناية وجد والده يترجل من سيارة ربع النقل المملوكة لهم، دقق النظر فيه، فوجده يودع السائق بعد أن أعطاه ورقة نقدية زائدة عن أجرته اليومية جراء تعبته طوال اليوم معه، ابتسم لإحسانه غير المنقطع مع الجميع دون تمييز، وانتظر متوارياً عن الأنظار ريثما يذهب السائق ثم تابع

التقدم نحوه. اندهش "بدير" من وجوده، وسأله بلامح يملأها
الاستغراب:

-رايح فين كده؟

أجاب بعد زفير سريع:

-الدكان، هستنى الحاج "عوف" هناك.

علق عليه بنفس التعابير الحائرة:

ما تنزل أما يطلبك، ده لسه في سوق الجملة، أنا كنت مكلمه من 10
دقايق.

ضغط "تميم" على شفثيه مرددًا في حرج:

معلش .. ده لازم.

تفرس "بدير" في وجه ابنه الواجم، وتساءل مستفهمًا:

هو في حاجة؟

تردد قبل أن يجيبه بنظرة سريعة للأعلى:

-أصل .. الأبله فوق عندنا.

لم يستمر "بدير" في طرح أسئلته، وقال بابتسامة رضا تعلو ثغره وهو يربت على كتفه عدة مرات:

فهمتكَ، ربنا يكرمك.

أطلق زفرة طويلة يائسة قبل أن يقول بعدها بتعابير يكسوها السأم:
يا رب.

نصحه والده بوجه ما زال رائق التعبيرات:

-استحمل، فاضل حاجة بسيطة، ماتبوظشهاش عشان قلة الصبر.

قال في تبرم:

-هو أنا عندي إلا هو.

من جديد ربت "بدير" على كتفه يستحثة:

-اتوكل على الله، وربنا يوفقك.

ودّع أبيه، وانطلق سائراً نحو سيارته المصفوفة في الناحية المقابلة، حانت منه نظرة للأعلى آسفة على الابتعاد عنها؛ لكنه كان مضطراً احتراماً لما قطعه من وعود، وقلبه ينبئه تلك المرة أن القرب منها أصبح وشيكاً!

خلال العشر دقائق التالية انشغلت "فيروزة" بتدوين بعض الملاحظات الأساسية في مفكرة ورقية صغيرة عن كيفية إعادة تنسيق المكان بالشكل الذي يسمح لوضع لمسة جمالية فيه، مع توسيعه، ليستقبل عددًا لا بأس به من المدعوين، التفت برأسها للخلف ناظرة نحو الجد "سلطان" الذي هتف مرحبًا بها:

-البدر نزل من السما وموجود عندنا.

أقبلت عليه تسأله:

-إزي حضرتك؟

أجابها مبتسمًا في حبور:

-بقيت أحسن لما شوفتك.

أحست بالمزيد من الدفء والسرور يغمرها، بجوٍ أسري مستقر لطالما رغبت في التمتع به، وجدت نفسها تنحني لتمسك بكفه، وترفعه لفمها لتقبله وهي تردد:

-ربنا يباركلنا فيك.

مسح بجنوٍ على جانب ذراعها، وسألها:

-إزي الست والدتك وأختك؟ بخير؟

أومات برأسها وهي تجيبه:

أه الحمد لله في نعمة.

علق بنفس الوجه المبتسم:

-يدوم يا رب ...

ثم أشار بيده نحو غرفته متابعًا:

-هاخش أكل قراية في المصحف، أنا قولت أجي بنفسي- أسلم لما سمعت صوتك.

شعرت بالغبطة بعد تصريحه، وقالت بابتسامة أشرقت ملامحها:

-ربنا يخليك ليا يا جدي.

رد عليها داعيًا بصدق:

-ويحسن ما بين إيديكي يا بنتي.

.....

بخطوات شبه متهادية، سارت متأبطة ذراعه، وباليد الأخرى تناولت آخر قطعة في الحلوى التي ابتاعها لها، استلت ذراعها منه، لتقترب من إحدى حاويات النفاية، وألقت بالورقة بداخلها، ثم عادت إليها متابعة مشيها في

صمتٍ يدعو للريية. نظر "هيثم" إليها يامعانٍ، قسماتها أوحى أنها تخفي شيئاً ما عنه، قرر عدم تجاهل هذا الشعور المزج الذي يراوده، لهذا سألها مباشرة:

-مالك يا "هموسة"؟ بقالك كام يوم متغيرة.

أجابت بعد زفيرٍ بطيء:

-مافيش يا "هيثم".

كان غير مقتنع بردها، فلاحقها بالسؤال التالي:

-إنتي محببة عني حاجة؟

نفت في هدوءٍ، وملاحظها ما زالت تعبر عن وجود همٍ ثقيل:

-لا عادي.

ضاقت نظراته متشككاً، واستطرد يخبرها:

-شكلك بيقول غير كده، هو إنتي مضايقة مني؟

نظرت إليه قائلة دون تفكير:

-لا يا حبيبي.

رد في صبرٍ بدا شبه نافذ:

-أومال في إيه بس؟

وقبل أن تسيء تفسير ضيقه، بادر بالتوضيح:

-مش احنا اتفقنا مانخبش على بعض حاجة؟

حركت رأسها قائلة وهي تنظر في عينيه:

-أيوه.

رمقها بتلك النظرة اللطيفة وهو يخاطبها:

ها .. أنا مستني.

ترددت وهي تحاول إجبار نفسها على البوح بسبب انزعاجها:

-بصراحة كده آ.. من كام يوم آ..

لم تجد بداً من إخفاء الأمر، وألقت ما في جعبتها قائلة:

-حصل إني اتبعثلي منشور على الفيس بوك.

زاد الفضول بداخله، وسألها بلا تعجل:

-ماله يعني؟

تأبعت بنظراتٍ ساد فيها القلق:

عن حد عملها عمل.

هتف في صدمة مستنكرة:

-نعم، عمل!!؟

أكدت عليه:

-أيوه.

علق في عدم فهم:

-إزاي يعني؟

تنفست بعمق، ثم طردت الهواء من صدرها، لتقص عليه بالتفصيل ما علمته من صديقتها، بل إنها جعلته يرى ما تم إرساله لها عبر هاتفها، ليتأكد من سبب مخاوفها المبررة. خنقت "همسة" غصة علق بخلقها تأثراً بالأمر، وأيضاً بسبب تأثير هرمونات الحمل عليها. مرة أخرى سحبت شهيقاً عميقاً، ولفظته على مهل وهي تخبره :

-وخايفة بقى لأحسن "فيروزة" تشوفه بالصدفة على أي جروب، اللي مطمئني إنها بقالها فترة مش بتتابع حاجة عليه، بس وارد تعرف عنه.

حك مقدمة رأسه متسائلاً، وعيناه تحاولان فحص ملامح الوجه غير الواضح
نظراً لوجود عبارات غريبة عليه تفسد إظهار تفاصيله:

-إنتي متأكدة إنها هي؟

ردت بعينين تلمع فيهما العبرات:

-أيوه، هو أنا مش هعرف أختي؟ ده غير إن نفس اللبس كان عندي بس
بلون مختلف.

أعاد إليها الهاتف، وتساءل في غيظ:

-تفتكري مين ابن الـ (....) اللي ممكن يعمل كده؟

هزت كتفها قائلة وهي تضع الهاتف في حقيبتها:

-معرفش، أصل احنا مالناش عدوات مع حد يعني، ولا علاقتنا بالناس
هناك أد كده، يدوب على أد زيارات سنوية كل فين وفين.

التوى ثغره مغمغماً بسخط:

-ما جازي يكون البغل قريبك.

برقت عينها في ذهول، وردت عليه بقلبٍ يدب في خوف:

-احتمال برضوه، بس إيه اللي يخليه يعمل حاجة زي كده؟ ده يبقى ندل أوي.

بنفس النبرة الساخطة علق عليها:

-أنا مستبعدش عنه حاجة، يعني أنا مش عايز أشتمه قصادك.

أراحت "همسة" يدها على صدرها، ودعت في تضرع بصوت خافت:

-ربنا يستر، ويحفظها من كل شر، هي مش ناقصة.

انتبهت لزوجها وهو يقول فجأة مشيراً بيده نحو إحدى البنائيات:

-احنا وصلنا.

دارت بعينها في المكان، وسألته في حيرة:

-وصلنا فين؟

شبك يده في كفها، وقال وهو يدفعها للسير نحو المدخل:

-تعال .. دلوقتي هتعرفي.

.....

لم يتعجل صعودها السلم، وتحلى بالصبر رغم الحماس المسيطر عليه، والذي يدفعه لرؤية ردة فعلها حينما تعلم عن المفاجأة التي أعدها لها. بمجرد أن وصل إلى الطابق المنشود، أشار بيده نحو أحد الأبواب الخشبية، نظرت إليه "همسة" نظرة متسائلة، فلم يجيبها، وحافظ على عنصر- التشويق في مفاجئته، أخرج من يده المفتاح ليضعه في القفل الخاص به ويفتح الباب، ما زال الفضول الممزوج بالحيرة مسيطراً على زوجته، وألحت عليه:

ما تقولي يا "هيثم"، احنا جاين هنا ليه؟

دفع الباب بيده، ودعاها للدخول بابتسامة عريضة أبرزت صفى أسنانه:

-سمي بالله كده وإنتي داخلة.

رددت بحاجبين معقودين:

-ليه ده؟

وطأت داخل البهو المعتم كلياً إلا من إنارة البسطة المنتشرة بشكل غير متكافئ، فمد "هيثم" يده ليضغط على المفاتيح الجانبية فأنارته برمته. مسحت بعينيها تفاصيله سريعاً، حيث وجدت بعض أدلاء الطلاء، والعدة المستخدمة معه، بالإضافة لأوراق متناثرة هنا وهناك، ارتفع بصرها نحو الحوائط فوجدت ألوانها فاتحة تبعث البهجة على النفس، استمرت في تقدمها هاتفة بإعجاب:

-ماشاءالله، ده إيه المكان ده؟

أغلق باب المنزل، وأخبرها وهو مسلط كل عينيه عليها:

-بيتك يا "هموسة".

التفت كلياً لتنظر إليه بتلك التعابير المصدومة، ورددت في عدم تصديق:

-بيتي؟

دنا منها موضحاً:

-أيوه، ما دي المفاجأة اللي كنت بجهزها لك بقالي فترة.

وضع كلتا قبضتيه على ذراعيها، واستكمل توضيحه بابتهاج لا يمكن إنكاره:

هي لسه قدامها شوية عقبال ما نخلص الدهان، ونغير كام حاجة، وتكون جاهزة.

قفز قلبها طرباً، وسألته بابتسامة سعيدة للغاية:

-أنا مش مصدقة، بس إنت عملت كده إزاي؟

ما زالت يداه تتحركان صعوداً وهبوطاً على جانبي ذراعيها وهو يقول معترفاً:

-الحمد لله القرشين الي معايا على كام مصلحة قومت بيهم، وربنا بيكرم،
ومانكرش جوز خالتي قايم بالواجب معايا، ده غير "تميم" مقصرش
الصراحة.

عقت في امتنان:

-ربنا يبارك فيهم، ناس أصيلة.

عادت لتأمل أرجاء المنزل مجددًا وهي تخبره:

-بس الشقة أصلاً باين عليها متوضبة.

أجابها بعد لحظة من التردد:

ما هي كانت شقة "خلود" القديمة، اللي اتجوزت فيها، وآ...

حملت فيه بقليلٍ من الدهشة، بينما تابع "هيثم" كلامه بجرح:

-بدلتها معاه بيتي القديم، ودفعت فرق بسيط.

لاحظ أمارات الوجوم التي ظهرت على محياها، فسألها في توجس:

مالك؟

ضمت شفيتها للحظاتٍ وهي تنظر إلى ما حولها، بدت إلى حدٍ ما متحفظة

عندما تحدثت أخيراً:

مش عارفة، بس مش جازر جور أختك يكون زعلان إنه باعها،
وخصوصًا إنها كانت بيتهم، وآ...

قاطعها موضحًا الأمر ببساطة:

-لا بالعكس، كان مرحب جدًا، لأنها مش ساكن فيها، ومركونة على
الفاضي، ده غير إن عنده شقة ثانية فوقنا.

تفاجأت من كلماته الأخيرة، ورددت:

-ماشاءالله، ربنا يزيد ويبارك.

لم يرغب "هيثم" في إثارة الماضي بآلامه وذكرياته، خاصة ما يتعلق بشقيقته
الراحلة، أراد التركيز على الحاضر، والتطلع إلى المستقبل بكل قوة وإرادة،
لهذا تجاوز عن تلك الأحزان، ليسألها مجددًا في ترقب:

-ها إيه رأيك في بيتك المتواضع؟

في البداية كانت ملاحظها هادئة، غير مقروءة له، جعلته يشعر بالخوف من
احتمالية رفضها؛ لكنها فاجأته حين تبدلت للابتسام والرضا وهي تجيبه:

-دي جنتنا يا حبيبي، أنا وإنه و...

وضعت يدها على بطنها المنتفخ تتحسسه في رفق وهي تكمل:

-والنونو اللي جاي.

وجد نفسه ينحني على بطنها، وكلتا يديه تدوران في حركة دائرية عليها،
طبع قبلة حانية عليها، ثم أسبل عينيه نحو زوجته قائلاً بكل ما يعتمر قلبه
من فرحة وسرور:

-ربنا يحفظكم ليا !!

.....

الفصل المائة وثلاثة وثلاثون

أخرج ورقة نقدية من حافظته أعطاها لعامل المقهى الذي أمده بكوب آخر من الشاي، بعد أن منح جميع العاملين بداخل دكان ابن خالته ما ينقصهم من مشروبات ساخنة. فرك "تميم" جبينه براحة يده لبضعة مرات، ثم نظر بشرود إلى المارة قبل أن يتطلع إلى ساعة هاتفه المحمول. ما زال ماکثاً بالخارج كعادته، لا يعود إلا عند اللزوم، أو في وقت النوم، تجنباً لأي محاولات للقاء بها ولو مصادفة، خاصة بعد أن عرف بتوليها مهمة تزيين المنزل من أجل مراسم عقد قران شقيقته به.

كان يقتله الشوق، ويعذبه البعد عنها؛ لكن لا محرب من الوفاء بعهوده، تحتم عليه إبقاء تلك المسافة إلى أن يشاء المولى، ويجمعها سقف واحد. التفت برأسه نحو الجانب حين سمع صوت "هيثم" يناديه من مسافة شبه قريبة:
- "تميم"!

أشار له بيده وهو يرد:
تعالى.

سحب مقعدًا وجلس إلى جواره متسائلًا بصوتٍ لاهث:
إليه الأخبار؟

أجابه مستخدمًا يده في التوضيح:

-أعملت توصيلات التلاجة، واتفقت علبة الكهرباء، يعني فاضل كام حاجة ونخلص.

ردد مبتسمًا في سعادة:

حطب كويس، كتر خيرك يا ابن خالتي، ليل نهار متابع مكاني.

لوى ثغره متحدًا بعد زفيرٍ بطيء:

-وأنا ورايا إلا كده.

حمحم "تميم" بعدها يسأله وهو يعقد ساعديه أمام صدره:

-وانت الدنيا تمام معاك؟

أوماً "هيثم" برأسه قائلاً:

-أيوه.

سأله بنظراتٍ مترقبة:

-وريت جماعتك الشقة؟

كانت تعابيره مسترخية على الأخير وهو يجيبه:

-أه، الحمد لله عدت على خير.

امتدت يده لترت على فخذة برتبة قوية معلقاً بابتسامة صغيرة:

-ربنا يباركلكم فيها، ويجعلها عتبة خير عليكم.

أمن عليه داعياً:

يا رب.

جاء عامل المقهى مرة أخرى ومعه كوب الشاي، وضعه أمام "هيثم" قائلاً

بنبرة أليفة:

-شاي في الخمسنة للمعلم.

رد يشكره في ود:

تسلم يا "رزق".

انتظر ذهابه ليبدأ بعدها في توجيه الحديث إلى "تميم" بلامح مالت للوجوم:

-صحيح، كان في حاجة عايز أقولها لك بخصوص الطاعون الأزلي قريب مراتي.

وكان تعايره قد حل عليها السواد، فبدأ أكثر نفورًا وهو يتساءل:

ماله البغل ده؟

ارتشف قدرًا من شايه، وأجابه بتأفف لا يخلو من الانزعاج:

-هو أنا مش متأكد، بس مراتي شاكة إنه يكون عامل لأختها عمل.

انتفضت كافة حواسه كأن عقربًا لدغه، وهتف بصوت أقرب للزئير من شدة غضبه:

-نعم! اتجن في عقله ده ولا إيه؟

لم يندهش "هيثم" من الثورة العارمة المستبدة بآبن خالته، فهو مثله يمثته
مقتًا شديدًا، وقد يتفق الاثنان معًا في ازدياد كراهيتهما له، أخرج هاتفه من
جيب بنطاله، وعبث به قائلاً:

-استنى أوريك المنشور، ما أنا بعته ليا.

كور "تميم" قبضة يده ضاغظًا على أصابعه بغيظٍ مكبوت حتى ابيضت
مفاصله، وما إن أمسك بالهاتف، ورأى ما احتل الشاشة حتى انقلبت منه
سبة نايية يلعنه بها:

-ابن ال ... !!!

ظن "هيثم" من فرط انفعال ابن خالته المرئي أنه سيحطم الهاتف في يده،
فاستعاده منه، وقال بتحفرٍ واضح عليه:

-والصراحة أنا مش عاوز أفوتهاله.

بكل ما يستعر في صدره من غضب، وحقد، وغل، هب "تميم" واقعًا
ليخبره بنظراتٍ مرعبة لا تبشر إلا بكل ما هو مخيف:

-ومين قالك إني هعديها.

انتبه ابن خالته في جلسته، يراقب ما يفعله وهو يخبر أحدهم، أنصت إليه
عندما استطرد أمرًا:

-عايزك يا "ناجي" تجهزي الرجالة في طلعة كده، تفضيهم لو مش فاضيين، سامعني.

بقيت أنظاره مسلطة عليه، و"تميم" يتابع مكالمته بنفس اللهجة الصارمة:

-استنى مني مكالمة ثانية هاقولك تعمل إيه.

لم يلقِ التحية، وأغلق الخط ليشرع في الاتصال بأحدٍ آخر، تساءل "هيثم" في فضولٍ متحمس:

-إنت ناوي على إيه؟

أكتفى بالإشارة له بسبابته قبل أن يتحدث هاتفياً بغموض:

-أيوه يا أستاذ، عايزك في خدمة على السريع، بس ضروري تتقضى النهاردة.

جاءه صوت المحامي مُطيعاً:

-تحت أمرك.

انخفضت نبرته إلى حد كبير وهو يكمل:

-شوف يا أستاذنا ...

في حين ردد "هيثم" مع نفسه بفضولٍ ما زال يتضاعف بداخله:

شكلك هتولعها يا "تميم"!

.....

حتى لا تتكبد مشقة الذهاب والعودة، أقامت "فيروزة" عند شقيقتها خلال
اليومين التاليين في غرفة الأطفال، ولم تمنع والدتها في المكوث أيضًا،
وجاءت مع "رقية" لتقديم المساعدة للعروس المرتقبة. أصبح الجميع كخليفة
نحل يتعاونون معًا من أجل تنظيف المكان، وإعداده للحفل العائلي الذي
أصرت عليه "هاجر" عند عقد قرانها، بينما تمسك "سراج" برأيه في إقامة
ليلة عرس كبيرة وقت زفافهما.

نهضت "آمنة" من على الأريكة بعد أن أنهت تطريز منديل عقد القران،
وعرضته على العروس متسائلة:

ها يا حبيبتي، أزود حاجة عن كده؟

تأملت ما صنعه يدها من إعادة تجميل المنديل القماشي السادة الذي
ابتاعته "فيروزة" بشكل رقيق وجذاب، ثم هتفت تشكرها في حبور ممتن:
الله، حلو أوي، تسلم إيدك يا طنط، دي حاجة حلوة أوي، أنا تعبتك
معايا.

علقت قائلة بلطافة:

على إيه يا حبيتي، دي حاجة بسيطة، أطلي وأنا أعملك الحلو كله.

نظرت إليها بعينين مشرقيتين وهي ترد:

-ربنا يخليكي.

طوت "آمنة" المنديل، وأكملت موضحة لها:

ناقص بس يكوى عشان الكرمشة، وتثبيت الفصوص، هاطلع أفرده فوق عند "همسة"، وبالمرة أنيم "كوكي"، عينيها نعوست.

مع كلماتها الأخيرة كانت تنظر نحو الصغيرة "رقية" التي واصلت التثاؤب مرة بعد مرة، قبل أن تميل برأسها على مسند الأريكة العريض لتستريح عليه. ركزت "هاجر" نظرها عليها، وقالت في تعاطف:

حبيتي، طول اليوم أعدة بـ "سلطان".

قالت "آمنة" ضاحكة، وهي تستحث الصغيرة على النهوض:

-دي فكراه لعبتها.

ردت عليها "هاجر" مبتسمة ابتسامة صغيرة:

-ربنا يبارك فيهم.

أومأت برأسها مرددة:

يا رب.

ثم استدارت نحو ابنتها المنهمكة في تثبيت قماش الستان الأبيض المطعم
بوردات بيضاء حول عمود الجرائيت الجانبي، وسألتها في اهتمام:

-إيه الأخبار عندك يا "فيروزة"؟

كانت الأخيرة منحنية عليه وهي تجاوبها:

-أنا قربت أخلص، فاضل الحتة دي، ويبقى كله تمام.

هتفت "آمنة" قائلة في سرور:

على بركة الله.

ثم أتبعته كلامها بإطلاق بضعة زغاريد عالية ابتهاجاً بالمناسبة السارة،
لتنوقف بعدها وهي تدعو:

-ربنا يتم على خير.

جاءت إليها "ونيسة" وهي تحمل كومة من الثياب المطوية بعد أن انتهت من
جمعها، لتتهف بضحكات قصيرة:

-أيوه بقي الزغاريط الحلوة.

تسابت معها في ملء المكان بعشرات الزغاريد؛ وكأنهما تريدان للعالم بأسره أن يشاركهما الفرحة العارمة. غادرت "آمنة" المنزل، وبقيت ابنتها عاكفة على أداء عملها بكل إتقان ودقة، بالإضافة إلى محبة خالصة؛ كأنما وجدت متعتها في إسعاد غيرها. انبهرت "ونيسة" بما تفعله، وأثنت عليها قائلة:

تعبلك كده نهار فرحتنا بيكي يا قمرية.

علقت عليها بتلقائية:

أنا خدت حظي خلاص.

عبست "ونيسة" معاتبة إياها برفق:

ماتقوليش كده، كل حاجة ليها وقتها، وبعدين اقرصي "هاجر" في ركبها عشان تحصلها في جمعتها.

علقت عليها "هاجر" بمكر، وتلك الابتسامة العابثة تتراقص على محياها:

من غير قرص يامه، ربنا هيعدلها مع حد يستاهلها بجد، وهتشوفي.

كانت الإيحاءات المبطنة، والتلميحات المتوارية تعزز ما راود عقلها مؤخرًا بشأنه تحديدًا، وإن جاهدت لإنكار شعورها المتزايد بداخلها؛ لكن هذا الإحساس العجيب الذي يغمرها ينبئها أنه المقصود، ولم تكن ممانعة، بل بدت مرحة به بصورة استغربت منها، كأن الحجاب الحاجز الذي فصلها

عن رؤية ما يضره القلب لها قد تفتت، وأصبحت مشاعرها قابلة للتأثير.
رسمت تعابير جامدة على وجهها، وقالت بلهجة أرادت أن تكون جادة:

حبيب نسينا من حكاية جوازي دلوقتي، ونركز في الديكور.

بنفس الابتسامة العابثة ردت عليها "هاجر":

ماشي يا حبيبتي.

انحنت "ونيسة" لجمع بعض البقايا غير الضرورية من على الأرض، ووضعتها
بداخل صندوق صغير للمهمات كانت تستعين به "فيروزة" طوال عملها،
حتى لا تسبب الفوضى في المكان، ثم اعتدلت واقفة لتقول بعدها:

-أنا هاروح أشوف جدك يا "هاجر"، ولو في حاجة نادي عليها.

رفعت رأسها إليها وقالت سريعاً:

حاضر.

ثم أخفضتها مجدداً لتواصل لصق الورود الصغيرة، أعلى الهدايا المغلفة بورق
السلوفان، حيث تُعدها لإعطائها للمدعوين بدلاً من الحلوى التقليدية.
استطردت "فيروزة" متسائلة فجأة:

-بأقولك يا "هاجر" أنا عاوزة إبرة وخيط، محتاجة أثقل على الطرف ده،
أخاف يفك.

دقت "هاجر" النظر في المفرش الذي تمسكه، وسألتها في توجس:

هو اللزق مش ماسك؟

حركت التطريز الموجود على الأطراف بخشونة طفيفة وهي تجربها:

-كويس، بس مضمنش يحصل إيه!

بحثت "هاجر" بعينها سريعاً عنها بين الأشياء الكثيرة الموضوعة قبالتها على الطاولة، ثم خاطبتها بعد لحظات:

هما مش قصادي، يبقى أنا سيياهم على التسريحة في أوضة "تميم".

ذكر اسمه عفويًا أمامها جعل قلبها يقصف كأن الحرب اندلعت به، لم تكن هكذا من قبل! شعرت باندفاع الدماء إلى وجهها، حتمًا ظهر التورد في بشرتها، لم ترغب "فيروزة" بإظهار ريكتها الغريبة، وادعت انشغالها بضبط طرف المفرش؛ لكنها في نفس الآن اختلست النظرات نحو "هاجر"، تنفست الصعداء لكونها لم تلحظ تلبكها، وسمعتها وهي تقول ناهضة من مكانها:

هاروح أجيبهم من الأوضة.

تقدمت بضعة خطوات نحو الردهة؛ لكن ما لبث أن توقفت فجأة عن السير، حينما سمعت صراخ رضيعها قادمًا من غرفتها، ليعلن عن استيقاظه بعد غفلة معقولة، غيرت في اتجاهها هاتفة في لوعة:

يا حبيبي.

راحت تهدده، ومع هذا لم يتوقف عن البكاء، فتساءلت في عبوس مصطنع:

إنت جعان يا قلبي؟

اتخذت مكانها على الفراش لتبدأ في إرضاعه، وصاحت بصوت شبه مرتفع: معلىش يا "فيروزه" هاتيم إنتي، الأوضة إنتي عارفها، أنا مشغولة مع "سلطان" شوية.

أناها صوتها من الخارج محتجًا:

بس أصل آ....

قاطعتها بنبرة حاسمة:

مافيهاش حاجة، البيت فاضي، متعلقيش، بس عشان معطلكيش عقبال ما يرضع، هو مش هيسكت خالص.

لم تجد "فيروزة" بداً من الرفض، وهتفت قائلة في استسلام:
طيب.

.....

على مشنّة من الخوص، فردت "سعاد" أرغفة العيش التي ابتاعتها عليها لتبرد، بعد أن أمضت ما يقرب من الساعة أمام الخبز تنتظر دورها لتحصل على حصتها منه، التفت برأسها نحو ابنها المنشغل بمشاهدة التلفاز وهو يستلقي واضعاً ركبته أمام صدره، تهتت بزفير متهم، وسألته بوجه متعب:

-مش هتبع قرشين لعيالك؟ قابلت جدتهم في الطابونة، وسألتني عن ده، الشهرية فاتت يجيلها مدة.

انتفض صارخاً بها بعصبية بعد أن أخفض ساقه:

-كمان، ده أنا أبقى مَرّة، وألبس طرحة على راسي لو عملت كده.

حملت فيه مدهوشة، وعاتبته في استهجان:

ليه بس يا "فضل"؟ ده حقهم!

أصر على رفضه هاتفاً بتشنج:

-ماليش فيه، وأخلى خيري لغيري ليه؟ يتفلقوا.
استنكرت قساوة قلبه، وعنفته دون أن ترتفع نبرتها:
-مش دول عيالك بردك؟ ده واجب عليك تصرف عليهم.
هدر فيها بخشونة غير مراع لمنزلتها:
-همزاجي مش لوي دراع.
خاطبته بنفس النبرة غير المحتدة:
-وفين اللوي بس؟
أخبرها بحمئة، وقد اشتا طت قسامته:
-لما الولية تكلمك ببجاجة كده وسط الناس عشان تكسفي، وتبقى عايزاني
أدفع بالغصب، وأنا مش هعمل كده، ومش دافع.
ردت متسائلة في استنكار أكبر:
-يعني عايز الناس تاكل وشنا؟
بسماجة غير مبالية قال، وبصوت غير منخفض:
-وياكلوا قفانا كمان ...

ثم استخدم يديه في الإشارة عندما تابع بسخط:
- ما هما معاهم أد كده، ولا لقمة العيال هتضلعهم.
نظرت إليه في غير رضا؛ لكنه لم يكثر، وتابع تهكمه الساخر:
- ولا أقولك خلي عريس الغفلة يدفع هو؟ طالما شال، يبقى ياخذ الشيلة
كلها، ده على قلبه أد كده مكنزهم رزم فوق رزم.
قبل أن تهم "سعاد" بالاعتراض عليه أخرسها بترقيق نبرته ليبدو كالمغلوب
على أمره:
- وبعدين يامه أنا محتاج كل قرش دلوقتي عشان أتجوز بيه، يعني لازمًا
أمسك إيدي في المصاريف حبتين.
نكست والدته رأسها، وقالت في ضيق:
- أنا مش عايزة حد يقول عنك بخيل يا ابني، الناس هنا لسانها وحش.
استفزه ذلك اللقب، فاهتاج مدافعًا عن نفسه:
- بخيل، فشرت عينهم، ما أنا بنزه نفسي أهوو ومش بستخسر فيها حاجة.

كان محققًا في اعترافه هذا، فدومًا يغدق على ملذاته، ومساراته بكل ما يوجد في جيبه؛ لكن مع غيره كان شحيحًا بدرجة واضحة. غير "فضل" مجرى الحديث، وانحنى نحو والدته يستميل رأسها بزيف الكلام المعسول:

سيدك منهم، وشوفي هتخطيلي "فيروزة" امتي يا حجوجة، ده إنتي الخير والبركة!

ردت في اقتضابٍ لم يشعره بالارتياح:

-ربنا يسهل.

.....

نشوة عجيبة متحمسة أصابت بدنًا كليًا حين وطأت غرفته، شعرت برائحته المميزة عالقة في جوها، كأنما تؤكد لها بشكلٍ غير مباشر أنها مملوكة له، ولدهشتها أحبت هذا الشعور، كانت مترددة بعض الشيء، تخشى- التقدم داخلها، وقفت لهنية مستندة بيدها على إطار الباب، متحرجة من الإمساك بها وهي تتجول بأرجائها، وإن حازت -رغم هذا- على التصريح بدخولها، والتفتيش مجازًا في محتوياتها. تنفست بعمقٍ وملأت رثتها بتلك الرائحة الندية، ثم أغمضت عينيها ليكتمل هذا الشعور الغريب - والمستحب- الذي استحوذ عليها.

خلال اليومين الماضيين كانت تتوق لرؤيته ولو مصادفة؛ لكنه كان كالجائب الحاضر، تتكرر سيرته أمامها، ومع هذا لا يظهر في محيطها، كم رغبت في التطلع إليه وهو يرمقها بتلك النظرات التي تحتويها وتدفعها لاختبار هذا النوع الجديد من الشعور، ذاك الذي أصبح يروقها. تلك المرة تأملت "فيروزه" محتويات غرفته على مهلٍ، كأنما تريد حفظ تفاصيلها، لم يكن إحساس الرهبة مسيطراً عليها، وإنما كتلة من الأحاسيس الغريبة التي تدعوها لتذكر ما يخصه جبراً، وأيضاً لم تكن ممانعة! استلذت هذه الرغبة النابعة منها.

وقعت عينها على الكومود، وتحديداً الدرج الذي اكتشفت فيه احتفاظه بممتلكاته، وارتب الباب إلا من فرجة صغيرة بعد أن ألقت نظرة سريعة نحو الخارج، وجدت ساقها تتحركان من تلقاء نفسيهما نحو الكومود، امتدت يدها لتفتحه؛ لكنها تجمدت للحظات، ترددت في فعل هذا، وكأن ضميرها يعاتبها لاقتحام خصوصيته دون إذنٍ منه، غالب ترددها الفضول المستبد بها، لذا تشجعت وسحبت الدرج للخارج، فبرقت عينها في صدمة جعلت حواسها تنتفض فرحة، ما زالت مشابكها موجودة، ومنديل رأسها كذلك .

أحست ببهجة سارة للنفس تتفشى- في أوصالها، وبخفقات طربة تصيب قلبها، ويا لهذا التماوج في المشاعر الرقراقة الجميلة التي بدأت تغلف كيانها! أعادت "فيروزه" غلق الدرج وهي غير مدركة أنها تبتسم ابتسامة أضاءت وجهها، وأضفت البهاء على نظراتها اللامعة. قررت ألا تزيد من فترة بقائها،

يكفيها ما ظفرت به من شعور مريح وممتع، اتجهت نحو مرآة التسيريحة لتفتش عن صندوق الخياطة الصغير. وجدته إلى جانب إطار صورة صغيرة تخصه، تلقائيًا أمسكت به، ورفعته نصب عينيها لتأمل ملامحه المبتسمة بتدقيق، مسحت بإبهامها على وجهه، وتساءلت مع نفسها بحيرة:

فيك إيه بيشدني ليك؟

سرعان ما انفلت الإطار من يدها بغتة وسقط على الأرض حين انفتح باب الغرفة على مصراعيه لتجده واقفًا عند عتبة مرددًا في صدمة تفوقها:

إنتي !!

.....

الفصل المائة أربعة وثلاثون

أشرق يومه الكئيب، وازداد وجهه سطوعًا وتوهجًا حينما وجدها -على حين غرة- في غرفته، يا لحظ الأرض التي تقف عليها بقدميها! نالت شرف استقبالها، أما جدران حجرته فظفرت باحتواء بهائها بينها، على عكسه هو التعيس البائس الذي لم ينل إلا لمحة خاطفة منها. تأمل "تميم" ما كانت عليه من ارتباكٍ محرج بنظراته المدهوشة الفرحة، سرعان ما تقلصت عضلات وجهه للتوتر عندما بادرت معذرة:

-أنا .. أسفة، أنا كنت آ...

دون أن يعبأ للحظة بسبب ذلك قاطعها مشددًا:

-بتعتذري على إيه؟ ده مكانك ..

سرعان ما تحولت نبرته للخفوت وهي يتابع:

ده أنا اللي أسف الي دخلت بالشكل ده.

رأها تنحني لتمسك بإطار صورته، فهتف يأمرها في لهفة رافعاً يده أمام وجهها:

-لالا ماتوطيش.

اندهشت من حمته الغريبة، ورمقته بتلك النظرة غير المفهومة؛ لكن ما دار في خله كان واضحاً، لم يرغب لطاووسه المعتد بنفسه أن يركع أو ينحني لأي شيء، خاصة أمامه، أرادها شائخة، مرفوعة الرأس، لا تنحني رأسها إلا لبارئها. تلقائياً التقطت "فيروزة" الإطار، ووضعت في مكانه وهي تقول بوجه ما زال مرتبكاً:

-البرواز سليم، ماتكسرش.

ظل متجمداً في مكانه، لم يتحرك قيد أنملة، وكأن مجالاً مغناطيسياً يمنعه من التقدم، والسبب كان معلوماً إلا لها! تحببت "فيروزة" حين وجدت صندوق الخياطة الصغير، واصطدمت يدها ببعض متعلقاته من توترها، فتبعثرت هنا وهناك، ومع هذا طلب منها بلطف مهذب:

سيبي كل حاجة في مكانها، ماتسويهاش.

أحست بالمزيد من الحرج لتصرفها الأخرق، ما الذي أصابها لتبدو بلهاء
هكذا؟ أولته ظهرها محاولة إعادة ترتيب أشيائه بشكلٍ متعجل وهي تكرر
في خجلٍ:

مقصدهش والله، أنا كنت عايزة علبة الخيطان وآ...

قاطعها مؤكّداً من جديد في هدوءٍ:

خدي اللي يعجبك، ده مكانك ...

ثم ابتعد خارجاً من الغرفة لينادي:

يا "هاجر" ..

لم يسمع ردها، فكرر النداء:

يا "هاجر"، إتي فين؟

جاءه صوتها من خلف باب غرفتها يخبره:

ثواني يا "تميم"، برضع "سلطان".

ألصق كتفه بالباب الموصود، وسألها في صوتٍ جعله شبه خفيض:

حطب أمك فين؟

سمع صوتها يجيبه سريعًا:

مع جدي .. أنا خلاص خلصت، وجاية.

انتظر "تميم" في مكانه مرتكنا على الحائط، ودقات قلبه تنتفض بشدة، كان في تلك اللحظة بين نارين، نار الحب المتأججة، ونار التزامه بوعده، فرجح كفة الأخير إيفاء بما تعهد به، وإن كان فيه عذابه.

.....

بخفة وسرعة أعادت تنسيق ما أفسدته على التسريحة، ويدها ترتعشان في توتر، سحبت "فيروزة" أنفاسًا سريعة محاولة استعادة انضباطها، وهي في حيرة من أمرها، كيف لها أن تصبح على تلك الساذجة والبلاهة في وجوده، رغم أنها كانت تناطحه الند بالند في أشد المواقف تأزمًا وصعوبة، هناك شيء ما به يجعلها كمن أصيب بلعنته، خفق قلبها من هذا التفكير السريع، وحاولت نفضه عن عقلها لتركز فيما تفعله، ما إن انتهت حتى أمسكت بصندوق الخياطة بيدها، واستدارت لتواجهه؛ لكنها تفاجأت بعدم وجوده، انعقد حاجباها بشدة، وتساءلت في انزعاج احتل كامل ملامحها:

هو فينه؟

تقدمت بخطوات سريعة نحو باب الغرفة، ولم تشعر بنفسها تتساءل عاليًا:

ماله؟ مش طايقني ولا إيه؟

شهقة مباغتة انفلتت من بين شفثيها، وقد وجدته يظهر قبالتها عند الباب، ارتدت عفويًا للخلف لتظل بداخل غرفته، حاولت الحفاظ على ثباتها، وإبقاء ملامحها هادئة، بالطبع رأى تلبكها الأهوج، وربما احمرار بشرتها؛ لكن قبل أن تنطق بعصبية، صُدمت به يقول مبررًا:

أنا والله ما عايزك تفهمي حاجة غلط.

حملت فيه بنظراتٍ متحفزة، فتابع بابتسامةٍ لطيفة، وتلك النظرة الدافئة المطلة من عينيه تشملها:

إن كان عليا ما خلكيش تطلعي من هنا ..

أحست بجفافٍ يصيب حلقها، واستمرت في التحديق به بنظراتها التي تأرجحت بين الدهول والارتياح، لن تنكر أنها تمت في قرارة نفسها أن تحظى بهذه النظرة المميزة التي تشعرها بأنها خاصة بها وحدها، لا يمنحها لأحدٍ غيرها، خبت عصبيتها، وارتخت قسماتها، خاصة حين بدا صوته هادئًا عذبًا، مخدرًا لحواسها وهو يغمغم قائلاً بغموض ضاعف من توترها اللذيذ:

بس لسه الوقت مازفش.

تطلعت إليه مليًا بغرابة، تحاول سبر أغوار عقله، لكن تلك النظرة التي رمقها بها نفذت إلى داخلها؛ كأنما نجحت في اختراق حصونها، وجعلتها تشعر

بشيء عميق، أنها غير منبوذة، ومرغوبة بشدة كأنتى. قطع تواصلها البصري
مجيء "هاجر" التي وزعت نظراتها بين الاثنين وخاطبتها بابتسامتها العبيثة:

-أنا خلصت يا "تميم"، في إيه يا "فيروزة"؟ ملاقتيش العلبة يا حبيبتى؟

أجابتها "فيروزة" أولاً وهي ترفع يدها للأعلى:

معايا أهى.

بينما ردد "تميم" وهو يتنحى جانباً:

-أنا أصلي دخلت فجأة الأوضة ولبختها.

رفعت "هاجر" حاجبها متسائلة في مكر:

حطب أحضرك تاكل؟

تحولت تعابيره للجدية وهو يرد:

تسلم إيدك، بعدين، أنا نازل تاني ..

تدلى فك "فيروزة" السفلي في استغرابٍ لذهابه المفاجئ، وحاولت عدم
النظر في اتجاهه؛ لكنه أجبر عينها على التطلع إليه وهو يكمل إملاء أوامره
على شقيقته ليشعرها بأهميتها الكبيرة:

بس شوفي الأبله عايزة إيه وساعديها، أوعي تقصري معاها.

أمسك بها وهي تنظر إليه، وبدت ملامحه غير مقروءة؛ لكنه ودعها بنفس
النبرة الهادئة:

-نورتينا يا أبله .. السلام عليكم.

انتظرت اللحظة حتى ابتعد مع شقيقته للخارج، لتتبعها وهي في قمة حرجها،
دارت برأسها المزيد من الهواجس عندما عادت إليها "هاجر" مرددة:
معرفش والله إيه اللي حصله.

ضاقت عينا "فيروزه" بشك، فتابعت "هاجر" تفسير كلامها الغامض:
-ده بقى مايقعدش في البيت ساعتين على بعض.

توهمت أنها السبب في عزوفه عن المكوث به بسبب تواجدها الزائد
مؤخرًا، خاصة مع تعاظم هذا الشعور المُلح بداخلها بمطاردة ما كان يمنحه
لها سابقًا في غفلة منها، ورغبتها في التمتع بذلك الإحساس بدرجة ربما كانت
منفرة له، وغير مريحة. نكست رأسها في خزي، واعترفت لها بغصة تؤلم
حلقها:

-يمكن مضايق من وجودي وآ...

قبل أن تلعب برأسها الظنون الخادعة ضحكت "هاجر" مقاطعة إياها:

"-تميم!" يضايق منك؟ استحالة!

نظرت إليها مدهوشة، وبقلب يدق في توتر غريب، بينما واصلت شقيقته
البوح مع ضحكاتها القصيرة المرحية:

-إنتي متعرفيهوش كويس، "تميم" غير أي حد، بكرة لما آ...

بترت باقي جملتها عند سماعها نداء والدتها الجاد:

يا "هاجر"!

التفت برأسها للجانب لترد:

-أيوه يامه.

أجابتها وهي تغلق باب غرفة الجد بعد أن خرجت منها:

-اتصلي بأبوكي شوفيه هيرجع أمتي، عشان أسخنه الأكل.

هزت رأسها في طاعة وهي ترد:

ماشى.

انسحبت "هاجر" باحثة عن هاتفها المحمول، في حين وقفت "ونيسة" إلى
جوارها تسألها:

-ناقصك إيه بنتي وأساعدك فيه؟

بعد ذلك الكم من الحرج والاعترافات الغامضة المثيرة للفضول، والتفكير، لم تعد "فيروزة" قادرة على التركيز، كان الحل الأسلم حاليًا الاختلاء بنفسها، ولملمة شتات فكرها المبعثر، لهذا جمعت متعلقاتها، وطوت المفروش قائلة:

-لأ، أنا كده تمام، دي حاجة بسيطة هنجزها على طول فوق مع ماما.

اعترضت عليها في ود:

حطب أخلصها أنا، ده إنتي طول اليوم طالع عينك معانا.

ردت في إصرارٍ مصحوب بابتسامةٍ منمقة:

-ده شغلي، وأنا مبسوفة بيه.

ربت "ونيسة" على كتفها تشكرها في امتنانٍ كبير:

-تعبلك كده يا رب نهار فرحتنا بيكي إنتي وابني "تميم".

جملتها كانت عفوية للغاية، غير متبوعة بأي نوايا أو استباقٍ لما يمكن حدوثه، ومع هذا برقت عيناها مصدومة، واكتست بشرتها بحمرة غريبة جعلتها تشعر وكأنها في أوج حرجها، وهي التي لم تختبر مثل تلك المشاعر المركبة طوال سنوات عمرها. تصنعت الابتسام، وقالت في تلثمٍ طفيف:

عن إذنك يا طنط.

سارت معها "ونيسة" تصحبها لباب المنزل وهي تدعو لها بصدق:

-ربنا يبارك فيكي ويصلح حالك، ويفرحنا بيكي قريب.

لوهلة شعرت "فيروزه" كما لو كانت ساقاها تستثقلان الابتعاد عن هذا المكان المتختم بكافة المشاعر الأسرية الدافئة، بل الأحرى أنها خشيت الابتعاد عنه تحديداً، استحضر ذهنها صورته، وصدمها تفكيرها الجري فيه هكذا أمام والدته، خفقة أخرى عصفت بقلبيها، وجعلتها راغبة في الاختباء من نظراتها العادية التي يمكن أن تفضح أمرها، تحاشت النظر إليها، وهتفت مودعة إياها بابتسامة شبه مضطربة:

تصبحوا على خير !!

.....

الفصل المائة وخمسة وثلاثون

ألا تدري ما صنع الهوى بقلوب العاشقين؟ جعل في انتظارهم نعيماً يستحق التقدير. حين عاد "تميم" متأخراً من تسكعه غير المحدد اتجاهه، رفع رأسه لينظر عاليًا، عندها خفق قلبه بشدة، فقد رآها تقف في الشرفة التي تعلو شرفته، تُريح مرفقيها على حافة السور، وتتطلع إلى الفضاء بنظراتٍ على ما يبدو شاردة، يا لحظه السعيد ما زالت حبيبته مستيقظة، ربما لا تنتظره عن قصد؛ لكنه حظى مجددًا بنظرة إليها، ومع ذلك ضميره ما زال يؤنبه لعدم التزامه الكامل بوعده لأبيه، دومًا يخالف أوامره، ويختلس النظرات إليها، بل ويُطيلها أحيانًا حينما تسمح له الفرصة بهذا.

في تلك الأثناء، انخفضت رأس "فيروزة" نحو الأسفل لتتفاجأ بوجوده، والأكثر إحراجًا ودهشة لها تحديقه بها، تراجعت تلقائيًا للخلف لتختفي من أمام نظراته، وتلك الدقات السريعة تقصف في قلبها، كيف لنظرة واحدة أن تفعل بها هذا؟ ازدردت ريقها، وحفزت نفسها بصوتٍ لم يفارق جوفها:

مالك في إيه؟ إجمدي كده، مافيش حاجة أصلاً.

سحبت نفسًا عميقًا، وطردته من رثتها على مهلٍ لتستعيد هدوئها، ثم تقدمت نحو حافة الشرفة لتنظر ببطءٍ إلى كل الزوايا ما عدا المكان القابع

فيه، بطرف عينها حاولت رؤيته؛ لكن لسوء حظها لم يعد متواجداً، سلطت كل أنظارها على المدخل، وشبت على قدميها تفتش عنه في العتمة السائدة بالأسفل، ورغم ذلك لم تجد له أثراً، حلت التعاسة على محياها، ورددت في استياءٍ منزعج:

يا خسارة!

نفخت في ضيقي، وتساءلت بنفس الوجه العابس:

حُب إيه اللي خلاه يمشي؟

ما لبث أن لكزت جيئها بباطن كفها وهي تردد:

-إنتي غبية ولا إيه؟ ما هو لازم يطلع بيته، هيفضل واقف في الشارع كده.

استندت من جديد على الحافة، وتذمر مقروء على تعبيراتها، خفقة أخرى نالت من قلبها عندما سمعت صوته يأتي من الأسفل مردداً بصوتٍ شبه مرتفع:

تسلمي يامه، هتعبك شوية معايا.

أبعدت رأسها للخلف، ورفعت يدها لتضعها على صدرها، تتحسس ذلك الخافق بقوة، حين سمعته يتكلم مجدداً بصوتٍ بدا قريباً للغاية منها:

-كثير على الواحد إنه يبقى جار القمر.

لا تعرف إن كان يقصدها بهذا الغزل الصريح، أم أنه يُحدث إحداهن عبر الهاتف؛ لكن كيف يتحدث فيه وقد جاء لتوه؟ حتماً هي مخطئة، استبعدت على الفور ذلك الهاجس الضعيف، بل ولامت نفسها على التفكير فيه بهذا الشكل السافر؛ وكأنه استحوذ على عقلها، قبضت على الحافة بيديها، وأرهفت السمع مرة أخرى، وهذا الشعور الجميل بالنشوة يتسلل تحت جلدها، التقطت أذناها دعائه:

يا رب هون .. واجعل البعيد قريب.

شعرت بشفتيها تتقوسان لتعلن عن ابتسامة رقيقة فرحة، لم تنكر أن مثل تلك العبارات الموحية ترضيها كأنثى، تُشعرها بما افتقدت الإحساس به، بالكاد منعت شهقة عالية من الإفلات من ثغرها وقد سمعت "تميم" يردد بصوتٍ خافت لكنه ودود للغاية:

تصبح على خير يا اللي في بالي لو كنت سامعني.

كالخرقاء فرت من البلكون لتعود إلى الداخل وهي تشعر بمدى غيابها لاكتشاف أمر وجودها، ارتمت على الفراش، ووضعت الوسادة فوق رأسها لتختبئ خلفها وهي تغغم بهمسٍ مغتاض:

مبسوطة دلوقتي؟ هيقول عني إيه؟!

ضربت وجهها لبضعة مراتٍ بالوسادة، إلى أن توقفت عن تلك الحركة
الموبخة لنفسها بعد سماع والدتها تسألها في تعجبٍ:

-إنتي بتعملي إيه يا "فيروزه"؟

اعتدلت في رقدتها على الفراش، وردت في تلعثٍ وهي تتطلع نحوها:
-ولا حاجة .. ده أنا بفكر مع نفسي.

تقدمت نحو الفراش الآخر، واستلقت عليها معلقة في استغرابٍ:
-كده إنتي بتفكري؟ ربنا يهديكي.

لم تجد ما تنطق به لتبرر تصرفها الأحمق، ولاذت بالصمت، في حين أكملت
والدتها قائمةً بتثاؤبٍ مسموعٍ لها:

-اطفي النور عشان ننام، لسه ورانا مشاغل كثير الصبح.

امتدت يدها لتغلق المصباح الصغير المجاور لفراشها وهي ترد:
حاضر.

أراحت ظهرها على الفراش، ووسدت ذراعها خلف رأسها، لتحملق بعينين
يقظتين في سقف الغرفة وسط العتمة السائدة في أركانها، شيء واحد كان
مسيطرًا على عقلها، تفكيرها العميق فيه.

.....

على مسافة غير بعيدة من مركز الشرطة التابع لتلك البلدة، ضغط "شيكاجو" على مكابح عربة الربيع نقل لوقوفها، ترجل من السيارة عقب نزول رفيقه "حمص"، ثم ألقى بسيجارتته التي فرغ منها أسفل قدمه، دعسها وهو يتقدم للأمام باحثًا عن قالبٍ من الحجارة وسط هذا الركام، ثم دار حول مقدمة السيارة، وركز أنظاره على صديقه متسائلًا:

جاهز؟

فرك "حمص" رأسه مرددًا:

-أيوه...

وقبل أن يرفع الحجارة للأعلى ليصوبها نحوه حذره بنظرة غير مازحة:
-خلي إيدك خفيفة.

التوى ثغر "شيكاجو" بابتسامة عبثية، وأخبره باستمتاع:

-أومال هظبط الشغل إزاي؟ عشان تخش عليهم بدل ما تتكشف.

الخطوة الموضوعية كانت بسيطة للغاية، اعتمدت على افتعال مشاجرة غير حقيقية بين اثنين من رجاله، بعد أن تأكد محامي "تميم" من المعلومات التي أعطاها له ليتحرى عن مدى صدقها، أخبره لاحقًا عن بقاء هذا المشعوذ

المقبوض عليه في مركز الشرطة محبوسًا على ذمة التحقيقات، وبالتالي تبقى فقط تنفيذ الخطة، فعلى إثر نشوب هذا الشجار سيتوجهان لداخل المركز، ثم يحتدم الجدل بينهما من مجرد تراشق بالألفاظ لتطاول غير مقبول، ليتم الزج بهما داخل الحجز، وهناك تستكمل باقي الخطة لاستخراج المعلومات المطلوب معرفتها من هذا الحقير، قبل أن يرتضيا بالتصالح ويخرجا بسلام.

زفر "حمص" الهواء عاليًا، وصاح مشيرًا بيده في تحفز:

- اتكل على الله.

ضربه "شيكاجو" بقساوة في جانب رأسه لتتفجر خيوط الدماء بغزارة من جرحه، صرخ الأخير متأوهاً من الألم وهو يعنفه:

- إيه ده يا جدع، مرزبة؟

رد منتشياً:

- أصول الشغل.

فما كان من "حمص" إلا أن سدّد لكمة مباغطة وعنيفة إلى وجهه، لتصيب أسفل عينه وتلهب حدقته، نعتة الأول في غيظٍ، وكان على وشك ضربه مجدداً؛ لكنه تمالك نفسه واكتفى بشتمه. تخضبت يد الأخير بالدماء، وهتف يخبر رفيقه:

-بيننا بدل ما دمي يتصفى من غير ما نعمل حاجة.

هرول الاثنان ينعتان بعضهما البعض بألفاظ نائية، لحبك تمثيليتها الهزلية على المتواجدين. كان "حمص" الأسبق في الولوج، وصوت صياحه المستغيث يجلجل:

-إلحقنا يا شاويش، فتح نافوخي يا حكومة.

رد عليه "شيكاجو" وهو يخفي عينه المصابة:

-هو اللي بدأ، ضربني بالعتلة، وكسر- فانوس العربية، وأنا مش هاسيب حقي، هاطلع آ....

قاطع "حمص" متوعدًا في غلٍ متزايد ليبدو أكثر إقناعًا:

-شايفين يا حكومة؟ طب مش سايبك النهاردة يا (...)!

على الفور ناطحه "شيكاجو" الرأس بالرأس، وكال له من السباب والوعيد:

-أما إنت ابن (...) صحيح، والله لأقطعك.

ثم تشابك الاثنان بالإيدي وسط محاولة فاشلة للفض بينهما من العساكر المتواجدين، على إثر صوتهما المرتفع، خرج الضابط المسئول عن تلك الوردية من مكتبه ليتفقد الأمر، وهو يصيح بصرامة حاسمة:

-بس إنت وهو، هي سويقة؟

استمر "حمص" في التردد بوعيد:

-مش سايبك النهاردة.

بينما علق عليه "شيكاجو" متحديًا:

طب وريني هتعمل إيه يا (...)!

زجرهما الضابط بغلظة شديدة:

هو أنا مش عاجبكم؟ هتمسكوا في خناق بعض قصادي، خدوهم على
الحجز لحد ما أشوف حكايتهم إيه.

استجاب أفراد الأمن لأمره الصريح، واقتادوا طرفي النزاع إلى الردهة
الطويلة التي تفضي في نهايتها إلى غرفة (الحجز)، ابتسامة مأكرة لاحت على
ثغر "شيكاجو" لنجاح الخدعة، وتحرك كالذليل وهو ينظر بطرف عينه إلى
شريكه الذي أوما برأسه في خفة ليحييه على انتصارهما الخفي.

.....

استخدم ما اعتبرها قواه الخارقة لإرهاب من معه في الحبس، ليحصل على
الحماية من مضايقات الغير أولاً، وكذلك ليضمن عدم إزعاج أحدهم له، أو

محاولة تحقيره، كما كانت البقعة الأفضل في حجرة الاحتجاز من نصيبه، بل وقام اثنان من الخارجين عن القانون بالعمل على خدمته بحجة التبرك به.

فُتح الباب على مصراعيه، ودفع المستجدان إلى الداخل مع بعض الترحيب الحار من التوبيخ اللاذع، والضربات القاسية قبل أن يغلق الباب المعدني وصوت الفرد الأمني يحذر بتهديد مباشر:

-أي شغب ولا قلق هيحصل جوا مش هيطلع عليكم نهار.

تجاهل الاثنان تحذيره، وبحثا بنظراتهما المدققة عن هدفهما، وجداه بسهولة، فتبادل نظرات ذات مغزى، انخفضت يد "شيكاجو" عن عينه ليسير نحو هذا الكذوب مُدعي القدرة السحرية، واستطرد يخاطبه دون تمهيد:

-هو سؤال تدينا جوابه دوغري يا عم ال.. شيخ.

حملت نبرته وهو ينطق بهذا اللقب تهكمًا صريحًا، فارتفعت أنظار الأخير نحوه يسأله بوجوم شديد:

-إنت مين؟

استمر في تقدمه نحوه، وقد أخرج من فمه شفرة حادة لينطق بعدها بلامح غير مبشرة بأي خيرٍ على الإطلاق:

-أنا واحد جاي بأوامر يا ياخذ روحك، يا سيبك تعيش.

انكمش المشعوذ على نفسه، وسأله بنبرة مذبذبة، وحدقاته تتحركان في توتر خائف:

-إنت مفكر نفسك مين؟

ثم خاطب من معه بذعر؛ يريد الاستغاثة بدعمهم له:

يا رجاله حوشه، وامنعوه يقرب مني وإلا الأسياد آ...

تلك المرة قاطعه "حمص" وهو يخرج من نعل حذائه مدية صغيرة، مخبأة بعناية بداخله :

-أسيادك دول احنا واكلين شاربين معاهم...

أشهرها أمام وجهه، وتابع كلامه باستحقار:

مش هيخيل علينا شغل الأونطة، فبلاش تخلينا نقل منك.

هم أحدهم بالتحرك لإيقافه؛ لكن كانت يد "شيكاجو" الأسرع في إبعاده مع جرح مؤلم، مما أربب البقية، حينئذ خاطبه مجدداً بتهديد مرعب:

-إنت متعرفناش، احنا بلطجية على قديمه.

هتف "حمص" مضيئاً عليه بلهجة مندرة:

-كله يركن على جنب، بدل ما تبقى العركة مع الكل، وفي الآخر
هنلبسها لكم.

لم يجد المشعوذ بدءًا من إظهار العداء لهما، من أجل شيء لا يعلمه بعد،
خاصة أن هذه المعركة لن تنفعه أكثر من إلحاق الضرر به، وتقليل هيئته،
لذا أثر التراجع، وقال في استسلام:

قولوا عايزين إيه وخلصوني.

نظرة ذات دلالة معينة تبادلها الاثنان معًا، قبل أن يستأنف "شيكاجو"
الكلام بسؤال كان مباشرًا ومحددًا:

-راس العجل "فضل" طلب منك عمله عمل لقريبتيه
!!!؟

.....

الفصل المائة وستة وثلاثون

لم تكن هذه معركة ليتخذ صف أحدهم على حساب الآخر، لم يعبا إن ربح فيها جولة أو حتى خسرها، بدا غير مكترث بكل هذه الترهات، لا يعنيه في هذا التهديد الصريح سوى النجاة ببدنه، خاصة أن من يريدون الاستعلام عن هويته كان مقيتًا، سمجًا، وبخيلاً، لا يملك شيئًا من الصفات المحمودة. بلغ المشعوذ ريقًا غير موجود في جوفه، وتطلع إليهما في نظرات متوترة، كرر عليه "شيكاجو" السؤال بلهجة أكثر قتامة:

ما ترد يا عمنا، هو آ...

لم يمهله الفرصة لإتمام جملته، قاطعه مؤكدًا بإيماءات متتالية من رأسه:

-أيوه هو "فضل" اللي جه عندي ...

سدد له "شيكاجو" نظرة مميتة، بينما استجمع جأشه ليواصل كلامه معترفًا:

-وملحقتش أعمل حاجة، الحكومة عملت كبسة على المكان، واتمسكت.

علق عليه "حمص" في استحسان:

-كده إنت كسبت محبتنا يا عم ال.. شيخ، أصل بعيد عنك عداوتنا

ماينفعش معاها لا عفاريت ولا أسياد.

لوح المشعوذ بيده هاتفًا في توتر قلق:

-ابعدوا عني بخيركم وشركم.

لكز "شيكاجو" رفيقه في جانب ذراعه مخاطبًا إياه:

-مهمتنا قُضيت، نستنا المحامي بقي.

هز رأسه قائلاً في هدوء:

-زي الفل.

قهقهه "شيكاجو" ضاحكًا، ثم توقف ليقول بنبرة هازئة وهو يدس الشفرة في جوفه:

على وضعك يا عمنا.

حدجه المشعوذ بنظرة نارية مغتظة؛ لكنه أثر عدم الجدل مع أمثاله من عتاة الإجرام، وانزوى جالسًا في ركنه يعلن بصوتٍ خفيض:

-الله يحرقك يا "فضل"، قارفني برا وجوا!

اتخذ "حمص" موضعه على إحدى المصاطب الخشبية، وجلس إلى جواره "شيكاجو"، همس الأول في أذن الأخير يسأله في فضول:

ما إيه رأيك نوجب مع المعلم "تميم"؟ وتبقى جميلة معاه؟!!

ضاقت نظرات "شيكاجو" متسائلًا في اهتمام:

إزاي؟

وقبل أن يجيبه حذره بوجه غائم:

-بس أوعى توقعنا معاه، المرة اللي فاتت اتنفخنا.

برزت تلك اللعة الخبيثة في حدقتيه وهو يؤكد له:

-اطمن .. المرادي غير.

.....

بعصبية لم يستطع كبجها، ذرع "تميم" الغرفة جيئًا وذهابًا أمام أنظار جده المراقب له من على مقعده الجالس عليه وهو يخبره تفاصيل ما أطلعه عليه "هيثم"، وما قام به بعد ذلك للتأكد من صحة تلك المعلومات. إلى الآن لم يصله الخبر اليقين، وأصبحت أعصابه على شفير الانفجار، بالكاد توقف "تميم" عن الدوران حول نفسه ليخاطب جده بأنفاسه المنفعلة وهو يضع يديه أعلى رأسه ليضغط على جانبيها:

مش عارف أعمل إيه يا جدي، هتجنن من ساعتها.

بملاحة الهادئة، ونبرته الرزينة أخبره "سلطان" عن يقين تام، وهو ينظر إليه:

-ولا تعمل أي حاجة، يا ابني لازم تبقى عارف ومتأكد إن مافيش حاجة
هتحصل سواء خير ولا حتى شر إلا بأمر ربنا.

هتف في حنق متعظم بداخله:

بس ده سحر، وأعمال وآ...

قاطع الجد كأنما يسأله بوجه مال للتجهم:

-إنت هتصدق أمور الضلال والشرك بالله دي؟

جاءه رده واضحًا وقد جلس على طرف الفراش ليغدو في مواجهته:

-ما هو السحر مذكور في القرآن الكريم.

هز رأسه معقبًا بترث:

-أيوه مضبوط، فين بقى بالضبط؟

تخير "تميم" للحظة في منحه الجواب؛ لكن "سلطان" كان الأسبق في
إجابته:

-في كذا موضع، منهم اللي كان أيام سيدنا "سليمان" عليه السلام، وأيام
سيدنا "موسى".

أطلق "تميم" زفرة محملة بكل ما يضيق به صدره، فسأله الجد بنفس الصوت الهادئ:

-هل احنا دلوقتي في زمنهم؟

رد نافيا، وقسماته ما تزال مشدودة:

-لا، بس في ناس بتلجأ لده عشان تأذي غيرهم، حتى لو كان فيه معصية لله.

انتظر الجد لهنيئة قبل أن يخبره بتعايير مرتخية وهو يشير بسبابته:

-يبقى لازم تكون متأكد من حاجة واحدة.

سأله على الفور :

-ليه هي؟

أتاه رده ببرهان غير قابل للتشكيك:

لن ربنا سبحانه وتعالى قال وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

تطلع إليه "تميم" في صمت، والجد ما زال يؤكد عليه:

-يعني لو الدنيا بحالها كلها اتجمعت عشان تضرك مش هيحصل إلا بمشيئة الله، ونفس الحال لو اتجمعت عشان تنفك برضوه مش هيحصل ده إلا بإرادة ربنا.

عقب كلماته المطمئنة تلك ارتخت تعايره بشكل ملحوظ؛ وإن لم يهدأ القلب بعد، شدد عليه "سلطان" من جديد:

فسلم أمرك لله، واستعين بيه، وهو الحافظ المنجي.

تهده علياً قبل أن يردد:

-ونعم بالله.

طرفة خفيفة على الباب جعلتها يديران رأسيهما نحوه، ليتطلعا إلى "بدير" الذي ولج للداخل، واره خلفه، وألقى التحية على أبيه:

-سلام عليكم، إزيك يا بابا؟

هز "سلطان" رأسه متمماً:

-الحمد لله في نعمة.

وجه "بدير" بعد ذلك كلامه إلى ابنه قائلاً بغموض:

-كويس إني لاقيتك هنا.

تعقدت ملامحه متسائلاً في تحفزٍ وقد نهض من مكانه احتراماً له:

خير يا با، عاوزني في إيه؟

جلس والده على طرف الفراش، واتكأ براحته على رأس عكازه قبل أن يستطرد موضحاً بما يشبه الأمر:

من بكرة عاوزك تزود أجرة الواد ابن "مخيمر".

أبدى موافقته متسائلاً في اهتمام:

ماشى يا حاج، بس ليه؟ هو في حاجة حصلتله؟

بتعابير شبه حزينة أخبره:

-سمعت إن ظروفه صعب، وابنه الصغير بعافية حبتين، اتحجز في المستشفى، والمصاريف أد كده، وهو رافض أي مساعدة.

ردد "سلطان" داعياً للصغير الذي لا يعرفه:

-ربنا يشفيه ويعافيه، ويجبر بخاطر أهله.

شد "بدير" على ابنه إشارة صارمة من عينيه:

متحسّسوش إنها مساعدة، كلفه بكام مشوار لحباينا اللي بيكرمونا لما
نبعتلهم حد من طرفنا، وإديله تكلفة المشوار على اعتبار إنه مشوار بعيد،
فاهمني؟

قال "تميم" دون تفكير وهو يضرب يده منحني عنقه عدة مرات، كنوع من
التأكيد:

من غير ما توصيني يا بابا، في رقبتى.

ضم "بدير" كفيه معًا فوق رأس عكازه، وأخفض وجهه متابعًا في نبرة محملة
بالأسى:

أصعب حاجة على الأب إنه يبقى حاسس بالعجز ومش قادر يعمل
حاجة، وخصوصًا مع عياله.

رد عليه "سلطان" بحكمة:

معاك حق، بس زي ما في الشقيان، في الظالم اللي بيستخسر القرش في
عياله، بخلان على نفسه وعلى أهل بيته، حارهم من رزق ربنا اللي بيعته
عن طريقه ليهم، وناسي كلام النبي عليه الصلاة والسلام **"كفى بالمرء إثماً
أن يضيع من يقوت"**.

هتف "بدير" مناجيًا:

-ربنا يكفيننا شُح النفس، ويجعلنا من عبید الإحسان.

أمن أباه عليه مبتسمًا لرؤية حصاد تربيته الطيبة في ابنه وحفيده:
يا رب.

نهض "بدير" من مكانه، وربت على كتف ابنه يستحثه:

يا لالا يا "تميم"، وخلي جدك يرتاح، إنت سهرته النهاردة.

تذمر "سلطان" باحتجاج لطيف:

-سيه، هو ليه غيري يشكيلي همه؟

استثارت عبارته الأخيرة حفيظته، فتركزت كامل أنظار "بدير" على ابنه،
وسأله مباشرة:

-في حاجة مضايقاك ؟ قول.

رد نافيًا وقد أحنى رأسه على صدره:

-لا يا بابا، كله تمام والحمد لله.

لم يبدُ مقتنعًا برده، وسأله دون أدنى محاولة للمراوغة:

-الموضوع إياه صح؟

حمحم بخفوتٍ وهو يخبره:

-أنا صابر ومستني.

منحه ربتة خفيفة على كتفه قبل أن يتكلم:

-ربنا هيراضيك .. هانت.

طرد زفيراً ثقيلاً من صدره، ودعا برجاءٍ شديد:

-يا مسهل الحال يا رب.

شارك الجد في الدعاء له بابتسامة وقورة:

-ربنا يرزقك الراحة عاجل غير آجل، وتيجي تشكيلي هم الجواز بعد كده.

هتف مماًزحاً في يأس:

-أجربه الأول طيب قبل ما اشتكي.

ضحك "سلطان" قائلاً، وهو يرمقه بتلك النظرة:

-هيحصل.

.....

ما إن طلع النهار، حتى ارتدت ثيابها، واتجهت إلى دكانها، لتبدأ في عملها مبكراً، تأكدت من لصق كل فص من فصوص اللؤلؤ اللامعة في منتصف كل وردة على حدا، باستخدام مسدس الشمع، لتبدو الباقة البيضاء في النهاية متناسقة، وجاذبة للأنظار، حين تمسك بها العروس بيدها. ألقت "فيروزة" نظرة سريعة على "علا" الواقفة إلى جوارها عند الطاولة التي تعمل عليها، تحدثت إلى رفيقتها مرة أخرى، بعد أن انكبت بوجهها على الباقة:

-بعد كتب الكتاب هاعمل افتتاح المحل بأمر الله.

علقت ساخرة منها بابتسامة صغيرة:

-يا بنتي إتي بتقولي كده على طول، وما فيش حاجة بتحصل.

بعد تهيدة سريعة أخبرتها:

-هعمل إيه بس، مش بإيدي، إتي شايقة الظروف.

حافظت على نعومة ابتسامتها وهي ترد:

-ربنا يعدلها لك، واعلمي حسابك هاجيب الزباين بتوعي عندك.

زوت ما بين حاجيها متسائلة في استغراب:

ليه؟

تطلعت إليها بنظرة متعجبة قبل أن تردد:

ـمش قولتلك هصفي المحل، صعب أشتغل بعد الجواز، وخصوصًا إن
ـ"وجدي" احتمال كبير يتنقل.

أظهرت "فيروزه" بسمة لطيفة وهي تعلق:

ـربنا يسعدكم يا رب.

غمغمت "علا" بنبرة موحية، وقد تحولت نظراتها لنظراتٍ ثعلبية مأكرة:

ـأما عندي ليكي خبر بقي طازة.

لم تكن مهتمة إلى حدٍ كبير وهي ترد متسائلة بفتور:

ـإيه؟

مالت عليها ل يبدو صوتها قريبًا من أذنها، ومفعمًا بالتشويق عندما قالت:

ـأخويا الموقر ييحب.

شهقت "فيروزه" في ذهولٍ على إثر المفاجأة السارة، ثم تكلمت قائلة:

ـبجد؟ مبروك، هو يستاهل كل خير.

غمزت لها بطرف عينا مصححة:

-أنا بقولك بيحب، لسه مافيش خبر إن كان هيبقى في حاجة رسمي ولا لأ.
هزت رأسها مرددة باقتضاب، وكأن شأنه لا يعنيها:
-تمام.

اندهشت "علا" من عزوفها عن معرفة التفاصيل، فالسبب ببساطة أنها لا
تسعى للتطفل على غيرها، لا يدفعها الفضول مُطلقًا للسؤال عما لا يعنيها،
ومع هذا استمرت رفيقتها في استفزازها بمنحها قطعًا غامضة من الأحجية
بقولها:

-بس مش هتصديقي، هو بيحب واحدة حبيبتك أوي، وقرية منك جدًا.
رغمًا عنها استرعى الأمر انتباهها، فتساءلت ناظرة إليها:
-مين؟

تأكدت من كامل انتباهها لها قبل أن تفجر ما اعتبرته قبلتها المدوية:
-الدكتورة "ريم".

من جديد انفلتت شهقة أخرى من جوفها، ورددت في صدمة:
-مش معقول، بتهزري؟

أكدت عليها "علا" صحة الأمر وهي تنقر بأظافرها على سطح الطاولة:

-لا طبعًا، ده بجد.

بعد لحظات من السكوت قالت "فيروزه" بما يشبه المدح:

هي بصراحة إنسانة محترمة، وخلوقة جدًا.

مطت "علا" ثغرها لثانية، وسألتها بعد ذلك بنظرة متشككة:

-إيه مش غيرانة؟

رمقتها بنظرة مدهوشة وهي تجيب عليها متسائلة:

-هغير من إيه؟

ببساطة أخبرتها وهي تهز كتفها:

-يعني الكل حواليك عمال يتجوز، مش بتفكري تعملي كده إنتي كمان؟

للغربة، رنت كلمات "تميم" الأخيرة في ذاكرتها، تلك التي ألقاها في الشرفة على مسامعها، مع استحضار سريع للمامحه في مخيلتها، جحظت بعينها في صدمة حرجة، وتحاشت النظر إلى وجه رفيقتها، كما لو كان أمرها قد كُشف، لتتفي ذلك التفكير بتعجلٍ يدعو للاسترابة:

-لالالا، أنا مش بتاعة جواز.

حاصرتها "علا" بنظراتها اللثيمة، وسألتها وهي تميل برأسها نحوها لتتطلع إليها
عن قرب:

طب عيني في عينك كده؟

تحركت من أمام أنظارها الكاشفة لها، وقالت بلهجة شبه جادة، قاصدة
تغيير مجرى الحديث:

-بقولك إيه، أنا عاوزة الحق أخلص البوكيه ده قبل ما أطلع أدويه للعروسة.
بدت "علا" غير مكترثة بملاحقتها، فقد تطلعت إلى ساعة هاتفها المحمول،
واعتمدت في وقفها لتخبرها بدلال:

ماشى يا "فيرو"، وأنا يدوب أروح ميعادي مع "جوجي".

استدارت تنظر إليها متسائلة بشفاه مقلوبة:

- "جوجي"؟ ودي مين دي كمان؟!!!

ضحكت في مرج قبل أن توضح لها:

- "وجدي"، ما أنا بدلعه.

لم تستسغ ذلك الغنج السمج، واكتفت بالإيماء برأسها وتصنع الابتسام،
لتودع بعدها رفيقتها، قبل أن تعاود العمل على الباقة بعقلٍ ما زال
مستحضراً للملامحه، وتلك البسمة الرقيقة تداعب ثغرها.

.....

-برذك يامه ريجالهم؟ عملي الي في دماغك؟ عاوزة تصغريني؟

صرخ "فضل" بتلك الكلمات في صوتٍ مرتفع، ناظم، وأشبه بالزجاجة موبخاً
والدته التي أخذت المال من أبيه، لتقوم بإعطائه لجدة أبنائه حتى تنفق
عليهم على حسب ما تم الاتفاق عليه سابقاً. لم يكن راضياً عما اعتبره مخالفة
لأوامره، واستمر في التعامل بجدةٍ وتشدد مع والدته، حذجته الأخيرة بنظرة
مستاءة، ثم أخبرته بلين الكلام علّه يقتنع:

-الناس هتاكل وشنا، مش عايزين فضايح.

هدر بها في انفعالٍ غريب:

-الفضايح لوش البومة الي مصدقت ترمي نفسها على أول راجل يتكلم عليها

...

ما لبث أن تحول صوته للخشونة وهو يتهمها باتهام سافر:

-تلاقيها كانت دايرة على حل شعرها، وأنا لابس العمة ومش دريان بريحتها
النجسة!!

لطمت "سعاد" على صدرها تحذره في استنكار كبير:

-ليه الكلام ده يا "فضل"؟ كله إلا الأعراض!

لم يخجل وهو يواصل كلامه البذيء:

-بس يامه، إتي على نياتك، حريم اليومين دول (...).

وضعت يدها على صدغها مرددة في حرج من وصفه الجارح والمهين:

-يا دي الكسوف، ماتقولش كده على أم عيالك.

لوح بيده هاتفاً في تقم:

-بلا أم عيالي بلا قرف.

لم تتحمل "سعاد" سماع مثل ذلك الكلام المنفر من ابنها، وقالت حاسمة
أمرها وهي تقبض بيدها على حافظة نقودها الصغيرة:

-أنا رايجة عند ست عيالك وراجعة، مش هتأخر.

ردد من خلفها وهو يتراجع للجلوس على الأريكة:

إياك ما تلاقهم.

ما إن سمع صوت غلق الباب حتى عبث بأزرار هاتفه المحمول ليخبر أحدهم، انتظر إجابة الطرف الآخر عليه ليبدأ في تعنيفه بأسلوبه الوحشي:

أيوه يا زفت، ماكلمتنيش ليه تظمني؟ مش قولتك تعرفني اتفقت مع البت إياها ولا لأ؟

رد عليه الرجل قائلاً:

آخر النهار هاتكون فضيالك يا ريس.

تجشأ "فضل" بصوت مزعج، وتابع منذراً إياه:

أما أشوف .. عارف لو لاقيتك جايلي واحدة نص لبة، بالله ما هتشوف إلا الوش الثاني.

بالطبع لجأ مؤخراً لمضاجعة بعض الفتيات العابثات لاستعادة هذا الإحساس بالرجولة والفحولة، بعد أن واطب على تناول بضعة أقراص مجهولة المصدر لتحفيز الكامن في خلاياه؛ لكن محاولاته كانت تبوء بالفشل الذريع، فليجأ لتقريع تلك الماجنات محملاً إياهن الذنب في عدم استشارة حواسه، وإشعاره بالرغبة والانتشاء. اتبه "فضل" لصوت الرجل وهو يخبره:

-عينيا ليك، بس دي أجرتها زائدة حته.

هتف فيه بجدّة ساخطة:

-على إيه؟ ما كلهم نسوان كسر، يحمّدوا ربنا إن لاقين رجالة يعبروهم.

بصوت هادئ تابع كلامه مؤكّداً، كمن يمتدح بضاعته:

-بس دي البريمو.

صاح به بعد أن أصدر صوتاً غير مستحب:

-مستعملة ياخويا، من كل من هب ودب، بريمو على إيه؟!!

اضطر الرجل أن يُجمل بضاعته، ويتفاوض معه إلى أن وصلا لاتفاقٍ مرضي للطرفين، حينها أنهى "فضل" المكالمة وهو يشعر بلذة الانتصار، تحولت أنظاره نحو الباب عندما سمع الدقات عليه، وقال وهو يفرك أنفه بسبابته:

-لحقتي ترجعي يامه.

بتكاسلٍ نهض من مجلسه، ليتجه إليه، ويفتحه؛ لكن هبطت الصدمة على رأسه بكامل ثقلها، عندما وجد "تميم" مرابطاً أمام العتبة، ووجهه لا ينم عن أدنى علامات الخير، تدلى فكه السفلي في اندهاش، قبل أن يحركه لينطق، وآثار الصدمة ما تزال حية على تعايره:

انت!!!

أكثر ما يميّته "تميم" في حياته، هذا النوع من البشر- الذي يضر- ولا ينفع، ويتسبب بشروره في إيذاء الآخرين، ما إن أبصره بسماجته، ووضاعته حتى كور قبضه يده، ضاغظًا على أصابعه بقوة حتى ابيضت مفاصله، وبرزت من شدة الضغط الشرس، ليخاطبه بعدها بزفير محموم، ونظراته النارية تشمل وجهه البغيض:

مش أنا قولتلك إدي بالك جياالك؟

سدد له أول لكمة قوية ومباغثة جعلته من شدتها يرتد للخلف في ترخ كبير، قبل أن تلتف ساقه بالأخرى، ويتعثّر فاقدًا اتزانه، ومنكبًا على وجهه، ليتبع ذلك قول "تميم" المليء بالوعيد القاسي:

خد بقي وما تعدش !!!

.....

الفصل المائة وسبعة وثلاثون

ما إن طار إليه الخبر اليقين، حتى حسم أمره، وأوكل مهامه الصباحية لغيره، لينطلق فوراً إلى بلدته دون أن يعلم عن ذهابه أحد، لتسبح له الفرصة لتصفية كافة الحسابات المعلقة. اللعين لم يكفه ما تسبب فيه لها من إيذاء بدني ونفسي، ليواصل بخ سمومه القميئة، والنيل منها بأحق الطرق الممكنة. اندفع "تميم" بكامل عنفوانه وغضبه، نحو كتلة الشحم الملقاة أرضاً، ليقبض عليه من تلايبه ويجره جرّاً غير عابئ بغلق الباب من خلفه.

حاول "فضل" مقاومته، وتحين أي فرصة للإفلات من قبضتيه المحكمتين حول عنقه؛ لكنه فشل أمام قوته وخشونته القاسية، حيث انهال عليه لكمة وراء أخرى في وجهه، معيداً تشكيل ملامحه السمجة، ومُفرغاً في نفس الآن تلك الشحنة المكبوتة فيه، انخفضت قبضته المضمومة ليسدد له لكمة مؤلمة في معدته، جعلته يصرخ بأنيبٍ بالك، قبل أن يعنفه:

فكرك مش هعرف أوصلك؟ وريني هتفلت المرادي إزاي مني.

ضغطت أصابع "تميم" القاسية على مجرى تنفسه، فاختنق صوته وهو يسأله بوجهه الذي تحول لكتلة من الدماء الحمراء:

أنا عملت إيه؟ هو .. رمي بلى؟

منحه لكمة عنيفة في فكه ليخرسه وهو يهدر به:

-معملتش حاجة غير العمل بس، فأنا جاي أطلعاه على جتتك.

لم يعطه فرصة اختلاق أي أكاذيب، استمر في لكمه، وضربه، في مفترق أنحاء وجهه، حتى شاع في التورم، وامتزج مع دمائه ونحيبه. كالذبيحة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، انتفض "فضل" محاولاً المناص منه، ظن أنه حاز على فرصة للفكاك منه، حين نهض عنه "تميم"، لينزع حزامه الجلدي، فصرخ مستغيثاً بأعلى ما يكون؛ وإن تسبب هذا في بح أحباله الصوتية الجريحة:

غتوووني يا ناس، هموت.

لف "تميم" مقدمه حزامه حول قبضته، لتصبح كسوط قاس، ثم هوى به على ظهره، في صفة مباغته جعلته يصرخ من الألم الشديد، لم يكن قد تعافى بعد من آلام الأولى ليلحقه بواحدة أخرى مفاجأة أشد عنفاً وهو يتوعده بالمزيد:

-محدث هيعتقك مني النهاردة.

استمر في زحفه وهو ما زال يصرخ طالباً النجدة:

-الحقوني ..

لم يجد بداً من الهاتف بجنونٍ للنجاة من بطشه الأهوج:

حرامي، حرامي!

حيلة رخيصة للفت الأنظار، واستدعاء المساعدة على وجه السرعة، بصق عليه "تميم"، ولعنه باشمئزاز صريح:

أه يا (...)!

واصل جلده في مواضع متفرقة من جسده، غير مكترث بصراخه وعويله المرتفعين، لم يكن ليقفه أي شيء أو أي شخص عن تأديبه بما يستحق.

.....

في تلك الأثناء، خلال سيرها وسط طرقات البلدة الرملية، لاحظت نظرات النساء غير الطبيعية لها، كانت تشملها من رأسها لأخص قدميها، غالبيتها مالت للازدراء، حاولت "سعاد" التغاضي عنها؛ لكن الهمهمات الجانبية استرعت فضولها، لمحت إحدى من تعرفهن من النساء، ذوات السيرة الطيبة، تقدمت نحوها حتى تلاشت المسافة بينهما، وقربت رأسها منها تسألها في حيرة:

هو حريم البلد مالها؟

وضعت المرأة طرف حجابها على فمها تغطيه، ثم اختلست نظرات سريعة على من حولها قبل أن تجيبها بمرح:

-إنتي مش دريانة باللي حاصل يا حاجة ولا إيه؟!

ضاقت نظرات "سعاد" في توجيس أكبر وهي تتساءل:

-لأ ياختي، في إيه؟

ضغطت المرأة على شفثيها في تردد، استحت أن تخبرها بما انتشر في البلدة من أخبار مخزية تخص ابنها، ألحت عليها "سعاد" لتخبرها:

يا بت انطقي، إيه اللي حاصل؟

تحاشت النظر نحوها قائلة بصعوبة، وكامل وجهها يكسوه الخجل:

-أصل بيقولوا في صورة كده لسي "فضل" مش ولا بد.

انعقد حاجبا "سعاد" في قلبي أكبر، وتساءلت بلامح مالت للشحوب:

-صورة إيه؟

لم تتجراً المرأة على متابعة النظر ناحيتها، خاصة وهي تعلق:

-أنا مشوفتش، ده الناس اللي بتتكلم.

فقد صبرها من مماطلتها غير المحتملة، فصاحت بها:

-بيقولوا إيه يعني؟

لم تجد بداً من إخبارها، فقالت وقد نكست رأسها قليلاً:
هاتي ودنك.

أرهفت "سعاد" السمع للكارثة التي عرفت عنها، جحظت عيناها في ذهول
مرتاع، وامتدت يدها لتلطم على صدرها وهي تردد:
يا نصيبي!!

لم تستطع متابعة ما عقدت العزم على تنفيذه، دون أن تعود للمنزل لتخبر
ابنها بالفضيحة التي نالت منه، وبالطبع لن تمر مرور الكرام.

.....

بدا وكأن الصلة بينه وبين جميع من في البلدة قد انقطعت فجأة، فلم يهب
أحدهم لتلبية أصوات صراخه، أو شك على تصديق أنهم اتفقوا فيما بينهم سرّاً
على أن يأتي هذا الشرس لمعاقبته، وقبل الأخير مرحباً بهذا الاتفاق
الضمني. تقلب "فضل" على جانبه الآخر ليقيه من كم الضربات المبرحة التي
أصابته، وأيضاً ليعطي الفرصة لقطعة أخرى من جسده لتأخذ نصيبها، صاح
مجدداً مستغيثاً ببقايا صوته المشروخ، وهو يزحف على مرفقيه ليفر من
جلاده:

حد يغتني يا ناس!

لم يجد من يلبي ندائه، فرد عليه "تميم" في تهكم:

-الناس عايزة اللي يخلصها منك يا نجس!

رفع من جديد حزامه في الهواء، ولفحه بجلدة أصابته في مقتل، فارتفع الصراخ المبجوح، وعم في الأرجاء، قبل أن يغدق عليه بأخرى، اقتحمت "سعاد" المكان لتتفاجأ بما يناله ابنها من تقريع عنيف، كادت عيناها تخرجان من محجريهما من هول المشهد، وبغريزتها الأمومية تحركت للزود عنه، وإن كان مجرمًا يستحق العقاب، حالت بينه وبين "تميم"، وصوتها يصيح في فزع: يا نصيبتني، في إيه؟ ابعد إيدك عنه.

وكان النجدة هبطت لتوها من السماء لإيقاظه، اختبأ "فضل" خلف ساق والدته، تاركًا جسدها يبدو كدرعه الواقي من لسعاته المؤلمة، توسلها من بين بكائه المهين:

غتنيني يامه، هيموتي.

لوحث "سعاد" بذراعيها في الهواء تستصرخه:

-حرام عليك، هيموت تحت إيدك.

بقساوة شرسة علق عليها "تميم" وهو يحدج ابنها بتلك النظرة المغلولة:

-ابقى ريحت الناس من شره.

قرأت في عينيه نية مبيتة للقضاء عليها، فلم يكن أمامها سوى الاستغاثة
بأعلى أصواتها علّ أحدهم يحير امرأة تستغيث:

-يا ناس، يا خلق هووه.

تعلق "فضل" بساق والدته، وهتف من خلفها بهسيس موجوع:
صوتي كمان يامه.

سدد له "تميم" نظرة قاتلة بعد أن التقطت أذناه ما تفوه به، ثم هتف يسأله
في احتقارٍ ظاهر على كل قسماته:

-بتحمي في أمك؟

خبأ "فضل" وجهه من أمام نظراته المميتة، فتابع "تميم" إهائته له:
ما أنت جبان و(...).

شهقت "سعاد" أمام وابل الألفاظ البذيئة التي تنال من ابنها، لم تكن قد
أفاقت بعد من صدمة فضيحتة، والتي على ما يبدو لم يعلم بها بعد، لتُصدم
بما يتلاقاه من عقابٍ غير مبرر، استمرت في حمايته، وتساءلت مدافعة عنه
بحرقة:

هو عمك إيه؟ بتفتري عليه ليه؟

مهما بلغ غضبه ذروته، ومهما كانت محاولات استفزازه لم يكن ليوجه انفعاله نحو النساء، خاصة العجائز منهن، تراجع مرخيًا ذراعه، وأخبرها بصوت مزجر:

-ابنك ماسبش حاجة معملهاش.

كأفعى متلونة، تُجيد تغيير جلدها في كل لحظة، حرك "فضل" فكه ليدهي كذبًا:

-كل ده عشان عايز بنت عمي بجلال ربنا يامه.

اشتاط "تميم" غضبًا، واحتقنت نظراته بشدة من كذبه الحقير، فهدر به رافعًا سبابته محذرًا بعدائية غير مشكوك فيها:

-ماتكلمش عن الحلال والحرام.

لم يحسن "فضل" تقدير الموقف، واستمر في استفزازه بقوله الحاقد:

-أيوه، اعمل الشويتين دول عشان تغطي على ريحتها اللي فاحت، ما هي بعثاك عشان كده.

من جديد لف "تميم" الحزام حول قبضته ينوي الفتك به مرة أخرى هادرًا:

-تاني؟!!!

تشبث "فضل" أكثر بساق والدته، وهتف يتوسلها كالجناء:

-حوشيه يامه.

على الفور استعطفته:

-ماتقربلوش بالله عليك.

المشهد كان مبتذلاً، هزلياً، وباعثاً على النفور والحقد، أخفض "تميم" يده، وقال في خشونة:

-كنتي ربي ابنك كويس يا حاجة، بدل ما هو عامل زي وساخة البطن، ناشر قرفه على اللي حواليه.

حفظاً لماء وجهه المهدور، ردد "فضل" دون حياءٍ وبالباطل:

-أني وساخة بطن؟ أنا أنصف من اللي جاي محموء لها.

لم تحط دماء "تميم" المحتقنة بعد، وهدر ينذره بهديرٍ مفزع:

-إياك!!

تجاهل تحذيره واستمر قائلاً:

-زمان ركبوني الغلط عشان قوتل نتأكد إن كانت المحروسة بنت بنوت ولا لأ، مع إنه حتي اطمئن على شرفها، ولو مكوتنش عملت كده، كانت سيرتها بقت على كل لسان ...

الحقيقة الغائبة برزت للعلن الآن، كان السؤال الذي يلح عليه ليل نهار، ما الذي قام به هذا الخسيس معها، واليوم اكتمل المشهد المنقوص، استيعابه للتفاصيل المؤلمة استغرقه بضعة لحظات، و"فضل" ما زال يتكلم معتقداً أنه ربح في جولة خاسرة:

-أما دلوقتي فشوفوا الشريفة الطاهرة مقضياها إزاي ..

انتهى وقت الهدنة الافتراضية، فاندفع نحوه "تميم" متجاوزاً والدته، لينقض عليه بكل ما أوتي من شراسة، وينتشله بقبضتين محكمتين ليطرحه أرضاً في عنف مفرط وهو ينهال عليه بالسباب:

عندك يا (...)!

لم تتمكن "سعاد" من إيقافه، وفشلت في ردع بطشه المنفعل، ظلت من خلفه تضربه على ظهره بقبضتيها وهي تصرخ به:

سيبه، حرام عليك.

أطاحت لكمة "تميم" بالسنة الأمامية لـ "فضل"، وأملى عليه بنبرة حاسمة:

-اللي بتكلم عنها دي هتبقى مراتي، سامع.

دُهل مصعوقًا من اعترافه وسط ما يعانيه من ضرب مبرح، ومن بين
أسنانه المتلجلجة هتف:

-بتقول إيه؟

اندست يد "تميم" في جيبه الخلفي، ليخرج مديته، أشهرها أمام وجهه هادرًا
بنظراتٍ ميتة، خلت من الشفقة:

-وأنا اللي يمس أهل بيتي بكلمة بدبجه.

لطمت "سعاد" على صدغيها في جزع، وصرخت شاهقة:

يا لهوي، هيموت.

لحسن الحظ اقتحم المنزل عند تلك اللحظة قبل أن ينغرز النصل المدبب
في جلد عنقه، بضعة أشخاص، على رأسهم "رشيد"، على الفور تحركوا
صوب "تميم" وقيدوا حركته، ثم نجحوا في إبعاده عنه قبل أن يتهور، قاومهم
الأخير بكامل قوته وهو يهدير بصوتٍ مليء بالقوة والخشونة:

-حاسب إنت وهو ..

رد عليه "رشيد" وهو يحكم لف ذراعه حوله:

-اهدى يا أستاذ، ده لسه ليه حساب معانا.

رغم وضوح العبارة إلا أنها كانت مثيرة لحيرته، ما الذي ارتكبه هذا الوضع أيضًا ليكسب المزيد من العداوات؟ تجاوز عما يُحيره، وهتف في عناد:

-وأنا حسايي معاه مخلصش!

جثت "سعاد" على ركبتيها أمام جسد ابنها المسجي، تولول في حسرة وخوف:

-حرام عليكم، عاوزين إيه منه؟ كلكم اتكاترتوا عليه؟

لم يبدُ أي أحد من المتواجدين في هذا المكان متعاطفًا مع ابنها، ولم يكن الصفح خيارًا مطروحًا، ولو على سبيل المفاوضة. جاء "إسماعيل" من الخارج مهولاً بعد أن أبلغه أحدهم بحشد أفراد عائلة "رشيد" لزمره من أشداء رجالها، واتجاههم لمنزله، توقع أن يكون ابنه قد تسبب في مصيبة لا تغتفر، لهذا أسرع الخطأ، وعاد إلى بيته، ليتفاجأ هو الآخر بالتجمهر الحادث بداخله، صاح من الخلف وهو يخترق صفوف الرجال لينظر إلى ابنه المهشم عظامه:

-هو في إيه اللي بيحصل في بيتي؟

حلت عليه الصدمة فور أن رأى "تميم" متواجدًا بينهم، فاق ذلك حدود توقعاته، وهتف يخاطبه في دهشة عظيمة:

-إنت!

استصعب "تميم" توقيير أمثاله من مدعي الرجولة، وقال وهو ينفض الأذرع المكبلة عنه:

-كان أكرمك يا حاج بدل ما تنصح غيرك باللي ما بتعملوش، وتبلي البشرية بواحد زي ابنك ده إنك تعلمه الأصول.

ثم أشار لمن يحيطون به من الرجال بعدم لمسه بكفه، وتابع كلامه مع "إسماعيل" بنبرة شديدة اللهجة:

-ابنك إكرامًا لأمه مش هديجه، بس يفكر تاني يقرب من اللي يخصني.

غادر بعد أن حدج "فضل" بنظرة احتقارية سافرة، أوسع له الرجال الطريق للمرور بينهم، في حين تقدم "رشيد" لينظر هو الآخر إلى كتلة اللحم المهترئة المتكومة أرضًا بنفور، ثم استطرد مخاطبًا "إسماعيل" بسخطٍ ممزوج بالتهكم:

-أنا كنت جاي أخذ حقي منك عشان الكلام اللي قولته عن مراتي وإنت مبلع، بس واضح إن غيري سبقتني.

سأله "إسماعيل" بوجهٍ شاحب:

-فضايح إيه دي كمان؟

رد عليه مبتسمًا في سخرية من زاوية فمه:

-في فيديو منتشر للمحروس أرجل ناسه وهو لا مؤاخذه يتعبط.

انفجرت شفتاه في صدمة كبيرة يغلفها الحرج والذهول:

-إيه!!!

تحرك "رشيد" بخطوات بطيئة ليقف أمام "إسماعيل" متابعًا بصوت جليدي، يحمل الإهانة:

-وأنا كنت جاييله فيديو ثاني ليه مع واحدة من إياهم، ما هو ولاد الحرام كثير، صوروه وهو مقضيها نجاسة.

ارتجفت نبرته وهو يردد مصدومًا:

-ابني ي.. عمل كده؟

التفت "رشيد" ناظرًا إلى أشباه الرجال الباكي عند أقدامهم، وأهانته في احتقار أكبر:

-ورينا بقى هترفع راسك إزاي وسط الخلق ...

عاود النظر إلى والده المصدوم، ومنحه قدرًا من التعنيف المذهب كذلك:

-وانت يا حاج "إسماعيل"، مش فاهم فاتك إزاي ده، يعني **أَتَأْمُرُونَ**
النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؟

أحنى رأسه في خزي وانكسار، فلم ينطق "رشيد" بالمزيد، يكفيه ما قاله،
ثم أشار لأتباعه بالتحرك أمراً:

-بيننا يا رجالة، وقفنا معدتش تلزم هنا.

انصرفوا تبعاً، تاركين خلفهم من لن يبكي عليه أحد إن مات تَوّاً. تجمد
"إسماعيل" في مكانه للحظات، فاقداً قدرته على التعبير، أو التعليق،
اهتزت صورته أمام نفسه قبل الغرباء، صار يرى شخصيته الوقورة تذهب
أدراج الريح، تضاءلت كرامته، وتبعثر كبريائه، لم يتحمل ذلك الكهل هذا
التجريح المهين له، فترنح في غير اتزانٍ باحثاً عما يدعمه، ويمنعه من
السقوط. رآته "سعاد" وهو على وشك الوقوع، فهبت ناحيته تناديه في
ارتياح مفزوع:

-حاج "إسماعيل"!

أسندته بذراعيه، وأجلسته على المصطبة القريبة، لتتابع بعدها صياحها
المرتعب:

-الحق أبوك يا "فضل".

تمدد ابنها على الأرضية، متحسّساً بيده مواضع الألم، بالكاد اختطف نظرة
مشوشة نحو أبيه، ودمدم في هسهسة متحشجة:

-أنا عاوز اللي يلحقني !!

.....

الفصل المائة وثمانية وثلاثون

لم يعد في بقاءه أي ضرورة، بعد أن لقنه ما جاء لأجله، وأسمعها له بوضوح لئلا يفكر في الاقتراب منها، وأنها أصبحت خاصته، فقط مسألة وقت لتصبح رسميًا تحت حمايته ورعايته. خرج "تميم" من منزل هذا الديء مرفوع الرأس، يتطلع أمامه بنظراتٍ ما زالت حائرة، الشحنة الغاضبة بداخله لم تخت بعد، ولم تهدأ، إنها هدنة مرغم عليها وفقًا بأم لم تذب سوى في تربية وتنشئة ابنها تنشئة غير سوية، أفسده الدلال، وأضره الغنج. دنا من مفترق الطرق، حيث اصطفت عربتان ربع ثقل بشكلٍ معاكس، لتسد الطريق على أي شخصٍ قادم، كما صدر عنهما صخبًا ضوضائيًا مزعجًا، ليغطي على أي أصوات استغاثات قد تأتي .

ألقي "تميم" نظرة فاحصة على الكابنتين، لم يتواجد رفاقه بإحداهما، التفت للناحية الأخرى فوجدهم مجتمعين معًا يدخلون السجائر، ويعرقلون الحركة إن جاء أحدهم واشتكى، حتى يعود إليهم، وضع إصبعيه ما بين شفثيه ليطلق صافرة مميزة، انتبهوا له، وتحركوا سريعًا في اتجاهه، ليأدر بعدها "ناجي" متسائلًا:

-كله تمام؟

أكتفى "تميم" بهز رأسه، فتساءل "شيكاجو" بتحفزٍ، وهو يشمر عن ساعديه:

-احنا في الخدمة يا ريس، إدينا الإشارة ونطربأها.

تحدث قائلأ بامتعاض:

-مايستهلش ...

ثم أشار لهم ليتبعوه مكملأ:

-بيننا من هنا.

تحركوا في اتجاه السيارتين، فأضاف "حمص" بسخرية واضحة:

-صحيح البلد مالهاش غير سيرة الفيديو إياه بتاع الدغوف.

نظر "تميم" ناحيته، وخاطبه بتجهم واضح:

مع إني مكوتنش أحب يتعمل كده، بس هو يستاهل الفضيحة.

علق عليه هازئأ:

-بعدين عنك دي ماسورة فضايح يا ريسنا، خلاص ركب التريند.

سألـه "ناجي" بما يشبه السخرية:

-وبقيت تعرف في التريند كمان يا "حمص".

أجابه بابتسامةٍ أظهرت مدى إصفرار أسنانه واتساخها:

من بعض ما عندهم يا سيد الناس.

بدا السأم ظاهرًا على تعابير وجهه، فهتف في رجاله، وهو يتخذ مقعد
الراكب في إحدى السيارتين:

-كفاية رغي، واخلونا نمشي- من هنا، لسه عندنا شغل ثاني قبل كتب
الكتاب.

رد عليه "شيكاجو" في طاعة وهو يشير لرفيقه باستقلال السيارة الأخرى:
-ماشي يا كبيرنا.

.....

تحولت الباحة الملاصقة لدكانه إلى ما يشبه تجمعًا عائليًا مغلقًا بمشاعر الود
والألفة، والصداقة العتيقة. تسابق عمال المقهى الشعبي في خدمة الضيوف
الأعزاء، والذين تعالى صخبهم المرح. استطرد "دياب" قائلاً وهو يشير
بسبابته:

-شوفوه بس لو حد قرب من ابنه، تحس إن في ماس كهربي ضرب فيه.

رمقه "منذر" بتلك النظرة النارية المحذرة قبل أن يعلق عليه في تزمّت:

-مش باخد بالي منه!

ضحك قائلاً في تسلية:

مش بالشكل ده يا جدع، ده إنت ناقص تحط يافطة ممنوع الاقتراب أو التصوير.

لوى "منذر" ثغره مرددًا في تهكم:
بكرة نشوفك هتعمل إنت التاني.

بنوع من التفاخر، انتصب "دياب" في جلسته، وأخبره:
هو أنا ليا لي زي.

هز رأسه معقبًا بإيجاز:
طبعا.

تساءل "دياب" في اهتمام:

-أومال فين "تيم"؟ مش ظاهر ليه؟

أجابه "بدير" بعد زفير سريع:

-كان قايل رايح مشوار على السريع وراجع.

رد عليه مبتسمًا:

يحي بالسلامة، ومتجمعين دائماً في الفرح.

شاركه الابتسام، وقال:

يا رب.

.....

وقفت خلف شقيقها تُصر على دفع مقعده المدولب، بعد أن جاءت بصحبته
لحضور مراسم عقد القران، ما إن رآه الرجال المربطين عند مدخل البناية،
حتى تعاونوا في حمله للصعود للطابق العلوي، شكرتهم "آمنة" على
مساعدتهم، وانتظرت ذهابهم لتسأله:

عامل إيه يا خويا؟

أجابها "خليل" بإيماءة صغيرة من رأسه:

ال..حمدلله.

مالت عليه لتخاطبه معذرة:

معلش أنا قصرت معاك اليومين اللي فاتوا، بس إنت شايف الجماعة كانوا
آ...

قاطعها مشيراً برأسه:

أنا .. ك.ويس.

ربت على جانب ذراعه قائلة في لطف:

عقبال ما تفرح بـ "رقية" كده وتلاقينا واقفين لها كلنا.

لم يعرف إن كان القدر سيمهله الفرصة لرؤيتها كعروس جميلة تزف إلى زوجها، لحظة من الحزن غلفت نظراته وهو يردد:

يا رب.

.....

منذ ما يقرب من الساعتين، وهي مأكثة معها في غرفتها، تعاونها على كل صغيرة وكبيرة، لتبدو متأقة في تلك الليلة الهامة، بالرغم من قلة المدعوين، واقتصار الحضور على بضعة أشخاص من المقربين فقط، بناءً على طلبها، إلا أن شعورها بأنها محط أنظار الجميع ضاعف من الرهبة بداخلها. تطلعت "هاجر" إلى انعكاس وجهها في المرآة، كانت تزين بشرتها لمحات رقيقة وخفيفة من مساحيق التجميل، وحجاب رأسها يغطي كامل شعرها. أضافت "فيروزة" القليل من أحمر الشفاه عند شفتيها، وطلبت منها بابتسامة رقيقة:

حاولي تفردى الراج على كل شفائفك

خفق قلبها في توترٍ وقد طاف بخلدّها في تلك اللحظة أنّها ستعايش نفس اللحظات التي عاشتها حين تقدم "محرز" للزواج منها. انتابها الهواجس المربكة، وتزايدت المخاوف المبررة برأسها، لذا هتفت تستجدي بوالدتها الواقفة على الجانب الآخر آملة إرجاء الأمر برمته، كرد فعلٍ غريزي:

-بلاش، أنا .. مش عايزة آ...

تفهمت "ونيسة" للتوتر المتفشي فيها، ووضعت يدها على كتفها تسألها في عاطفة حانية:

خايفة من إيه يا حبيبتي؟ "سراج" ابن حلال وشاريكي.

جاءها تعليقها إلى حدٍ ما صادمًا:

ما "محرز" كان كده.

انتبهت "فيروزة" لما يدور بينهما من حوار فحواه أظهر خصوصيته، وحاولت ألا تشارك بالتعليق، وتبتعد عنها لتركها لهما فسحة للحديث بأريحية، فادعت انشغالها بإعادة تنسيق باقة الورد. هتفت "ونيسة" تعاتب ابنتها على جملتها الأخيرة المليئة بسوء الظن، فقالت:

إمتي عايزة تقارنيه بده؟ حرام عليكي.

اغرورقت عينا "هاجر" بالدموع، فالتقطت منديلاً ورقياً تمسح به العالق
بين رموشها، في حين استمرت والدتها في مخاطبتها بعقلانية:

-يا بنتي بصي لقدام، الراجل مش محتاج يدعي إنه راجل، الراجل بيبان في
مواقفه وتصرفاته.

بالرغم من ابتعادها عنها، إلا أن كلامها وصل إليها، وللحظة شعرت وكأنها
تخاطبها هي، تُذكرها بما كانت عليه مع المخادع "آسر"، وما فعله -وما زال
يفعله- "تميم" معها، توترت من مجرد التفكير فيه أمام عائلته، وسرعان ما
تأثرت بشرتها واصطبغت بحمرة طفيفة، أخفضت رأسها حرجاً، وسارت
تجاه النافذة، على أمل أن يداعب الهواء البارد وجنتيها الدافئتين. واصلت
"ونيسة" القول بهدوء واضح:

- "محرز" صحيح ضحك علينا كلنا، بس مكانش يُعتمد عليه، كان دراع أبوكي
في الشغل العادي؛ لكن المهم أبوكي كان يقوم بيه لحد ما أخوكي خرج من
السجن، وساعتها كل المستور اتكشف وبان.

عبرت "هاجر" عن مخاوفها، فهتفت بنزق:

-أنا خايفة يكون واخديني تصفية حسابات.

عند تلك الكلمات استدارت "فيروزة" برأسها لتنظر إلى العروس المرتاعة، تحولت نظرات الحرج إلى أخرى جادة، كما اكتسبت تعبيراتها وجوماً غريباً، انزلق لسانها يسألها في فضول مهم:

-تصفية حسابات إزاي؟

يايجاز غير مسهب أفصحت "هاجر" عن السبب الحقيقي وراء حبس شقيقها، لتصحح تلقائياً وكنياً الصورة الخاطئة المأخوذة عنه، ربما بعض العبارات المتناثرة من هنا وهناك، وبعض الأقاويل والمواقف التي تدعم شهامته كانت تعتبرها مجرد تجميل لبضاعة ما، أو تفخيم لشخصية محبوبة بين المواطنين على سبيل الشهرة واكتساب الود؛ لكن أن تأتيها الحقيقة بكافة معالمها الواقعية هكذا جعلها تعيد التفكير في شأنه.

حافظت "فيروزة" على جمود ملامحها، أخفت اندهاشها، وتساءلت بحاجبين معقودين:

-ووافق بعد ده كله ترتبطوا ببعض.

أومات برأسها مؤكدة:

-أيوه.

تحلت "ونيسة" بفضيلة الصبر، وحاولت إقناعها بمنطقية:

حُب الأولى كان اتجوز من زمان، بس هو استناكي، وإنتي أول بخته، ده غير إنه بيحب ابنك أوي.

ظل التردد مسيطرًا عليها، وقالت في توتر:

مش عارفة، خايفة أجرب يامه، وأنا مش حمل كسرة قلب ثاني

بتلك المشاعر الخائفة مست قلبها، وجعلتها تشعر وكأنها تتحدث عنها؛ لكن على لسان شخص آخر، المبررات، الأسباب، الدوافع، وكل شيء كان مطروحًا للنقاش، غير مجبرة على القبول به، وهذا أكثر ما أحبته في تلك العائلة؛ حرية الاختيار. لم تتوقف "ونيسة" عن محاولتها دعم ومؤازرة ابنتها، فقالت:

طبيعي تخافي وتقلقي لما نفس التجربة تتكرر، بس الفرق هنا إن "سراج" بيحبك من قلبه، واللي بيحب بيعمل أي حاجة عشان يسعد وليفه.

ضحكت "هاجر" ضحكة مبتورة، وعلقت:

إنتي بتتكلمي زي أبويا وجدي.

ردت عليها والدتها مؤكدة بثقة، وابتسامتها تنير وجهها:

لو أبوكي كان شاكك للحظة إنه ما يستهلكيش مكانش وافق، ما بالك بـ
"تميم" هو كمان؟ تفتكري كان وافق يحط إيداه في إيد اللي حبسه؟ إلا إن
كان شاف منه كل خير.

أصابت القول في جملتها الأخيرة، وبدأت مخاوف ابنتها تقل تدريجيًا،
فأضافت بتريث لتشعرها بالمزيد من الطمأنينة:

-و"محرز" ربنا ينتقم منه اعترف وقال إنه خرب الدنيا، مش ده كان كلام
أخوكي؟

ردت دون تفكير:

-أيوه.

ربت "ونيسة" على كتفها تستحثها:

-ارمي ورا ضهرك يا بنتي، وبصي للحلو اللي جاي في حياتك.

حملت "هاجر" مجددًا في المرأة لتنظر إلى نفسها، محاولة الإصغاء
لنصيحتها، ونبد ما يقلقها. استأنفت "ونيسة" كلامها معها بابتسامة أكثر
اتساعًا:

-وبعدين الست أمه بلسم، من بيت أصول، محترمة وأخلاق، وبتحبك،
والكل عارفها من زمان، ولسانها ما يطلعش منه العيبة.

وافقتها الرأي، فأكلت بنبرة مالت للجدية:

-أي أم مطرحها تتمنى ابنها يتجاوز واحدة صبية، وحلوة، وليها أصل وفصل،
وقبل ده كله بنت بنوت....

تعمدت الضغط على الكلمات الأخيرة لتؤكد لها إصراره عليها، وقبل أن
تنطق بحرفٍ أضافت "ونيسة" بنفس الوجه المبتسم:

-شوفي إتي بقى مقدار غلاوتك عندهم، لأنه عملك اللي ما اتعمل لأي
واحدة، ومستعد يراضيكى باللي يسعدك.

وجدت "هاجر" نفسها تبتسم قائلة في فرحةٍ غير مزيفة، وتلك اللمعة تطل
من عينيها:

مضبوط.

احتضنت الأم ابنتها، وقالت بعد تهيدة بطيئة:

-استبشري خير يا "هاجر"، وافرحي يا بنتي .. ده النهاردة ليلتك.

تأثرت "فيروزة"، واختنق بتلك المشاعر الودودة الداعمة التي طغت على
الأجواء، عانت مؤخرًا من حساسية زائدة لكل ما له صلة بالمشاعر، وهي
التي لم تكن هكذا، كبحت عبارتها بصعوبة، وهتفت قائلة دون أن تنظر
نحوها:

عن إذنكم، هاطلع أشوف ماما إن كانت عايزة حاجة.

رجتها "هاجر" في نبرة حانية:

-ارجعيلي ثاني يا "فيروزة"، عايزاكي جمبي.

كانت قد فتحت الباب، وهمت بالخروج من الغرفة، لذا استدارت ناظرة
ناحيها لترد في رقة:

حاضر، أنا معاكي.

منحتها نظرة مطمئنة، ثم أغلقت الباب متجمدة في مكانها لبضعة ثوانٍ،
سحبت عدة أنفاس عميقة تحط بها على المشاعر المرهفة التي عصفت بها
الآن، لتلتفت بعدها مندفعة بكامل عنفوانها نحو الأمام دون أن تنظر
جيداً.

.....

ادعاء أن شيئاً لم يكن بدا متعذراً عليه، فالالتقاء بهذا اللزج المنفر يعد شيئاً
غير سارٍ للنفس، عاد إلى الدكان، والتقى برفاقه الأعزاء ليستأذن بعدها
حتى يبدل ثيابه، ويستعد لاستقبال المدعوين. لم يتوقع "تميم" تواجدها في
منزله، فمعظم الوقت كانت غرفة شقيقته مغلقة على من فيها، تأتي النساء
تهنئها، وتمكث لبعض الوقت، ثم تنصرف، أراد رؤيتها قبل نزوله للأسفل،
فتفاجأ بخروج نصفه المكمل من الغرفة، في بهائها الساحر والمغري.

كانت "فيروزة" قد ارتدت ثوبًا أسود اللون، عادت إلى هذا اللون المثير، مع fark أنه ازدان بفصوص متناثرة للون الفيروزي، حجاب رأسها كان من اللون الأسود، يتماشى مع الثوب البراق، بالطبع أرادت ألا تكون لافتة للأنظار في تلك المناسبة، فاختارت التقليدي من الأثواب؛ لكنها استحوذت على سائر الانتباه والاهتمام، انتفض الحب الثائر في كامل وجدانه، واستثارت به مشاعر التوق والرغبة، اللوعة والاشتياق.

على ما يبدو لم تنتبه إليه، فتحركت صوبه لترتطم به بعنف، شهقت لاصطدامها بالصدر الرجولي، وارتدت للخلف كردة فعلٍ تلقائية. رفعت "فيروزة" أنظارها للأعلى لتحقق في وجه "تميم" بعينين متسعيتين في صدمةٍ وحرع، ساد بينهما صمت مطبق لبضعة لحظات، قطعه الأخير متسائلًا في اهتمام:

إنتي كويسة؟

تداركت خطئها غير المقصود، واعتذرت منه بربكةٍ خفيفة:

معلش، أسفة، مخدتش بالي.

سألها في ملامح جادة:

-في حاجة ناقصة عند "هاجر" وعازاها؟

شمלתه بنظراتٍ بدت فاحصة أكثر منها عابرة، كانت مرتها الثانية التي تراه يرتدي فيها بدلة رمادية أنيقة للغاية بعد السوداء التي ارتداها في حفل زفافه، بدا وكأنه تعمد حدوث هذا، لتراه كذلك في كامل الوجاهة والأناقة، على عكس الصورة المعتادة له. حممت في خفوت، وأجابته وهي تبعد نظراتها عنه:

-لأ، مافيش.

حاولت تجاوزه للمرور؛ لكنه تحرك في نفس اتجاهها، اتجهت بعفوية للزاوية الأخرى؛ لكنه كرر نفس الفعلة، حينها تأكدت أنه أراد منعها من المرور، تقلصت عضلات وجهها بشكلٍ منزعج، ونظرت إليه بنظرة مستفهمة حائرة، قبل أن تسأله:

-في حاجة؟

فاستطرد يخبرها بنظراته الدافئة:

-عايزك تعرفي حاجة.

رد بتعجلٍ مقاومة ما يعتريها الآن من مشاعر موترة، وقد ضمت يديها معًا أمامها:

-خير؟

بوجه مرتخي التعبيرات، ونظرات جمعت كل درجات الحب ومستوياتها،
أخفض صوته قائلاً بغموض، جعل النابض بداخلها يتلاحق في دقاته:

-خدتلك حقك من اللي جرحك زمان.

شعب وجهها الخالي من مظاهر الزينة بدرجة ملحوظة، وسألته وهي تنظر
إليه ملء عينيها في توجيس:

قصدك إيه؟

آملت ألا يكون سرها الأخير قد كُشف، هذا الذي أقسمت ألا تبوح به
لغير نفسها، تحفزت في وقفها، وظلت تطالعه بتلك النظرات القلقة وهو
يخبرها:

-اتحاسب على كشفه لسترك، ومش هسمحله يمسك بسوء.

تحيرت في أمره، وسألته بخلق شبه جاف:

-إنت.. بتكلم عن مين؟

لم تتبدل تعابيره وهو يجيبها بهدوء:

-إلي ما يستهلس إنه يكون قريب، إلي خان الأمانة، عشان نفسه المريضة.

برقت عيناها في صدمة، وهتفت تردد اسم أول من تبادر إلى ذهنها بفعلته
الذليلة معها:

- "فضل"؟!

رفع سبابته طالباً منها بلامح منزعة نسيباً:

لسانك أطهر من إنه ينطق اسمه.

سألته في تحفز، وقد ضاقت نظراتها المتوترة:

هو إنت عملت إيه بالضبط؟

تصنع الابتسام ليخفف من حدة التوتر قبل أن يخبرها:

- ولا حاجة، المهم عندي إن محدش يدوسلك على طرف لا زمان ولا
دلوقتي.

كانت مأخوذة بكل ما يفعله لأجلها، ليس لأنه يريد الظفر بلقطة حصرية
تعبّر عن شهامته المفرطة في عالم الذكور الأصيلة، بل لشيء آخر رغبت
وبشدة في معرفة تفسيره الحقيقي، اشتد ضمها لقبضتها، وسألته بأنفاس لم
تكن منتظمة:

- إنت بتعمل معايا كده ليه؟

ظهر الاتفعال على صوتها رغم خفوته وهي تكمل:

حازر مني إيه ؟

أطرق رأسه للحظات كأنما يبحث عن الكلمات المناسبة، لم يعد هناك أدنى
مهرب من المواجهة والاعتراف، عاد لينظر إليها ملياً، قبل أن يتشجع قائلاً:
هاكون أسعد واحد في الدنيا دي كلها لو...

توقف عن إتمام جملته ليظهر التردد عليه لهنية، ألحت عليه "فيروزة"
متسائلة بصبرٍ شبه نافذ؛ وكأنها تنتظر سماع ما تخبأ الحياة لها من سعادة
خفية:

لو إيه ؟

كان لعينها في تلك اللحظات بما فيها من لهفةٍ وترقب أكبر الأثر عليه، لهذا
استجمع "تميم" الهارب من جأشه، وراح يخبرها بوضوح وبجراءةٍ ربما تكلفه
الكثير بعد أن بلغ نهاية الصبر والانتظار:

-وافقتي أتجوزك !!!

.....

الفصل المائة وتسعة وثلاثون

في تلك اللحظة الحاسمة، أخبرها بما يريد حقا، بما يرجو حدوثه منذ أن بزغ حبها في قلبه، اعترف غير نادم على طلبه؛ وإن تعجل تحقيقه، حدث ما حدث، وقد كان للفؤاد الكلمة الأخيرة. رأت "فيروزة" الحب في عينيه، لم تستطع تكذيب ما شعرت به؛ لكنه بادر بالتراجع في خوف محسوس في صوته:

لو هتفضي بلاش تقوليها دلوقتي، خليها بعد فرحتنا بـ "هاجر" ...

حتى هذه الدقيقة لم تستوعب ما دار، كانت في حالة أشبه بالجمود، عاجزة عن الرد أو التعليق، بينما تابع "تميم" بما يشبه الرجاء، وقد شغّ القليل من الحزن في نظراته:

مش عايز أبقي واقف وقلبي مكسور.

قال كلماته ويده موضوعة على صدره، ليشير إلى موضع الألم المعنوي، وجدت نفسها تتأثر به، ورمقه بتلك النظرة المتعاطفة قبل أن تعلق بتلعثم؛ كأنما فقدت قدرتها على ترتيب جملة منطقية مفهومة:

-أنا ... إنت.. أصلاً ده آ...

قاطعها منكساً رأسه بنبرة محملة بالأسى والخذلان:

-سامحيني، أنا غلّطت، وعديت الأصول بكلامي معاك.

ما زالت "فيروزه" مأخوذة بالموقف، فقط نظراتها الحائرة تجول على تعبيراته
لترى مدى المعاناة والتخبط المسيطران عليه، كرر اعتذاره النادم منها
بصوتٍ أقرب للهمس:

-حقك عليا، إنتي غالية ومقامك عالي.

لم يبقَ خافضاً لرأسه كثيراً، تجرّأ على النظر إليها بعينين تحملان أسمى معاني
الحب عندما تابع قائلاً:

-بس لو النصيب جمعنا، فمسيرك آ....

على ما يبدو أن الحظ لم يكن حليفه، فقد جاء جده وقاطعه بصرامة:

-واقف كده ليه يا "تميم"؟

انتبه إليه، وتراجع في توترٍ للخلف ليجيبه:

-ما فيش حاجة يا جدي.

سلط "سلطان" كامل أنظاره على "فيروزه"، وسألها بتعابير تحولت للجدية
بشكلٍ يدعو للاسترابة:

-الواد ده ضايقتك في حاجة؟

هزت رأسها نافية وهي ترد:

٢.. لا.

يايماء مصحوبة بنقرة من عكازه على الأرضية، استطرد "سلطان" يأمر حفيده:

طب انزل شوف أصحابك، بلاش الوقفة دي.

ضغط "تميم" على شفثيه لثانية، ليعقب بعدها على مضض وهو ينسحب متراجعا بظهره للخلف:

-ماشي يا جدي.

صاحبه أنظار "فيروزه" التي ما زالت على وضعيتها المصدومة، إلى أن انصرف كلياً، وغاب عن مرمى بصرها، شتت تحديقها في الفراغ، لتتطلع إلى الجد الذي سألها بقسماته الجادة:

قالك إيه؟

انعقد لسانها، ولم تعرف بماذا تجيبه، لعقت شفثيها، وحاولت التهرب من إجابته؛ لكنه باغتها بقوله المباشر:

طلبك للجواز؟

اتسعت عيناها في دھول، وسألتہ بقلبٍ یخفق فی توترٍ حرج:

هو .. حضرتك سمعته؟

لاحت ابتسامة وقورة على زاوية فمه حين جاوبها بغموض ضاعف من
تلبكها الحائر:

-سمعته، وشوفته، وعارف اللي جواه.

انزوى ما بين حاجبيها في استغرابٍ مستريب، فأكمل على نفس المنوال
الهادئ وهو يشير لها لتتحرك معه:

-بصي يا بنتي، أنا اللي عايزك تتأكدي منه إن مافيش قوة على الأرض
هتجبرك على حاجة مش عايزاها.

توقفت عن المشي لتتطلع إليه بنفس النظرة المليئة بالتردد، فأخبرها مؤكداً
كمن يقرر لا يُخیر:

-إنسي أي كلام اتقالك نهائي، كأنه محصلش.

استنكرت تبسيطه للأمر، وهتفت بقليلٍ من الحدة رغم خفوت نبرتها:

عادي كده؟

أوما برأسه مؤكداً عليها، وتلك البسمة المهدبة تزين محياه:

-أيوه، وأنا بقولها لك لتاني مرة اعتبري طلبه مرفوض.

أصاب قلبها نغزة غريبة، كما شعرت بالتعاسة ترحف إلى داخلها، وهتفت
تخبره، كمن يبحث عن مبرر لإظهار احتجاجها:

-بس أنا مقولتلوش لأ.

حاوطها "سلطان" من كتفيها، واستحثها على السير قائلاً عن ثقة واضحة:

-أنا هقوله بالنيابة عنك، ومش هاخلية يقرب ناحيتك نهائي.

أدارت رأسها ناحيته لتعرض في وجوم غريب:

-بس ..

قاطعها مشددًا بنفس اللهجة الحاسمة:

-أحنا معندناش حد يجبر بناتنا على الجواز.

تعالّت فجأة ضحكته، وأخبرها كأن ما عرفه لم يكن شيئًا يدعو للغرابة:

-تعالى فرفشي كده.

حالة من التخبط والإنكار سيطرت عليها، ظنت أن في اتخاذ القرار عنها
راحة عجيبة؛ لكن شعور الألم العالق بقلبها خنقها، بل وجعلها تدرك بأنها لم
تكن مسرورة بهذا الرأي مطلقًا.

.....

استمرت في منح الرضيع هدهدة لطيفة لتبعث السكينة عليه، حتى استكان بين أحضانها، وغرق في سبات هاني. وضعت "آمنة" يدها على ذراع ابنتها، انتهت لها "همسة"، وتطلعت إليها بنظرة مستفهمة، فأردفت تسألها وسط الضوضاء التي بدأت تسود في الأرجاء:

-أختك مش ظاهرة قصادك؟ شايفها من عندك؟

اشرأبت بعنقها، ودارت بعينها في المكان تفتش عنها، ثم أجابتها وهي ما زالت تنظر بإمعان دقيق في الحضور:

-لأ يا ماما.

هزت "آمنة" رأسها قائلة:

-تلاقيا مشغولة مع العروسة، وإنتي كتر خيرك أعددة بابنها، وواحدة بالك منه.

ضمت "همسة" الصغير إلى حضنها، وأعطته قبلة صغيرة على جبينه الناعم وهي تقول في محبة صافية:

-ده ابنها سكر خالص، ربنا يباركها فيه.

ابتسمت لابنتها، وقالت في رجاء:

عقبال ما أفرح بابتك إن شاء الله.

تهيدة بطيئة خرجت من جوفها، أتبعها ترديدها المتضرع:

يا رب.

عادت "آمنة" لتركز نظرها على "رقية" التي كانت تلهو في مرج مع بعض صغار الجيران، حيث عج بهو المنزل بهم، ولم يرد أصحابه الكرام أي ضيف جاء للتهنئة أو المباركة رغم محدودية الدعوات، استقبلوا كل من جاء بنفس القدر العالي من التقدير والاحترام، فتحولت الصالة إلى قاعة صغيرة مليئة بذوي المحبة الصافية.

أمسك القلق بعقل "آمنة"، ودار في خلدها حوارها الأخير مع "تميم"، ذاك الذي لم يأخذه على محمل الجدية بعد، بدت ملامحها واجمة بعض الشيء، ومالت برأسها على ابنتها تسألها من جديد في تحفظٍ حذر:

-بقولك هو "هيثم" مقالكيش حاجة عن "تميم"؟

نظرت "همسة" إلى والدتها باستغراب، وسألتها:

حاجة زي إيه؟

لم ترغب في إفشاء الأمر علناً، لهذا اختلقت حجة واهية، وادعت بكلام شبه مرتب:

آ.. يعني ناوي يتجوز ولا حاجة؟ ما هو أكيد مش هيفضل كده، اللي زيه
قادر على فتح بيت واتنين.

لم تشكك في نواياها، وأجابتها بسلاسة:

-لأ خالص، مقاليش على حاجة زي كده ..

سرعان ما سيطر الفضول عليها، وسألتها بمكر:

-هو إنتي عارفة حاجة أنا معرفهاش؟

نفت بهزات متتالية من رأسها:

-لأ يا بت، ده أنا بسأل بس.

ادعت الابتسام، لتخفي اضطرابها، لكن ما لبث أن انعكس على ملامحها
في تلك اللحظة المزيد من القلق والخوف، تكلمت مع نفسها بصوت لم
يفارق جوفها:

-لأحسن يكون صرف نظر عن الموضوع!!

زفيرٌ مهموم وثقيل تحرر من رثتها، أعقبها قولها المتحسر بنفس الصوت غير
المنطوق:

عيني عليك يا بنتي، بختك قليل في الدنيا.

لولا أنه انتشله من بين الحضور باستدعائه العاجل له من الأسفل، واحتجزه منفردًا في غرفته ليوبخه على رعونته، لخرج حفيده عن طور عقلانيته، وأظهر مدى ندمه لتسريعه في المطالبة بما لم تكن مستعدة له بعد، وربما لأفسد كل شيءٍ بحماقةٍ غير مدروسة. دار "تميم" حول نفسه، وتساءل بصوتٍ بدا أقرب للبكاء، وهذا اللمعان يتلأأ في حدقتيه:

قالتلك لأ يا جدي؟

عاتبه الجد بتعابير الجامدة وهو يلف عكازه في راحته:

ما إنت اللي متسرع، مش صابر على رزقك.

توقف عن الدوران، ووضع يده أعلى جبينه قائلاً في حزن:

غصب عني، مقدرتش أستنى أكثر من كده ...

ثم سلط أنظاره على جده، وسأله بأنفاسٍ غير منتظمة :

هي رفضت صح؟

هز الجد رأسه نافيًا في هدوء:

-لأ، مقالتش حاجة.

وكان الحياة قد دبت في روحه من جديد، هدأت محاجه المنفعة، وجلس على طرف الفراش مستشعراً تلك الرجفات الخفيفة التي نالت من بدنه، ولسانه يردد:

-الحمد لله.

واصل "سلطان" الكلام بتشديد ملحوظ:

بس لو سمعت كلامي ونفذته بالحرف جازي يجيب نتيجة معاها، وماتقولش لأ بجد.

انتفض ناهضاً من مكانه، وجثا على ركبته أمام جده يتوسله بعينين تستجدياه بشدة:

-أنا رهن إشارتك يا جدي، قولي أعمل إيه وأنا هنفذه بالحرف الواحد.

.....

ساعة أخرى مرهقة في التفكير التحليلي، تخللتها بعض الثثرة النسائية العابرة، تجاوزت معها تارة بكلمات مقتضبة، وفي بعض الأحيان بهزة لطيفة من رأسها، كأنما تشارك في الموضوع؛ لكن عقلها لم يتوقف عن التخمين والاستنباط، والبحث عن الأسباب التي دفعته لهذا الطلب؛ وإن كانت هناك بعض الأمارات الممهدة لذلك، والتي تغاضت عنها طواعية.

حاولت أخذ فسحة من هذا التفكير العميق، والتركيز مع أجواء عقد القران، خاصة حينما احتشد الضيوف في البهو المتسع، والذين كان أغلبهم من كبار تجار السوق، أوحى ثيابهم بهذا؛ لكن عيناها الخائنتان كانتا تفتشان عنه، دارت على الحضور إلى أن وجدته، يقف بشموخ أمام رفاقه، ولدهشتها كان كشخص آخر، وكأنه لم يفصح عن رغبته في الزواج بها منذ وقت قريب. أزعمها جموده، واستفزها بروده الملحوظ إلى حد ما، توهمت أنه سيختلس النظرات ناحيتها، سيتسم لها، ويرسل النظرات الحانية كما اعتاد أن يفعل؛ لكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق!

حينها فقط تيقنت أن الجد "سلطان" نفذ وعده لها، ويا ليتة لم يفعل! فالإحباط تمكن منها. انتهت حواسها للصوت الرجولي القائل باعتزاز:

ده مهر العروسة، وزيادة عليه 100 ألف جنية.

تساءل "بدير" في استغراب:

ليه كده يا "سراج"؟

جاءه رده مليئًا بالفخر:

-بنت الأصول تستاهل أكثر من كده، صح يا حاج "لطفى"؟

أكد عليه الضيف العزيز:

طبعًا، دي ماتتقدرش بمال.

في حين علق "عوف" ممازحًا:

-الجيب ثقيل ويشيل.

أخرج "سراج" من جيب سترته علبة من قماش القطيفة، وضعها على الطاولة التي تنتصف مكان جلستهم مخاطبًا الحاضرين:

-كمان دي هدية بسيطة من أمي للغالية.

أطلقت "ونيسة" زغرودة فرحة، تبعها ترديدها المبتهج وهي تلتفت ناظرة إلى حماة ابنتها:

ماشاءالله، تعيشي يا حاجة.

ردت عليها مجاملة:

-دي حاجة بسيطة، وإن شاءالله نزودها.

تابع "سراج" قائلاً وهو يشير بيده للمأذون الجالس إلى جواره في منتصف الأريكة:

-والمؤخر نص مليون جنية.

رد عليه الحاج "لطفى" بتعابير الهدائة:

-ربنا ما يجيب حاجة وحشة، إنت مناسب أهل الكرم والأصول.

قال مؤكداً عليه:

-ده حقها، ودين في رقبتي.

سرت همهمات إعجاب بموقفه الرجولي بين الحاضرين، بينما استمر "سراج" في إخبار أهل عروسه:

-ومن بكرة بأمر الله العروسة تنزل تختار عفشها إن كانت عايزاه عمولة ولا جاهز، ولو إني أفضل يكون جاهز عشان الوقت.

علق عليه "بدير" في استحسان:

بسبطة .. دي سهل نتفق عليها.

تساءل "عوف" مبتسماً بابتسامة عريضة:

ها، نبدأ يا حاج "بدير"؟

قبل أن يعطيه رده، وجه أنظاره نحو أبيه الجالس في وقارٍ وهيبة يستأذنه في صمتٍ، فأوماً له الأخير بنظرة صامتة، لينطق بعدها:

-اتوكل على الله.

صاح "عوف" مهللاً وهو يرفع كفيه للأعلى:

-سمعونا الفاتحة كده الأول.

.....

منذ أن وقعت العروس على وثيقة الزواج، تحول المكان إلى خلية نحل، الكل يتعاون معًا لإحضار الطعام والحلوى لكافة المدعوين، ممن تم دعوتهم بشكل مباشر، ومن جاءوا للمجاملة دون دعوة مسبقة، تعاملوا مع الجميع بسواسية وبنفس التقدير. انفردت "فيروزه" بنفسها في المطبخ، بعيدًا عن الصخب السائد بالخارج، يكفيها قرع الطبول الدائر في رأسها، لتزيده بغيره. أرادت التنفيس عما تكبته حاليًا من مشاعر متصارعة، فلم تجد سوى طبيبتها، لهذا لم تتردد في الاتصال بها.

سحبت المقعد، وجلست عليه أمام طاولة المطبخ المستديرة، استهلت مكالمتها معها قبل أن تتطرق لأي شيء:

-إزيك يا دكتورة "ريم"؟ أنا أسفة إني بتصل بيكي في الوقت ده.

أأها صوتها مرحبًا وودودًا:

-أهلاً بيكي يا "فيروزه"، لا يا حبيبتي، اتصلي بيا في أي وقت إنتي محتاجاني فيه.

ضغطت "فيروزه" على أناملها وهي تجربها بنبرة شبه متوترة:

-أنا عازمة أقابلك ضروري، ممكن تحديدلي ميعاد قريب؟

ردت عليها غير ممانعة:

-حاضر، هشوف بس مواعيدي، وأبعثك رسالة بالميعاد.

ألحت عليها بنفس التوتر الظاهر في صوتها وتعبيراتها:

-يبقى كتر خيرك يا دكتورة، بس ضروري جدًا يكون قريب.

دون أن تتغير نبرتها الهادئة أخبرتها:

-حاضر، دقائق وهايكون عندك الرد.

أنهت معها المكالمة واضعة يدها على جبينها، لتستند على مرفقها وهي تفرك
بيدها الأخرى عنقها المتيبس، أطبقت على جفניה للحظات محاولة
استدعاء لمسة من السكينة؛ لكن تبددت أمنيتها البسيطة مع صوته
المألوف الذي بدا قريبًا منها، ففتحت عينيها في جزع، ونظرت مصدومة
أمامها. كان "تميم" يوليها ظهره، يتحدث هاتفياً بصياح:

-لأ خلاص.

تجمدت في مكانها وهي تتلفت سريعًا حولها، كان الاثنان بمفردهما في
المطبخ؛ لكنه لم يدرك بعد أنها متواجدة معه، قفزت علامات الاستفهام إلى
رأسها عندما استمر "تميم" في مكالمته قائلًا:

-أنا ماينفعش أجبر واحدة على الجواز، حتى لو كنت عاوزها.

وخزة مباغثة آلت صدرها مع كلماته الأخيرة الصادمة، مما جعل أنفاسها تضطرب، وصدرها ينهج في توترٍ خائف. تدلى فكها السفلي للأسفل، واتسعت حدقتها أكثر وهو يتابع في صوتٍ أظهر انكساره:

-يمكن نصيبها مع حد ثاني أحسن مني.

لا يمكن التشكيك مطلقًا أنها كانت المقصودة في حديثه الغامض مع أحدهم، لن تنكر أن نزعة الأنثى المغترّة بنفسها لكونها مطلوبة في عالم الرجال ثارت بداخلها، ورغم هذا لا تقارن أبدًا بشعور الخوف الذي انتابها في نفس اللحظة من قراره بابتعاده المحتوم عنها. سحب "تميم" نفسًا عميقًا، لفظه على مهل وهو يواصل مخابرته الغامضة:

-ربنا يسعدها، أنا مش هظهر في حياتها، عشان مايتقالش إني بضغط عليها.

نغزة وراء أخرى عصفت بقلبها، حتى كاد من شدة الوخزات أن يتمزق خوفًا. بدأت الدموع في التجمع بمقلتيها تأثرا باعترافاته المليئة بالكدر والألم، بالكاد منعت شهقة من الإفلات من بين شفتيها وهو يضيف في حزن شديد الوضوح:

هي تستاهل كل خير .. مش مهم أنا، أمرها أهم عندي.

تعاظم بداخلها الشعور بالضيق، والخوف. لم تعرف ما الذي أصابها لتخشى
فقدانه، وتهاب في نفس الوقت اقترابه، هذا التذبذب الخطير في مشاعرها
كان مربكاً وموترًا. ابتعد "تميم" عن محيطها قائلاً دون أن يستدير وهو يضع
يده الأخرى على أذنه:

مش سامعك، الشبكة وحشة باين.

تصاعد الألم واشتد في صدرها، فلم تعد تطيق تحمله، كان مُطبقاً عليها،
أحست باختناق الأجواء من حولها، لمجرد تردد صدى ابتعاده عنها في
عقلها، وكأنها تستنكر عليه اختياره الإرادي، نهضت من مكانها باحثة عن
الماء لتروي هذا الظمأ الغريب الذي نال من حلقها، ارتعشت يدها وهي
تمسك بالكوب الزجاجي، رفعته إلى فمها، بللت جوفها، وأخفضته بنفس
الأنامل المرتجفة، لتتساءل بعدها بصوتٍ شبه لاهث؛ لكن يطغى عليه
الخوف:

-أنا مالي، مضايقة كده ليه ؟!!!

.....

الفصل المائة وأربعون

كان جسدها غير ثابت، ويهتز في رعشة خفيفة، استندت بيدها على حافة الحوض بعد أن غسلت الكوب وأعادته إلى مكانه، جاهدت لإيقاف تلك الرجفة الموترة لها، ونكست رأسها وقد أغمضت عينيها لبعض الوقت. رنين وصول رسالة ما بهاتفها جعلها تستقيم واقفة، قرأت فوها سريعاً، كانت لموعد تم ترتيبه للقاء طبيبتها، ابتسمت في ارتياح، وأحنت رأسها على صدرها للحظة مقاومة محاولة استحواذ تفكيرها عليه.

انتفض كامل جسدها مع اللمسة المباغثة على كتفها؛ كأن تياراً كهربياً صعقها، نظرت "فيروزة" إلى جانبها، فوجدت "ونيسة" ترمقها بنظرة حنون وهي تسألها:

إنتي كويسة يا بنتي؟

اعتدلت في وقفها، ثم أجابتها وهي تتصنع الابتسام:

أه.. الحمد لله.

أشارت لها بيدها، ودفعتها برفق نحو المقعد الذي كانت تجلس عليه قبل قليل تدعوها:

حطب تعالي اقعدي هنا شوية.

رغم تجاوبها معها إلا أنها أكدت لها حتى لا ترتاب بأمرها:
أنا تمام.

أخبرتها "ونيسة" وهي تعبت بأغراض المطبخ في خفة وسرعة:
-استني أعملك شوية ليمون تروقي بيها دمك، إنتي تعبانة معانا بقالك كام
يوم.

احتجت في تهذيب:

-شكرا يا طنط، أنا بخير والله، ماتقلقيش.

التفتت تنظر إليها في دفء قبل أن تقول:

-ده ليا وليكي، حاجة نظري بيها على قلوبنا.

في أقل من دقيقة كانت "ونيسة" قد انتهت من إعداد مشروب الليمون
الطازج، أفرغته في كأسين نظيفين، وقدمته إلى "فيروزة" لترد الأخيرة شاكرة
إياها في لطف. جلست بعدها إلى جوارها، واستطردت قائلة بعد زفير
سريع:

-شوية وهتلاقي الرجل خفت من عندنا، الناس ماشاءالله قايمة بالواجب.

علقت عليها "فيروزة" بابتسامة رقيقة:

-ربنا يديم عليكم الفرحة.

أمنت عليها في رجاء معكوس في نظراتها للأعلى:

يا رب يتمها على خير.

عمّ الصمت لهنية إلا من الأصوات الخارجية، قطعته "ونيسة" باسترسالها
العفوي، وهذا البريق الحزين يكسو حدقتها:

تعرفني إن دي أول مرة نقرح فيها أديلنا مدة.

انتبهت "فيروزة" لقولها باهتمام، واستمعت لها بأذان صاغية عندما أكملت
بنفس النبرة المطعمة بالشجن:

من ساعة ما حصل الي حصل، والحال اتبدل مع عيالي، وبقي الحزن
والهم معششين هنا، فقدت الأمل إنهم يشوفوا الفرح ثاني، بس سبحان
الله، دوام الحال من المحال.

خُيل إليها أن أذنبا التقطت نهضة بكاء مكتومة منها، أخفتها "ونيسة" سريعًا
لتقول وهي تبتسم رغم الدموع التي تطفر من عينيها:

-ربنا جبر بخاطر بنتي، وعوضها بجدة يستاهلها بجدة.

امتدت يد "فيروزة" لتربت على ساعدها، وقالت في محبة:

هي طيبة وبنت حلال.

بتلك النظرة المغلفة بالود تطلعت إليها "ونيسة"، وقالت:

-زيك كده يا بنتي .. ما تتخيرش عنك.

أثنت على ما اعتبرته تقديرًا لها، فردت:

-ربنا يكرمك يا طنط.

أضافت "ونيسة" على مهلٍ، بعد أن سحبت نفسًا عميقًا أرادت به تخفيف حدة مشاعرها المتأثرة:

-تعرفي، على أد ما أنا فرحانة إنها هتروح لبيت العدل، بس زعلانة إنها هتفارقني، دي كانت واخدة بحسي هي وابنها.

لامست بيوحها الأمومي قلبها، شعرت وكأنها تخاطب فردًا من عائلتها، لا مجرد ضيفة عابرة، تلك المشاعر الفياضة التي اختبرتها بداخل جدران هذا المنزل كانت كفيلة بتعويضها عما افتقدت إليه من مشاعر أسرية مخضبة بالدفء والأمان. حركت "فيروزه" يدها صعودًا وهبوطًا على طول ذراع مُضيفتها، ودعت لها:

-ربنا يبارك فيهم وتملى البيت عليكى بالأحفاد.

مسحت "ونيسة" ما انساب على وجنتيها من عبراتٍ لتقول بابتسامتها الصافية:

يا رب، وعقبال ما نفرح بيكي إتي كمان.

تلك الكلمات التلقائية أصابتها بالخوف والتوتر، سحبت يدها ببطء وضممتها إلى كفها الآخر لتشبكها معاً، ثم علقت بوجه واجم:

-كل شيء قسمة ونصيب.

هزت "ونيسة" رأسها مرددة عن يقين غريب:

خصييك مسيره هايحي، وأنا حساه هايكون قريب.

سرعان ما اصطبغ وجهها بحمرة مريية خجلة، فنهضت واقفة وهي تحمل الكأسين قائلة ببسمة مرتبكة:

تسلم إيدك على اللمون.

نهضت "ونيسة" بدورها، وهتفت في لباقة:

-على إيه يا حبيتي، سيدهم أنا هغسلهم.

قالت في إصرارٍ شبه معاند:

-لا ما يصحش، دي حاجة بسيطة.

اتجهت إلى الحوض لتعيد تنظيف الكأسين، ودقات قلبها تتسارع في بهجة غريبة، للمرة الأولى تشعر كما لو كانت تتحرك في منزلها، في مكان غير غريب عنها، لا يوجد من ينافقها، ولا من ينبذ قريها، بل كانت مرغوبة وبشدة، الكل يتسابق لإراحتها، بل وتتعامل بعفوية وتلقائية .. كم بدت تلك اللحظات مريحة وممتعة!

.....

ما إن بات قادرًا على الحركة بثبات، حتى نهض من رقدته الذليلة في فراشه، وقد حسم أمره بشأن هذا المقيت الذي جلب عليه العار والشماتة، وهو في آخر أيامه، وجوده أصبح غير مرحب به، بل كان من اللازم تقيعه وتأديبه بصرامة ليعود إلى رشده، ويتعلم كيف يكون رجلاً بحق. أمسك "إسماعيل" بعكازه، واندفع خارجًا من حجرته يتساءل بلامح مكفهرة، ونبرة خشنة:

-البغل فين؟

هبت "سعاد" واقفة من على الأريكة، وأسرعت ناحيته تسأله بنظرات فزعة:

-رايح فين يا حاج؟

مسح المكان بنظراته، وسلط عينيه عليها مكرراً سؤاله بإهانة واضحة:

-الطحش ابنك فين؟

بلعت ريقها، وأجابته وهي تشير بيدها نحو باب غرفته:

-ن .. نايم جوا، إنت عايزه ليه؟

أخبرها بوجه غائم للغاية:

-مالقوش قعاد هنا!

لطمت على صدرها شاهقة في جزع:

-بتقول إيه يا حاج؟ يعني إيه؟

هدر بها بصوته الصارم:

-اللي سمعته، وحاسبي من قدامي.

دفعها نحو الجانب ليتجاوزها وهو يصيح عاليًا:

-إنت يا راس الخروف!

ركل الباب بقدمه بعد أن فتحه، ليهدر مجددًا وهو يسلط أنظاره على ابنه

النائم في فراشه كالموتى:

قوم يا عجل!

انتفض "فضل" في ذعرٍ، ليتطلع بنظراتٍ مشوشة لوجه أبيه، ثم جفف
بظهر كفه اللعاب السائل على زاوية فمه، ليتساءل بعدها بصوتٍ ثقيل، ما
زال يشوبه النعاس:

-في إيه يابا؟

حدجه والده بنظرة مشمزة قبل أن يأمره بغلظة:

قوم غور من هنا.

حملق فيه مدهوشًا بعد أن طار من عينيه أثر النوم، وهتف في صدمة:
نعم.

لوح "إسماعيل" بعكازه أمام وجهه وهو يقول بلهجته المتشددة :

خد نجاستك، وقرفك، واطلع برا بيتي الطاهر!

أخفض "فضل" ساقيه عن الفراش، ونظر إلى والده مصدومًا، ليردد بعدها
في عدم تصديق:

-إنت.. بتطرديني يابا؟

ضربه والده بطرف عكازه في عنفٍ وهو يوبخه:

-أيوه، طالما معرفتش أريبك، ولا نافع فيك نصيحة، ولا حتى بتتهد وعامل لكبيرك قيمة، يبقى تغور من بيتي.

حاول تفادي الضربات المتلاحقة على جانبيه مستغنياً بوالدته:
الحقي يامه.

تدخلت للحول بينهما، فهتف "إسماعيل" بلهجة أشد صرامة:

-أمك مالهاش دخل، أنا هنا صاحب الكلمة في بيتي.

حاولت إقناعه بتغيير رأيه، ومنحه فرصة أخرى، فاستعطفته بنبرة شبه باكية:

يا حاج ده ابنك، سندك، وآ...

لم يدعها تكمل، وزجرها مقاطعاً في غلظة، وهذه النظرة المخيفة تحتل عينيه:

-ولا كلمة وإلا هتحصليه!

رضخت أمام سطوته البائنة، وانخرطت في بكاءٍ مرير، علّ هذا السلاح الأثوي يأتي بمفعوله معه، تجاهلها "إسماعيل"، وحول أنظاره القاسية نحوه ابنه يخاطبه بشدة :

-روح شيل مسئولية نفسك، واتعلم تبقى راجل بجد، مش نطع، نجس،
مخلي راسنا في الأرض.

حرك شفتيه ليرد باستجداء زائف:

يا بابا ده أنا ماليش إلا إنت.

وكأن شأنه لم يعد يهمه، هدر به في جمود:

غور في داهية.

تبدلت تعابير "فضل" للقتامة، ورمق أيه بنظرة نافرة قبل أن يقول في
وجوم:

-بقي كده بابا، دي آخرتها؟

لم يطق سماع ترهاته السمجة، وصاح في حدة:

-يالاً من هنا .. مش طابق أشوف وشك ولا أسمع حسك.

أريدت قسما ابنه بالمزيد من الحق، وتصاعد الغضب في نظراته إليه،
ليندفع قائلاً بأنفاس منفعة:

ماشي يا حاج "إسماعيل"، أنا طالع من بيتي.

ركضت خلفه "سعاد" لتستوقفه وهي تناديه:

-استنى يا "فضل".

دفعها في قوة من كتفها حتى كاد يسقطها وهو يهتف في غيظ:
-حاسبي يامه.

لم يرأف "إسماعيل" بزوجته التي واصلت التوسل له:

-حرام عليك يا حاج تعمل فيه كده، ده ابنك بردك وآ...
قاطعها في حدة وهو يشير بسبابته:

-الحرام إني أسكت عن الغلط، عاوزة بعد العمر ده كله الناس تقل مني
عشان وساخته؟ كل واحد يشيل شيلته!

ارتفع صوت نحيب "سعاد" وهي تنادي على ابنها بعد أن أبصرته يسير
بخطوات شبه عرجاء:

- "فضل" .. ابني!

نظرة حائقة سددها "إسماعيل" لابنه دون أن يبدو على قسماته دليلاً
للندم، وهو يدمدم في غل:

منك لله، ضيعت تعب العمر على الفاضي.

قبل موعدها بنصف الساعة كانت متواجدة في استقبال عيادتها، جلست في هدوء تام بعد عبارات ترحيبية مقتضبة مع السكرتيرة، فركت أناملها معًا، ونظرت لمن حولها بنظرات قلقة، لحسن حظها كان المكان شبه خالي، فقط شخص ما جاء بعدها. تقدمت نحوها السكرتيرة لتخبرها بالاستعداد للقاء طبيبتها بعد 10 دقائق، فتأهبت في جلستها، وتطلعت إلى الباب المغلق بنظرات طويلة متأملة؛ لكن في الواقع كانت مستغرقة في تفكيرها الشارد.

يومان انقضا عليها منذ طرحه لعرض الزواج الغريب، لم يظهر مطلقًا في الأرجاء، كأنما اختفى من على وجه البسيطة، ليتأكد لها تنفيذ ما أخبرها به الجد "سلطان"، بأنه لن يزججها مجددًا، ولن تلمحه في محيطها، وهذا ما أصابها بالإحباط والجنون في نفس الوقت. الإحباط لأن في هجره المريب عذابًا لا تستطيع تحمله، والجنون لأنها أصبحت تفكر فيه أكثر من المعتاد بمراحل أوحث لها بشيء تخشى الاعتراف به حتى بينها وبين نفسها.

كانت بحاجة ماسة للإفراج عن الأفكار المتناطحة في رأسها، إسكات الأصوات المنتشرة في عقلها، وأيضًا مناقشة ما تفكر فيه مع من يقدر على استيعاب تخطيطها المرهق لأعصابها. نهضت متحركة في اتجاهها بعد نداء السكرتيرة لها، طرقت الباب بطريقة خفيفة، ثم استأذنت بالدخول. مكثت صامتة بعد ترحيب ودود، تحاول ترتيب أفكارها، أيًا منهم ستفصح عنه أولاً.

عاوتها "ريم" في تسهيل انتقاء ما ترغب في الحديث عنه في البداية، وقامت بتمهيد النقاش وإدارته بشكلٍ خبير استحثها على الإفراغ عن مكنونات صدرها بسلاسة ويسر. حينئذ سألتها مباشرة:

-إنتي رفضاه هو شخصيًا، ولا مش عايزة مبدأ الجواز نفسه؟

وضعت "فيروزه" يدها على مقدمة رأسها، وأجابتها في ترددٍ واضح:

مش عارفة.

انتقلت "ريم" للجلوس في مواجهتها، وضغطت عليها برفق:

يا "فيروزه" لازم تحددى.

انكمشت في جلستها، وتضاعفت رجفتها وهي تعترف لها بعد صمتٍ قليل:

-أنا خايفة.

مالت نحوها، ووضعت يدها على ركبتيها متسائلة بتعابيرها الهادئة:

خايفة من إيه بس؟

تهدل كتفها، وتوقفت عن الضغط على أصابعها لتخبرها:

من حاجات كثير.

أراحت "ريم" ظهرها للخلف، ولم تحد بنظراتها عنها وهي تطلب منها:
قولي حاجة واحدة بس من الحاجات دي، عشان أقدر أساعدك نواجه
اللي إنتي خايفة منه.

ثم شبكت كفيها معًا، وتابعت ببساطة:

غير كده هنفضل عند نقطة الصفر.

الهروب، ثم الهروب، والمزيد من الهروب لم يعد يجدي الآن، بل بدا وكأنه
قد تحول لطوق يخنقها، يطبق على أنفاسها، يُحيل حياتها إلى جحيم مستمر،
يمنعها من الانطلاق، من استعادة ما افتقدته وتفتقده. أرادت التحرر من
شوائب الماضي ورواسبه؛ لكن لن يتحقق ذلك دون إرادة حقيقية منها،
عليها أن تهدم الجدران التي تخفي خلفها سرها المؤلم. وقفت "فيروزة" عند
مفترق الطرق، وقررت ألا تدع الماضي يتحكم بها، لهذا جمعت جأشها،
وراحت تتكلم في تلثمٍ أظهر مدى الصراع الذي تخوضه في رحلتها نحو
الخلاص:

يا دكتورة، أنا .. من وقت ما اتجوزت "آسر"، وأنا زي ما أنا.

حل اللغز عندها؛ لكنها لن تفصح عن ذلك إلا بعد أن تنهي اعترافها
بنفسها، حافظت "ريم" على جمود تعبيراتها، فكان وجهها غير مقروءٍ لها
وهي تستطرد متسائلة:

-مش فاهمة، يعني إيه الكلام ده؟

عضت على شفتها السفلى، وازدردت ريقها، لتخبرها بتوتر كبير، وعيناها تنظران للأسفل في نقطة وهمية تركز عليها:

-أنا لسه .. بنت ...

تحلت بالصبر، ولم تقاطعها، منحتها كل الوقت الذي تريده لتكمل توضيحها بألم محسوس في صوتها، وظاهر في ملامحها:

-لأن العيب فيا، فمش عايزة أخوض نفس التجربة، وأعيش نفس إحساس الألم، والذل، وفي الآخر اتساب وآ...

قاطعتها "ريم" قائلة في ثباتٍ وهدوء، وكامل نظراتها عليها:

-ومين قال إنك إتي السبب مش هو؟!

اشتدت تعبيراتها ألماً، كما اختنق صوتها إلى حد كبير وهي تجيبها:

-عشان دي الحقيقة، أنا نص ست، مش..

استخدامها للغة الانهزام لم يكن مجبداً في حوارهما، لهذا عمدت "ريم" إلى مقاطعتها لتصحح بتأكيد:

-ماتكمليش، إتي جميلة من جوا قبل برا، مش ذنبك إن حد طلع عيوبه عليك.

سمعت نهضة بكائها الوشيك وهي تعقب عليها:

يا دكتورة دي الحقيقة.

ردت محتجة بجدية تامة:

-لأ إتي غلطانة.

لم تكن "فيروزه" مقتنعة بعباراتها المستهلكة على الأذن لبث الدعم، وتعزيز روح المقاومة بداخلها، نظرت لها باستخفاف وهي تخبرها بكلمات غامضة:

-ولعلمك، ودي يمكن الحاجة الوحيدة اللي إنتي متعرفيهاش عنه، على عكس الباقيين.

ضاقت نظراتها في استرابه، فتابعت "ريم" بوجه ما زال على جدية تعبيراته:

- "آسر"، مش زي ما إتي فاكرة يا "فيروزه".

رمقتها بنظرة مليئة بالشك وهي تسألها:

-يعني إيه؟

لم تهتز نظراتها المثبتة عليها وهي تُعلمها:

- "آسر" عنده مشكلة كبيرة، ومن زمان، ومكانش اتعالج من الأساس منها، بالعكس كانت وسيلته لحاجات ثانية حقيرة.

أحست بسحابة من الغباء تغيم على تفكيرها، فقالت في يأس:

مش فهمي يا دكتورة، إنتي عايزة تقولي إيه؟

استنشقت "ريم" الهواء بعمق، ولفظته على مهل، لتشخذ قواها للقادم، فهو يحتاج كل تركيزها للاعتراف به بأسلوب رزين، ليسهل على عقلها تقبله، وفهمه. حلت الصدمة على تقاسيم وجه "فيروزة"، أربكها تدافع الاعترافات الصادمة، وشوش ذهنها، شردت في ذكريات الماضي كأنما يتم إعادة تجسيد ما خاضته بشكل سريع ومتواتر، مما جعلها في حالة جمود لحظي؛ كأنما انفصلت عنها بذهنها لا بجسدها، لترى هذه النظرات الدونية المستحقرة وهو يسددها لها، ليس لأنه الكسير المنهزم، بل لتحميلها ما لا تطيق لإخفاء تشوّهه.

لا تستطيع "فيروزة" وصف مشاعرها في تلك اللحظة، فهي خليط من الحقد، الكراهية، والغضب. كيف سمح لنفسه بخداعها بتلك البشاعة؟ يجعلها تُعايش أسوأ الذكريات؟ بتدمير بساطة أحلامها الوردية عن الزواج والاستقرار؟ والأفزع أن يهشم روحها بلا ذنب! انقبض قلبها بقوة، واستبد به الألم، لهث صوتها وهي تنطق بصعوبة:

-معقولة؟

واصلت "ريم" الكلام معها بترث:

-كل الأوهام اللي عيشك فيها كانت مجرد وسيلة عشان يغطي بيها على عجزه، خدعك بالكذب وبالحيلية، واستغل وجود شيء عندك لصالحه، بحيث يطلعك إتي السبب، ويداري على نفسه.

كان صوتها مشروخًا ونظراتها غريبة وهي تسألها لتتأكد أكثر:

-يعني كل ده كذب؟

ردت بنفس النبرة القوية الهادئة:

-كذب وتضليل وخداع ليكي، زي ما خدع اللي قبلك، وأظن إنك عارفة إنك مكوتنش أول واحدة في حياته، ضحية ضمن ضحايا تانيين وقعهم في شباكه.

لم تنكر أن إحساس الثقل الذي جثم على صدرها لوقتٍ طويل قد خبت تدريجيًا، حتى باتت تشعر بالارتياح يحل محلها. نهضت "ريم" من مكانها، وتحركت مقتربة منها لتحادثها بهدوء، وبين شفيتها بسمة صغيرة:

صدقيني إتي طبيعية، ولما هتتجوزي هتتاكدي من ده، إنك كاملة من كل حاجة.

ظهر على وجهها علامات الحزن وهي تخاطبها:

-أنا مبعثش عارفة حاجة.

وضعت يدها على كتفها تضغط عليه قليلاً وهي تستحثها:

- "فيروزة" ارمي الماضي ورا ضهرك بكل القبح والتشوه اللي فيه.

ما زالت الأخيرة محدقة أمامها بنظراتها التعسة المصدومة، بينما استمرت "ريم" في دَرْء الغشاوة الحاجة لرؤية ما ينتظرها من آمال واعدة بترديدها الواصل:

-دي صفحة اتقفلت في حياتك، ابدأي من جديد، وركزي في الحاضر والمستقبل.

واصلت الضغط بقبضتها على كتفها وهي تقول بعزم باعث على التفاؤل:

-بهي حوالكي، ما جاز موجود فعلاً اللي بيحبك لشخصك إتي، وعائزك كده زي ما إتي.

رفعت "فيروزة" رأسها لتنظر إليها في ضعف وهي تكرر:

-أنا؟

هزت رأسها بالإيجاب وهي تؤكد من جديد بحماس متزايد:

-أيوه، إتي تستاهلي الأفضل، إتي أكيد غالية عند حد معين، بس مش منتبهة لده.

تحرك بؤبؤاها في توتر ملحوظ، حيث امتلأ فراغ عقلها بصورة لـ "تميم" وهو يردد على مسامعها جملة قلبت كيائها، خفق قلبها للذكرى، وشعرت بتسارع دقاته. انتهت لـ "ريم" وهي تردد على مسامعها بنفس الابتسامة المؤكدة:

-الحد ده موجود قصادك دايماً، يساعدك من غير شروط، عايزك معاه، تكوني جمبه، وإتي مش واخدة بالك منه ...

اتسعت ابتسامة "ريم" بشكلٍ لافت وهي تصح عن قصد:

-أو خلينا نقول مش عايزة تديله فرصة، وتقربي منه.

كانت قادرة على النفاذ إلى داخل رأسها لتقرأ ما يدور بداخله، أمامها كانت مكشوفة الأوراق، لا تحتاج للاختباء وادعاء ما ليست عليه .. زمن اجترار الآلام في صمتٍ قد مضى! سارت "ريم" عائدة إلى مقعدها، وجلست من جديد في مواجهتها، نظرت إليها مباشرة قبل أن تخبرها بنبرة ثابتة:

- "فيروزة" إتي كنتي شجاعة كفاية عشان تواجهي كل ده لواحدك، وهاتبقي أكثر حد يستحق السعادة لو بس قررتي ده.

اعتبرت لقاءها معها - بما شمله من تداعٍ حر هذه المرة- إشارة صريحة لانقضاء فترة الأحزان الراسخة في حياتها، لن تنسحق بين رحي الماضي وأوهامه، لن تبقى أسيرة أكذوبة أجبرها على العيش تحت وطأة ذلها، وتصديقها لعلّة فيه لا فيها. اعتلى ثغر "فيروزه" ابتسامة نمت عن ثقة كبيرة استعادتها، لتومئ بعدها برأسها وهي تتكلم أخيراً، وطيف وجه "تميم" يحتل فضاءات خيالها:

معاًكي حق، أنا استاهل الأفضل !!

.....

بين الحقول المتفاوتة في مساحاتها ومزروعاتها، تنقل بغير حماس في معظم الأوقات، مع من جاء بصحبته، لاكتساب خبرات جديدة خلال اتفاقات التجار الأولية مع أصحابها. كانت الكلمة عقد، والعقد في عرفهم يعني التزامًا كاملاً لا يفضه إلا الموت. صعد "تميم" إلى عربة النصف نقل، وجلس إلى جوار السائق ناخلاً بزفير مرهق، فاليوم هو العاشر له منذ أن طلب منه جده تنفيذ خطته في الابتعاد الاضطراري، والاختفاء غير المبرر عن محيط مهجة قلبه.

كان ينكوي بآلم الحب وهو يدعي كذباً خلال تواجدها بالمطبخ، أنه لن يضغط عليها للموافقة على طلبه بناءً على ما أخبره به جده. لم يكن ليمانع مُطلقاً باتخاذ كافة السبل، بفعل المستحيل، فقط لينال محبتها؛ لكن على ما يبدو السبيل إلى قلبها كان مخفوقاً كالعادة بالمشاق. عاد "تميم" من شروده على صوت الحاج "لطفی" القائل من مسافة قريبة منه: تعبناك معانا.

استدار برأسه ناحيته، وهمّ بالترجل من العربة لولا أن أشار الأخير له ليبقى، ثم علق بابتسامة باهتة:

-لا متقولش كده يا حاج.

ابتسم له "لطفی" وهو يتابع ملوحاً بذراعه في الهواء:

-جـدك موصيني تأخذ خبرة، ما هو ياما كان يطلع معانا الطلعات دي.

حك "تميم" مقدمة جبينه معلقاً في تعجب:

-الصراحة أنا شوفت فروقات في السعر كبيرة عما بنشتري من سوق الجملة.

أوما برأسه مكماً في تفاخر:

-أيوه، في ناس حبايننا، من زمن الزمن بيوعلنا، وطبيعي يكرمونا في
السعر، وإن شاء الله الزرعة كلها لينا لما ربك يطرح فيها البركة.

هتف في استحسان:

-الله يكرمنا جميعاً.

خاطبه "لطفی" وهو يسير متجهاً للعربة الأخرى:

-احنا هنريح في الطريق حبة، وبعد كده نكمل مشوارنا.

هز رأسه معقياً:

-ماشي يا حاج.

ثم طرق بيده على باب العربة مُحدثاً السائق:

-بيننا ياسطاً.

بدأت العربات في التحرك واحدة تلو الأخرى على الطريق الفرعي غير
المُعبد، ليتجهوا جميعًا منه إلى الطريق الرئيسي.

.....

بعد نصف ساعة من القيادة في قيظ النهار الحار، والمرور على بضعة
مزارعين ممن اتفقوا على الاجتماع بهم، توقفت كافة العربات بالقرب من
إحدى الاستراحات المقامة على الطريق. ترجل "تميم" من عربته، ليلقي
نظرة شاملة على المكان، وقعت أنظاره على إحدى الشاحنات التي بدت
مألوفة له، سرعان ما تشكل على وجهه المتعب ابتسامة مشرقة، ليلتفت
بعدها ناظرًا إلى من خاطبه بودٍ وحمية:

-سبحان من جمعنا من غير ميعاد.

امتلات نظرات "تميم" بالفرحة لرؤية رفيقه المقرب "منذر" يفتح ذراعيه
لاستقباله، أقبل عليه يحتضنه قائلاً:

حبيبي.

بادله التحية الحارة، وتراجع عنه متسائلاً في اهتمام:

-عامل إيه يا سيد المعلمين؟ جاي النواحي دي ليه؟

أجابه وهو يحاول حجب أشعة الشمس عن عينيه:

-شغل بخلصه مع رجالة السوق ...

ثم سألته:

-بس إنت بتعمل إيه بعيد عن الوكالة؟

وضع "منذر" نظارته على عينيه، وأجابته:

-ثقة بوردها لوكيل لينا ماسك الناحية دي.

أشار "تميم" بيده نحو الأمام متابعًا:

خلينا نقعد جوا.

رد مشرطًا عليه:

-ماشي، بس المشاريب على حساي، إنت وكل اللي معاك تعتبروا في منطقتي.

ضحك قائلاً في سرور:

-مش هردك

تحركا معًا نحو إحدى الطاولات الفارغة، وأشار "تميم" للعامل ليأتي للمتواجدين معه بما يريدون، ثم يحضر له كوبًا من الشاي. تساءل "منذر" وهو يتطلع إلى رفيقه بنظرة مستفهمة:

-إيه جديك؟

تقلصت المسافة ما بين حاجبيه متسائلًا:

-جديدي في إيه؟

ابتسم "منذر" موضحًا له:

-مش ناوي تكمل نص دينك.

تهد على مهلٍ قبل أن يجيبه:

-ربنا يسهل.

مازحه في تسلية وهو يلكزه في ساعده:

-ولا خايف تتجوز ثاني؟

قال نافيا على الفور:

-لا مش كده، بس لسه ربنا مأذنش.

أعطى "منذر" بقشيشًا للعامل الذي أحضر- له زجاجة مياه معدنية،

وواصل الحديث معه:

-لعلكم أنا و أنت فينا حاجات كثير شبه بعض، اتجوزنا قبل كده، حرمنا
اتأخذوا غدر.

رد عليه "تميم" بتعاير فاترة:

-الله يرحم الجميع يا رب.

أمن بعده في تعجل:

يا رب.

ما لبث أن بدت نبرته مليئة بالفرحة وهو يكمل:

-بس عايز أقولك عوض ربنا كان حلو، وكله خير.

تقوست شفتنا "تميم" عن ابتسامة صغيرة، بينما استمر "منذر" في كلامه
مسترسلاً:

-الواحد صبر، واستحمل، رغم إن كان نفسي أخط على ابن "أبو النجا"
بعد اللي عمله.

عادت ملامح "تميم" للتجهم وهو يقول:

-سمعته كانت سبقاه في اللومان.

ضاقت عيننا "منذر" معقباً بجذر:

-بلغني إنك اتعاركت معاه جوا.

بنوع من العنجهية أوضح له، وقد لاحت بسمة ساخرة على زاوية فمه:

-كثير، في الرايحة والجاية، مكوناش سايين بعض لحد ما اتنقل .. فضنا منه، المهم كله عندك تمام؟

بدا "منذر" كما لو كان على وشك تقبيل راحة وظهر كفه وهو يردد:

-الحمد لله .. رضا، مافيش بعد كده.

ربت رفيقه على كتفه قائلاً في حبور:

-ربنا يزيدك من كرمه.

ارتشف "منذر" ما تبقى في كوبه، ليخبره، وهذا الوجه الغريب يطل من حدقتيه:

-تعرف، اتقابلت أول مرة أنا ومراتي في مكان زي كده، لو أقولك على الفصل البايع اللي اتخطينا فيه، بس الحمد لله عدت على خير.

حافظ "تميم" على جمود تعايره وهو يخاطبه:

ما محبة إلا بعد عداوة.

ضحك عاليًا بعض الشيء قبل أن يقول وسط ضحكاته في سعادة لا يمكن إنكارها:

-مافيش أحلى من كده محبة.

ساد الصمت للحظاتٍ قبل أن يقطعه "تميم" قائلاً في غموض:

-صحيح عارف الحاج "إسماعيل"، صاحب الحاج "فتحي".

أكتست تعابير "منذر" بالجدية وهو يسأله:

-أيوه، ماله؟

هتف يخبره في سخطٍ:

-لو أقولك على ابنه، الصراحة يخليك تجيب من الأرض وتحط عليه.

واقفه الرأي وهو يقول:

-عارفه اللطخ اللي اتقابلنا معاه يوم عزا جماعتك، ده بني آدم (...)!

دمدم "تميم" مضيئًا:

-كويس إنك فاكده، حد أعوذ بالله منه.

لم يفهم "منذر" سبب انتقال الحوار للحديث عنه؛ لكنه بادر بإخباره بعزم شديد:

-وربنا كنت هاجيب رقبتك، لولا الظروف اللي كنا فيها، مضايقتك في حاجة؟ قولي وأنا رقتي.

أشعل "تميم" سيجارة أخرجها من العلبة التي كانت في جيب بنطاله، ليضعها بين شفتيه مردداً:

-أنا ظبطته، إياكش يتهد.

تفرس "منذر" في وجهه متسائلاً بنوع من الشك، وقد شاركه التدخين:

-بس إنت مقولتليش الدخوف ده كدرت في إيه؟

لاذ بالصمت مُطبّقاً على شفتيه، وقد ظهر التردد على محياه. وضع "منذر" يده على كتفه مؤكداً عليه:

-سرك في بير.

كاد "تميم" يخن من كبته لمشاعره، ناهيك عن بُعد عنها، لهذا لفظ دفعة من الدخان الحارق عن رئتيه، وتشجع مغمغماً في حذر:

-كان في كلام على قريبتك، وهو شكله حاطط عينه عليها.

تجاهل رفيقه الجزء الأخير من كلامه ليسأله في تسليّة وهو يغمز بطرف عينه:

-أوبا، هي الصنارة غمزت ولا إيه؟

انقلبت تعابيره وهو ينطق:

-ولا الهوا حتى، بس سايبها على الله.

فرك "منذر" راحته معًا قائلًا بابتسامة عريضة:

-إن شاء الله خير، عايزين تقوم معاك بالواجب.

ردد في رجاء:

-يتم المراد الأول.

قال وهو يجمع أشيائه عن الطاولة:

هه، يا مسهل.

ألقي "تميم" نظرة من خلف كتف رفيقه ليجد أيضًا من معه يستعدون للرحيل، لمم متعلقاته هو الآخر مودعًا إياه:

-شكل الرجالة ماشيين، كانت صدفة حلوة يا "أبو زين".

صاحفه الأخير أولاً قبل أن يجذبه إلى حضنه هاتفاً في ودٍ شديد:
-ربنا يكثر من الصدف الحلوة، وهستنى تليفون منك تبشرني فيه.
عفوياً احتل ثغره بسمة عذبة وهو يقول:
يا رب يا كريم.

افترق الصديقان على وعدٍ بقاءٍ قريب، وبقي القلب مشغولاً بوليفه البعيد.

.....

لم تعد تحسب عدد المرات التي أطلت فيها برأسها من بلكون غرفة الأطفال
في منزل توأمتها، لتنظر إلى سيارته المصفوفة عند الناصية بنظراتٍ جمعت
بين الحزن والقلق، فقد حُرمت من رؤيته منذ عقد قران شقيقته، ظنت أنه
سيظهر لاحقاً؛ لكن مضت الأيام قاسية، جافة، وطويلة بدونه، حقاً
صدق الجد في تنفيذ وعده لها، ويا ليتها ما فعل!

استندت "فيروزة" بمرفقيها على حافة السور، واشربأت بعنقها للأسفل
محاولة اختلاس النظرات إلى شرفة غرفته القابعة أسفلها، لسوء حظها كان
المكان معتماً، وخالياً من أدنى أثر لوجوده. تملكها الإحباط، واستقامت
واقفة لتتساءل مع نفسها في خيبة أمل:

هو راح فين؟

فركت طرف ذقنها، وظل عقلها يتساءل في لوعة:

حب هو غاب عني ليه؟ للدرجادي مكانش عايزني.

انتشرت في رأسها الهواجس المزجة، وكلما حاولت مغالبتها فشلت فشلاً ذريعاً، ليظل هو الحاضر الغائب في ذهنها. اليوم العاشر على وشك الانتهاء، وهي تواظب على الحضور يوميًا لشقيقتها دون أن تلتقي به حرفياً، استغلت حجة توضيب متاعها في صناديق كرتونية لنقلها للمنزل الآخر، كوسيلتها المتاحة للمجيء دون إثارة الريبة، ومع هذا زادها هجره من شعور الوحشة بداخلها. تركت الشرفة، وعادت إلى الغرفة فاقدة للرغبة في فعل شيء، تحركت نحو الصلاة، إلى حيث تجلس توأمتها، رأتها وهي تغلف الكؤوس بأوراق الجرائد لحفظها. جلست على الأريكة المقابلة لها، وسألتها بفتور:

فاضيلك أد إيه في النيش؟

أجابتها "همسة" دون أن ترفع رأسها عن الصندوق الذي ترص فيه المقتنيات الزجاجية:

نصه تقريباً.

تطلعت "فيروزة" إلى (النيش) بنظرات فاحصة، قبل أن تخبرها:

-يوم ولا اتنين وهايكون خلصان.

امتدت يد "همسة" لتمسك بمفكرة صغيرة إلى جانبها، أعطتها إلى شقيقتها موضحة:

-بصي أنا عاملة نوتة بترقيم كل كرتونة، وكاتبة إيه اللي جواها، بحيث يسهل علينا فيما بعد لما نرخص الحاجة.

استحسننت حُسن تفكيرها، فقالت مادحة:

-كويس أوي، شطورة يا "هموسة".

خيم الصمت بينهما من جديد إلا من صوت التلفاز الصادح، لم تكن "فيروزة" منتبهة لما يعرض عليه، تفكيرها منصب عليه وحده، أوشك عقلها على الانفجار من كثرة الحيرة والقلق. حانت منها نظرة جانبية نحو "همسة"، كانت بحاجة لإشباع فضولها، علّها تنشد السلام، ترددت في سؤالها، وقبل أن تتراجع عن تلك الفكرة الطائشة، سبقها لسانها في الكلام:

-بأقولك صحيح، أنا بقالي فترة مابشوفش المعلم "تميم" ...

حاولت أن تجعل جملها سريعة، مرتبة، وعلى نغمة واحدة حتى لا ترتاب في أمرها، وأُكملت الناقص بنفس الثبات:

-ولا حتى في الدكان، هو عيان ولا حاجة؟

جاءها الرد تلقائياً:

-لأ، مسافر.

انعقد حاجباها بشدة وهي تردد مصدومة:

-مسافر؟

أومأت "همسة" برأسها عندما جاوبتها:

-أيوه، "هيثم" كان قالي كده.

تلقائيا اندفع السؤال التالي من جوفها:

-وسافر ليه؟ متعرفيش؟!

رفعت شقيقتها رأسها إليها، وأجابتها بنظراتٍ مرتابة:

-تقريبًا كلفوه بشغل جديد، هو إتي عاوزاه في حاجة؟

حمحت وهي تدعي بحجة غير حقيقية:

-ده المحامي كان عايز يديله ورق يخصه.

لم تشك في أمرها، واستطردت تخبرها:

-بصي هو معظم الوقت "هيثم" يغطي مكانه، حتى تلاقيه معدتش بيرجع البيت زي الأول، يعني مقسم وقته عندهم، وشوية عند محله، ويطلع بعد كده على الشقة.

بتعاير غلفتها التعاسة علقت عليها "فيروزه":

-ربنا معاه.

قبل أن تفقد الباقي من شجاعتها تساءلت مرة أخرى:

-ومتعرفيش هيرجع إمتى؟

تداركت لهفتها الظاهرة بشكلٍ غريب في نبرتها لتوضح بتمهل، وبطريقة ملتوية؛ وكأن الأمر لا يعنيا، بعد أن ركزت عينيها على التلفاز لئلا تفضحها نظراتها التواقة:

٢.. عشان يعني.. يخفف الحمل عن جوزك، وأديله ورقة.

هزت كتفها قائلة:

-معنديش خبر.

تصنعت الابتسام وهي تقول:

-ربنا معاهم.

طاف الحزن على وجه "فيروزه"، وزحف إلى عينيها، لم تكن هكذا من قبل، لم يشغلها أحدهم بتلك الصورة، للحظة تذكرت تفكيرها في أمره وقت غريبتها، شعور اللوعة الذي استبد بها آنذاك كان في تلك اللحظات أضعاف ما عاتته. أراحت صدغها على كفها وهي تسند كوعها على مسند الأريكة، ثم حملت بعينين تائمتين في التلفاز، كأنما تتابع ما به. لم تبعد نظراتها عنه و"همسة" تسألها:

أخبار محلك إيه؟

أجابت في فتور كبير:

شغال.

ردت عليها متسائلة في نبرة مهمة:

لسه مصممة عملي الافتتاح الرسمي؟ مش المحل الناس عرفت إنه شغال وخلاص؟

نظرت إليها قائلة بعد أن أخفضت ذراعها:

الحاج "بدير" مصمم، وأنا مش عايزة أزعله.

ابتسمت "همسة" وهي تمتدحه:

-بصراحة راجل ذوق، وكريم جدًا، حقيقي عمل معانا كثير.

أكدت عليها توأمتها بما يشبه الابتسامة الباهتة:

-ولسه يعمل والله.

تهدت "همسة" مضيفة بنبرة راجية:

-ربنا يخليه لنا، عوضنا كثير عن اللي ناقصنا.

أحست "فيروزة" بالكآبة تتسلل إليها، ولم تجبذ أن تظهر علامتها على ملامحها، مما يجعل شقيقتها تحاصرها بأسئلتها الفضولية، لهذا كان الخيار الأنسب حاليًا الرحيل. نهضت من مقعدها قائلة:

حبيب يا "هموسة"، أنا يدوب هاقوم، هحاول بكرة أجيلك بعد ما أخلص.

قامت "همسة" ببطء ملحوظ، واعترضت عليها:

-مالوش لازمة، كفاية ماما بتيجي الصبح، كده تعب عليكي زيادة.

أقبلت عليها تحتضنها وهي تصر عليها:

-لا يا حبيبتى، أنا مبسوفة لما بأجي عندك.

حافظت على بسمتها الرقية وهي تتم جملتها بنوع من التشديد:

-خدي بالك من نفسك، وسلامي للبيبي اللي جوا.

عفويًا وضعت "همسة" كلتا يديها على بطنها المنتفخ تتلمسه في حنو وهي
ترد:

-حاضر يا "فيرو".

.....

بغير همّة هبطت الدرجات وهي تجرّج قدميها، وحين أصبحت على بُعد
بضعة خطواتٍ من بسّطة منزله، ذهبت عيناها إلى الباب المغلق، تجمدت
لوهلة على الكتلة الخشبية، كأنما تفتش عنه بين طياته، توقفت "فيروزه"
عن الحركة، وباتت جامدة لبعض الوقت، يدها قابضة على الدرابزين،
تأمل الفراغ بشروءٍ واجم، وهذا الصوت الملح يتساءل في رأسها:

-بعدت ليه؟

شهقةً شبه مسموعة تحررت من بين شفثيها عندما التفتت كليًا لتكمل
سيرها وقد رأتته واقفًا عند بداية البسّطة قبالتها، لم يعد ما تراه من وحي
الخيال، بل كان حقيقيًا، ملموسًا، يمكن الشعور به، ف "تميم" بشحمه ولحمه
حاضرًا بعد غيابه الطويل. خفق قلبها بشدة، حتى كاد من صوت ارتفاع
خفقاته أن يصم أذنيها، تحشرج صوتها وهي تسأله بنبرة بدت معاتبة عنها
مستفهمة:

-إنت كنت فين؟

بصعوبة طاف ببصره عنها ليرد في لهجة رسمية:

-الناس بتقول سلام عليكم الأول.

أخرجها بجموده المريب، فقالت في تلثم ونجل انعكست آثاره على بشرتها المشتعلة:

-سلام عليكم، أنا كنت ..

وكان الكلمات طارت من رأسها فلم تعرف كيف تبرر له سؤالها النزق، تنفست بعمق، وأخفضت رأسها معللة بغير صدق:

-يعني عشان تحضر افتتاح المحل .. مع العيلة.

إن كنت كذوبًا، فكن ثابتًا! لم ينطبق هذا معها، اللجلجة بدت واضحة للغاية في نبرتها. استنشقت الهواء بعمق، وتجرات لتنظر إلى وجهه الذي اشتاقت لرؤيته، فوجدته لا ينظر ناحيتها، بل كان يعاملها بجفاءٍ معذبٍ لها، حاولت التركيز معه حين نطق موجزًا:

-مبروك.

أمام هذا البرود شعرت بالضيق والحرق، سرعان ما تكونت غصة مؤلمة في حلقها، جرحتها بقوة وهي تراه يتجاهلها بهذا الشكل الفج، تجاوزته بالمرور من جواره في تعجلٍ، وهي تعلق باقتضابٍ حفظًا لماء وجهها:

-شكرا.

منع "تميم" نفسه من النظر ناحيتها، واستمر في تعاليه المستفز حتى هبطت عن الدرجات بخطوات سريعة كانت مسموعة إليه. حينها فقط سقط القناع عن وجهه، واندفع ينظر من الدرازين إليها بقلب يدق في ألم وغيظ، عنف نفسه لوقاحته، كيف له أن يعاملها بهذه الخشونة؟ أبعد كل هذا الانتظار يُقابل طاووسه ببرود زائف وكأن نيران الشوق لم تحرقه؟ كور قبضته، وضرب بها الحاجز بغلظة وهو يلوم نفسه من بين أسنانه:

يا غبي!

آه لو كان يملك الحق في استرضائها، لما تركها أبداً تذهب هكذا! لكن جده أوصاه ألا يبدو متلهفاً في وجودها، عليه بالتحلي بفضيلة الصبر، مع القليل من الجفاء حتى تكتشف بنفسها مشاعرها نحوه، عندئذ ستهون كل الصعاب.

.....

ارتعدت تحت دفقات الماء المنهمر على جسدها وهي تستحم، كانت وسيلتها لإخفاء نوبة بكائها غير الطبيعية، كتمت يدها لأكثر من مرة صوت نهباتها الغادر، أطالت في مدة اغتسالها حتى تستكين، ووضعت يدها على صدرها تتحس قلبها المتألم، أزاحت الماء عن وجهها، وتساءلت:

-إنتي زعلانة ليه؟

جففت جسدها، ولفته بالمنشفة، ثم تطلعت إلى ملامحها المشوشة في انعكاس المرأة، مسحت البخار عنها لتحقق في وجهها بنظراتٍ مهمومة، ثم أكملت تبريرها:

-المفروض الموضوع منتهي.

احتدت نظراتها، وبرز الغضب في عينيها بوضوح وهي تواصل الحديث مع نفسها:

-بس أنا مقولتش لأ، ده جدي "سلطان" هو اللي قال كده.

تهدل كتفها في إحباط، وأردفت عن يأس:

-مش كان صبر شوية.

أدارت جسدها للجانب لتنظر إلى التشوه في كتفها، رفعت يدها لتتحسسها، وهي تؤكد لنفسها:

-واستحالة يكون ده السبب عشان ما يرضاش بيا.

تردد صدى كلمات طبيبتها في رأسها لتذكرها بأنها ليست الملامة في إفشال زيجتها، بل كان الطرف الآخر فاقداً لمقومات إنجاح العلاقة الزوجية،

واستغل إصابتها لمواراة علقته الخطيرة. كررت على مسامعها بصوت خفيض حتى لا تستبد بها هواجسها:

-دكتورة "ريم" معها حق، العلاج موجود جوايا، مش لازم أسمح لحد يقلل من ثقتي بنفسي.

عاد طيف "تميم" يستحوذ على عقلها، وجفائه الأخير ما زال تأثيره منعكسا عليها، انقلبت تعابيرها قائلة بنبرتها الهامسة:

-بس هو المفروض يبقى عنده ذوق ويكلمني كويس .

جمعت خصلات شعرها النافرة، وسوتها بيديها وهي ما زالت تخاطب نفسها:

-يمكن جده منبه عليه، هو آخر مرة قالي كده.

مطت شفيتها للحظة، وتابعت كأنما استغرقت في أفكارها التحليلية:

-ما جاز كان مستني يسمع الرد مني، هو صحيح فاجئني، وأنا وقتها مقولتش رأيي، بس هو مصبرش، والنهاردة مادنيش فرصة أكلمه.

لكزت مقدمة رأسها بيدها في تويخ شبه حاد:

-أنا معنديش مخ ولا إيه؟ ما هو لسه راجع من سفره الغريب ده، المفروض يكون عندي تمييز، هيلحق يكلمني إزاي يعني؟

عبست مرددة مع نفسها:

على الأقل كان يسأل عني.

نفخت في سأم، واستدارت مبتعدة عن المرأة وهي تكلم نفسها:

-أنا زهقت، ليه العذاب ده؟ عملت فيا إيه عشان أبقى كده؟

انفضت مفزوعة على صوت والدتها المنادي من الخارج:

-ياللا يا "فيروزة"، كل ده يا بنتي؟ بتعملي إيه عندك؟

ردت عليها بصوتها المرتفع:

-حاضر يا ماما خارجة أهوو.

أمسكت بالممسحة، وأزاحت بها الماء المتجمع بالأرضية نحو البالوعة، لتردد

بهسيس:

مسيرتي اتقابل معاه ثاني.

.....

امتلاً قلبه بأطنانٍ لا حصر لها من الحنين والشوق إليها، هذا النوع من الهروب السخيف غير مجدي معه، أصبح على شفا الجنون من الانتظار

الطويل، أنى له أن ينتهي؟ دار "تيم" في غرفة جده يذرعها جيئة وذهاباً وهو يشكو صبره غير النهائي:

-دخلنا في أسبوعين يا جدي، وأنا عامل فيها هندي، بس خلاص أعصابي تعبت ...

تطلع إليه "سلطان" بتمعن، وفي صمت، وهو ما زال مستمراً على شكواه:

-حتى الافتتاح بتاعها مش عارف أحضره، وأبويا نفسه مستغرب.

توقف عن الالتفاف حول نفسه ليجلس على طرف الفراش قائلاً بترم:

-ده تلاقيه شاكك إني بحبها أصلاً.

بدا الجد هادئاً للغاية وهو يسأله بحاجبٍ مرفوع للأعلى قليلاً:

حطب وقاعد كده ليه؟

ظن أنه يهزأ منه، فأجابه في سخريةٍ مريرة:

-هنزل أروح فين؟ ما إنت عارف اللي فيها يا جدي.

أشار "سلطان" بعكازه نحو الدولاب يأمره:

-طلعلي القفطان الجديد من جوا.

نهض واقفاً، وسأله في حيرة:

هتزل ولا إيه؟

ابتسم الجد في سرورٍ وهو يجيبه:

-أيوه .. هاحضر الافتتاح.

ظهر الغيظ على ملامحه، وهمهم في خفوت:

يا بختك يا جدي.

سرعان ما قفز قلبه يرقص في فرحة عارمة، وجده يضيف:

-وانت جاي معايا.

برقت عيناه، وأشرقت تعابير وجهه وهو يسأله ليتأكد مما سمعه:

بجد؟

بنفس الهدوء الوقور أخبره:

-أيوه يا واد، ويالا عشان متأخرش.

اندفع نحو ضلفة الدولاب لإحضار ثياب جده مهلاً في حماس رهيب:

على طول يا جدي.

.....

بعض الصفقات الراجعة مع عشرات الزبائن نالتها خلال الأيام الماضية؛ لكنها لم تشعرها بالسعادة، ظلت تفتقد لهذا الإحساس، للغربة إن كان نجاحها في سوق العمل قبل بضعة أشهر لاختلف شعورها الآن! تهتد "فيروزة" بعمق، ونظرت إلى الحشد المتجمهر بداخل دكانها وخارجه، حمدت الله أنها استعانت بفتاتين من المنطقة لمساعدتها في إنجاز الأعمال، وإلا لأرهقها ما كلفت به، بالإضافة لتفكيرها غير المتوقع عنه.

كان الافتتاح كبيراً إلى حد ما، حيث ازدانت الطرقات المؤدية إليه بالمصاييح الملونة، وأيضاً بالبالونات الضخمة المدون عليها عبارات التهئة، والتي كانت غالبيتها من عائلة "سلطان"، فيما عدا قلة متناثرة من الجيران في المنطقة، أما عند مدخل دكانها، فقد تم وضع بضعة أعمدة جرانيتية على الجانبين، وملاً الفراغ بينهما سجادة طويلة من اللون الأحمر، لصنع ممر صغير إلى الداخل، كذلك صدح صوت الموسيقى من مشغل الأسطوانات بشكلٍ أزج الجميع، إلا أنها طلبت من المسئول عنه إخفاض الصوت.

تراصت المقاعد الخشبية على طول الرصيف، وفي الشارع أيضاً، جلس "خليل" وإلى جواره "همسة"، ووالدتها، والصغيرة "رقية"، وهناك مقعد محجوز لـ "هيثم" حين يأتي للجلوس في وقتٍ لاحق. بدأ الزوار في القدوم للتهئة، تارة تجد بعضهم بالداخل، وهناك من يجلس بالخارج؛ لكن استمتع

الجميع بما تم تقديمه من حلوى ومشروبات غازية باردة، كتفصيلة أساسية وهامة خلال الافتتاح كما أمر الحاج "بدير".

بعد مُضي ما يزيد عن الساعة، وقفت "فيروزة" خلف الطاولة الموضوعة في الواجهة بنهاية مساحة دكانها، تراقب الوافدين بعينين تتقدان في لهفة حين تسمع صوت الترحيب بأحدهم متوقعة أن يكون ضمن القادمين؛ لكن ما لبث أن يختفي هذا الوهج مع اكتشاف عدم حضوره، أطلقت زفرة ثقيلة من صدرها وهي تتساءل بين طيات نفسها:

-مش معقول كل المدة دي ومظهرش فيها؟ للدرجادي ندمان إنه آ..

توقفت عن تفكيرها التشاؤمي حين سألتها إحدى السيدات:

-بكام دي؟

أدارت رأسها للخلف، وتطلعت إلى البلورة التي تشير إليها، ثم أجابتها وهي تعاود النظر إليها:

-بـ 25 جنية.

رأت السيدة تناقش واحدة واقفة إلى جوارها:

-سعرها حلو، احنا ممكن نجيب منها....

أبعدت أنظارها عنها لتهمس بصوتٍ بالكاد فارق شفيتها:

-حتى الافتتاح مجاش فيه.

ناداتها إحدى الفتاتين بصوتٍ شبه مرتفع لتغلب على الصخب المنتشر:

-يا أبله "فيروزه"!

ندائه المصري الذي بات محببًا إليها كان مختلفًا عن كل مرة، غيره يناديها به، فكان فاترا، غير مستساغ على أذنها، التفتت ناظرة إلى البائعة الأخرى وهي تسألها بعينها دون كلام، فأخبرتها البائعة:

-بكام اللفة دي؟

أجابت بعد نظرة فاحصة لما تشير إليه:

-بـ 30 جنية.

تحركت عينا "فيروزه" نحو الباب مجددًا، تتطلع إليه في وجوم، شعرت بلمسة رقيقة على ذراعها، فاستدارت للجانب لتجد والدتها تكلمها في توجيس:

-إنتي مش مركزة خالص النهاردة، في حاجة يا بنتي؟

ابتسمت وهي ترد:

-لا يا ماما، أنا كويسة.

تفرست "آمنة" في ملامحها وهي تقول:
-بس وشك مش باين عليه، على طول شاردة.
اتسعت حدقتها في توتر، خشيت من اكتشاف أمرها، فتحنحت قبل
أن تخلق كذبة سريعة:
-ده بس عشان الواحد هبطان طول اليوم، من الوقفة الطويلة وكده.
ربتت على ظهرها في حنو وهي تدعو لها:
-ربنا يقويكي يا حبيبتى، أدها وأدود.
اتجهت أنظارها مع والدتها التي خاطبت ابنة شقيقها:
-خدي بالك يا "كوكي" مش عايزين حاجة تتكسر.
توقفت الصغيرة "رقية" عن التحرك بفوضاوية، وقالت في عبوس طفولي:
-متخافيش يا عمتو.
تشئت كل أنظارها عنها عندما سمعت والدتها تهتف مرحبة بحرارة:
-حاج "سلطان" اتفضل.

وكان ترف الحياة ومتعها قد مُنح لها في اللحظة التي تحول بصرها نحو الباب لتجده واقفاً خلف جده في عِزّة وشموخ، لم تستطع إبعاد عينيها عنه، كأنما تعوض ما فاتها بغيبابه المريب، ولدهشتها كان يبادلها النظرات الدافئة المليئة بشيء نقد قبل دهرٍ إلى داخلها! تلك النظرات التي اعتادت عليها منه، ولم تكن ممانعة من تحديقه، بالكاد باعدت عينيها عنه والجد يخاطبها :

-أنا جايب العيلة كلها معايا يا "فيروزة".

سرعان ما شملت من جاءوا بصحبته بنظرة جمعت بين الحرج والتوتر، كيف لم تنتبه إلى مجيء أفراد عائلته؟ ألتلك الدرجة حجب عنها "تميم" بحضوره الطاعني من سواه؟ اكتسبت بشرتها حمرة خجلة، وقالت في صوتٍ شبه مهتز:

يا أهلاً وسهلاً، نورتم المكان.

بادرت "ونيسة" بتهنئتها أولاً، ثم لحقت بها "هاجر"، ومن بعدهما "سراج"، ليمد "بدير" يده لمصافحتها قائلاً في فرحة:

-مبروك يا بنتي، يجعله فاتحة خير عليكي يا رب.

قالت وهي تبادله المصافحة:

-الله يبارك في حضرتك.

تكلم الجد بصيغة من يقرر، وهو يدفع بذراعه المتأبط حفيده للأمام، ليبدو قريباً منها:

-بصي بقي، احنا من عوايدنا لما يبقى حد عزيز أوي علينا، وربنا كرمه ندبجله حاجة كده، ونطلعها لله.

انفرجت شفتاها في دهشة، وهتفت معترضة:

-ده كثير يا جدي.

أشار بيده للخلف حاسماً جدالها قبل أن يبدأ:

-ولا كثير ولا حاجة، الرجالة هتنزل العجلين جنب الدكان وتفرق على الغلابة، خلي الكل يفرح معانا.

فردت "آمنة" ذراعها لتشير إلى ضيوفها بالجلوس:

-اتفضلوا يا جماعة.

انسحبوا واحداً تلو الآخر ليظل "تميم" باقياً معها، ظهر التردد عليها، خاصة مع نظراته الشغوفة ناحيتها، بلعت ريقها وسألته وهي تتجنب النظر إليه عن هذا القرب الخطير:

-إزيك؟

أجاب وهو يستقيم في وقفته ليبدو أكثر طولاً:
-الحمد لله، مبروك عليكى الافتتاح، وربنا يوفقك.
ردت ببسمة صغيرة وهي ترمش بعينها:
-الله يبارك فيك.

توقعت أن يتجاذب أطراف الحديث معها؛ لكنه ظل صامتاً، نظرت إليه من طرف عينها، لمحته وهو يتطلع إليها بإشراقة تجبرها على الاستدارة والنظر إليه ملء عينها، مثلما تحب أن تراه دومًا، ضغطت على إبهامها بسبابتها، بدت متحيرة في اتخاذ قرارها الآن، قاومت تردها باستبسالٍ غريب، فرمى لن تواتيها الفرصة لإخباره برأيها النهائي. لفظت كتلة من الهواء سريعًا، واستطردت قائلة في تعجلٍ لا يخلو من التلعثم:
آ.. كنت عايزة آ..

شجعها على الكلام قائلاً في هدوء:
-اتفضلي، سامعك.

لم تمتلك من الجراءة ما يحثها على النظر إليه في هذه اللحظة وهي تخبره:
-إنت كنت سألتني عن حاجة من فترة، وأنا مردتش عليك.

سمعت صوت تهيدته وهو يرد:

-أيوه، وآ...

قاطعته قبل أن يتم جملة قائلة في دفعة واحدة، ودون أن تنظر ناحيته:

-أنا موافقة، شوف هتكلم خالي إمتى.

استحثها فضولها على رؤية تعابير وجهه، لذا اختطفت نظرة سريعة إلى ملامحه، فرأت في قسماته سعادة الدنيا بأسرها، هربت من حصار نظراته الناطقة بصنوف الحب، لتقول وهي تبتعد:

عن إذنك.

ردد "تميم" مذهولاً في عدم تصديق، وعيناه تشعان بالهيام:

-دي قالت موافقة.

استدار باحثاً عن جده ليجده خلفه، فارتمى في أحضانه يضمه بشدة، وهو يصيح بابتهاج متعظم:

-وافقت يا جدي.

اشتبه حفيده تذوق السعادة بعد مشقة، وجلد، وطول انتظار، وها هو يحظى في نهاية المطاف بجائزته الكبرى، لما لا يفرح وقد استحق ذلك؟

ربت الجد على ظهره ضاحكًا حتى برزت نواجذه، قبل أن يتراجع عنه
ليمازحه:

طبعًا الحُصن ده كان لحد ثاني مش ليا !!!

.....

الفصل المائة واثنان وأربعون

بدت وكأن فراشات الحب تحلق فوق رأسها، فتواتر سريعاً عن الأنظار التي تلاحقها، خشية اكتشاف أمر قبولها غير المتوقع. اختبأت "فيروزه" وراء مكتبها، فجلست على المقعد، وتركت مهمة متابعة الزبائن وتلبية رغباتهم للفتاتين العاملتين معها. الزاوية الجالسة عندها لم تمكنها من رؤية "تميم" ومن معه، أملت رقبته لأكثر من مرة محاولة مراقبة ما يحدث؛ لكنها لم تتمكن رغم الفضول المستثار بها لتأمل تعابير المبهجة .

طردت الهواء من صدرها، وابتسامة نضرة تتراقص على ثغرها، يا ليت ذلك الشعور العارم بالفرحة يدوم للأبد! تحفزت في جلستها حين أقبلت عليها "همسة" تسألها بتطفل:

هو إنتي عملي إيه يا "فيرو"؟

ادعت السذاجة، وردت متسائلة بنظرات ثابتة:

-عملت إيه في إيه؟

سحبت المقعد من الجانب وألصقته بها خلف المكتب، وأجابته على عجل:

عاملين على خالك رباطية كبيرة، والموضوع شكله يخصك.

استمرت "فيروزه" على ادعائها، وتساءلت:

موضوع إيه؟ ويخصني إزاي؟

هزت كتفها قائلة بتجهم بسيط:

ما أنا مش عارفة بالضبط، وعشان كده جاية أسألك.

ابتسمت في مكرٍ، ثم أجابها بنظرة غامضة؛ لكنها مثيرة:

-شوية وهتعرفني.

زمت "همسة" شفيتها للحظة، ثم دمدمت في حيرة:

يا خبر بفلوس.

حافظت "فيروزة" على هدوئها الزائف، رغم الضجيج الشائ بداخلها، فالإقدام على مثل تلك الخطوة الهامة في حياتها احتاج لجهدٍ جهيد لاتخاذها، وها قد فعلتها!

.....

ساعد وجود بضعة مقاعد شاغرة إلى جواره على استقرار الجد "سلطان"، و"بدير"، ثم "تميم"، بعد اتفاقٍ سريع بين الثلاثة أولاً على مفاتحة خال العروس في مسألة خطبتها، ليكون طلبه وفقاً للتقاليد والأعراف المتبعة في مثل تلك المواقف الأسرية. جال "خليل" بصره على وجوههم متسائلاً في تحير:

-خير؟

أجابه "تميم" ابتسامة أذابت ما اعتمر قلبه من لوعة سابقة:

-كل خير يا عم "خليل".

هتف "سلطان" قائلاً في حماس:

-سمعونا الأول صلاة النبي.

ردد الجميع رغم تفاوت نبراتهم:

عليه الصلاة والسلام.

أجلى "سلطان" أحبال صوته بنحنة مسموعة، قبل أن يستأنف كلامه

مخاطباً "خليل" على مهل وهو يشير بعينه نحوه:

-شوف يا سيدي، حفيدي اللي قدامك ده، استخار ربنا، واتوكل عليه

قبل ما يكلفني أفتحك في موضوعه.

تحولت أنظاره نحوه قبل أن يرد بلعثة ملحوظة في نبرته:

-إنتو .. تـ..ؤمروا.

ابتسم الجد وهو يرد:

-الأمر لله وحده ...

ثم خاطب ابنه بلهجة شبه امرأة؛ لكنها مزحة:

ما تكمل إنت يا "بدير"، مش ابنك ده؟

أطلق "بدير" ضحكة قصيرة قبل أن يرد مبتسمًا:

-وده يصح يا حاج في وجودك، البركة فيك، ده إنت كبيرنا.

كاد "تميم" أن يفقد صبره من المماطلة والمراوغة التي يقوم بها لإتلاف أعصابه، وانعكس هذا في نظراته العابسة نحوها. عاد الجد ليتكلم في تريث:

ماشى .. احنا ملقناش أغلى ولا أعز من بنت أختك عشان حفيدي يتقدملها ويطلبها للجواز.

بديهيًا خمن عقله من المقصودة، ونطق لسانه باسمها، كأنما يفكر بصوت مسموع:

- "ف.. فيروزة"؟

أوما "سلطان" برأسه مؤكدًا:

-أيوه، هي اللي عليها العين والطلب.

في حين أضاف "بدير" وهو يشير بيده:

-النهاردة بس مجرد فتح كلام، ونحدد معاك ميعاد مناسب نطلبها فيه رسمي حسب الأصول.

علق عليه والده مؤيدًا إياه:

مضبوط، ما هو الأصول ماتزعلش حد.

ظهرت أمارات السعادة على وجه "خليل"، وأردف يخبرهم وهو يدور بنظراته على ثلاثتهم:

-احنا نتشرف بيكم.

رد عليه "تميم" في الحال، وقلبه يدق في لهفة:

-الشرف لينا يا عم "خليل".

نظر إليه الأخير معقبًا بجذري:

-بس مش نـ. اخذ رأيها الأول؟

هنا رد عليه "سلطان" مؤكدًا من جديد بتعايره الجادة:

طبعا، ده لازم، هو في حاجة هتم من غير رضا العروسة؟ احنا نستأذن الحاجة والدتها تاخذ رأيها، ولو ربنا رايد هنيجي نزورك ونبل الشربات.

أراح صدره أجواء التفاهم السائدة، فالتفت برأسه للجانب لينادي على شقيقته:

يا "آمنة"!

جاءته الأخيرة سائرة بخطواتٍ شبه سريعة، نظرت إليه في استرابة، قبل أن تسأله، وعيناها تتحركان على وجوه عائلة "سلطان" المحاطة له:

أيوه يا خويا.

تكلم ببطء ليوضح لها:

الحاج "سلطان"، والحاج "ب.دير" عاوزين يـ..خطبوا "فيروزة".

بمجرد أن سمعت نهاية جملته تبددت كافة مخاوفها السابقة بشأن احتمالية إلغاء "تميم" لعرضه، بدت قسماتها في تلك اللحظة تشع بالسرور، كما لو أنها حظت بالجائزة الأولى في اليانصيب، فهلت تلقائياً في فرحة كبيرة:

يا نهار أبيض!

بالكاد منعت نفسها من إطلاقا الزغاريد ابتهاجاً بالنبأ السار، وحاولت السيطرة على انفعالاتها السعيدة وضبطها قدر المستطاع. استدارت "آمنة" برأسها نحو "بدير" عندما خاطبها:

-معلش يا حاجة هنتعبك معانا، تشوفي رأي العروسة إن كانت مريحة
عشان نمشي تبع الأصول.

هزت رأسها بالإيجاب قائلة:

-أيوه يا حاج "بدير"، هاروح أسألها.

شدد "سلطان" رافعًا سبابته نحو وجهها:

على جنب كده، عشان ماتتخرجش.

قالت في طاعة:

-حاضر.

أدار "سلطان" وجهه نحو حفيده هامسًا له:

-ربنا يجعلها من نصيبك.

رد "تميم" بنفس الخفوت، وابتسامة متسعة على الأخير:

-يا رب.

استمر أربعتهم في الحديث عن بعض التفاصيل الخاصة بالعمل في العموم،
إلى أن أقبلت عليهم "هاجر" تاركة جانب النسوة، لتتساءل في فضول وهي
تميل نحو والدها:

-في إيه؟

بوجه بشوش وصوتٍ منخفض جاوبها "بدير":

-أخوكي نوى والنية لله إنه يتجوز.

برقت عينا "هاجر" في دهشة لا تخلو من فرحة، وسلطت كامل نظراتها على شقيقها متسائلة في مكرٍ عابث:

-مين يا ترى؟

ضيق "بدير" عينيه معقبًا بصوته الخفيض:

-يعني مش عارفة؟

ضحكت في تسلية قبل أن تعلق:

-لا، بس حابة اتأكد.

هنا تكلم "تميم" في غيظٍ طفيف ظاهر على ملامحه:

هي يا أم العريف.

حالة من الانتشاء والرضا غمرتها، لذا لم تمنع نفسها من تحرير زغرودة سعيدة لأجله، مما جعل الأنظار الفضولية تتجه نحوهم لمعرفة سببها. عاتبها "تميم" في نظرة صارمة وهو يركز على أسنانه:

يا بنتي لسه، مافيش حاجة رسمي.

مازحته في استمتاع وهي ترمقه بتلك النظرة المتسلية:

-ده أنا بزغرت لافتتاح المحل.

انضمت إليهم "ونيسة" بعد أن رأت ما فعلته ابنتها في العلن، مررت عينيها على أسرتها متسائلة في استغراب:

-في إيه يا جماعة؟

اقتربت "هاجر" من والدتها، وأخبرتها في أذنها بعبارات موجزة بهذا الخبر السعيد، سرعان ما ظهرت آثاره السعيدة على كامل وجهها، حينئذ التفتت ناظرة إلى ابنها بكل محبة، وهتفت تسأله لتأكد من صحة الأمر:

-بجد؟ خلاص يا ضنايا نويت؟

رد بهزة سريعة من رأسه:

-أيوه يامه ...

وقبل أن تستمر "هاجر" في استفزازه بأسلوبها العابث، هتف محذراً وهو يقصدها تحديداً بكلامه:

-نهدي بقي يا جماعة، ونستعين على قضاء حوائجنا بالكتان، عشان الناس بدأت تبص علينا.

ردت وهي تبسم ملء شديها:

خلونا نقرح ونقرح الحبايب.

رمقها بتلك النظرة الجادة وهو يخبرها:

-هيحصل بس ننول الرضا الأول.

.....

تحركت حدقتها مع إشارة الإصبع المرفوع أمام وجهها، والمصحوب بصوت تحذيرها الصارم بعدم الهبوط عن الرصيف، والاستمرار في اللهو بجانب مدخل الدكان، أومأت "رقية" برأسها في انصياع واضح لعمتها قبل أن تستأنف لعبها المرح مع مثيلاتها من بنات الجيران، في حين هرولت "آمنة" للداخل متجهة إلى ابنتها الجالسة وراء مكتبها هاتفة في حماسة متزايدة:

يا "فيروزة"!

توقعت الأخيرة سبب لهفتها الواضحة، وحافظت على ثبات ردة فعلها، نظرت إليها متسائلة ببرود؛ كأنها لا تعلم عن الأمر شيئًا:

-خير يا ماما؟

بينما تابعت "همسة" الحوار بينهما في بدايته بفتورٍ وغير اهتمام. واصلت "آمنة" التقدم حتى أصبحت مجاورة لها لتميل ناحيتها مرددة بلهاتٍ بائن في صوته:

عرفتي يا حبيبتى إن ابن الحاج "بدير" طالبك للجواز؟

هنا شهقت "همسة" ذاهلة، وسلطت أنظارها المصدومة على توأمتها متممة في عدم تصديق:

-مش معقول؟ "تميم"!!؟

استدارت ناظرة إليها بغموض، وهذا السؤال الغريب ينطلق في عقلها، لماذا ينطق الناس بأسماء غيرهم دون ألقابٍ في حين يتعذر عليها هذا؟ أم أن للمسألة علاقة بالحب؟ حينها مجرد ترديد حروف الاسم على اللسان يُعد كجهاز كشف لدرجات العشق في العاشق نفسه! انتهت "فيروزة" لصوت والدتها الملح عليها:

ها يا بنتي رأيك إيه؟ الجماعة عاوزين يتقدموا رسمي، بس مستنين رأيك وموافقتك.

لم تعطها الجواب المباشر، وردت متسائلة ببرود أحرق أعصاب والدتها المتلهفة شوقاً لإتمام هذه الزيجة العظيمة:

-وخالي رأيه إيه؟

أخبرتها بتعابير احتوت على علامات القلق والترقب:

هو اللي قال مش هيرد غير لما يسمع موافقتك الأول.

صمتت للحظاتٍ تتطلع إليها في هدوءٍ، أراحها قرار خالها الذي حافظ على حرية اختيارها، وفي نفس الوقت عزز من مكانتها، تهدت مليًا قبل أن يأتيها ردها مصحوبًا ببسمة صغيرة ناعمة:

قولي لخالي يتفضلوا في أي وقت.

لم تتمالك "آمنة" نفسها، ومالت على ابنتها تضمها إلى صدرها وهي تهتف في فرحةٍ شديدة:

حبيبتي يا بنتي، ربنا يتم على خير، صبرتي ونولتي.

ابتعدت عنها لتسرع في خطاها نحو الخارج حتى تُعلمه بقرارها السار، بينما حاوطت "همسة" شقيقتها بذراعها مرددة في حبورٍ كبير:

-الله! أنا فرحانة أوي عشانك يا "فيرو"، إنتي تستاهلي كل حاجة حلوة.

ثم تفرست في وجهها ورأت فيها لمحة من الغرور والثقة، فرفعت حاجبها للأعلى تسألها بنظرة متشككة:

-بس قوليلي، إنتي كنتي عارفة قبلها؟

هزت رأسها تجاوبها في ابتسامة مأكرة:

-يعني، حاجة زي كده.

قهقهت ضاحكة في سعادة، لتردد بعدها بما يشبه الإعجاب:

حلول عمرك مش ساهلة يا "فيرو"!

أصوات أبواق السيارات الصادرة خارج الدكان، جعلت الأنظار كلها تتجه إلى حيث مصدر هذه الضوضاء الصاخبة. وضعت "فيروزه" يدها على ذراع شقيقتها تستحثها على النهوض بقولها، وعيناها تنظران نحو الحشد الذي زاد في تجمهره:

-تعالى نشوف في إيه.

.....

التعليقات كانت بسيطة ومحددة، تكليفه بابتياح اثنين من أجود أنواع المواشي وبمواصفات معينة من أجل ذبحها، وتوزيع لحمها على الفقراء، بعد الاتفاق مع أمهر الجزارين ومساعدتهم للقيام بهذه المهمة. نفذ "هيثم" المطلوب منه، وعاد إلى الزقاق في عربة ربع نقل تتبع المزرعة التي اشتراها منها، وما إن بلغ وجهته حتى ارتفع صوت بوق السيارة ليعلن عن وصوله .

كان "سراج" في طريقه أيضًا لحضور الافتتاح، بعد أن أبلغته "هاجر" بمكانها، أراد إشباع عينيه من رؤيتها، والاطمئنان على صغیرها. استقبلته الأخيرة ببسمة مشرقة، وخفضت من رأسها في خجلٍ، خاصة حينما غازلها بالقرب من أذنها:

-وحشاني يا حنة من قلبي.

تصنعت الضيق، وقالت في عتابٍ، وهي تنظر إليه من الجانب:
-حنة بس؟

وضع يده على رضيعها يمسح على وجهه بحنوٍ ورفق وهو يخبرها:
-ما الباقي للصغن اللي إيديكي الحلوة شايلاه.

توردت خجلاً من معسول كلماته الذي قلما سمعته، وحذرته بتوترٍ انعكس عليها:

-طب بس بقى لرجالة العيلة يعلقوك.

سرعان ما تطلع أمامه ليلقي نظرة خاطفة عليهم، ولحسن حظه كانوا منهمكين في تفقد البهائم، استقام واقفاً، وخاطبها بتلك النظرات العبيثة المترقبة:

-هانت، كلها كام يوم ويتقل علينا باب، وأقولك أحلى كلام.

ابتعدت عنه "هاجر" لتأني بنفسها من هذا الحرج الذي يزيد لها تلبكاً ويرضي مشاعرها كأثني.

.....

أثناء لهُوها الطفولي، لم تصغ "رقية" للتعليمات على أكمل وجه، لعبت الغمضة مع بقية الفتيات والأولاد، وهبطت عن الرصيف لتختبئ خلف واحدٍ من الأكشاك المغلقة، كررت الأمر لبضعة مرات بعد أن اعتادت على الذهاب والمجيء بمفردها وبغير خوفٍ مثلهم؛ لكنها توقفت مع البقية عن ممارسة ألعابهم الطفولية لينظروا إلى ما يوجد أعلى عربة النقل. تركزت أنظارها مع "تميم" الذي أقبل على أحد الأشخاص يأمره:

-بالراحة وانت بتنزل العجل، وخليه واحد ورا الثاني.

جاءه رد الرجل بنبرته الجافة:

ماشى يا ريسنا.

حانت منها التفافة جانبية تلقائية نحو صراخ أحد الأطفال المرتفع، لتعاود التحديق بعدها في عربة الربيع نقل وما فيها وهي ما زالت واقفة في مكانها، تراقب ما يحدث في اهتمام وفضولٍ غريزي.

أثناء محاولة إنزال مساعدي الجزار للثور الضخم، كان الواقف خلفه يدفعه بخشونة وهو يلوي ذيله على كف يده ليؤذيه بلا رحمة فيحثه على التجاوب

معه، والهبوط عن العربة؛ لكن الألم الصارخ في مؤخرة جسد الثور جعله يتخذ موقفًا دفاعيًا، فركل مُعذبه في صدره بقدميه في عنفٍ واضح، ليندفع هابطًا عن العربة بما يشبه الهجوم مما جعل الحاضرين يصرخون متفرقين في فزع.

جحظت عينا "رقية" في ارتعابٍ شديد، وقد رأت هذا الثور الحائق ينحرف عن مساره ليتجه إليها، تجمدت كالصنم في مكانها، غير قادرة على الحركة، لتطبق بعدها على جفنها بقوة متوقعة أن يصددها في أي لحظة.

.....

مثلها مثل غيرها، تحركت نحو المدخل الخاص بدكانها، لترى ما الذي يتسبب في تهليل الناس وصياحهم .. تمكنت "فيروزة" من اختراق الصفوف المتراحمة، والوقوف عند المقدمة، لتتابع إنزال رأسي الماشية من العربة، استرعى انتباهها سؤال والدتها التلقائي:

-البت "كوكي" فين؟

حينها توقفت عن المتابعة وأخذت تفتش عنها بعينين متوجستين وسط الواقفين. البقاء ساكنة والنظر فقط لن يكون كافيًا، تحركت "فيروزة" بغزيرتها المنطلقة بداخلها للبحث عنها، وجدها تقف عند بقعة شبه خاوية

لترى كالأخرين هذا الحدث المشوق. تنفست الصعداء، والتفتت تخبر والدتها:

-لاقيتها يا ماما.

وضعت "آمنة" يدها على صدرها ولسانها يلهج بالشكر:

-الحمد لله يا رب، خوفت تكون تاهت ولا حاجة.

أسرعت "فيروزة" في خطواتها متجهة إليها، شعرت بالرضا عن حالها، لكونها قد انتقت في تلك المناسبة كنزة بيضاء فضفاضة، لترتديها على بنطالٍ أسود من القماش، حتى يمنحها حرية وخفة في الحركة؛ لكنها خلال سيرها المتعجل التفتت تنظر بنظراتٍ ضيقة مليئة بالترقب والخوف إلى الثور الغاضب الذي ثار على محتجزيه بثورة عارمة.

قصف قلبها في رهبةٍ من المشهد الخاطف للأنظار، وركضت نحو ابنة خالها ترفعها من خصرها بعيدًا عن مرمى هذا الحيوان الثائر، لتختبئ بها عند هذا الكُشك الجانبي. تفرق الحشد الفرح في كل اتجاه، وتحول المتجمعون إلى أفراد يركضون في عشوائية، ومرتاعين من اهتياج الثور. في تلك اللحظة، بدا وكأن الثور قد اشم رائحة خوفهما ليتجه إلى حيث تقفان، فارتفع صراخهما المذعور.

وسط حالة الهرج والمرج، اندفع رجال عائلة "سلطان" نحوهما، الأسبق في الوصول كان "تميم"، حيث توقف أمامهما، يزود بجسده عنهما، ثم فرد ذراعيه صائحًا بما يشبه الزئير، لطمه في جانب جسده بصفعة قاسية، مما أجبر الثور على تغيير اتجاهه، وهنا حاوطه كلاً من "هيثم"، و"سراج"، من الناحية الأخرى ليتمكن الجزار المخضرم من التقاط الحبل الذي يطوق عنقه، ويشده منه، ليتجمع حوله مساعديه وينجحوا في طرحه أرضاً، وتكبل قدميه الخلفيتين لئلا يتمكن من النهوض وتكرار هذا الهجوم الغاشم. صاح الجزار بعد أن تم استعادة السيطرة على الموقف، وضبط مجريات الأمور:

عاش يا رجالة.

نهره "هيثم" في غلظة وتشنج:

-كنت هترتاح لما تقلب بكارثة؟

أجابه بسماجة وهو يربت على ظهر الثور بقوة:

-ده دائماً بيحصل معانا في المديح.

وبخه "تميم" من مكانه بصوتٍ غاضبٍ للغاية:

-ده عندك في المديح مش في قلب الشارع!

من زاويتها الضيقة، ورغم الذعر الذي ما زال منتشرًا بأوصالها، إلا أن "فيروزة" لم تمنع نفسها من النظر إلى "تيم" بهيئته الشائخة، وإبداء إعجابها بشجاعته المغلفة برجولة تدعو للفخر، أحست في تلك اللحظات المفعمة بالأدرينالين أنها كانت تُعايش موقفًا خطيرًا، ربما قد تراه معروضًا على شاشة التلفاز، أو مكتوبًا في إحدى الروايات؛ لكنها استبعدت أن تكون بطلة، على ما يبدو منحها القدر ذكرى جديدة تثبت لها أنه جديرٌ بها!

تأملت عن هذا القرب ما ارتداه من تيشرت يميل للون الأزرق الفاتح، سرعان ما التصق بعضلات جسده ليرزها أكثر، جراء المجهود العنيف الذي بذله في أقل من دقائق، كان اختياره متمشيًا مع بنطالٍ جديد من الجينز، لوهلة اكتشفت أنه بسماته تلك يبدو وسيماً بشكلٍ خطير، له طريقته الغامضة في جذبها إليه. رمشت بعينيها في تلبكٍ عندما استدار ناحيتها ليتساءل في لهفةٍ وخوف، ويداه موضوعتان أعلى منتصف خصره:

-إنتو كويسين؟

أومأت برأسها قبل أن تجيبه:

-أيوه.

انسلت "رقية" من حضنها، لتركض ناحيته وهي تخبره بعفوية من بكائها الطفولي:

-كان هموتنا.

رفعها بذراعه إليه، وأعطاهها قبلة صغيرة على وجتها وهو يمسد بيده الأخرى على شعرها المتناثر، ليؤكد بعدها كنوع من بث الطمأنينة في نفسها الجزعة: متخافيش طول ما أنا موجود.

مع نهاية جملته، كانت كامل عينيه مرتكزة على وجه "فيروز"، منحها ابتسامة عذبة وهو يرى تلك النظرة المليئة بالانهار تتلأأ في قطعتي الفيروز، لعقت الأخيرة شفثيها متسائلة في لعثمة خفيفة:

مش كان ممكن يهجم عليك ويموتك؟

تأكد من إبقاء نظراته الثابتة على وجهها، وهو يخبرها بلا تردد، وعن صدق مستبد التشكيك فيه:

-وارد، بس ما يهمش طالما إتي هاتكوني في أمان وبخير.

نقذت كلماته الحملة بأعمق مشاعره إلى داخل قلبها، وانتشرت فيه كما ينتشر اللون الزيتي في إناء من الماء ليحتله، هكذا اقتحم كيائها، وأوجد لنفسه مكانًا في روحها، بأفعاله قبل أقواله! لم تشعر "فيروز" بشفثيها وهما تلتويان لتشكلا ابتسامة امتلأت بهجة مغرية بعثت النشوة في جوارحه، وأكدت له أن اجتماعها تحت سقف واحد بات وشيكا .. للغاية

!!

.....

الفصل المائة وثلاثة وأربعون

في أقل من دقيقتين، عاد الوضع إلى ما كان عليه، وبدأ أهالي المنطقة في الاحتشاد من جديد، بعد أن تم إحكام السيطرة على الثور الهائج، وتأمين

الآخر بشكلٍ يضمن عدم تكرار الأمر معه. لم يدم حوار "تميم" مع "فيروزة" كثيراً، حيث جاءت "آمنة"، ومن ورائها "همسة" للاطمئنان على الاثنتين، استطردت الأولى قائلة في لوعة، وعيناها تندران بوعيد للصغيرة "رقية":

-لطفك يا رب، مش أنا منبهة عليكى ماتنزليش من على الرصيف يا بت؟
تدخل "تميم" قائلاً بهدوء، بعد أن اشتدت قبضتي الصغيرة حول رقبته؛
كأنما تنشد حمايته:

-جـت سلمية الحمد لله.

كزت "آمنة" على أسنانها هاتفة بتجهم شديد:

طبعاً، الحمد لله وكل حاجة، بس آ...

قاطعها رافعاً يده في الهواء أمام وجهها، وبنبرة صارمة، لا تقبل بالنقاش:

-خلاص يا حاجة، مش هنزعلها.

تراجعت عن تأنيبها قائلة بابتسامة بدت مصطنعة للغاية:

-اللي تقوله يا معلم.

صاح صوت أحدهم من الخلف مردداً:

-ياللا يا جماعة، جاهزين عشان ندبح.

اتجهت كل الأنظار نحو الثور المقيد على بُعد عدة أمتار، وحوله عدد لا بأس به من الرجال وأهالي المنطقة. رأى "تميم" ابن خالته يلوح له منادياً:

تعالى يا "تميم"، مستنينك.

بادله الإشارة بذراعه الطليق وهو يرد:

جاي.

أنزل الصغيرة على قدميها، استعداداً لذهابه، ليتفاجأ بـ "فيروزة" تسأله في غرابة:

إنت هتدبجه بنفسك؟

نظر إليها بثقة يشوبها التفاخر، قبل أن يجيبها مبتسماً:

أيوه.

سألته في تشككٍ دون أن تبعد عينيها عنه:

هو إنت بتعرف أصلاً؟

رمقها بتلك النظرة الغامضة المليئة بشيء من الاعتداد بالنفس، قبل أن يغادر بغير جواب، عبست "فيروزة" بملامحها، وهممت في تبرمٍ وبنبرة شبه خافتة- وهي تضبط حجاب رأسها، لتلقي بطرفه المتدلي خلف كتفها:

-مردش عليا ليه؟

شئت نظراتها عنه لتدير رأسها نحو الجانب عندما تكلمت "همسة" قائلة
بخوفٍ ظاهر عليها:

-تعالوا على جنبك بدل ما يفك منهم ثاني ويهرب.

علقت "فيروزة" في استخفافٍ ساخر:

-هيفك إزاي وهما مرقدينه على الأرض؟

دقت النظر في الثور المقيد، وردت مؤيدة إياها:

-صح، بس الحرص واجب.

.....

على مسافةٍ معقولة، وبعد أن تم تجهيز الثور لنحر عنقه، كان "تميم" يقف
عند رأسه، منتظرًا الإشارة للبدء، اتجهت أنظاره نحو جده الذي رفع عكازه
له، فأخفض الأول يده القابضة على السكين، ليبدأ في ذبحه بخفةٍ وسرعة،
وسط تهليل المتجمهرين. انزعجت الصغيرة "رقية" من المشهد، وخبأت
رأسها في حضن "فيروزة"، التي كانت مرتكزة بحواسها قبل عينيها عليه،
ابتسمت ابتسامة صغيرة وقد وجدت الرد عمليًا على سؤالها، كان خيرًا في

ذبح الأضاحي، كأنما اعتاد ممارسة تلك المهنة منذ فترة طويلة، أو ربما لأنها
حديثه العهد بالاهتمام بشئونه، أصبح العادي من تصرفاته مبهراً لها!

رفرت بجفניה في حرج حين أمسك بها تنظر إليه، ومع ذلك لم ترغب في
الظهور بمظهر الشابة الخجول، حافظت على ثبات نظراتها نحوه، ولدهشتها
لم يحد بعينه عنها، بل كان يمنحها نفس النظرة الهائلة الساهرة، مما أجبرها في
النهاية على إخفاض عينيها، والنظر إلى "رقية"، رأيتها متشبثة بها، فمسحت
على ظهرها بجنو، وطمأنتها قائلة:

خلاص يا "كوكي".

نظرت "رقية" بنصف عين إلى الثور الغارق في دمائه، وهتفت في خوف
غريزي:

عايزة أمشي.

تفهمت عزوفها عن المتابعة، وحملتها من خصرها على ذراعها قائلة بلطف:

ماشي يا حبيبي، تعالي تقعد في المحل.

استوقفتها "همسة" متسائلة في استغراب:

مش هتتفرجي ولا إيه؟

أجابتها بإيماءة من رأسها نحو الصغيرة:

-لأ، عشان كوكي.

هزت رأسها متابعة بعد تهيدة سريعة:

حبيب أنا جاية معاكو، مش قادرة أقف.

عقبت عليها بنوع من النصيح:

-المفروض ترتاحي.

تأبطت "همسة" ذراع توأمتها الآخر، وراحت تخبرها في مرج، بما يشبه التحذير:

-أيوه، بس عريسك طلع مش سهل، خدي بالك لتزعليه!

ردت عليها "فيروزة" باستنكارٍ مازح:

-أومال عملتيه عريسي؟

قالت في حمايس:

حطبًا يا بنتي، ده أنا مستنية اليوم اللي أفرح فيه بيكي.

تحولت تعاير "فيروزة" للجدية، وهي تؤكد عليها:

-ماشي، بس أنا قادرة أزعله لو زعلني، أنا مش هينة!

برقت عينا "همسة" في قلبي، وهي تتطلع إلى شقيقتها لتردف بعدها:

-ربنا يستر، شكلها كده هتحصل بينكم معارك لو اتخانقتوا.

ضحكت عاليًا في تلقائية وقد تخيلت المشهد، حين يتجادلان معًا على أمر ما، وهي بطبيعة الحال ليست من ضعاف الشخصية لترضى بالأمر الواقع وتصمت، وهو مثلها، لن يمرر الأمر على خير، حتمًا سينشأ الصدام بينهما، وسيكون البقاء فيه للأقوى! توقفت عن القهقهة لتتطرق بعدها بصوت شبه لاهث، وعيناها تدمعان من الفرحة:

حطب يالا بينا.

مكث ثلاثتهن في داخل الدكان غالبية الوقت، وطارت النظرات المداعبة بين الحين والآخر في الهواء بين عصفوري الحب، فتشعل الرغبة في نفس المعذب بطاووسه الأبيض، وتشير التوق في كيان الحائرة بفارس أحلامها المنتظر.

مضى حفل الافتتاح على خير، وعاد الجميع إلى منازلهم، بعد اتفاق مسبق على القدوم لبيت العروس في غضون أسبوع.

.....

أيام ما قبل مجيء أهل العريس إلى المنزل، للتقدم لها رسميًا وخطبتها، جلبت عليها المزيد من الضغوطات، والصدمات الشفهية مع والدتها،

فالأخيرة كانت تصر على بقائها في المنزل، والاستعداد كأبي فتاة تخوض
نفس الظرف السار، من شراء ثوب جديد، زيارة مصففة الشعر، والعناية
ببشرتها في أحد مراكز التجميل، بالإضافة إلى تنظيف كامل غرف المنزل
وإعداد الصالون لاستقبالهم بالشكل الذي يليق بالحدث.

لكن رغبات أمها لم تتوافق مع شغفها لإنجاح عملها، فكان النقاش بينهما ينتهي
بغير خير، ويزيد من المشاحنات وتوتر الأجواء. اقتربت "آمنة" من ابنتها
تهرها في ضيق كبير:

-حتى النهاردة نازلة كمان؟

ربطت "فيروزه" طرفي حجابها الأخضر بمشبك معدني وهي تجهيها:
-أيوه.

استندت والدتها على إطار باب غرفتها تسألها بتعابير حائرة:

-وهتروحي إمتي للكوافيرة؟

قبل أن تبادر بالرد، كانت "آمنة" الأسبق في التهم:

-والعريس وأهله هنا في البيت؟

ابتسمت "فيروزه" في برود وهي تعلق عليها:

- ما أنا مش هروح.

شهقت والدتها صائحة في صدمة، وسبابتها تتحرك صعودًا وهبوطًا في الهواء وهي تشير إليها:

-أومال هتقابليه بالمنظر ده؟

بنفس الهدوء المستفز قالت "فيروزة" وهي تغلق زرار ياقة بلوزتها المائلة للاصفرار:

-ما هو عارف شكلي.

هتفت والدتها تهرها في ضجرٍ بعد أن تقدمت نحوها:

يا بنتي اهتمي بمظهرك، الناس هتقول إيه؟

ردت غير مبالية وهي تتفقد ما بداخل حقيبة يدها بعد أن انتهت ارتداء كامل ثيابها:

-اطمني، ولا يفرقوا معايا الناس.

استنشقت "آمنة" الهواء بعمق، لتثبط به من نوبة انفعالٍ وشيكة، لتسألها بعدها بترقب:

طيب جبتي فستان جديد؟

اتجهت عينا "فيروزه" نحو خزانة ثيابها عندما أجابتها باسترسالٍ هادئ:

-لا، هلبس واحد كان عندي في الدولاب، شكله مناسب.

هنا خرجت عن طور سكونها لتصرخ فيها بترمت:

-كمان! اعمل فيكي إيه بس يا "فيروزه"؟ إنتي هتجنيني معاكي؟ مش عايزة تسمعي كلامي نهائي.

تجهمت تعبيرات ابنتها، ورمقتها بنظرة مزعوجة وهي ترد:

-في إيه يا ماما؟ إنتي مكبرة الموضوع ليه؟

بحنقٍ متزايدٍ أخبرتها في بساطة:

-ده جواز.

صححت لها بابتسامة صغيرة كادت تضاعف من جنونها:

-لسه خطوبة.

ردت عليها في غيظٍ، والشرر الغاضب ينتفض في حدقتها:

-ما هو آخرتها جواز، والعريس ده لقطة، مليون واحدة تتمناه، إيه هتضيعيه من إيدك؟

مطت شفتيها معلقة في ثقة، وهي تتجه نحو باب الغرفة:

لو مش عجباه وأنا كده يشوف غيري، احنا فيها لسه!

ضربت "آمنة" يديها على فخذها، كتعبير عن نقمها من تصرفها غير
المبالية، وصاحت فيها باستياء:

-أنا غلبت معاكي.

تغاضت "فيروزه" عن نوبة حقها اليومية لتتطلع إلى ابنة خالها التي
أمسكت بطرفي ثوبها الذهبي تسألها:

-شكلي حلو؟

رمقتها بنظرة مدققة شملتها من رأسها لأخص قدميها، فرأته يبرز غالبية
ساقها، وينحصر عند رديها بشكل غير مستحب، كما أن تناسق أكتافه لم
يكن متماشياً مع عرضها، ومع هذا حافظت "فيروزه" على بسمتها وهي ترد:

عسل أوي يا "كوكي"، يالا غيره عشان مايتهدلش.

ركضت الصغيرة إلى الغرفة الأخرى، حينها التفتت إلى والدتها تكلمها في
جدية:

-الفستان مش قصير شوية يا ماما؟

ردت عليها "آمنة" بوجه شبه مهموم:

هي ماشاء الله طولت، ومكوتتش واخدة بالي إنه مش هايكون مناسب ليها، في الليلة الكبيرة هاشتريلها واحد جديد، المهم خيلنا فيكي إنتي.

عادت "رقية" لتقول في براءة:

-عمتو، مش عارفة أطلع الفستان.

أدارت "آمنة" الصغيرة للناحية الأخرى، لتتمكن من حل أشرطة الثوب المعقودة، بينما خاطبت الطفلة ابنة عمتها:

-أنا هالبس زيك يا "فيرو".

جثت "فيروزة" على ركبتيها أمامها، وطبعت قبلة رقيقة على وجنتها، ثم قرصت بيدها خدها الآخر وهي تؤكد لها:

ما إنتي أحلى عروسة عندنا.

حدجت "آمنة" ابنتها بنظرة صارمة وهي تؤكد عليها:

متأخرينش.

نظرت إليها "فيروزة" من فوق كتف الصغيرة قائلة بامتعاض:

طيب.

ثم ودعت الصغيرة قبل أن تهض واقفة وتخرج من الغرفة، متجهة إلى باب المنزل، بمجرد أن فتحتَه وجدت توأمها تصعد الدرجات الأخيرة لتبلغ البسطة. اتسعت عينا "همسة" في دهشة، وهتفت متسائلة بنبرة ذاهلة:

-إيه ده؟ معقولة إنتي نازلة النهاردة؟

تدلى فكها السفلي في تعجبٍ من استخدامهما لنفس أسلوب والدتهما، وردت بتذمر:

-في إيه جماعة؟ إنتو مستغربين ليه؟ ده لسه ربط كلام، واتفاقات، مش حاجة يعني مهمة.

جاءها ردها المبرر لاستنكارها:

-أصل اليوم ده بالذات، الواحدة بتبقى مشغولة فيه من صباحية ربنا.

كبتت "فيروزه" ضيقها من تضخيم الأمر، وردت في سخافة:

-الكلام ده لو أنا فاضية للتفاهات دي.

على ما يبدو سمعت والدتها تتمررها الواضح على الأمر، واستهزائها بالمعتاد من تصرفات في مثل هذا اليوم، فصاحت من خلفها في حدة:

تعالى يا "همسة" لأحسن أختك هترفع ضغطي بعمايلها.

ولجت الأخيرة لداخل المنزل، وقالت مُلطفة:

-سببها على راحتها يا ماما.

رمقت "فيروزه" والدتها بنظرة غير راضية، لم تتخلَ عن هدوئها وهي ترد
بابتسامة متسعة:

-مش أول مرة أخطب فيها يا ماما، مش لازم نكبر الموضوع.

كادت أن ترد عليها "آمنة"؛ لكنها أسرعت بالخروج وإغلاق الباب خلفها،
لتهبط السلم وهي تدمدم بامتعاض، وبصوت مرتفع نسيبًا:

-ما هي جوازة زي أي جوازة والسلام.

لم تتوقع مُطلقًا أن يسمع "تميم" تدميرها الواضح وهو يصعد أول الدرج المؤدي
إلى بيتها، حاملاً في يديه علبة حلوى مغلفة، ليقول لها بنبرة أقرب للعتاب،
وهو ينظر إليها بعينين تحويان لمحة من الحزن:

-لأ مش زي أي جوازة.

حلت الصدمة على كامل قسماتها، فاندفعت كتلة من الدماء إلى بشرتها،
لتلهبها بحمرة حرجة للغاية، تمت لو كانت قد أطبقت على شفثها،
واحتفظت لنفسها برأيها، فلا تفصح عنه هكذا علنًا، وتتعرض لمثل هذا
الموقف المخجل. محممت مبررة بما يشبه الاعتذار:

-أنا .. مقصدهش، دي زلة لسان، عادي يعني.

أراد أن يكون القادم في نقاشهما إن اختلفا في الرأي قائماً على الاحترام والتقدير، لا الإجبار والترهيب، لذا سعى تلك المرة أن يكون صارماً معها لا غاضباً، حتى تدرك خطئها غير المتعمد في حقه، انقلبت تعابير الصافية لأخرى منزعة وهو يرد:

-حصل خير.

ظلت أنظارها عليه وهو يكمل صعوده إلى أن توقف قبل درجتين منها، تفرست في وجهه متسائلة بتردد:

-إنت زعلان؟

أكثر ما كان يؤرقه في هذا الموقف، أن يكون قبولها به، مبنياً على العقل لا المشاعر؛ فحبه العميق لها يستحق أن يحظى بفرصته كاملة، وتدركه بكل جوارحها. تهدد "تميم" بعمق قبل أن يجاوب على سؤالها بآخر موجز؛ لكنه غني الكثير:

-هتفرق؟

ضغطت على شفيتها في ندم، واشتدت قبضتها على يد حقيبتها المعلقة على كتفها، لتنطق بعد هنيهة في تلثم خفيف :

صدقني معرفش إنك طالع على السلم.

أسبل عينيه قائلًا في وجوم:

عشان مكتوبلي أعرف رأيك ناحيتي، وإني مش مهم عندك.

هتفت مدافعة على الفور وهي تشير بسبابتها:

أنا مقولتش كده على الفكرة، الحكاية إن ماما ضاغطة عليا بحاجات كتير، وأنا مش حابة كده، عايزة الأمور تمشي بسلاسة، ده بس والله اللي مخليني متوترة، وبأقول أي كلام من زهقي؛ بس أكيد إنت مهم عندي، وإلا مكوئتش وافقت.

جاءت جملتها الأخيرة مُرضية له بشدة، وأبعدت عنه أي هواجس مقلقة، ورغم هذا قرر ألا يبدو ليئًا متساهلاً معها، لهذا بدا أسلوبه رسميًا للغاية وهو يعقب عليها:

خلاص يا أبله.

رمشت بعينها تسأله في شك:

شكلي عكيت الدنيا جامد، صح؟!

صمت ولم يجيبها، فبادرت معتذرة بروتينية:

-متزعلش، خلاص.

اغتاظ من أسلوبها الجامد الخالي من اللطف، واستمر في تعامله الجاف معها، بقوله الجاد وهو يمد يديه بالعلبة:

-أنا كنت جايب دول، اتفضلي.

ناولها العلبة كما لو كان يعطي أحدهم قفصًا من الفاكهة، بالكاد نجحت في الإمساك بها قبل أن تسقط من يديها بسبب ثقلها، انزوى ما بين حاجبيها في إنكارٍ مزعوج، كما انفرجت شفتاها عن صدمة غريبة لطريقته شبه الوحشة. هتفت تناديه بتعابير ضائقة :

-يا معلم "تيم" آ..

تجاهل الإصغاء لها عن عمدٍ، وأولاهها ظهره ليهبط الدرج وهو يقول:

-نتقابل بالليل، سلام عليكم.

شيخته بنظراتٍ مليئة بالذهول حتى غاب عن أنظارها، لا تصدق ما حدث للتو، جلست على الدرج موبخة نفسها في حدة:

-أوف، إيه اللي هبته ده؟

انخفضت نظراتها على العلبة المغلقة، كانت الماركة التجارية المحفورة عليها تشير لأشهر محال صنع قوالب الحلوى شهية المذاق، نفخت مجددًا في

ضيق أكبر؛ لكن ما لبث أن تحول الزفير إلى شهقة خافتة مصدومة عندما ظهر "تميم" على الدرج من جديد ليخاطبها بملامحه الجامدة:

-معلش، في كلمة محشورة في زوري وعاوز أقولها.

رمقته بنظرة متسائلة، فأجاب بعنجهية ملموسة في نبرته، وهو يصعد السلم ببطء:

-بكرة لما أتجوزك هتعرفي مين هو "تميم سلطان"، واني مش زي أي حد.

حين بات قريباً منها، أحنى جذعه للأمام، ليبدو وجهه على بُعد مسافة شبرين من وجهها، اتسعت حدقتها ذهولاً من قربه الموتر لها، نظر مباشرة في لؤلؤتيها، لتشعر بنظراته تخترقها، أراد مناوشتها، اللعب بأعصابها، لئلا تظن أن العبث معه يسهل تمريره.

رأت "فيروزة" في نظراته التي احتوتها مع هذا التقارب الجسدي الموتر- شيئاً من العبثية، ضمت شفتيها، وازدرت ريقها، وهي ما تزال تحملق فيه بنفس التعابير المصدومة من جرأته غير المتوقعة. استطرد "تميم" يخاطبها في همس ومعتزفاً بقصد، وبنفس النبرة الواثقة، حتى شعرت أنها توقفت عن التنفس في وجوده:

-وبقولك أتجوزك مش نتجوز، عشان أنا عايزك ليا أكثر ما إنتي عاوزاني بمراحل.

منحها قبلة سريعة في الهواء بشفتيه، شعرت على الفور بتأثيرها على بشرتها التي اصطبغت بحمرة ساخنة للغاية، وبالطبع لن تكون غير ملحوظة له! ارتخت تعابير الجادة، ولانت نظراته نحوها قبل أن يستقيم واقفاً ويهبط الدرج مغادراً مثلما جاء في خفة. استغرقها الأمر لحظة لتستعيد انتظام أنفاسها المقطوعة، أحست بدقات قلبها تتلاحق في توتر أكبر، بلعت ريقاً غير موجود في جوفها وهي تتساءل في غرابة ممتزجة بالدهشة:

مغرور ده ولا إيه؟

هزت رأسها للجانبين، وهي ما تزال على وضعيتها المدهوشة، لتكمل متسائلة:

مين يعني "تميم سلطان"؟

أتاها صوته محذراً من الأسفل:

أنا سامعك على فكرة، فبلاش نغلط بدل ما أطلعلك!

انتفضت قافزة من مكانها في حرج مضاعف، كادت فيه أن تفقد اتزان علبة الحلوى، متوقعة أن يقوم بشيء متهور، تجمدت للحظات وهي تنظر من فرجة الدرازين، إلى أن تأكدت من ذهابه، حينئذ استقرت جالسة في مكانها، لتضع يدها على فمها تكتمه، وصوت بعقلها يردد في حيرة لا تخلو من شعورٍ بالمرح:

هو إيه اللي عمله ده، أنا مالي اتكسفت كده ليه

!!!؟

.....

الفصل المائة أربعة وأربعون

أفادها وجود بعض قصائدها القطنية القديمة في دولابها، لتبدل فيها بأريحية، فلا تتقيد بنفس الشيا طوال اليوم. خرجت "همسة" من غرفة نومها السابقة تتجه إلى البهو وهي تعقد شعرها كعكة، بصرت والدتها وهي تجلس

وفي يدها هاتفها المحمول، جلست بجذرٍ على الأريكة المواجهة لها، وتفرست
في وجهها متسائلة في حيرة:

-إنتي بتعملي إيه يا ماما؟

أشارت لها بيدها لتصمت، فألحت عليها بفضول:

-هتكلمي مين؟

وضعت "آمنة" الهاتف على أذنها، وأجابت:

-عمك "إسماعيل".

برزت عيناها في صدمةٍ مستنكرة، ورددت بفمٍ مفتوح:

-نعم!

بتعابيرٍ مالت للجدية بررت لها اتصالها:

-أيوه، لازم يعرف، مايصحش يبقى زيه زي الغريب، ويكون آخر واحد
عنده خبر بخطوبة أختك.

حذرتها "همسة" في توجيسٍ ظهرت آثاره على تقاسيم وجهها:

-بلاش يا ماما، "فيروزة" هتزعل.

بساجة غير مستلذة تساءلت:

-ودي فيها إيه يزعل بس؟

اشتعلت نظراتها، وهتفت في استهجانٍ شديد، وقد تقلصت عضلات وجهها:

-مش معقول نسيقي كل اللي عمله ابنه كده بالساهل؟!!!

علقت عليها بتجهم:

-أنا ماليش دعوة بابنه، أنا ليا لي الحاج "إسماعيل"، وده واجب عليا.

همت بالاعتراض عليها؛ لكنها أسكتتها بإشارة صارمة من عينيها:

-بس بقى عشان التليفون بيرن.

لم تكن "همسة" راضية عن تصرف والدتها، ولم تستطع للأسف منعها من إجراء تلك المكالمة. ارتسمت ابتسامة زائفة على وجه "آمنة" حين استهلت قائلة:

-ألو، سلام عليكم، حاج "إسماعيل".

أتاها صوتًا أثويًا مُصححًا في رسمية:

-لا، أنا "سعاد" يا "آمنة".

ردت عليه بحاجبين معقودين في استغراب:

-الله! أومال فين الحاج "إسماعيل"؟

جاوبتها برود محسوس في نبرتها:

-نسى تليفونه في البيت، وبعدين مافيش إزيك ولا حتى سلامات؟

انقلبت ملامح وجه "آمنة" إلى حد ما، و"سعاد" ما تزال توبخها بجدّة:

-خلاص اتنست كل حاجة؟ طب نراعي إن كان بينا عيش وملح!!!

ردت قائلة في حرج:

-لا ماتقوليش كده، أنا بس اتوغوشت لما ملاقتوش رد.

تعجبت "همسة" من موقف والدتها غير الحازم في تعاملها مع من تسببوا في إلحاق الأذى الجسيم بشقيقتها، اشتاطت غضبًا، وامتلاّت عينها بالحنق، حاولت الإشارة لوالدتها وإبلاغها بإنهاء المكالمة؛ لكنها تجاهلتها، وأصغت إلى "سعاد" وهي تسألها بجفاء:

-هو إنتي كنتي عايزاه في حاجة مهمة؟

تهدت سريعًا قبل أن تخبرها على مهل:

-أنا كنت بس هاعرفه إن "فيروزة" بنتي هتتخطب.

تفاجأت بها تصرخ فيها:

فرطتي في لحمك يا "آمنة"، وطلعتيه للغريب؟!!

اختلج وجهها بقليلٍ من الضيق وهي ترد متسائلة:

ليه بتقولي كده؟

أخبرتها بنفس الصوت الهادر المليء بالغضب:

مش ابني كان أولى بيها؟ على الأقل كان هيراعي ربنا فيها، ويلم عرضها.

استمرت على موقفها المتراخي وهي تنطق بشفاه ممتعة:

-كل شيء نصيب.

صوت "سعاد" كان مسموعًا عبر الهاتف وهي تواصل صياحها اللائم بغير حق:

-إنتي لو كنتي عاملة حساب للعشرة مكونتيش إديتها للغريب.

أخيرًا لجأت "آمنة" للحدة معها بعد أن يئست ابنتها منها، فخاطبتها بحمئة:

يا "سعاد" ده إنتي ابنك مخلف وفي رقبتة أورطة عيال، وهي مابقتش تنفعه، وكل واحد أدري بظروفه.

راحت تعلق بوقاحة:

-وده يمنع يعني؟ طالما قادر يفتح بدل البيت اتنين وتلاتة وأربعة، وكله بشرع ربنا، كان هيعملها الحلو كله.

هتفت محتجة في تبرم:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، بس ده ما يرضيش ربنا ...

وقبل أن تبادر بالهجوم عليها، لانت نبرتها وهي تكمل سريعًا جملتها:

-عمومًا مالوش لازمة العتاب، ربنا بيختله مع حد أحسن.

هدرت بها بسخط:

-إزاي يا حسرة؟ ما كفاية اللي اتعمل فيه من القريب قبل الغريب.

على الفور اندفعت "آمنة" تقول:

ما ابنك غلط في حق بنتي، وقال كلام عنها مايصحش، ده غير البهدة وآ...

قاطعتها مبررة سوء أخلاقه بوقاحة:

-وزة شيطان، إيه نعلقه المشنقة؟ إيه مافيش شوية رحمة في قلوبكم؟ ده ربنا غفور رحيم.

أدركت "آمنة" أن جدالها العقيم معها لن يصل بها إلى شيء سوى إحراق
دمها، واستثارة أعصابها، أطلقت زفرة سريعة، وقالت في تعجلٍ:

-ربنا يهديه، وأنا عرفتكُم باللي ناويين عليه.

دمدمت "سعاد" معقبة بنبرتها العالية:

هبقى أبلغ الحاج لما يرجع من برا.

ردت عليها على مهلٍ، وقد شعرت أنها خرجت من معركة مرهقة
للأعصاب:

إن شاء الله، وآ...

لم تكمل جملتها للنهاية، فقد انقطع الاتصال فجأة، أبعدت "آمنة" الهاتف عن
أذنها لتتظر إليه مصدومة، قبل أن تنطق في ذهولٍ بائن على وجهها:

دي قفلت السكة في وشي.

هبت "همسة" واقفة رغم شعورها بالآلم من الحركة المباغته، وعاتبت والدتها
بغيطٍ:

إتي غلطانة والله يا ماما إنك بتكلمهم، صدقيني "فيروزة" لو عرفت
هتضايق جدًا.

رغم الكدر الظاهر في عيني "آمنة" إلا أنها ردت بسقم:
خلاص ماتقوليلهاش.

ما لم تضعه الاثنان في الحسبان، هو عودة "فيروزة" إلى المنزل وفي يدها
علبة الحلوى، وزعت نظراتها بينهما متسائلة في فضول:
هو إيه ده اللي هتضايق منه؟

حملت "همسة" بعينين متسعيتين مليئتين بالتوجس والقلق في وجه توأمتها
وهي تحرك شفيتها لتتطق:

- "فيروزة"!!

سألته "آمنة" بدهشة لا تقل عن ابنتها:

إنتي رجعتي ليه؟

بدا من السخافة أن تخبرهما بالموقف المرح الذي تعرضت له قبل قليل على
الدرج، لهذا حاولت اختلاق عذراً مقنعاً لا يثير الاسترابة في نفسيهما،
تنحنحت قائلة وهي تضع العلبة على الطاولة المستديرة:

ده آ.. أنا لما كنت تحت، لاقيت العريس باعت العلبة دي لينا، فأنا
خدتها، وطلعتها.

رجت في نفسها ألا يحاول الاستعلام منها عن المزيد من التفاصيل،
وشعرت بالارتياح يتسلل إليها حين أقبلت والدتها على العتبة لتنظر إلى ما
بداخلها وهي تقول:

ناس ولاد أصول.

فضت الشرائط عنها لتفتحها، فتطلع ثلاثهن إلى قالب الحلوى الأبيض
المليء بكافة أنواع الفواكه الغارقة في شراب العسل، سال لعاب "همسة"،
وهتفت قائلة في انبهار، وهي تمد إصبعها لتذوق طرفها المغري :

ماشاءالله، ده من أحفم المحلات اللي هنا وأغلاها.

ضربت "آمنة" على يد ابنتها قبل أن تصل إليها، وصاحت في حزم:

-أنا هحطها في التلاجة، بدل ما تتبدل برا.

ردت "همسة" في تدمر:

حطب أنا عاوزة أدوق.

رمقتها بتلك النظرة الصارمة وهي تقول:

-بعدين، مش دلوقتي.

ثم انحنى لتحملها في حرص واضح، بينما تحركت "فيروزة" للجانب وهي تتسائل في فضول:

-مردتوش عليا، إيه اللي هيضايقتني؟

حاولت توأمتها المناص من إجابتها بالادعاء وهي تبتسم في سخافة:

-ماتحطيش في بالك يا "فيرو".

شعرت أنه وراء تلك الابتسامة الغريبة ما تخفيه عنه، أمعنت النظر في وجهها متسائلة بجدية:

-ناويين على إيه؟ قولوا!

تهربت منها قائلة بتلعثم:

-أنا هشوف "كوكي" فين.

ساورتها الشكوك بصدق حدسها، فدنت من والدتها تسألها بإصرار:

-في إيه يا ماما؟

لم تكلف "آمنة" نفسها عناء مراعاة شعورها، وقالت بغير احتراز:

-أصل آ.. أنا كلمت مرات عمك أعرفها بخطوبتك.

وكأنها ببساطة ضغطت عن عمد، على زر التفجير المتصل بإحدى القنابل الموقوتة، فصاحت فيها "فيروزة" بغضبٍ تصاعد إلى رأسها مندفعًا بقوة:

-تاني يا ماما؟ للدرجادي هونت عليكي؟ كل اللي عمله فيا اتمسح بأستيكة؟

عللت لها بما ضاعف من حنقها:

-أنا عملت الأصول.

ردت عليها بصراخ:

-الأصول؟ هي دي الحجة المرادي؟

نظرت "آمنة" إلى ابنتها قائلة بما بدا وكأنه استفزاز لها:

-محصلش حاجة لكل ده، هما كلمتين، وانتهى الموضوع!

هدرت بانفعالٍ لم ولن يخبت:

-يا سلام، بالبساطة كده؟

عادت "همسة" إلى الخارج ترجو شقيقتها:

-بالراحة يا "فيرو"، هي ماما متقصدهش.

تطلعت "فيروزة" إلى والدتها بنظراتٍ حائرة مليئة بالكمد والغضب، أبت الكلمات أن تخرج من بين شفتيها لتلومها، فالأخيرة لن تشعر بتأنيب الضمير وإن رأتها تحترق حية قبالتها، لم تستطع البقاء وملازمة مكانها ساكنة دون أن تنهز، لهذا كان الأسلم لها الابتعاد مؤقتًا قبل أن تُطيح بالجميع في لحظة غضبها الأعمى، اندفعت ركضًا نحو الباب لتخرج من المنزل، و"همسة" من ورائها تحاول اللحاق بها وهي تناديهما:

- "فيروزة"، استني هنا!

لم تصغ لها، وشفقت الباب خلفها بعنفٍ، لتظل "همسة" عالقة في مكانها وهي تشعر بالأسى على حال توأمتها، استدارت ناظرة إلى أمها لتعاتبها في غيظٍ:

مش قولتلك هتزل يا ماما لو عرفت، يا ريتك ما قولتيلها.

هزت "آمنة" مرددة في برودٍ قبل أن تتجه للمطبخ:

هعمل إيه يعني، كنت مغسلة وضامنة الجنة؟!

ساعدتها على تجاوز هذا الإحساس الخانق تجولها غير المشروط على كورنيش البحر لمدة لا بأس بها، سبقه مكالمة موجزة مع طبيبتها التي أرشدتها لطريقة آمنة للتنفيس عن الحنق المكبوت بداخلها، لئلا تغرق في

دوامة الغضب الأهوج، وتفعل ما لا يُحمد عقباه، كذلك حثتها على تذكر الأشياء الجيدة والإيجابية لتعزز من الذكريات السارة في مخيلتها، ولحظها كان هو بطل اليوم بلا منازع.

وجدت "فيروزة" نفسها تبتسم من استحضارها لمشهد إخراجها لها على السلم، وكيف تجرأ وأرسل لها قبلة في الهواء، كالصبية المراهقين حين يتغزلون بالفتيات. تأملت قدماها من كثرة المشي، فتلفتت حولها لتحدد أين أصبحت، لحسن حظها، كانت قرية من الطريق المؤدي إلى دكانها، لهذا عبرت الشارع الرئيسي، وانتقلت منه إلى آخر فرعي، لتخرج عبر بضعة أزقة حتى وصلت إلى وجهتها، قصدت تجنب السير في الطريق المشترك بين دكانها، ودكان عائلة "سلطان"، فلم تكن قادرة على مواجهة "تميم" بعد موقفه الأخير معها.

وحين وصلت للزقاق الموجود عند ناصيته دكانها، رأت بضعة عمال يقومون بحفره طولياً بآلة مزعجة، من أجل تبديل مواسير الصرف الصحي، حذرهم أحدهم مشدداً:

خدي بالك يا أستاذة، الشارع ده، والي بعده هيتقفلوا عشان الحفر. وضعت يدها على أذنها لتخفف من حدة الإزعاج الشديد، وقالت وهي تومئ برأسها:

حاضر.

بالكاد نجحت في الوصول قبل أن تعلق فيه، ولجت إلى داخل دكانها، ألقت التحية على مساعدتها، ثم جلست خلف مكتبها تنتظر الزبائن بذهنٍ صافن، ما زالت بقايا مكالمة والدتها تؤثر عليها، وجاهدت لتتجاوز الشعور المؤلم، لتنظر إلى ميدالية الطاووس الموضوعة على سطح مكتبها، تلمستها بطرفي إصبعيها، وكررت نفس الجملة السابقة بابتسامة هازئة:

مين يعني "تميم سلطان"؟!!

خفق قلبها في رهبةٍ حين سمعت أحدهم يسألها بغتة:

إنتي بتكلمي نفسك؟

وضعت يدها على قلبها تتحسسه، ونظرت بعينين جاحظتين إلى "علا" التي جاءت لزيارتها. تنفست الصعداء لأنه لم يكن هو، حقًا لن تكون مسرورة إن أخرجها مجددًا، وفي العلن. لفظت دفعة من الهواء عن رثتها تثبط به النهجان المفاجئ الذي أصابها قبل أن تردد:

يا شيخة خضتيني!

ردت عليها وهي تجلس على المقعد المواجه لها:

ما إنتي سرحانة من الصبح!

تهدت "فيروزه" بعمقٍ، وسألتها في روتينية:

إيه أخبارك يا "علا"؟

أجابتها بتذمرٍ بعد أن أراحت ظهرها للخلف:

ده أختك طلع معاها حق فعلاً!

نظرت إليها في عدم فهمٍ قبل أن تنتفض مصدومة على نهوض رفيقتها
المفاجئ لتصيح بها بصوتٍ مرتفع:

إنتي ساية الدنيا تضرب قلب وقاعدة هنا؟

أشارت لها بالجلوس وهي تخبرها:

عادي يا "علا"، اقعدي بس، في إيه؟

دارت حول المكتب لتجذبها من ذراعها، وهي ترد في إصرار:

قومي يا بنتي، بطلي بواخة، ده إنتي عروسة.

حاولت المناص منها، وتحرير ذراعها قائلة بتعابير شبه مكفهرة:

بالله عليكي سبيني.

ردت في عناد:

-لأ مش هاسيبك.

نجحت "فيروزة" في استعادة ذراعها، وقالت بعبوس ملحوظ وهي تنهض بدورها من مكانها:

-بالله عليكي سبيني، أنا مش ناقصة.

شعرت بوجود خطب ما بها، فسألتها في نبرة مهتمة:

-حصل إيه؟ الخطوبة اتفركشت؟ إتي قادرة وتعملها.

ابتسمت لاستظرافها الزائد، وقالت في وجوم:

-لأ لسه.

هزت رأسها تسألها بنفس الفضول المهم:

-أومال في إيه؟

أجابت بعد زفير طويل:

-ماما كلمت عمي بعد كل اللي اتعمل فيا من ابنه.

وضعت "علا" يدها على فمها مستنكرة ما سمعته، لتبعد كفها متسائلة:

حطب وبعدين؟ عملي إيه؟

قاومت الذكرى المزجة، وجاوبتها بنفس الملامح التعسة:

خرجت من البيت بدل ما أعملها خناقة.

ضحكت "علا" ساخرة من الموقف برمته:

-أد إيه إتي عروسة فقيرة، مامتك عارفة إزاي تنكد عليكي.

زجرتها في تبرم:

-إنتي بتتريقي؟

قالت في مرح:

-أه طبعا لازم أتريق، يا بنتي ارمي ورا ضهرك، بدل ما تفكري في اللي
بيزعلك، ركزي هتخطفي عين عريسك إزاي.

لاحت ابتسامة خفيفة على محياها، وصورة "تميم" تفتحم مخيلتها، لم تختب
بسمتها الرقيقة عندما ردت:

-إنتي هتعملي زيم ولا إيه؟

أومات برأسها مؤكدة:

-أه طبعا، ده الطبيعي على فكرة.

عاودت الجلوس في مقعدها قائلة بفتور يشوبه الانزعاج:
يا "علا" دي قعدة اتفاق، مافيش حاجة لسه رسمي، ليه مكبرين الحكاية؟
جذبتها مرة أخرى لتجبرها النهوض وهي تُصر عليها:
طب قومي يالا، خلي البنات يروحوا بدري، وتعالى نشوف اللي وراانا.
تثاقلت في التجاوب معها، وهتفت بعد زفير سريع:
-ورانا إيه؟ ما الفستان موجود، والطرحة كمان.
عضت "علا" على شفتيها قبل أن تخبرها بغموض:
هو أنا مقولتلكيش!
تخشبّت في مكانها متسائلة بلامح اكتسبت جدية غريبة:
-في إيه؟ عملي إيه إتي كمان؟
ردت مطمئنة إياها:
مش حاجة خطيرة يعني.
رمقتها "فيروزه" بتلك النظرة الحادة وهي تخاطبها بصيغة أمرة:
قولي عملي إيه!

حممت مرددة بابتسامة منمقة:

-بصراحة كده ليا واحدة صاحبتني Fashion Designer (مصممة أزياء)،
وفاتحة بوتيك جديد، فادتني كام فستان ألبسهم كدعاية ليها، وأنا جبتلك
أحلى واحد فيهم عشان النهاردة.

اعترضت عليها بشدة:

-وأنا مش هاقبل بكده.

حاولت أن تبدو هادئة خلال سعيها لإقناعها بالقبول به:

-هو أنا بقولك خديه، أنا بس عايزاكي تبقي شيك، وأحلى واحدة النهاردة.

تمسكت برأيها في عنادٍ غير مُجدي:

ما الفستان موجود.

أومأت برأسها معللة بأكثر وسائلها إقناعاً:

-ماشى، بس ده هايبقى ألطف، وبعدين ده لونه الـ Baby blue (أزرق
فاتح) اللي بتحبينه، هتقولي برضوه لأ؟

رفعت "فيروزة" حاجبها متسائلة في استهزاء:

-كده بتقنعيني؟

تعلقت بذراعها، وردت مبتسمة ابتسامة متسعة:

أه، ويالا بقي ماتنشفيش دماغك، مجاتش على الكام ساعة اللي هتلبسيه فيهم.

نجحت "علا" في جذبها بعيدًا عن مكتبها وهي ما تزال تُصر عليها:

-ويالا بقي، مش عايزين تتأخر.

تذمرت في امتعاض:

يا "علا" ...

قاطعتها بنوع من التهديد المازح:

-والله أشتكيكي لـ "ماهر".

رمقتها "فيروزة" بنظرة متحدية؛ لكنها لم تبالِ وفرضت عليها رأيها وهي

تدفعها دفعًا نحو الخارج:

ما تبقيش غلسة.

استسلمت أمام إلحاحها قائلة بتهيدة:

طيب.

هللت في فرحة، بينما أَلقت "فيروزة" أوامرهما على الفتاتين:

إنتو أجازه يا بنات النهاردة، امشوا وأنا هقفل

سَعِدَت الاثنتان بخبر العطلة المفاجئة، وأخذتا تلملمان أشياءهما في عجلٍ،
لتقوم بعدها "فيروزة" بغلق الدكان، والذهاب بصحبة رفيقتها إلى المنزل.

.....

اضطرت مرغمة للالتفاف حول دكانها، والذهاب من الطريق المعاكس،
حيث يتواجد دكان عائلة "سلطان". اختطفَت "فيروزة" نظرات سريعة
منذ أن أبصرته على مرمى نظرها، لتتأكد من عدم وجود "تميم" به، لحظها لم
يكن ظاهرًا! وهذا أشعرها بالارتياح نوعًا ما، خاصة حين أصبحت وشيكة
من محيطه؛ لكن لمحها "بدير" من مكانها، فلوح لها بيده مناديا إياها، دنت
منه مرحة به:

سلام عليكم، إزي حضرتك؟

نهض من على كرسيه الخشبي يدعوها بترحابٍ أكبر هي ومن معها:

تعالِي يا بنتي، اتفضلوا.

ردت "علا" معذرة في تهذيب:

شكرا يا عمو، احنا مستعجلين شوية.

أصر عليها بنظرة معاتبة:

-وده ينفع كده على الواقف؟ تعالوا حبة.

لم تجد "فيروزة" بداً من البقاء قليلاً، والتفتت ناظرة إلى رفيقتها تطلب منها الموافقة؛ لكنها مالت عليها تهمس لها في أذنها:

-بصي خليكى إتتى، وأنا هسبقتك، وحصيلني لما تخلصي.

كزت على أسنانها متممة في خوفٍ:

ما تفضلي معايا.

رفضت في لباقة:

-لا مش هينفع، أنا هسبقتك.

لم تضغط عليها وأومات برأسها في تفهم، لتتلق بعدها "علا" برقة:

معلش يا عمو ورايا كام حاجة، فهمشي، وفرصة سعيدة.

كان "بدير" غير ممانع في ذهابها، وودعها بابتسامة وقورة:

-شرفتي يا بنتي، مكانك في أي وقت.

غادرت "علا" المكان، وبقيت "فيروزة" واقفة إلى أن أحضر لها أحد العمال
مقعدًا لتجلس عليه، فجدد "بدير" ترحابه بها:

-منورانا يا عروسة.

ابتسمت قائلة في لطف:

-شكرا لحضرتك.

.....

على الجانب الآخر، اخترقت نبرتها المميزة أذنيه وهو يقف في الخلفية يملئ
أوامره على عماله بإفراغ شحنة البضائع الجديدة، وتخزينها بالثلاجة، تجمد في
مكانه شاعرًا بنض قلبه يتصاعد في فرحة عارمة، دار برأسه محاولاً رؤيتها؛
لكنها لم تكن في مرماه، تحرك بخطواتٍ متهمة، حتى بات واقفًا خلف مقدمة
إحدى الشاحنات التي تحجب الرؤية عن مكان تواجده، التوى ثغره
بابتسامة رائعة وهو يراها تتطلع أمامها؛ كأنما تفتش عنه، حدث نفسه في
نشوة مستمتعة:

-ده احنا لسه بنقول يا هادي.

تأكد "تميم" من البقاء بعيدًا عن عينيها حتى تزيد الحيرة فيها، أراد أن تكون
منجذبة إليه بقلبيها قبل عقلها، أن يغمر كيائها الشوق لا المنطق. توارى عن
أنظارها، وأرهف السمع لوالده الذي كركر ضاحكًا، ليازحها بعد ذلك:

-شوفي يا بنتي، إنتي تخليكي كده قاعدة معايا لحد ما يجي وقت الزيارة،
تتحرك ساعتها سوا، ولا تسألني في حد.

شاركته الضحك قبل أن تخبره:

ده كانت ماما قلبت الدنيا.

رد مجاملاً:

-ربنا يباركك فيها.

قالت مبتسمة برقة:

-تسلم يا رب.

تلقائياً أخذت عينا "فيروزة" تبحثان عنه بالداخل لأكثر من مرة، حتى لم
تعد منتبهة لكلام مُحدثها. توقعت أن يظهر في أي لحظة، ويخرجها بنظراته؛
لكن هذا لم يحدث، مما أصابها بقليلٍ من الإحباط، لن تنكر أن التشويق
الذي ساد في حياتها مؤخراً بسببه أضفى عليها الإثارة والحماس، وجعلها
تتطلع إلى المستقبل الواعد، عن البقاء في قاع الماضي المؤلم.

أطالت "فيروزة" النظر إلى داخل الدكان، ولم تلاحظ عيني "بدير" المرتكزة
عليها في تفرس، سألها الأخير مهتماً:

-مالك؟ شكلك مضايقتك؟

تخرجت من ملاحظته لها، وتحجبت بحجة رجت أن تكون مقنعة له، وألا
يظن بها شيئاً آخرًا:

-لأ، مافيش .. ده أنا بس ملبوخة عشان بجهز اللبس بتاعي.

أخبرها عن مدح واضح وهو يشير لها بيده:

طالما القالب حلو، يبقى ولا يهمك.

ابتسمت في حياءٍ، فتابع في تسليّة:

-الواد ابني لو سمعني هيفتكري بعاكسك.

قالت بوجهٍ تورد أكثر:

-حضرتك الخير والبركة.

سألها "بدير" وقد جاء إليه أحد العمال:

تشري إيه؟

اعترضت في تهذيب:

مالوش لزوم، ده أنا يدوم الحق أقوم، وأرجع البيت.

استمر في إصراره عليها:

-كده على الواقف، ماينفعش.

حافظت على إشراقة ابتسامتها وهي ترد:

-ما حضرتك عارف الظروف، والمرات جاية كثير.

قبل أن ينطق الأخير استطرد العامل منادياً:

يا حاج "بدير"!

أدار رأسه ناحيته يسأله بجدية:

-في إيه يا واد؟

أجابه وهو يشير بيده للخلف:

-الحاج "عوف" طالبك على الخط الأرضي.

هز رأسه معقّباً:

طيب، أنا جايله.

قامت "فيروزة" واقفة وهي تستأذن بالذهاب:

-ماشى يا عمي، أنا هسيبك لشغلك، ونتقابل بالليل بقى.

نهض بدوره، وقال:

إن شاء الله يا بنتي، استني أبعت معاكى حد يوصلك.

رفضت بأدب:

-لأ والله، ما يحصل! ده البيت قريب.

بدأت في السير، فسمعتة يدعو لها:

-في حفظ الله.

.....

لأن الاتجاه المجاور لها كان يعج بالعمال المنشغلين في نقل الأقفاس من هذه الشاحنة الضخمة، انخرقت "فيروزه" عن مسارها، وعرجت نحو الاتجاه الآخر، حلت بها الصدمة حين رأت "تميم" يقف في الخلف، مرتكنا على مقدمة سيارته، ويخفض رأسه للأسفل وهو يغمغم بصوتٍ خفيض لم يمكنها من تبين ماهية ما يقوله. عندئذ أمسك التردد بخطواتها، وتجمدت لحظيًا في مكانها متحيرة بين التقدم للأمام، أو التراجع والذهاب من طريقٍ آخر. استجمعت جأشها، وقررت المضي- قدمًا؛ وكأن شيئًا لم يحدث في وقتٍ باكر، رفعت رأسها للأعلى، وخطت بتمهلٍ آمله ألا تلتف ساقها بالأخرى وتتعثر من الارتباك الذي يستبد بها الآن، خاصة مع استحضار ذهنها لذكرى القبله وبقوة .

نفضت الذكرى عن رأسها عنوة، وجبست أنفاسها متابعة تقدمها نحوه بكتفين منتصبين، لمحته من طرف عينها ممسكاً بثمرة تفاح، يقطع أجزائها بمديته، ويضع القطع الصغيرة واحدة تلو الأخرى ليلوكها على مهلٍ، كانت خطواتها تتباطئ وهي تسرق النظرات إليه، إلى أن شتت نظراتها عنه، وأكملت مشيها بقليلٍ من السرعة حتى تتجاوزته.

ظنت "فيروزة" أنه سيلقي التحية بها أو يرحب بها عندما يراها؛ لكنه لم يفعل، كانت كالسراب وهي تمر من جواره، ومع هذا سمعته يدندن بكلمات أغنية شعبية شهيرة، التقطت منها جملاً مقتضبة:

-بنت الجيران شغلالي أنا عينا، وأنا في المكان والخلق حواليا.

خطت مبتعدة عنه والحرص يعتريها، فبديها كانت المقصودة بهذه الكلمات، أوشكت على الابتعاد عنه؛ لكنها توقفت في المنتصف عن السير والتردد مازال ممسكاً بها، ضربت براحة يدها على جانبها بضعة مرات في توتر، ثم التفتت ناظرة إليه، لم تستطع تجاوزه في صمتٍ غير مستحبٍ هكذا!

أمعنت النظر فيه، ما زال على وضعيته المتجاهلة لها، أدركت حينها أنه من المحتمل أن يكون ما يزال غاضباً منها، لأنها كانت فظة بعض الشيء في لقاءها اليوم معه، شعرت بالندم، وتأنيب الضمير، أرادت الاعتذار منه لئلا يحمل في قلبه ضغينة ناحيتها، راحت تقنع نفسها بضرورة فعل ذلك، لذا

عاودت أدراجها، ووقفت قبالة متوقعة أن يلقي عليها التحية؛ لكنها تفاجأت به يدندن:

-وتجيني تلاقيني لسه بخيري.

انزعجت مما اعتبرته وقاحة في استقبالها، وكثفت ساعديها أمام صدرها تسأله في غيظٍ طفيف:

-أفندم؟

كان "تميم" متكلفًا في النظر إليها، وعلق بجفاء:

-في حاجة؟

أجلت أحبال صوتها، وأخبرته وهي تنظر إلى أي شيء سواه:

-أنا جاية أقولك (سوري) على اللي حصل الصبح، أنا كنت سخيفة حبتين معاك، بس والله أنا مقصدش المعنى بتاع إنها زي أي جوازة!

هز كتفيه معلقًا بغير اهتمام:

-عادي.

استفزها بروده رغم محاولتها الاعتذار، فأرخت ساعديها، وواصلت تبرير تصرفها بانفعالٍ قليل، ومستخدمه يدها في التلويح والإشارة:

-وبعدين أنا مضغوطة بقالي كام يوم، وانت موترني على فكرة، كل شوية تظهر قصادي فجأة، يا ريت تبطل كده!

بدا وكأنه ين عليها بالنظر، فرد ذراعيه في الهواء، وصحح لها بإشارة من حاجبه:

على فكرة أنا واقف في دكاني، ماتنقلتش من مكاني.

أصاها الحرج الشديد، وردت في تعجلٍ محاولة عدم إشعاره بما يعتريها الآن من ربكة غريبة:

-وان يكن، برضوه تاخد بالك.

مط فمه للحظة قبل أن يتكلم في النهاية:

-حاضر.

توقعت أن يتجاذب أطراف الحديث معها؛ لكن خابت ظنونها، وظل على وضعية التعجرف في تعامله عندما سألها:

-في حاجة ثاني؟

قالت نافية في عصبية عبرت عن اغتياظها:

-لا.

ضجرت من تعاليه الواضح، ورفعت سبابتها أمام وجهه تهدده بتهور:
-إنت لو فضلت على الأسلوب ده أنا ممكن أقول لأ، وافض الحكاية.
مرة أخرى ظنت أنه سيثور عليها، وتظهر بوادر انفعاله؛ لكنه كان هادئًا حد
البرود عندما علق:

-براحتك، محدش هيجبرك على حاجة ...

فغرت شفيتها مصدومة من ردوده، بينما واصل "تميم" الكلام؛ كأنما يسألها
وهو يضع يده الممسكة بالمديّة على صدره بعد أن طواها، وعيناها تتطلعان
لها بنظرة دافئة:

-بس يرضيكي تكسري بقلبي، وبخاطر جدي، وتزعلي كل اللي بيحبوكي؟
تلبكت أمام كلماته الناعمة التي تسالت أسفل جلدّها، وبدأ تأثيرها ينعكس
عليها، ما بال الحمرة معها؟ دومًا تنشط في بشرتها عند وجودها معه. استمر
"تميم" في مخاطبتها بأسلوبه المراوغ، وهو يرفع يديه للأعلى:

-وأنا ساعتها مش هاعمل حاجة غير إني أدعي في كل صلاة، وأقول يا
رب، إنت شايف أهوو يا رب اللي بتعمله فيا.

شهقت متسائلة في ذهول، وقد ارتفع حاجباها للأعلى:

-إنت هتدعي عليا؟

ابتسم في عبثية، وهو يجيها بغمزة من طرف عينه:

-لأ، هدعي ربنا يهديكي وتتجوز.

تصنعت العبوس، وهتفت قائلة:

-أنا ماشية.

أشار لها بالذهاب؛ لكنها تجمدت في مكانها لتخبره بتجهم، وهذه النظرة
الساخرة في عينيها :

-أه، ومكانش ليه لازمة تجيب تورتة، احنا أكيد يعني عاملين حسابنا.

ظل يبتسم لها وهو يرد:

-دي لـ "رقية" مش ليكي.

أخرجها بتعليقه، فحفظاً لما وجهها عقت بغيط:

-أحسن برضوه، أصلاً مايجبش الكريمة.

لم تختب ابتسامته وهو يقول في برود:

-يا ريت أبقى أفكر لو فكرت أجيلك مرة ثانية.

نبح في استفزازها، فهتفت مكررة في غيط:

-أنا ماشية.

لوح بيده مودعًا إياها:

-اتفضلي.

مشيت في خطواتٍ سريعة غاضبة؛ لكنه استوقفها مناديًا:

يا أبله!

توقفت عن السير، والتفت تنظر إليه متسائلة بلامح رسمية:

-أفندم؟

اتسعت ابتسامته وهو يخبرها:

-أنا رأيي تلبسي أبيض حلو عليكي.

رمقته بنظرة مشتاطة قبل أن يأتيه ردها المعارض :

-هلبس أسود.

رفع إبهامه كتعبيرٍ عن إعجابه قبل أن يخبرها في تسلية:

-وماله، هايبقى أحلى وأحلى.

عجرت عن مجاراتها ومناطقها الرأس بالرأس، فتابعت سيرها وهي تغغم
بكلماتٍ متبرمة، سمعته يهتف من خلفها بنبرة عالية وذات مغزى، تأكدت
أنه يقصدها به، فابتسمت في رضا:

خذ يا ابني بالك من التفاح وإنّ بتنقله، ده فرز أول، متنقي بالواحدة،
ومدفع فيه الغالي كله !!

.....

الفصل المائة وخمسة وأربعون

مفهوم الحب من ناحيتها كان محدودًا، قاصرًا على ما قرأت عنه، أو سمعته على الألسن المرددة لنفس العبارات المستهلكة للتعبير عنه؛ لكن معاشته بكافة جوارحها ووجدانها كان للأسف غير متاح لها سابقًا، بل كانت أبعد ما يكون عن التمتع في ملذاته المغرية، أما الآن فلا تستطيع تحديد ماهية الشعور المداعب لقلبيها، أو حتى التفقه لما يختلج صدرها من مشاعر مربكة، بيد أنها تحبذ أساليب المراوغة السائدة فيه، تلك التي تمنحها تارة الأفضلية في شيء، وتعطي ندها تارة أخرى التفوق في شيء آخر على النقيض معها .. الشد والجذب بينهما امتلاً بخليطٍ من التضاد، المصارحة، اللين، الحزم، المتعة، والمرح.

لن تنكر أن الجانب الآخر منه كان مَغِيظًا، مزعجًا لها، ويجعلها تشعر كأنها فتاة بلهاء؛ لكنه رغم هذا كان مفيدًا بشكلٍ ما، فقد ساعدها على اكتشاف

مشاعر لم تختبرها من قبل، انتشل من أعماقها ما ظنت أنه غير موجود بها، ولن يظهر على السطح مهما حدث، أصبحت الآن شابة أخرى غير تلك المهشمة الكارهة لمباهج الحياة، أيعقل أن يكون ارتباطها به قائماً على المشاعر الحقيقية الأصيلة؟ ربما حين تغدو العلاقة رسمية بينهما يتضح لها ما يبدو غير مفهوم -مؤقتاً- في مشاعرها المتخبطة ناحيته.

أدركت "فيروزة" بعد حين أن مناوشته المستفزة لها نجحت في تبديل مزاجها المتعكر، لآخر رائق، يشع بالحماس، ويمتلئ بالنشاط. عادت إلى المنزل على عكس ما خرجت منه، استقبلتها همسة في قلبي ظاهر على وجهها، ودنت منها متسائلة :

عاملة إيه دلوقتي؟ مش عايزاكي تضايقي من آ...

قاطعتها بهدوء، وبإشارة من يدها أمام وجهها:

قفلي على الموضوع ده، أنا مش هتكلم فيه.

ردت مبررة موقفها:

-أنا بس عاوزة أطمئن عليكي.

أخبرتها بعد زفير متمهل:

-أنا كويسة.

حاولت "همسة" التفرس في وجهها لمعرفة سبب هذا التغير العكسي-
الكبير، زادت حيرتها عندما لم تصل لشيء، وسألتها:

هو إيه اللي حصل؟

لاح في مخيلتها مشهد لقائها العابث مع "تميم"، شردت متذكرة تلميحه
المتواري وتشبيهه لها بثمره التفاح، لم تشعر بابتسامتها التي احتلت ثغرها من
أثر الذكرى اللطيفة، شردت للحظات غير منتبهة لشقيقتها التي ظلت تلوح
لها بيدها أمام وجهها بضعة مرات وهي تناديهما:

يا "فيروزة"! إتي معايا؟

انتبهت لها، وقالت بتعابير اكتسبت جدية زائفة:

-أيوه يا "همسة"، في إيه؟

أشارت بسبابتها نحو الردهة وهي تخبرها:

-بقولك دي "علا" موجودة في الأوضة جوا، بتضبط اللوك بتاعك.

تهدت بعمق، وعلقت:

طيب، أنا داخلة عندها.

لم تتجادل "فيروزة" مع والدتها أثناء مرورها على المطبخ، رأيتها منكفأة على الطعام، فابتعدت في صمت، واتجهت إلى غرفتها، مقاومة التعاسة اللحظية التي تنخر في سعادتها، رغمًا عنها يفرض عليها عقلها مقارناتٍ بديهية بين ماضٍ ولى عنها وبين مستقبلٍ قريب منها، سعت جاهدة لتنحية الماضي جانبًا، وإيقاف تلك المقارنات السخيفة، لتركز على من يتسلل رويدًا رويدًا إلى داخل ما بين ضلوعها، آملة بين جنباتها ألا تخيب رجاءاتها في شخصه.

.....

أدلت كل واحدة بدلوها، واحتدم الجدل بينهما إلى حدٍ ما، إلى أن انتهى الأمر بارتدائها الثوب الذي أهدته لها رفيقتها، كان ملائمًا للغاية؛ كأنما تم تفصيل قماشته على جسدها بالضبط. تطلعت "فيروزة" إلى هيتها في المرأة بنظرات طويلة مدققة، وكلتا يديها تمران على جانبيها في بطءٍ، كأنما تشعر بلمسه على أناملها، وضعت "علا" كفيها على كتفيها بعد أن وقفت خلفها، وسألتها وهي تنظر إلى انعكاسها في نفس ذات المرأة:

ها إيه رأيك؟

أحسن رفقتها اختيار التصميم مع اللون، فلم يكن ضيقًا ليرز مفاتها، ولم يكن مبهرجًا بدرجة زائدة تصيب العين بالانزعاج، بل ناسبها بدرجة جعلتها تشعر بالرضا عن حالها، كانت أقرب إلى أميرة خرجت من حكايتها، حيث خلى من فتحة عنقٍ عريضة، فغطى قماشه معظم رقبتها، أما عن كميته، فكانا

ينسابان على طول ذراعها حتى يضيق طرفه عند معصمها، بينما يتموج
الفرستان في طبقاتٍ تزداد اتساعًا بالتدرج بداية من الخصر- وحتى نهاية
الثوب. رسمت "فيروزة" بعينها قائلة في إعجاب :

-الصراحة، هو حلو أوي.

ضحكت "علا" في تفاخر، وعلقت:

عشان تعرفي كان عندي حق.

تصنعت "فيروزة" الجدية، وأخبرتها:

-بس دي لسه قاعدة اتفاق، يعني آ...

قاطعتها قبل أن تكمل جملتها مؤكدة عليها:

-وماله، اتفاق، قراية فاتحة، إن شاء الله جواز، ده مايمنعش إنك تلبسي-
شيك، لنفسك مش لحد ثاني.

جاءت "همسة" ومعها حقيبة معدنية مليئة بمساحيق التجميل ذات
الماركات الشهيرة، وضعتها على التسريحة، وأيديها في رأياها:

- "علا" معاها حق، كنتي فين من بدري، بدل الدوخة دي معاها.

استمرت في ضحكها وهي ترد:

عشان تعرفوا بس ...

امتدت يدها لتنتقي ما ستبدأ استخدامه من الحقيبة وهي تتابع:
حبيب يالا نشوف هنعمل إيه في الميك آب، قبل ما تلبسي الطرحة.

.....

داهمها أضعاف ما كانت تشعر به من توتر، في اللحظات التي سبقت قدوم عائلة "سلطان" إلى المنزل، حاولت التحلي بالهدوء، وضبط نبضاتها المتلاحقة؛ لكن تكالبت حواسها ضدها، كما لو كانت في خصومة معها، ورغم كونها تُعائش نفس الموقف، إلا أن إحساسها فيه كان مُغيّراً، بدت مشاعرهما مرهفة، أكثر حساسية، وأكثر قلقاً عن ذي قبل، وهذا ما لم تستلذه، فهي تفضل الظهور بمظهر الثبات لا التردد أو الارتباك.

رفضت "علا" البقاء معها وحضور اللقاء الودي، وانصرفت بعد أن أنهت مهمتها، متعللة بأن التجمع عائلي، لا يصح أن تتواجد فيه، لتظل "فيروزة" مع شقيقتها في غرفتها، تشبك يديها معاً لتقضي على الرجفة التي تنتابها بين الفنية والأخرى. أمسكت "همسة" بزجاجة العطر ونثرت منها على مقدمة الثوب قائلة:

-كده معدتش في حاجة ناقصة.

سعلت "فيروزة" من الرائحة النفاذة، وطلبت منها:

-كفاية يا "هموس"، ليه كل ده؟

أجابته بقسماتٍ جادة وهي تضيق ما بين حاجبيها:

-يا بنتي الجو حر، وعشان ريحتك تفضل حلوة.

التقطت أنفاسها بعد سعالٍ متكرر، واحتجت قائلة بتبرم:

-بس مش بالشكل ده، أنا نفسي اتخنقت.

استمرت في نثر الرائحة على كل ثوبها وهي تطلب منها:

-خلاص أهوو، خدي الروح تقلي بيه على شفايفك.

انزوى ما بين حاجبيها متسائلة:

-ليه كمان؟ ما هو ثابت.

ابتسمت وهي تعلل لها:

عشان يا حبيبتي يبقى فريش عليك.

سمت "فيروزة" من المبالغة الزائدة منها، وهتفت في نبرة قاطعة:

-مش هاعمل أي حاجة زيادة، أنا كده تمام.

توقفت "همسة" عن إزعاجها، وتركها جالسة على طرف الفراش، ثم تحركت نحو النافذة، لتتطلع إلى الطريق، ما إن رأت السيارات تتوالى تباعًا لتصطف أمام الرصيف المجاور للمنزل، حتى انتشر الحماس في وجهها، وكذلك في نبرتها وهي تقول:

-شكلهم جوم.

تصلبت "فيروزة" في جلستها، وأحست ببلوغ التوتر لديها أقصاه، لجأت للتنفس بعمق لتهدئ من حالها، وتابعت بعينها خروج توأمتها من الباب وهي تشدد عليها مستخدمة أيضًا سبابتها في التأكيد:

خليكي مستنية هنا لحد ما نادى عليك.

صاحت ساخرة في تبرم:

-شوفتني قومت جريت على الباب.

مرت عليها الثواني بطيئة، مرهقة لأعصابها، تعلق عيناها بعتبة الباب حين جاءت إليها "رقية" لتخبرها في براءة وهي تصفق يديها:

-العريس جه يا "فيرو".

أومات برأسها قائلة بسممة متوترة:

-ماشي يا "كوكي".

أشارت لها بيدها لتتحرك وهي تكلمها بعفوية مرحة:

-يا لا عشان تبوسيه.

برزت عيناها في محجريها في ذهول، وهتفت في استهجانٍ شديد:

-نعم؟! عيب الكلام ده!!

بررت لها بلطافة بريئة:

-مش كل العرايس بتعمل كده؟

رمقتها بنظرة صارمة قبل أن تخبرها بنبرة أقرب للتهديد:

-مش أنا يا حبيبتى، ويا ريت منقولش الكلام ده تاني، عشان مازعلكيش، ماشي؟

لوت "رقية" ثغرها، وانقلبت تعبيراتها المبتهجة إلى أخرى عابسة، ثم بضربت
بقدمها الأرض في عصبية، ودمدمت قائلة وهي تركض خارجة من الغرفة:

طيب.

رفعت "فيروزة" كفها إلى وجهها لتتحسس برقة ملمس بشرتها الدافئ،
فصدمة كلمات "رقية" العفوية قد عكست تأثيرها في التو عليها، سحبت من

جديد شهيقًا عميقًا، ورددت لنفسها في حزم؛ كأنما تعزز من طاقة ثباتها،
فلا تظهر عليها أي بادرة ضعفٍ أو خجل:

-نهدي كده مافيش حاجة حصلت!

.....

بحفاوة كبيرة، وترحيبٍ حار استقبلت "آمنة" ضيوفها المنتظرين، وصوت
ضحكاتها الرنان يرن في الأرجاء، أجلستهم بغرفة الصالون لتبادل معهم
حديثًا وديًا تمهيدًا يسبقه أسئلة روتينية عن أحوالهم، قبل أن ينتقل الحوار
إلى الموضوع الذي أتوا من أجله. سحبت "همسة" زوجها نحو الخارج في
حذرٍ، واحتجزته في الردهة لتعاتبه على تأخيره غير المقبول:

-أتأخرت ليه يا "هيثم"؟ مش كنت جيت من بدري؟

كان الإرهاق باديا على ملامحه وهو يجيبها:

-يدوب عقبال ما قفلت كام حاجة، وظبطت مع العمال، ورجعت وغيرت
هدومي.

شمלתه بنظرة فاحصة طافت على بدلتة البنية التي ارتداها على قميص من
اللون البيج، قبل أن تمتد يديها نحو ياقته لتخبره بلهجة شبه آمرة:

-هات أظبطلك الكرافة.

أمسك بطرف رابطة العنق، وقال بتذمر:

-لازمتها إيه الخنقة دي مش فاهم.

ضبطت عقدتها، وجعلت وضيعتها في المنتصف قبل أن تعلق في رضا،
وبابتسامة زهو واضحة:

عشان تبقى شيك.

مازحها "هيثم" بغمزة من طرف عينه:

ليه ناوية تجوزيني ثاني؟

انقلبت تعابيرها للوجوم، وحذرتة بلهجة غير متسامحة:

حطب فكر تعمل كده بس!!

أطلق ضحكة قصيرة، قال بعدها وهو ما زال مبتسمًا:

-أنا اكتفيت بيكي يا "هموسة".

ربتت على جانب ذراعه تستحثة على الحركة وهي تتابع:

-أيوه كده، خليك لطيف، روح مع الضيوف لحد ما أجيب الحاجة الساعة
والجاتوه.

عقب على تعليقها ساخرًا من اهتمامها الزائد:
ضيوف مين؟ دي العيلة يا بنتي، مش حد غريب.
نفخت في نفاذ صبري، وخاطبته بتشدد:
-اسمع الكلام من غير جدال.
غمغم مع نفسه بهسيس غير مفهوم لها:
قولة حاضر بتريح ...
ما لبث أن رسم ابتسامة عريضة على فمه، وهز رأسه قائلاً في طاعة:
حاضر يا ستي.

.....
لم يتخلف "سراج" عن الحضور، فأراد -باعتباره فردًا من العائلة- مشاركة صهره فرحته في إتمام الاتفاق الرسمي مع عائلة زوجته المستقبلية، وربما تقديم الدعم له، وإظهار الأسباب والدوافع الحقيقي إن تطرق الحديث إلى مسألة بقاءه بالسجن، وأصبح عائقًا في إكمال الاتفاق. جلس على يساره ولوح بيدها يدعو له:

-ربنا يتم على خير.

رد "تميم" بلامح يشوبها الخوف:

يا رب.

أردف الجد "سلطان" الجالس على الأريكة العريضة قائلاً:

متقلّش، كله خير.

على عكس ما بدا نهاراً كان "تميم" في أوج قلقه، ردت فعل طاووسه دومًا غير متوقعة، يخشى أن تقوم برفضه للرد على سخافته معها اليوم، لفظ الهواء من صدره على مهلٍ، وهو يدعو الله بصدق أن يتحقق ما يصبو إليه.

حين أطلت بهذا الحُسن السارق للقلوب، والخاطف للعيون، انفتح دولا ب عواطفه الجياشة على مصراعيه، وامتلاّت عيناه بعلاماته الواضحة. أحبا "تميم" بالقدر الذي جعله مستعدًا للتضحية بأي شيء في سبيل أن تبادله نفس المشاعر المتيمة، وتشعر بما يختلج قلبه منذ أن أدرك حقيقة أحاسيسه ناحيتها، ربما بوادر ذلك الوله قد بدأت تداعبها؛ لكنه يريد أن تتمرغ باستمتاع بين صنوفه اللذيذة.

سارت "فيروزة" متبخرة في خطاها، يداها تمسكان بجاني ثوبها، ترفعه قليلاً عن الأرض، لئلا تتعثر فيه؛ تهادت أكثر في مشيتها كأنما تتعمد اللعب على أوتار فؤاده المعذبة بعشقها بهذا التباطؤ المثير. بخلت عليه بنظرة، ويا لها من قاسية! أتحرمه من متعة النظر إليها في هذا اليوم الموعود؟ ألقت

التحية على الجميع، وحرمة من كلمة واحدة، ألن ترأف بعاشق أضناه ذلك
الحب المستحيل؟ حتى في جلستها اختارت الزاوية البعيدة عنه، لتختبر
قوة جلده في حضورها الطاغي.

أراح "تميم" ظهره للخلف، وأخذ يوزع نظراته على جميع المتواجدين في
الغرفة، إلا هي! كانت نظرتة لها قصيرة، مليئة بمزيج من الحب، الرغبة،
الاشتياق، واللهفة! انتبه لصوت والدتها التي بادرت مادحة:

بسم الله ماشاء الله، البدر هل علينا.

انزلت "همسة" قائلة من تلقاء نفسها:

ده كده مش حاطة حاجة يا طنط، بالعافية لما أقنعناها.

ردت عليها "ونيس" بابتسامة يتخلل الضحك:

هي ما شاء الله عليها مش محتاجة ...

ثم تطلعت إلى ابنها تسأله مباشرة:

-ولا إيه رأيك يا "تميم"؟

كان صاعقة ضربت برأسه، اتجهت كل الأنظار إليه كما لو أمسك به أحدهم
بالجرم المشهود، ابتسم قليلاً، واختطف نظرة سريعة نحو والده الذي كان
متحفزاً في جلسته، كأنما يترقب ردة فعله، فكان صمته خير إجابة، لأنه يعلم

جيدًا عدم تساهله في أمور المناغشة والغزل علنًا، ولينأى بنفسه من الإحراج قال في تهذيب:

هي تستاهل كل حاجة غالية.

لكن بين جنبات نفسه، قال معترفًا بصوتٍ غير منطوق، وعينه تتركزان على وجه "فيرزوة":

هي أحلى ما شافت عيني.

استطرد "سلطان" ممسكًا بزمام الحوار بنبرة جمعت بين الجد والهزل:

-سيدونا بس من أمور الدلع والحاجات الحلوة دي، هاتيحي بعدين، ومسيره يسمع القمر بتاعنا أحلى كلام، بس خيلنا نتكلم في المهم.

أطرقت "فيرزوة" رأسها في استحياءٍ من تلميحاته التي تأرجحت بين المبطن والمفهوم، وبدأت الخيالات الحاملة في اقتحام عقلها، ليزيد هذا من تلبكها. تولى "خليل" دوره في الكلام مرددًا بتمهل:

-أحنا مش هنختلف إن شاء الله.

أيدته "آمنة" بتصريحها:

-ربنا ما يجيب خلاف، ده احنا عيلة.

عاد "سلطان" ليضيف في جدية وهو يدير عكازه بين راحته:

هو مش مدح لا سمح الله في حفيدي، بس يعلم ربنا هو تعب في كل
مليم كسبه بالحلال، وهو مصمم يتكفل بكافة شيء تحتاجه بنتنا، رافض إننا
نساعده.

هتفت "آمنة" معلقة بوجه مبتسم:

إنتو بيت كرم طول عمركم.

أشار "سلطان" لابنه يخاطبه بلهجة أمرة:

-كمل إنت يا "بدير" الباقي.

هز رأسه في طاعة، قبل أن يوجه حديثه إلى "خليل"، ونظراته تتوزع
بالتساوي على أهل العروس:

-اتفاقنا ده بس عشان نبقي على نور، وكل الحاضرين هنا شاهدين عليه.

صاحت "آمنة" مرددة في حبور:

ده إنتو كلمتكم وعد.

استحسن قولها، ثم تابع ويده تشير نحو ابنته:

-المهر 100 ألف، وشبكة زهم، المؤخر زي "هاجر"، نص مليون جنية،
وجاهزين يدفعهم بعد كتب الكتاب.

كتمت "آمنة" شهقتها الغبطة وعيناها تنظران تلقائيًا إلى "هاجر"، قبل أن
تعاود النظر إلى "بدير"، وهي تهتف في سرورٍ معكوس في كل وجهها:
-أد القول يا حاج.

ما تقوم به عائلته من طرح عروض سخية لإقناعها بقبول الزواج به لم يكن
في باله، كان شاغل "تميم" الوحيد حاليًا وسط كل هذه الحوارات السائدة
أن تقوم برفضه لشخصه، حينئذ سينفطر قلبه؛ فالمال مهما كان مُغريًا، فإنه
لا يشتري الحب، والعشق الحقيقي لا ثمن له! اختلس النظرات إليها ليعرف
رأيها من ملاحظها؛ لكنها كانت غير مقروءة، مهمة، يسودها جمود مخيف،
وهذا أكثر ما أزعجه! راح ينظر إلى أبيه الذي أضاف:

-أما العفش فالعروسة هتختاره كله على ذوقها، ما هو بيتها زي ما يقولوا
كده مملكتها، فمن حقها تنقي اللي هترتاح فيه.

أشارت "آمنة" بيدها معلقة في رضا واضح:

عداكم العيب.

تدخلت "هاجر" قائلة بحماس، وهي تهدد رضيعها:

ده "سراج" وراني كام معرض فيهم حاجات خرافة، لو عايزاني أدكي أساميهم قوليلي.

علقت "فيروزة" بكلمة مقتضبة بعد أن نظرت في اتجاهها:
-تمام.

استغرقت "آمنة" في التفكير مع نفسها لبعض الوقت، فكل المغريات تقدم لابنتها الأرملة على طبق من ذهب، وكأنها شابة حديثة العهد بالزواج، والحق يقال أنها لم تسمع أو ترى في سنوات عمرها من يفعل هذا لإحداهن، فيما عدا سليلة عائلة "سلطان"، لكونها ابنة الحسب والنسب، أما ابنتها فلم تملك من المقومات المادية ما يؤهلها للمناطحة معهم، لذا إن رفضت كل هذا لأتصفت بالغباء الأكيد، ولهذا لم تدخر وسعها في التعليق على كل ما يقال لتبدي استعدادها التام للقبول ولو عرض عليها أقل من هذا بكثير. توقفت عن تفكيرها التحليلي لترد غير ممانعة:

-دي أمرها سهل.

.....

في تلك الأثناء، غادر "هيثم" بهدوء حجرة الصالون، باحثًا لنفسه عن مكانٍ يدخل فيه إحدى سبائره، كانت الشرفة الخيار الأمثل، فأراح مرفقه على حافة السور، وحملق بشرود في العتمة الممتدة أمامه، شعر بلمسة رقيقة

على ذراعه، فأدار رأسه للجانب لينظر إلى زوجته التي انضمت إليه،
تفرست الأخيرة في ملامحه التي كساها الحزن لتسأله في توجس:

-مالك يا حبيبي؟ في حاجة مضايكاك؟

بلع غصة عالقة في حلقه، وأجابها بوجوم:

-أصل اللي بيحصل النهاردة يفكرني يوم خطوبتنا.

استندت برأسها على كتفه، وعلقت في ابتسامة رقيقة:

-صح نفس الأعدة، بنفس الناس.

شعرت بتصلب جسده أسفل رأسها وهو يجاوبها بنبرة مريرة:

-أيوه، بس الفرق لا أمي ولا أختي موجودين.

أحست بوخزة من الألم تضرب صدرها، وأبعدت رأسها عنه لتستقيم
واقفة، ثم نظرت إليه متسائلة في حذرٍ لا يخلو من خوفٍ تفشى فيها:

هو .. إنت زعلان إن "تميم" هيتجوز أختي؟

عم الصمت بينهما لما يقرب من دقيقة قبل أن يجاوبها بحزن:

-لا، ده النصيب، بس صعبان عليا اللي حصلها، ملحقتش تعيش حياتها
ولا تنهى.

نكست رأسها في أسف، وقالت:

-ربنا يرحمها برحمته الواسعة، هي في مكان أحسن دلوقتي.

اجتاحه حزناً أعمق وهو يضيف :

-وأمي شوفي بقت فين دلوقتي!

رغم أنها لم تسلم من لسانها السليط، وطباعها الحادة، إلا أنها علقت في هدوء، خائفة بداخلها تلك المشاعر المستاءة التي نبضت فيها:

مسيرها تخف وصحتها تبقى أحسن عن الأول.

قال في غير تفاؤل، وقد طفرت دمة متأثرة من طرفه:

-الله أعلم.

مدت "همسة" يدها لتمسح العبرة النافرة من عينه، ثم أخبرته في محبة:

إن شاء الله خير، دوام الحال من المحال.

وأد "هيثم" أحزانه التي تجمعت في صدره مضطراً، ولف ذراعه حول كتفي زوجته ليدفعها برفق خارج البلكون وهو يكلمها:

-تعالى بدل ما يفكروا إن في حاجة.

حاوطته هي الأخرى من خصره، وقالت في غير ابتسام:
- ماشي يا حبيبي.

.....

نظرة أخرى خاطفة من عينيه نحو وجهها الساكن، بدا كما هو غير متأثر، يظهر فقط على بشرتها تورداً محبباً إليه، جعله يطيل النظر إليها دون أن يرف جفناه. وجد "تميم" نفسه يشرد في لون الحجاب الذي التف حول رأسها، وراح يعقد مقارنات في مخيلته بين ما رآه من ألوان ترتديها تتماشى معها، لن ينكر أن الحمرة الخفيفة مع نقاء اللون السماوي جعلها كهالة جاذبة للأعين، تأسر من وقع تحت تأثيرها طواعية، وتسحبه نحو مجهولها الغامض باستسلام لا ندم فيه. شئت "تميم" أنظاره عنها، وتحفز في جلسته وهو يتنحى في خفوت، خاصة عندما هتف والده موضحاً:

- الشقة عندكم اختيارين ليها، "تميم" عنده بيت ثاني فوق شقة "هيثم" الجديدة، يعني ده لو حبت تسكن في نفس العمارة مع أختها، أو نشوفلها حاجة ثانية مناسبة ليها، في المكان اللي تحبه.

هنا تكلم "خليل" مخاطباً ابنة شقيقته بصيغة تساؤلية:

- رأيك إيه يا "في.روزة"؟

لاذت بالصمت لهنية قبل أن تخبرهم في حرج:

-كثير أوي اللي إنتو عاملينه ده.

تحدث الجد مماًزحاً ببسمة عريضة وهو يشير بنظراته نحو "تميم":

-الغالي للغالي، وبعدين عشان الواد ده يعرف إنه دفع دم قلبه في واحدة
هتفضل معاه العمر كله، ويفكر مليون مرة قبل ما يفرط فيكي.

دون احترازٍ انزلق "تميم" مؤكداً:

هو أنا أقدر يا جدي!

استمرت نظرات "سلطان" على حفيده وهو يخبره بنبرة جادة:

-ما أنا مش هعيشلك كثير، بس أضمن حقها من بعدي.

ردت عليه "آمنة" في جزع:

طولة العمر ليك يا حاج.

انتقلت نظرات "سلطان" نحو "فيروزة" يسألها تلك المرة مباشرة:

-ها يا بنتي؟ مناسب ده ليكي؟

ضجيج قلبه في تلك اللحظة كان يصدح في أذنيه، حبس "تميم" أنفاسه
مترقباً قرارها الحاسم، واشتدت قبضتيه على مسندي الأريكة من فرط
قلقه من احتمالية رفضها، أخفض رأسه محدقاً في الأرضية، ونهجان صدره

قد بات ملحوظًا، في حين تطلعت "فيروزة" إلى الجد مليًا، وحدها كأثني
يخبرها أن أعصابه على المحك، استمتعت بتلك الشواني الغالية قبل أن
تجاوب بإيماءة من رأسها:
أيوه.

سرت همهمات رضا بين الحاضرين، كان أكثرها مسموعًا التنهيدة الصادرة من
"تميم"، فقد نال في نهاية السعي الدؤوب جائزته، رفع عينيه على الفور،
وحدق ناحيتها وشرارات الحب تتطاير منها. التقت النظرات الساحرة،
بالنظرات الشغوفة، لتمررًا معًا في انسجام، وكأن العالم خلا إلا من
سواهما، أخذت جذوة الغرام في الانتقاد، لعل الأشواق المنتفضة في صدره،
تفد إليه، فتلامس عينة مما يدخره لأجلها لاحقًا.

امتلاً المكان بأصوات الزغاريد المبهجة، وتسابقت النساء في إطالتها، ليعلم
الجيران بلمحة خاطفة ومشوقة عن النبأ السار. حول "سلطان" أنظاره عن
العروس ليخاطب البقية:

-يبقى على بركة الله، نقرى الفاتحة.

ارتفعت الكفوف للأعلى، وبدأوا في قراءة سورة الفاتحة كاستهلالٍ لخطبةٍ
موفقة، ما إن انتهوا حتى هتفت "ونيسة" بفرحة:

-الصينية فين يا "هاجر"؟

خفضت ابنتها من يدها لتلتقط الصينية الصغيرة المسنودة إلى جانب الأريكة، ناولتها إياها وهي ترد:

-أهي يامه.

حينئذ وضعت "ونيسة" الصينية في حجرها، وأخرجت من حقيبتها حليًا من الذهب، كانت أولها قرطين للأذن مصممين على هيئة ريش الطاووس المميز، بالإضافة إلى (بروش) على هيئة زهرة الأوركيد، نهضت من جلستها لتتجه نحو العروس التي وقفت احترامًا لها، ثم خاطبتها وهي تمد يديها بالصينية ناحيتها:

دي بقى هدية بسيطة ليكي مني، وبكرة الصبح تنزلي مع عريسك تنقوا الشبكة.

تأملت ما ابتاعته لها مرددة في حرج:

-كثير والله، مكانش ليه لازمة.

أصرت عليها في وداعة:

ده إتي بقيتي بنتي الثانية خلاص.

لم تستطع رد هديتها، فقبلت بها، وأخذتها من الصينية، لتقوم بعدها "ونيسة" باحتضانها، وهي تدعو لها:

-ربنا يجعل نعم الزوجة لابني، ويجعله سندك في الدنيا يا رب.

تلقائيًا اتجهت عيناها من فوق كتفها ناحية "تميم" الذي رmqها بنظراته
الوالهة، في حين أطلقت "آمنة" زغرودة أخرى كتعبير عن سعادتها البالغة
بالأمر، لتهلل بعدئذ:

-ربنا يديم المعروف والخير بينا جميعًا.

عادت "فيروزة" إلى مكانها لتجلس وهي تنظر عن كثبٍ للهديتين
الموجودتين في راحتها، عمقت من تأملها لهما، كانتا مميزتان؛ لكن البروش
نشط ذاكرتها بذكرى رؤيتها لشبيه ما كان بجوزتها كمشبكٍ للرأس في درج
الكومود الموجود بغرفة "تميم"، أمن المحتمل أن يكون هذا البروش تحديدًا
من اختياره؟ أعلم أن ما يحتفظ به خاصتها ولهذا قصد إيصال رسالته
المتوارية لها عن طريقه؟ تجاوزت عن حيرتها لتسمع صوته القائل في لهجة
جادة:

-أنا عندي طلب بعد إذنك يا جدي ويابا.

منحه والده فرصة الحديث بتعابير هادئة:

-قول يا "تميم"، عايز إيه؟

تشجع مقترحًا على الجميع في جراءة غير متوقعة:

نخلي كتب الكتاب على طول، مالهش لازمة الخطوبة، وتضيع الوقت.
صُدمت "فيروزة" بما ينوي فعله، واتسعت عيناها ذهولاً. قبل أن يفكر
أحدهم في الاعتراض عليه علل أسبابه بمنطقية:
-وبعدين عشان نعرف نخلص اللي ناقصنا من غير ما حد يقول كلمة كده
ولا كده.

من تلقاء نفسها هتفت والدته محتجة:
-هو حد يستجري ينطق أصلاً عليكم بحاجة؟
أجابت "آمنة" وكأنها تبدي تأييدها الكامل لرغبته بشكلٍ ملتو:
-الناس مابتسبش حد في حاله يا حاجة "ونيسة"، تلاقيهم يعملوا من أي
كلمة يسمعوها فيلم ولا شبورة، وكله بالباطل، المهم تفضل سيرة الواحدة
دايرة على اللسان.

مصمست شفتيها متممة بهزة خفيفة من رأسها:
-في دي مضبوط، ربنا ينجينا من الناس دي.
تحركت "آمنة" لتقف إلى جوار ابنتها، وسألها بتلهف:
-موافقة يا "فيروزة"؟ ردي يا بنتي.

أجابت على سؤالها بآخر أظهر ترددها:

هو كتب الكتاب ها يكون إمتي ؟

لعق "تميم" شفتيه، وراح يخبرها بحذر:

-يعني مش بعيد، أسبوع ولا اتنين بالكثير، ونخلي الدخلة بعدين، مش هنستعجل في دي.

بدا اقتراحه مناسبًا إلى حد كبير، ترقبت "آمنة" تعليق ابنتها النهائي بصبر شبه نافذ، وتجمد "تميم" في مكانه منتظرًا سماع رأيها الأخير في مزيج من اللهفة والخوف. ألحت الأم على ابنتها بعد أن اعتبرت سكوتها قد زاد عن المحتمل:

-أهوو كده حل معقول .. ها قولتي إيه ؟

هتف الجد معقبًا في جدية:

-سيبوها تاخذ وقتها، وتفكر، مش عايزين نضغط عليها.

كاد "تميم" يجن من صمتها المريب؛ لكنها بددت كل المخاوف دفعة واحدة بإعلانها الهادئ:

-أوكي .. مافيش مشكلة.

من جديد تنهد عاليًا وهو يهمل في بهجة لا توصف:

على خيرة الله.

انطلقت الزغاريد مرة أخرى، أعقبها تهنئة "سراج" السعيدة لصهره:

-ألف مليون مبروك لأجدع معلم في الحنة كلها.

رد مجاملاً وهو يومئ برأسه:

-الله يبارك فيك، وعقبال ليلتك الكبيرة.

ضحك قليلاً، وأخبره في طرافة:

يا مسهل، لسه تكة ونوصل للدخلة.

مع كلمته الأخيرة كان "تميم" يتطلع ملء عينيه في نشوة عارمة إلى من باتت خطيبته، وقريناً من ستصبح في عصمته!

.....

امتلاً الوسط بصوت بعض الأغاني المتنوعة ما بين شعبي وشبابي، بعد أن قامت "همسة" بتوصيل هاتفها المحمول، بساعة ضخمة أحضرها زوجها في وقت سابق، للاحتفاء بشقيقتها التي تم خطبتها للتو. تبدلت أماكن الجلوس وأصبحت "فيروزة" مستقرة في الأريكة العريضة إلى جوار "تميم" رغم

وجود مسافة معقولة بينهما؛ لكن إصرار الغالبية -خاصة النساء- على جلوسهما معًا جعلها ترضخ في النهاية. وزعت "آمنة" كؤوس الشربات على عائلة "سلطان"، قبل أن ترصص "همسة" صينية الأطباق المليئة بقوالب الجاتوه على الطاولة لتناول كل فرد خاصته على حدا. دنت من توأمتها قائلة بعبثية، وتلك الابتسامة الفرحة تزين محياها:

قولي لعريسك ياكل يا "فيروزة".

رمقتها بنظرة حادة لم تكثرث بها شقيقتها، وأصرت على إعطائها صحنه، لتقدمه له بنفسها، وضعت "فيروزة" قبالتها قائلة بتلميح مفهوم له:

-تفضل، دي بالشيكولاتة، غير التورته اللي إنت جبتها.

أخذ الطبق منها، وابتسم معلقًا في لطف:

-ما أنا واخذ بالي.

اقتطع بالشوكة جزءًا من عند الحافة، وتذوقها متلذذًا بها، قبل أن يخبرها بنبرة ذات مغزى:

طعمها حلو .. زيك.

نظرت إليه نظرة محذرة، استقبلها بتحدٍ يشوبه الاستمتاع، فالبريق الذي يشع من حبتي الفيروز يستحق التأمل، أبعدت عينيها عن نظراته الطويلة،

لتسائل وقد التقطت أذناها كلماتٍ مقتطفة لما كان يدندن بها في نهار
اليوم:

-مش دي الأغنية اللي كنت بتغنيها؟

أكد لها بعد لاك ما في جوفه:

-أه هي..

أسبل عينيه نحوها، وتابع مبتسمًا في إشراقة بهية:

-أنا مكملتلكيش بقيتها..

تطلعت إليه في اهتمام، فدندن مع الكلمات العالية بوله جعل وجهها يتقد
بجمرة ساخنة:

-مش هتبقي لغيري، أيوه أنا غيري مافيش!

حاولت الحفاظ على جديتها وهي ترد:

-لا والله.

ابتسم ببلاهة وهو يؤمى برأسه مرددًا:

-أه والله.

حادث بنظراتها بعيدًا عنه وهي تقاوم شبح ابتسامة مستمتعة بصحبته،
كان يثير بداخلها مزيجًا من الأحاسيس العجيبة، كلها تصب في صالحه، كأنما
قد اتحدت معًا لتدعم من موقفه، انتشلها "تميم" من سرحانها السريع بالنداء
عليها:

يا أبله!

التفتت ناظرة إليه، وهي ترد في رسميةٍ بحتة:

نعم يا معلم.

جاءه تعقيبُه مازحًا:

-الاحترام بينا حلو مافيش كلام، صح ولا إيه؟

بالكاد كتمت ضحكاتها وهي تخبره بإيجاز:

طبعًا.

أسند "تميم" الطبق على الطاولة أمامه، واستطرد يكلمها في لهجةٍ مالت
للجدية قليلًا:

-أنا كنت عاوز أقولك على حاجة كده.

أبدت اهتمامها قائلة وهي تلعب بشوكتها في قالب الحلوى:

-أفضل.

تنحني متابعًا بترث:

فأفكر في يوم كتب كتاب "هاجر"، لما كنتي قاعدة في المطبخ لوحدة؟

هزت رأسها قائلة:

-أيوه.

أراد في قرارة نفسه ألا يكون بينهما أسرار، أن يكون مرئيًا لها، لهذا تشجع لإخبارها بحيلته السابقة. حافظ على ثبات بسمته وهو يعترف لها:

-ساعتها عملت نفسي- بتكلم في التليفون، وإني مش شايفك عشان تسمعيني وأنا بقول مش هجربك على الموافقة، وهبعد ومش هظهر في حياتك ثاني.

تعقدت ملامحها نوعًا ما وهي تتكلم في اقتضاب:

فعلًا.

ظل مبتسمًا عندما أضاف:

-الصراحة الكلام ده كله كذب، ومن ورا قلبي، وكانت حركة معمولة عشان تبدأي تفكري في كلامي بجدية.

أخفى الجزء الخاص بجده، لكونه غير مستحبٍ له، الأفضل أن يتلقى التوبيخ وحده، رأى في نظراتها نحوه استنكارًا جليًا لما اعتبرته لعبته السخيفة. عبست قسماً "فيروزة" وهي تسأله في ضيق:

-يعني كنت بتضحك عليا وتستغفني؟

هتف نافيا على الفور:

-أبداً والله، مقدرش أعمل كده فيكي ..

تحركت يده نحو موضع قلبه، وأكمل مبرراً تصرفه:

-أنا بس كنت عايزك تحسي بده.

تلبكت أمام اعتراف منقوص بشيءٍ يكنه لها، ورمقته بنفس النظرة الجامدة قبل أن تخبره بتجهم:

-عموماً الفاس وقعت في الراس خلاص، وأنا مش هحرجك إكراماً للناس اللي جت النهاردة هنا.

سألها في قلقٍ استبد كلياً بوجهه:

-يعني إتي ناوية تفضي الجوازة قبل ما تكمل؟

راوغته في إجابتها:

-احتمال وارد.

لم يجذ مطلقًا اللعب على وتيرة مشاعره، أو الاستهانة بها، لهذا قست
ملاحظه، وشاح بعينه بعيدًا عنها، ليستطرد قائلاً بلهجة خلت من أدنى
مظاهر المرح:

-وعلى إيه؟ خلاص نهيها من دلوقتي طالما دي رغبتك.

انقبض قلبها مع ختام كلماته، وشعرت بالدماء تفر من عروقها، لهذا اعترفت
دون تفكير:

-مالك قفشت كده ليه؟ بهزر معاك على فكرة.

عاد ليتطلع إليها في نظرة معاتبة وهو يسألها:

-والله؟ زي أي جوازة والسلام برضوه؟

تخرجت من تذكيره بزلة لسانها السخيفة، وقالت برر لم يرقه وهي تزين
محياتها بابتسامة مفتعلة:

-اعتبرها واحدة قصاد واحدة، إنت عملت عليا حركة، وأنا رديتهالك، يبقى
خالصين.

سألها في جدية بحتة، وكامل عينيه عليها:

-كده خدتي حقك مني؟

حركت رأسها قائلة، وقد اتسعت بسمتها السخيفة قليلاً:
-أيوه.

أوماً برأسه معقباً بغير هزلٍ وهو يشير لها بيده:

-زي الفل، خلينا بقي على جديده، ونرمي اللي فات كله ورا ضهرنا.

صمتت قبل أن تمنحه ردها:

-أوكي بس لو زعلتني هزعلك.

تعقد جبينه هاتقاً في استهجان:

-وده اسمه إيه ده كمان؟

هزت كتفها قائلة ببرود:

-مجرد تحذير عادي.

سد إليها نظرة طويلة غامضة، قبل أن ينطق بعد زفير بطيء، وهذا
اللمعان المريب يتراقص في حدقتيه:

-زي الفل يا أبله.

لم تسترح لتلك النظرة، كما أن اعتماده لهذا الأسلوب الرسمي الجاف في ردوده عليها استفزها بشكلٍ ما، فراحت تتنمر عليه بنبرة شبه حادة:

-إيه حكاية زي الفل دي اللي مسكهالي؟ كل ما أقولك حاجة تقولي زي الفل!

حمّتها الغريبة جعلت فكه السفلي يتدلى في غير تصديق، ليهتف بعدها ضاربًا كفه بالآخر:

-مش معقول! هو موسم الخناق بدأ بدري ولا إيه؟ ده أنا ملحقتش أدلع.

انفجرت شفتاها عن غيظٍ واضح، وسألته في تحفّر:

عايز تقول إني نكدية؟

دافع عن نفسه في التو:

هو أنا نطقت بحرف؟

خشي من تصاعد الأمور بينهما من لا شيء، فمد يده ليمسك بطبقه وهو يغغم:

-أقولك أنا هاكل جاتوه.

ما إن حمل طبقه بيده حتى وضعت صحنها على الطاولة، كأنما تعانده،
فاقتطع بشوكته قطعة من القلب، وتذوقها في اشتهاٍ، قبل أن يميل بجذعه
ناحيته ليهمس لها بما بدا وكأنه يغازلها:

حلو على فكرة، سكر محلي محطوط على كريمة!
تراجعت بظهرها للخلف، ورفعت حاجبها للأعلى قائلة في جدية:
يا سلام!!

اعتدل "تميم" في جلسته، وغرز الشوكة مجدداً في قلبه، ليحصل على
قطعة أكبر، قربها منها قائلاً ببسمة مهدبة:
طبعاً، تذوقي يا أبله؟
هزت رأسها رافضة بنفس التعابير الجادة:
-لا، شكراً.

لانت قسماته وهو يداعبها قائلاً بتنهيدة تصحبها غمزة من طرف عينه:
ليه بس؟ ما تخليني أجرب أخط الشوكة في بؤك؟ هتكسري بخاطري.
لمعت عيناها بشكلٍ غامض، قبل أن تقرب رأسها منه لتخبره بهمسٍ وهي
تضع يدها على جانب فمها:

-باباك بيص علينا على فكرة، وشكله ناويلك.

تلقائيا حانت منه نظرة سريعة نحو أبيه، فوجده يطالعه بنظرة قوية مغزاها أنه لن يقبل بأي تجاوز يحدث تحت شعار الخضبة، حرك "تميم" جسده على الأريكة، ليزيد من المسافة الفاصلة بينه وبين طاووسه المشاكس، ليدمدم بعدها بعبوس ساخر، وكل تركيزه أصبح منصبا على بقايا قالب الجاتوه:

أه عارفها البصة دي، كده هيحط الطبق كله في وشي
!!

.....

الفصل المائة وستة وأربعون

كانت جلسة تقرير أكثر منها تنبيه، لئلا يفكر في التجاوز في تصرفاته مع خطيبته فيما بعد، إن التقى بها بترتيب أو مصادفة، اعتمادًا على حجة الخطبة المزعومة، وما قد يحدث فيها من عدة مخالفات غير مقبولة. شدد "بدير" على ابنه بضرورة الالتزام بكامل وصياه، وإلا لن تكون العواقب محمودة عليه، كرر من جديد على مسامعه بنفس النبرة الحازمة:

عايز تشوفها، يبقى في بيتها، وبعد ما تستأذن خالها وأمها، اللي مانرضهوش على أختك، مانقبلش بيه على بنات الناس.

انتزع "تميم" رابطة عنقه الزرقاء الداكنة عن ياقته بعد أن حل وثاقها، ليظل جالسًا أمام أبيه بقميصه الأبيض، وبنطال بدلتة المماثل للون الرابطة. لفظ الهواء بطيئًا ثقيلًا من صدره، فالقيود تزداد يومًا بعد يوم كلما أوشك على توطيد علاقته بها، انتظر "بدير" سماع رده، وسأله بتجهم:

قولت إيه؟

ضغط على شفتيه للحظة قبل أن يجاوبه بما يشبه الوعد:

-اطمن يا بابا، كلامك نافذ.

حذره بإشارة من سبابته:

-ولو جت اشتكتلي في يوم منك هحاسبك إنت.

احتج على تشدده قائلاً بتذمر وهو يضيق عينيه:

طب إفرض مزعلاني؟

جاءه تعليقه واضحاً ومباشراً:

-ما تزعلهاش، ما حبكش اليومين دول تنكدوا على بعض، وخلي الأيام
تعدي على خير، لحد ما ربنا يكرمكم.

هز رأسه هاتفاً، رغم أمارات التمر الظاهرة على محياه:

-ماشي الكلام.

ابتسم "بدير" له، وأنهى حوارهم معه:

-ربنا يتم بخير.

بادله الابتسام بشكل مقتضب، قبل أن يغادر الغرفة، لتعاود والدته
أدراجها، وتنظر إلى زوجها بنظرة معاتبة، قبل أن ترجوه في لطف:

-خف على ابنك شوية يا حاج، هو مالوش في الغلط.

أخبرها بعد زفير بطيء:

-أنا عارف، بس لازماً الكلام ده، بكرة يجي يشكرني.

ردت "ونيسة" مبتسمة رغم إرهاقها، وهي تزيح الغطاء عن الفراش تمهيداً للاستلقاء عليه:

-ربنا يصلح حاله ويراضيه من وسع.

تمدد "بدير" إلى جوارها، وتمتم موجزاً وقد أطبق على جفنيه:

يا رب.

.....

جر جر أذيال الخيبة وراء ظهره، بعد أن تلقى وابلًا من الأوامر الصارمة، بالطبع لم يكن ليخالف تعليمات والده؛ لكن لا داعي لكل ذلك التشديد في مسألة لن تتجاوز بضعة أيام، قبل أن تتخذ العلاقة بعدًا رسميًا. انتشله من شروده في أفكاره المهمومة صوت شقيقته المنادي في حماس:

- "تميم"!

راح يرنو إليها بنظرة عادية وهو يجيب، مُلقياً بسترته على كتفه:

-أيوه يا "هاجر".

لكزته في جانب ذراعه قائلة في استمتاع، وتلك النظرة الماكرة تداعب عينيها:

عشان تعرف أختك بتحبك أد إيه ...

تطلع إليها في عدم فهم، لم يملك من الصبر أو الطاقة ما يخوله لتحمل ممارسة
أي أحجية الآن معها، فسألها في تعب واضح عليه:

قولي يا "هاجر"، أنا مافياش دماغ.

غمزت له بطرف عينها وهي تخبره بابتسامة عريضة:

-أنا صورتك مع العروسة كام صورة حلوة...

ثم أخذت تعبث في هاتفها لترى ما التقطته من صور فوتوغرافية وهي تتابع:
هبعتهوملك على الواتساب.

تناول الهاتف من يدها، وبدأ يتفحص الصور المتنوعة التي احتفظت بها في
هاتفها، كانت للقطات مختلفة لكليهما أثناء تناول قالب الحلوى، بدت
"فيروزة" فيها رغم جديتها راقية، ملكة متوجة بحق! تطلعت إليه "هاجر"
في فضول لتتأمل نظراته، وسألته دون أن تخبو بسمتها:

-إيه رأيك؟

الكشف عن مشاعره، وسبر أغوار قلبه ليس متاحًا للمشاركة، لهذا اضطر
أن يقلب بين الصور بسبابته في تعجل، كأنه غير مهتم برؤية وجه القمر،
ليخاطبها بعدها مازحًا، وهذا الامتناع الزائف معكوس على وجهه:

- حلوين أوي، بس أنا مالي طالع كده ليه؟
انعد ما بين حاجبها في حيرة، فأخذ يشير إلى هيئته وهو يأكل بالشوكة،
ثم أضاف موضحاً:

- بصي عليا، زي ما أكون فجعان، أول مرة أشوف أكل.
ضحكت على تعليقه، وبررت له ببساطة:

- ما هو أنا كنت مركزة مع العروسة، مش معاك بصراحة.
أعاد إليها الهاتف قائلاً في امتنان:

- تسلميلي ياختي.

حافظت على صفاء ابتسامتها وهي ترد:
أي خدمة.

تحولت قسماته للجدية وهو يخاطبها عابثاً:

- أبقى أردها لك في "سراج" إن شاء الله، هصورك حبة صور عجبك.

برقت عيناها في توجيس، واختفت البسمة عن شفتيها، لتحذره بغير مزاح:

- إياك تصورني صور وحشة، والله هزعل منك!

قهقهه عاليًا، ثم تحرك من أمامها وهي تناديه في قلقٍ:
يا "تميم"، سامعني، بجد الحاجات دي مافياش هزار.
استمر في الضحك قبل أن يتوقف ليدير رأسه في اتجاهها، وهو يقول:
هو أنا أقدر برضوه أزعلك، هاورح أسلم على جدي قبل ما ينام.
تهدت في ارتياح، ولوحت له بيدها:
طيب، تصبح على خير.
بادلها ابتسامة صغيرة وهو يرد:
واتي من أهله.

ثم التفت ناظرًا إلى باب حجرة جده المغلقة للحظاتٍ، والضيق قد بدأ في
ملء صدره، كان يحتاج حقًا للحديث معه، لعله يجد في كلماته المُنطوية ما
يبدد هذا الثقل، ويزيح الهم عنه.

.....

أطل برأسه بعد أن طرق الباب بدقة خفيفة وفتحته، ليطوف بنظره على
أرجاء الغرفة في صمتٍ حذر، إلى أن وقعت عيناه على مكانه بالأريكة، كان
"سلطان" شاردًا في تأمل إحدى الصور، يكاد يكون في عالم خاص به، فلم

يشعر بوجوده، بدا "تميم" متردداً في اقتحام خلوته، فاستأذن قبل الدخول بعد نحنة سريعة:

فاضي يا جدي؟

رفع "سلطان" نظره إليه، وابتسم وهو يدعو للدخول مشيراً بيده الأخرى: أه يا "تميم"، تعالى.

ولج إلى الداخل، وأغلق الباب من خلفه، ليدنو منه، جلس عند قدميه، واختطف النظرات إلى الصورة القديمة التي بجوزته، ثم قال في اهتمام: دي صورة ستي الله يرحمها.

أعطاهها له لينظر إليها عن كثب وهو يؤكد عليه: أه هي.

أمعن النظر في ملامحها الدقيقة؛ وجهها المنحوت بعناية، نظراتها العميقة المشبعة بالدفء، شعرها الثقيل والمجموع عند كتف واحد، هذا الوشاح الملقى على رأسها ويدور حول صدرها، حتى يغطي نهاية أطراف شعرها الظاهر، ثم أخيراً ابتسامتها الخجول، تلك التي توقف عندها قليلاً، ورغم كون الصورة قديمة للغاية، وباللونين الأبيض والأسود، إلا أنها كانت في حالة جيدة. بعد لحظات من مشاهدتها في انبهار، قال "تميم" أخيراً:

دي كانت صغيرة أوي، وحلوة يا جدي.

زجره "سلطان" بنبرة تأرجحت بين الشدة والمزح:

-أومال يعني اتولدت كبيرة؟ ما هي كانت صبية تسرق القلب.

أبدى "تميم" إعجابه بمواصلة جده مدح جدته الراحلة إلى الآن، وكأن شعلة الحب لم تخبث يومًا في قلبه، فكلما جاء على ذكرها، كلما تجدد الحب بداخله! وبالرغم من رحيلها الذي مضى عليه سنواتٍ عدة؛ لكنها ما زالت تحتفظ بنفس المكانة والتقدير. أعاد إليه الصورة وهو يتكلم إليه بنبرة مهمة:

مقصدهش، بس دي أول مرة أشوف الصورة دي ليها.

أخذها منه، ليضعها بداخل المغلف الأصفر وهو يخبره:

ما أنا محتفظ بيها في الظرف ده عشان ماتتهدلش.

امتدت يد "تميم" لتمسح على كف جده قبل أن يردد:

-تعيش وتفتكر يا جدي.

لمعة من الحزن اتخذت طريقها إلى حدقتي "سلطان" وقد تطلع أمامه؛ كأنما يرى طيفها متجسدًا في الهواء، زفر الهواء على مهلٍ، ثم خاطبه بصدق:

-ستك دي ماتتعوّضش.

تأمله حفيده في اهتمام أكبر، وسأله:

-كنت بتحبا؟

رد بابتسامة أوجدت مكانها على ثغره:

-بحبا بس؟ ده أنا مكوتتش شايف غيرها.

اتسعت ابتسامته "تميم" وهو يمتدح وصفه المرهف:

-سيدي يا سيدي ...

لكن ما لبث أن تبدلت نبرته إلى أخرى شاكية عندما تابع:

حطب يرضيك اللي أبويا عامله معايا؟

ضحك على هيئته المزعوجة، ثم قال في هدوء:

-أبوك بيعبك، وعاليز مصلحتك.

رد في تدمير:

ده أنا معملتتش حاجة أصلاً، وعمال أخذ في جنائي.

لم يكبت "سلطان" ضحكاته المرحّة الهازئة من شكواه البائسة، إلى أن

توقف أخيراً، ليكلّمه بعدها في صوتٍ مال للجديّة:

-وبعدين أبوك مايجيش حاجة جنب اللي عمله فيا أعمامي.

تعقدت تعاير "تميم" بينما الجد يواصل استرساله؛ كأن الزمن عاد به إلى الوراء:

-أول ما الوقت أزف، والمفروض كنت أشوف بنت حلال أتجوزها، فعمي الكبير اختارلي واحدة من بنات الحاجة "لواحظ".

أصغى "تميم" إليه بانتباه كامل، وهو ما زال يُحادثه:

-ومحدث وقتها كان زي دلوقتي متاح يشوف البنات كده عيني عينك وينقي، اتقالي نصيبي إني هتجوز "فُتنة".

علق تلقائياً:

حطب كويس.

ألقي عليه نظرة غريبة غامضة، قبل أن يستأنف سرد حكايته القديمة:

-وأنا معرفش شكلها، فعملت فيها شجيع السيام، وروحت نواحي بيتها كده، ووقفت أراقب الحتة، على أساس ألحها، جايز تكون نازلة تقضي- طلبات لأمها، ولا تقف تنشر حاجة كده ولا كده.

تحمس حفيده في جلسته، ولمعت عيناه متسائلاً في لهفة:

ها وبعدين؟ شوفتها؟

حل العبوس على وجه جده، وأخبره بشفاه مقلوبة:

-لا، عمي الكبير شافني، عكشني من قفايا، وكانت ليلة سودة ما يعلم بيها إلا ربنا.

برزت عينا "تميم" مصدومًا، والجد ما زال يضيف بامتعايض:

-نزل فيا ضرب وطحن مع باقي أعمامي، وهو يقول عايز الناس تقول الواد "سلطان" واقف على النواصي لبنت "لواظ" عشان يشاغلها.

زادت تعابيره ذهولًا، بينما تنهد الجد مطولاً قبل أن يتابع:

-بالعافية لما سبوني بعد ما اتعدمت العافية، ووقتها حلف لو كانت إيه ما هتجوز إلا هي!

تقوس جانب فمه قليلاً وهو يكمل مستخدماً يده في الإشارة:

-أنا قولت بس دي باينها ماتتعاشرش، وخصوصاً إن الأصغر منها كان بيطلب للجواز عنها، وهي محدش بيعيب سيرتها.

تساءل "تميم" في اهتمام يشوبه اللهفة:

-وايه اللي حصل؟

أجابه الجد بتريث:

حاولت أقولهم بلاش، فضوني من الجوازة دي، بس محدش قبل برأيي،
وعمي حلف ليخلي العيلة كلها تتبرى مني، لو صغرتهم ورجعت في كلمة
اتقالت.

رفع حاجباه متسائلًا:

للدرجادي؟

أكد عليه بملامحه التي اكتسبت طابعًا جديدًا:

-أيوه يا "تميم"، الناس كانت غير الناس، والزمن كان غير الزمن.

لاحقه "تميم" بسؤاله التالي:

-واتجوزتها؟

وكان وهج الحياة قد انبعث على تلك التجاعيد لتتطق بنضرة الشباب
المفقود حين راح يخبره:

طبعًا، وكانت نعمة ربنا ليا، القمر العالي اللي ناس مش طايلاه، جالي
وبقى بتاعي ...

انهر "تميم" من وصفه الحالم، وابتسم في تلقائية. سكت "سلطان" للحظة
ليستكمل بعدها:

-عارف لما ربنا يرزقك بعطية كبيرة من عنده، تعوضك عن اللي فات كله.

ردد حفيده في ثناء:

-سبحان الله!

تهدل كتفا "سلطان"، وعاد الحزن ليغطي معظم تقاسيم وجهه وهو ينطق
بألم شبه محسوس في نبرته:

-بعد ما راحت مابقاش للحاجة طعم من غيرها، وكثير بيوحشني الكلام
معاها، بس بأصبر نفسي وأقول ما أنا شوية وهروحلها.

أحس "تميم" بغصة تضرب حلقه تأثراً به، خنقها قائلاً:

-بعد الشر عنك يا جدي، طولة العمر ليك.

لم يبدُ "سلطان" مكترثاً وهو يعقب عليه:

-هو احنا هناخد زمانا وزمن غيرنا؟ كلنا رايمين يا ابني، يالا حسن الختام.

نهض "تميم" من جلسته، ليحتضن جده وهو يقول بنظراتٍ ترقرت فيها
عبراتٍ خائنة:

-مقولش كده يا جدي، ده الكلام معاك بيريجني، ربنا يخليك ليا.

ربت على ظهره موجزًا معه في الكلام:

-تعيش.

تراجع "تيم" عنه، واستقام واقفًا، لمسح العالق من دمعه عن أهدابه، ثم نظر إلى جده الذي عاد لهزله المرح بترديده :

-بس عروستك كانت قمر!

تلقائيًا راح يبتسم على ذكرى رؤيتها في بهائها المغربي وهو يرد:

-مش كده؟ تستاهل اللي بيتعمل فيا عشانها.

سخر منه الجد في نفس الأسلوب اللطيف:

-ده إنت بتأخذ كلام، غيرك أخذ عُلق.

انطلقت ضحكة صادقة من قلبه، تبعها تعقيبه:

-معاك حق يا جدي.

تهد "سلطان" بعمق، ودعا له :

-ربنا يجمع ما بينكم قريب.

رفع كفيه للأعلى، وأخذ يقول:

يا مسهل الحال يا رب.

ثم انحنى على رأس جده يقبله في تجليل واحترام وهو يكرر شكره الممتن له،
لقدرته العجيبة على إعادة شعوره بالفرحة، بعد أن تكدر لبعض الوقت،
خرج من غرفته عكس ما دخل إليها، ممتلئ القلب بالسرور والرضا.

.....

من يدٍ لأخرى أخذ البروش يتنقل في راحتها، وكل نظراتها الحائرة عليه،
فزهرة الأوركيد بهذا التصميم المماثل لمشبك رأسها ليس بمصادفة، رغم
محاولاتها المضنية إقناع نفسها بالعكس؛ لكن عقلها أبي التصديق! تقلبت
"فيروزه" على جانبها، ونظرت في إمعانٍ إلى قرطبيها الجديدين الموضوعين
على الكومود، رمز الطاووس حتمًا اختياره، فدومًا يهديها ما يشير إليه،
شقت شفيتها ابتسامة رقيقة وهي تحاور نفسها:

-أكيد إنت اللي قولت لما متك عليه، ما هو في حاجات تانية غيره كان ممكن
تجيبها!

امتدت يدها لتضع البروش إلى جوار الهدية الأخرى، ثم استلقت مجددًا
على ظهرها، وعيناها تحمقان -على اتساعهما- في السقفية. وسدت ذراعيها
خلف رأسها مستغرقة في ذكرى يومها اللطيف؛ كان مختلفًا عن السابق،

فمراسم اليوم ظهر فيها البهجة، الوداعة، الأصالة، المرح، والحب، أما آنذاك فكان اللقاء جافاً، غارقاً في المظاهر المخادعة، خالياً من الودية، ومغلفاً بالنفاق والرياء.

نقضت "فيروزة" الذكرى المزعجة عن رأسها، وعنفت نفسها في تأفّف:

-المفروض أصلاً تمحي الأيام دي من دماغك.

سرعان ما لاح في مخيلتها وجه "تميم" وهو يدعي عبوسه حين هددته بأبيه، عفويًا انفلتت منها ضحكة شبه عالية، ما لبث أن وضعت يديها على فمها لتكتمها؛ لكن ظلت عيناها تضحكان في سرور كبير. لن تنكر أنه بذل الكثير من أجل الحصول على موافقتها اليوم، رأت في نظراته الخاطفة إليها ذلك الدفء الذي له طريقته في جذبها، وإجبارها على تصديقه، وعندما تجرأ ليطالب تعجيل عقد القران، قرأت الخوف في عينيه إن أبدت رفضها، بداخلها أرادت الماطلة؛ لكن حينئذ انتابها رهبة قوية، لم تستطع المجازفة، بل لم تقدر عليها من الأساس، لهذا انطلق لسانها يعبر عن قبولها قبل أن تنهت لمجرد مناطحته الند بالند.

خاصم النوم جفניה ما تبقى من الليل، والسبب ببساطة لأنه استحوذ على تفكيرها، وكانت سعيدة بهذا، وللغرابة تمت أن تمضي- ساعاته البطيئة لتلتقيه في النهار! بررت "فيروزة" لنفسها الأمر، وهي تسحب الغطاء عليها:

مش أنا بقيت خطيبته، يبقى من حقي أشوفه

!!!

.....

الفصل المائة وسبعة وأربعون

الأبيض كان اختيارها الأول والنهائي بلا منازع، لترتديه على بنطالها الجينز الأزرق، انتقت بلوزتها هذه ذات الياقات العريضة- عن قصدٍ لترى تأثير اختيارها في عينيه. وقفت "فيروزه" أمام تسريحة مرآتها تتفقد هيئتها للمرة الرابعة على التوالي، قبل أن تلف رأسها بحجاب يجمع بين اللونين الأبيض والأزرق، ولم تنسَ وضع البروش الذي أهدته لها والدتها على جانب ياقتها اليسرى، ابتسمت في رضا وهي ترى كيف تبدلت ملامحها الواجمة لأخرى مليئة بالإشراق والنضارة.

أدارت رأسها في اتجاه والدتها التي ولجت إلى غرفتها بشكلٍ يدعو للاستراحة، وما عزز من هذا الشعور بداخلها، إغلاقها الباب خلفها بروية وحذر، ضاقت عينها على الأخير، وسألتها في دهشة:

خير يا ماما؟ في حاجة؟

ظلت يد "آمنة" موضوعة على مقبض الباب، وتكلمت بصوتٍ شبه خفيض:

هما كلمتين هاقولهم ليكي على السريع قبل ما أختك تيجي عندك الأوضة.

كانت "همسة" قد جاءت مبكرًا هذا النهار، لتبقى بصحبة "رقية" ريثما تذهب هي وأمها مع "تيم" وعائلته لشراء المصوغات الذهبية. نظرت إليها "فيروزة" بتوجس، وردت متسائلة:

-في إيه يا ماما؟ إتي قلقتيني!

لم يكن من اليسير عليها أن تخبرها بما لم تعتد سماعه منها، فبريق الذهب له إغرائه الطامع، خاصة وإن كانت الأسرة في طريقها لظروف مادية شبه متعسرة، فالمال الذي جناه شقيقها أنفق معظمه في العلاج والأدوية الباهظة، حتى يتأمل للشفاء، كذلك مع قلة مصادر الدخل المتوفرة بعد نشوب الخلافات مع "إسماعيل"، وعدم التزام الأخير بإرسال الأقساط الربع

سنوية لهما، وإهماله المتعمد للأرض الزراعية مما ضاعف من سوء الحال، بل وجعل الوضع المادي غير جيد بالمرّة.

ناهيك أيضًا عن المصاريف اليومية للإتفاق على المنزل، وتسديد الفواتير المستحقة لشركات الكهرباء، المياه، والغاز، بالإضافة لبدءها في مشوار تجهيز الفتاة الصغيرة بما قد تحتاج إليه عند الكبر. كل تلك الأسباب وغيرها دفعتها لتغيير نمط تفكيرها التقليدي، خاصة أن ابنتها اعتادت على الكد منذ الصغر، فلا ضرر من الاحتفاظ ببعض المال لاستخدامه وقت اللزوم، هكذا هيأت نفسها للقادم، ورتبت أفكارها بناءً عليه!

ارتسمت الجدية على وجه "آمنة" بشكلٍ واضح، وراحت تخاطب ابنتها بهمس، كأنما تملي عليها أوامرها:

-بصي لما تنقي الشبكة بتاعتك، اختاري التقيّل، واللي مافيهوش شغل، ويستحسن يكون عيار 21، أهو وينفعوكي للزمن، لو اتزقتي فيهم.

بعينين متسعيتين في ذهولٍ صادم، ردت مستنكرة بشدة:

-إيه الكلام ده؟

حافظت على جمودها وهي تؤكد عليها بإصرار:

-ماتستغريش، بس أنا ببص لقدام، ده غير إن عيلة خطيبك ناس كريمة، مش هيفرق معاهم ألف ولا اتنين، ولا حتى عشرة زيادة هيدفعوهم.

بالكاد كبت غضبها المتصاعد في صدرها، لئلا يطفو على السطح، وتفسد
الزيجة برمتها، أخذت تعاتبها في حني:

-واحنا من امتي بنتعامل مع الناس كده يا ماما؟ هو أنا اتريت على كده؟
ده احنا ممكن نقضيا عيش حاف ولا نبص لحاجة غيرنا.

أتاها تعليلها منطقياً:

-عارفة كل ده، بس يا حبيتي اللي زي المعلم "تميم" في مقدوره يفتح بدل
البيت اتنين وتلاثة، وعشرة، ومطعم لأي واحدة، وزى ما عجبتيه، ممكن
تعجبي غيره.

على الفور ردت في عصبية:

-يبقى بناقص منه لو عايز غيري، أنا مأجبرتش حد على إنه يتجوزني.

ظلت "آمنة" متمسكة بهدوئها وهي تردد على أذنيها:

-ربنا كرمك وبختلك واحد زيه، وعشان أنا عارفاكي كويس، فبعمل
لمصلحتك، ده إتني في لحظة ممكن تسييله الجمل بما حمل، واللي في مقامه
مايتعاندش، فعلى الأقل يبقى معاكي حاجة تسندك في الزمن الأغبر ده.

هزت رأسها في استهجان، وغطت تقاسيمها قهرة غريبة، فبدلاً من تدعيم
مشاعر الثقة بداخلها، وبث الإيجابية، وجدتها تنظر إلى المادة، وبشكل غير

مسبق ينم عن طمع واضح مُناقض لطبيعتها الودودة المسالمة. رفعت
"فيروزه" سباتها مدممة بأنفاس منفعة رغم خبوت نبرتها:

-أنا مش عارفة أقولك إيه، حقيقي مصدومة من اللي بسمعه.

حاولت استمالة عقلها بالمنطق، واستمرت في إقناعها:

-أنا شوفت كثير وقليل يا "فيروزه"، وإنتي بنفسك عارفة الحال بينا وصل
لفين، وآ...

قاطعتها في حدة وهي تسد أذنيها:

-بس يا ماما، كفاية، مش عايزة أسمع حاجة!

ردت بإيماءة من رأسها:

-ماشي يا حبيبتي، بس اعملي اللي قولتلك عليه وخلاص، مش هتخسري
حاجة.

لم تنتظر تعليقها، وانصرفت مغادرة الغرفة لتتركها على حالة من الصدمة
والحزن، اختفى ذلك الوميض اللامع عن حدقتها، وملأها إحساسًا جديدًا
بقلة الحيلة وخيبة الأمل، تكونت غصة في حلقها وهي تتساءل:

ليه كده يا ماما؟ ليه؟

جلست على طرف الفراش دافئة وجهها بين راحتها لدقائق عدة، قبل أن تخفضها لتحملق في الباب المغلق مليًا، والدموع تترقرق في عينيها، لم تستطع كبهم، فطمرت بعض الدمعات من طرفيها، لتنساب بغزارة على صفحة وجهها، بكت دون صوت، مستشعرة بوخزات حادة في صدرها. وضعت يدها على موضع الألم تفركه في رفق، توقفت بعد برهة عن البكاء، ومسحت بظهر كفيها ما بلل صدغيها، ثم أخذت تتنفس بعمق لتستعيد السيطرة على حالها.

نهضت من مكانها بثقل، وألقت نظرة على ملامحها الباهتة في المرأة، امتدت يدها لتمسك بمنديل ورقي، وأزالت لطخات الكحل المنساب أسفل عينيها، حدقت في نفسها مرة أخرى، وتكلمت في هدوء؛ كأنما تحفز نفسها:

هي تقول اللي عايزاه، وأنا هعمل اللي شايفاه صح ليا.

أبقت على خلو بشرتها من مساحيق التجميل فيما عدا الكحل؛ لكنها راحت تزيله هو الآخر بعد أن فسد في عينيها. سحبت شهيقًا عميقًا، وتابعت الكلام:

ليه بقت كل حاجة بتتقاس بالفلوس؟

تخيرت في أمر والدتها، فقلما كان المال يعنيها، وظلت تتساءل في صدمة:

للمرجادي التفكير ممكن يتغير بين يوم وليلة؟

انتصبت "فيروزة" في وقتها، ورددت لنفسها بثبات؛ كأنما تجددت العزيمة بداخلها:

-لو هو مفكر إنه بيشتريني بالفلوس يبقى مايعرفنيش كويس.

نزعت البروش عن ياقتها، ووضعت بداخل الصندوق المعدني الصغير الموضوع في منتصف التسيجة، وهي تواصل الحديث مع نفسها:
-أنا غير أي واحدة دخلت حياته.

نظرت إليه مع القرطين قبل أن تغلقه، لتضيف في حزم:
-يا يقبل بيا كده، يا نهي الحكاية دي.

عادت لتجلس على طرف الفراش، وهي تكرر تلك العبارات في رأسها، انخفضت عيناها، وحملت بشرود في نقطة وهمية في الفراغ، بقيت ساكنة إلى أن اقتحمت "همسة" الغرفة، وهي تهتف في صوت مرتفع:

-إنتي لسه أعدت عندك والعريس مستني تحت.

توقعت أن تقفز توأمتها عن الفراش في حماس، مثل أي فتاة في مثلها، تتلهف للقاء خطيبها؛ لكن على العكس وجدتتها منكسة الرأس، تحديق بجمود في الأرضية، دنت منها متسائلة في حيرة:

-في إيه يا "فيرو"؟

جلست إلى جوارها، وتأملتها عن كثب، وهي ما تزال تبتسم، سرعان ما تلاشت بسمتها حين رأت التعاسة بادية عليها، وضعت يدها على طرف ذقنها لترفع وجهها إليها، فرأت الحمرة المحترقة في نظراتها، انقبض قلبها أكثر، وسألتها:

-إيه يا حبيبتي، إيه اللي مزعلك كده؟

لاذت "فيروزة" بالصمت وهي تنظر إليها نظرة العاجز، كانت حائرة بين نارين: نار إطلاعها على ما طلبته والدتها، فتصدم هي الأخرى بها، ونار كتم غضبها بداخلها، فتتألم بمفردها، وكعهدا اختارت ما يضرها وحدها! احتضنت "همسة" توأمتها، ومسدت على ظهرها صعودًا وهبوطًا وهي تخمن سبب حزنها:

-إنتي أكيد افكرتي المرحوم "آسر"، وده مزعلك، هو عند ربنا، وإنتي من حقك تشوفي حياتك.

صيحة استهجان كانت على وشك إطلاقها تدمرًا على العذر غير المعقول، ومع هذا بقيت على سكوتها، فالأفضل أن تعتقد توأمتها هذا، ولا تسيء الظن بوالدتها، ابتعدت "همسة" عنها، تاركة يديها على جانبي ذراعي شقيقتها، وهي تخبرها بلطف:

-افرحي يا "فيرو"، إنتي تستاهلي ده.

انقلت لسانها معقبًا:

مش باين.

شهقت متسائلة في جزع:

ليه بتقولي كده؟

بحثت عن الرد المناسب على أمل ألا تثير الشكوك بداخلها، فقالت وقد تهدل كتفاها:

-أنا حظي قليل.

نفت في إنكار:

-لا، إزاي؟ والله ده إتي تتحي، وتخشي جوا القلب على طول.

ادعت "همسة" الضحك قبل أن تخبرها وهي تومع بعينها:

-وبعدين عريسك ملطوع مع مامته تحت، هايقول عليكي بتتقلي عليه، مش من أولها كده، خليها مرة ومرة.

نظرة واجمة سددها إليها قبل أن تتساءل بنزق:

-تفتكري الجوازة دي هتكمل؟

اندهشت لقولها، وردت في غرابة:

-وايه اللي يمنع؟ كل حاجة تقريبًا شبه جاهزة.

ثم لاح على ثغرها بسمه عابثة وهي تخمن:

-شكل حبك لـ "آسر" مآثر عليكي.

استاءت من التطرق إلى ذكره، كأن ما كان بينهما يدعو للتفاخر، تجهمت تعابيرها، وصاحت في حقد:

-بلاش السيرة دي دلوقتي.

تفهمت رغبتها في التوقف عن الحديث عنه، وبررت:

-معاكي حق، أي راجل ممكن يضايق لو خطيبته بتفكر في حد ثاني.

ضجرت من خلق الأعذار عنها، وهتفت بها بتعابير انقلبت بشدة:

- "همسة"! من فضلك أنا معنتش بفكر فيه، هو خلاص مرحلة انتهت من حياتي.

تعجبت من تبدل حالها، وردت في طاعة:

طيب، حاضر.

تحولت أنظار الاثنين نحو الباب عندما صاحت "آمنة" من الخارج في لهجة صارمة:

- "فيروزة"، الجماعة واقفين تحت، عيب نسيهم كده.

ضحكت "همسة" بتلقائية، وغمزت لها قائلة:

مش قولتلك، زمانه واقف على نار.

.....

ارتكن بظهره على جانب السيارة الأيمن، بعد أن انتقلت والدته، للجلوس في المقعد الخلفي، رغم إصراره على بقائها بالمقدمة؛ لكنها أرادت منحه فرصة للتقرب من عروسه المستقبلية، والجلوس معاً؛ وإن كان في نطاق محدود، علّ الوصال يزداد بينهما. أطل "تميم" برأسه من النافذة المنخفضة المجاورة لها وهي تشدد عليه:

-أوعى تبخل على عروستك بحاجة، أبوك موصيني لو الفلوس نقصت أنا هكمل من معايا، هو مديني زيادة.

قال في امتنان وهو يتحسس جيبه بتلقائية:

-الجيب مليون يا ست الكل، اطمني.

دعت له "ونيسة" بابتسامتها الصافية:

-ربنا يزيدك كمان وكمآن.

استقام "تميم" واقفاً لمرة أخرى، وطيف "فيروزة" لا يبارح خياله، لم تفارقه صورتها بالأمس، ولم يستطع النوم بسبب تفكيره المفرط فيها، سعى بجهد جهميد لتحجيم مشاعره عند اللقاء بها، فكيف لجائع أن يزهد ما لذ وطاب وهو متاح له؟ عذاب الانتظار فاق عذاب الشوق، ردد مع نفسه في رجاء:

يا رب صبرني الأيام دي لحد ما نبقي سوا.

رفع عينيه للأعلى لينظر إلى الشرفة العلوية، آملاً أن يمنحه القدر فرصة عابرة لرؤياها؛ لكن لم يجدها، كانت توأمتها وافقة بها، يا للتعاسة! لوحت له "همسة" بيدها، كأنما تُعلمه بقدمهن، هز رأسه بإيماءٍ صغيرة، قبل أن يخفض عينيه وصدى كلمات والده المحذرة قد راحت تنطلق في عقله كدوي إشارات الإنذار، ساد الامتناع على قسّماته، وقال في صوتٍ غير منطوق:

-بلاش تجيب لنفسك الكلام، الي باقي حاجة بسيطة.

استمر على وضعه، يقاوم مشاعره الثائرة بتوق الحب، لئلا يفكر في التجاوز إن رأى مهجة الفؤاد يبهائها تقبل عليه. انتبه "تميم" لصوت والدته وهي تسأله من جديد لتخرجه عن تفكيره العميق:

هما الجماعة اتأخروا ولا إيه؟

أجاب وهو يدير رأسه ناحيتها:

-لأ نازلين، مرات "هيثم" شافطني.

قالت "ونيسة" مبتسمة، وهي تضع حقيبتها في حجرها، لتفسح المجال للقادم
منهن، حتى تجلس بأريحية:

على مهلهم، ربنا يقضي اليوم ده على خير.

لفظ كتلة من الهواء في عجلة قبل أن يرد:

يا رب.

تحفز في وقفته عندما أقبلت عليه "آمنة" أولاً، مدت يدها لمصافحته بحرارة
وهي تُحييه:

سلام عليكم، إزيك يا ابني؟

بادلها التحية بابتسامة لبقة:

-الحمد لله في نعمة.

تجاوزته، ثم أحنت جسدها للأمام قليلاً لتنظر إلى "ونيسة" عبر فاتحة
النافذة، وبادرت بالترحيب بها:

-إزيك يا حاجة، عاملة إيه؟

أجابتها "ونيسة" بوجه شديد وهي تشير لها بيدها:

-في نعمة والمحمد لله .. تعالي جمبي يا أم العروسة، وخلي العرسان جمب بعض.

كانت مريحة للغاية بعرضها، وقالت وهي تشد المقبض لتفتح الباب:
ده أنا اتشرف بيكي، وربنا ما يفارقهم عن بعض أبدًا.

.....

على الجانب الآخر، تلكأت "فيروزة" في خطواتها؛ كأنما لا تريد الذهاب، فقدت حماسها، وتبدل بشيء آخر مزعج، لا تريد الإفصاح عنه، تأبطت "همسة" في ذراعها، وأخبرتها بقليل من المكر، وهي تقرب فمها من أذنها:

مش المفروض تطلبي من خطيبك رقم موبايله.

استدارت ناظرة إليها وهي تتساءل في ضيق:

هعمل بيه إيه؟

تعجبت "همسة" من حال شقيقتها، بالرغم من كونها ذكية إلا أنها افتقدت للشغف الموجود في العلاقات الثنائية، حتى أبسط البدييات فيه لم تكن مهتمة به، لهذا علقت مستنكرة بلوم:

-الله! المفروض ده شيء عادي، رقمه لازم يبقى معاك.

قبل أن تهم بالاعتراض، بررت لها:

-وبعدين لما تحتاجيه في حاجة هتطلبية إزاي؟ بالبلوتوث مثلاً؟!

ثم أضافت فيما بدا وكأنه تهكم ساخر:

-ده إتي متجوزة قبل كده، والمفروض مجربة مع المرحوم.

حسناً ليس الأمر كما تظن "همسة"، فوضعها آنذاك مع "آسر" كان قائماً من الأساس على قرارها المفاجئ بالارتباط به، دون وجود عاطفة حقيقية نحوه، الاختيار اعتمد على العقل، لكونه وسيلتها للرد على اتهامات ابن عمها الباطلة، كما أن ذلك الوغد قد لجأ معها للخداع والحيلة، لتقع فريسة في شباكه الماكرة كصيد سهل.

أما إن استبعدت عبارات الحب الزائفة، وما كان يغرق به مسامعها من أحاسيس لم تستشعرها للحظة، فإن مكالماته المنتظمة لها في فترة الخطبة المزعومة دارت في غالبيتها حول مستقبل واعدٍ له، ومجهولٍ بالنسبة لها، ناهيك عن سفره قبلها للترتيب لقدمها، فارتكز الحوار بينهما في معظمه على إنهاء الإجراءات، والمزيد من العبارات غير المحسوسة لها. سيطر عليها التخبط والقلق، ومع هذا استسلمت قائلة أمام إلحاحها:

طيب.

تساءلت "رقية" في فضولٍ وهي تأرجح كفها المشبوك في يد ابن عمها
"فيروزة":

-إنتو بتقولوا إيه؟

أجابت "همسة" بابتسامةٍ مرحة:

-بقولها أنا هخدك معايا نجيب فستان جميل ليكي، وحاجات للنونو.

هتفت في حماس:

-أنا عاوزة حاجة حلوة.

هزت رأسها تعدها:

-حاضر، بعد ما نخلص.

تهدت "فيروزة" معقبة:

ما تخليها تيجي معانا.

لكنها برفقٍ في جانب ذراعها، وهي تخبرها بصوتٍ شبه خافت:

عشان تبقوا على راحتكم، وبعدين ماما مكلفاني بالمهمة دي، وخليكي إنتي
مع عريسك.

تبادر إلى ذهنها خطة والدتها الساذجة التي أطلعتها عليها، وشرعت في تنفيذ أركانها، معتقدة بهذا أنها ستجبرها على تحقيق رغباتها المستجدة في اكتناز المال على هيئة مصوغات ذهبية ثقيلة الوزن، غطى وجهها تعابيرًا ناقمة، وكزت على أسنانها مغممة في تهكم مستاء:

أه طبعا !!

.....

الفصل المائة وثمانية وأربعون

الظروف الاقتصادية، والتغيرات الطارئة قد تبدل من طريقة تفكير الفرد، خاصة إن كان اتكاليًا، غير معتادٍ على ممارسة أي دور فعال، لذا يبحث عن الوسائل المضمونة والأكثر سهولة لتوفيق أوضاعه، وربما لجني المال دون خسارة فعلية لما بحوزته، معتمدًا في هذا على خبراته، سواء كانت تلك الخبرات محدودة أو على نطاق أوسع.

بالنسبة لها شراء المصوغات المصنوعة من الذهب -تحديدًا- يعني ارتفاعًا مؤكدًا في قيمته بمرور الزمن، فإن احتفظت ببعض القطع لعدة سنوات، حتمًا ستجني ربحًا معقولًا في حال فكرت في بيعها في يومٍ ما، أو عند الحاجة، لذا لم تكثر "آمنة" إن انزعجت ابنتها من طريقة تفكيرها المعدلة، فهي الآن المنوطة بالتصرف في كل شيء، كما أن ما ورثه "فيروزة" عن زوجها الراحل قد ترفض المساس به لسببٍ تجهله، كأن بهذا الميراث لعنة غريبة، ولن تقبل بالتصرف فيه بسهولة إن اضطرت لهذا.

في تلك اللحظات تحديدًا جال بخاطرها تصرفات "حمدية" في هذا الشأن، وما كانت تفعله لاكتناز المال وجمعه بكل السبل، لوهلةٍ تمت أن تكون في مثل دهائها؛ لكنها كانت محدودة الفكر، فقيرة الخبرات.

رسمت "آمنة" ابتسامة ودودة على ثغرها، والتفتت تخاطب "ونيسة" في تهذيب، بعد أن نفضت عن عقلها كل هذا التفكير المرهق:

-والله يا حاجة الناس كلها تشهد بأخلاق "تميم"، يا زين ما ربيتي.

لم تكن مُضيفتها متصنعة وهي تخبرها بصدق:

تسلمي يا حبيبي، إنتو برضوه ولاد أصول، وحتى لما حصل سوء تفاهم بسيط بين الولاد، إنتي مخلصكيش.

على إثر جملتها الأخيرة، استحضرت "آمنة" على الفور في ذهنها ما حدث بينهما قبل أشهر من تبادل اتهامات في قسم الشرطة عقب حريق عربة الطعام المملوكة لـ "فيروزة"، تلبكت، وارتفع الأدرينالين المتحضر في دماها، وأخذت تبرر بلعثة بائنة نسيًا:

آ.. أكيد يا حاجة، ده زي ما إنتي قولتي .. كان سوء تفاهم، والحمدلله راح لحاله، ودلوقتي بقينا أكثر من الأهل.

مدت "ونيسة" يدها وربتت على كفها المسنود في حجرها لتقول في لطف دون أن تفتر بسمتها:

-ربنا يديم المعروف بينا.

رددت في عجالة:

يا رب، ويحفظهم ويبعد عنهم عين الحسود...

توقفت لهنية عن الكلام لتستأنف بعدها مغيرة من الموضوع:

-بس فكرة كويسة إن أهل الحتة يشوفوهم سوا.
أيدتها "ونيسة" في الرأي، وعقبت:
-أيوه، بكده يعرفوا إنهم اتخطبوا، وقريب هيتجوزوا.
دعت في رجاءٍ شديد، ويدها قبل عينيها مرفوعتان للسماء:
-ربنا يجمعهم على خير.

.....
التخبط الدائر في رأسها بين ما تريده، وما ترفضه كان على أشده،
فانعكست آثاره على تعبيرات وجهها، حين خرجت "فيروزة" متلكاة من
مدخل بيتها، خفق قلبها في توترٍ عندما رأت "تميم" واقفاً عند جانب
السيارة؛ لكن ما لبث أن استعادت جأشها والسيطرة على انفعالاتها لتبدو
كلوحٍ من الجليد. مشيت ناحيته، وبادرت بإلقاء التحية دون لهفةٍ حقيقية:
-سلام عليكم.

بالكاد نظر إليها قبل أن يتحرك من مكانه بعد أن جذب مقبض باب
السيارة وهو يرد:
-وعليكم السلام.

لم تخرج "همسة" في التو، تعمدت التأخر ريثما ينصرفوا بالسيارة، فلا تضطر للمجيء معهم، وتفسد باقي خطة والدتها في التقريب بين عروسي المستقبل. حل العبوس على وجه "فيروزة" وقد رأت تعامله الجاف معها، حقًا كان اللقاء بينهما خاليًا من الدفء، بدا أقرب للجفاء، الفتور، والتقليدية البحتة.

استنكرت ترتيب جلسة السيارة، لتستقر في المقعد الوحيد الشاغر إلى جواره، غمغمت مع نفسها في تبرم:
-أل يعني طابق يقعد جمبي!

ولتغيظه عن عمدٍ، قبل أن تستقل السيارة، أطلت برأسها من النافذة المجاورة لأُمها، لتلقي التحية على والدته بألفه غير زائفة:

-إزي حضرتك يا طنط؟ ما تفضلي قدام، مايصحش تقعدي هنا.

ردت عليها "ونيسة" بضحكة بشوشة:

-أنا الحمد لله في نعمة، ومبسوطة وأنا قاعدة هنا، خليكي إنتي جمب عريسك.

تلك الكلمات العفوية أطلقت إشارة احمرار بشرتها، كأنها تتحين الفرصة لتتلون بتلك الصبغة التي لطالما كانت تجهلها إلا حينما تغدو معه. أجلت "فيروزة" أحبال صوتها، وردت بابتسامة خفيفة:

عادي يا طنط، المقامات محفوظة، وحضرتك لو آ...

قاطعتها تلك المرة "آمنة" قائلة بنظرة ذات مغزى:

-يالا بنتي اركبي، مش عايزين نأخر الجماعة.

مع معرفتها بنواياها الخفية، خبا اللون تدريجيًا من بشرتها، لتغدو أقل تورداً وهي تعلق موجزة في طاعة غريبة:

حاضر يا ماما.

واصلت كلاً من "ونيسة" و"آمنة" الحديث بعفوية واسترسال ضاحك طوال الطريق، كأنما يستعيدان ذكريات الماضي بجواراتهما المقتضبة والمختلفة، بينما ساد الصمت بين "تميم" و"فيروزة"، كأنهما قد أصبحا من الغرباء فجأة، تباعدت عنهما المشاعر، وحلت محلها الروتين والفتور. استاءت "فيروزة" من هذا اللقاء المتجافي الخالي من أي ودية، حميمية، أو حتى تعابير اللفتة، كذلك يئست من محاولته استدراجها للكلام معه ومخاطبتها، خاصة عندما اختلست النظرات ناحيته من طرف عيناها، ووجدته يصب كامل تركيزه على الطريق، حركت شفثيها دون صوت:

ماله ده كمان؟

التوت زاوية فمها ببسمة تهكمية وهي تواصل حديث نفسها، خلال مطالعتها للطريق من جانبها:

ما هو مش معقول غاصبين عليه يتجوز؟!

تحفزت في جلستها، وتصلبت عندما امتدت يده فجأة للأعلى لتخفض المرأة
العلوية وهو يخبرها في هدوء:

عشان الشمس متضايقش عينيكي.

كالبهاء تطلعت إليه للحظات، في نظرات متسعة، مصدومة من اهتمامه
الغريب بتفصيلة صغيرة كتلك، هي نفسها لم تكثرث بها! بدا صوتها
متحشرجاً بشكلٍ ما وهي ترد في اقتضابٍ:
شكراً.

حاولت ألا تعطي الأمر أكبر من حجمه، وأدارت رأسها للخلف متسائلة:

-أومال فين "هاجر" يا طنط؟ مش كان المفروض تيجي معانا.

ردت "ونيسة" وبين شفيتها ابتسامة صغيرة:

عقبالك كده يا حبيبتى مع "سراج" بيشوفوا الستائر، وبيشترخوا النجف.

عقبت "آمنة" في حبور:

ما شاء الله، ربنا يهنهم سوا.

تخرجت "فيروزة" من عفويتها، وحافظت على ثبات بسمتها وهي ترد:

-ربنا يسعدهم.

التفتت مرة واحدة عندما سألها "تميم" بغتة:

-في محل ذهب معين عايزة تروحيه؟

عندئذ تذكرت حديث والدتها المقيت، عن شراء الأكثر وزناً من الحلي الذهبية، وإن كان الاتفاق بين العائلتين نص على شراء ما يُعادل في قيمته مائة ألف جنية، إلا أنها لم تحبذ هذا الشعور المنفر بأنه يتم شرائها بالمال لا بالمشاعر. رmqته بتلك النظرة المزعوجة قبل أن تخبره بوجوم:

-لا، عادي أي مكان.

اقتрحت "ونيسة" من خلفها:

-ودينا عند الصايغ معرفتنا، أكيد هيعمل معانا الواجب.

سألها "آمنة" بنظرة مستفهمة:

مضمون ده يا حاجة؟ أصل ساعات بنسمع عن اللي بيعشوا الذهب ويبيعوا الصيني على إنه ذهب أصلي.

أكدت عليها في جدية:

ده مضمون، وبتعامل معاه من زمان.

استحسننت اختيارها، وردت في إيجاز:

خير..

لم تنتبه "آمنة" لنظرات ابنتها الحائقة المرتكزة عليها، وتمتت في خفوت:

مش فارقة صيني من غيره!

.....

مقاومة النظر إليها، والادعاء بأنها غير موجودة، تطلب منه استخدام أقصى درجات ضبط النفس، ليبدو في حالة من الثبات العجيب في حضرة بهائها الساحر. بين الفنية والأخرى، كان يسرق نظرة إليها، يحاول قراءة ما تم عنه تعابير وجهها الواجمة، من المحتمل أن يكون قد طرأ أمر ما عليها، تنفس "تميم" بعمق، وسأل نفسه:

يا ترى إيه اللي ضايقها ثاني؟

تخير في معرفة الجواب المناسب، وحاول الالتئام عن سؤالها بالتطلع إلى الطريق، ومراقبة حركة المرور بتعاسة عجبية حطت عليه، إلى أن بادرت بالحديث مع والدته، فأحس برنة صوتها تخرق فؤاده وتحدث ضحيجاً به، هنالك شعر بجتمية كسر حاجز الجمود بينهما، وشارك في الحوار بحذر، لئلا يفلت لجام سيطرته على مشاعره؛ لكن ردودها كانت مقتضبة، بالكاد تجاوزت في حديثها، كأنما تستصعب الكلام معه.

لم ينكر أن هذا أصابه بالإحباط والضيق، وغالب بجهد هذا الشعور، باحثًا
عن بارقة أمل قريبة تبدد ما فات من مشاعر سلبية مزعجة زحفت إليه.
وجد لسانه يردد في عفوية بصوت شبه مسموع:
خير إن شاء الله.

تفاجأت به "فيروزة" ينطق بذلك بعد صمتٍ طويل، فسألته مستفهمة:
نعم؟

لم ينظر ناحيتها وهو يرد:
ما فيش.

سألته ساخرة بشفاه ملتوية:

هو إنت بتكلم نفسك؟

تصنع الابتسام وهو يرد:

حاجة زي كده.

تطلعت أمامها وهي تكلمه:

أوكي.

اختطف نظرة سريعة ناحيتها فوجدها لا تنظر إليه، لفظ الهواء ثقيلاً من
رئتيه، وردد في خفوت:

يا رب يسر ولا تعسر.

.....

حركت قدمًا أمام الأخرى بتباطؤٍ وهي تتجه نحو باب المنزل لتفتحه، برزت
حدقتها في غير تصديقٍ حين رأت ابنها واقفًا عند عتبة، بغريزتها التلقائية
اندفعت "سعاد" ناحيته لتحضنه في لهفةٍ وشوق، قبلت كتفه ورددت في
صوتٍ خافت؛ كأنما تخشى سماع أحدهم لها:

-وحشتني يا ضنايا.

قال "فضل" وهو يقبل أعلى رأسها:

-وانتي أكثر يامه ...

دققت النظر فيمن جاء خلفه، وتراجعت عن ابنها لترحب به:

-إزيك يا حاج "فتحي"؟

رد عليها الأخير وهو يومئ برأسه:

-بخير يا "أم فضل"، "إسماعيل" عندك؟

هزت رأسها بالإيجاب، فتابع بصيغة شبهة امرأة:

حطب قوليله إني عاوز أشوفه.

قالت بإيماءات صغيرة من رأسها:

حاضر.. اتفضل.

استضافته في منزلها، وذراعها يحاوط ابنها، سرعان ما انتشرت فيها رجفة

متوترة عندما سمعت زوجها يتساءل من الداخل:

مين يا "سعاد"؟

بلعت ريقها، وأجابت بوجه تحول للشحوب:

ده الحاج "فتحي".

رد عليها بنفس النبرة العالية:

خليه يتفضل..

وقبل أن تتكلم كان "فتحي" الأسبق في قوله:

-أنا مش لوحدي يا "إسماعيل".

جاءه ترحيبه الكريم:

أهلاً بك وضيوفك.

تقدم "إسماعيل" نحو البهو الفسيح للترحيب بزائريه؛ لكن حلت الصدمة على قسماته بمجرد أن أبصر ابنه يقف إلى جواره، قست نظراته ناحيته، وأظلمت تعابيره بشكلٍ واضح. استند "فتحي" بكفيه على رأس عكازه، وقال في هدوء:

-ده مش ضيف، ده ابنك "فضل".

أشاح "إسماعيل" بوجهه بعيداً عنه، وهسهس في حنق:

-استغفر الله العظيم، جايه ليه معاك يا "فتحي"؟

وضعت "سعاد" يدها على صدرها متوقعة حدوث الأسوأ، في حين استمر "فتحي" على هدوئه وهو يقول:

عشان يصلح اللي عمله!

ثم استدار يأمر "فضل" وهو يشير إليه بعينه:

جِب على راس أبوك، واستسمحه.

دون نقاش تحرك "فضل" مندفعاً نحو أبيه، أمسك بكفه عنوةً بين راحتيه ليجذبه إليه، وانهاهال يقبله معتذراً:

-حقك عليا يابا، سامحني يا حاج، ده أنا من غيرك ولا حاجة.

سحب "إسماعيل" يده في عصبية، رافضاً هذا الأسلوب السخيف للضغط عليه، وأصر على موقفه هاتفاً:

-وأنا مش عايزك في داري، غور من هنا.

ظل "فضل" محنياً على ذراع والده يتوسله:

-سامحني يابا.

نبذه بقبضته بعيداً عنه -بعصبية واضحة- وهو يرد:

-ماتقربش مني!

اعتدل "فضل" في وقفته، ونظر إلى "فتحي" بنظرات حائرة، فتدخل الأخير قائلاً:

-يا "إسماعيل" ماتجبكش الحكاية، هو غلطان من ساسه لراسه، بس عمر الضفر ما يطلع من اللحم.

جاءه رده قاسياً وهو يلوح بذراعه:

-لا يطلع لو كان فاسد.

كرر "فضل" اعتذاره النادم له، وهو ينكس رأسه في خزي:

-أني محقوقك يا با، اعمل فيا ما بدالك، بس ارضى عني.

لم تتجراً "سعاد" على النطق بشيء؛ لكن نظرات الاستجداء الظاهرة في عينيها أكدت رغبتها الشديدة في نجاح تلك الوساطة، وإنهاء الخصام، ليعود ابنها إلى المنزل، تركزت أنظارها مع "فتحي" الذي استمر قائلاً:

-هو طالب السماح منك.

بوجه ذي تعبيرات مكفهرة أخبره "إسماعيل":

-ربنا وحده اللي بيسامح.

وافقه الرأي، فقال في تريث:

مضطرب، ربنا غفور رحيم، بس العفو عند المقدرة ...

ثم تقدم خطوتين نحوه، وتابع باقي كلامه بكلمات موحية:

-مش ده كلامك يا "إسماعيل" لينا على طول؟ هتبخل بيه على أهل بيتك؟

احتج عليه في تبرم:

-يا "فتحي" آ...

قاطعه في نبرة لينة:

-أني المرادي بتوسطله عندك، إيه هتكسفي؟

ظهر الحرج على قسماته التي خبت قسوتها نسيًا، واستطرد يخبره:

-إنت مقامك محفوظ عندي، بس هو ما يستلش.

علق عليه بهدوء:

-وخلاص خد جزاته، وعرف غلطه، وبقي عبّرة وسط أهل البلد، خلينا
نوجه يعمل الصبح.

هتف معقبًا في تهكم:

-بعد ما شاب ودوه الكتاب؟ أني جبت أخرى منه، هستنى إيه تاني؟

أكد عليه "فتحي" بإصرار:

-المرادي برقبتي، وأناي مردتش ليك كلمة قبل كده!

لم تستطع "سعاد" كبج نفسها تلك المرة، فهتفت تتوسله بعينين تترقرق فيهما
الدموع:

-وافق يا حاج، خصيمك النبي لتوافق، هو خلاص تاب وأنااب.

ألح عليه "فضل" هو الآخر متسولاً مشاعره:

-بالله عليك يا بابا، حقك عليا، أنا هبقي تحت رجلك، مطرح ما تحطني ما
هنطق.

سئم من كل هذه المحاولات للضغط عليه، وردد بتنهيذة طويلة:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

تفرس "فتحي" في ملامح وجه رفيقه، وحين لم يجد منه رفضًا واضحًا،
هتف أمرًا:

-خش يا "فضل".

استوقفه "إسماعيل" قبل أن يتحرك برفع عكازه في الهواء وهو يتساءل:

-ولو غلط؟

لاحت ابتسامة واثقة على محياه وهو يرد:

-أني بنفسي هكرشه برا البيت.

لم يعلق عليه "إسماعيل"، واكتفى بالنفخ في سقم، لم يبال "فضل" بتأفقه،
وتشجع للدخول، لتلحق به والدته والفرحة تقفز من عينيها، في حين
استأذن بعدها "فتحي" بالذهاب، واصطحبه رفيقه للخارج ليديم بعدها
بغير رضا:

دليل الكلب عمره ما يتعدل لو حطوا فيه قالب!

.....

تباطأت سرعة السيارة تدريجيًا، عند انحرافها لناصية الشارع الخاص بأشهر
محال تجار الصاغة. بحث "تميم" بعينه عن بقعة خاوية؛ لكنه لم يجد واحدة
متاحة، لهذا التفت برأسه مخاطبًا والدته:

-انزلوا إنتو هنا يا ست الكل، وأنا هشوف حته فاضية أركن فيها،
وأحصلكم.

ردت عليه "ونيسة" وهي تستعد للترجل عنها:

ماشى يا ابني، ربنا يسلم طريقك.

تساءلت "آمنة" في فضول:

هو المحل قريب من هنا؟

أجابتها في تلقائية وهي تشير بيدها:

-أيوه، عند العمارة اللي هناك دي.

هبطت "فيروزة" عن السيارة، وملاحظتها خالية من الابتسام، ضغطت
على شفيتها في ضيق ملحوظ، وتحركت بخطوات غير متحمسة خلف

والدتها و"ونيسة"، إلى أن توقفت الأخيرة بالقرب من أحد المحال، رفعت
ذراعها لتشير إليه قائلة:

-المحل أهوو.

تأملت "آمنة" واجهته بنظراتٍ مبهورة، وانعكس بريق الذهب المغربي في
حدقتها، تدلى فكها للأسفل للحظاتٍ قبل أن تعلق شفيتها وتقول مادحة:

ماشاءالله، باين عليه شغله العالي.

ردت عليها "ونيسة" في ود:

-إن شاءالله تلاقي العروسة اللي يعجبها فيه.

هتفت في حبورٍ شديد يشوبه الانبهار:

-ياذن الله، ده مافيش أحلى ولا أفخم من كده...

ثم أدارت رأسها للخلف، وصاحت في ابنتها المتأخرة بضعة خطواتٍ عنهما:

تعالى يا "فيروزة".

غمغمت في صوتٍ متذمرٍ بالكاد خرج من جوفها:

-هو أنا هروح فين.

رعشة خفيفة أصابتها حين سمعت صوته يأتي من ورائها متسائلاً:

-أتأخرت عليكم؟

وجدت نفسها ترد من تلقاء نفسها:

-لا.

لامت نفسها لتسرعها، ولم تظهر ذلك على وجهها، وسارت بنفس الخطوات البطيئة، إلى أن لاحظت من طرف عينها أنه يسير تقريباً إلى جوارها، لم تتعجل السير، وتبادر إلى ذهنها فكرة ما، تعمدت التلكؤ أكثر بعد أن لمحت والدتها تختفي خلف والدته عندما وصلت إلى باب المحل الزجاجي، استدارت كلياً فجأة لتستوقفه قائلة بجديّة تامة:

-عايزاك في كلمتين يا معلم.

توجس "تميم" خيفة من ملامحها الغامضة، لم تكن تعبيراتها تنم عن دلال أنثوي، أو حتى رقة لطيفة، بل كانت أقرب للجفاء، تقطب جبينه، وسألها وهو ينظر إليها في حذر:

-أؤمري يا أبله.

لم يظهر عليها بادرة تردد وهي تجبره:

-أنا مش عايزة شبكة!

حلق فيها مدهوشًا، وصاح مستنكرًا دون أن ترتفع نبرة صوته:

-إيه الكلام ده؟

خاطبته في تزمّت:

-إلي سمعته، هي الحكاية مش شاروة ومين هيدفع أكثر، أنا كل اللي محتاجه حاجة بسيطة، يدوب دبلة وخاتم وخلاص.

رمقها بنظرة مستاءة من سوء تفسيرها للأمور، فخبه لها أسى من أن يقدر بحفنة من الأوراق النقدية؛ وإن كان يملك من الثروة ما يخوله لشراء ما يريد وقتما يريد. حافظ على جمود تعايره، وعلق معترضًا في خشونة طفيفة:

-بس ده مكانش الاتفاق.

أتاه تبريرها صريحًا:

-صح، وأنا مش هاخذ حاجة زيادة لمجرد الاستعراض وعمل شو قصاد الناس.

مجددًا أساءت الظن فيه، لذا عاتبها في ضيقٍ لم يخفه:

-وهو أنا مستني أعمل كده؟

صمت للحظة قبل أن تعلق أسبابها التي بدت منطقية من وجهة نظرها:

-معرفش، بس أكيد الرقم الضخم اللي مخطوط عشان الشبكة تتجابه بيه
هيعمل اللازم، مش شرط منك، بس الناس بتتكلم!

عقب عليها بتعقل وهو يحاول مُهاودتها:

-وبرضوه الناس مش لازم تعرف بكل تفصيلة عننا، ما يخصهمش.

ضغطت على شفيتها قليلاً كأنما تفكر لهنية في كلامه قبل أن تصر- على
رأيها:

-معاك في ده، بس هيشوفوا الحاجة، وأنا عن نفسي محبش أجيب حاجة
مش هلبسها.

بعد زفيرٍ بطيءٍ ألح في عنادٍ:

-بس دي هديتي ليكي.

تمسكت برفضها قائلة:

-وأنا مقدرش أقبل حاجة معرفش أردھا.

لمحة من التبرم سادت صوته عندما هتف محتجاً على عنادها الغريب :

-وأنا مش عايزك تردیھا.

لم تلين رأسها أو نبرتها وهي تقول بغير تساهل:

-وأنا مش هقبلها.

وجد "تميم" أن جداله معها لن يصل به سوى إلى طريق مسدود، لهذا حاول حل تلك المعضلة بدبلوماسية:

طيب .. هنشوف الموضوع ده لما ندخل جوا.

همّ بالتحرك؛ لكنه استوقفته مجددًا بقولها الغامض والمستريب:

-حاجة ثانية.

رغم الضجر المستبد به حاليًا، إلا أنه حافظ على ثبات نبرته وهو يتكلم:

-اتفضلي.

لاح التردد في صوتها حين استطردت مخاطبه:

-أنا .. كنت عاوزه آ...

سألها في حذرٍ، وقد توقع أن يكون القادم غير مُرضٍ له:

-ليه؟

رمشت "فيروزه" بعينها قبل أن تلفظ الكلام دفعة واحدة:

-عاوزه نأجل كتب الكتاب شوية.

هنا ارتفعت نبرته المستهجنة وهو يردد في صدمةٍ حطت على رأسه فأصابته بالعصبية:

-نعم؟ إيه الكلام ده؟!!

علت نبرتها هي الأخرى وهي تحاوره:

-أيوه، أنا مش مستعدية نفسيًا، وحابة أخذ وقتي في التفكير، من غير ما حد يضغط عليا، إيه الغلط في كده.

سحب "تميم" نفسًا عميقًا، حبسه للحظات في صدره، ليثبط به ما تصاعد بداخله من دماء ثائرة، ثم طرده على مهلٍ ليسألها بوجهٍ شديد الوجوم:

-والتأجيل ده أد إيه كده؟

هزت كتفها قائلة بعدم مبالاة استفزته نسيًا:

-معرفش لسه، بس أهم حاجة ميكونش في استعجال.

سددها لها نظرة مغتظة، لم يخبئها حتى، وانعكس الكدر على ملامحه أكثر. رفعت "فيروزة" حاجبها للأعلى، وسألته في جدية:

-ها قولت إيه؟

لم يجد بنظراته القوية عنها، ولاذ بالصمت لبضعة ثوانٍ قبل أن يخبرها في غموض:

-ماشي كلامك .. بس بشرط.

عقدت حاجبيها مغممة في دهشة:

-شرط!

اخشوشنت نبرته قليلاً وهو يقول:

-أيوه .. اشمعني أنا مقولش رأيي؟ المفروض احنا بنتشاور سوا، ولا أنا غلطان؟

أطلقت زفرة سريعة، وشبكت ساعديها أمام صدرها، ثم سألته بنبرة بدت شبه مستخفة بشرطه:

-اتفضل .. إيه هو شرطك؟

كان حازماً في صوته قبل ملامحه عندما أوضح لها:

طالما هتأجلي كتب الكتاب لحين ما يأذن ربنا يبقى نكمل نص دينا على بعضه.

وكان كلماتها لم تكن بالوضوح الكافي لتستوعب تفسيره شبه المتواري، لذا
لوت فيها تسأله:

-مش فاهمة، إيه قصدك؟

نظر في عينيها بعمق وثبات، كما لو كان يفرض سطوته عليها بتلك النظرات
المفعمة بالذكاء، ليلقي على مسامعها بعدها موضحًا بابتسامة صغيرة:

-يعني هبقى كتب كتاب ودخلة مع بعض، ماشي يا أبلة
!!؟

.....

القلب ليس مجرد عضلة تدفق الدماء النقية إلى الشرايين وتستقبل غيرها، وإنما هو موطن الإحساس بكل ما هو جميل ومميز. ما تفوهت به جعله يدير دفة الأمور إلى الاتجاه المعاكس، على أمل أن تكون النتائج في صالحه. ألقى "تميم" بشرطه المباشر عليها منتظراً ردها، فاستغرقت "فيروزة" في تفكير سريع قبل أن يأتي وجهها بأكثر من لون وهي تصرخ رافضة:

-لا طبعاً، أنت بتساومني؟

تسلح بالهدوء، وسألها بوجه متقلص العضلات إلى حد ما:
مين قال إنها مساومة؟ احنا بنتناقش سوا.

احتدت نبرتها وهي تجادله:

فين النقاش، وانت بتعقد الأمور أكثر؟

رد مستنكراً في ضيق بدأ بالظهور عليه:

-أنا اللي بعقدها؟ طب إزاي؟ ده احنا لسه بنقول يا هادي.

ارتفع صوتها قليلاً وهي تواصل هجومها غير المبرر عليه، مستخدمة يدها في التلويح:

-أنا ضد إن حد يحطني تحت ضغط، ويجبرني على حاجة مش عاوزاها.

لم يسعَ للخروج عن طور هدوئه رغم المحفزات الداعية للعكس، وسألها
بتريث كابتًا ما يعتريه من ضيق:

فين الإجبار بالظبط؟

كان صوتها أقرب للصراخ وهي تهمه:

-أومال الي إنت قولته ده إيه؟ لو اتأجل ميعاد كتب الكتاب هيبقى كتب
كتاب ودخلة سوا، ده مش أسلوبك للضغط عليا؟

برر لها موقفه بهدوء حذر:

-ما أنا سايب المدة مفتوحة، خدي كل الوقت الي إنتي عايزاه، مابقولش
نعمل ده بكرة...

سرعان ما أثار وجهه بسمه لطيفة وهو يختتم جملته:

-ولو إني أتمنى إنه يحصل.

استمرت في مهاجمته بعدائية غريبة وقد ارتفعت يدها للأعلى في الهواء:

-أه طبعا لازم يحصل على مزاجك، وإنت يفرق معاك حاجة؟ ما هو كل
حاجة بيعة وشاروة بالنسبالك، نجيب شبكة بأد كده، ندفع مهر بأكوام
فلوس عشان عين العروسة وأهلها يزغللوا فيوافقوا بدون تفكير، وكأنا
مصدقنا، ولما تضمن حقك، تروح تشوف بيعة جديدة تملى عينك!

حملق فيها "تميم" مدهوشًا للحظات محاولاً استيعاب كل ذلك التحفز ضده؛
كأنما ارتكب جريمة ما دون أن يعلم عنها شيئًا، استنكر اختلاقها لأسباب
غير حقيقية في تحميل كامل الذنب لأمر مجهول، وهتف -رغم ذلك- مدافعًا
عن نفسه بحذر:

-إنتي بتجيبني الكلام ده منين؟ أنا مش فاهم حاجة، وبعدين ده مش طبيعي
يا أبله، إنتي جايز متعرفيش كويس، بس أنا مش كده.

رمقته بنظرة حاتقة قبل أن تخبره بحسم:

-أنا مش للبيع يا معلم "تميم" ...

حدق فيها بوجوم، وزادت نظراته قتامةً عندما نطقت في حزم:

-اعتبر الجوازة منية!

وكانها وخزته بطعنة غدرٍ في صدره، فصاح بها في صدمةٍ وقد استبد الألم
بكامل كيانه:

-إنتي بتقولي إيه؟

.....

بقائها بالداخل طوال تلك الدقائق أعطى الصائغ الفرصة لعرض أحدث
المشغولات لديه، لتكون الخيارات متنوعة ومتاحة للعروس حين تنتقي

الأفضل، الأقيم، والأعلى، بناءً على طلب "ونيسة". توقعت "آمنة" أن تلحق بها ابنتها؛ لكنها بقيت بالخارج، فنظرت عبر زجاج واجهة المحل إليها وهي تتحدث إلى "تميم"، ظنت أنهما يتأملان الحلي المعروضة بالخارج، فلم تلق لهما بالاً، إلى أن انتهت للصوت شبه المرتفع بينهما، حينئذ ارتكزت نظراتها عليهما، وقلبا ينبض في توجس، وعند ارتفاع وتيرة الصدام بينهما، تركت ما في يدها لتخرج إليهما وهي تتساءل في قلق كبير:

خير يا "فيروزه"؟ في إيه؟

النظرة التي منحتها ابنتها لها أكدت أن الأمور ليست على ما يرام، تجمدت الكلمات على طرف لسانها، واتسعت عيناها في ذعر، في حين تساءلت "ونيسة" في تحير:

في إيه يا ولاد؟ حصل إيه؟

سلطت "فيروزه" عينيها الحائقتين على والدتها، وأخبرتها بقسوة جعلت قلبها يقصف هلعاً وهي تنفض يديها أمامها:

خلاص يا ماما ارتاحي، كله بح، خلص، انتهى!

لطمت "آمنة" على صدرها في حسرة، بينما رددت "ونيسة" مذهولة:

يا ساتر.. ليه كده؟

اندفعت بعدها "فيروزة" مغادرة المكان، لتسرع في خطاها متجهة للأمام دون أن تحدد وجهتها، بينما وجهت "ونيسة" سؤالها إلى ابنها بوجه مال للشحوب:

-إيه اللي جرى يا "تميم"؟

لم يعرف بماذا يجيبهما، فقال وهو يهيم باللاحق بطاووسه الجامح:
معلش يا جماعة، ده سوء تفاهم بسيط، استنونا جوا، أنا هاجيبها وأرجع.
ارتجفت شفتا "آمنة" عندما سأله بوجه أقرب للموتى:

-في إيه؟

ابتسم في تصنع، قبل أن يقول كنوع من المزاح، ليث الطمأنينة لكليهما:
هرمونات!

ثم هروا ليلحق بها وصوته يأمرهما:

-استنونا جوا المحل، شوية وراجعين.

تسمرت "آمنة" في مكانها، ونظراتها تشيع "تميم"، شعرت بالوهن يزحف إلى قدميها، فعجزت عن المشي باستقامة وهي تولول متحسرة:

-استر يا رب، ده اللي كنت عاملة حسابيه، العين ودت صاحبها القبر، أكيد هما اتحسدوا.

ربت "ونيسة" على كتفها قائلة:

-ربنا يبعد عنهم الشيطان، تعالي يا "آمنة"، خرينا نستنى ونشوف هيحصل إيه.

جرجرت ساقها عائدة إلى الداخل، ولسانها لا يتوقف عن التردد في خفوت:

-ربنا يعديها على خير، استرها يا رب، مش ناقصة خسائر.

.....

في لحظة الاختيار، وحين أصبحت بين مطرقة وسندان، رفضت بشتى الطرق أن تكون في موضع إكراه لشيء لا ترغب في فعله، انطلقت دفاعاتها تلقائياً لتمنعها من القبول بما قد يجعلها تحت وطأة الضغوط، فانسحبت طواعية عن اختيار المجازفة، رغم الوجع الغريب الحارق في صدرها! إن كان ذلك قرارها، فلماذا كل هذا الشعور بالألم والندم؟

لم تحدد "فيروزه" وجهتها، سارت إلى حين اندفعت قدمها، كأنها يملكان بوصة توجهها، سمعت صوت "تميم" يأتي من خلفها يناديها:

يا أبله!

واصلت السير بخطواتٍ أقرب للركض متجاهلة إياه، وعند أول زقاقٍ قابلته
انحرفت عنده، وصل إليها صوته المنادي عاليًا:

-استني يا أبله، إتي رايحة فين؟

تلقت حولها لتحدد أين هي، فوجدت نفسها محاصرة بين بناياتٍ قصيرة
الارتفاع، يفصلها شارع غير معبد، يكسوه التراب، وعرضه لا يتجاوز
المترين، استمرت في التقدم بخطواتها العصبية، وصوته ما زال يلحق بها.
بلغت نهاية الزقاق، فوجدت عنده حائطًا من الطوب يسد عليها الطريق،
توقفت في مكانها، وهي تبرطم بغيطٍ، استدارت حين سمعت صوته قريبًا
منها:

-اسمعي يا أبله!

صرخت به في تشنج، وقد كورت قبضتها:

محدث له دعوة بيا، أنا حرة في نفسي.

رفع "تميم" كفيه قائلاً على مهلٍ؛ كأنما يحاول امتصاص نوبة غضبها المستريية:

ماشي، بس إتي داخله كده فين؟

جاوبته بعصبية:

-رايحة في داهية.

بيد أنه علق في مزاح طريف، علما بذلك تهدأ:

-بس مش دي سكتها.

اغتاظت من أسلوبه المازح في هذا الظرف الهام، وسألته في حدة:

عاوز إيه مني؟

أخبرها بوجهٍ مشيراً بسبابته، وما زالت تلك الابتسامة اللطيفة تنير ثغره:

-دي حارة سد على فكرة، أنا بس بعرفك.

أطبقت على جفניה، ورفعت رأسها للأعلى لتعقب في سأم:

-زي كل حاجة في حياتي.

رد عليها بعد زفيرٍ سريع:

-استهدي بالله كده.

فتحت "فيروزه" عينيها ورمقته بنظرة نارية محذرة، فقال بشبح ابتسامة

وهو يشير بكفيه لها:

-أنا عاوز بس أفهم إيه اللي مخليكي تفكري كده.

الصراع القائم بين طيات عقلها بلغ أوجه، واتحد مع الضغوطات المتولدة مما عايشته صباح اليوم، فانفجرت مكنونات صدرها، وباحت له بما يستعر فيها:

-إنت تاجر يا معلم، يعني أكيد فاهم إيه الصفقة الراجعة ليك، وإيه الصفقة الخسرانة، وبالنسبالك أنا كده.

لازم أسلوب العقلانية وهو يسألها:

-وليه تحسبها بالمنطق ده؟

جاءه ردها صريحًا ومنفعلًا:

عشان هي ماتتفهمش إلا كده، تقدر تقولي إيه اللي يخليك تدفع كل الفلوس دي في واحدة الله أعلم إن كانت هتجبك ولا لأ؟!!!

رغم قساوة تبريرها، وحصره في مفهوم المال، إلا أنه تغاضى عنه متفهمًا ما تمر به، وخاطبها بتعقل:

-لأن ده الطبيعي، طالما أنا قادر أتجوز وأريح اللي هاتكون مراتي، ليه ماجبلهاش كل اللي نفسها فيه.

هزأت منه في فظاظه:

-كلام مايتصدقش غير في الأفلام.

رمقها بنظرة معاتبة، لم تتجاوب معها، واستمرت في تحقير نواياه:

يا معلم إنت بلوكشة الفلوس دي كلها تقدر تدفعهم في أربعة ستات بدل واحدة، وتبقى إنت الكسبان كمان.

مجددًا لم يحاول أن يخرج عن هدوئه وهو يسمع سوء ظنها به، تنفس بعمق، وكرر عليها بصدقٍ بائن في نبرته ومن قبلها عينيه:

بس أنا مش عايز إلا إنتي.

رغم بساطة الكلمات، إلا أنها نفذت إلى قلبها بشكلٍ جعلها تتلبك لوهلة، ومع هذا أنكرت الشعور اللذيذ الذي تسلل إليها باعترافه المتمسك بها، وسألته في نفس اللهجة العصبية:

-وأنا فيا إيه مختلف عشان تصمم عليا للدرجادي؟

سكت لهنيئةً عن الكلام؛ لكن القلب لم يسكن، بل انتفض صارخًا به أن يثور ويثأر لحبه المهدد بالضياح. تخير كلماته حين نطق أخيرًا:

-كل حاجة، ومش هينفع أقول أكثر من كده.

برقت عيناها أمام اعترافه المريب، وأوشكت على الاحتجاج بقولها:

يا معلم ..

قاطعها بلطف -سبقها تهيدة خاطفة- وإشارة من سبابته أمام وجهها:
يا أبله أنا اعترفتك إني عاوز أتجوزك عشان عاوزك أكثر منك، مش
حكاية بيع وشراء خالص.

تعقدت ملامحها في توتر، فترديده لنفس العبارة بهذه النبرة أربكها، وزاد
ذلك الشعور بداخلها عندما تابع مؤكداً:

-وبقولك من ثاني مش مستعجل على إنك تبقي مراتي، خدي كل وقتك،
لحد ما تبقي متأكدة إنك عايزة الخطوة دي، إن شاء الله نأجل الجوازة سنة،
وصدقيني لو كان قرارك في النهاية إنك مش هتكملي، فأنا مش هتعرض.

لن تنكر أنها شعرت بالراحة عقب ذلك، بأن ثقلاً كان جائئاً على صدرها
قد أزيح مرة واحدة. صمتها الطويل كذلك شعره بالطمأنينة، فسألها بنظرات
حذرة:

-اتفقنا؟

لم تعطه ردًا مباشرًا، وأردفت تقول في صوتٍ حاسم:

حطب أنا مش عايزة شبكة.

هز رأسه موافقًا وهو يعلق عليها:

-حاضر، هنجيب حاجة بسيطة.

صحت له نافية:

-لا، مش عاوزة حاجة نهائي.

عارضها بصوتٍ ما زال هادئًا:

-ما إنتي قولتي نخليها دبلة وخاتم، هترجعي في كلامك؟

قطبت جبينها أكثر، فكرر عليها مبتسمًا في عذوبة:

-دبلة وخاتم بس، مش أكثر من كده!

حين استمرت على صمتها، زاد الأمل بداخله بأنها لن ترفض، بعد برهة،
كتفت ساعديها أمام صدرها، وأطلقت زفرة سريعة، لتقول بغير ابتسامة:

-إذا كان على أد دول ماشي ...

ثم اشترطت عليه وهي تشير بإصبعها أمام وجهه:

-وما فيش حفلة خطوبة.

جاراها في قرارها قائلاً بمنطقية:

حبيب .. بس أهالينا مالهومش ذنب يزعلوا، ولا حتى نكسر فرحتهم اللي
مستنينها .. اعتبريه بشوابه، دخلي السرور عليهم مؤقتًا.

انزوى ما بين حاجبيها قائلة:

مش فهماك.

تنحني قبل أن يوضح لها:

-بصي هنعمل حيلة كده عليهم ...

لاحقته بسؤال متعجل دون أن تمهله الفرصة لإتمام جملته:

حيلة إيه دي؟

لفظ الهواء من رثتيه، وقال على مهل:

-يعني بقي كام حاجة كده قصادهم، وأنا هفهم الصايغ إننا هنرجع الحاجة

بعدها بيومين، حلو الكلام؟

هزت كتفيها رافضة بعناد:

-أنا مش موافقة.

لم يكف عن محاولة إقناعها، فقال:

يا ستي، دي لعبة صغيرة، وقولتلك عشان ما يزعلوش، ونبقى راضيناهم،

وعملنا اللي احنا عاوزينه.

حلت تشابك ساعديها، وهتفت به في حدة:
-إنت بتاخديني على أد عقلي؟ مفكرني هبلة ولا حاجة؟
ابتسم نافيًا:

-لا، لا سمح الله، إنتي أعقل حد قابلته.

علقت في غيظ:

-بتريق حضرتك؟

فاض به الكيل بعد كافة المحاولات لإظهار مدى رغبته الشديدة بالظفر
بجها بأفعاله لا أقواله، فتحدث إليها في يأس بعد أن نضبت كل السبل
أمامه:

-والله العظيم أنا غلب حماري، وما بقتش عارف أعمل إيه معاك، طب إيه
يرضيكي؟

نظرت له بعبوس، فغمغم في مزاح:

-كتالوجك مالوش ماسكة.

بالكاد منعت ابتسامة خائنة من الظهور على شفيتها، وردت بجدية
شديدة، لتبدو على نفس موقفها المتصلب:

قول أي كلام، وانت ذات نفسك بتتعالى عليا، كأنك مجبور على الجواز.
حدق فيها في غير تصديق، وأنكر هذا بشدة، وهناك ابتسامة هازئة
تداعب ثغره:

أنا؟ طب قولي كلام غير ده.

جاءه تعليلها منطقياً جراء معاملته المتحفظه لها:

-أومال مش طابق تبص في وشي ليه؟ وبتكلمني من تحت الضرس، وعلى
فكرة دي مش أول مرة.

حمحم بعد لحظة من التفكير المتأني:

-بصي كل اللي أقدر أقولها لك إني براعي ربنا فيكي، لأنك في غلاوة أختي
"هاجر"، اللي مقبلش بيه عليها، مرضاش بيه ليكي!

كانت كلماته كالبلسم الذي ضمد جراحاً غير مرئية فيها، ربما لم تكن راضية
كلياً عن جفائه معها؛ لكن نوعاً ما بدا محقاً في تصرفاته. قفزت "فيروزه" في
ذعر، وصرخة مباغتة انفلتت من بين شفثيها، حين سمعت صوت قذيفة
غريبة ألقيت من خلفها، ارتدت تجاه "تميم"، وضربته في صدره بحقيبة
يدها، فتشبث بالحقيبة بقبضتيه، كأنما يمنع سقوطها.

توازنـت "فيروزـة" سريعـًا، واستعادت ثباتها لتحـدق بشيء من الفزع في الشيء الذي أـرعبها وهي تتساءل:

-إيه ده في إيه؟

أجابها "تميم" بهدوء:

محصلش حاجة، الظاهر حد حذف بلوى من الشباك.

تأملـت "فيروزـة" كيس القمامة الذي تبعثرت محتوياته على مسافة متر منها، وصاحت في استهجانٍ ساخط:

-الناس دي معندهاش ذوق ولا دم، بيحذفوا الزبالة كده على الناس اللي واقفة.

بوجه لا زال جادًا أخبرها "تميم":

-الحمد لله إنه مكانش تنضيف فراخ ولا سمك، كنا هنتهدل، ومنظرنا هيبقى وحش أوي.

خنقت ضحكة متأثرة لحفة دمه، وعقبت بتجهم غير مقنع:

حقيقي سلوكيات بشعة.

اتسعت بـسمة "تميم" على الأخير، وراح يمازحها:

-بس بصي للجانب الحلو، أنا لحقت شنطتك، وخذتها بالحضن، الحمد لله
مجرلهاش حاجة.

تلقائياً انخفضت عيناها نحو حقيبتها التي ما زالت ممسكاً بها، استعادتها
منه، وهي تبتسم! تنفس "تميم" الصعداء، واستطرد قائلاً في ألفة:

-نستعيد كده بالله من الشيطان الرجيم، ونروح نعمل مشوارنا ...

ظل محافظاً على عذوبة ابتسامته وهو يكمل:

-بدل ما نتحدف بالطوب، وساعتها هنقضي يومنا في الطوارئ.

علقت "فيروزة" حقيبتها على كتفها، وضمت شفيتها في قسوة لتمنع هذه
الضحكات الغادرة من الظهور على وجهها، أشار لها بيده لتتقدمه، وتابع من
خلفها في نفس اللهجة الطريفة، ليجبرها على الضحك بخفوت:

-اتفضلي يا أبله، خديك ساطر بس وإتي معدية، محدش ضامن هايجيلنا
إيه ثاني من فوق، جايز المرة الجاية تكون بطيخة، ودي هتبقى القاضية، لا
هينفع معاها شبكة ولا دخلة !!

.....

الفصل المائة وخمسون

اكتساب الثقة لا يأتي من فراغ، ولا يحدث بين عيشة وضحاها، بل إنه يحتاج لبذل الجهد ومواقف عدة لإثبات أن هذا الشخص جدير بها.

اضطرت "فيروزة" أن تتباطئ في خطواتها لتنتظر استباق "تميم" لها لتعود إلى المكان الذي كانت متواجدة فيه قبل أن يستبد بها غضبها، نظرًا لتشابه معظم المحال في هذه المنطقة. أشار لها الأخير بيده نحو أحد محال الصاغة قائلاً:

ده المكان.

رفعت رأسها للأعلى لتلقي نظرة فاحصة على وجهته واسمه قبل أن ترد في إيجاز:

تمام.

ما إن رأتهما "ونيسة" حتى نهضت من مكانها، ودنت من الباب لتتسائل بلامح تسودها الحيرة:

إيه يا ولاد؟ حصل إيه؟

أجاب "تميم" مبتسمًا وبدبلوماسية واضحة:

ما فيش حاجة يامه، كله تمام.

وجهت "ونيسة" سؤالها لمن تقف خلفه، وكامل عينيها عليها:

هو زعلك في حاجة؟

هزت رأسها بالنفي، بينما تدخلت "آمنة" في الحوار، وتساءلت بتعابير مالت للفرع:

- "فيروزة"! إتي عملي إيه؟

تجهمت قسماً وجهها في انزعاج واضح من رنة الاتهام المستترة في صوتها، وقبل أن تهم بالإجابة عليها، تولى "تميم" الرد بلطافة:

متقلقيش يا حاجة، الدنيا زي الفل، وربنا ما يجيب زعل إن شاء الله.

تنفست "آمنة" الصعداء، ونهج صدرها في ارتياح، لتعلق بعدها في رضا:

- ألف حمد وشكر ليك يا رب.

التفتت "ونيسة" بجسدها قائلة في بهجة أمومية:

حطب يالا يا ولاد عشان تنقوا الشبكة.

تحفزت "فيروزة" في وقفها، ومالت على أذن "تميم" تهمس له:

- زي ما اتفقنا.

أدار رأسه ناحيتها، وابتسم معقباً في ثقة:

-أومال ..

تلك النظرة الغامضة في عينيه جعلت الشكوك تساورها، فسألته في لهجة غير مريحة:

-أوعى تكون بتضحك عليا؟

وضع يده على صدره معاتباً إياها بصوتٍ خافت:

عيب عليكي، ده أنا هكلم حتى الصايغ أفهمه على جنب أهوو قصادك.

أومأت له بعينه كأنما تشجعه:

-ماشي .. اتفضل.

سبقها في خطواته متجهاً نحو صاحب محل الصاغة الذي نهض واقفاً ليقوم باستقباله بترحابٍ شديد، وودية واضحة، في حين تلكأت في سيرها مدعية إلقائها نظرة على ما تعرضه الواجهات الداخلية .

.....

وزع "تميم" نظراته السريعة ما بين الصائغ وبين "فيروزة" التي كانت تراقبها عن كثب، وبالتالي مراوغتها لإنهاء هذه المسألة العالقة لن يكون سهلاً. رسم تعابيراً جادة على وجهه، واستمع إلى مُحدثه حين خاطبه:

تحت أمرك يا معلم "تميم"، المحل كله بتاعك.

شكره أولاً في اقتضابٍ قبل أن يخفض صوته ليطلب منه:
-بقولك إيه، عاوزك تهز دماغك كده كأن مش عاجبك الكلام.
عقد ما بين حاجبيه متسائلاً في دهشة:

ليه؟

علق عليه بحزم، ودون توضيح كافٍ:

من غير ليه، تعمل اللي بقولك عليه.

هز رأسه بالإيجاب وهو يرد:

حاضر اللي تؤمر بيه.

حين وجده يفعل العكس بتلقائية وبخه في غير عصبية:

-يا سيدي هز راسك بلا، إيه الصعب في كده؟

قام الرجل بتنفيذ طلبه وهو يقول:

طيب.

عندئذ استدار "تميم" برأسه نحو "فيروزة" التي كانت تتابعهما، أوحى لها بتعابير وجهه أنه يواجه القليل من الصعوبة في إقناع الرجل؛ لكنه لن يتوقف، وعاود الحديث إليه بنفس النبرة الحفيضة:

-افضل هز راسك وكشر كآن في حاجة مش عجبك.

قال الصائغ في تحير شديد:

-ولو إني مش فاهم حاجة بس ماشي.

واصل تدمره الزائف على أمر يجهله كلياً حتى أتاها قول "تميم" الأخير وهو يربت على كتفه:

-الله ينور، كده زي الفل.

من الناحية الأخرى تحركت "آمنة" نحو الركن الذي تقف في ابنتها، معتقدة أنها حائرة في انتقاء المناسب من المشغولات، وقفت إلى جوارها، وسألتها بعينين تعكسان بريق الذهب فيهما:

عاززة مساعدة يا حبيبتي؟

نظرت لها "فيروزة" من طرف عيناها في تحفزٍ، وردت نافية:

-لا.

كانها لم تنبس بشيء، بل أشارت بيدها نحو قلادة كبيرة الحجم، وأخبرتها في حماس:

-ما تشوفي كده دي عليكي، شكلها فخم وآ...

قاطعتها في صوتٍ حازم رغم خفوته:

-لأ، هختار المناسب ليا.

لاحظت "ونيسة" التوتر السائد بين الأم وابنتها، وخمنت بطبيعة الحال سببه، لهذا اقترحت قائلة بما ينم عن سخاء كبير:

-سيبها على راحتها يا "آمنة"، اللي يعجبها تاخده مافيش مشكلة.

استدارت "آمنة" برأسها ناحيتها، وشكرتها:

-كثر خيرك يا حاجة، طول عمركم أهل كرم.

إظهارها بهذا الشكل الطامع استفزها بدرجة كبيرة، وجعل تقاسيم وجهها تشتد وتعكس حنقها، بالكاد قاومت انفلات أعصابها لتسأل "تميم" الذي انضم إليهما :

ها كلمته؟ عرفته هنعمل إيه؟

أجابها مبتسمًا ابتسامة عريضة وهو يلوح بيده:

حطبًا .. كله تحت السيطرة!!

.....

إقناعها بشراء تلك الحلوى، فاق في صعوبته الجملة، الحصول على توكيل توريد الأطعمة الطازجة لواحدة من السفن السياحية الهامة، لم يصدق "تميم" أنه نجح في استمالة رأسها، ومضى الأمر على خير. رفضت "فيروزة" حمل عبلة الشبكة، وأعطتها لوالدة "تميم" عنادًا في والدتها التي كانت تعيش في حالة من السرور العظيم، استطردت الأخيرة تقول في امتنانٍ كأنها ظفرت بكنزٍ لا يقدر بثمن:

تسلم إيدي ورجليكي يا حاجة، ماشاء الله الشبكة تحفة، ده مافيش بعد كده.

ردت عليها "ونيسة" في ودية:

على إيه بس؟ هي تستاهل الحلو كله، وعقبال ما تتعبهم في الفرح دايماً.

أمنت عليها في نبرة متلهفة:

يا رب أمين.

على النقيض مع ما كان عليه في بداية اليوم، أصبح "تميم" يراقب "فيروزة" أثناء قيادته للسيارة، كأنما يخشى- ارتكابها لحماقة ما تضع كليهما في موقف حرج، أمسكت به وهو ينظر إليها، وسألته بنظرة حادة:

-في حاجة ؟

أجابها نافيا، وشفته تتقوسان عن بسملة صغيرة:

-لا، مافيش.

كانت على وشك إضافة شيء ما لولا أن قالت والدته مقترحة من الخلف:

-خلوا الحاجة معاكو.

هبطت عليها الصدمة المستنكرة، وهتفت محتجة:

-مالهاش لازمة، احنا مش آ...

قاطعتها في لطيف، وهذه التعابير الدافئة تغطي وجهها:

-هتزعيني منك يا بنتي ؟

تخرجت من رفض طلبها، واشتدت قبضتها على حقيبة يدها وهي تبرر لها رفضها:

-لا، بس لسه بدري على كتب الكتاب، وأنا مش هلبسهم أصلاً.

تلون وجه "آمنة" بكافة الألوان المذهولة، لوهلة ترددت في التدخل لئلا تظهر بمظهر الطامعة التي سال لاعبا لمجرد رؤية الذهب، حاولت الحفاظ على القليل من ماء الوجه، وأردفت كذبا؛ كأنما تؤيد ابنتها:

-الحاجة تزيد معاكو يا حاجة، وفي الأصل دي بتاعتكم.

نظرت لها "ونيسة" في عتاب، ثم خاطبت ابنها في تدمر:

-يرضيك الكلام ده يا "تميم"؟ ما تقول حاجة!

حملق في والدته لهنية قبل أن تدور عيناه على وجه "فيروزه" كأنما يرجوها برجاء خفي:

-معلش يا أبله اسمعي الكلام.

قرأ الاحتجاج جليا في نظراتها إليه، وبادلها تلك النظرة الحانية المليئة بالرجاء وهو يصر عليها:

-عشان منكسرش بفرحة حد.

اضطرت للرضوخ على مضض، وغمغمت:

-ماشى.

دقيقة أخرى مضت وكانت السيارة تقف أمام مدخل البيت، ترجلت "آمنة" أولاً وهي تودع الاثنين في محبة وسرور، لتتبعها "فيروزة" في تلّكع، بينما أمرت "ونيسة" ابنها في حبور:

-انزل وصلهم كده للحوش وتعالى، خلي خطيبتك تفرح بقربك.

كأنما منحتة التصريح لختام لقائه بها بوداع لطيف، قفز قلبه بين ضلوعه، وردد مبتسمًا :

-حاضر يامه.

أوقف المحرك، وترجل من مكانه، لينظر أمامه باحثًا عنها، سارع الخطأ، ووجدها عند المدخل تقدم قدمًا، وتؤخر الأخرى، فحمن أنها كانت تتوقع قدومه، وها قد صدق توقعها! هتف من ورائها يودعها في لهجة جمعت بين اللهفة والجديّة:

طيب يا أبله، خلي بالك من نفسك.

ما إن سمعت صوته حتى استدارت لتواجهه وهي تعنفه في كدر:

-هو إنت مش قولت إنها تمثيلية؟ ممكن تفهمي إيه اللي حصل ده؟

بلع ريقه، وأخبرها بابتسامة مهتزة:

-أيوه، بس هعمل إيه، ما هو كله على يدك، ده غير إني ...

توقف عن الكلام ليجدها تسدد له نظرة مهددة، فتابع بحذر:

-يعني مقدرش أكسف أمي وأزعلها، ست كبيرة برضوه.

تذمرت عليه في نغم:

-وأنا مقدرش أقبل أسيبهم معايا، ده غير إننا أجلنا كتب الكتاب، هاتقولهم
إمتي بده كمان؟

فرك مؤخرة عنقه معلقًا في وجومٍ طفيف:

-إديني فرصة أمهدلهم في البيت، مش هديهم الخبر خبط لزق كده في
وشهم.

سألته في تجهم، وهي تشير بيدها للأعلى، إلى حيث صعدت والدتها بعلبة
الشبكة:

حبيب، وأنا المفروض أعمل إيه بدول؟

حك طرف ذقنه مقترحًا بتلقائية:

-اعتبرهم أمانة عندك لحد ما نرجعهم.

أتاه تعليقها فيه لمحة من السخرية:

-أمانة؟ إزاي يعني؟ دي تهمة!

تجاوز عن وصفها غير المناسب، وعلق في هدوء:

-زي أي حاجة يا أبله.

نفخت في ضيقي، وأضافت:

-بس دي شيلة ثقيلة أوي.

ابتسم يخبرها في صدق:

-وانتي أدها.

نظرت إلى عينيه في تلك اللحظة فرأت فيها ثقة كبيرة لم تعتدها، حينئذ ارتخت ملامحها المتشنجة قليلاً، ورددت في قلق:

-ربنا يستر.

حافظ على عذوبة ابتسامته وهو يؤكد لها بغزل متواري:

-هايستر إن شاء الله، ده إنتي اللي زيك اليومين دول مافيش.

لم تنكر إعجابها بطريقته الغريبة في تحويل المواقف الأكثر تأزماً إلى شيء لطيف، يمس جزءاً من قلبها بشكلٍ ما تتلذذه في كثيرٍ من الأحيان، شردت في تأملها له، ولم يبعد "تميم" عينيه عنها؛ كأنما يغتتم فرصته الذهبية على أكمل وجه، أشاحت بوجهها للجانب حين نادى والدتها من الداخل:

-يا لا يا "فيروزة"، إيه اللي مأخرك كده.

هتفت ترد في نبرة مرتفعة:

-جاية يا ماما أهوو.

تهدت مجدداً، وهزت رأسها تودعه بقسماتٍ اكتسبت جدية غريبة:

-ماشي يا معلم، شكراً.

قابل تحيتها الجافة بشفاه مبتسمة وهو يرد ملوحاً بيده في الهواء:

-صباحك تفاح يا أبله.

على إثر ذكر تلك الكلمة تحديداً ابتسمت في عفوية، وتلك اللمعة تظهر في حدقتها، استدار معاوداً أدراجه ووجهه يشع ببهجة راضية، الآن شعر بأنه فاز بتعويض ملائم ينسيه مشاحنات اليوم الغريبة، ومع هذا لم يكتفِ بذلك، بل أخرج هاتفه المحمول، واتصل برقمٍ يحتفظ به في القائمة، لينطق بعدها في جدية تامة:

-أيوه يا دكتورة، محتاج أتقابل معاكي ضروري.

هز رأسه مصغياً إليها، وهو يقول:

-ماشي يا دكتورة، أه مناسب، هأكون هناك.

استغرقها الأمر ما يقرب من دقيقة لتكمل "فيروزة" صعودها المتكاسل على درجات السلم وهي تكرر على لسانها:

-اشمعي التفاح بالذات اللي ماسكهولي؟

انخفضت نظراتها نحو حقيبتها الممتلئة بألوف الجنيئات في شكل حلي ذهبية، عاد الصراع يسود في رأسها، ما بين إنكار لأطماع والدتها، وبين ثقة عمياء لخطيب يسعى لنيل ثقتها، سئمت من هذا التخبط المتلف للبقايا المتماسكة من أعصابها، فقررت اللجوء للمساعدة من طبيبتها المختصة، كانت بحاجة ماسة لذلك، لهذا لم تتردد في الاتصال بها، وهاتفتها وهي تلج إلى داخل منزلها:

-دكتورة "ريم"، أخبار حضرتك إيه؟ عاوزة أتكلم معاكي في حاجة مهمة وتعباني.

.....

قبل ميعاده معها ببضعة دقائق، كان "تميم" متواجداً في الاستقبال التابع للمركز العلاجي الذي تعمل به "ريم"، أصر على اللقاء بها لمناقشتها في وضعه المتأرجح مع "فيروزة"، لهذا أرجأ كافة أعماله، وتفرغ بالكامل لمقابلتها. جال ببصره في المكان مترقباً قدومها، ورأسه يزدحم بعشرات الأفكار القلقة، وعندما انضمت إليه الطبيبة النفسية، أخذ يقص عليها تصرفاتها المليئة

بالتهور، والرعونة، ثم راح يشكو إليها تهديدها بإنهاء الخطبة في أي وقت، ومحاولاته المضنية للتحايل على اضطرابها المبرر.

استحسنّت "ريم" حسن تصرفه، وبدأت تسترسل في التوضيح ليعي جيداً تبعات أزمة انتكاستها الأخيرة:

عين العقل الي إنت عملته ده، وأنا قايلالك إن علاقتك بـ "فيروزة" محتاجة تتبني على الثقة قبل ما أي حاجة، الخذلان الي شافته في حياتها صعب أي حد طبيعي يتحمّله، وهي رغم كل ده قاومت وحاولت تقف على رجلها.

أكد عليها دون تفكير:

-أنا معاكي يا دكتورة في أي حاجة، بس تديني الفرصة أعمل كده ...

تحولت نبرته للضيّق حين استكمل:

ده أنا ساعات بحس إنها مخلية موضوع خطوبتنا على تكة، كأنها مستنية تنبيه في أي لحظة، وده مزعلني شوية.

أخبرته بنبرة عملية:

مقدرش ألومها، طبيعي يكون ده ردة فعلها.

تطلع إليها في صمت، فاستمرت في المتابعة:

هي بتحسب كل شيء بالعقل، وبتحدد مدى الضرر اللي هيقع عليها،
حتى لو كان من علاقة عادية، أي تهديد بسيط يدخلها الدوامة اللي كانت
فيها هتلبأ للدفاع عن نفسها غريزيًا.

أريد وجهه بالمزيد من الضيق، فبارقة الأمل التي لاحت في الأفق أصبحت
قاب قوسين أو أدنى من التلاشي. حاولت "ريم" بث التفاؤل في روحه:

-أنا مش عاوزاك تستعجل يا أستاذ "تميم"، كل حاجة مع الوقت هتتحسن
وتبقى أفضل، إنت تعتبر في تحدي كبير معاها، ومحتاج كل جهد لحد ما
تفوز بيها.

قال بعد زفيرٍ ثقيل:

-أنا صابر، وربنا يكرم.

تابعت الشئ على مجهوده بتشجيعه:

حقيقي أنا ممتنة لدورك المهم في علاجها، وأتوقع في النهاية إن النتيجة تكون
إيجابية.

لم يعرف "تميم" إن كان يتسم، أم يرسم الحزن على محياه وهو يعلق
ساخرًا، وقد تهدل كتفاه:

يا رب يا دكتورة، بدل ما تلاقيني بتعالج عندك
!!

.....

الفصل المائة وواحد وخمسون

يومًا بعد يوم، كانت تتأكد من وجود علبة الشبكة -المستأمنة عليها- في الصندوق المعدني ذي القفل النحاسي، قبل أن تلفه بإحدى الملاءات النظيفة، وتعيده إلى مكانه بالرف السفلي في دولاب ملابسها. تركت "فيروزة" لوالدتها العلبة الأخرى الصغيرة لتحتفظ بها منذ أن أخذتها منها في محل المصوغات، تلك التي تضم خاتم الخطبة، وآخر عريض قليلاً يشبه القرط الذي أهدته لها "ونيسة"، بالإضافة لسلسلة خفيفة الوزن، لتكتمل المجموعة، أما العلبة الأخرى فرفضت التفريط بها، وحملت أمانتها على عاتقها إلى أن تعيدها إلى الصائغ مثلما اتفق معها "تيم"، ذاك الأخير الذي اختفى عن المشهد لما يقرب من أسبوع لسبب لا تعلمه .

أغلقت الضلفة بخزقة قماشية صغيرة حتى لا تنفلت كعادتها من مكانها، ثم خرجت من غرفتها متجهة إلى والدتها المتواجدة بالمطبخ .. سألتها الأخيرة في جدية، وهي تدير مفتاح الموقد لإشعاله، قبل أن تضع إبريق الشاي عليه:

هتخلصي إمتي النهاردة؟

جاوبتها وهي تتجه نحو الثلاجة لتسحب زجاجة مياه قامت بتبريدها بداخلها منذ ليلة أمس:

-يعني على حسب ما دكتورة "ريم" تقول.

احتجت "آمنة" على ذهابها، فقالت:

مش فاهمة إنتي لسه بتروحيلها ليه؟ مش الحمد لله إنتي بقيتي أحسن،
وزي الفل.

كبت ضيقها من اعتراضها غير المقبول، وأخبرتها بتريث، محاولة ألا تنفعل في
الحديث معها:

أنا برتاح معاها، ومحتاجة استشارتها دايماً في اللي يخصني، بيهيألي ده مش
مضايق حد في حاجة.

بررت والدتها سبب رفضها للمتابعة في تلك الجلسات غير المجدية من وجهة
نظرها:

أنا عايزاكي تركزي في الجواز، والعريس اللقطة اللي معاكي.

عندئذ خرجت عن هدوئها، ودافعت عن رغبتها العنيدة في نيل العلاج
المناسب لها بوجه متجههم بشدة:

ماما، بلاش الله يكرمك أي كلام من النوع ده، أنا على فكرة كويسة من
جوا ومن برا، وأستحق حد كويس يعرف قيمتي ويقدرني، ولو مكانتش
شايقة ده صدقيني كان رأيي هيختلف تماماً.

راحت تعلق في سخافة غير مستساغة لها:

يا بنتي أنا خائفة على مصلحتك، بنات اليومين دول بيعرفوا يوقعوا أجدعها راجل بحركتين مُحن، وشوية دلح.

النقاش معها لن يجدي بأي حالٍ، لهذا غيرت من الموضوع، وسألتها:

هي "كوكي" هتفضل عند "همسة" كثير؟

أجابت نافية وهي تأتي بصينية لترص فيها الأكواب الزجاجية:

-لأ.. آخر النهار عدي هاتيها وإنتي راجعة.

اعترضت "فيروزة" على إطالة مدة بقائها هناك:

طيب، بس مكانش في داعي تسببها اليومين دول يا ماما عندها، هي "همسة" ناقصة وجع دماغ؟

رمقتها بنظرة غامضة قبل أن تعلل أسبابها:

-أهي تسببها شوية، بدل ما هي قاعدة لواحدتها، وبعدين لولا إن جوزها مسافر أنا مكوتنش تخليها تبات.

لوت "فيروزة" ثغرها في غير رضا، فأُكملت والدتها مشددة في حزم:

-المهم ماتغيريش الموضوع، واهتمي بخطيبك، خليه ملهوف عليك.

تجاهل كلامها كلياً، وقالت في نبرة متعجلة:

-أنا اتأخرت على المحل، لو ناقصك حاجة كلميني.

أتاها صوتها من خلفها وهي تخرج من المطبخ موبخًا إياها:

-اهربي زي تملي.

حاولت ألا تلتفت لها، وتتجنب الاشتباك معها لئلا تفسد صفو مزاجها اليوم، رأت خالها جالسًا في الشرفة، اتجهت إليه، وألقت عليه التحية في ود:

صباح الخير يا خالي، عامل إيه النهاردة؟

قال بلعثة طفيفة وهو يبتسم:

-الحمد لله.

سألته في اهتمام، ويدها تمسح على كتفه في حنو:

-دائمًا يا رب، مش عايز حاجة أجيبالك من تحت وأنا راجعة؟

رد مبتسمًا في امتنان:

-تسلي يا رب.

همّت بالتحرك؛ لكنه استوقفها قبل أن تتابع سيرها مُناديًا:

- "في..روزة!"

استدارت عائدة إليه وهي تردد:

-أيوه يا خالي.

ران إليها بنظرة عطوفة مليئة بالندم، قبل أن يتمم قائلاً:

-رب..نا يخلد..يكي ليا.

لم تعرف بماذا ترد، فاكثفت بمنحه ابتسامة لطيفة، لتواصل السير بعدها حتى باب المنزل، أغلقته خلفها بمجرد أن خرجت، لتهبط درجات السلم وهي تفتش في حقيبتها عن هاتفها المحمول، نظرت إلى شاشته المظلمة، وغمغمت في امتعاض متذمر:

-مافيش مرة كده يغلط ويتصل بيا؟ !!

ثم صححت لنفسها ساخرة:

-هو أصلاً معاه رقمي! هعاتبه على إيه؟

خرجت من مدخل البيت، لتمشي على الرصيف بخطواتٍ شبه متعجلة، وتابعت حديث نفسها المنزعج:

-بس المفروض كان ياخده مني، مش يفضل المدة دي كلها من غير سؤال.

راودتها الهواجس، فتكلمت بغير صوت:

-ولا يكون عامل الحركات دي عشان مانرجعش بقية الشبكة، لأ يبقى مايعرفنيش كويس!

تصلب كتفها وهي تعبر للجهة الأخرى من الطريق لتواصل قائلة بعزم:

-عمومًا هو هيروح مني فين، مسيرنا نشوف بعض، مش هيفضل مستخبي كثير.

رن هاتفها في يدها، رفعتة نصب عينيها، لتقرأ اسم طبيبتها النفسية عليه، أجابت على اتصالها بحماس:

-أيوه يا دكتورة "ريم"، أخبارك إيه؟

انتظرت لوهلة حتى تصغي لما تقوله، ثم استأنفت:

-تمام، أنا فاكدة كويس، هاجي على الميعاد.

أنصت لتعقيها، وعلقت:

-شكرا على وقتك وذوقك.

أنهت معها المكالمة، واستمرت في سيرها وهي تشعر برغبة ملحة تنبعث من ثنايا نفسها، تستحثها على الذهاب من الطريق الآخر، لتعرج على دكان

عائلة "سلطان"، وتتفقد "تميم" هناك، علّه عند رؤيتها يمنحها هذا الاهتمام المرضي لها، قاومت رغبتها قدر المستطاع، لتقول في عبوس يشوبه العتاب:

هو المفروض اللي يدور عليا مش العكس!

عدلت عن تنفيذ رغبتها بصعوبة، وسارت من الشارع المغاير لتتأى بنفسها عن محيط العائلة، وذلك الشوق العجيب إليه يحز في قلبها.

.....

انصرفت مبكرًا من عملها، لتلتقي بطبيبته في الحديقة التابعة للمركز العلاجي الذي تقوم الأخيرة بالإشراف فيه على كبار السن من المرضى، كان المكان مريحًا بشكل كبير لها، اعتادت على التنفيس عن أكثر همومها ثقلًا بتواجدها فيه. جلست "فيروزة" على المقعد المريح، وسحبت الوسادة لتضعها خلف ظهرها، ثم واصلت الكلام بشكلٍ يعبر عن ضيقها:

-أنا بأحس إنني مطمئنة معاه، بس في نفس الوقت مش عايزة أقرب منه.

كانت "ريم" جالسة في الجهة المقابلة لها، تراقبها بعينين دارستين لكل ما يصدر عنها، دونت شيئًا ما في مفكرتها الصغيرة، وسألتها بهدوء:

ليه مش عايزة تقربي؟

تهدل كتفاها في خوارٍ وهي تجيب:
-خائفة.

نظرت إليها بثباتٍ، لتوجه سؤالها التالي لها بنفس النبرة الهادئة:
-خائفة من إيه؟

سحبت نفسًا عميقًا، طردته على مهلٍ، قبل أن تخبرها بترددٍ:
-خائفة أخط ثقتي الكاملة في حد ويخذلني.

لحظة من السكون عمت في المكان، إلى أن تكلمت "ريم" في النهاية
لتسألها:

حطب هو خذلك قبل كده؟

لم تفكر وهي تجيبها نافية مصحوبة بهزة من رأسها:
-لحد دلوقتي لأ.

ابتسمت "ريم" ابتسامة عملية، وتابعت متسائلة بتريث:

-وايه اللي يخليكي ماتجازفيش معاه وتديله الأمان؟

خنقت غصة جارحة لحلقها حين أخبرتها في ألم:

-لأن "آسر" كان كده، زي ما يقولوا عملي البحر طحينة، لسانه حلو،
يعرف ينقي الكلام، واستحالة لو بتسمعيه تُشكي فيه.

قبل أن تعقب عليها، صمتت "ريم" لما يقرب من دقيقة حتى تهدأ، فقد
رأت تأثير الذكرى على ملامحها المتشنجة، ثم عارضت تفكيرها غير الموفق
في حذر:

-بس "تميم" غيره نهائي، المقارنة بينهم ظالمة!

لمعت عينا "فيروزة" إلى حدٍ كبير بعبراتٍ خائنة، وهذا الشعور الغريب
يؤلمها، ازدردت ريقها بصعوبة، وتهدت ببطءٍ حتى تثبط من نوبة بكاءٍ
وشيقة، لتقول بعدها:

-أيوه، وده محسني بالذنب، وخصوصًا إني شايفاه بيحاول يرضيني
ويريحني، ده تقريبًا ما يبجربنيش على حاجة.

هونت عليها الأمر بتأكدها:

-خدي الموضوع ببساطة يا "فيروزة"، مافيش داعي إنك تشيلي نفسك
فوق طاقتها.

ردت في ألم:

غصب عني.

لجأت "ريم" لأسلوب آخر في الحوار معها، فخاطبتها بابتسامة متفائلة:
- يعني تقدر تقول إنه شيء كويس في "تميم"، إنك تقدري تتفاهمي معاه،
وتخلقي لغة حوار شيقة بينكم.
هزت رأسها موافقة حين ردت:
- أيوه.

تأملتها "ريم" وهي تخرج من حقيبتها منديلاً ورقياً لتمسح العالق في أهدائها
من دموعها، لتسألها مباشرة:

- "فيروزة"، إنتي لسه مش قادرة تبني الثقة بينك وبينه، صح؟

ساد في نبرتها ندمًا واضحًا وهي تعترف لها:

- أنا بحاول والله، بس غصب عني، هو كمان ساعات بيديني إحساس إني
مجرد واحدة عادية، وأوقات تانية بحس إني كل حاجة مهمة عنده.

اللقاءات المنتظمة معه، جعلتها تفهم الكثير عن طباعه ومبادئه المتأصلة فيه،
لهذا كان من اليسير عليها أن تخبر مريضتها بغير تحيز:

مافكرتيش للحظة إن دي ممكن تكون طبيعة شخصيته؟ أو البيئة المحيطة
بيه بتفرض عليه إنه يتصرف برسمية شوية!!؟

أصغت لها "فيروزة" بانتباه تام، وكأنما تعاود تقييم الأمور من منظورٍ آخرٍ قد غفلت عنه منذ أن اتخذت علاقته بها منحناً رسمياً، في حين تابعت "ريم" إيضاها المستفيض قائلة:

خاصة إن بعض العلاقات في المجتمع الشرقي مرفوض فيها إن الراجل يبين بعض اللطف، أو نقدر نقول نوع من الحميمة البدائية المتبادلة مع الطرف الثاني، وده طبعاً قبل ما تاخذ الشكل الرسمي ليها.

جاء تعقيبها بسيطاً ومنطقياً:

ما احنا مخطوبين.

تركت "ريم" مفكرتها جانباً، وضمت كفيها معاً وهي تخبرها:

حبيب أنا هفهمك قصدي بطريقة ثانية، بس يا ريت تجاوبي بصراحة.

رحبت بهذا الاقتراح، فقالت:

-تفضلني، أنا جاهزة.

استقامت "ريم" في جلستها، وسألتها في ثباتٍ دون أن تطرف عيناها:

هل تقبلي إن خطيبك يتجاوز معاك في تصرفاته سواء في الكلام أو التلميح، وفي بعض الأحيان اللمس؟!!!

على الفور تحفزت "فيروزة" في جلستها المسترخية، وغابت عنها ملامح الندم، لتحل علامات النفور والغضب على محياها وهي ترد:

-لأ طبعًا، استحالة أسمح بكده.

ابتسمت وهي تشير بيدها:

-شوفتي، إتي رافضة النوع ده من استباحة التصرفات في العلاقة...

هزت رأسها تؤيدها، فأملت "ريم" تسألها بنفس الثبات:

حطب ليه التناقض ده موجود جواكي؟

عاد التردد يسيطر عليها وهي تقول:

-مش عارفة، حقيقي مش لاقية سبب للي بعمله.

ظلت "ريم" محافظة على ابتسامتها الودودة وهي تسألها:

-ولا ممكن تفسر الموضوع بإنك حابة تحسي باهتمامه أكثر بيكي؟

على ما يبدو أن وجه "فيروزة" قد أصبح أكثر دفئًا مع استحضارها لمشاهد خاطفة من لحظات لقائه بها على مدار الأشهر السابقة، أراحت ظهرها للخلف، وقالت بشروء:

-أيوه، يمكن ده مفقده ...

راقبتها "ريم" عن كذب وهي تستفيض في التوضيح:

أنا بشوف في نظراته ليا كلام كثير عايز يقوله، بس فعليًا ما بينطقش بحاجة، تقريبًا آ...

توقفت عن إتمام جملتها وهي تشعر بنوع من الحرج؛ لكن "ريم" استمرت في الضغط عليها برفق، لتستخرج منها ما تريد معرفته:

تقريبًا إيه؟

تحاشت النظر إليها وهي تقول:

-يعني بيعاكسني كده بكلام مداري.

ضحكت الأخيرة في وداعة، وأثنت عليه قائلة:

-دي محاولة لطيفة منه.

ردت في اقتضابٍ خجل:

-شوية.

لم تجبذ طبيبتها أن تكون لوحدة في سبر أغوارها، أرادت ألا تستثير دفاعاتها لتلجأ للصمت أو كبت مشاعرها عنها، فأرجأت الحديث عن هذا

الموضوع لتنتقل إلى آخر على نفس القدر من الأهمية، فاستطردت مخاطبها في نفس اللهجة المهمة:

حبيب نتكلم عن الشق الثاني في مقابلتنا النهاردة، والدتك.

وكأن الحزن قد وجد طريقه إليها، فرزت علاماته في عينيها، وانعكست في نبرتها حين أردفت قائلة:

ماما .. تقريبًا واحدة سكة مرات خالي، رغم إني بمحاول أكذب إحساسي ده، بس حبها للفلوس بقى مكشوف، دلوقتي بتدور على المادة أكثر من اهتمامها بيا، يمكن في الأول كنتي تحسي بخوفها عليا أنا وأختي، بس معرفش إيه اللي حصل وخلاها تفكر بالشكل ده، وللأسف بيأثر عليا بشكل بشع. مطت "ريم" فمها للحظة، ثم أمسكت بمفكرتها، وبدأت في التحاور معها بتريثٍ مدروس:

خلينا نحكي أكثر بالتفاصيل عن المواقف اللي عززت الشعور ده جواكي.

.....

يومها الطويل، المزدحم بعشرات الأشياء، انتهى أخيرًا بعد زيارتها القصيرة لتوأماتها، مكثت لما يقرب من الساعة معها، ثرثرت في عدة مواضيع مختلفة، كانت غالبيتها تدور حول "تميم" بشكلٍ مبطنٍ أحيانًا، وبشكلٍ مباشرٍ في الأغلب. ظهر الإرهاق على وجهه "فيروزة"، وبدأ يزحف على باقي جسدها،

فنهضت واقفة، واتجهت إلى الباب ويدها تسحب "رقية" خلفها، تبعتهما
"همسة" قائلة بتعابير حزينة:

-ما تخليكو قاعدين شوية، ده أنا ملحقتش أشبع منك يا "فيرو".
وعدتها بلطافة:

-مرة ثانية هبقى عاملة حساي أقضي النهار كله معاك، مش هيبقى ورايا إلا
إنتي ...

ثم ما لبث أن تحولت نبرتها للجدية وهي توصيها:

-المهم خدي بالك من صحتك، ومن البيبي.

ردت بعد زفير متمهل:

-ربنا المعين.

وكانها تجد بعض السلوى والتسلية في الحديث مرارًا وتكرارًا عنه، فحفق
قلبها وشقيقتها تسألها:

-مقولتيش "تميم" بيكلمك؟

كسا العبوس وجهها وهي ترد نافية:

-لا.

برقت عينا "همسة" مصدومة، ولسانها يردد في ذهول:

معقولة؟!

أوجدت له "فيروزة" العذر:

هو مش معاه رقمي.

لاحقتها مباشرة بسؤالها التالي، بما يتضمن الاتهام بالتقصير في أمرٍ خطير:

-إيه ده؟ هو إتي ماخديتهوش من يوم ما خرجتوا تجيبوا الشبكة؟

قالت نافية:

-لا، اتلبخنا في كام حاجة بعدها.

ضربت "همسة" راحتها بالإطار الخشبي للباب، ودمدمت في استياء:

-يادي الحظ الفقر، وهو أصلاً مسافر مع "هيثم"، مشغولين في توريدة كبيرة، يعني مش هيسأل عنك خالص لحد ما يرجعوا.

يا للمصادفة! الآن علمت سبب اختفائه المريب عن الساحة، وهي التي ظنت أنه يتجاهلها عن عمدٍ، ليثير في نفسها مشاعر الغيظ، وربما الغيرة، ندمت لتسرعها المعتاد في استباق الأحكام عليه، وكذلك الظن السيء به. تعقد ما بين حاجبيها، وراحت تخبر توأمتها:

عشان كده مش بشوفوا نواحي الدكان خالص، مع إني بعدي كل شوية من هناك.

رمقتها "همسة" بنظرة عابثة وهي تقول مبتسمة في لؤم:

-أيوه بقي، ابتدينا الحركات والتكات.

تخرجت من اعترافها النزق، وأخذت تبرر لها ببعض الحجج التي لم تكن مقنعة بالقدر الكافي:

-يا بنتي ده عشان بس الشارع مكسر، فبضطر أعدي من قصادهم.

غمزت لها "همسة" من طرف عينها، وقالت في عبثية:

-وماله، ده خطيبك، وكلها كام يوم ويبقى جوزك رسمي، يعني ادلعي براحتك عليه.

صححت لها "فيروزة" الشق الخاص بعقد القران، فأخبرتها بتعايير تحولت للجدية في لحظة:

-مش أنا معرفاكي إننا هناجل شوية.

استمرت في عبثيتها وهي تعلق عليها:

-أيوه، بس جازي تغيروا رأيكم، وخير البر عاجله.

رمقتها بنظرة محذرة قبل أن تشير بإصبعها قائلة:

-إنتي هتعملي زي ماما ولا إيه؟

ارتفعت رنة الضحك في صوتها قبل أن تمتدحه في فخر:

-أه طبعًا، ده المعلم "تميم" على سين ورمح، مين زيه في المنطقة؟!

لئلا يظهر شعورها بالغبطة لمجيء الحديث على ذكره، وتنعكس آثاره غير القابلة للشك على تعابيرها، عمدت "فيروزه" لوضع قناع التجهم على وجهها، وقالت في جدية:

-بقولك إيه، أنا همشي أحسن.

أنهت جملتها وهي تسير على البسطة متجهة إلى الدرج، وبصحبتها ابنة خالها، ليتبعها صوت "همسة" المودع لهما:

-ماشي يا "فيرو"، باي يا "كوكي".

استدارت "رقية" برأسها ناحيتها، ولوحت لها بيدها قائلة:

-باي باي يا "هموسة".

جاء صوت "همسة" عاليًا بعض الشيء وهي تهتف:

هستناكي تقويلي خدي رقه ولا لا.

هبطت "فيروزة" الدرجات بتعجلٍ، إلى أن وصلت عند طابقه، وقفت أمام باب منزله، تجمدت نظراتها لثوانٍ على الكتلة الخشبية، كأنما تريد لعينها أن تنفذ للداخل، فتشبع النهم الغريب المتفشي- في وجدانها، والمُطالب بملء الفراغ الذي أحدثه بغيابه القاسي، أخذت تسير بتباطؤ، كأنما تستصعب الابتعاد عنه حتى أصبحت على السلم من جديد، وهذا الصوت المستنكر يصرخ في طيات عقلها:

مش لما أشوفه الأول، للدرجادي قادر يغيب عني
!!!

.....

الفصل المائة والثاني والخمسون

جعل العوز، مع ضيق ذات اليد، تفكيرها مغايرًا لما كان عليه، فأصبحت أشد حرصًا على ما يُدر عليها المال؛ وإن كان مخالفًا للمعهود. طوت "آمنة"

الإيصال الذي قامت بتسديده في الصباح، وناولته إلى شقيقها قائلة بزفير
مهموم:

-كده أنا دفعت القسط الثالث يا "خليل"، ويومين وهاخذ حُجة الأرض
من البايع.

رد في استحسانٍ وهو يدسه في جيب قميصه العلوي ببطء:
-ك..ويس.

عاتبته في تبرمٍ صريح:

-مكانش ليها لازمة تعمل كده، إنت عارف إننا محتاجين كل قرش دلوقتي،
أنا لوحدي مش هقدر أتصرف.

طالعها "خليل" بنظرة طويلة غير نادمة على إقدامه على تلك الخطوة،
فتجميد ما كان معه من أموال سائلة، ووضعها في مساحة من الأرض، قد
يتضاعف ثمنها أضعاف ما دفعه فيها في المستقبل، بدا القرار المناسب. كما
أنه أصر على أن يتم تسجيلها باسم وحيدته، ليضمن توفير حياة كريمة لها
بعد رحيله، فلا تضطر للجوء للغرباء أو طلب الإحسان من الغير. كان
وجهه كلوح من الجليد وهو يخبرها:

-بأم..ن مس..تقبل بنتي ب..فل..وسها.

اعترضت عليه بنفس التجهم:

-وأنا مكوتش هقصر- معاها، بس إنت فاهم وضعنا بقى عامل إزاي،
المصاريف يدوب على الأد، والي رايح أكثر من الي جاي بكثير ...

نظر إليها في عجز، فقد كان المقصود بتلميحتها المتواري عن زيادة أعباء
علاجه غير المنتهي، لم تهتم "آمنة" بنظراته المليئة باللوم، واستمرت في
شكواها المريعة، فقالت:

-ده غير إن "فيروزة" عمرها ما هتفكر زيك ولا هتكون زيي، هي ماشية
بدماعها.

وبخها في حدة:

-بنتك شافت كثير، مش هنبقى احنا والـ.زمن عليها...

قست نظراتها ناحيته، فواصل كلامه بنفس النبذة الحادة رغم تلعثه:

-زمن..ان لما كنت.. بصحتي أنا أذيتها ج..امد، ودلوقتي أنا.. ندم..ان على
كل حاجة عملتها فيها.

علقت عليه في يأس:

-أنا نفسي تعمل زيك وتأمين مستقبلها، محدش ضامن بكرة هيحصل فيه.

لوى ثغره معقبًا في استهجان:

-يا.اريت ماتبق..اش زيي.

نهضت من جواره، وتحركت مبتعدة عنه وهي تخاطبه في غيظ:

-إنت يا "خليل" دماغك بقت أنشف من الحجر الصوان، من ساعة اللي جراك وانت اتغيرت.

رفع من نبرته قائلاً، ورنه الندم تظهر فيها:

-أنا خسرت مكسبتش حاجة، خليني أح..افظ على اللي ف..اضل.

تغاضت عن الرد عليه، لتخاطب نفسها بنبرة متنمرة، والضيق يملأ صدرها:

-الظاهر الشقا اتكتب عليا لوحدي وأنا في السن ده.

.....

الاشتياق، شعورٌ لم تتفقه أبعاده الكاملة بعد؛ لكنها كانت في أول مراحلها، أصابها السأم لبُعده، ونال منها الضجر لعدم رؤياه. حالة من الفوضى والتخبط انتشرت في رأسها، حتى كادت تصيبها بالإحباط، لحرمانها من مناوشاته اللطيفة معها، تلك التي ينجح في نهايتها في رسم الابتسامة على شفتيها، كأنما يعرف جيدًا كيف يجعلها تضحك بذكائه. خرجت "فيروزة" من

مدخل البناية وهي تسحب "رقية" خلفها، أشارت بيدها للأمام قبل أن
تشرع في عبور الطريق:

-تعال عشان نعدي من هناك.

تثاقلت خطوات ابنة خالها، بل بدا وكأنها تجذبها للخلف مستصعبة السير
معهما، فالتفتت الأولى لتنظر إليها في استغراب، وقبل أن تسألها بادرت
"رقية" قائلة بجسد يتلوى قليلاً:

- "فيرو"، أنا عاوزة أروح التويلت.

توقفت عن المشي، وضافت عيناها قائلة في استنكار:

-وده وقته؟

كررت عليها الصغيرة وهي تضم ساقها معاً:

- "فيرو"، مزنوقة.

تلفتت "فيروزة" حولها في حيرة وهي تتساءل؛ كأنما تفكر بصوت مرتفع:

حطب والعمل إيه؟

انخفضت نظراتها نحو الصغيرة، وسألتها رغم تيقنها بأنها لن تتحمل:

مش هتقدري تمسكي نفسك؟

هزت رأسها نافية وهي ترد:
-لأ.

استدارت عائدة من حيث أتت، وهي تشد "رقية" معها، لتغمغم بصوت لم يكن عاليًا:

طيب تعالي نرجع لـ "همسة"، مقدمناش إلا كده.

على غير المتوقع، وعند المدخل تحديدًا، تقابلت "فيروزة" مع الحاج "بدير"،
ما إن رأها الأخير حتى ألقى عليهما التحية مرحبًا بحرارة واضحة:

-يا أهلاً بالغاليين، نورتوا المكان.

ردت "فيروزة" في تهذيب:

-إزي حضرتك يا عمي؟

أجابها مبتسمًا في وقار:

-الحمد لله في نعمة ..

ثم ثبت نظراته على الصغيرة التي تهتز في توتر، وتساءل مستفهمًا:

-كنتو عند الحاجة "ونيسة" ولا إيه؟

ضمت شفيتها لثانية، قبل أن تجاوبه نافية في حرج:

-لا، ده احنا كنا عند "همسة" شوية، بس "كوكي" عاوزة تروح الحمام،
فطالعين عندها ثاني.

عاتبها عتاباً راقياً:

-يعني تبقوا موجودين هنا، وماتعدوش علينا؟ ولولا زنقة البنت مكو ناش
نشكوفكم؟!

بررت له في تحرج واضح على محياها:

-احنا مش عايزين نزعج حضرتك.

أشار لها بيده المسكة بعكازه لتتبعه في السير وهو يكلمها بمحبة:

-إزعاج إيه بس؟ ده اسمه كلام برضوه؟ ده بيتك .. تنوريه في أي وقت ..
تعالى يا بنتي.

همت بالاعتراض عليه، فقالت بتردد لا يخلو من الحرج:

-بس آ..

قاطعها في إصرار غير قابل للنقاش وهو يتجه صعوداً في همة:

-والله أنا اللي هزعل، ده غير إن الحاجة بتسأل عليكي، وجدك "سلطان" هايفرح أوي لما يشوفك.

أمام دعوته السخية، عجزت "فيروزة" عن رفض طلبه، وقالت وهي تسرع في صعودها على الدرج:

حاضر.

.....

ظلت جالسة في بهو الصلاة، غارقة في الصمت الخجل، حين ولجت لداخل المنزل، تاركة الصغيرة تنسل من يدها، لتتجه إلى الحمام، حتى تقضي حاجتها، بدا السكوت اختيارها الأمثل في زيارتها الاستثنائية لعائلته، خاصة في عدم حضوره، حقًا ترك غيابه القليل من الأثر الممتزج باللهفة في نفسها، أحست كم أن يومها فارغًا بدونه! يكاد يمر ببطء؛ وكأن الدقائق لا تمضي بيسر.

استغرقت "فيروزة" في تفكيرها عنه حتى انتهت لصوت "ونيسة" المرحب بها:

-يادي النور، يادي الهنا، عروسة ابني القمر عندنا.

نهضت واقفة لتبادلها التحية الحارة، المصحوبة بالقبلات والأحضان القوية، قبل أن ترد بوجهٍ تورد بشكلٍ خفيف:

-شكرا يا طنط على ذوقك.

ابتسمت وهي تدعوها للجلوس:

-نورتي يا بنتي، ده أنا بفرح لما بشوفك عندنا.

حمدت الله أن الأفكار المنتشرة في رأسها عن ابنها لا تُقرأ، وإلا لكُشف أمرها وأصابها الحرج الشديد، زينت ابتسامة لطيفة صفحة وجهها وهي تكرر شكرها:

-ربنا يخليكي يا طنط ...

ثم أضافت وهي ترمش بعينها في استحياء مبرر:

-أنا أسفة على الدوشة اللي حاصلة من "كوكي".

أخبرتها في عفوية، وصوت ضحكتها يسبق كلامها:

-متقوليش كده، دي في معزة "سلطان" الصغير، والعيال ياما بيعملوا،
وبعدين "هاجر" مصدقت تمسك فيها.

علقت في امتنان:

-حقيقي هي حينة أوي وطيبة.

برزت ابتسامة عريضة على وجه "ونيسة" وهي تؤكد لها عن ثقة بائلة
كذلك في عينيها:

-ماتخيرش عن أخوها، الاتنين مافيش أحسن منهم على غيرهم.

مجرد استحضار مشاهد تعامله الحاني مع الصغيرة، وحتى معها، جعل
الدفء يتسلل إليها، سرعان ما تلاشت الصور الوهمية لتصبح كالسراب،
عندما انضم إليهما "بدير" قائلاً وهو يتخذ مكانه للجلوس بعد أن بدل ثياب
العمل بأخرى مريحة:

-معلش يا "ونيسة" هتعبك شوية، اعمليلنا يايديك الحلوة ليمون بالنعناع.

استقامت واقفة، واحتجت في لطفٍ أظهر إصرارها:

-ليمون إيه يا حاج؟ ده أنا هحضر السفرة، خيلنا نتجمع ونأكل سوا.

هنا نطقت "فيروزة" بوضوح رغم تخرجها من رفضها السخيف:

-مش هينفع خالص، أنا مقولتش لماما، وكم ان لازم أرجع بدري عشان خالي
مايضايقش من تأخيرنا.

تفهم "بدير" أسباب رفضها المقنعة، وجدد دعوته قائلاً بوجه مبتسم:

طيب اعملي حسابك بقى كلكم معزومين عندنا، ظبطي مع الحاجة
والدتك، وبلغينا بالميعاد المناسب ليكم.

أومات برأسها معقبة:

-حاضر ربنا يسهل.

استطردت "ونيسة" تخبرها بملاحمها الضاحكة البشوشة:

-إن شاء الله الزيارات ماتتقطعش بينا، والله أنا المفروض كنت أعدي
واسأل عليكي، بس "تميم" مسافر، ومحلفني ما أروح إلا ورجله على رجلي.

الإتيان على ذكره عفويًا أصابها بالتلبك، وجعل نبضات قلبها تتسارع، يا
لدهشتها المتعجبة! أترديد اسمه فقط ينقلها بقوة إلى تلك الحالة من الالهفة؟
أجلت صوتها، وقالت في ابتسامة صغيرة:

-ربنا معاه.

هتف "بدير" في زوجته يأمرها:

-اللمون يا "أم تميم"، ولا هنقضها رغي؟

ضحكت قبل أن تخاطبه في ودية:

-أعدتها مايتشبعش منها، على طول يا حاج هاعمل أحلى لمون يطري على
القلب ...

بدأت "ونيسة" في التحرك، ووجهت إليها كلامها:

-شوية ورجعالك يا بنتي.

هزت رأسها في تفهم، واستدارت ناظرة إلى "بدير" بعد أن اختفت عن مرمى بصرها، لتصغي إليه وهو يكلمها في جدية:

-أنا مشيتها عشان أقولك كلمتين على جنب كده.

تحفزت في جلستها، وقالت:

-اتفضلي يا عمي.

استخدم سبابته في الإشارة وهو يردد:

-شوفي أنا طبعي ناشف حبتين، شديد على عيالي، ماحبش العوج، ولا الدلع اللي في غير محله.

أحست في قرارة نفسها أن الأمر على قدرٍ من الخطورة، فأوجزت في تعقيبها لئلا تشتت أفكاره:

-تمام.

دق قلبها في قوة، وشعرت بضجيج نبضاته يتردد في أذنيها، استعدت للقادم من حديثه، وافترش على وجهها علامات القلق حين تابع:

فعشان كده تلاقيني مشدد على "تميم"، إنه يلزم حدود الأدب معاك، لحد ما ربنا يبسر، ويتقفل عليكم باب واحد.

بدأت الآن تستوعب كل ذلك الجهد في علاقة ابنه بها، كأن هناك طودًا فاصلاً بينهما، ارتخت تعبيراتها المشدودة بالتدرج وهو يمنحها المزيد من التوضيح:

جائز ده يخليكي تفتكري إني محبكها شوية معاكو، بس أنا بعمل لمصلحته قبل مصلحتك، فتلاقيني موصيه يحسن الأدب معاك، ولسانه مايفلتش بكلمة كده ولا كده، يتقي ربنا فيكي، لأن اللي مرضاش بيه لـ "هاجر" أنا مقبلش بيه عليك.

التقدير، والشعور بالاعتزاز ازدادا عمقًا بداخلها بعد أن علمت ما غاب عن تفكيرها من تفسير ملائم لذلك الحذر في المعاملة، وما أشارت إليه أيضًا "ريم" خلال جلستها الأخيرة معها. عادت إلى رشدتها بعد شروء لحظي لتصغي إليه وهو يؤكد لها:

بس مسيرك تعرفي وتشوفي غلاوتك عنده، وساعتها هتقولي عمك كان معاه حق يقرص عليه ومايسبلوش الحبل على الغارب.

المزيد من الاعترافات المتخمة بالحقائق المنقوصة جعلها تشعر بالانتشاء والسعادة، إذًا لم يكن كما كانت تظن أنه مجبرٌ على الزواج منها، بل هناك

فيض من المشاعر الجياشة المحجوزة وراء سد من الجمود والجدية، قاومت سرحانها في التفكير فيه قدر المستطاع، وحممت قائلة بجدية غير حقيقية:
-الصبح والأصول ما ترعش حد.

رفعت "فيروزة" وجهها الدافئ نسيبًا من الدماء المتصاعدة إليه، لتنظر ناحية الجد "سلطان" الذي أطل عليها قائلاً في ترحابٍ يشوبه العتاب:

-يعني أبقى آخر من يعمل إن الغالية عندنا هنا؟!

رد "بدير" ناهضًا من مكانه:

-لأ يا بيا، احنا كنا هنتقولك، دي يدوب لسه جاية ...

ثم أفسح له المجال ليجلس مكانه، وانتقل إلى الأريكة الأخرى قائلاً:

-اتفضل يا بيا، ارتاح هنا.

وقفت "فيروزة" احترامًا وتبجيلًا له، ثم قالت في تهذيب:

-أنا جيت من شوية يا جدي.

رد "سلطان" مبتسمًا:

-نورتي يا بنتي.

ثم خاطب ابنه في غلظة زائفة:

فين المحمر والمشمّر؟ إنتو عايزين تجوعوها ولا إيه؟

هنا انتفضت معترضة في تحرج خجل:

-أبدًا والله، ده هما قايمين بالواجب وزيادة، بس أنا اللي مش عاوزة.

قال في نبرة موحية:

-أيوه، مش موجود اللي يفتح نفسك.

برقت عيناها في صدمة لتلميحه المفهوم، وازدردت ريقها وهي تجلس في تباطؤ في مكانها، ثرثر الجذ قليلاً في بضعة مواضيع متفرقة، قبل أن يخاطب ابنه بلهجة متسائلة:

-إنت مش خلصت كلام معاها يا "بدير"؟

حرك رأسه بالإيجاب عندما جاوبه:

-أيوه يابا.

استند الجذ على مسندي الأريكة بقبضتيه ليدعما جسده وهو ينهض، ثم قال بعد زفرة سريعة:

-يبقى ده دوري تقعد معايا حبة، تعالي يا حبيبة الغالي.

نهض "بدير" بدروه تقديرًا لوالده، ووجه الأمر لـ "فيروزة":

-روحي يا بنتي ورا جدك.

اعترضت في تردد:

-بس "كوكي" آ...

رفع "بدير" يده أمام وجهها، مقاطعًا إياها قبل أن تتم جملتها، ليطمئنها:

-متقلقيش عليها، هي مع "هاجر"، وبعدين دي ليها هنا زي ما ليكي.

تنحنحت قائلة في لطيف:

-ربنا يخليك يا عمي.

استأذن بالذهاب خلف الجد "سلطان"، وتباطأت خطواتها نسيًا حين سبقها في الدخول أولاً، ليأتيها أمره بعد ذلك واضحًا:

-واري الباب وراكي.

ولجت للداخل، وتركت فرجة صغيرة من الباب وهي تقول في طاعة:

-حاضر.

راقبته بانتباه واضح وهو يجلس في مقعده المجاور لفراشه، أشار لها لتتقدم نحوه، فامتثلت لأمره غير المنطوق، وسألته في اهتمام:

-خير يا جدي؟

وجه أنظاره نحو تلك البقعة من طرف الفراش، حيث اعتاد حفيده الجلوس في مواجهته، وأمرها في حزم:

-اقعدي هنا.

أومات برأسها قائلة:

طيب.

لم تكن "فيروزه" قد رأت الصندوق الخزفي الموضوع إلى جوارها، انتبهت إليه فقط حين أشار إليه "سلطان" بيده:

-افتحي الشكجية دي.

انحنت قليلاً لتلتقطه بيديها، كان ثقيلاً بعض الشيء، أسندته في حجرها، وسألته في غرابة:

فيها إيه؟

قال بغموض مُلح:

-افتحي بس.

لم تجادله، وأوجزت في انصياع:

-حاضر.

تنفست بعمق، وتحسست براحتيها حوافه البارزة، قبل أن ترفع الغطاء
المطعم بالفضة للأعلى، لتنظر إلى المشغولات الذهبية التي تحتويه، تدلى
فكها السفلي في دهشة عظيمة، وأخذت تردد وعيناها تطوف على مقتنياته
باهظة الثمن:

-ماشاءالله.

خاطبها الجد بنفس النبرة الهادئة:

-في إسورة عريضة محطوبة على الوش.

لم تكن بحاجة للبحث عنها، فقد كانت الأبرز في لفت الأنظار، امتدت يدها
لتسحبها من وسط باقي الحلي، ورفعتها إليه متسائلة:

-دي يا جدي؟

لمحة من الحزن العميق انتشرت في عيني "سلطان" وهو يؤكد لها:

-أيوه هي.

مدت يدها الممسكة بجذر السوار العريض والمقسم إلى تضييعات مربعة
ناحيته، قبل أن تقول في نبرة مهدبة:

-أفضل يا جدي.

رفع راحته معترضًا على أخذها وهو يأمرها بنبرة لا تُرد:
خليها معاك.

حملت فيه مذهولة، وسألته في ركة متوترة:

-أعمل بيها إيه؟

سحب "سلطان" نفسًا عميقًا يثبط به نوبة الحزن التي اجتاحتها، ثم حرك
يده ليرفعها نحو وجهه في تمهلٍ، لمسح الدمعة النافرة من طرفه، وقال بنبرة
شبه مختنقة:

-دي هدية ليكي، حافظي عليها لأنها غالية عندي.

خفق قلبها في تأثرٍ، وتطلعت إليه في غير تصديق وهي تسأله:

-ليا أنا؟

بعد أنظاره الحزينة عنها، ليقول في هدوءٍ، كأنما يستحضر- طيف محبوبته
الغالية في فضاءات عقله:

-أنا كنت شاربيها للمرحومة "فُتنة" مراقي في أول جوازنا، مقلعتهاش من إيدها، كانت بتعزها أوي، زي ما تكون حنة منها .. فضلت لبساها لحد ما راحت لدار الحق.

زاد تأثرها لاعترافه، وأحست بالقيمة المعنوية لهديته عن قيمتها المادية، انخفضت نظراتها لتأملها في إمعانٍ، وعيناها تحتجز عبراتِ رقاقة بداخلها. واصل "سلطان" استرساله في شوقٍ ما زال نابضًا به:

-كان صعب أفرط فيها، وأديها لي مايعرفش قيمتها عندي، دي حنة مني، ماتطلعش غير للغالي زينا.

شعرت بدفءٍ يحتاج بشرتها جراء الدموع المناسبة على وجهها، خاصة عندما قال:

-بس دلوقتي أنا مطمئن، لأنك هتحافظي عليها كويس.

لم تخفِ دمعاتها المتأثرة وهي تقول بتحيرٍ حقيقي، يسود فيه الامتنان الشديد:

-أنا مش عارفة أقولك إيه يا جدي؟!

منحها الجد نظرة عطوفة وهو يخبرها:

-لما بشوفك بفتكرها، فيكي حاجات كتير منها ..

لامس قلبها بكلماته العذبة عن زوجته، رأت في عينيه، كما سمعت في نبرته
حبًا حقيقيًا لم تضعفه الأيام، أو ينسيه الفراق المر. تقوس فمه عن بسمه
بسيطة وهو يحادثها:

-تهنيي بها يا بنتي.

بالرغم من نبذها الشديد لمثل تلك النوعية من المغريات المخادعة، إلا أن
امتلاكها لهذا السوار تحديدًا كان ذي قيمة معنوية غالية، فاقت ما دونه
بكثير. وجدت "فيروزة" نفسها تضمه إلى صدرها، وتشدد من قبضتها
عليه، قبل أن تهتف مؤكدة بغصة عالقته في حلقتها:

-دي من أغلى الحاجات اللي جاتلي، أوعدك يا جدي إني مفرطش فيها أبدًا
مهما حصل.

قال، وبين شفثيه نفس البسمه اللطيفة:

-وأنا متأكد من ده.

ظلت "فيروزة" تنظر إلى السوار في تركيز، كأنها ترى فيه ماضيًا ممتلئًا
بالمشاعر العزيرة، أطالت النظر إليه حتى قاطع تأملها الشارد صوت الجد
القائل:

مش هعطلك، سلمي على اللي عندك كلهم.

أغلقت الصندوق، وتركته إلى جوارها على الفراش، ثم نهضت من مكانها
تودعه بابتسامة باهتة:

-الله يسلمك يا جدي.

.....

وضعت "فيروزة" السوار بداخل حقيبتها بحرص واضح، قبل أن تخرج من
الغرفة، وتغلق الباب خلفها، انفلتت منها شهقة مباغتة وهي تستدير بغير
احتراز لتجد "تميم" أمامها، وعلى وجهه إشراقة بددت أي ضيق استبد بها
تجاهه. رمقته بنظرة غاضبة كتعبير عن اعتراضها على ظهورها المفاجئ هكذا
بعد غياب دام لعدة أيام. وجدته يتسم لها في بهجة لا يمكن إنكارها وهو
يستطرد قائلاً:

-أنا مصدقتش لما أمي قالتلي إنك موجودة هنا.

نجحت في إخفاء توقعها لرؤيته، وعاملته برسمية واضحة:

-إزيك يا معلم؟

زادت بسمته اتساعاً حتى ظهرت النغزات في صدغيه وهو يعترف لها
ببطء ضاغظاً على كل كلمة يتفوه بها:

-بقيت أحسن بكثير لما شوفتك ...

لن تنكر أن السعادة تسلت أيضًا إلى قلبها المُعذب في ابتعاده، وبدأت آثار هذه الفرحة تظهر على وجهها في صورة ابتسامة رقيقة، لم تقاومها، تركتها تتشكل مع نظراته الهائلة إليها، لتجد الكثير من التوق يطر من عينيه وهو يبادلها النظرات. قطعت التواصل البصري بينهما لتسير في الردهة، وهو من خلفها يسألها:

هو إتي كنتي عند جدي؟

أجابت دون أن تنظر إليه، مستشعرة تدافع دقات قلبها، كأنما ترقص في ابتهاج لحضوره:
-أيوه.

هتف يسألها في توجس مرح:

-أوعي تكوني بتشتكيني عنده؟ ده مكانش كيس زبالة اتحدف بالغلط علينا، وربنا ما أنا اللي رميته!

لم تكبت ضحكتها القصيرة الغادرة تعقياً على كلامه، وردت في غموض :
-لأ متعلقش.

تنفس عاليًا في ارتياح، وخاطبها بنفس الأسلوب الودي:

-كده أنا أطمئن.

تحولت أنظارهما نحو الجانب حين نادى "بدير" بصوته الصارم:

يا "تميم"!

غمغم في خفوتٍ وهو يشير بإصبعه:

-أبويا.

هزت رأسها في تفهمٍ وهي تكتم ضحكة متسلية لرؤيته يتصرف بتأدبٍ زائدٍ عن الحد، كأنما يخشى العقاب الشديد إن تم لمحّه يسيء التصرف، بالكاد نطقت في ثباتٍ وهي تشاور يدها نحو الأمام:

-اتفضل روحله.

ضم "تميم" إصبعيه معًا وهو يرفعهما نصب عينها، ثم أخبرها هامسًا:

ثواني وراجعلك ...

ليهرول مبتعدًا عنها وهو يرفع من نبرته هاتفًا:

-أيوه يابا.

شيعته بنظراتها إلى أن اتجه إلى والده الواقف عند أعتاب غرفة نومه، سمعته يخاطبه بلهجته الآمرة موصيًا إياه:

تنزل توصل خطيبتك للبيت، ماتسيهاش تمشي لواحدھا.

اعترضت "فيروزه" من مكانها:

مالوش لزوم يا عمي، مافيش داعي أتعب حد معايا.

وجه "بدير" نظراته إليها، وقال في نبرة لا تُخبر:

-لا ما يصحش.

استدار "تميم" برأسه هو الآخر ناحية "فيروزه"، ورمقها بتلك النظرة الساهمة المصحوبة بابتسامة بلهاء، ما لبث أن تبددت وتحولت قساماته للوجوم عندما لكزه والده في كتفه يحذره في صوتٍ حازم:

-ومتأخرش، مفهوم!

تنحنح في خفوتٍ قبل أن يبدى طاعته له:

حاضر يا حاج، مسافة الطريق.

كانت البدايات بينهما جافة، خالية من أدنى مشاعر الألفة، والقبول، أما في تلك اللحظات، فهناك نوع من الاهتمام المطعم باللهفة والشوق، خاصة من جانبها، وذاك ما كانت تصبو إليه بغير ممانعة!

.....

جمعت كل القوة المتبقية بداخلها بعد مجهود اليوم الشاق، لتبدو جامدة، صلبة، غير متأثرة بوجوده؛ لكن على ما يبدو خاتنها قواها، وتأزرت مع حواسها لتظهر مدى سرورها بعودته، وكانت عينها أول من فضحها، لهذا قاومت النظر إليه طوال سيرهما معًا، أثناء حمله للصغيرة "رقية" التي استرخت ونامت على كتفه. بعد لحظات متكررة من التردد تكلمت "فيروزه" أخيرًا، فيما يشبه المعاتبة:

على فكرة أنا مش معايا رقمك.

رد مبررًا، ونظرة شوق تطل من عينيه إليها:

-أنا ملحقتش أديهولك، اتلخمننا في كام حاجة، بس ملحوثة ...

توقف عن السير، وطلب منها في نبرة مهذبة:

-مممكن الموبايل؟

توقفت هي الأخرى، ولم تتلکأ وهي تعطي له خاصتها، لتقول بابتسامة صغيرة، كأنما كانت تتحين الفرصة لهذا:

-اتفضل.

التقطه من راحتها، وأخذ يعبث به موضحًا ما يفعل:

-أنا بتصل عليا عشان أسجلك عندي، ولو عوزتيني في أي وقت كلميني.

عزوفه عن محاولة التودد إليها أصابها بالغيظ، لهذا وجدت نفسها تسأله فيما يشبه التحفز:

ليه هو إنت مش هتكلمني؟

آه لو تعلم أنه يضع كل العراقيل ليحجم من مشاعره الثائرة المطالبة بكل ذرة فيها! بان في عينيه كل الشغف وهو يكلمها بغير صوتٍ كابتنًا اعترافه:

إن كان عليا عاوز أكلمك ليل نهار، مفارقيكش لثانية واحدة.

طال صمته الهائم، فتدارك نفسه ليقول في تريث:

لو حابة أعمل كده فهتلاقيني بكلمك من وقت للتاني اطمئن عليكي.

شعرت بالفتور في رده، فقالت بعبوس بعد أن استعادت هاتفها منه:

عادي، براحتك.

واصلت السير مجددًا، فسمعتة يقول وهو يلحق خطواتها:

- "كوكي" نامت من التعب.

لم تنظر إليه عندما علقت على جملته:

آه بتلعب طول اليوم بقى.

نظرة متفرسة لوجهها جعلته يدرك مدى انزعاجها من ردوده الجافة؛ لكن ما باليد حيلة، أطلق زفيراً سريعاً، ثم سألها في هدوء:

-مش ناوية تشوفي الشقة؟

نظرت إليه متسائلة في غرابة طفيفة:

-أنهو شقة؟

-أجابه بنزق:

-اللي هنسكن فيها فيما بعد ...

ضمت ما بين حاجبيها في استنكار، فعدّل من جملته موضحاً بجذر:

-يعني عشان لو معجبتكيش أدور على حاجة تانية مناسبة، عقبال ما ربنا ييسر ونكتب الكتاب حتى لو بعد سنة.

مطت فمها قليلاً، كأنما تفكر فيما ستخبره به، لتقول:

-لما أروح مع "همسة" شقتها هابقي أعرفك.

هز رأسه قائلاً في تفهم:

-ماشي.

ضميره اليقظ يمنعه من التجاوز معها في أي تصرف، كان "تميم" يسير إلى جوارها، حاملاً الصغيرة النائمة على كتفه؛ لكنه غير ملتصقٍ بها، لا تتشابك الأيدي، ولا تتعانق الأذرع، أوجد مسافة نصف متر بينهما؛ ومع هذا ثار القلب الجائع لحبٍ لطالما رجا التمتع به، فحرك كيانه، واستحث لسانه، لينطق معترفاً بلا احتراز:

-وحشتيني !!

.....

الفصل المائة وثلاثة وخمسون

كأول شعاع لفجر يوم جديد، بزغ النور بداخلها، وأخذ قلبها يقصف في ربكةٍ لذيذة، بعد ذلك الاعتراف غير المتوقع باشتياقه المتلهف لها. على عكس المعتاد منها، لم تهاجمه "فيروزة"، أو تمنحه تعابيرًا غاضبة لتصرفه الأهوج، بل حادت بنظراتها الفرحة بعيدًا عن وجهه، لئلا ينظر إليها

ويكتشف مدى السرور الذي حل عليها، جراء تأثير كلمة واحدة صادقة،
ونابعة من الفؤاد .

حدث ما حدث، ونطق القلب قبل اللسان، لم يكن نادماً، ولم يبدُ مستاءً
من رعونته، فمن وجهة نظره كانت تستحق أن تشعر بمدى رغبته في التودد
إليها، والبقاء بقربها قدر استطاعته، حمحم "تميم" قائلاً بما يشبه الاعتذار،
بعد أن لاحظ صمتها الحذر:

-أنا مش عايزك تضايقي مني، بس ده إحساسي فعلاً ناحيتك.

لم يعلم بأنه يزيد الطين بلة بتحرير اعترافٍ آخرٍ له، ف "فيروزة" كانت في
حالة صراعٍ ما بين المشاعر المرحبة بهذا الشوق، والمشاعر المرتعبة من
الانسياق ورائها، ومع هذا لم تقاوم لذة هذا الإحساس المغري، وتركت
خدر كلماته يتسرب إلى داخلها، فالقليل من الكلام العذب قد يفعل الكثير
في الوجدان .

سكوتها المريب منحه إشارة تحذير ضمنية، ليكف عن الإسهاب في التعبير
عن مكنونات صدره، عَمِدَ إلى تغيير الموضوع، وسألها في اهتمام:

-أخبار الشغل معاكِ إيه؟

أجابت مختصرة بعد أن أجلت صوتها:

-الحمد لله.

تقوست شفتاه عن بسمه لطيفة، وهو يعقب:

-ربنا يزيدك، ويبقى من أنجح المحلات في المنطقة.

للغربة اندهشت من تشجيعه لاستمرارها في العمل، ولم يمنع ذلك فضولها من التجراً ومخاطبته:

-ممکن سؤال؟

بدا متشوقاً لتبادل الحديث معها، فقال بلهفة ظاهرة في صوته:

-اتفضلي.

ضغطت على شفتيها للحظة قبل أن تسأله مباشرة، وهي تدير رأسها لتنظر إليه ملء عينيها:

-هو إنت مش مضايق إني بشتغل؟

أمسك بها وهي تنظر إليه بنظرة المحقق المشككة في نواياه، فتابعت توضيحها بمنطقية:

-يعني واحد زيك قادر يصرف على بيت واثنين وعشرة، إيه اللي يخليك توافق إني أكمل في شغلي، ده في حالة لو جوازنا كمل.

أتاها رده بسيطاً، ومصحوباً ببسمه عذبة:

طالما الشغل في الحلال، ومخليكي مبسوطه، إيه اللي يزعلني؟
رغم وضوح كلماته، إلا أن الظنون ظلت تساورها، لذا لاحقته بجملة أخرى
تحتوي القليل من الشك:

بس إنت مكونتش كده مع مراتك.

غامت ملامحه نسيًا للتطرق إلى ذكر علاقته بـ "خلود"، تنفس بعمق،
وأخبرها بترتيب:

هي مكانتش بتشتغل أصلاً، ولا كان في دماغها أي طموح غير إنها
تتجوزني.

علقت "فيروزة" ساخرة بتهكم غطى كافة قسماتها:

قصة حب طبعًا.

صح نافيًا على الفور:

-لا.

استغربت من حمئته رغم اقتضاب رده، ورمقته بتلك النظرة المتعجبة، فما
كان منه إلا أن أضاف في نوع من الهروب:

-وبعدين لازمته إيه نجيب في سيرتها دلوقتي؟ هي في مكان أحسن دلوقتي،
الأفضل ندعيها بالرحمة هي وجميع موتانا.

هممت في خفوت:

-ربنا يرحمها.

ساد الصمت بينهما للحظة قبل أن تبادر "فيروزه" بمقاطعته في غير احتراز:
-كنت بتحبها؟

كأنما ندمت على تسرعها في هذا السؤال، فلم تملك الشجاعة الكافية للنظر
إليه، فحدقت أمامها، وصوته يخترق أذنها:

-يهمك تعرفي؟

حافظت على جمود ملامحها وهي تخبره، دون أن تنظر أيضًا في اتجاهه:
-لو مش عاوز تقول براحتك، عادي مش هتفرق.

رنة الضيق الظاهرة في صوتها أوحى له بأنها ربما قد تشعر بالقليل من
الغيرة، لانتقال الحديث عن أنثى غيرها، كغريزة تلقائية موجودة بداخل
المرأة، وإن لم تعلم بأنها كانت منافسة لها في الاستحواذ على قلبه! حاول
تبرير ارتباطه العائلي بها، فاستطرد موضحًا:

-الحكاية إن آ...

قاطعته قبل أن تعلم شيئاً بصياحها المنزعج، وهي تشير بيدها نحو الأمام:

-هو ده عسكري اللي رايح ناحية بيتنا؟

تحولت أنظاره نحو مدخل البيت، والرصيف المحاوط به، ثم تساءل في
تدقيق:

-اللي هناك ده؟

أسرعت في خطاها وهي ترد:

-أيوه، ربنا يستر.

لحق بها "تميم" حاملاً الصغيرة النائمة، لتتلق "فيروزة" متسائلة في توترٍ
قلق:

-خير يا شاويش؟

رمقها الفرد الأمني بنظرة فاحصة قبل أن يسألها في لهجة تشوبها الرسمية
البحثة:

-ده بيت "خليل العربي"؟

دق قلبها في خوف، وتجاوزت عن رهبتها العفوية لتتساءل في لهفة:

-أيوه، ده خالي، في حاجة؟

طالعها الفرد الأمني بنفس النظرات الثاقبة قبل أن تتحرك رأسه نحو الجانب
ليصغي إلى من معها وهو يسأله:

-إنت عايزه في إيه يا شاويش؟

أجابه في تزمّت:

-مش أنا اللي عايزه، ده جايله استدعاء من البيه المأمور، ولازمًا يجي معايا
يشوف جنابه.

-أحست "فيروزة" بالدماء تفر من عروقها، وهتفت مدافعة عنه في توجس
مرتاع:

-استدعاء؟ ليه؟ هو معملش حاجة.

بنفس الجمود غير المبالي قال:

-أنا معنديش أي خبر، هو ساكن في الدور الكام؟

رد عليه "تميم" في هدوء:

-موجود هنا، بس احنا محتاجين نفهم السبب، و....

قاطعها الفرد الأمني في غلظة:

ما قولت أنا معنديش خبر، وفي القسم هتعرفوا...

كانت "فيروزة" على وشك الكلام؛ لكنه سبقها في القول الأمر:

حاسبوا من طريقي خليني أطلعاه.

تجاوزها ليمر، فاشتات غيظًا من فظاظته، ولحقت به قائلة بنبرة عازمة:

أنا رايحة معاه، مش هاسيب خالي يتهدل في الحالة دي من غير ما أكون معاه.

تبعها "تميم" هاتفًا في إصرار:

-ومين قال إني هاسيبك إتي أو هو لوحدهم؟ رجلي قبل رجلكم !

توقفت عن صعود الدرج لترمقه بهذه النظرة الغريبة المليئة بشيء من الامتنان، ليواصل بعدها باقي حديثه:

خلينا نطلع البت الصغيرة فوق، ونظمن، وأنا كمان هكلم المحامي يحصلنا على هناك.

لوهلة شعرت بالارتياح لوجوده إلى جوارها، كانت بحاجة إلى ذلك السند غير المشروط، لهذا الدعم الكبير، وإن كان في أبسط الأمور.

.....

وقفت ساهمة في الرواق الطويل لقسم الشرطة، نظراتها إلى حد كبير شاردة، وصور متفرقة تتجمع في ذهنها لما خاضته من تجارب غير طيبة في ردهات هذا المكان الباعث على الاكتئاب، قاومت الذكريات السيئة قدر استطاعتها، وراحت تفكر بغير هدى في أسباب استدعاء خالها القعيد للمثول أمام المأمور في هذا التوقيت المتأخر. دنا منها "تميم" إلى أن وقف إلى جوارها، لم تشعر بقربه إلى أن مال برأسه عليها ليطلب منها:

-ارتاحي يا أبله، مش هتفضلي واقفة كده حيرانة...

رمقته بنظرة قلقة، وهو ما زال يتابع الكلام:

-الحامي على وصول وهيفهمنا في إيه.

لن تنكر أن تواجهه معها عزز من شعور الأمان بداخلها، تهتدت مليًا، وقالت في تبرم:

-خالي من ساعة اللي جراه وهو ماشي جنب الحيط، مالوش دعوة بحاجة.

مرر "تميم" يده بين شعره القصير، ثم علق في هدوء:

-أنا متوقع إنه يكون في سوء تفاهم.

احتدت نبرتها رغم خفوتها وهي تحتج عليه بغضبٍ بدأ في التجمع في عينيها:

-سوء تفاهم إزاي وهما باعتين استدعاء ليه؟ ومش من أي حد، ده المأمور!

كانت محقة في خوفها البديهي، ومع هذا امتص غضبها الوشيك بتأكيده:
-استبشري خير، وأنا موجود معاك.

نظراته المطمئنة نفذت إليها لتبعث في روحها قدرًا من السكينة، لم تشعر
بنفسها وهي تبسم له ابتسامة مهتزة؛ لكنها عبرت عن امتنانها الخفي
لوجوده.

.....

في حركة رتيبة متكررة، نقر المأمور بأصابعه على سطح مكتبه، وهو يرمق
الجالس على كرسيه المدولب بنظراتٍ طويلة متفرسة، قبل أن يعطي نظرة
أمرة للفرد الأمني بغلق الباب بعد إحضاره عصير الليمون. ضم المأمور يديه
معًا، واستطرد مخاطبًا "خليل" في لهجة هادئة:

-احنا وصلنا إشارة من سجن النساء، مكتوب فيها إن مراتك طالبة تشوفك
قبل ما يتنفذ فيها حكم الإعدام.

اتسعت عيناه ذهولاً، وهتف متممًا باسمها رغم ازدياد اللعثة في نبرته:

-".ح..م..دية"!

أوما برأسه مضيقًا كنوع من الإيضاح:

-أيوه، في النوع ده من الطلبات، بنحاول نلبها لنزلاء السجن، خصوصًا إنها مش آ..

قبل أن يتم جملة قاطعه برفض صريح، وقد تضاعف النهجان في صدره:

-أنا م..ش عايز أشوفها.. دي مج..رمة.

لاحظ المأمور انفعاله، فسعى إلى تهدئته قائلاً:

-هو مافيش إجبار يا أستاذ "خليل"، بس جاز يكون عندها حاجة مهمة حابة تقولها لك، وماظنش إن في فرصة تانية هاتكون متاحة ليها عشان تسمعها.

لو كان قادرًا على الحركة بشكل طبيعي، لأطاح بكوب العصير الموضوع أمامه؛ لكنه مقيد بعجزه! تمسك "خليل" برفضه، وقال بتشنج:

-دي .. تست..حق الموت.

نهض المأمور من مقعده، ودفعه برفق للخلف، ثم دار حول مكتبه حتى أصبح في مواجهته، وأخذ يكلمه في تريث:

-عمومًا ده اختيارك، أنا بس عاوزك تعيد تفكير في الموضوع ...

ثم مد يده ليسحب ورقة ما موضوعة على سطح مكتبه ليناوله إياها وهو يخبره:

ده تصرّيح الزيارة، تقدر تروح في الميعاد المكتوب عندك، لو حبيت!
انتبه الاثنان لصوت طرقات خافتة على باب الحجرة، فتحرك المأمور عائداً
إلى مكانه، وصاح في لهجته الحازمة:
-تفضل.

ولج إلى الداخل أحد أفراد الأمن، أدى التحية العسكرية أولاً، ليقول بعدها
في رسمية:

-في محامي موجود برا جاي مع الأستاذ.

أشار له بالانصراف آمراً:

قوله مافيش داعي، الموضوع مش مستاهل.

طرق الفرد الأمني قدمه على الأرضية في طاعة وهو يردد:

-تمام يا فندم.

.....

ألقت نظرة عابرة على شاشة هاتفها المحمول، والذي لم يتوقف عن الرنين،
لتضغط على زر إنهاء الاتصال بدلاً من الإجابة عنه، ثم تطلعت إلى "تميم"
بوجوم، قبل أن تبدد فضوله الظاهر على محياه بإخباره:

دي ماما، أكيد هتجنن على خالي، وعازية تعرف حاجة عنه.
تفهم سبب عزوفها عن الرد، وأردف قائلاً في صوت هادئ:
إن شاء الله نطمئنها.

عاد المحامي الذي جاء قبل قليل إليهما، وعلى وجهه تعبير غامض، تحركت
"فيروزة" صوبه، وسألته في عجلة:
خير يا أستاذ؟

أجابها في صوت رزين وهو يوزع نظراته بينها وبين "تميم" بالتساوي:
-المأمور رفض دخولي، ويقول إنه الموضوع بسيط ومش مستاهل وجود
أي محامي.

هنا نطق "تميم" بما بدا وكأنه تهليل:

-سمعتي بنفسك، إن شاء الله يطلع من جوا، ونعرف السبب.
تساءلت في حيرة، وعيناها تتجهان نحو "تميم"، كأنما تستجدي العون منه:
بس ليه عاوزه؟

طمأنها بابتسامته العذبة، فقال:

-دلوقي هنعرف.

.....

تبدد الغموض، وأصبح السبب معلومًا للجميع، ورغم ذلك لم يسع أي طرف لنقاش هذه المسألة الحرجة دون رغبة حقيقية من صاحب الشأن في الحديث عنها، فوحده هو من يملك الحق في الاختيار وإقرار ما يريد فعله. أوقف "تميم" سيارته بمحاذاة الرصيف الملاصق للبنية، ثم ترجل منها ليساعد "خليل" على استخدام مقعده حتى أوصله إلى الداخل، حينئذ أصر الأخير على الصعود بمفرده مستندًا على عكازيه المتروكين في غرفة المخزن، لم يعارضه، وقدم له يد العون حتى اجتاز نصف المسافة، ومن ورائهما كانت تصعد "فيروزة" في تباطؤ مهموم.

بعد بضعة دقائق، كان "خليل" متواجدًا بالداخل مع شقيقته التي أسرعته إليه لتستعلم منه عن الأمر، بينما انتظرت "فيروزة" على مقربة من باب المنزل، لتقوم بتوديع "تميم" بعد التهاء من بالبيت عنه؛ لكن الأخير كان مشغولاً بالرد على الهاتف، سمعته يتكلم في صوت خافت نسيًا:

-تمام يا حاج، مسافة السكة.

لم يكن ناظرًا ناحيتها، جم تركيزه منصبًا على الهاتف، أنهى المكالمة والتفت خلفه ليجدها تستند على إطار الباب بظهرها، وترمقه بنظرة حانية،

أنعشت الشوق بداخله، وجعلت الابتسامة تشرق على وجهه، كأنما بددت
بصفائها أثقال اليوم الطويل. أطل النظر إليها، وهو يتسم في سرورٍ من
المحال إنكاره، أصغى إليها حين نطقت في اعتذارٍ لطيف :
سهرناك معانا.

قال في تلهفٍ دون أن تخبت بسمته:
متقوليش كده، أنا في الخدمة، وبعدين احنا بقينا عيلة.
هربت من نظراته المليئة بما تخشى السقوط فيه طواعية، وإرادة كاملة منها،
لتقول وهي تشير بيدها:
أنا هدخل أشوف ماما.
تنحج معقبًا عليها بعفوية ظاهرة، وبنفس التعابير المبتسمة:
طمنيها، وأنا هكلمك أطمن عليكي، قصدي عليها.
طرافته التي تطفو بين الحين والآخر في حوارها كانت قادرة على جعلها
تبتسم، رمشت بعينها قائلة:
إن شاء الله.

تحركت خطوة للداخل لتسحب الباب بيدها، وهو يودعها بتنهيده حارة:

-تصبحي على خير.

منحته ابتسامة رقيقة عندما ردت:

-وانت من أهله.

ظل يتراجع بظهره على البسطة حتى كاد أن يتعثّر في خطواته وهو يهبط على الدرج، ليدو كالأخرق أمامها، استعداد اتزانته، وتمسك بالدرابزين متسائلاً في مرج:

-إنتو عملتوا السلمة دي إمتي؟

وضعت يدها أمام فمها لتكم ضحكتها، قبل أن تخبره:

هي موجودة من زمان على فكرة.

حمم معقبا بجديّة مصطنعة:

-يبقى أنا اللي مش مركز.

هبط درجة أخرى على السلم، وقال بنظرة متيمة، وهو يلوح بيده في الهواء:

-سلام يا أبله.

حركت رأسها بإيماءة خفيفة وهي تبادلته الوداع:

مع السلامة يا معلم.

لم يبعد عينيه عنها وهو يكمل هبوطه، إلى أن اختفت من مرمى بصره، ورغم هذا لم تغادر "فيروزة" موقعها، ظلت باقية ترهف السمع إلى دندنة لم تكن بالغريبة على أذنيها، حتى خبا الصوت، وانصرف من المكان، عندئذ تحركت عائدة إلى الداخل، مغلقة الباب خلفها، وصوت دقات قلبها يعلو بشكل متواتر.

.....

بخطواتٍ حثيثة، أخذت تمر بين الغرفة والأخرى لتتأكد من إطفاء الإنارة، وغلق النوافذ، وجمع المتسخ من الثياب، قبل أن تخلد للنوم. توقفت عند غرفة ابنتها، فوجدت أشياء مبعثرة في أكثر من مكانٍ بالحجرة، لهذا تحركت "آمنة" للملمتها، وإعادة ترتيبها على تعجلٍ .. أثناء قيامها بوضع حقيبة "فيروزة" على التسريحة، علق ذراعها بمقبض الباب، فجذبته بشدة، لينفتح سحابتها نصف المغلق على الأخير، وتناثر بعض ما بها على الأرضية، غمغمت في إرهاق:

يادي الغلب.

انحنت لتجمع متعلقاتها بعد تحرير الذراع العالق، ووضعتها بالداخل، ثم تحركت في اتجاه التسيريحة؛ لكن انعكس الوهج اللامع للسوار الذهبي في عينيها، لذا بتلقائية تأملت ما يلمع بفضول، ويدها قد سبقتها لتلتقطه.

رفعت "آمنة" السوار نصب عينيها المفتوحتين على اتساعهما، وتطلعت إليه في انبهارٍ شديد، ظلت تنظر إليه وهي تتساءل في تحير:

جابتها منين دي؟

تعقدت ملامحها في دهشة لا تخلو من التعجب، لم تدع الحيرة تأكل رأسها، فتركت الحقيبة في مكانها على التسيريحة، وخرجت من الغرفة تبحث عن ابنتها لتسألها عنها.

.....

استحوذت عليها رغبة غريبة، حثتها على الوقوف في الشرفة، وتأمل البقعة التي كان واقفاً عندها، كأنما تستحضر وجوده مرة أخرى، استراحت بمرفقيها على حافة السور، وتطلعت إلى الفراغ بنظراتٍ ساهمة، هائمة، وصوت تهديداتها يكاد يكون مسموعاً وسط الصمت المحيط بها، ضحكت في نعومة وهي تستعيد مشهد تعرقل "تميم" على الدرج، وزادت ابتسامتها نضارة مع محاولتها تذكر الكلمات التي ظل يرددها لها.

انتفضت "فيروزه" في وقتها المسترخية عندما سمعت نداء والدتها المتكرر،
ثم استدارت عائدة للداخل وهي تتساءل:

-في إيه يا ماما؟

رفعت "آمنة" السوار في مستوى نظرها متسائلة:

-إيه دي يا "فيروزه"؟

جزعت الأخيرة لرؤية السوار بين أصابعها، وأقبلت عليها تختطفه في ضيق
وحنق شديدين، قبل أن تبادلها السؤال بآخر:

-إنتي شوفتيها فين؟

على ما يبدو لم تسمع ما قالته، واستمرت في سؤالها التحقيقي:

-ردي عليا، جبتيا منين؟

أطبقت "فيروزه" راحتها على السوار، كأنما ترفض التفريط به، وأخبرتها في
إيجاز، دون أن يخف الكدر الظاهر عليها:

-دي هدية.

زوت ما بين حاجبيها مرددة في استغراب:

هدية!

أكدت عليها بلهجة غير متساهلة:

-أيوه، وهديّة غالية كمان.

ومضت عينا "آمنة" في إعجاب، ثم هتفت معلقة في مكر:

-ما هو باين عليها، شكلك سمعتي كلامي.

توقعها غير الصحيح بتبديل مبادئها بين ليلة وضحاها تحت تأثير إغراء المال

أصابعها بالانزعاج والإحباط، حاولت الإيضاح لها فقالت:

-الحكاية مش كده، آ....

قاطعتها في غير اهتمام:

-أنا يهمني إنك تسمعي كلامي، وصدقيني مافيش حد هيخاف عليك أدي.

غمغمت في قنوط ساخر:

فعلاً.

ربت "آمنة" على ذراع ابنتها، وشجعته:

-إنتي بس ركزي في مستقبلك، وإزاي تأمينيه.

لم تطق سماع مثل تلك الكلمات السقيمة، وتحركت مبتعدة عنها لتقول
بعبوس:

-تصبحي على خير يا ماما، أنا تعبانة.

كانت والدتها غير منتبهة للتجهم الكبير الذي اكتسى به وجه ابنتها، وظنت
أنها مرهقة من مشقة اليوم، فراحت تقول في بساطة:

-واتي من أهل الخير يا حبيبتي.

فرت "فيروزة" من الجو الخائق المفعم بالطمع وما يخالف ما تمسك به،
لتنزوي بغرفتها وهي تضم السوار القابضة عليه في راحتها إلى صدرها، ألقت
بجسدها على الفراش، وأخذت تكرر على مسامعها:

-ما فيش حاجة هتغيرك.

.....

فقط لو لم تتكلم والدتها بالسخافات الأخيرة لمضى - يومها على خير،
واحتفظت بذكرى متكاملة الأركان عن لقاءها غير المرتب معه. تمددت
"فيروزة" على جانبها، محاولة إجبار عقلها على استدعاء النوم؛ لكنه عاندها
ولم يأت بسهولة، بقيت في حالة يقظة حتى وقت متأخر، وتأملت السوار
الذي ارتدته في معصمها بنظرات مطولة؛ كأنما تبحث عن مفتاح الحب بين

ذراته الثمينة، رفضت وضعه مع بقية المشغولات الذهبية، وفضلت إبقائه ملاصقًا لجلدتها.

استراحت على ظهرها، وحدقت في السقف المعتم، زاره طيفه الذي بات عزيزًا، فالتوت شفتها ببسمة بهية، لوهلةٍ دار بخلدتها النظر إلى رقمه بهاتفها، فمدت ذراعها لتسحبه من على الكومود، حدقت في أرقامه بنظراتٍ جمعت بين الضيق واليأس، قبل أن تتساءل في تبرم:

هو ماتصلش ليه؟ مش كان قايل هيطن عليا؟

نفخت في سأم، وفتشت عما تلهي به عقلها، فانتقلت إلى مواقع التواصل الاجتماعي تقرأ بعض ما نُشر عبرها، ولكونها قد احتفظت برقمه في سجلات هاتفها المحمول، ظهر حسابه الشخصي أمامها. قفزت في رقدتها المسترخية، واعتدلت جالسة لتنظر إلى صورته بقلبٍ يخفق بقوة، ارتعشت يداها لرؤيته يبتسم؛ كأنما يقصدها بابتسامته، وبدأ السؤال التالي يراودها، رغم أنها لم تنطق به سوى في طيات رأسها:

-أبعثله طلب صداقة ولا لأ؟

حكمت مقدمة جبينها، وترددت لحظيًا قبل أن تحسم أمرها، وتضغط على زر الإضافة وهي تخبر نفسها:

ما أنا خطيبته، إيه الغريب في كده؟

.....

على الجانب الآخر، وخلال انتظاره لآذان صلاة الفجر، وصل إلى أذنيه رنة إشعارٍ ما، تحرك "تميم" بثقلٍ نحو هاتفه الموضوع على التسيريحة ليتفقدّه، وإذا بدقات فؤاده تنتفض وتصرخ في ابتهاجٍ حين رأى طلب الصداقة، دون إعادة تفكيرٍ ضغط على زر القبول وهو يدور حول نفسه في سعادةٍ مضاعفة مرددًا لنفسه:

-وربنا ما مصدق...

تحرك في حماسٍ في أرجاء الغرفة متسائلًا كراهقٍ عاجزٍ عن التفكير:

حطب أعمل إيه دلوقتي؟ أكلهما، ولا آ...

وضع يده أعلى رأسه، وراح يقول:

-ما هو برضوه مايصحش، هتبقى قلة ذوق مني.

عصر عقله اعتصارًا ليفكر في شيء ما يرحب عن طريقه بها بشكلٍ لطيف ومبهج، وأيضًا دون أن يتجاوز في تصرفاته معها.. وجد يده تنتقل لا شعوريًا نحو الرسائل، ليعث لها برمزٍ كان واثقًا أنه سيجعلها تبتسم، ولسان حاله ينطق عاليًا، بابتسامة عريضة أظهرت نغزاته الساحرة:

-ما هو التفاح للتفاح !!

.....

الفصل المائة وأربعة وخمسون

شعرت وكأن جسدها يسبح على موجات هادئة، تدللها، تداعب أطرافها، مما أجبرها على الاستيقاظ، نهضت بكسلٍ، واعتدلت في رقتها الغريبة على هذا الفراش الوثير، لتنظر حولها بدهشةٍ يشوبها كل القلق. أمعنت "فيروزة" النظر في أركان هذا المكان غير المألوف عليها والمكسو باللون الأبيض، مدت ذراعيها للأمام، وأخذت تقلب كفيها لتنظر إلى الأكماس الواسعة المتدلية أسفل معصمها، شعرت باللمس الناعم للقماش على جلدها، تلقائيًا امتدت كلتا يديها أعلى رأسها تتحسس حجابها، لم يكن موجودًا، كان شعرها طليقًا، ينساب على ظهرها.

أدارت وجهها للجانب، تحاول رؤية الندبات البارزة على جانب كتفها؛ لكنها لم ترها، وبكل ما يعتريها من خوفٍ ورهبة تجرأت على تحسس موقعها، فلم تجدها، خفق قلبها بقوة، وتساءل صوتٌ ما بعقلها:

-أنا فين؟ وياه اللي بيحصل؟

شعرت بوجوده قبل أن تبصره، فأخذت عيناها تبحثان عنه في لهفة وتوق، إلى أن رآته يتقدم نحوها حاملاً بين ذراعيه سلة خشبية مستديرة، بها ثمار التفاح الحمراء، أحست بلعابها يسيل، ونبضاتها تتسارع، تركزت عيناها على وجهه البشوش، ونظراته الدافئة، تسلل إليها المزيد من شعور الدفء والأمان، رآته يقبل أكثر عليها، وهو في كامل الواجهة والوسامة، دقت النظر في ثيابه، كان يرتدي ألواناً فاتحة، تميل للأزرق السماوي، في كل من قميصه وبنطاله، ظل يتقدم ناحيتها إلى أن جلس عند ركبتيها، ورأسه مرفوع نحوها، يُطالعها بنفس الطريقة المحبة إليها.

بادلته النظرات الحاملة، وابتسامة صافية تزين شفيتها، سمعته يهمس لها بشيء مبهم، فتساءلت دون أن تنبس بكلمة عما يريد قوله، أرهفت السمع إلى نبرته الساحرة وهو يغازلها:

-التفاح للتفاح.

ضحكت ملء شديها، وراحت تردد في سعادة:

برضوه، معندكش إلا كده؟

زاد الخفقان بقلها وهو يُخبرها بنفس الوجه المشرق:

-وحشتيني.

توهجت بشرتها بدموية ساخنة، وأظهرت حدقتها هذه اللعة المثيرة، رآته
يمد يده بثمرة تفاح يستحثها على تناولها، وقبل أن تتمكن من الرد عليه،
صاح حولها طنين مزعج، زفرت في تأفف لإفساده هذا التناغم والانسجام،
حاولت تجاهله، وسعت بشتى الطرق للتغاضي عنه؛ لكنه ظل يرتفع أكثر
فأكثر، مما جعل تفاصيل المشهد الناعم تتداخل بشكلٍ أصابها بالضيق،
وسرعان ما تلاشى ما حولها، لتستيقظ من نومها على صوت المنبه المنفر.

فتحت "فيروزة" عينيها، وظلت ترمش لعدة مرات حتى تستفيق كليًا، وما
زالت آثار حلمها اللطيف حاضرة في ذهنها، عفويًا تقلبت على جانبيها،
وامتدت يدها لتلتقط هاتفها المحمول من على الكومود، لتنظر إلى الرسالة
الرمزية التي بعثها بالأمس لها (ثمرة التفاح)، فأغاظته بإرسال رمز
(الطاووس) فمنحها رمزًا لقلبٍ يخترقه سهم الحب، ضحكت وقتئذٍ، وهي
تستشعر تسارع الخفقات في تلك العضلة الرقيقة حبيسة ضلوعها.

أحست "فيروزة" بنفسها تبتسم مع استحضار الذكرى اللطيفة، والتي تم
تدعيمها بحلمٍ يليق بحالتها المزاجية الرائقة. تهتت بعدها بعمقٍ، وأعادت
الهاتف إلى مكانه لتستعد إلى النهوض وهي في قمة نشاطها، وسعادتها!

.....

انتهى من ممارسة بضعة تمارين للضغط، كنوعٍ من تفريغ الطاقة المكبوتة
بداخله، وأيضًا لتقوية عضلاته التي أهمل الاعتناء بها في الفترة الأخيرة،

قبل أن يتجه إلى الحمام ليغتسل، ويبدل ثياب المنزل بالعمل. مشط "تميم" شعره، وهذب ذقنه، ليخرج من غرفته متجهًا إلى المطبخ، وجد والدته مشغولة بتحضير طعام الإفطار، دنا منها وهو يلقي عليها تحية الصباح، ليضيف بعد ذلك:

-تاعبة نفسك يا ست الكل.

أجابته وهو تضع حشوة الجبن في رغيف العيش الساخن:

-أنا قولت ألحقك من بدري عشان تأكلك لقمة قبل ما تنزل.

علق عليها وهو يلتقط ثمرة الخيار ليقطعها:

-هابقى أفطر بعدين في الدكان مع الرجالة.

ناولته الرغيف قائلة بوجه مبتسم:

-وماله، بس دي تصبيرة.

أحنى رأسه على كتفها يقبلها منه وهو يردد:

-ربنا ما يحرمني منك.

ثم بدأ في تناول الرغيف، ورأسه مشغول بأمرٍ ما. راقب والدته وهي تعمل إلى أن قرر سؤالها أخيرًا بلمحة من التردد:

-بقولك إيه يامه؟

انتبهت إليه متسائلة في اهتمام، ويداها لا تكفان عن التنظيف:
قول يا حبيبي.

تنحنح موضحًا بنفس رنة التردد المحسوسة في صوته:
عايزك كده .. تكلمي حماي.. وترتبي معاها نزورهم.
اتسعت ابتسامتها على الأخير وهي تخبره بترحيب:
حاضر يا ضنايا، على الضهر هكلمها، وأشوف ظروفها.
ملاً الحماس كامل قسماته، كأنما حققت له إحدى أمنياته الغالية، وهتف
يشكرها:

تسلميلي يا رب.

استطردت "وينسة" معقبة في لهجة هادئة:
تعرف يا "تميم"، حساك المرادي مبسوط عن أيام جوازك بـ "خلود"،
فرق بين المرادي والمرأة اللي فاتت.
لم يجذب التطرق إلى سيرتها بمحمود الكلام أو عكسه، تحت أي ظرف أو
حجة، لذا ما كان منه إلا أن قال:

-الله يرحمها، هي في مكان أحسن.

شملت "ونيسة" ابنها بنظرة غير عادية، وأكدت له عن يقين:

قلب الأم عمره ما يكذب، وأنا إحساسي صح.

تهرب من عينيها الفاضحة لأمره، فدعت له بتضرع:

-ربنا يرزقك الفرحة اللي تتمناها ويريح قلبك.

بلغ آخر لقمة في رغيفه، وأمن من ورائها:

يا رب أمين ..

ثم مشى متجهًا نحو باب المطبخ، وقبل أن يخرج منه أكد عليها بابتسامة لم يخفها:

ما تنسيش بقى.

استخدمت سبابتها في الإشارة لأسفل جفنيها وهي ترد:

عينيا!

تابع سيره نحو الخارج، وقد ذهب بعقله ووجدانه بعيدًا، إلى عند من ملكت الفؤاد وتربعت على عرشه.

.....

بدأت حجة مناسبة للذهاب إلى دكان عائلته، والالتقاء به ولو لبضعة لحظات، بعد هذه الليلة المشحونة بالعواطف من قبلها، خاصة أن طبيعتها النفسية قد عززت كذلك من دوافعها لتقوية تلك النواحي الشعورية بداخلها، كوسيلة فعالة للاستقرار النفسي والعاطفي. بخطوات خفيفة نشطة خطت "فيروزة" في اتجاه مدخل الدكان الجانبي، جالت بنظرات سريعة شاملة على المتواجدين في تلك البقعة، لم تجده بين الواقفين، فغامت ملاحظتها نسبياً، طراً ببالها أن تتحرك نحو الجهة الجانبية الأخرى، لعله يكون متواجداً هناك، فاستدارت بتؤدة وعيناها تدوران على المجتمعين؛ لكن للأسف خلا المكان منه. أطلقت زفرة محبطة وهي تردد مع نفسها:

هو فيه؟ ده كان بيبقى واقف من النجمة هنا!

لم تجد بداً من الالتفاف والعودة، فتابعت السير المتهادي إلى أن توقفت عند المدخل، رحب بها أحد العاملين، وصاح عاليًا:

حاج "بدير"! الجماعة عايزينك برا.

جاء الأخير على إثر ندائه ليستقبلها بحرارة، ثم دعاها للجلوس معه عند المكتب، أخرجت من حقيبتها مظروفًا مغلقًا، وأعطته له وهي توضح:

ده جالي بالغلط من المحامي.

تفحص "بدير" المظروف، وقلبه على الجانبين، ليقرأ ما دون على ظهره،
كان مرسلًا من واحدٍ من البنوك المودع بها أرصدتهم، على ما يبدو تم
إعطائه لها بالخطأ ضمن بضعة أوراق استلمتها من مندوب المحامي. وضعه في
الدرج، وقال مبتسمًا :

-وجايباه بنفسك؟ كنتي بعتي أي حد يا بنتي بدل ما تتعبي.

ردت مبررة ببسمة مهذبة:

-أنا قولت عشان لو في حاجة مهمة، وبعدين مافيش تعب، ده أنا بمشي-
رجلي شوية.

شبك "بدير" كفيه معًا، وأضاف في لطافة:

-عمومًا دي فرصة إني شوفتك، احنا خلاص حددنا ميعاد فرح "هاجر"،
وكنا هنعرفكم بده.

هنأته بسرورٍ ظاهر عليها:

-ألف مبروك، ربنا يتم على خير.

حل تشابك يديه، وأشار بسبابته نحو وجهها وهو يخاطبها:

-إنتي مش محتاجة عزومة، دي أختك.

هتفت دون تفكير:

-أُكيد طبعًا.

رمقها بنظرة ذات دلالة معينة وهو يتابع في كلماتٍ موحية:

-وعقبال ليلتك إتي كمان، هتلاقي الكل واقف معاك فيها.

لم تراوغه في الرد، وقالت دون أن تفتر ابتسامتها الرقيقة:

-لما ربنا يأذن.

أوماً برأسه معقبًا:

-إن شاء الله، كل شيء بميعاد.

تحفزت في جلستها، وشعرت بقلبها يقفز بين ضلوعها عندما سمعته يهتف
وهو يشير بعينه لما خلفها:

- "تميم" أهو وجه.

تلقائيًا استدارت برأسها لتنظر إلى حيث أشار، فرأته مقبلًا عليها بابتسامة
متسعة، جعلت الجلد أسفل جفنيه ينكمشان من سعادته. استطرد "تميم"
مرحبًا بها بغزلٍ بدا عفيفًا:

يا صباح التفاح، والمانجة، وكل حاجة حلوة.

نجلت من النظر إليه، وحادت بعينها بعيدًا عنه، لتتطلع إلى معصمها
الملفوف بمنديلٍ للرأس، سمعت "بدير" يعلق عليه ممازحًا:

-السلامات دي ليا طبعًا؟

تلجلج "تميم" وهو يرد بنفس الابتسامة العريضة:

-أه يا حاج، ليك ولكل الناس الحلوة اللي في الدكان.

بدا صوته قريبًا من أذنها وهو يرحب بها على وجه الخصوص:

-منورة يا أبلة.

نظرة سريعة سددها إليه قبل أن تخفضها وهي ترد في لعثة بسيطة جراء
حرجها من تواجد والده:

-ده .. نورك يا معلم.

ضحك "بدير" على أسلوبهما في الحوار، والذي اتخذ طابعًا رسميًا، ليقول
بعدها:

-أبلة ومعلم! عقبال ما يترفع التكليف بينكم في بيت العدل إن شاء الله.

هلل من ورائها "تميم" في رجاءٍ صريح:

-يا رب يا حاج، يا رب.

شدد عليه "بدير" في تزمّت:

حطب مش نشوف أشغالنا ولا إيه؟!!!

ظنت "فيروزة" أنها المقصودة بكلامه الأخير، فنهضت واقفة وهي تعتذر
بتحرج كبير:

-أنا أسفة، عطلتكم، وآ...

قاطعها موضحاً وقد نهض بدوره:

-الكلام مش ليكي، إتي قاعدة معايا للفجر حتى، ده الكلام للمعلم اللي
واقف سادد الهواء علينا.

كتمت ضحكة عفوية على طرفته، في حين علق عليه "تميم" في تبرم:

-دائماً كسفني كده يا حاج قصاد الغاليين.

أشار له "بدير" بإصبعه قائلاً في لهجة لا ترد:

-يالاً الأقفاص مستنياك، شيلها في إيدك، بدل ما تاخذها في وشك.

غمغم في عبوس مصطنع:

-وعلى إيه، الطيب أحسن.

بالكاد حافظت "فيروزة" على ثبات تعبيراتها المبتسمة وهي تستأذن بالانصراف:

-أنا همشي، عشان أشوف شغلي، ومبروك مرة ثانية لـ "هاجر".

تحرك معها قائلًا في حبور:

-الله يبارك فيكي يا بنتي...

ثم أشار لها بيده ليستوقفها مرددًا:

خليكي لحظة.

نظرت له في حيرة، وتبعته بنظراته وهو يسبقها بخطوتين لينادي بنبرة جمعت بين التهمك والشدّة:

-إنت يا سيد المعلمين.

عاد "تميم" إلى داخل الدكان وهو يسرق نظرة سريعة نحو وجه القمر المرابط خلف أبيه، ليتكلم في طاعة:

-أيوه يا حاج.

وضع يده على كتفه ضاغطًا بقبضته عليه وهو يوصيه مشددًا:

مع الأبلّة بتاعتك توصلها لدكانها، 5 دقائق وتكون عندي.

ابتهجت أساريه بشدة، وقال في انصياح:

-حامة، مسافة السكة.

تنحى "تيم" للجانب ليفسح المجال لـ "فيروزة" للمرور، وناداهما:

-اتفضلي يا أبله.

خفضت من رأسها وهي تمر من جواره قائلة في وداعة:

-شكرا يا معلم.

قبل أن يتبعها استوقفه والده بالإمساك من ذراعه مكرراً عليه توصيته الحازمة:

-إياك!

بكلمة غير قابلة للشك قال:

-اطمن.

انتظر للحظة حتى تجاوزت محيط الدكان، فراح يتبعها، ويسير إلى جوارها، توقع أن تتجاذب معه أطراف الحديث؛ لكنها بقيت صامتة، فاتخذ الخطوة الأولى لمخاطبتها بمدحه المتواري:

-منورة الفيس بوك يا أبله.

وكأنه وجد السبيل لتذكيرها بلحظاتها الحافلة بكل ما هو مُبهج، فالتفت
تنظر إليه نظرة سريعة، قبل أن تحول عينها عنه لترد موجزة:
-شكرا.

لئلا يسود الصمت بينهما من جديد استمر في الكلام معها:
-الصراحة فرحت لما لاقيتك طالبة الصداقة.

لم تنظر ناحيته، أو تعلق بشيء، واستمرت في سيرها غير المتعجل معه،
حاول "تميم" قراءة تعبيراتها الجامدة؛ لكنه لم ينجح، فواصل الحديث في
نفس الموضوع قائلاً بنبرة ذات مغزى:
-نورتي الصفحة ...

انخفضت نبرته إلى حدٍ كبير وهو يختتمها:
-وعقبال يا رب ما تنوري بيتي.

تأثرت بجملته الصريحة رغم خفوت صوته، وتباطأت خطواتها نسيئاً، وهي
تقاوم تلك الرجفة الملبكة التي انتابتها، تجرأت على النظر إليه من طرف
عينها، وجدته محدقاً أمامه وصوت تهديداته يكاد يكون مسموعاً لها، لا
شعورياً تحولت كل نظراتها إليه، لتأمله دون حرج، أمسك بها عندئذ،
فأشاحت بعينها في وجلٍ خجل.

غمرته السعادة للشعور بمدى تأثيره عليها، حمحم متسائلاً بعد ذلك في
توجيس، وقد رأى ما يحيط بمعصمها من ربطة عجيبة:

-هو مال ذراعك؟ إتي متعورة ولا حاجة؟

جاوبته موضحة بتعابير جادة وهي ترفع ذراعها للأعلى:

-لا، أنا تمام، بس عشان لابسة الإسورة اللي إدهاني جدو "سلطان"، فأنا
مخبياها، بحيث ماتتسرقش، وأهوو محدش ياخذ باله منها.

أبدى إعجابه بذكائها قائلاً:

-برافو..

ثم أتبع كلمته المقتضبة بسؤال استفهامي مباشر:

-يعني جدي إدالك الإسورة؟

استغربت من سؤاله، وبادلته بآخر، وقد انعقد حاجباها:

-أيوه، إنت مش مبسوط ولا إيه؟

قال في بساطة، وهو ينتصب بكتفيه:

-لا بالعكس، فرحان جدًا، ده معناه إنه بيحبك أوي.

ابتسمت في نعومة وهي تشاركه الرأي:

جدو "سلطان" أصلاً يتحب لوحده.

تلك الإشراقة المغربية في وجهها، والمدعمة ببسمتها الآسرة جعلته صريع عشقها! فما كان منه إلا أن قال في تهيدة هائلة:

يا بخته!

ضمت شفيتها في قوة لتخفي ابتسامة أخرى أكثر إشراقاً، فتنحنح مضيقاً وهو يشملها بنظراته:

احم .. تعرفي "هاجر" كمان خدت (ماشاءالله) ستي الله يرحمها، كانت عزيزة عليها، ولما جت تتجوز أول مرة جدي طلعتها من الشكمية، وادهالها هدية، مش قادر أقولك فرحتها بيها كانت عاملة إزاي، وخصوصاً إنه مش متعود يفطر في حاجاتها.

أدارت رأسها لتنظر إليه متسائلة بنبرة مهتمة:

هو جدك متعود يعمل كده؟

توقف عن السير ليغدو في مواجهتها، ثم أسبل عينيه ممعناً النظر في لؤلؤتها السارقتين لكيانه، ككل مرة تنجح في سلب عقله قبل وجدانه، تجعل أسير

عينها، وسجين محبتها. أبقى "تميم" نظراته المتيمة عليها وقد استطرد مجيبًا
إياها، بما اعتمر صدره بكل صنوف الرغبة، التمني، العشق، والشوق:

مش لأي حد، الغالي بس بيطلعه الغالي
!!

.....

الفصل المائة وخمسة وخمسون

كلما نطق بمثل تلك الكلمات العفوية العذبة، امتلأ قلبها بالمزيد من هذه العاطفة الغريبة تجاهه، خشيت أن يصبح تعلقها به بعد برهة إدماناً لها، لا تستطيع التخلي عنه، أو حتى الاستغناء عنه، ومع هذا لم تنبذ تلك الأحاسيس، بل فتحت باب فؤادها على مصراعيه ليستقبل كل ما يمنحه لها. قاومت "فيروزة" تأثير حضوره عليها، لتخبره وهي تشير بيدها نحو دكانها:

-أنا وصلنا عند المحل بتاعي.

تلقت "تميم" حوله، ليتحقق من صدق كلامها، وقال في تجهيم مصطنع:

-بالسرعة دي؟ أنا محستش معاكى لا بالوقت ولا بالسكة.

هزت كتفها دون أن تعلق، فأوصاها بابتسامته الصغيرة:

-خدي بالك من نفسك.

أدركت "فيروزة" وهي تتأمله من زاويتها أن وجهه اكتسى- بطابع وسامة رجولية مثيرة، ازدردت ريقها، وبادلتها الابتسامة معقبة في صوت رقيق:

-وانت كمان.

عمق من نظراته ناحيتها؛ كأنما يريد أن تنفذ إلى داخلها، فتستشعر عن طريقها مدى العشق الذي يكنه لها. لم تخبت بسمته وهو يرد في لباقة:

حاضر.

تسمر في مكانه، رافضاً الحركة أو الابتعاد، إلى أن شرعت في المشي عائدة إلى دكانها وهي تلوح له بيدها، حينئذ أخذ يسير على مهل، وهو يتراجع بظهره للخلف، دون أن ينتبه جيداً لخطواته، لذا كاد أن يتعثّر في الركام الناتج عن أعمال حفر وصيانة الطريق، حافظ على توازنه قبل أن ينكفئ على وجهه، وهتف في مزاح وهو يفرك مؤخرة عنقه عندما رآها تضحك على تصرفاته الخرقاء:

هما عملوا الحفر دي إمتى؟ لازم الواحد يركز لأحسن يضيع.

اكتفت بإظهار ضحكتها الرنانة وهي تلج للداخل، فلوح بيده في سلامٍ أخير قبل أن يختفي عن أنظارها، استعادت "فيروزة" رزاتها، وألقت التحية على مساعدتها:

صباح الخير يا بنات.

نهضت إحدى الفتاتين من مكانها لتستقبلها وهي ترد في نبرة وديعة:

صباح الخير يا أبلّة "فيروزة".

انتهت كامل حواسها للقب الذي أصبح مستحباً لها بسببه، جلست على مكتبها، ولسان حالها يردد بغير صوتٍ مسموع:

محدث يعرف يقولها زيه!

.....

راقبته بشيء من الغبطة والسرور، وهي تقف عند أعتاب باب الغرفة للحظات، قبل أن تتحرك ناحيته، والاعتزاز ينتشر في أوصالها لرؤيته على تلك الحالة المغايرة لما كان عليه في السابق. دنت "سعاد" أكثر من ابنها، وصاحت تمتدح عزيمته الجديدة:

-إيه النشاط والهمة دي يا "فضل"؟ عيني عليك باردة يا ضنايا.

استدار نحوها معلقاً وهو يرتدي الفردة الأخرى من حذائه:

عشان أبويا يعرف إني اتغيرت، وبقيت واخد بالي من مصلحة العيلة قبل مصلحتي.

ربتت على كتفه في استحسان، ودعت له بتنهيدة راجية:

-ربنا يحميك لشبابك يا حبيبي.

سوى بيده الأجزاء المتجعدة من جلبابه، وقرب طرفي الياقة معاً ليخبرها بعد ذلك باهتمام تعجبت منه:

-بقولك إيه، ماتعزني إخواني البنات وإجوازتهم...

رغم نظرة الاندهاش السائدة على ملاحظها إلا أنه تجاهلها ليكمل في هدوء:

عاوزين نتلم من ثاني، اديلنا زمن ماتجمعناش سوا.

أبدت ترحيبًا واسعًا بالفكرة، فقالت:

-عينيا، هرتب معاهم، وتجمعوا كلكم، وهعملكم ديك رومي إنما إيه حكاية.

احتضن "فضل" بكفيه وجه والدته، وأحنى رأسه على جبينها يقبله، ليضيف في ود:

-ربنا يديم لمتنا، احنا مالناش إلا بعض.

طباعة الجديدة كليًا كانت مثارًا للدهشة والاستغراب، أمعنت "سعاد" النظر في ابنها غير مصدقة أنها تحلى بالمحمود من الصفات، تبعته في خطاه وهو يتجه خارج غرفته متسائلة:

-مش هتستنى أبوك؟

رد نافيًا وهو يدير مقبض باب المنزل:

-لا، هسبقة على الأرض ...

ظلت نظرة التعجب تحتل قسامتها، وهو ما زال يخاطبها:

-عايز أشوف مع الرجالة اللي ناقص من التقاوي عشان أجيبهم، وبالمرة أحاسب الأنقار على اليومين اللي فاتوا.

قفز قلبها في سرور متعظم لتبدل أحواله للأحسن، واستمرت في دعائها له:
-الله يحميك من العين، ويباركلي فيك.

كان على وشك الخروج من المنزل؛ لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، ليدس يده في جيبه، أخرج "فضل" محفظته، وفتحها، ثم تناول عدة أوراق نقدية منها، طواها، وتقدم نحو والدته ليضعها في راحتها قائلاً بجنو استرايت كذلك منه:

-خدي دول يامه كمان، إديهم للعيال، وشوفي لو محتاجين حاجة، حس أبوهم في الدنيا.

-حاضر يا "فضل"، ربنا يخليك ليهم، وتعيش وتجيلهم.

تطلعت إليه في دهشة أكبر، وتلك الابتسامة الفرحة تنعكس على ثغرها، ودعها بنفس اللطافة الغريبة، ليغادر بعدها المنزل، وصوت دعائها يلحق به. أوصدت "سعاد" الباب بعد ذهابه، والتفتت إلى زوجها الذي استطرد متسائلاً في جدية:

-ليه الدوشة دي على الصبح؟

بكل ما يسود فيها من بهجة وفخر أخذت تخبره:

- "فضل" ابنك يا حاج، من النجمة قايم يشوف مصالحك، ده غير إنه مراعي حق عياله، وعاوز يلم إخوانه حواليه.

وكانها نطقت بسخافة غير مستساغة للضحك حتى، فعقب عليها في نغم:
مش بعوايده، أكيد وراه مصيبة.

استاءت من سوء ظنه، وعاتبته دون أن تتجاوز في حديثها معه:
ليه بتقول كده يا حاج؟ ده بدل ما تفرح إن حاله اتبدل وبقي أحسن.
جاءها رده بسيطًا ومنطقيًا:

- ديل الكلب عمره ما يتعدل يا "سعاد"، وابنك صعب يتغير بين يوم وليلة.
استهجت صراحته، فهتفت بلامح عابسة للغاية:

متقولش كده يا حاج.

لوى ثغره مرددًا في نفس النبرة المتهكمة:

عشان أنا فاهمه كويس.

استمرت على دفاعها عنه، وقالت في تشدد:

ليه بتكسر من ماديّفه؟ ده بدل ما تشجعه..

رمقها بنظرة غير مُريحة، فتابعت في تحفّر:

-يبقى إنت لسه شايل منه.

قال بلا تعابير مرتخية:

-الي عمله مش بالساهل يتنسي.

اشتاطت لتحيزه ضده، وواصلت الوقوف بصفه هاتفة:

-إيش حال ما بيعمل كل حاجة عشان يرضيك.

رفع سبابته أمام وجهها يؤكد لها بنبرة ذات مغزى:

-المهم يرضي ربنا، مش أنا!

كزت على أسنانها في غيظٍ مكبوت من أسلوبه الجاف، وراحت تزيد من دفاعها المستميت عنه:

ده طاحن نفسه في الشغل بقاله كام يوم، والكل شايف بيعمل إيه عشان يريحك، وآ...

ضجّر "إسماعيل" من سماع هذا الهراء المستفز، فأنهى الحوار معها بفضاظة:

-مالوش لازمة الرغي الي على الصبح، هاتي المداس خليني ألحقه بدل ما
يعملي مصيبة مع الرجالة.

بحثت عن حذائه أسفل المصطبة، وأتت إليه به، ارتداه في تودة، ثم غادر
المنزل ونظرات زوجته الحائرة عليه، أغلقت الباب من ورائه، وهي تردد في
تدمير:

-ربنا يهديك يا "إسماعيل"، أنا عارفة إيه اللي مش عاجبك فيه؟!

محاولة الانتهاء بالعمل وأداء المهام المكلفة بها لم يبدُ كافيًا لمنع عقلها من
التفكير فيه، حيث استحوذ "تميم" بتصرفاته العفوية والمتعمدة على غالبية
أفكارها، وبدا وكأن طيفه يُلهمها عن الحصول على التركيز الكامل، فأصبحت
غالبية الوقت تنظر إلى الطريق كأنما تتوقع قدومه، تشرأب بعنقها حين
تسمع صوتًا رجوليًا على مقربة من الدكان معتقدة أنه هو، ضجرت من ادعاء
الثبات أمام مساعدتها، وانصرفت مبكرًا من العمل، لتعود إلى منزلها وهي
تشعر بتأثير تلك الشخصية الجديدة عليها؛ هذه الشخصية المقبلة على
الحياة، التواقة لما ينتظرها من سيل العواطف الجياشة.

اشترت "فيروزة" بعض ما ينقص المنزل من احتياجاتٍ في طريق عودتها، ووضعت الأكياس بالمطبخ، لتخرج بعدها باحثة عن والدتها التي كانت تجمع الثياب المبتلة من (الغسالة)، سألتها الأولى في اهتمامٍ جاد:

خالي عامل إيه؟ أنا مش شايفاه في البلكونة زي تملي.

اعتدلت "آمنة" واقفة وهي تحمل الغسيل المبتل في سلة بلاستيكية، قبل أن تجاوبها:

قافل على نفسه الأوضة.

حملتها عنها "فيروزة"، وقالت بنبرة عازمة:

طيب أنا هدخل أتكلم معاه.

أمسكت أمها بقطعة قميص نظيفة تجفف بها باب الغسالة المبتل قليلاً وهي تقول في رجاء:

يا ريت، جاز ربنا يصلح حاله ويسمعلك.

اتجهت "فيروزة" أولاً إلى الشرفة لتسند سلة الثياب بها، ثم سارت ناحية غرفة خالها، تهتد ملياً قبل أن تطوي قبضتها لتطرق على الباب متسائلة في تهذيب:

صاحي يا خالي؟

أتاها صوته من داخل الغرفة هاتفاً:

-تعالي.

فتحت الباب، وأطلت برأسها متسائلة بوجه مبتسم:

-أخبارك إيه النهاردة؟

قال في رضا وهو يرفع نظراته الممتنة للأعلى:

-الحمد لله.

تقدمت ناحيته متابعة حديثها إليه في صوت هادئ:

ماما قالتلي إنك مش عايز لا تأكل ولا تشرب، وطول اليوم قافل على نفسك، ومحبوس في الأوضة.

لاحظت الغيمة التي حلت على ملامحه، فأدركت بفطنتها سبب انزوائه، استمرت في اقترابها منه حتى وقفت أمام كرسيه المدولب، وأخبرته بصراحة:

لو ده بسبب الموضوع إياه، فإنت يا خالي مش مجبور تعمل حاجة مش عاوزها.

بصوت متشنج، وتعايير متقلصة علق عليها:

- "حم..دية" مجرمة، قتلت ولادنا، ويتمت بنتي بعد ما قتلت أمها.

ردت في لهجة جادة:

-والقضاء قال كلمته، واتحكم عليها بالعقاب اللي تستاهله.

خرج صوته محملاً بالانفعال عندما قال:

-أنا مش عايز أشوفها، دي مجرمة.

أيدته في رأيه قائلة بجدية:

حقك، وده اختيارك..

لكن ما لبث أن لانت نبرتها نسيباً وهي تتم جملتها:

-بس اسمعها لمرة واحدة، يمكن عندها اللي تقوله.

هتف في ازدراء مليء بالقنوط:

هت..قول إيه؟ إنها معم..لتش كده؟ دي ظ..المة، منها لله، ربنا ينت..قم منها.

لم تضغط عليه أكثر من ذلك، ونطقت بدبلوماسية:

-عمومًا يا خالي فكر مرة واثنين وعشرة، لسه قدامك وقت على ميعاد الزيارة اللي مكتوب في التصريح.

ثم ابتسمت له وهي تستأذن بالانصراف:

هسيبك ترتاح يا خالي، بس لازم تأكل.

استوقفها قبل أن ترحل منادياً:

- "ف..يروزة".

ركزت أنظارها عليه وهي ترد:

-أيوه يا خالي.

نظر في عينيها قبل أن يوصيها بصوت غلفه الحزن:

لو ج..رالي حاجة، خدي بالك من "رق..ية"، عاي..زها ت..طلع زيك،
ما تخافش غير م..ن اللي خلقها.

انقبض قلبها لكلامه، وصاحت في إنكار بائن على تقاسيم وجهها، وأيضاً في
نظراتها إليه:

-ربنا يديك طولة العمر وتشوفها أحسن مني.

بدا الندم واضحاً في نبرته وهو مستمر في اعترافه:

-إنتي ج..وهرة، شر "حمدية" وحق..دها عماني عن قلبك الطيب،
وروحك الحلوة.

أدمعت عيناها تأثراً لكلماته، وخنقت غصة نبضت في حلقها، لتقول
مبتسمة؛ كأنما تسعى لمحو الذكريات السيئة بطرقٍ أخرى سلسلة معززة
لإرادتها وذاتها القوية:

ده بقي من الماضي يا خالي، انساه زي ما أنا نسيته، وخلينا نبص لبكرة.
هز رأسه في قبولٍ، فاستغلت الفرصة لتلح عليه:

حطب مش هتاكل بقي عشان خاطري؟
تخلي عن عناده أمام نظراتها الدافئة، وقال في استسلام:
ط..يب.

اعتلى ثغرها بسمة رضا، وأخبرته في حماس:
دقيقة وهاتكون أحلى صينية أكل عندك.

.....

بعد بضعة أيام، قبيل وقت العصر تقريباً، دارت "همسة" بنظرات شمولية
مدققة، على المترجلين من السيارة المصفوفة أمام مدخل البيت، أثناء
تواجدها بشرفة بيت والدتها، برقت عيناها في سعادة، كما ارتسمت
ابتسامة عريضة مسرورة على وجهها، فاليوم هو ميعاد الزيارة العائلية المتفق
عليها، للتقريب بين العروسين؛ كانت أكثر حماساً عن شقيقتها، وتشوقت

لكسر الجليد بين توأمتها وخطيها، ليصير الاثنان أكثر انجذابًا إلى بعضهما البعض، لعل الوصال يزداد بينهما، ويقرران تقديم ميعاد عقد القران بعد إرجائه لسبب غير معلوم للجميع.

هرعت للداخل وهي تضع يدها على بطنها المنتفخ هاتفة بنبرة عالية، لتلفت انتباه الجميع:

-الجماعة جوم تحت البيت يا ماما.

نهض "هيثم" الجالس على الأريكة بصالة المنزل، ليتجه إلى الباب ويفتحه، استعدادًا لاستقبال الضيوف، في حين تأهبت "فيروزة" في وقفها بداخل المطبخ، وانسحبت منه لتعود إلى غرفتها وهي تشعر بهذا التوتر اللذيذ يعترها. سمعت صوت والدتها يقول من الخارج:

-أنا جهزت مطبقيات الشوربة، ناقص بس أفرغها فيهم، جوزك يا "همسة" هيشيل الصينية بيهم وقت ما نقعد على السفرة عشانها هتبقى ثقيلة.

أنصتت إلى رد توأمتها عليها:

-حاضر يا ماما، شوفي عاوزة إيه واحنا هنعمله.

أرهفت السمع كذلك إلى أمرها:

-قولي لأختك تجهز بسرعة.

عندئذ وارت "فيروزه" باب غرفتها، وتحركت إيذاء مرآة التسيريحة، لتتطلع من جديد إلى هيئتها، كانت قد ارتدت كنزة فضفاضة من اللون الأحمر، على بنطالٍ أبيض اللون .. في البداية شعرت بالثقة وبقدرتها على اجتذاب نظراته طوال الوقت عليها؛ لكن سرعان ما تبدلت لمحة الغرور بها إلى الحرج والتردد من رؤيته لها ترتدي مثل تلك الألوان المبهجة، حاولت تشجيع نفسها، فقالت:

مش لازم أكون كثية، دي ألوان عادية.

ضبطت طرفي حجابها الأبيض، وألقت واحدًا منها على كتفها الأيسر مؤكدة لنفسها مرة أخرى:

-إنتي كده جميلة، مالك قلقانة ليه؟!

تنفست بعمق، وراحت تتحسس بروش زهرة الأوركيد الذي وضعته على عند الياقة اليمنى لكنزتها، مالت برأسها للأمام، ومسحت المتسرب من كحل العين على جفنها. استقامت واقفة من جديد، واستطردت تتكلم في ثباتٍ مصطنع:

-أنا هستنى لما ينادوا عليا.

لكن التوق كان مستبدًا بجوارحها، أخذت تعزز من جمودها الهارب، عليها تستدعيه، على أملٍ ألا يكتشف تلهفها المتضاعف كلما مرت عليها الدقائق،

لرغبتها المتنامية في مقابلته، الجلوس معه، ومشاركته حلو الكلام وعذبه
!!

.....

الفصل المائة وستة وخمسون

ريثا يترجل أفراد عائلته من السيارتين، كان "تميم" قد تحرك ليقف خلف صندوق سيارته، حتى يخرج الحلوى التي اشتراها للعروس وأسرتها كهدية تعزي من روابط الود، وتأصل من العلاقات الطيبة بين العائلتين. التفت برأسه للجانب ليتطلع إلى والدته التي أقبلت عليه، ثم ألقى نظرة عابرة على شقيقته وزوجها "سراج"، حيث كان كلاهما مشغولان بتدليل الصغير "سلطان"، عاد ليحدق في وجه أمه متسائلاً:

-شكلي حلو يامه؟

تأملت "ونيسة" ابنها في قميصه الكحلي، وبنطاله الجينز، بنظرات فحورة،
لتجيبه قائلة في مدح واضح:

-الصلاة على النبي مافيش بعد كده.

ابتسم في استحسانٍ لرأيها الداعم، فتابعت في نبرة داعية:

-ربنا يجعل في وشك القبول، ويزرع محبتك في قلبها.

أمن من ورائها برجاءٍ شديد:

-يا رب، يا رب.

ما إن تأكد من وقوفها إلى جوار والده، حتى سبقهما في خطاه ليقف بجوار
جده، ثم استطرد هاتفاً في نبرة جادة وهو يمد ذراعه إليه:

-تعالى يا جدي، اسند عليا.

تعلق الجذ "سلطان" في ذراعه، واستدار ناظرًا إليه وهو يسأله في نبرة
مهمة:

ها جبت الحاجة الحلوة لعروستك؟

رفع "تميم" ذراعه الآخر معلقًا في حماس:

-أيوه، شيكولاتة، ومن أفر الأنواع كمان.

امتدح اختياره قائلاً:

-الله ينور، دلعا عشان تشوف أيام حلوة.

قبل أن يفكر حفيده في الرد عليه؛ وإن كان بنوعٍ من المزاح، تدخل "بدير"
محذراً بلهجة متشددة:

-يبقى يدلعا ويناغشها براحتة بعد الجواز يا با، قبل كده هيتسك على
دماغه.

أدار "سلطان" رأسه للناحية الأخرى ليخاطبه في مرج:

-الكلمة الطيبة صدقة يا "بدير"، خليه ياخذ ثواب فيها، ويسمعها كلمتين
حلوين.

وافق "بدير" أبيه الرأي، وأبدى تبريره الحازم موضحاً:

-وماله، طالما في وجود حد مننا أو من أهلها، غير كده هيتحسب الكلام
ضده مش ليه.

امتل "تميم" لأمر والده الصارم، فقال في طاعة غير منزعة:

-حاضر، هبقى أخلي معايا محرم.

.....

تلكأت في خطواتها نسيبًا وهي تسير نحو الرصيف، بعد أن تركت رضيعها
لزوجها يحمله. رفعت "هاجر" طرف عبايتها، لئلا تتعثر في مشيتها بسبب
طولها الزائد، أنزلتها بمجرد أن صعدت على الرصيف، واستدارت تكلم
"سراج" بوجه مبتسم:

لو عودته على الشيل هيتعبك، اسمع مني.

بادلها ابتسامة عذبة وهو يرد في سرور:

خليه يتعبني هو وأمه، على قلبي زي العسل.

حذرت مشيرة بسبابتها أمام وجهه:

مترجعش تشتكي بعد كده!

قال في عفوية وهو يرمقها بنظراته المحبة:

-الشكوى لغير الله مذلة.

عبست من رده التلقائي، وهتفت محتجة بتبرم:

-بقي كده .. ماشي.

أدارت رأسها للأمام، وأسرعت في خطاها لتسبقه؛ لكن التف ذيل
عباءتها حول كعب حذاءها، وكادت تُطرح أرضاً، لولا أن قبض "سراج"
على ذراعها، ليحول بينها وبين السقوط هاتفاً في خوفٍ شديد:
حاسبي.

ساعدها على استعادة اتزانها، ثم أبعد يده، فعاتبته في دلالٍ:
أهوو شوفت، كنت هقع على وشي بسبب زعلي منك.
حملق فيها مدهوشاً، ورفع حاجبيه للأعلى متسائلاً في استهجانٍ:
هو أنا قولت حاجة غلط؟

ضمت قبضتها، وثبتت ذراعها، ثم وضعته أعلى منتصف خصرتها لتعلل له
بتعابيرها المتجهمة:

-المفروض لما حاجة تضايقك تقولي، مش تكتم في قلبك وتسكت، أنا
محبش كده.

حافظ "سراج" على نقاء ابتسامته وهو يخبرها بغير كذب:
عينيا.

عادا للسير مجدداً بتلكع وهما يتهاوسان في محبة لا يمكن إنكارها، زجرتما
"ونيسة" في حزم:

-يا لا يا ولاد، بلاش عطلة.

عندئذ مال "سراج" على زوجته يهمس لها في أذنها بتنهيده محملة بالشوق:
-بكرة لما يتقفل علينا باب هاقولك أحلى كلام، ومش هاخلي حد يقاطعنا.
خفضت من صوت ضحكاتها النضرة، وأنذرتة بعبثية متراقصة في نظراتها
إليه:

حطب بس بقى لأحسن المرة الجاية أبويا يشوفنا، ويزعقلنا.

تصنع الجدية وهو يعقب عليه:

-كله إلا الحاج "بدير"!

.....

انفتح الباب على آخره، وبدأ الضيوف في الولوج واحداً تلو الآخر،
و"آمنة" تقف عند الجانب تستقبلهم في حرارة شديدة، انتظر "تميم" حتى
النهاية ليطأ أعتاب المنزل، اختلس النظرات سريعاً علّه يُصرها عند أي
زاوية؛ لكنها لم تكن في الأرجاء، غامت ملامحه قليلاً، ثم قدم الهدية الشهية

إلى حماته، مصحوبة بابتسامة لبقة، فمنحته الأخيرة ترحيبًا زائدًا، ليلحق بعدها بأفراد أسرته، وصوتها من خلفه يكرر:

يا مراحب بالناس الغالية، تسلم إيديكم ورجليكم.

تساءلت "ونيسة" في لطافة:

إزيك يا "آمنة"؟ عاملة إيه؟ وأخبار صحتك إيه؟

أجابتها بعد تهيدة سريعة:

الحمد لله في أحسن حال.

رددت في ود:

دائمًا يا رب.

حرك "خليل" كرسيه المدولب ليدنو من ضيوفه الأعزاء ملقيًا عليهم التحية:

س..لام علي..كم.

أسرع "تميم" ناحيته ليدفعه وهو يقول في أدب:

خليك زي ما إنت يا عم "خليل"، احنا جاين لحد عندك.

علقت "آمنة" كنوع من المجاملة وهي تستقر في واحدة من الأريكتين الشاغرتين:

-شرفتونا يا جماعة والله، ونورتونا .. ده احنا زارنا النبي.

تفاوتوا في سرعة ردودهم؛ لكنهم قالوا جميعًا:

عليه الصلاة والسلام.

أحضر- "هيثم" مقعدين من مقاعد السفرة ليضعها بغرفة الصالون، في المساحة الخالية، وتنحى للجانب حتى تمر زوجته، وتجلس على واحدٍ منهما، أحنى رأسه عليها يسألها، وقد لاحظ الإعياء على وجهها:

إمتي كويسة؟

أجابت بإيماءة من رأسها:

أه الحمد لله.

ضيق عينيه ناحيتها، كأنما يتفرس في قسمايتها المتعبة، وقال بصوتٍ خافت في غير اقتناع:

بس لون وشك مش مريحني.

تهدت في عمق طاردة الإرهاق من داخلها، وأخبرته ببسمة لطيفة:

-معلش، ده تلاقيه من تعب الأيام اللي فاتت، إنت عارف ماما كانت قالبة البيت فوقاني تحتاني.

احتج على المبالغة في تصرفات والدتها قائلاً وهو يركز على أسنانه:

-مش عارفة إيه لازمتها حملة النظافة دي كل شوية، ما يراعوا ظروفك شوية، ولا لازماً يعني أتكلم مع أمك.

اختطف "همسة" نظرة سريعة على الحاضرين، لتتأكد من عدم متابعة أحدهم لنقاشهما شبه المحتدم رغم انخفاض صوتيهما، ثم مدت يدها ووضعته على قبضته المسنودة في حجره تستجديه برجاء:

-خلاص يا "هيثم"، مش وقته، الناس هتاخذ بالها.

ظل متمسكاً باعتراضه مبرراً سبب تشدده:

-معلش يعني محدش هينفعني لو جراك حاجة، إتي ولا اللي في بطنك.

مسحت براحتها على يده المضمومة، وهمست في نعومة:

-حبيبي، حصل خير.

رمقها بنظرة حادة قبل أن يحرك فكيه لينطق منذراً:

-عموماً ليا لي كلام مع أمك بعد الليلة دي ما تنفض.

لم تجادله، وتطلعت إلى الأوجه المحيطة بها؛ لكن ما إن وقعت عينها على والدتها حتى هتفت بها تأمرها في جدية:

-الحاجة الساقعة بسرعة يا "همسة".

أومأت برأسها متممة بابتسامة صغيرة وهي تنهض مجددًا:

عينيا يا ماما.

انزعج "هيثم" من إرهاق زوجته بالكثير من الطلبات، خاصة أنها باتت في أشهر متقدمة من الحمل، نهض بدوره ليتبعها وهو يقول بصوت عكس القليل من تجهمه:

منورين يا جماعة.

فقط تولت "آمنة" الرد عليه بضحكة مفتعلة:

تعيش يا جوز بنتي، دايماً تعينك معانا.

تجاهل التعليق عليها، ولحق بزوجه وهو يبرطم بكلمات مهمة إلى أن اختفى عن الأنظار.

.....

دقائق من الثثرة الفارغة في عدة مواضيع روتينية عمت بين الحاضرين، تخللها الكثير من النظرات الشاردة المتعلقة بالباب، على أمل أن يكون "تميم" أول من يراها وهي قادمة؛ لكنها أطالت في الظهور، مما ضاعف من الأشواق بداخله، يا ليت ما وافق على اقتراحها المعذب له، أما كان الآن يتنعم بنعومة ودفع أحضانها؟ أطلق زفرة بطيئة محبطة، وأدار رأسه في اتجاه شقيقته التي تساءلت بمكر؛ كأنما قرأت ما يدور في خلده:

-أومال فين عروستنا القمر؟

قبل أن يعاتبها بنظرته الصارمة، جاءه صوتًا يشواق لسماعه في كل ثانية:

-أنا موجودة.

نبض قلبه بشدة، واستدار في لهفة ليتطلع إليها ملء عينيه، وهو لا يدرك أنه يبتسم لها في ابتهاج ونشوة. التقت نظراته الساهمة بنظراتها الضاحكة، في لحظة توقف فيها الزمن عن الدوران، لتنفذ من خلالها إلى القلوب. في خلال تلك اللحظة العابرة، كانا -عن طواعية ورغبة حقيقية- قد سرقا منها ذكرى أول ملاطفة بصرية بينهما، ودا لو دامت للأبد!

تشتت حدقتا "فيروزة" اللامعتين ببريق عاطفة لا تكابر لإظهارها حين وقفت "هاجر" للترحيب بها، فأخذتها الأخيرة في أحضانها، وقالت في ألفة شديدة، وتلك النظرة المأكرة تنطلق من عينيها، لتصوبها نحو شقيقها:

يا أهلاً بخطيبة أخويا العسل.

تراجعت عنها "فيروزة" وسألتها في هدوء رغم الضجيج الصاح بداخلها:

إزيك يا "هاجر"؟ عاملة إيه يا حبيبتي؟

ردت بضحكة مرحة:

الحمد لله في أحسن حال، وخصوصاً لما شوفتك.

حافظت على رقة بسمتها وهي تعقب على مجاملتها اللطيفة:

دائماً يا رب.

أكملت دورها في تحية كافة الموجودين، فيما عدا "تميم"! ضنت عليه عن عمدٍ، وبقليل من الدلال، بترحيب يشبع الجوع المتزايد بداخله للارتشاف من نهر عشقها. تلفتت "فيروزة" حولها لتنتقي المكان الذي ستجلس فيه؛ لكن الجد "سلطان" رشح لها الاختيار الأمثل بقوله الذي لا يرد:

تعالى جمبي يا حبيبتي.

وكأنه يفعل المستحيل للتقريب بين قلبين أتعبتها مشاق الحياة وخياراتها القاسية، لذا جعلها تجلس في المنتصف بينه، وبين "تميم" على الأريكة العريضة، بعد أن طلب منه التحرك للالتصاق بالمسند. نظرة امتنان سددها حفيده إليه، أعقبها نظرة متوترة لأبيه الذي احتفظ بصمته المحذر.

شمل "سلطان" العروس بنظرة أبوية حانية قبل أن يمدح زينتها غير
المبهرجة:

-ماشاءالله، زي القمر.

أخفضت رأسها قائلة في نبرة وديعة:

-شكرا لحضرتك.

أصابها لبكة فجائية حين سمعته يأمر حفيده في طرافة:

ما تديها الحاجة الحلوة يا واد، ولا عايزها تقول عليك بخيل؟

هتف "تميم" مدافعا عن نفسه بابتسامته العريضة:

-هو أنا لحقت؟ على طول أهوو.

كان قد احتفظ بحقيبة كرتونية صغيرة، لا تتجاوز في حجمها حجم كف اليد، لم

يعطها لـ "آمنة" عند ولوجه للمنزل، قدمها إلى عروسه الجالسة إلى جواره

قائلاً بوجه ينيره وهج الحب:

-اتفضلي، يا رب تعجبك.

تناولتها منه دون أن تمس أصابعه أناملها، ونظرت إلى ما بداخلها، لتجد

علبة من الشيكولاتة الدائرية الشهيرة ذات الأوراق الذهبية، ومعها بطاقة

صغيرة، بالطبع لم تملك من الشجاعة أو الجرأة ما يجعلها تُظهرها للعامة
وتقرأها علناً، التفتت برأسها لتنظر إليه عن هذا القرب الخطير،
وهسهست بخفوت:

شكراً، هدية طعمها حلو.

علق مغاللاً إياها دون احتراز بصوتٍ خافتٍ مسموعٍ فقط لها:
مش أحلى منك.

برقت عينها مذهولة لجرأته، وقبل أن ينكشف أمر مداعبته المتوارية، ويتم
إحراجه بشدة، كانت "آمنة" قد تكلمت عاليًا:

على إيه التعب ده؟ ده خيركم سابق يا جماعة.

تنحنح "تميم" قائلاً في جدية زائفة وهو يلصق جسده بمسند الأريكة:

دي حاجة بسيطة للعروسة.

.....

العالم أمام سحر النظرات الفيروزية ما زال حائرًا! فكيف له أن ينأى ببدنه
عن تعويذة جعلته أسير حبها؟ كانت في صمتها كالوقود الذي يحتاجه ليأجج
من النيران المندلعة في صدره، وفي كلامها كالشلال الذي يغمر الأنهار

الضحلة بفيض مائه، آه لو يلمس الشفاه ويتذوق الرحيق الكامن فيهما!
تهيدة تلو أخرى تحررت من رثتيه؛ لكنها زادت من أوج الرغبة بداخله .

من زاويته، جاهد "تميم" ليحفر في ذاكرته كل إيماء تصدر عنها، الابتسامة
الرقيقة، الضحكة المهدبة، وحتى النظرة المشيرة التي تمنحها له من طرفها. لم
يتوقف عن الابتسام لهنية، وكأن كل الأمنيات تحققت في قربها المهلك!
بالكاد حاد بعينه عنها عندما نادى والدتها:

ياللا يا جماعة السفرة جاهزة.

ردت عليها "ونيسة" في ود:

-ربنا يديم لمتنا وجمعتنا.

بعد دقيقتين تقريباً، استقر الجميع في مقاعدهم حول المائدة المتخمة بصنوف
الطعام الشهية، ولحسن حظه جلست "فيروزة" في مواجهته، ليتمكن من
النظر إليها مباشرة، دون الحاجة للالتفاف. تحولت عينا "تميم" نحو "آمنة"
التي استطردت تخاطبه:

حقوق كده يا ابني، وقولي رأيك في الأكل.

رد مجاملاً وهو يدس المعلقة في صحن الأرز:

تسلم إيدك يا حماتي، كفاية تعبك.

رمقته بنظرة ذات مغزى وهي تؤكد له:

ده "فيروزة" واقفة معايا من طلعة النهار عشان تساعدني في تحضير الأكل.

ما هذا الكذب الذي تسمعه علنا؟ اتسعت عينا "فيروزة" في صدمة جلية بعد ادعاء والدتها غير الحقيقي، وتوقفت عن مضغ الطعام، لتسعل قليلاً، ثم ما لبث أن استدارت لتنظر إليها في استنكارٍ معكوسٍ على ملامحها. تجاهلت "آمنة" نظراتها المستهجنة، واستمرت تقول في ثقة لتدعم أكذوبتها: دي عليها حبة وصفات تجن.

قالت "رقية" في تلقائية:

بس دي كانت بتلعب معايا.

صححت لها "آمنة" بعد نحنة مسموعة:

-بعد ما نمتي يا "كوكي"، ويا لا خلصي طبقك كله عشان يدعيلك.

حينئذ ضاقت عينا "فيروزة" أكثر بتحذير غير منطوق لوالدتها، لئلا تضيف المزيد من الادعاءات؛ لكن سرعان ما التفتت لتحقق في "تميم" وهو يردد مبتسمًا:

-أكيد هايكون نفسها حلو لأمها.

سددت له نظرة حادة فيها لمحة من الضيق، وقبل أن تنطق موضحة الحقائق، بادر الجد مازحًا:

-حتى لو غير، "تميم" هياكل وهو ساكت، بدل ما يقضيها نواشف.

أمنت عليه "فيروزة" بجدية غير ساخرة:

-بالظبط يا جدي ...

انخفضت نبرتها على الأخير، لتبدو وكأنها تكلم نفسها وهي تتم جملتها:

-بلاش سقف الطموح يعلى أوي.

ابتلع "تميم" ما في جوفه، وقال بنفس الوجه المبتسم:

-صح يا جدي، أنا هاكل عشان الطبق يدعيلي.

انقلبت منها ضحكة صغيرة، جعلتها تتحرج بشدة لتحول الأنظار إليها، مما اضطرها للتحديق في صحنها، وكأنها مشغولة بتناول الطعام، في أقل من لحظات انتهى الجميع عن التحديق بها ليتحدثوا عن أمرٍ آخر؛ لكنها لم تتوقف عن اختلاس النظرات إليه. حقًا مقاومة تأثيره بات مستحيلًا، كيف له أن يفعل ذلك ببساطة؟ أن يحرك الماء الراكد أسفلها، لتصبح أخرى غير تلك التي كانت عليها، أثى مليئة بالحيوية، الشغف، والرغبة في الحياة!

.....

تحول البلكون المتسع بعد انتهاء الغذاء، إلى حلقة عائلية اجتمع فيها أفراد الأسرتين للتسامر، في أجواء معبأة بالمودة والألفة. استغل "سراج" هذا الاجتماع -وبعد مداولة سريعة مع زوجته- ليقوم بالإعلان بصوت شبه مرتفع، موجهاً كلامه إلى عائلة "فيروزة":

إن شاء الله جوازي على "هاجر" الأسبوع الجاي، أنا قلت أعزمكم بنفسي على الفرح.

انطلقت زغرودة مجاملة من "آمنة"، أعقبتها ترديداتها الفرح:

-ألف ألف مبروك، ربنا يتم على خير

في حين رد عليه "بدير" مصححاً زلة لسانه غير المقصودة:

-هما مش محتاجين عزومة، دول أصحاب فرح يا ابني.

لم تختب ابتسامة "سراج" وهو يرد:

-أكد طبعا يا حاج "بدير"، هما من الأهل والأحباب.

وجهت "فيروزة" تهنئتها لـ "سراج" فقالت:

-مبروك يا معلم "سراج"، ربنا يتم بخير.

رد يشكرها وهو يومئ برأسه:

تسلمي يا رب، وعقبالك.

حادت بنظراتها عنه لتحقق في "هاجر"، وهنأتها هي الأخرى قائلة وهي تربت على جانب ذراعها:

مبروك يا "هاجر"، تساهلي كل خير يا حبيبتي.

هددت الأخيرة رضيعها بين ذراعيها، وهتفت ضاحكة:

-الله يبارك فيكي يا حبيبتي، وعقبالك يا رب عن قريب، عاوزين الفرح يدق بابنا.

تورد وجهها قليلاً، فتجاوزت عما تشعر به من حرج، لترد في هدوء محايد:
-ربنا يسعد الجميع.

أحضرت "رقية" طائرتها الورقية، واخترقت أرجل الجالسين، لتتمكن من المرور والوصول إلى "تميم" المرتكن بظهره على حافة سور الشرفة، رفعتها إليه وقالت في مرح طفولي:

عايزة أطيرها، تلعب معايا؟

لم يرد طلبها، وانحنى جاثيًا على ركبته ليغدو في مستوى نظرها، وسألها
مبتسمًا:

تحبي نظيرها فين؟

أعطته الطائرة، وقفزت في مكانها مرددة في لهفة:

فوق، في السطوح.

هز رأسه ممتثلًا لطلبها:

ماشي.

استدارت "رقية" تخاطب أبيها:

هاروح معاه يا بابا.

هز رأسه بالإيجاب، وعلى وجهه ابتسامة متفائلة، بينما استقام "تميم" واقفًا،

وشبك يده في كفها الصغير، ليبدأ السير معها من خلف المقاعد؛ لكن

استوقفه اقتراح جده النزق:

خذ عروستك معاك، هتطلعوا لوحكم كده؟

خفق قلبه بشدة لمجرد الفكرة، وانتفضت عواطفه تزار للظفر بلحظات مميزة بتواجده معها، ابتلع ريقه، ونظر نظرة خاطفة نحو أبيه الذي تجهم قليلاً، فأمسك التردد بصوته وهو يقول :

لو .. هي .. تحب ؟

ثم حمم مضيئاً، وعيناه تنظران إلى والده، كأنما يستأذنه:

أبيه رأيك يا بابا ؟

أجابه "بدير" بلهجة جمعت بين الشدة واللين:

طالما في حد معاكو معدنيش مانع.

أحرق الرغبة في تحقيق ذلك اللقاء أوصاله، وألهبت عواطفه بشكل لا يمكن تحمله، أخفى مشاعره تحت غطاء من الهدوء، وكرر طلبه على "فيروزه" بأسلوب لبق:

تيجي معانا يا أبله ؟

رمقته بنظرة غامضة قبل أن تمنحه جوابها:

أكيد، بس "همسة" تيجي معايا.

امتنعت ملامح وجه "هيثم" لمجرد طرح الفكرة، وقبل أن يعترض سبقته زوجته رافضة بتنهيده متعبة:

-لا مش قادرة أتحرك، خلوني أعدة في مكاني، أنا كده كويسة.

أسندت "آمنة" أكواب المشروب الغازي بعد أن ملأتهما، واقترحت في غير مبالاة وهي تجلس إلى جوار حماة ابنتها:

ما تطلعوا لوحكم، هيجري إيه يعني؟

أربد وجه "فيروزة" بالضيق لهذا القدر من التساهل المكشوف، بينما علقت "ونيسة" بابتسامة مبتورة لتخفف من وطأة الأمر:

-بيتكسفوا يا "آمنة"، وما يصحش برضوه، خليه على راحتهم.

جاءها مبررها فجأ بعض الشيء بعد ضحكة مصطنعة:

ما هو لازم ياخدوا على بعض، أومال هيتجوزوا عمياني.

لم تكن "فيروزة" راضية عما يحدث، وكادت ترفض الاقتراح برمته، لولا أن استطردت "هاجر" قائلة في حماس:

خلاص أنا و"سراج" رايجين معاهم، خلينا نشوف المنظر من فوق.

ردت عليها "آمنة" في استحسان وبحماس زائد:

ده تحفة، هيعجبك أوي.

غمغم "بدير" من بين أسنانه في خفوت:

-يكون أحسن.

من بين كل الحاضرين، كان يخشى -بشدة- قلبتها الوشيكة، رأى "تميم" الكدر بائنًا في وجهها، وتوقع أن ترفض التواجد معه، لكنه لم يمانع من المجازفة وسؤالها بحذر:

-ليه رأيك يا أبله؟ جاية معانا؟

دفعتها "هاجر" من كتفها، وقد تولت الإجابة عنها:

-وهي هترفض ليه؟ تعالي معايا.

لم تترك لها الخيار، فاضطرت "فيروزة" أن تنساق معها نحو الخارج، والغيط من تصرفات والدتها غير المستساغة ظاهرًا في عينيها. تلكأت في حركتها، وتعمدت التباطؤ خلال صعودها للأعلى، كما أنها لم تتوقف عن النفخ عاليًا كتعبير عن انزعاجها، حتى أصبحت الأخيرة في الوصول والانضمام إليهم. تسمرت قدمها عند المدخل، وكثفت ساعديها أمام صدرها لتراقب "تميم" بصمت مشحون، لن تنكر أن الغيرة قد بدأت تتسلل إليها لانشغاله كليًا عنها، وإن كان مع الصغيرة، بدا مهمتها بجعل الطائرة تحلق عاليًا وكأنها المهمة المستحيلة.

باعدت نظراتها عنه لتحقق في "سراج" و"هاجر" المشغولين بالتقاط بعض الصور التذكارية مع الرضيع، هسهست في غيظ:

-وأنا جاية أتفرج عليكم ولا إيه؟

لوت ثغرها متابعة تبرمها المغتاض:

-شكلي أنا العزول اللي بينكم!

ظلت على تلك الحالة، توزع نظراتها على الجانبين، والكدر يملك منها، سرعان ما انتفضت في وقفها، وارتخا ذراعاها عندما سمعت "تميم" يناديها:

-تعال يا أبله، مستنينك.

حفظًا لماء الوجه، رفعت أنفها للأعلى، وادعت عدم اكتراثها، فقالت بفتور وهي تداعب طرف حجابها:

عادي، خدوا راحتكم.

نادتها "رقية" في تلهف:

-ياللا يا "فيرو"، عايزين نظيرها سوا.

أجلت أحبالها الصوتية، وقالت بكبرياء في غير محله:

علشان خاطرك بس.

ثم سارت بتكاسلٍ في اتجاههما، إلى أن وقفت في مواجهة "تميم"، نظرة سريعة منحتها له، متوقعة أن ينظر إلى ما سواها؛ لكنها وجدته يطالعها بإمعانٍ وتدقيق، وتلك الابتسامة العجيبة تثير ثغره، يا للواقحة! ألا يكف عن التحديق أبدًا ناحيتها بهذه الطريقة؟!

حممت مجددًا، وتساءلت مستفهمة:

-المفروض أعمل إيه؟

أشار لها بعينه نحو بكرة من الخيط السميك موضحًا دورها:

-امسكي طرف الخيط كويس، بس أوعي يفلت منك.

تطلعت إليه بنظرة مليئة بالثقة قبل أن تنطق في عنجهية أعجبته:

-لا أطمئن، اللي بمسك فيه مش بسييه.

أسبل "تميم" عينيه نحوها، وعمق من نظراته المتيمة وهو يتأملها عن لهفةٍ وتوق، كأنما يبحث عن المنفذ إلى حصونها المنيعة، لعله يجد في نهاية السعي السبيل للاستحواذ على قلبها وعقلها.. شعرت "فيروزة" بنظراته تخترقها كالسهم الصائبة، فنالت من تلك العضلة الكائنة بداخلها، وجعلتها صريعة لعواطف رائعة لم تتصور أن تبزغ بها، وتصرخ دون صوت؛ كأنما تريد منه ألا يتوقف عن إغراقها بهم، أحست بالدماء الدافئة تسري في عروقها، تمدها بترياق الحياة، وهو يؤكد لها بكلماتٍ موحية:

وأنا مش عاوز إلا كده، ماتسيهوش أبدًا
!!!

.....

الفصل المائة وسبعة وخمسون

صناعة الذكريات الرائعة لا تحتاج سوى لأناس يجيدون إدخال السعادة على النفس، بطرق بسيطة غير مصطنعة أو متكلفة. وجدت "فيروزة" نفسها تتأمل المشهد من حولها، بعد أن صعد الجميع واحدًا تلو الآخر إلى السطح لينضموا للبقية، مررت نظراتها على "هاجر" وهي تشاكس رضيعها، ومن

خلفها زوجها الذي يستحثه على مواصلة السير بمفرده، ثم انتقلت بصرها نحو "ونيسة" ووالدتها، حيث جلست الاثنتان قريبتان من بعضهما البعض تثرثران في حماس وألفة.

حركت عينيها نحو خالها، فرأته يلوح بيده خلال حديثه مع "بدير"، والجد "سلطان"، لم تُبقِ نظرها عليهم كثيراً، فتابعت التحرك بجدقتها نحو توأمتها الجالسة في ركنٍ منزوٍ مع زوجها بالقرب من حافة السور. تهيدة سريعة حررتها من صدرها لتعاود التطلع إلى "تميم" وهو يلعب الصغيرة "رقية"، أمتعته النظر إليه أثناء لهوه العفوي معها، أطالت في تأملها كأنما تمنح خيالها الفرصة لحفر ملامحه في أعماقها، أمسك بها وهي تنظر إليه بهذه الطريقة، فراحت تظهر ابتسامة لطيفة على وجهه وهو يسألها:

-في حاجة؟

تداركت نفسها، وأبعدت نظراتها الحرجة عنه، لتحقق في الأفق الممتد أمامها وهي تدعي بلجلة طفيفة:

-لا، ده أنا بشوف بتعملوا إيه مع الطيارة.

لف الخيط حول معصمه ليجذب الطائرة الورقية قليلاً، وأجابها وهو ما زال محافظاً على ابتسامته العذبة:

-الخيط جامد، مش هيتفك بالساهل.

هزت رأسها وهي تعقب بإيجاز:
-كويس.

استراحت "فيروزة" بساعديها على حافة السور، وتابعت حوارها الهادئ معه:

-تعرف دي أول مرة الكل يتجمع هنا على السطح.

نظر إليها "تميم" مدهوشًا، وتساءل بنبرة مهتمة:

-بجد؟ إتنو مابتطلعوش تقعدوا هنا؟

هزت رأسها نافية بعد زفير سريع:

-لا، قليل أوي ..

ظهرت لمعة حزينة في مقلتيها وهي تكمل مسترسلة:

-كان زمان أيام بابا الله يرحمه، بس بعد كده بطلنا، ويدوب لو في غسيل

كثير عاوز يتنشر، أو سجاد يتحط عشان ينشف.

أشار بيده الطليقة معلقًا:

-ده المنظر من هنا تحفة، حرام ماتستغلوش المكان.

بقيت أنظارها مسلطة على أمواج البحر المتلاطمة وهي ترد:

فعلًا.

خفق قلبها بتوترٍ عندما سمعته يضيف عن قصدٍ:

إن شاء الله نبقى نوضبه سوا.

التفتت ناظرة إليه في عينين ضيقتين، فصاح مبتسمًا:

كلنا يعني.

بادلته الابتسام برقةٍ وهي تقول:

إن شاء الله.

.....

نغزات متفرقة انتشرت في أسفل ظهرها، وأنحاء متفرقة من جسدها، حاولت التغاضي عن مقدار الألم الذي تشعر به يأتيها من وقتٍ لآخر، ولم تبدِ أي شكوى لأحدهم، خاصة حينما سكنت أوجاعها إلى حد ما. عند ذلك الجانب الهادئ، فضّلت "همسة" المكوث مع زوجها المنزعج، بعيدًا عن البقية، لئلا يلاحظ أحدهم مدى الضيق الظاهر على محياه، رغم عدم تصريحه العلني بهذا. نظرت إليه في مودة، واستطردت تسأله:

أجييلك حاجة تشرها؟

زجرها محتجًا في حدةٍ رغم خفوت صوته:

هو إنتي عاوزة تفضلي كده نازلة طالعة؟ ارحمي نفسك شوية، وارتاحي.

حاولت الابتسام وإخفاء الألم عن وجهها، وقالت في لطف:

يا حبيبي أنا عاوزاك تكون مبسوط.

رد عليها بنفس التعابير المتجهمة:

هابقي مبسوط لما أمك تخف عنك شوية، حرام اللي بتعمله فيكي ده، ما تراعي حالتك شوية.

وجدت صعوبة في التنفس بانتظام، وبدأ الشحوب في الزحف على وجهها، مع ظهور ذلك العرق البارد، وتجمعه عند جبينها. سحبت شهيقًا طويلًا، لفظته على مهلٍ، وراحت تكلم زوجها بترتيب:

معلش يا "هيثم"، ما إنت عارف الظروف، ولازم أكون معاها، وإيدي بإيدهم.

دمدم بغضبٍ من بين أسنانه:

-الكلام ده لما تكون بطنك فاضية، مش قربتي خلاص تولدي.

كانت منهكة الملامح وهي ترد:

هانت.

علق في تبرم، وقد تحولت نظراته نحو الطريق:

-والله شكل موال أختك ده مش هيخلص.

حاولت مجاراته في الحديث بنفس النبرة الهادئة؛ لكن النغزات عادت لمهاجمتها، قاومت شعور الألم، ورجته في مودة:

- "هيثم"، قولنا إيه؟ بلاش تخليني أزعل.

أطبق ييده على فمه بعد أن غمغم سريعًا:

-أديني قاعد ساكت أهوو.

تقوست شفتها عن بسمه راضية حين عقت عليه:

-تعيش يا حبيبي.

أخذت "همسة" تسحب أنفاسًا عميقة، تحبسها للحظة قبل أن تطلقها من صدرها، لعلها بهذا تثبط من الوخزات الحادة التي عادت للنيل منها، حمدت الله أن زوجها نهض من جوارها ليجري مكالمه هاتفيه، وإلا لرأى ما أصابها، ونالت القليل من تقريره المستاء، وإن كان محققًا في معاتبته. انتهت لصوت "رقية" القادم من جانبها وهي تناديه:

- "هموسة".

استدارت ناحيتها، وتساءلت في حنو:

-أيوه يا "كوكي"، عايزة حاجة؟

أجابتها وهي تشير بيدها نحو الأسفل:
حائزة الكورة.

أفسحت لها المجال لتمر، فانحنت "رقية" لتلتقط الكرة الصغيرة الخاصة
بالرضيع "سلطان"، والتي انحسرت إلى جوار المقعد، لاحظت الماء
المنسكب من بين قدمي ابنة عمها، فاعتدلت واقفة، وتساءلت في فضول
حائر:

إيه المياه دي؟

ضاقت عينا "همسة" بشك، وردت على سؤالها بتساؤل متحير:

مياه إيه يا حبيبتى؟

أخبرتها الصغيرة بعفوية:

تحتك.

على الفور تحولت أنظار "همسة" إلى الأسفل، واعتلت الدهشة تعابيرها،
لتتساءل بعدها في استغراب:

إيه ده صحيح؟

للحظة نظرت إلى كوب مشروبها المسنود على الحافة، وقالت في نفس
اللهجة الحائرة:

أنا مكبتش حاجة.

عندئذ ضربتها وخزة عنيفة جعلت أنة متأوهة تنفلت من بين شفتيها:

آه ..

وقفت "رقية" تتطلع إليها في توجس، وسألتها بعفوية:

إمتي كويسة.

كتمت "همسة" تأويمة متأللة أخرى، ودارت بيدها على بطنها المنتفخ تتحسسه في رفق. عاد إليها "هيثم"، وشملها بنظرة فاحصة قبل أن يسألها في خيفة معكوسة على وجهه:

مالك يا "هموس"؟ حاسة يايه؟

أطبقت على جفنيها، وأجابته بصعوبة:

مش عارفة، بس في مغص جامد أوي، وحاسة بوجع رهيب في ضهري.

ظن أنها تعاني من آثار إرهاق اليوم، لهذا عنفها في ضيق:

أنا قولت من الأول إنك في الآخر هتتعب.

انسابت دفعة من المياه بغتة من بين ساقها؛ كما لو أن أحدهم سكب شيئاً بقوة، مما جعل كلاً من "هيثم" و"رقية" يتراجعان للخلف كردة فعل تلقائية،

ليتسائل بعدها الأول في قلق أكبر:

يا ساتر، إيه ده كمان؟

صرخة مليئة بالألم انفلتت من جوفها، يتبعها استغاثة صريحة:

الحقني يا "هيثم"، أنا شكلي بولد، آآآه.

بصوتها المرتفع لفتت "همسة" الأنظار إليها، وأكدت على وجود خطب ما صياح "هيثم" المستنجد:

الحقونا يا جماعة.

هرولت "فيروزة" ركضًا نحو توأمتها تناديهما في هلع:

- "همسة"!

بينما نهضت "آمنة" واقفة لتردد بجزع:

-بنتي.

في أقل من دقيقة حاوط الجميع "همسة" التي كانت تتلوى وتصرخ بألم واضح، أسندتها "فيروزة" من جانب، وتولى "هيثم" الجانب الآخر لحثها على السير، في حين تحركت "آمنة" من خلفها تدعو في رجاء شديد:

جيب العواقب سليمة يا رب، دي كانت كويسة وبخير.

قالت "ونيسة" مفسرة ما يحدث معها:

-شكلها ولادة يا "آمنة".

صرخت "همسة" مجدداً، وتوقفت عن السير، وقد انحنت بجسدها للأمام، واضعة يدها أسفل بطنها، كأنها تخشى سقوطه، لم يستطع "هيثم" تحمل رؤيتها تتألم بهذا الشكل، فلف ذراعه حول خصرها، وانحنى ممرراً ذراعه الآخر من أسفل ركبتيها ليحملها، وهو يردد على مسامعها:

-متخافيش يا "همسة"، إن شاء الله تعدي على خير.

هتف "بدير" يأمر ابنه في جدية:

-جهز العربية يا "تميم" بسرعة تحت البيت عشان ننقلها على المستشفى.

هز ابنه رأسه في طاعة، بينما اقترح "سراج" في تهذيب:

-وأنا هاخذ الحاج "بدير"، والحاج "سلطان" معايا في العربية.

استوقفت "آمنة" ابنتها الأخرى، وأملت عليها أوامرها في لهفة:

- "فيروزة"، انزلي بسرعة تحت هاتي شنطة الولادة بتاعة أختك، هتلاقيني حطاها جنب الدولاب بتاعي، جيبها وحصلينا على المستشفى، وخدي "رقية" معاكي.

أومات برأسها قائلة وهي تسرع في خطاها:

على طول.

لم يتوقف لسان "آمنة" عن الدعاء وهي تهبط الدرج:
عديها على خير يا رب.

ارتفع الصراخ طوال مسافة النزول للأسفل، تشنج جسد "همسة"،
وتعلقت بذراعها حول عنق زوجها تشكو له:
آآآ، مش قادرة.

لم يعرف بماذا يجيبها، بذل قصارى جهده لنقلها إلى السيارة، وضعها بالمقعد
الخلفي، واستقرت "آمنة" إلى جوارها، وهي تخبرها:
-امسكي نفسك يا حبيتي، كلها شوية ويشرف ابنك بالسلامة.

تحرك "هيثم" ليجلس سريعاً إلى جوار ابن خالته، فضغط الأخير على
دواسة البنزين لينطلق بالسيارة نحو المشفى، وقلبه قبل عقله متروكاً لدى
وليفه الذي لم يأت معه.

.....

مر الوقت بطيئاً للغاية عليه، كأن الثواني ترفض أن تمضي.. ذرع "هيثم"
الردهة الممتدة أمام غرفة العمليات جيئة وذهاباً في توترٍ مختلط بالخوف،
تعلق قلبه بزوجته المحتجزة بالداخل، وأحس بالمزيد من الخوف يتسلل إليه
مع شعوره ببطء مضي الزمن، حاول الجلوس إلى جوار الجد "سلطان"،

فلم يمكث سوى لدقيقة أو أكثر بقليل، لينتفض واقفاً بعدها وهو يتساءل
في قلق:

هما اتأخروا جوا كده ليه؟

رفع الجد رأسه لينظر إليه، وأخبره بيقين واضح في صوته:

-إن شاء الله خير، اطمن يا ابني، احنا كلنا هنا وبندعيها.

تضرع "هيثم" مناجياً المولى، والخوف يعتصر فؤاده:

-يا رب كملها على خير، يا رب تقوم بالسلامة.

في الركن المقابل، وعلى المقاعد المعدنية، أخذت "آمنة" تقول بما يشبه
النواح:

-مكانش لا على البال ولا على الخاطر إنها تولد النهاردة، ده احنا كان لسه
ميعادنا مع الدكتور الأسبوع الجاي، عديها على خير يا كريم.

طمأنتها "ونيسة" الجالسة إلى جوارها بقولها الهادئ:

-ربنا لما يأذن، إن شاء الله تطلع من جوا، ونطمن عليها.

ركزت "آمنة" نظرها للأعلى، وراحت تزيد من دعائها:

-يا رب اجعلها ساعة سهلة من عندك.

رغم أن الرواق عج بأفراد العائلتين، إلا أنه لم يبصرها بين المتواجدين، بدت وكأنها قد اختفت عن المشهد بعد أن أحضرت الحقيبة للمشفى، توتر "تميم" من اختفائها، وشعر بالسخافة إن تطرق لسؤال أحدهم عنها، سحب هاتفه من جيبه، وتردد في الاتصال بها، بيد أن القلب حسم الأمر بإجراء المكالمة؛ لكن قوة إرسال الشبكة لم يسعفه، فقد تعذر عليه إتمام الاتصال. زفر في سأم، وأدار رأسه نحو الطبيب الذي ظهر لتوه في منتصف الممر، ليستمع إليه وهو يتساءل عاليًا:

لو سمحتوا فين زوج المريضة؟

هروول "هيثم" ناحيته مرددًا بصوتٍ مليء باللهفة والخوف:
-أيوه أنا.

أخبره الطبيب ببرود:

عاوزينك تحت في الحسابات شوية.

حدجه "هيثم" بنظرة نارية، فقد توقع أن يطمئنه عن وضع زوجته، لا أن يطلب منه الذهاب وهو في تلك الحالة المنزعجة، تدخل "تميم" عارضًا خدماته:

خليك إنت هنا يا "هيثم" جمب مراتك، وأنا نازل تحت.

لم يكن في حالٍ جيد يسمح له بالاعتراض أو الرفض، بل إنه تقبل عرضه
بترحابٍ واضحٍ:

حبيب .. يبقى كتر خيرك يا "تميم".

ربت ابن خالته على كتفه قائلاً في ودٍ:

على إيه يا ابني، ده احنا إخوات.

ربما في انصرافه فرصةً للتواصل معها، لهذا لم يتلکأ في سيره، وابتعد عن
الردهة، متجهاً نحو طريق المصعد، ويده تعبت بشاشة الهاتف.

.....

حملته قدماه نحو المصعد؛ لكن لصدمته وجدها جالسة عند المقاعد المعدنية
المرصوفة في البهو الخاص بهذا الطابق. قفز قلبه فرحاً، وحاول تهدئة
انفعالاته السارة برؤيتها ليبدو هادئ الملامح. دنا منها "تميم"، كانت مغمضة
العينين، ومنكسة الرأس، تدفن وجهها بين كفيها، استقر في هدوءٍ حذر
في المقعد الشاغر بجوارها، سمعها تردد في خفوتٍ:

يا رب احفظها، يا رب ما تضرنا فيها.

أمن عليها في صوتٍ خفيض:

أمين يا رب العالمين.

انتبهت "فيروزة" لوجوده، واعتدلت في جلستها لتنظر إليه بوجهٍ مطبوع عليه باللون الأحمر آثار أناملها الضاغطة عليه، بادر بسؤالها في استغرابٍ مهتم:

إنتي هنا؟ ليه مش موجودة مع الجماعة هناك؟

لم تجبه، وسألته في قلقٍ لا يمكن إنكاره:

في جديد؟ عرفتوا حاجة؟

هز رأسه نافيًا وهو يخبرها:

-لأ لسه، بس إن شاء الله خير.

أراحت "فيروزة" ظهرها للخلف، وضمت يديها معًا لتسندهما في حجرها أعلى حقيبة يدها، صمتت لهنيةً قبل أن تستطرد قائلة: كأنما ترغب في مشاركته مخاوفها الدائرة في عقلها:

-أنا خايفة أوي على "همسة"، قلبي مش مطمئن، شكلها كان تعبان أوي، واحنا مخدناش بالننا منها.

ودَّ لو استطاع محاوطتها من كتفها، وأخذها إلى صدره ليضمها، علَّها تشعر خلال ضمته القوية بالأمان والاحتواء، تهدد سريعًا، وقال بعد لحظة من التفكير:

-أول ولادة بتبقى صعبة.

لم تتوقع رده، فضحكت في عفوية، وسرعان ما دخلت في نوبة ضحك غريبة، جعلت عيناها تدمعان بشكلٍ غريب، ومع هذا لم يقطعها "تميم"، بل إنه استمتع برؤيتها هكذا، وظل يراقبها في سرور، حاولت "فيروزة" التوقف عن إطلاق الضحكات؛ لكنها استصعبت إيقافها، وقالت بقهقهة مصاحبة لكلامها:

-إنت بتكلم زي ماما على فكرة.

رفع ذراعه ليمرره أعلى رأسه، وقال بابتسامة صافية:

ما أنا مش عارف أقول إيه، وبعدين كنت بسمع أي تقول كده.

نظر "تميم" إليها ملء عينيه، وأضاف في حبٍ لا يتمكن من إخفاء علاماته:

-المهم عندي إنك إتي بخير.

نجحت في السيطرة على نوبة ضحكها، وبادلتها النظر بامتنان، رغم ذلك الشعور المريب بعدم استطاعتها الرد على عذب عباراته، بدت وكأنها تريد منه الاستمرار في الكلام، وهي فقط تصغي إليه، تقلصت عضلات وجهها عندما رآته ينهض، ضاقت عيناها بشكلٍ غريب، وسألته في تلهف استنكرته لاحقًا:

إنت رايح فين؟

شعوره الجميل - في هذه اللحظة تحديداً - باهتمامها العفوي به كان ممتعا للغاية؛ لكنه كان مضطرا للالتزام بالضوابط المفروضة بينهما مؤقتا، إلى أن يجتمع الوليفان معا، تحت سقف واحد. دس هاتفه المحمول في جيبه، وأجابها: نازل الحسابات.

رأها تنهض من مكانها، وتطرح حقيبتها على كتفها وهي تخاطبه بنبرة عازمة: طيب أنا جاية معاك، مش عاوزة أفضل لوحدي. أبقى عينيه عليها قائلاً بصوتٍ نبع من أعماق قلبه الغارق في العشق: وأنا جمبك.

.....

لم تتجاوز عقارب الساعة الخمس وأربعين دقيقة، ليخرج بعدها الطبيب المسئول عن إجراء عملية الولادة القيصرية لمريضته التي فاجأها آلام المخاض وأوجاعه غير المحتملة، ليطمئن ذويها عن وضعها الصحي، خاصة أنها لم تخضع لولادة طبيعية كما كان يتمنى. رسم ابتسامة منمقة على محياه، واستهل حديثه مخاطباً من التفوا حوله في شكل نصف دائرة:

ألف مبروك يا جماعة، المدام ولدت، وبخير، والبيبي كمان بخير، يتربى في عزكم.

هلل "هيثم" في بهجة عظيمة:

-اللهم لك الحمد والشكر.

بينما رددت "فيروزة" في سرور كبير، وهي تضم قبضتها إلى صدرها:
-الحمد لله يا رب.

في حين صاحت "آمنة" في رضا وهي تمسح بكفها على كامل وجهها:
-ياما إنت كريم يا رب.

تساءل "هيثم" في لوعة وهو يقبض على ذراع الطبيب ليقفه:

طب هنشوفها إمتى؟

بهدهوء حذر استل الطبيب ذراعه من أسفل يده، وأجابه بنفس الابتسامة اللبقة:

هي في الإفاقة، وشوية وهنقلها على أوضتها.

عادت قبضته لتمسك به متابعًا سؤاله التالي، وبؤبؤاه يتحركان في توتر:

طب والنونو؟

ربت الطبيب على جانب ذراعه، ثم أخبره موضحًا ما يتم إجرائه من خطواتٍ معروفة عند كل حالة وضع:

مع المريضة، بتنظيفه، وارتبسه هدمه، وشوية وهيكون في الأوضة مع مامته، أنا بس حبيت أطمنكم.

تنفس "هيثم" الصعاء، وراح يشكره في سعادة ظهرت علاماتها على تعابيره المشدودة:

-كتر خيرك يا دكتور.

منحه الطبيب رتبة سريعة على كتفه، قبل أن يجول بنظراته على الحضور وهو يقول:

مبروك مرة ثانية، وحمدلله على سلامة الأم وابنها.

استأذن بالذهاب، وغادر المكان، ليكرر "هيثم" من جديد في تضرع شاكر: الحمدلله يا رب.

أقبل الجد "سلطان" عليه يهنئه:

مبروك يا "هيثم"، يتربى في عزك.

احتضنه الأول في عفوية شديدة، وأدمعت عيناه تأثرا عندما نطق:

-الله يبارك فيك يا جدي.

اقتربت منه "آمنة"، وقامت بتهنئته هي الأخرى بابتسامة عريضة:

مبروك ما جالك يا جوز بنتي.

رد بفتور محاولاً مقاومة شعوره بالانزعاج منها:

الله يبارك فيكي.

لاحقته بسؤالها التالي، وهذه اللمة الغبطة تتراقص في حدقتها:

ها ناوي تسمي حفيدي إيه؟

أخبرها في نوع من السجاجة؛ كأنما يوبخها بشكلٍ مستتر:

أطمئن على مراتي الأول، وبعد كده نشوف حكاية الاسم.

هزت رأسها توافقه الرأي، وقالت وهي تستدير عائدة إلى مقعدها لتجلس

في استرخاء عليه، بعد أن تجاوزت قلقها الغريزي:

معاك حق، ده المهم دلوقتي، نطمئن على "همسة".

.....

استقرت الأوضاع أخيراً، ومكثت "همسة" في غرفتها بالمشفى، بعد أن

انضم إليها وليدها في سرير صغير منفصل، كانت تنن بخفوت وهي تحاول

تحريك جسدها، وسحبته للأعلى حتى تتمكن من الاعتدال في رقدتها.

وضعت "فيروزة" الوسادة خلف ظهرها لتدعم من استقامتها، ثم سألتها في اهتمام كبير:

حاسة يايه يا "هموسة"؟

نظرت إليها قائلة بوهن:

مش قادرة، تعبانة.

مسحت بمنديل ورقي ما تجمع عند جبينها من عرق، وابتسمت قائلة في لطافة:

معلش يا حبيبتي، دي ضريبة الأمومة، إن شاء الله هاتبقي بخير.

حركت "همسة" رأسها للجانبين، وتساءلت في نفس الصوت المليء بالضعف:

فين ابني؟

أشارت بيدها نحو الركن وهي تجيبها:

هناك أهوو، نايم زي الملايكة في سريريه.

صمتت للحظات مستسلمة للخدر الذي ما زال متفشيًا في عروقها، قبل أن تتساءل مجددًا

-و"هيثم" فين؟

تلك المرة أجاب "هيثم" عن توأمتها وهو يتقدم نحو فراشها:
-أنا هنا يا "همسة".

عندئذ تحركت "فيروزة" مبتعدة، لتترك له المجال للبقاء بالقرب منها،
وانضمت إلى النساء الجالسات على المقاعد بالجانب. امتدت يده لتمسك
بكفها، مسح عليه بإبهامه، ومال عليها ليخبرها بصوتٍ خافت:
-كلنا حواليك يا "هموس".

رغم الإعياء البادي عليها إلا أنها ابتسمت لقربه، تابع كلامه معها قائلاً
بحماسة:

ماشاء الله ابننا زي القمر، طالع لأمه أكيد.

هنا تساءلت "آمنة" من جديد:

فكرتوا في اسم ليه؟

سلط "هيثم" أنظاره عليها، وقال في ثقة:

-أيوه، أنا و"همسة" اتفقنا عليه من فترة.

سألته بفضول أكبر:

-ليه هو؟

عاود النظر إلى زوجته، ثم قال وهو يتنسم:
- "خالد".

حلت الدهشة على قسمات النساء، وتفاوتت في درجاتها، فالاسم كان شيئاً
للغاية من اسم عمة الرضيع الراحلة "خلود". غمغت "آمنة" في تبرم، دون
أن ترفع من نبرتها:

- "خالد"! ده عشان أخته ولا إيه؟! !!!
بادرت "ونيسة" بتهنئته على حُسن اختياره للاسم:
عاشت الأسامي، ربنا يبارككم فيه، ويجعله السند ليكم.
قال ممتناً وهو ينظر ناحيتها:
يا رب يا خالتي.

استطردت "هاجر" مهناً هي الأخرى:
مبروك يا "هيثم" يتربى في عزك.
هز رأسه معقبا عليها:
الله يبارك فيكي، تسلمي.

بالرغم من انزعاجها من اختيار هذا الاسم تحديداً، نظراً لإيجائه الدائم لذكرى "خلود" بحاسنها ومساوئها، إلا أنها لم تمنع نفسها من المشاركة في التهنئة، فقالت بلهجة مالت للجدية:

مبروك ما جالك يا "هيثم"، ربنا يحفظه ليكم.

أدار زوج شقيقتها رأسه ناحيتها، وقرأ في وجهها أمارات الضيق، وكان ذلك منطقياً، فلكلٍ منهما أسبابه في الفرح أو الانزعاج؛ لكنه صاحب الاختيار النهائي. اكتفى برسم ابتسامة متكلفة على ثغره، ورد عليها في إيجاز:

يا رب.

لاحقاً، خرجت "فيروزة" من الغرفة، لتطمئن الرجال الجالسين بالخارج على حال شقيقتها، تحركت صوب البهو المجتمعين فيه بالطابق، كانت عيناها تبحثان عن "تميم" أولاً، وحين وجدته تلاًلأت بشكلٍ فاضح، لذا شتت نظراتها المضئية عنه، لتتطلع إلى "بدير" الذي همّ بالنهوض من مكانه لمخاطبتها في صيغة متسائلة:

أخبارها إيه دلوقتي؟

ابتسمت وهي تجاوبه:

-الحمد لله أحسن، اتفقوا يسموا البيبي "خالد".

لحظة من السكوت حلت على الجميع، بدوا مصدومين كذلك من الاختيار؛ لكنهم كانوا الأسرع في التغاضي عن الأسباب المعلومة أو حتى غير المعلومة، ليقوموا بالتهنئة واحدًا تلو الآخر. أردف الجد مباركًا في النهاية:

على بركة الله، ربنا يطرح فيه الخير والبركة، ويكون نعم الذرية الصالحة. ردت وهي تنظر ناحيته:

يا رب أمين.

بإشارة من عكازه نطق "بدير" في لهجة جمعت بين الأمر والهدوء:

مش بينا احنا بقى، بيتيألى أعدتنا مالهاش لازمة.

لا إراديا اتجهت نظراتها نحو "تميم"، وبدت مصدومة نوعًا ما لذهابه المتوقع، بالكاد نجحت في ضبط وتحجيم انفعالها الغريب، واعتضت عليه بعبوس:

ده إنتو الخير والبركة، خليكوا معانا شوية.

برر لها "بدير" بمنطقية:

عشان تاخدوا راحتكم، وأختك كمان ترتاح من الدوشة، وعشان تقدر تفوق لابنها.

ظهر الحزن في عينيها، ورأه "تميم" صريحا، خاصة أنها كانت لا تزال تنظر إليه بهذه الطريقة، فأصاب ملامحه التجهم، وباعد نظره عنها بصعوبة وهو ينفخ مطولاً. انتبه لصوت أبيه القائل:

نادي بس يا بنتي على "هاجر"، والحاجة "ونيس" من جوا.

ردت في اقتضاب:

حاضر.

استدارت عائدة من حيث أتت لتنفذ طلبه، فقام "تميم" بتشيعها بنظراتٍ مودعة لها، تحوي في طياتها وعداً بلقاء قريب، وإن لم تر هذا مُطلقاً! رحلت كالنسمة العابرة؛ ولكن ظلت صورة وجهها الحزين تطارده ما بقي من يومه.

.....

متشكر ياسطا.

ردد ذلك الغريب تلك العبارة لسائق سيارة الأجرة، بعد أن ترجل منها وتلقى من نافذة بابها الملاصق له بقية نقوده. استقام واقفاً، وطوى المال في راحته، ثم وضعه في الجيب الأمامي لبنطاله الجينز مراقباً ابتعاد السيارة واختفائها عن مرمى بصره. التفت بعدها نحو الرصيف، وصعد عليه ليسير بتؤدة، ثم توقف للحظاتٍ في مكانه، وبدأ يدور بعينه على معالمه ليتأكد

من وجهته الصحيحة. أخرج ورقة شبه ممزقة من جيبه الخلفي، وقرأ ما فيها قبل أن يكرمشها ويعيد دسها في مكانها مردداً لنفسها:

هو ده البيت؟ العنوان مكتوب فيه كده.

جال بنظراتٍ أكثر دقة على المكان، ثم تقدم نحو المدخل مكماً حديث نفسه

أما اطلع أشوفهم.

استمر في صعود درجات السلم إلى أن وصل للطابق الثاني، لم يتعذر عليه البحث عن ضالته، فكل طابق يحوي باباً واحداً، لهذا دنا من الكتلة الخشبية، وأخذ يدق عليها بقبضته المضمومة تارة، ويقرع الجرس تارة أخرى. تراجع خطوة للخلف متوقفاً أن يقوم أحدهم بفتح الباب؛ لكن لا استجابة على الإطلاق، لذا تحرك مجدداً ناحيته، وألصق أذنه بالباب ليرهف السمع.

كان الصمت سيد الموقف، فارتد خطوتين للخلف متسائلاً في تحير:

ما فيش حس ولا خبر، هو محدش موجود ولا إيه؟

فرك مقدمة رأسه في حيرة أكبر، ثم حسم أمره قائلاً:

أجرب أشوف الجيران اللي تحت.

هبط الدرجات للأسفل، وراح يكرر ما فعله من طرق مزعج على الباب،
ومع ذلك لم يجد أي استجابة، فهسهس في امتعاض:

برضوه، إيه الحكاية؟

تحرك ليقف عند الدرازين، وأطل برأسه من الفرجة الخاصة به متسائلاً في
وجومٍ غير فرح:

فين الناس اللي هنا !!؟

.....

الفصل المائة وثمانية وخمسون

بنخفة وتدبر، أفرغت مشروب (المُغات) الساخن، في الفناجين البيضاء المصنوعة من الفخار، لترصها بعدها بتوازنٍ في الصينية العريضة، فاليوم هو اليوم المنشود للاحتفاء بقدوم أول حفيدٍ لها، لهذا لم تدخر وسعها في إبراز سعادتها بمجيئه إلى الدنيا. استخدمت قطعة من القماش لتمسح البقايا المنسكبة على سطح الرخامة، وكذلك حول الفناجين. التفتت "آمنة" باحثة عمن يأتي لحمل الصينية الثقيلة عنها، وإعطائها للضيوف المتواجدين بباحة المنزل، حيث يُقام الاحتفال بمرور أسبوع على ميلاد الرضيع "خالد".

خرجت من المطبخ تلقي نظرة على من بالصالة، وجدت "فيروزة" تحمل بين ذراعيها صندوقًا كرتونيًا يحوي على أكياس الفول السوداني، نادتها قبل أن تخرج من باب المنزل:

يا "فيروزة"!

استدارت الأخيرة ناحيتها، وسألتها:

-أيوه يا ماما، في حاجة؟

هتفت بها تأمرها وهي تشير بذراعها في الهواء:

-سيبي اللي في إيدك وتعال شيلي المغات للناس اللي تحت.

أخبرتها ابنتها بإشارة من رأسها:

حطب هودي دول وأطلعلك.

أصرت على تنفيذ مطلبها بقولها شبه الصارم:

-خلي الفول بعدين، المهم المغات، الناس المفروض تشربه قبل ما يبرد.

اعترضت على تشدها قائلة:

-هو مش هيلحق، دي دقيقة.

ظلت متمسكة برأيها مرددة:

-معلش، الفول الناس بتاخده وهي ماشية.

رضخت "فيروزة" أمام إلحاحها، وانحنت واطعة الصندوق بجوار الباب وهي

تغمغم:

حبيب يا ماما.

بدأت بالسير في اتجاه المطبخ؛ لكن استوقفها صوت قرع الجرس، فالتفتت عائدة إليه وهي تقول:

ثواني أشوف مين.

بقيت والدتها واقفة في مكانها تتابع من زاويتها البعيدة ما يحدث، في حين قامت "فيروزة" بفتح الباب لتجد "تميم" واقفاً عند أعتابه، بوجهه المبتسم، وعيناه الضاحكتان، ابتسمت تلقائياً لرؤيته، وشعرت بالسروور يتصاعد بداخلها لحضوره، انتهت له وهو يلقي عليها التحية، وكامل نظراته عليها:

مساء الفل.

استقامت في وقفها، وسوت بيدها مقدمة حجاب رأسها الأزرق، قبل أن ترد في رقة:

مساء النور عليك.

ما أحلاها حين يتبدل على جسدها الأقمشة المزركشة، فتبدو كالتاووس الذي يتباهى بألوان ريشه الجاذبة للأنظار، بالكاد أبعد عينيهِ الهائمتين عنها، ليلمح من مكانه والدتها وهي ترمقه بنظراتٍ متربصة، تنحنح مرحباً بها وهو يرفع يده إلى جبينه:

مبروك يا حماقي، يتربى في عزمك.

دنت منه لتبادله الترحاب الودود:

الله يبارك فيك يا معلم، عقبال نهار فرحتنا بعوضك إنت و"فيروزة".

برقت عينا الأخيرة في استنكارٍ لدعوتها الصريحة، وانسحبت مغادرة المكان وهي شبه تركض، لا تعرف إن كان من عبارتها المخرجة، أم لرغبتها الغريبة في حدوث مثل تلك الأمنية، أن يجتمعا معًا، وتغدو العلاقة بينهما في مسارها الطبيعي. سمعت صوته يردد في رجاء:

إن شاء الله، دعواتك يا حماقي.

انتظرت لما يقرب من الدقيقة بداخل المطبخ، متوقعة انصراف "تميم"، ثم حملت بحذر تام الصينية المتخمة بالفناجين، مشت على مهلٍ حتى أوشكت على الوصول إلى باب المنزل، عندئذ انتهت لوجود "تميم" الذي استطرد عارضًا عليها دون تأخير:

عنك يا أبله، دي ثقيلة عليك.

سيطرت على انتفاضة مصدومة لبقائه، وهتفت معترضة:

-لا، أنا تمام، عارفة أتعامل.

تمسك بطلبه، وأصر عليها بلطافةٍ تجعل الرأس العنيد يلين:

عشان ماتدلّش منك، هتكسفيني؟

نظراته الساهمة التي تحتويها، وقسماته الناطقة بشيءٍ تحب دومًا رؤيته على وجهه، جعلها تتراجع عن عنادها، ابتسمت قائلة وهي تناوله إياها:
طالما إنت مُصر، اتفضل.

أخذها بحرصٍ من يديها، لتشعر بإزاحة هذا الثقل المزج عنها، انتصبت بكتفها، وهممت بصوتٍ شبه خافت:
-أوف، كانت ثقيلة.

على ما يبدو التقطت أذناه شكواها العفوية، فعلق في عذوبة:
-التقيل يخف عشانك.

لم تخفِ ابتسامتها المرحّة، ونظرت إليه بطريقة جعلت قلبه يخفق في بهجةٍ، من كان يظن أن تتألف الأرواح في نهاية المطاف! انتظر "تميم" تحركها قبله؛ لكنه تفاجأ بها تنحني لتحمل الصندوق الكرتوني، اعترض على ما تفعله هاتفاً:

-لازمته إيه تشيلي الكرتونة، شوفي إنتي محتاجة إيه تنقليه، وأنا موجود عشانك.

تلك الكلمات البسيطة المباشرة، وغير المصطنعة، دومًا تزيد من شعورها بالأمان في وجوده، لم تكن مجرد أقاويل تُردد لملء أذنها بالفارغ من الكلام، لحجب الحقيقة عنها. كان كما تراه، داخله كخارجِه، نقيًا، مليئًا بسماتِ قلبها تجدها في الرجال! أحاطت "فيروزة" الصندوق بذراعيها، وألصقته بصدرها، ثم أخبرته عن عزيمة أظهرتها له:

بسيطة يا معلم، وبعدين أنا سيياك للتقيل.

أشار بعينه نحو الصينية التي يحملها مُعلقًا بطرافة:

ما هو واضح، اختبار قدرات.

لم تعد تخجل من الضحك في حضرته، بل أدركت أنها عرفت كيف تضحك معه، وكيف يكون للابتسام معنا حقيقيًا بمشاركته الحديث غير المتكلف.

.....

تلك المرة جاء سائرًا، لم يملك من المال الكافي ما يخوله لاستئجار عربة خاصة لإيصاله إلى وجهته دون مشقة، بالكاد استعان بما معه من مدخرات، لركوب المواصلات العامة حتى يصل لبيته. في مرته السابقة ذهب مثلما أتى خالي الوفاض، لهذا اضطر أن ينتظر لبضعة أيامٍ لئلا يعود فارغ اليدين. رأى في مرمى بصره أحد الأكشاك عند الناصية، اتجه إليه على الفور، توقف بالقرب من مالكة، وناداه في لهجةٍ شبه جافة:

-بقولك يا أخ ...

انتبه له صاحب الكشك، فتابع مشيراً لواحدٍ من المباني القصيرة:

مش ده بيت "خليل العربي"؟

نظر الرجل إلى حيث أشار، وأكد بإيماءة من رأسه:

-أه اللي هناك ده.

لوح هذا الغريب بيده قائلاً بلامح مالت للتجهم الشديد:

طب متشكر.

تقدم في سيره نحو البيت، وعيناه تفحصان المكان بتدقيق، رأى الصخب

المحاط بالبناية، والإنارة المعلقة على الجدران، امتلأ قلبه بالحقد، وراح

يدمد مع نفسه في غضبٍ متزايد:

-واضح إن عندهم زبيلة وزمبيلة، أه طبعا، هو هيفرق معاه حاجة، ماهو

عايش ملك زمانه.

واصل تحركه مكماً بنفس النبرة المغلولة، والشرر ينطلق من حدقتيه:

-أنا جاي عشان أخذ حقي منه، مش هاسيبه يعيش في الميعة دي لوحده!

.....

هبوط درجات السلم معاً كان ممتعاً، فقد أصبح وسيلتهما المتاحة للردشة اللطيفة المحملة بالعتاب الرقيق. ترك "تميم" خطيبته تنزل أولاً، وتبعها في خطواتٍ متهمة حذرة، حين وجدها تقتضب في الرد عليه، تجاذب أطراف الحديث من جديد معها، فاستطرد قائلاً بابتسامةٍ عريضة:

-أنا رنيت عليكِ إمبارح قبل ما أنام.

نظرت إليه "فيروزة" نظرة سريعة محملة بقدرٍ من الغيظ، قبل أن تخبره في تحفٍ:

-أه شوفت مكالمتك الصبح، أصلي كنت نمت.

عقب عليها بتفهم:

ما أنا قولت كده برضوه، نوم العوافي عليكِ.

استفزها رده البارد، فأخذت تهاجمه دون أن ترتفع نبرتها، وعيناها تشتعلان غيظاً:

-وبعدين في حد يكلم خطيبته متأخر أوي كده؟ مش في أصول؟

صمت لهنية قبل أن يتكلم في تهذيب:

معاكِ حق.

استمرت في تعنيفه بتحيز:

-بتصل قبل الفجر، وأنا بصحى من بدري، ما ينفعش أفضل سهرانة كل ده!

تغاضى عن كل ما قالته أمام جملتها الأخيرة، وكأنه منحته شعورًا عظيمًا بالرضا، ابتسم ببلاهة وهو يسألها:

هو إنتي كنتي مستنياني؟

تداركت زلة لسانها، وتصنعت العبوس وهي ترد:

-وان يكن، ده مش موضوعنا.

اعتذر منها بتهيدة عاشقة:

-حقك عليا، غصب عني والله، كان عندنا توريد في الميناء، وكان لازمًا نخلصه قبل ما المركب تطلع، أنا مايهونش عليا زعلك.

ترفعت عن النظر إليه، وقالت موجزة:

-ماشي.

اقتضاب ردودها خير دليل على انزعاجها، لم يكن ليتركها تحمل ضغينة ناحيته، خاصة بعد أن تطورت العلاقة بينهما بشكلٍ إيجابي وفعال. استمر في اعتذاره قائلاً:

-خلاص بقى ماتشليش مني، ده شغل، والله ما كنت بلعب.

هزت كتفها قائلة بقليلٍ من التجهم:
عادي.

ألح عليها قائلاً وهو يسبل عينيه:
طب عشان خاطري.

نظرت إليه بعينين ضيقتين، فتابع ضغطه الرقيق للقبول باعتذاره في التقصير معها:

طب عشان خاطر جدي؟

زمت شفيتها للحظة، وقالت بابتسامة مغرية:
عشانه بس.

تصنع الغيرة، وهتف بتذمر:

وربنا هو محظوظ بيكي أكثر مني.

كبت ضحكة شقية أرادت الظهور، ورسمت الجدية على ملامحها وهي تخبره في لهجة حازمة:

طب يالا عشان تفرق المغات على الناس.

استمر في مشاكستها فأردف قائلاً بكلماتٍ موحية:

-ممكن تحوشيلي كيس فول، أصل غاوي سوداني، وخصوصًا لما يكون من إيديكي.

هزت رأسها نافية، وأغاظته عن عمد بتصريحها:

-لا، هدي نصيبك لجدي.

ضحك من خلفها، وقال وهو يتخذ حذره في خطواته الأخيرة من الدرج:

-مش بقولك محظوظ، ربنا يزيد.

.....

بعيدًا عن الحشد المجمع، وقفت "هاجر" بجانب زوجها تتابع مكالمته الهاتفية مع أحد الأشخاص، ظلت صامته إلى أن أنهى الاتصال، فراح يخبرها بفحوى المكالمات، لما لها من صلة باتباع الناقص من لوازم تضييب منزل الزوجية. كررت عليه سؤالها بحاجين معقودين؛ كأنما تشكك في احتمالية حدوث ذلك:

-إنت متأكد إن المنجد هايحب المراتب القطن بكرة؟ ولا هيغير كلامه زي المرة اللي فاتت؟

أجابها بإيماء مؤكدة من رأسه:

-أيوه، لسه قافل معاه، وهاروح الشقة استناه قبل الميعاد.

مطت شفيتها للحظة قبل أن تعقب في غير اقتناع:
خير إن شاء الله.

قبل أن ينتقلا للحديث عن أمرٍ آخر، قاطع حوارهما ذلك الغريب ذي
الملامح المكفهرة، استطرد الأخير هاتفاً بوجه منقلب:
سلام عليكم.

تفرس "سراج" في تعابيره، ورد التحية في تحفز:
وعليكم السلام.

بينما رمقته "هاجر" بنظرة شملته من رأسه لأخص قدميه، انتابها هاجس
غريزي بأن وراء ذلك الرجل المتجهم خطبٌ ما، تركت لزوجها مهمة
التواصل معه، واستمعت للرجل وهو يتساءل مستفهماً:

-بقولك يا أخ، هو فين الأستاذ "خليل العربي"؟

تحولت أنظار "سراج" ناحية إحدى الزوايا، وأشار بيده كذلك وهو
يجابوه:

هناك، اللي قاعد على الكرسي ده.

أمعن الغريب النظر إليه وقد اشرأب بعنقه، ما إن تأكد من ملامحه حتى
قال بغير ابتسام:

-تمام، شوفته، متشكر.

رد عليه "سراج" في اقتضابٍ لا يخلو من حيرة:

-العفو.

شيخته "هاجر" بنظراتٍ متفرسة متحيرة، وتساءلت بعد انصرافه:

-مين ده؟

أجاب زوجها بنوعٍ من التخمين:

-مش عارف، بس جاز يكون حد قريبه.

لم تقف كثيرًا عند تلك المسألة، وقالت وهي تنقل رضيعها من كتفها الأيمن
للأيسر:

-احتمال.

مد ذراعيه ليحمله عنها قائلاً بجنو أبوي:

-هاتيه، إتي شلتيه كثير.

لم تجادله، وأعطته له قائلة بتبرم:

-مش مريح نفسه.

احتضن "سراج" الرضيع، وأخذ يداعبه بإصبعه، والصغير يستجيب
لملاطفاته بغممة غير مفهومة، تطلع بعدها إلى زوجته وهو يقول في فرحة:
سبيه براحته، ربنا يباركلنا فيه.

.....

اخترق الغريب الصفوف المتراسة بعشوائية، وتركيزه بالكامل منصب على
"خليل"، لم يجد بنظراته النارية عنه، بدا وكأنه يحمل في صدره ناحيته كرهاً
كبيراً، تعايره عبرت عن القليل من هذا البغض. وقف أمامه بشحمه ولحمه،
وشرع يحدجه بنظرات قاسية شرسة، في البداية لم يكن "خليل" منتبهاً
له؛ لكن حين حط ذلك الظل الطويل على رأسه، أدار وجهه إليه ليتطلع
في صدمة إلى آخر من توقع رؤيته بعد كل تلك الأشهر. هتف الأول قائلاً
بنبرة مالت للتهكم عن التوضيح:

-أبو نسب!

برزت اللعثة أكثر في صوت "خليل" وهو يردد مذهولاً:

-..حُسنِي؟!!

هدر الرجل بنبرة أقرب للصياح مستخدماً كفيه في التلويح:

إيه يا عم، خلاص مصدقت سوحنتي برا، عشان تطنشنني وتقطع
الجوابات، إيش حال ما أنا أخو مراتك اللي اتخدت غدر ..

جف حلق "خليل"، وظل يُطالعه بنفس النظرات المصدومة؛ كأنما حلت
مصيبة قاسمة للأظهر على رأسه بظهوره علنا أمام عائلته التي تجهله كليًا ..
انقبض قلبه بتوجس شديد، وشحب لون وجهه المنهك و"حُسنِي" يسأله
بصوتٍ مليء بالانتهام:

فين حق أختي "سماح"؟!
.....

الفصل المائة وتسعة وخمسون

بحركة شبه فاقدة للتركيز، حاولت غلق أزرار كنزتها، بعد أن انتهت من إرضاع وليدها الذي بدا هشًا للغاية وهي تحمله بذراعيها. ضمته "همسة" بالذراع الآخر إلى صدرها، ثم رفعته بحذرٍ على كتفها، وأخذت تربت على ظهره برفقٍ حتى يتجشأ، وتفرغ ما امتلأت به معدته من الهواء. اتجهت عيناها نحو الباب حين سمعت الطرقات عليه، وهتفت في نبرة لم تكن عالية نسبيًا:

-أفضل.

أطل زوجها برأسه بعد أن فتحه، فابتسمت لرؤيته، ولج إلى الداخل، وأغلق الباب من خلفه، ليسألها في اهتمام:

-رضعته يا حبيبتي؟

أومأت برأسها وهي ترد، ويدها ما تزال تمسح على صدر الرضيع:

-أيوه يا "هيثم".

ثم ما لبث أن ابتسمت وهي تكمل:

-السُرة الحمد لله وقعت.

قال في رضا وهو يجلس على طرف الفراش إلى جوارها:

حُب خير، ربنا يباركلنا فيه.

ردت بعد تهيدة بطيئة:

يا رب.

راحت تداعب الرضيع في حنوٍ للحظاتٍ، حتى استكان، وغفا على كتفها،

أخفضته بين ذراعيها، وتطلعت إلى زوجها الذي كان مأخوذاً به، ظهر

التردد على محياها وهي تخاطبه:

-بقولك آ..

انتبه لها متسائلاً:

إيه يا "هموس"؟

لعت شفتيها، وتابعت بنفس النبرة المفعمة بالارتباك والندم:

تفتكر "فيروزة" هتزعل مني، لو عرفت إني اللي أصريت على اختيار اسم

ابننا مش إنت؟!!!

بدا غير مهتم بمسألة علمها من عدمه، وقال في جدية:
-مش لازم نقولها كل حاجة، ده شيء يخصنا احنا وبس، كفاية إنها تفرح
لابننا، وتتمناه الخير، مش عايزين منها أكثر من كده.
اعترفت له بما يضيق في صدرها:

-أنا مش متعودة أبقى كده، حاسة نفسي وحشة أوي وأنا بنجي عليها.
كان "هيثم" هادئ الملامح وهو يخبرها بوجهة نظره المنطقية:
يا "همسة" لازم تفهمي إن احنا دلوقتي بقالنا حياتنا الخاصة، ماينفعش
نحشر فيها حد لمجرد إننا عاوزين نرضيه، ولا يحس إنه مهم عندنا، ده اتفاق
بيني وبينك، اتناقشنا، وقررنا، وخلاص ..

نظرت إليه بغير كلام، فأكمل على نفس الشاكلة:
-وبعدين في الأول ولا في الآخر ده ابني، وهيشيل اسمي، ولو مكانش
عاجبني مكوتش وافقتك عليه.

ردت بنبرة مالت للحزن، وقد نكست رأسها للأسفل قليلاً:
-أكيد والله كل نيتي خير، يعني اعتبرته زي تكريم لأختك الله يرحمها.
هتف في غير مبالاة وهو يد يده نحو ذقنها ليرفع وجهها إليه:
-مش الكل عرف إن ده اختياري، ماتشليش هم بقي.

شعرت بالرضا عن التوافق الحادث بينهما في كل أمر يخوضاه معًا،
وابتسمت قائلة في ارتياح:

-ربنا يخليك ليا.

نهض من مكانه على مهلٍ وهو يكرر عليها مجددًا:

-سيدك من الكلام ده، ماتوجعش دماغك بيه.

هزت رأسها بالإيجاب قائلة:

طيب.

أشار بيده نحو الباب متابعًا:

-المفروض تنزل نشوف الناس اللي مستنييننا تحت.

ضبطت "همسة" من ثيابها المتهدلة قليلاً وهي تقول:

-أنا خلصت خلاص، هبص على نفسي في المراية بصة أخيرة وخلاص.

أحنى جسده عليها ليحمل رضيعه عنها وهو يداعبه في محبة أبوية تزداد يومًا

بعد يوم:

تعالى يا حبيبي في حضن أبوك

.....

بدا وكأن ماضيه التعس يطارده بعد أن ظن أن السكينة قد حلت عليه، استمر "خليل" في التحديق لوجه صهره بنظراتٍ جمعت بين الخوف من الفضيحة، والرغبة من كشف ما كان يرتكبه خلصة لكسب أموالٍ غير شرعية. شحّب لون بشرته أكثر مع استمراره في تهديده الضمني:

خلاص "حُسنِي" رجلك، ومش هاسيب حقّه، أنا ماتكلش أونطة! ازدرد ريقه، وحاول الكلام؛ لكن "حُسنِي" واصل على نفس المنوال الغاضب:

-وبقولها لك من ثاني، أنا يا فيها لا أخفيها.

تلثم وهو يجاهد لصد تهديداته:

أنا.. .. مكون..تش آ...

سَم صهره من لجلجته المستفزة، وهدر به بوقاحة فجّة:

متعمليش فيها بتموت، والروح بتطلع، وإنّ جن مصور!

صوته المرتفع جذب الأنظار إليهما، واستمرار "حُسنِي" على نفس الوتيرة الحاققة جعل الفضول يشيع بين المتواجدين لمعرفة تفاصيل الخلاف العميق بينهما. بمجرد أن لاحظ "تميم" توتر الأجواء، ترك ما في يده، ودنا من هذا الغريب يسأله في لهجةٍ غير متساهلة:

إنت مين يا جدع إنت؟

رمقه بنظرة احتقارية، ونعته بما بدا أقرب للسُّبة:

طرأنا، ما يخصكش.

ما أسهل استثارة أعصابه بتلك الطريقة! اخشوشنت نبرة "تميم" وهو يرد
بغضبٍ متصاعد في صدره، ويده تسبقه في جذبته من ياقته:
ما تتكلم بأدب.

ضرب "حُسنِي" ذراعه ليتحرر من قبضته وهو يهتف في حقده:
إيدك يا شبح!

جاءت "فيروزة" هي الأخرى على إثر الأصوات المحتدمة، وتساءلت في
قلقي، ونظراتها تجول على كافة الوجوه المشحونة بالحنق والغضب:
في إيه يا جماعة؟

لم يجذب "حُسنِي" تدخل الآخرين في شئونه، فخدجها بنظرة ازدرائية قبل
أن يزجرها قائلاً وهو يشير بكفه نحو "خليل":

محدثش ليه فيه، احنا نسايب في قلب، وبنصفي الحساب اللي بينا.

رددت في ذهولٍ لا يخلو من الصدمة:

-نسايب!!

استغرقها الأمر بضعة لحظات لتجد الصلة التي تجمع بين الاثنين، حملت فيه بنظرات قوية، بينما تلفت "حُسنِي" حوله كأنما يفتش عن أحدهم قبل أن يتساءل بصوتٍ جعله أجشًا:

-وفين البت "رقية"؟

ثم نادى عاليًا ليزيد من جذب الانتباه إليه وهو يتجول في الأرجاء:

-بت يا "رقية"، إتي فين يا بت؟ تعالي لخالك!

أتت الصغيرة على صوته المألوف بعد تكرار ندائه، وفزعت عند رؤيته، تجمدت لوهلة في مكانها، مستعدة في ذهنها تقريعه البدني المؤذي لها حينما كانت تخطئ في أمر بسيط، التصقت لا إراديًا بساق ابنة عمها، وشفتاها تتحركان لتنطق برعشة ظاهرة عليها:

-خالو.

وقعت أنظاره عليها، فأشار لها بيده لتتقرب منه وهو يأمرها:

-تعالي يا بت.

أخفت وجهها عنه، وتشبثت بساق "فيروزة"، فلفت كلتا ذراعيها حولها، كأنما تستنجد بها دون أن تنطق. اغتاض خالها من عدم تجاوبها مع أمره، وهمَّ

بالانقضاض عليها لجذبها عنوة؛ لكن اعترض "تميم" طريقه بجسده ليقضي-
على أي فرصة للاقترب من إحداها، وهدر بها في تشنج:
مكانك، هي سايبة؟!

نظر له شرّاً قبل أن يعلق في لهجةٍ متهمّة تدعو لشحد قوى الغضب
ضده:

قول للقطّة دي تركز على جنب، وتسبب البت، بدل ما تجيب لنفسها
التهزيق!

لم يتحمل "تميم" سماع مثل تلك الإهانات اللاذعة الموجهة لنصفه الآخر، لم
يشعر بنفسه وهو يندفع لا إرادياً نحوه لينقض عليه، جاذباً إياه بقبضتيه من
ياقته في قساوة متضاعفة وهو يهتف به بعنف:

إنت اتجننت؟

حذق فيه "حُسنِي" مشدوهاً من حركته المباغتة، بينما تابع "تميم" تهديده
الصارخ له وهو مستمرّ في جذبه من عنقه:
إياك تغلط فيها لشقك.

خشيت "فيروزة" من تصاعد الأمور، وتطورها للأسوأ، فاندفعت تناديه
في خوفٍ غير مصطنع:

- "تميم"!

رغم الخفقة التي عصفت بقلبه لسماعه اسمه مجردًا من على شفيتها، إلا أنه ظل ثابتًا على وضعه العنيف المهدد بإحراق الأرض ومن عليها، تابع دفعه بعيدًا عن الأعين المراقبة لهذا الشجار الوشيك، حتى وصل به إلى بقعة غير مزدحمة، وتبعتهما "فيروزة"، والصغيرة، وأبيها؛ لكنها توقفت عند مسافة آمنة، لتتأى بآمنة خالها من أي خطرٍ في حال تعقد الأمور.

.....

رأت "آمنة" ما يحدث من على بعدٍ، وقلها يدق في توجيس، حاولت إلهاء الموجودين عن الشغب الدائر في محيط باحة المنزل، وطلبت من مشغل الموسيقى رفع الصوت للتغطية على بواذر الشجار الملحوظ، وما إن تأكدت من ابتعاد "تميم" ومن معه عن أعين الضيوف حتى هرولت في اتجاهه، وهي تتسائل بجزع، وعيناها مسطّتان على الغريب:

صلوا على النبي يا جماعة، في إيه بس؟

كأنه لم يسمع شيئًا منها، ظلت يدها قابضتان على "حُسنِي" وهو يحذره بلهجة غير متسامحة:

- كلامك معايا أنا، ولم لسانك بدل ما أطربأها على دماغك.

رد الأخير هازنًا منه:

-لا كده خوفت.

أطبق "تميم" بقبضته على ياقته أكثر، واستخدم ساعده في وضعه على عنق ذلك المستفز، قاصداً الضغط على مجرى تنفسه وهو يهدده من بين أسنانه:

-إنت عاوز تعمل نمره على الكل؟ هات آخر الحوار.

جاوبه دون مراوغة بنبرة غير مريجة، وهو ينظر في اتجاه الصغيرة:

عاوز بنت أختي.

هنا تضاعفت رجفة "رقية"، وبدأت في البكاء خوفاً منه وهي تتوسلها:

مش عاوزة أروح معاه.

ارتابت "فيروزة" من رهبتها منه، وامتلاً رأسها بالشكوك والهواجس، ومع هذا طمأنتها بقولها:

-متخافيش يا حبيبتي، إتي هتفضلي معايا

أتاه تعليق "تميم" حاسماً للأمر، وقد أخفض ذراعه الآخر نحو ياقته ليمسك به جيداً؛ لئلا يفلت منه:

-مافيش بنات، جس أبوها في الدنيا.

قال في سخرية فجأة، ونظراته تتحول ناحية "خليل":

-أبوها، الوقيع ده؟

هزه "تميم" في عنف وهو يخبره بنفس اللهجة المليئة بالتهديد:

-الوقيع ده أنا ممكن أجيبك تحت رجله في ثانية، تستسمحه يرحمك من اللي هيتعمل فيك مني.

حاول "حُسنِي" الضحك للاستخفاف به؛ لكن خرجت ضحكاته متقطعة، ثم استطرد قائلاً بعدها بطريقة المتهمكة:

-إيه يا عم الشبحة دي كلها؟ ماتخشش بصدرك أوي كده.

لم يعد بمقدوره ضبط أعصابه أكثر من ذلك أمام استفزازه الناري الحاقد، لذا مد "تميم" قدمه ليعرقله من ساقه، ثم طرحه أرضاً على ظهره، وكور قبضته استعداداً للكمة بشراسة .. أوشك بالفعل على تلقينه درساً قاسياً، لولا أن جاء والده، وتدخل في اللحظة الأخيرة ليأمره بلهجة لا تُرد:

- "تميم"، لم الليلة، مش وقته!

اعترض عليه وهو لا يزال جاثياً فوقه:

يا حاج ده جاي يقل من الموجودين، مش عامل اعتبار لحد.

أتاه رده حازماً وحاسماً:

-حاسبه بعدين، مش قصاد الغُرب.

لم يرد أمره، ونهض عنه قائلاً في طاعة:

-ماشي الكلام يا بابا.

لكنه لم يترك هذا المقيت في مكانه، بل جذبه بغيظٍ من رقدته المهيئة، ثم دفعه دفعا نحو الخارج ليطرده وهو يقول في نبرة حمئة:

-يالاً من هنا.

نقض "حُسنِي" ذراعاه عنه، وهتف به في غلٍ:

-ما تزوءش!

هدده "تميم" مجدداً وهو مستمّر في إبعاده عن المكان:

-أخرج بأدبك بدل ما أسحلك.

رفع الأخير سبابته مهدداً بغير خوف:

-ماشي، أنا طالع المرادي يا فتوة المنطقة، بس حقي مش هاسييه، وهاخده بالقانون.

بقيت أنظار "تميم" عليه وهو يدمدم بكلماته الغاضبة المتوقعة أثناء خروجه من باحة البيت، ظل واقفاً في مكانه حتى تأكد من ذهابه نهائياً، حينئذ استدار عائداً إلى حيث تقف "فيروزة" مع أبيه، وخالها، والصغيرة "رقية"،

وأيضًا والدتها. سمع الأخيرة تردد بما يشبه الولولة وهي تلطم على صدغها برفق:

يادي الفضائح، احنا كنا ناقصين، الناس هتقول إيه دلوقتي؟

رد عليها "بدير" بصوت هادئ:

محصلش حاجة، اهدي يا حاجة.

وجهت "آمنة" كلامها إلى شقيقها تسأله بنبرة لائمة:

مين ده يا "خليل"؟

نظر إليها نظرة العاجز الخائف من افتضاح أمره، لم تملك من الصبر أدنى ذرة، لهذا كررت سؤالها عليه بإلحاح حائق:

إنت ما بتردش ليه؟ ده مين؟

أحس بالوهن يسري في جسده، فلم يعد قادرًا على تحريك مقعده، دارت عيناه اللاتين غلفهما سحابة من الضباب على من حوله متسائلًا في ضعف:

فمين "رقية"؟

أظهرتها "فيروزة" له بعد أن كانت تختبئ خلفها وهي تخبره:

معايا يا خالي.

أشار ناحيتها قائلاً بصوتٍ مختنق:
هايتها.

اندهشت "فيروزه" من الحالة الغريبة التي سادت على ملامحه، وانعكست على أطرافه، تركت الصغيرة تركض ناحيته، لتجلس في حجره، فضمها إليه بكل قوته؛ كأنما يخشى فقدانها، شنت نظراتها الحائرة عنها لتتطلع إلى والدتها التي استمرت في نواحها:

-شايقة العكنة؟

أطلقت زفرة سريعة، وقالت بوجوم:

خلاص يا ماما، محصلش حاجة.

ظلت تشكو في تحسر:

-الناس تقول علينا إيه دلوقتي؟ الموضوع مش هيعدي كده على خير من غير ما الناس تتكلم.

تلقائياً تحركت أنظار "فيروزه" مع "تميم" الذي انفرد بوالده بعيداً عنهم، ثم انتبهت لوالدتها، وعلقت بجديّة:

-وارد يحصل في أي بيت مشاكل، ده العادي، محدش ضامن الظروف.

في تلك اللحظة انضمت "همسة" إليهما، والفضول مستبذّ بها، دارت بعينها
في الأرجاء وهي تتساءل

-في إيه يا جماعة؟ الجو مكهرب ليه؟

ردت عليه "فيروزة" باقتضابٍ عابس:

-بعدين يا "همسة".

لم تجادلها توأمتها كثيرًا، وانسحبت في خفةٍ لتعود إلى زوجها ورضيعها، بينما
انشغلت "فيروزة" بالنظر إلى "تميم"، أصبحت لا ترى سواه في تلك
اللحظة، ثبتت نظراتها عليه، وراحت تفكر فيه بشكلٍ كبير، تبدلت الكثير
من الأمور عنه، بعد أن شاهدت بأم عينها استبساله في الزود عن
الضعيف باستماتة، لامت نفسها لأنها كانت تظن في وقت من الأوقات أنه
يفعل ذلك لاسترضائها، واستثارة إعجابها؛ لكن على العكس كان مقدمًا مع
من يحتاج إلى دعمه بلا شروط .. وقتئذ أدركت أنها كانت حمقاء لعدم
اكتشافها مبكرًا هذا الجانب الرجولي الشهم منه، امتلأت نظراتها نحوه
بالاعتزاز والزهو، وأخذت تخاطب نفسها في عتابٍ تشوبه ابتسامة صغيرة
ساخرة:

ليه حق يضايق مني عشان غباوتي !!

.....

الفصل المائة وستون

بين طرفة عينٍ وانتباهتها كان قد اختفى عن أنظارها كالسراب، أقل من دقيقة التفت فيها عن التطلع إليه لتخاطب توأمتها التي استبد بها فضولها لتستعلم عن سبب بؤادر الشجار المريب، التفتت بعدها لتنظر إلى رمز المروءة فلم تجده، أصابتها تعاسة غريبة، وشعرت بانقباضة مزعجة تعصف بقلبها. تحركت "فيروزة" من مكانها ودارت حول باحة المنزل الخلفية لتفتش عنه بين المتواجدين؛ لكنه كان غير موجودٍ، حاولت البحث عنه وسط عائلته، فلم تجد سوى والدته وشقيقته وزوجها، أما هو وأبيه وجده فلم يكونوا حاضرين.

نالت منها الحيرة، وتوقفت في مكانها، والضيق يكسو وجهها، كتفت ذراعها أمام صدرها، ورددت مع نفسها في استياء متعظم:

للدرجادي ماليش اعتبار عندك؟ تمشي من غير ما تقولي إنك ماشي!

دنت منها "آمنة" تناديهما، فلم تنتبه لها، كررت عليها النداء بتذمر:

مش سمعاني يا "فيروزة"؟ عمالة أنادي عليك من بدري.

استدارت ناحيتها لترد بعصبية ملحوظة عليها:

-أيوه يا ماما، في إيه؟

أشارت لها بيدها نحو بعض الجالسين عند الأركان وهي تأمرها بنوع من التوجيه:

-شوفي مين ماخدش أكياس الفول وفرقي عليه، خرينا نلهي الناس في الأكل، بدل ما يركزوا في البهدة اللي حصلت من شوية.

قطبت جبينها مغممة في خفوت بأس من محدودية تفكيرها الحالي:

-ده اللي همك.

لم تفهم والدتها ما الذي تقوله، فتساءلت، وعيناها تتجولان على الضيوف:

-بتقولي إيه؟

هتفت في غير صبر:

-حاضر يا ماما، حاضر.

ثم غادرت بعدها في خطوات عصبية لتنفذ طلبها، و"آمنة" من ورائها
تتطلع إليها بدهشة وهي تتساءل:

-مالها دي كمان؟!

انقضى ما تبقى من اليوم على خير بالنسبة للجميع فيما عدا هو، كان وحده
مثقلًا بالهموم والضيق. انزوى "خليل" بغرفته، مصطحبًا معه طفله
الصغيرة، أصر على مبيتها معه بالرغم من اعتياد الأخيرة على النوم مع عمها
أو ابنتها. بقي مأكثًا على مقعده المدولب، شاعرًا بعدم قدرته على السير أو
تحريك أي طرف من جسده كما كان يفعل قبل سابق؛ وكأن العجز قد
تمكن من أوصاله. تأملها بنظرات حزينة لا تعكس معها سوى الخوف،
تساءل صوت ما في عقله:

-هتعمل إيه يا "خليل"؟ "حُسنِي" مش هيسكت، ده جاي وناوي على
الشر.

عاد بذاكرته إلى الوراء، حيث كان يمتن وظيفة تسفير الشباب إلى الخارج،
عن طريق اللعب بأحلامهم، وإيقاعهم في فخ الثراء السريع بمجرد أن يطأوا

البلدان العربية المتخمة بالثروات التي لا تعد ولا تحصى، آنذاك رأى "سماح" مع شقيقتها "حُسنِي"، شريكه في تصدير الوهم. لفتت أنظاره، وانشغل عقله بها، قاوم التفكير فيها؛ لكنها سلبت لبه، وازدادت الرغبة بداخله في الزواج بها، بالطبع لصغر سنها، ولقدرتها على تعويضه عما يفتقده في علاقته مع زوجته "حمديّة".

بالنسبة له بدت صفقة مناسبة أن يتزوجها في مقابل منح شقيقتها فرصة وهمية للسفر إلى الخارج، معتقداً أن حيله والأعيبه ستنتظلي عليه مثل الآخرين؛ لكن الأخير كان أكثر ذكاءً عن البقية لم يرتض بالأمر، وقيده بشروط مادية أثقلت كاهليه ليوافق على تزويجها له، واضطر أن يرضخ لطلباته للظفر بحياة هائلة مع فتاة لطيفة تُجيد دب مباح الحياة في روحه التعسة. سارت الأمور على ما يرام لبعض الوقت، وبدأ يدفع له بانتظام كلما سنحت له الفرصة لتسفير أحدهم للخارج؛ لكن مع التدقيق الأمني، والحملات المكثفة للقبض على وكلاء مكاتب السفر الوهمية، أنهى "خليل" عمله في هذه المهنة الخطيرة، واقتصر على بعض المعاملات الحسابية غير المضرة للحصول على مالٍ إضافي، وحين فقد "حُسنِي" عمله الآخر، بات مزعجاً له، يُطالبه إما بسداد باقي المستحقات التي لم تُدفع بعد، أو بفضح أمره بين أفراد عائلته، خاصة أن يملك من الأوراق القانونية ما يُدينه بشدة.

حيثنذ ظهر "آسر" على الساحة، وكان كطوق النجاة له، وسيلته الفعالة للخروج من المأزق الذي وقع فيه، فاستغل معارفه، وصلاته الجيدة في الحصول على تأشيرة للسفر لأحدهم، وأعطاهها له مقابل تزويج "فيروزة" به، لم يمانع "خليل" مطلقًا التضحية بغيره للنجاة ببدنه، اعتبر أنها صفقة رابحة للجميع .. وبالفعل حصل على أوراق السفر، وسام "حُسنِي" على أن يعطيه باقي الإيصالات وما يُدينه في مقابل منحه تأشيرة السفر المضمونة لإحدى الدول العربية.

ولمعاشرة "حُسنِي" الجيدة لـ "خليل"، شعر أن بالأمر خدعة ما، لهذا وافق على إعطائه نصف الأوراق والإيصالات، وتأجيل البقية لحين استقراره في العمل؛ لكن ما لم يعلمه كلاهما أن التأشيرة لا تضمن فرصة الحصول على عملٍ جيد، مجرد وسيلة مضمونة لدخول البلاد، فاعتقد "خليل" بمغادرة صهره أن الكابوس قد انتهى، هو لن يعود مطلقًا، سيتدبر أمره، ويعمل بأي مهنة كبديلٍ عن العودة فارغ اليدين.

لكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، وحدث ما لم يكن في الحسبان، عاد شريكه في بيع الوهم، وبعد مجيئه، لن تكون الأمور كسابق عهدها! حتمًا سيطلب بالدين، ويهدده بفضح أمره أمام الغرباء قبل الأقرباء إن لم يدفع ما يخرسه للأبد.

أفاق من شروده على نفس الصوت النادم المردد في رأسه:
هتصرف إزاي؟ بعد ما خلاص بقيت في عيون اللي حواليا مجني عليه
ومظلوم، هابقي جاني ونصاب.

نظر مطولاً إلى ابنته النائمة، وتهد مضيقاً في توجيس:
ده غير إن بنتك مالهاش سند غيرك.
رفع رأسه للسماء، وأخذ يتضرع في حيرة بصوت غير منطوق:
دبرها من عندك يا رب.

.....

لم تتوقف عن قضم أظافرها وهي تجوب في جوانب غرفتها بعصبية وتوتر،
اختفائه المريب دون وداع يليق بها جعل الغضب يتصاعد بداخلها، لو لم
تكن حاضرة وشاهدة على المشادة العنيفة بينه وبين هذا الغريب لما
تساهلت معه. انتظرت "فيروزه" اتصاله بها ليطمئنها عليه، ولم تحاول
مهاافته كعقابٍ ضمنى له. وقفت أمام نافذتها، تنظر للظلام الحالك بعينين
مشتعلتين، انتفضت في لهفة حين سمعت صوت الرسائل بهاتفها، ليعلن
عن وصول رسالة متأخرة. اتجهت إلى تسريحة المرأة لتلتقط هاتفها، فتحتة،
وقرأت رسالته الموجزة بصوت خافت؛ كأنما يسألها:

صاحبة؟

بأناملٍ عصبية كتبت له الرد وهي تنطق به كذلك:

هيفرق معاك يعني؟ ما إنت خدت في وشك ومشيت، كأنك مصدقت.
انفلتت منها شهقة صغيرة وقد اهتز الهاتف في راحتها ليعلن عن اتصاله بها،
ترددت في الإجابة مباشرة عليه، وتعمدت التلكؤ وهي تحترق لهفةً للرد.
رفعت أنفها في إباءٍ، وضغطت على زر قبول الاتصال قبل أن يتوقف
الرنين، لتهتف بعدها في تجهم:

-أيوه، خير؟

لفظ زفيرًا مهمومًا من صدره قبل أن يقول بهدوء:

-أنا عارف إنك زعلانة مني، بس كان لازم أمشي.

علقت عليه في جدية واضحة:

-وأزعل ليه؟ هو أصلاً زعلي يهملك؟

جاءها رده صادقًا، نابعًا من أعماقه، مما جعل نبضاتها تتسارع:

-كل حاجة فيكي تهمني، ومقدرش أبدًا أزعلك، ده إنتي الغالية عليا.

لانت نبرتها الجافة قليلًا، وسألته في فضولٍ لا يخلو من حيرة:

طب مشيت ليه؟

سكت لحظيًا قبل أن يجاوبها:

-أبويا طلب مني ده، عشان كان عارف إني مش هسكت.

أكملت ما اعتبرته منقوصًا من اعترافه في صيغة تساؤلية:

بسبب قريب خالي؟!!

أكد بعد صمتٍ بسيط:

-أيوه، أنا صعب شوية في عصبيتي مع اللي يمس اللي بحبهم.

التفت سبابتها حول خصلة من شعرها وهي تعقب بإيجاز:

خدت بالي.

أضاف "تميم" أيضًا في نفس النبذة الهادئة:

ده غير إن جدي كمان كان محتاج يرجع البيت.

حررت خصلتها عن سبابتها، وسألته:

هو كويس؟

أجابها في تمهل:

-أه الحمد لله ...

بدأت نبرته تتحول للعبثية حين أتم جملته:

-مش هتسألني عني طيب أنا عامل إيه؟

تلونت بشرتها بحمرة طفيفة، ورواغته الرد بآخر مبطن:

-مش لما تسأل إنت الأول.

أطلق ضحكة قصيرة، ليقول بعدها بلطف:

-صح، أخبارك إيه يا أبله؟

تنحنحت قبل أن تجيبه في جدية مصطنعة:

-الحمد لله يا معلم.

عابها عن قصدٍ، ليزيد من ريكتها، ومن الحمرة الساخنة المتدفقة إلى خديها:

-مافيش "تميم" كده حاف من غير معلم، ولا الحاجات الحلوة مش بتطلع

غير في الخناقات؟!

حمدت المولى أن اتصالحها كان صوتيًا فقط، وإلا لرأى بأم عينه تأثير كلماته

العذبة عليها، عضت "فيروزه" على شفتها السفلى لثانية، وتلعثمت في نعومة

وهي تبرر قائلة:

ما أنا خوفت بصراحة عليك تعمل حاجة كده ولا كده، والبني آدم ده

مستفز، وناوي على شر.

أطربه ردها، وجعله في حالة انتشاء ونشوة، لذا هتف متسائلاً في لهفة
محسوسة في صوته:

بجد خوفتي عليا؟

أمام شوقه الظاهر ارتبكت أكثر، وبدا التردد واضحاً عليها، ألح عليها بصوته
الهادئ؛ كأنما يرجوها:

ما تبقيش بخيلة عليا كده، أكسبي فيا ثواب.

أطبقت على شفتيها مانعة نفسها من التفوه بكلمة؛ لكن سرعان ما تخلت
عن عزوفها المتردد لتعترف له وهي تخبئ عينيها بيدها الأخرى؛ كأنما تخشى-
أن يرى خجلها اللذيد:

أه خوفت ..

هنا صاح مهلاً، كمن حاز على نصرٍ عظيم:

يا فرج الله! أيوه بقى، مرة من نفسي.

قهقهت ضاحكة من أسلوبه المرح، وحاولت المناس من رومانسيته المغرية
بقولها:

حطب يالا عشان عاوزة أنام.

ردد مستنكراً:

-إيه ده، الوقت الحلو بيخلص بسرعة ولا إيه؟!

مازحته وهي تضحك:

-إنت اللي جاي في الوقت الضايع.

علق عليها مؤكّدًا بما بدا تحدّيًا لها:

-خلاص هعمل حساي المرة الجاية اتصل من بدري، وأخذ وقتي كله من أوله.

لوت ثغرها في غرور، وقالت معلنة قبولها عرضه:

-أما أشوف.

ودعها بقليلٍ من الغزل اللطيف:

ماشى يا ست البنات، مساءك قمر.. زيك.

لم تختفِ الابتسامة السعيدة من على وجهها وهي ترد:

-تصبح على خير.

سمعت تهيدته قبل أن يقول:

-وانتي من أهله.

لم تضغط "فيروزة" على زر إنهاء الاتصال، ونفضت يدها شعرها في الهواء، قبل أن تستقيم واقفة وهي تغمغم:

ناس ماتجيش إلا بالعين الحمراء.

قفزت في مكانها مصدومة حينما سمعت تعليقه:

-أنا مقفلتش الخط على فكرة، بس أي حاجة منك راضي بيها.

ارتعشت في حرج شديد، ورددت بركة كبيرة:

-إنت لسه موجود، س... سلام.

عندئذ تأكدت من الضغط على زر الإنهاء وهي تنظر إلى شاشته بعينين

متسعيتين في ذهول حرج، تركت الهاتف على الفراش، ودفنت وجهها بين

راحتها هاتفة في خجل، وهي تشعر بالسخونة المنطلقة من كامل بشرتها:

-ياي على الكسفة!

.....

جاء في موعدٍ كان متأكدًا فيه من عدم تواجدها بالمنزل، ليلتقي بخالها الذي

طلب مقابلته في التو، استقبلته "آمنة" بترحابٍ كعهدها به كلما أتى إلى

المنزل، أغلقت الباب من ورائه، وأشارت له بيدها ليتوجه نحو الردهة

الواصلة بين غرف البيت وهي تخاطبه:

-اتفضل يا ابني، "خليل" مستنيك جوا في الأوضة.
قال في ابتسامة صغيرة:
-شكرا يا حماتي.
سألته وهي تسير خلفه:
-تحب تشرب إيه؟
توقف عن المشي ليقول معذرا بلباقة:
-مالوش لزوم.
أصرت عليه في ألفة ومحبة:
-ودي تيجي، مايصحش والله، ده بيتك.
أخبرها بعد لحظة من التفكير:
-خلاص، إن كان ولا بد يبقى شوية شاي.
هزت رأسها قائلة:
-حاضر، من عينيا.
أشارت من جديد نحو غرفة "خليل" ليكمل سيره نحو بابها وهو يشكرها:
-تسلميلي يا رب.

لم يكن الباب مغلقًا بشكلٍ كامل، كان مواربًا بعض الشيء، ومع هذا طرق
"تميم" عليه مستأذنًا بالدخول:

-السلام عليكم، موجود يا عم "خليل"؟

أتاه رده عاليًا:

-وعليكم السلام.. لام، اتفضل.

دفع الباب بيده، وجال بنظرة سريعة على الحجرة ليحدد مكان مُضيفه،
وجد الصغيرة "رقية" تركض ناحيته لترحب به في سعادة كبيرة:

-عمو "تميم"!

استقبلها في أحضانه، وربت على ظهرها برفق وهو يسألها:

إزيك يا حلوة؟

ابتعدت عنه، لترفع عينيها إليه وهي تجيبه بتعابيرها البشوشة:

-كويسة.

هتف "خليل" بلهجة شبه آمرة:

-نروح نـ..لعب برا شوية يا "كوكي"؟

أدارت رأسها بتلقائية نحو أبيها، وقالت في طاعة:

حاضر.

لكن قبل أن تنصرف خاطبت "تميم" في براءة:

حائزة أطير معاك الطيارة ثاني.

هز رأسه بالإيجاب وهو يؤكد لها:

حاضر، طلباتك أوامر يا حلوة.

ودعته بتحريك كفها في الهواء، وغادرت الغرفة لتترك الاثنان بمفردهما،

طلب "خليل" من ضيفه في حرج طفيف:

-ممكن تـرد الباب؟

أوما برأسه موافقاً، وأغلق الباب قبل أن يتجه إلى المقعد الآخر الشاغر

بالغرفة ويجلس عليه، أمعن النظر في ملامح "خليل" التي اكتسبت طابعاً

جدياً غريباً، ظل يتفرس فيه وهو يستطرد متسائلاً:

-كنت عاوزني في إيه؟

أخفض "خليل" من نبرته قائلاً بجذري واضح:

-هاقولك .. بس توعـ..دني قبلة محدش يـ..عرف حاجة ...

استشعر "تميم" خطورة الأمر، وتضاعف إحساسه مع إكماله لعبارته بما

يشبه التشديد:

-وخصوصًا "ف..فيروزة".

ثبت كامل نظراته عليه، واكتست تعابيرها بالجدية وهو يعلن قبوله بوضع الأمر في طي الکتان:

-ماشي الكلام.

.....

تذكرت أنها تركت ما استلمته من المطبعة في غرفتها، ولم تأت به أثناء ذهابها للعمل اليوم، لهذا غادرت دكانها مبكرًا -في غير مواعدها- لتأتي بالمطبوعات الورقية، لئلا يظل العمل غير متكمل. صعدت "فيروزة" الدرجات في نشاطٍ وهمة، ويدها تعبت داخل حقيبتها لتأتي بمفتاح الشقة، تفاجأت بنزول "تيم" على نفس السلم، تسمرت في مكانها، وطالعه بعدم تصديق، انفرجت شفتها عن صدمة بائنة، لتسأله بعدها بنفس الملامح الذاهلة:

-إنت كنت فوق وأنا معرفش؟

على ما يبدو تفاجأ هو الآخر بتواجدها، فنظر إليها مصدومًا لوهلة، مع طريقة تطلعه إليها سرعان ما استبدت بها الهواجس، وظنت وقوع مكروه ما، فتابعت متسائلة دون أن تمهله الفرصة للرد:

-في حاجة حصلت؟

أجابها نافيا، وقد تقوست شفتاه عن ابتسامه صغيرة:
-لا، كله تمام.

سألته بنبرة مالت للتحقيق:

-أومال كنت بتعمل إيه عندنا؟

غزلها بتجرؤ غير نادم، لعله بهذا يصرف ذهنها عن التفكير في أي شيء قد
يشير الشكوك ناحيته:

-جاي أشوف القمر.

لم تترك لمعسول كلامته التي تطرب آذانها الفرصة لثليها عن معرفة الحقيقة،
ما زالت تستريب من وجوده، تقدمت في خطاها، واقتربت منه متسائلة
بشكل مباشر:

-اتكلم جد، في إيه؟ أنا حاسة إن الزيارة دي مش طبيعية، هو قريب
خالي جه ثاني؟

كانت فطنة الذكاء، لا يسهل خداعها، لذا راوغها في رده:

-وأنا هعرف مينين؟

ضاقَت نظراتها وهي تزيد من ضغطها عليه لتكشف سبب مجيئه المريب:

حطب عيني في عينك كده؟

من الغباء أن يترك فرصته معها تضيع سدى، لهذا استغل "تميم" عرضها
السخي، وأسبل عينيه نحوها قائلاً بابتسامة عذبة:

هو أنا أطول أبص في عينيك الحلوين دول؟!

نجلت من طريقة تحديقه بها، وتجاوزته لتقول في عبوس زائف:

إنت بيع شاطر على فكرة، أنا مش عارف أخذ معاك لا حق ولا باطل.

أدار رأسه ناحيتها ليتبع حركتها، وادعى البراءة قائلاً:

ما هو لو في حاجة أنا هاقول على طول.

اغتاظت من محاولته التذكي عليها، واستفزته بقولها المتعمد:

ماشي، طيب فرصة إنك هنا عشان تاخذ الشبكة بتاعتك.

بقيت ابتسامته مشرقة على وجهه، واعترض في لباقة:

-لا خليها شوية.

زوت ما بين حاجبيها قائلة بعناد:

هترجع في كلامك معايا؟ إنت وعدتني.

صعد إلى البسطة الواقعة عليها، وأكد لها بتعابير مسترخية:

-وأنا عند كلامي، بس تفتكري لو دخلت على أي بعلبة الشبكة هتعمل إيه؟

نظرت إليه نظرة حائرة، فتابع موضحاً:

-أقل حاجة هتقلب الدنيا، ويجي في بالها إننا فركشنا لا سمح الله، وهتعلن عليا، وهتبقى ليلة نكد على الكل.

رفعت حاجبها للأعلى مرددة:

-للدرجادي؟!!!

أوما برأسه قائلاً في لهجة جمعت بين الجد والهزل:

-أه، إتي متعرفيش أي، ربنا ما يجيب لا هم ولا غم علينا.

ضاقت عينيها بشكٍ وهي تعقب عليه:

-ماشي، هصدقك.

من جديد أسبل عينيها اللامعتين ناحيتها متسائلاً برجاء:

-مش ناوية تحني عليا وتقرب البعيد؟

رمقته بنظرة مترفعة قبل أن توجز في ردها:

-بعدين.

رفع كفيه في الهواء قائلاً بنبرة غير ممانعة:
-أنا مستني، طالما في الآخر هنكون سوا.
بدأت في الابتعاد عنه، والاقتراب من باب منزلها وهي تخبره بمأزجة:
-ما احنا مع بعض أهوو.

قال بنبرة ذات مغزى وهو يستند بيده على الدرازين:
-أيوه، بس أنا طمعان تقرب أكثر كمان.
طنين خفقات قلبها المتلاحقة كاد يصم أذنيها، تماكنت نفسها، وادعت عدم
تأثرها، لتقوم بدس المفتاح في قفله بالباب، استدارت ناحيته، وقالت وهي
تدفع الكتلة الخشبية لتتوارى خلفها:
-يبقى ادعي بذمة.

سلط كل نظراته عليها، وهتف يكلمها في لهفة مغلقة بالشوق:
-ده أنا مش هاقوم من على سجادة الصلاة!
لم تخبئ ابتسامتها الناعمة وهي تقول بنبرة موحية:
-هيان.

هلل في صوت غير مرتفع، ويداه مرفوعتان للأعلى كأنما يدعو:

يا مهون يا رب.

ودعته "فيروزه" بنظرة ضاحكة من عينيها، لتظل تلك الذكرى الجميلة حيّة
في ذهنه، طوال الساعات القادمة من يومه المشحون بالكثير من
المستجدات الواجب عليه تنفيذها، للذود عن أقرب الأحياء إليه
!!!

.....

الفصل المائة وواحد وستون

بعصبيةٍ وتشنج، انتقل من درجٍ إلى آخر، ليفتش عن غرضٍ بعينه، دون أن يعبأ بالفوضى التي يُحدثها، حيث تنشطت ذاكرته في الأيام الأخيرة بذكرى قيامه بعمل نسخة احتياطية لمنزل زوج شقيقته، فعندما كان في زيارة عادية لها بيتها، أثناء وجود "خليل" معها، استغل فترة بقاء الأخير بالحمام للاغتسال بعد عودته من العمل، وانشغال "سماح" بإعداد الطعام بالمطبخ، ليتسلل إلى داخل غرفة نومهما، لم ييذل أي عناء في إيجاد غايته، حتى الصغيرة "رقية" لم تكن على قدرٍ من الوعي لتدرك ما الذي يفعله بالداخل، فتابعَت اللعب في غرفتها ببراءةٍ.

ما إن تأكد "حُسنِي" أن الأمور تسير على ما يرام، حتى أخرج قالب من الصلصال كان يحتفظ به في جيب قميصه، آنذاك قام بوضع ذلك المفتاح المميز الخاص بمنزله الآخر على جانبي القلب، فانطبع تصميمه عليه، ثم بنفس الحذر أعاد وضع القلب في جيبه، وأكمل باقي زيارته دون إثارة الشكوك والريبة.

دار في خلدّه أن يُقدّم على تلك الخطوة الخبيثة من غير علمه، إذ ربما احتاج لمساومته في يومٍ ما، إن استمرت أحواله على نفس المنوال البائس دون أي تحسن يُذكر، فتفكيره الجامح أوهّم له أنه يضع الهام من الأوراق، وكذلك النقود، عند زوجته الأولى. وقتئذ اتجه "حُسنِي" إلى أحد معارفه ممن يقومون بصنع نسخ للمفاتيح، وحصل على نسخته، وظل محتفظًا بها لحين الحاجة، ومع تطور الأوضاع وحصوله على عملٍ بالخارج تناسى تلك المسألة، إلى أن خسر ما لم يملك، وعاد كما ذهب خاوي الوفاض.

برقت عينا "حُسنِي" بشدة، والتمعت في انتشاء حين وجد ضالته المنشودة، رفع المفتاح المنسوخ أمام نظراته الطامعة، وراح يردد مع نفسه في نشوة عارمة:

دلوقتي بس هعرف أخذ حقي ...

قست عيناه على الأخير وهو يتم جملة بنبرة لا تبشر بخير أبدًا:

-وبزيادة.

.....

لا تعرف ما الذي دفعها، لإلقاء نظرة على ألبومات الصور الفوتوغرافية القديمة، المحتفظ بها في قاع دولابها، أخرجتهم "ونيسة" بتمهلٍ، وأخذت تنفض الغبار عن الغطاء الخارجي الذي تشقق بفعل عوامل الزمن، ثم راحت تتأمل كل صورة على حدا، كأنما تسترجع شريط ذكرياتها القديم. توقفت أمام صورة قديمة جمعتها بشقيقتها "بثينة"، ازدحمت حدقتها بسحبٍ من الدموع، بدأت في الانسياق في صمتٍ، لتتحول بعد بضعة دقائق لهنهات متألّمة.

رأى "بدير" زوجته على تلك الحالة المهمومة، فجلس إلى جوارها على طرف الفراش، وربت على كتفها بحنوٍ، فاندفعت تبوح له بنوعٍ من الشكوى، وبما يضيق به صدرها:

-أنا مقصرة مع أختي أوي، المفروض أكون جميعها، حتى لو هي مش عاوزاني.

بصوتٍ رزين وهادئٍ علق عليها:

-إنتي بتعملي اللي عليكي، واحنا متابعين مع الدكتور بتاعها، سواء "هيثم" كان على علم بده ولا لا.

كففت بظهر يدها دموعها المناسبة، بينما أكمل "بدير" كلامه الموجه إليها:
-والدكتور آخر مرة بلغنا إن التحسن بطيء، ولسه الزيارة مش مرحب
بيها.

أظهرت اعتراضها على ما أخبرها به بترديدها المنزعج:

-يعني هنسيبها لوحدها كده مقطوعة؟

رد نافيًا دون أن تتبدل نبرته الهادئة:

-لأ طبعًا، بس بنمشي حسب التعليمات.

امتدت يدها لتسحب منديلًا ورقيًا من العلبة الموجودة على الكومود،
نقخت فيه أنفها، ودعت لها بصدق

-ربنا يهونها عليها، ويخفف عنها..

ثم نظرت إلى زوجها، وواصلت الكلام بصوتٍ ما زال منتحبًا:

-الحكاية مش سهلة خالص، مافيش أم تستحمل خسارة ضناها قصاد
عينها، ما بالك كمان بقطع لسانها، لطفك يا رب.

عقب "بدير" في تريث:

مشيئة ربنا، وإرادته.

أضافت "ونيسة" في توترٍ وهي ترمش بعينها:

-بيني وبينك يا حاج، ساعات بحس بتأنيب الضمير، رايحة أجوز ابني وأفرح لولادي، وسنوية "خلود" لسه مجاتش، ده غير إن آ...

لم يستسغ هذا النوع من الحديث، فقاطعها في نبرة حازمة:

-الأعمار بيد الله، والحي أبقى من الميت.

ردت عليه مبررة بقدرٍ من القلق:

-ما أنا عارفة، بس الحزن جوا الواحد وآ..

مرة أخرى قاطعها بقوله الجاد:

-هيفيد يايه الحزن، لا عمره هيرجع الي راح، ولا هيخلينا ننسى- الي حصل، وفي النهاية كله بأمر الله.

أدركت أنها لن تصل في نقاشها العقيم معه إلى أي شيء، خاصة أنه يُحادثها بمنطقية، وهي تحاوره بعاطفتها الأثوية. طردت تهيدة ثقيلة من صدرها قبل أن تقول:

-ونعم بالله.

أوصاها بتشددٍ طفيف:

-ركزي مع ولادك، وسبيك من الهم دلوقتي، ربنا أنعم علينا بالفرحة، بدل
ما نقول اللهم لك الحمد والشكر، ندور على الغم ونغرق نفسنا فيه؟!
أحست بالخرج أمام كلماته العقلانية، فأومأت برأسها هاتفة في طاعة:
حاضر يا حاج.

.....

للم طرفي قفطانه القطيفة معًا، ونهض من مجلسه، ليسير في خطوات شبه
سريعة، وهو يسعل سعالًا متقطعًا، قاصدًا الاتجاه نحو باب منزله، بعد أن
سمع الطرقات القوية عليه، كانت "سعاد" الأسبق في الوصول إليه؛ لكن
زوجها استوقفها بأمره الصارم:
-استني عندك، أنا اللي هفتح.
ثبتت في مكانها، وقالت في انصياح:
-ماشي يا حاج.

تراجعت بضعة خطوات للخلف، وسلطت أنظارها على الباب الذي فتح
على مصراعيه، لتجد "إسماعيل" يتسائل في فضول، وهو يتفرس بعينه
ذلك الغريب المرابط أمامه:

خير يا ابني؟

أجاب عليه الرجل متسائلاً في لهجة رسمية:

ده بيت "إسماعيل أبو المكارم"؟

جاوبه بصوتٍ عبر عن تحيره:

-أيوه، ده أنا، في حاجة؟

اقتربت "سعاد" بحذرٍ لتعرف ما الذي يدور، ودون أن تظهر في مرمى البصر، في حين فتح الرجل دفتره الورقي، وأخرج منه ورقة ما، ناوله إياها وهو يخبره بنفس الطريقة الرسمية:

-اتفضل الإعلان ده يا حاج.

أخذها منه، ونظر إليها في غير فهم، قبل أن يعاود سؤاله بحيرة أكبر:

-إعلان إيه ده؟

استمر الرجل في تأدية عمله الرسمي الذي جاء من أجله، فأدار دفتره للجانب، وأشار نحو أحد الأسطر وهو يخاطبه بغموض:

-وقع هنا بالاستلام الأول.

اغتاظ "إسماعيل" من أسلوبه الفظ في التعامل، وصاح به في انفعالٍ شبه ظاهر في صوته:

-مش أفهم الأول بوقع على إيه؟

تطلع إليه الرجل قائلاً بسماجة:

ده إعلان بقضية مرفوعة عليك يا حاج.

اتسعت عيناه في دهشة عجيبة، وهتف متسائلاً بصدمة:

قضية! يا ساتر يا رب، من مين؟ وليه؟

بسّط له الرجل طبيعة الإنذار القضائي بقوله:

ده إعلان بمنعك من التصرف في أموالك.

شهقت "سعاد" من خلفه، ولطمت على صدرها في إنكار صارخ، بينما

جحظت عينا زوجها في ذهول أكبر، وصاح مستنكراً بشدة:

نعم؟ إيه التخاريف دي؟ مين اللي عامل كده؟ ده مالي بتعبي وشقايا؟

مسرقتش من حد؟!!!

نظر له الرجل بجمود، كأنما اعتاد على مثل تلك الانفعالات الشائنة من

الأشخاص حين يتلقون إنذارات قضائية، لم ينبس بكلمة، وطالعه بنظرة

أوحت بانزعاجه من مماطلته. هدر به "إسماعيل" مجدداً وهو لا يزال على

حالة الاستهجان تلك:

أكيد في غلط، إنت متأكد يا ابني؟

هز رأسه مؤكداً بهدوء يناقض الثورة الحادثة أمامه:

-أيوه يا حاج، ده شغلي .. والي رافع عليك الدعوة هو آ...
قبل أن يتم جملة للنهاية، ظهر على الساحة "فضل"، برقت عيناه بوميض
خبيث، وقاطعه قائلاً بقوة أصابت والده بالصدمة الشديدة:
-أني يابا.

تحولت حدقتاه المدهوشتان ناحيته، فلم يعد يرى ذلك الرجل، تركز كل
بصره عليه، فبدا وكأن عيناه ستبرزان من محجريهما من هول صدمته فيه،
تلجلج لسانه وهو يسأله في عدم تصديق:
-إنت .. يا "فضل"؟

بجود لا يضاهيه شيء نطق ابنه البكري عن ابتسامة شريرة، وبكل ثقة،
ودون أن يظهر الندم على تقاسيم وجهه:
-أيوه، حقي، وهخده.

.....

داعب إصبعها وجنته الناعمة بجنو، قبل أن تنخفض يدها لتضبط من
وضعية رابطة العنق الصغيرة، ذات اللون الأحمر الداكن، والمعقودة على
شكل أنشودة، لتكتمل هيئته الأنيقة بعد أن ألبسته الحلة الجديدة.
ابتسمت "فيروزة" للرضيع في سرور، ومدحته بابتسامة غير متكلفة:

عسل أوي في البدلة.

دنت "همسة" من توأمتها، وألقت نظرة إعجاب على وليدها المستلقي على الفراش، لترد بعدها في رضا:

مجايب خالته الجميلة.

التفتت ناحيتها لتخبرها بمحبة:

-ربنا يقدرني وأجييله كل حاجة حلوة.

احتضنتها "همسة" في تلقائية، وعلقت بنبرة راجية:

حببتي ربنا يخليكي، وعقبال ما أشيل عوضك يا رب.

تجاوزت عن كلامها الموحى الأخير، وسألته لتغير من مجرى الحديث:

-أومال فين جوزك؟ من بدري ماشوفناهوش هنا عندك.

بالطبع لكون أفراد عائلتها قد قضوا النهار بأكمله في ضيافة "همسة" وزوجها

لحين انتهاء مراسم الزفاف الخاصة بـ "هاجر"، فقد لاحظت "فيروزة"

غياب "هيثم" معظم الوقت، إلا من بعض الدقائق العابرة خلال الساعات

الطويلة الماضية. حاولت التأكد من ألا يكون سبب عزوفه عن القدوم له

علاقة بها، خاصة أن الأمور بينهما كانت إلى حد ما جيدة، لا يشوبها أي

تعكير أو كدر. ظلت أنظارها المتفرسة على وجه شقيقتها وهي توضح لها في عفوية:

موجود تحت مع الرجالة عشان يظبطوا فراشة الفرح والكوشة، ما إنتي عارفة "هاجر" ودماغها، حلفت ما تعمل زفتها في قاعة، وصممت تبقى طالعة من بيت أبوها.

هزت رأسها في تفهم، وقالت بابتسامة منمقة:

هي تستاهل كل خير.

رمقتها "همسة" بتلك النظرة الماكرة وهي تضيف:

عقبال ليلتك إنتي كمان.

تعمدت "فيروزة" ألا تلتفت لقولها، أو ثلّقي له بالاً، فشاعرها العاطفية شائناً خاصاً لا تحبذ مشاركة الغير في التعبير عنها، تحركت مبتعدة عن الفراش وهي تكلمها:

أنا هشوف "كوكي" لبست ولا لأ.

استوقفتها "همسة" متسائلة في اهتمام:

هتنزلي عند العروسة؟

هزت كتفها مرددة في غير اكتراث:

هي عندها اللي يساعدها، ماضنش هتحتاج حاجة مننا.

التوت شفتا "همسة" ببسمة عبثية وهي تخبرها:

برضوه لازم نقف معاها، احنا من العيلة.

منحتها "فيروزة" نظرة صارمة قبل أن تقول بجمود:

-أما أجهز، هاشوف هعمل إيه.

ظلت شقيقتها محتفظة بملاحمها الوديدة وهي تُطلعها على خطواتها التالية:

ماشى، وأنا يدوب أضع "خالد"، وأكمل لبسي.

وقفت "فيروزة" عند أعتاب الغرفة، ثم أمسكت بمقبض الباب قائلة بهزة طفيفة من رأسها:

خدي راحتك.

أغلقت الباب بمجرد أن وطأت للخارج، ووضعت يدها على صدرها تتحسس ذلك المتلاحق في نبضاته، تنفست بعمق لتهدئته، وراحت تقاوم التفكير في رؤيتها لمن بات القلب يهواه، فإن كانت تدعي الجمود في وجود الآخرين، فما يحدث داخلها ينبئ بثورة قادمة من المشاعر الجياشة، فقط تنتظر اللحظة المناسبة لتحريرها من قيودها.

.....

رغم أن الوقت ما زال مُبكراً على بدء فقرات الزفاف، إلا أن بعض أهالي المنطقة أصروا على المجيء منذ اللحظات الأولى، والمشاركة في أفراح عائلة "سلطان"، والمعروفة دومًا بأنها تحتل القمة في كل شيء؛ جودة التنظيم، السخاء والكرم الظاهر فيما يتم تقديمه من مأكولات ومشروبات، والاحترام الواضح لكل من يُندي ودّه وتقديره لأي فردٍ من العائلة. كان "تميم" على رأس الموجودين لاستقبال الحضور بحفاوة، وأيضًا للتأكد من إتمام كل شيء مثلما اتفق مع منظمي الحفل. جال بنظراتٍ غير مدققة على الأوجه الجالسة في السراقد، إلى أن لمح "ناجي" قادمًا من على بُعد، حينئذ توجهت ملامحه، وأصبحت نظراته أكثر جدية وتحفزًا، رفع ذراعه للأعلى ليشير إليه، فبادله الأخير الإشارة، وأسرع في خطاه ناحيته، التقط أنفاسه مستطرّدًا الحديث:

مبروك يا كبيرنا، وعقبال ليلتك.

قال "تميم" في لهجةٍ رسمية، وبتلهفٍ ملحوظ، وعيناه تتابعان حركة العفوية لإخراج سيجارة من علته المحتفظ بها في جيبه:

-الله يبارك فيك، قولي في جديد عندك؟

بنوعٍ من الغرور أجابه:

حطبًا، وإلا مكوتش جيتلك وأنا إيدي فاضية.

استعجله مرددًا في غير صبر:

ها، إيه الأخبار؟

أشعل سيجارته، ولفظ دخانها الذي سمحه دفعة واحدة قبل أن يجاوبه
مسترسلاً في التوضيح:

-سافر على شغلانة مضروبة، مالهاش ورق، وفعلًا مكانش الخال يعرف
بده، اللي جابها كان عاملها زيارة، ويبقى يضربها بعدين ولا يقلبها فيزا عمل.

ضاق عينا "تميم" بطريقة غامضة، وسأله في إيجاز:

-وبعدين؟!

أخبره مزيدًا في إيضاحه:

-البية حاول يمشي أموره في أي حاجة لحد ما يلم القرشين اللي بعترهم، ولما
جاء حق التذكرة هوب طيران راجع على هنا.

احتدت نظرات "تميم" متسائلًا:

-والأفلام بتاعة زمان؟

انقلبت تعابيرها وهو يؤكد له:

-كان مدورها معاه، تفسير غير شرعي، والأغلب مراكب.

صمت "تميم" مليًا، كأنما شرد في عالم خاص به، يوازن فيه الأمور بطريقة تمكنه من التعامل معها بالأسلوب المناسب. طال سكوته بشكلٍ دعا للاستراحة، مما دفع "ناجي" لسؤاله:

ناوي على إيه يا ريسنا؟

أخبره بغموض:

-أديني بلف الحوار كله في دماغي، وهشوف ...

هز "ناجي" رأسه، فتساءل رفيقه في جدية:

-بس مظاهرش هنا ولا هنا؟

أجابه نافيًا:

-لا، بعت الرجالة في المطارح اللي قولتلي عليها، بس لا حس ولا خبر.

أوما برأسه وهو يعقب عليه:

-ماشي الكلام، المهم تأمن على بيت الجماعة.

أكد عليه "ناجي" بجدية غير مشكوك فيها:

من الناحية دي اطمئن، عامل ورديات قصاص بيت الجماعة، رجالتنا واخذين بالهم.

استحسن اهتمامه بالأمر، وربت ربتة سريعة على جانب ذراعه وهو يرد:
-زي الفل.

تساءل "ناجي" بعدها وهو ينهي تدخين سيجارته:
-ها تؤمر بحاجة ثانية؟

ضرب على كتفه بقوة قليلة وهو يقول:

-الله يكرمك، عيش بقى مع معلمين السوق.

التفت برأسه للخلف، وهتف متحمساً:

-تمام يا كبير، ومبروك مرة ثانية.

رد بغير ابتسامة:

-الله يبارك فيك.

شيعه بنظراتٍ شبه شاردة، وقد بات عقله مشغولاً بهذا اللئيم غير

المرحب به، زفر الهواء من رئتيه، وتساءل مع نفسه في تحيرٍ كبير:

يا ترى ناوي على إيه يا "حُسنِي"؟ شكل نابك أزرق، ونيتك سودة!

.....

كان واجماً، متجهماً بعض الشيء، ملامحه تعكس تفكيره العميق في أمرٍ ما، سرعان ما عاد من سرحانه المنزعج، عندما انزلت عيناه على من هجرت سماء النجوم العالية، لتهبط إلى أرض عشقه، وتغدو بين العامة بدلالها ونعومتها الرقيقة، السارقة للقلوب قبل الأنظار. أحس "تميم" بشفتيه تتقوسان عن بسمه صافية، تبدد معها الضيق الذي احتل صدره، خاصة حينما التقت الأعين ببعضها البعض في لقاءٍ حصري، اقتصر على كليهما.

منحته "فيروزة" بسمه جمعت فيها بين الرقة والحنو، كأنما تنامي بداخلها إحساساً مؤكداً برغبته في الظفر بقدرٍ من هذا الشعور المفعم بالآلفة والود. ومثلما اعتادت حين تلقاه، أن تتجمل في بهاءٍ تضمن به بقاء كامل أنظاره عليها لأطول مدة، وإن كانت ترى مقاومته المستميتة لتأثيرها الطاغى عليه، فتجده يتحاشى النظر إليها، كأنما ييخل عليها بنظرة مرضية لها كأثى.

تهادت في خطواتها، وهي تضبط يديها أطراف كنزتها النبيذية، تلك التي فضلت ارتدائها على بنطال أسود مصنوعٍ من القماش، مع حجابٍ من اللون الذهبي، تتخلله تشبيحات متفرقة من نفس لون الكنزة. أطبقت على جفניה لثانية قبل أن تعاود النظر إليه، تقدمت ناحيته بثبات، لكن ما بين ضلوعها لم يثبت، كان يقفز في فرحةٍ وانتعاش، كأنه حظى بجنته على الأرض، أبقر الحبيب يتبدل الحال من حالٍ إلى حالٍ؟ هكذا كانت تشعر.

رسمت ابتسامة لطيفة على ثغرها، واستهلت تحييه:

مساء الخير عليك.

ذابت القسوة، وتلاشى التجهم مع نعومتها المزلزلة لكيانه، بالكاد حافظ على ثباته في حضرتها، وقال بابتسامة عريضة للغاية لا تخلو من الغزل:

مساء النور على القمر.

لامست يدها طرف حجابها المتدلي على كتفها، كأنها وسيلتها لتخفيف التوتر المربك الذي انتابها، ثم تنحنحت بصوتٍ خفيض، وردت بعدها وهي ترفرف برموشها:

مبروك لـ "هاجر"، هي شوية ونازلة، أنا بصيت عليها، وكل حاجة تمام.

هز "تميم" رأسه في استحسان، وقال ضاغظًا على كلمته الأخيرة:

على خير يا رب، وعقبالنا ..

حاولت ألا يبدو تأثير نواياه الصادقة نحوها ظاهرًا عليها، أخفضت من نبرتها حين عقت عليه:

إن شاء الله.

تفاجأ من ردها، ونظر إليها في ابتهاج، حاولت الهرب من نظراته التي تحاصرها، وادعت وهي تشير بيدها:

-أنا هشوف "رقية"، بدل ما تتوه وسط الزحمة.

انسحابها التكتيكي كان ضروريًا لئلا تنجرف مشاعره نحو التهور، سرعان ما استعاد رشده، وسألها في لهجة غير ممازحة:

-قوليلي في حد ضايقكم الأيام اللي فاتت؟

تعجبت من تحوله للجدية التامة، وسألته بنفس الوتيرة القلقة:

-تقصد خال "رقية"؟

أجابها في إيجاز، وما زالت ملامحه تتم عن الجدية:
-أيوه.

ردت نافية:

-لا، من ساعة السبوع مظهرش ثاني.

زم شفتيه للحظة قبل أن يقول مقتضبًا:

-كويس.

ساورتها الشكوك، وتفشت في رأسها، لهذا ظلت باقية في مكانها لتسأله
بنبرة المحقق:

هو إنت عرفت حاجة ومخبي علينا؟

استقام في وقفته، ليدو أكثر شموخًا ومهابة، ثم وضع يديه في جيبي بنطال
بدلته الكحلي ليقول في تمهل:

-لا، بظمن بس عليكم.

لن تنكر أنها تشعر بالفخر لوجودها بقربه، فمثله يدعو للتباهي بالاقتران به
.. تدلت عليه، وابتسمت قائلة في مرج:

-العيلة كلها طبعًا.

نظر مباشرة في عمق عينيها، حتى شعرت أنه بنظراته الدافئة قد نفذ إلى
مواطن الضعف بداخلها، ليحتل -بلا مقاومة منها- كامل كيائها، خاصة
عندما صاحب ذلك قوله الهادئ:

-واتي قبلهم !!

.....

الفصل المائة واثنان وستون

الفرار، ثم الفرار، ثم المزيد من الفرار، كان الاختيار المناسب حتمًا، إن أرادت أن تحافظ على ثباتها المتزعزع في وجوده .. ألبضعة كلمات عادية، منقحة من أي عبارات خادشة للحياء، كل هذا التأثير القوي عليها؟! لم تصدق "فيروزة" نفسها حين شعرت بهذه الرعدة الخفيفة تسري في أوصالها ابتهاجًا لشعورها باهتمامه الواضح بها. انزوت عن محيط أنظاره؛ لكن بقي القلب مُعلقًا بمن نجح في احتلال ثنياه والتربع على عرشه. انتقت لنفسها مكانًا بين الحضور في المقدمة، لتبدو قريبة من العروس، إن احتاجت إلى شيء، فلبت ندائها بمحبة صافية. جلست إلى جوارها "همسة"، ومعها رضيعها النائم، لتلحق بهما "آمنة"، والصغيرة "رقية".

تبقى القليل على بدء مراسم الزفاف، والعروس ما تزال في منزلها بصحبة والدتها، في تلك اللحظات العاطفية الخاصة، حانت من "فيروزة" نظرة خلفية تبحث بها عن "تميم"، رآته يصاحف أحدهم بحرارة، والضحكات العفوية

تملاً وجهه، لحظها السعيد التقط نظراتها السارحة فيه، فحجبت، ووجلّت، واستدارت محدقة أمامها وهي تشعر بدقات قلبها تعلو وترتفع، حتى كاد ضجيجهم يصم آذانها. عنفت نفسها في صوت هامس للغاية:
في إيه يا "فيرو"؟ ما تهدي كده.

بالكاد منعت نفسها من النظر إليه، وكأن العين لم تعد ترتوي بما يطفئ لهيب الظمأ فيها إلا برؤياه!

حاولت الالتئاء بالحديث مع شقيقتها، علّها بهذا تسكت الصوت المنادي في رأسها باختلاس النظرات إليه، وإرادة كاملة منها انصاعت لرغبات العقل تلك المرة، وراحت تدير رأسها في حركة بطيئة حذرة لتتطلع إليه، ويا له من شعور عظيم يزيد من إحساس الألفة والمودة بداخلها كلما أبصرته يضحك، أو يبتسم، بل يمكن الجزم بأنها شعرت بالغيرة لكون تلك الضحكات العفوية مع غيرها.

عبوسٌ طفيف سيطر على ملامحها سرعان ما تبدل لابتسامة خفيفة حين طلبت منها "همسة" بلطف:

-ممكن تشيلي "لودة" شوية، لحد بس ما أشوف "هيثم" عاوز مني إيه.
امتدت ذراعاها نحوها، التقطته منها، وضمتها إلى صدرها بحذرٍ وهي تُبدي ترحابها:

ماشي يا حبيتي.

تابعها بنظراتها وهي تسير في تعجلٍ، تتجه نحو زوجها، في حين ضجرت "رقية" من الجلوس ساكنة، وتعلقت عيناها بالصغار الذين يلهون أمام خشبة المسرح، نهضت من مكانها استعدادًا للذهاب؛ لكن أنذرتها عمها بجدية:

خليكي هنا يا "كوكي"، بلاش شقاوة!

زمت شفتيها محتجة في عبوس طفولي:

عايزة ألعب.

حذرتها "آمنة" من جديد بنبرة غليظة:

-وتبهدي نفسك؟ ده لسه الفرح مابدأش.

كتفت "رقية" ساعديها، وعادت للجلوس وهي تنفخ عاليًا في سأم،

فتدخلت "فيروزة" لإقناعها بالقبول:

-سيبها يا ماما، هي بتلعب قصادنا.

بادرت بالاحتجاج مجددًا

-بس فستانها هيبوظ، وجايز تقع، و..

قاطعتها قبل أن تنهي ما بدأت من كلام:

معلش، دي برضوه عيلة، مش هتفضل متقيدة في مكانها طول الوقت، لما الفرح يبدأ تبقى تقعد جمبنا.

تهدت "آمنة" بعمق، ثم استدارت تنظر لوجه الصغيرة الرقيق، لانت ملامحها واستسلمت، ثم شددت عليها بإشارة من سبابتها كذلك:

طيب ما تروحيش بعيد، ولو التفت وملاقتكيش هعاقبك.

صدحت ابتسامة سعادة على وجهها، وتلاشى هذا التجهم مع موافقتها، ركضت لتنضم لبقية الصغار وهي تردد:

حاضر.

ابتسمت "فيروزة" لبراءتها، وودت لو عاد بها الزمن إلى الوراء، وكانت لا تزال صغيرة، تلعب بلا هم، وتبيت ليلتها بلا خوفٍ من المجهول. انتشلها من شرودها السريع صوت والدتها المتساءل:

مافيش جديد عندك؟

نظرت ناحيتها، وردت متسائلة بقليلٍ من الحيرة

جديد إيه؟

أخبرتها ببساطة عن قلقها:

-يعني محدش كلمك في كتب كتاب ولا جواز؟ بقالنا فترة على وضعنا!

تجهمت كامل قسماتها، وهتفت قائلة في اعتراض مستاء:

-مش وقته الكلام ده يا ماما.

ردت بسخافة وضيق:

-أومال إمتى وقته؟ ما هو كله أهوو ربنا كرمه وبيتجوز، إنتي بس اللي هتعملي فيها بنت بارم ديله.

هسهست في غيظ:

-استغفر الله العظيم يا رب.

استمرت والدتها في الضغط عليها بسؤالها المزعج:

-ها مردتيش عليا؟

أظهر أسبابها لها لن يجعلها تفهم ببساطة ما الذي تحاول فعله قبل أن تقدم على تلك الخطوة الفاصلة في حياتها، هي تستمتع بما يتنامى بداخلها من مشاعر نقية، تُعاش وتُحفر في أعماقها ذكريات حلوة تكون سلواها في المستقبل، لذا أشاحت "فيروزه" بوجهها بعيداً عنها، وقالت في برود:

-لما يبقى في جديد هاقولك، حلوكده.

رمقتها "آمنة" بنظرة حادة، مزعوجة، رافضة لعزوفها عن الزواج، تفكيرها المحدود يوهما أن ابنتها تدلل على من لا يصلح التدلل معه، إطالة مدة

الخطبة تعني إعطاء الفرصة لغيرها للقفز عليها، ومحاولة إيقاعه بالحيلة لإنهاء تلك الخطبة المزعومة والزواج بأخرى مستعدة لهذا، لم تبتسم وهي تعقب عليها:

ماشى، ربنا يهديكي لنفسك.

.....

تحفز في وقفته، وبدأ على أهبة الاستعداد، حين اصطفت السيارة المألوفة على مقربة من سرادق الفرح، اعتلى ثغر "تميم" ابتسامة اعتزاز، سرعان ما امتزجت مع نظرة الفخر التي أطلت من عينيه، عندما ترجل رفيقاه المقربان منها. تحرك "دياب" أولاً ناحية الباب الخلفي ليُخرج طفله، ثم حاوط كتفيه بذراعه، واستحثه على السير للأمام بتلكؤٍ ملحوظ، ليلحق بهما "منذر". ما إن أصبح ثلاثتهم على مقربة من "تميم" حتى هلل صائحًا في مزاح: -والله كنت هزعل لو ماجتوش.

امتدت يد "منذر" لمصاحته، قبل أن يجذبه إلى صدره لاحتضانه وهو يبادلُه الترحاب الحار:

هو احنا نقدر نتأخر عنك، مبروك يا "تميم"، وعقبالك.

تراجع عنه "تميم"، والتفت ناظرًا إلى "دياب" الذي خاطبه بمزاحًا:

يا عم إنت عاوز تنكد عليه من ثاني، هو كده حلو.

عاتبه "منذر" بنظرة ذات مغزى:

-الجواز بقى نكد دلوقتي؟ ما كان حلو من كام شهر.

رد عليه شقيقه الأصغر متصنعا العبوس:

-ده بقى تأديب وتهذيب وإصلاح، وتقويم، وكل حاجة تخيلك تمشي عدل.

قهقهه "منذر" ضاحكا، وشاركه "تميم" الضحك، ليتبع ذلك قول الأول الطريف:

مع مراتك أيوه، الله يكون في عونك يا "دياب".

علق عليه بطرافة مماثلة:

-ده أنا ساعات بخاف منها وربنا، صعبة في زعلها، فإكر لما اتخاقت مع

الجزار، دي مايهمهاش حد.

أخبره "تميم" مبتسما في مرج:

-كل الستات كده، عاوزين كتالوج عشان نفهمهم.

عندئذ كرر "منذر" سؤاله عليه بنظراتٍ موحية:

طيب مش هنفرح بيبك بقى؟

في حين اعترض "دياب" بنفس الأسلوب المتسلي:

-برضوه؟! ليه عاوز تجيله النكد؟

أجاب عليه "تميم" وهو ما زال يقاوم الضحك:

-لما ربنا يأذن، هتلاقيني دخلت القفص برجليا.

أنذره "دياب" بإصبعه المرفوع أمام وجهه:

-ومترجعش تزعل، وتقول ندمان.

هز رأسه نافيًا:

-لأ يا سيدي مش هشتكي.

جذب الصغير "يحيى" ذراع والده، وطلب منه بنوع من الإلحاح وهو ينظر

نحو حفنة من الأطفال يلعبون على مقربة منه:

-بابا عاوز أعب هناك.

ألقي "دياب" نظرة شمولية على البقعة المشار إليها، كأنما يقيم مخاطرها

بنظراته الثاقبة، ثم أبدى موافقته المشروطة بلهجة جمعت بين الجد والهزل:

-ماشي، بس مضايقتش حد، والعب مع البنات الحلوة بس.

رد "يحيى" في حماس مرح وهو يعدو ركضًا:

حاضر يا بابا.

ما إن انصرف الصغير حتى عاتبه "تيم" في خشونة:

-في حد يعلم ابنه كده؟

غمز له مبرراً بعبثية:

خليه يجرب حظه من بدري، أومال يحصله كبت زي ناس؟

رفع "منذر" كفيه للأعلى كأنما يبرئ ساحته، وأتبع ذلك معترفاً في لطافة:

-اتكلم عن نفسك، أنا مبسوط مع جماعتي.

حدج "تيم" رفيقه العابث بنظرة صارمة قبل أن يوجه كلامه الجاد إليه:

ده أنا لو عندي بنت وانت جاي تخطبها لابنك، وربنا لأنشف ريقكم قبل ما أوافق.

شاركه "منذر" الرأي مؤمناً برأسه:

لو "تيم" يعملها معاك وش.

فرد "دياب" ذراعيه في الهواء، وأحنى جذعه كأنما يؤدي تحية احترام

لشخصية وقورة وهو يردف مازحاً:

هو احنا نطول نناسب الفخامة كلها!

لم يكبت "تميم" ضحكته المستمتع، وجاراه في مزاحه مرددًا:
-أيوه، اضحك عليا بكلام السوق، أصلها بيعة سهلة، ده إنت متعرفنيش،
أنا عند أهلي وناسي ببقى صعب جدًا.

علق وهو ما زال مبتسمًا، وبغمزة سريعة:

يا عم الصعب نسله عشانك.

استمر "تميم" على جديته معه، فقال:

برضوه هطلع عين ابنك، وعينك قبل منه.

لَحَظَ "منذر" اتخاذ الأمر منحًا جادًا فيما بينهما، فهتف يلفت انتباههما بلهجة
بدت شبه عالية ولا تخلو من المرح:

-إتو بتكلموا في إيه؟ مش لما تتجوز الأول، وربنا يكرمك بالذرية الصالحة،
والعيال تكبر، وتشيل الهم بدالنا، تبقى تتشرط عليهم، يعني خدلك كام
سنة.

رد عليه "تميم"، وابتسامته تزين محياه:

على رأيك، عملنا زي اللي جابوا السلبة قبل الجاموسة.

.....

التجمعات الطفولية كانت وسيلة فعالة لاجتذاب الصغار للعب تحت أنظار البالغين، خاصة حينما تكون في مساحة مغلقة. تحمست "رقية" لمشاركة مثيلاتها من الفتيات، ممن يرتدين الأثواب البيضاء في الأعراس، للهو والمرح. بضعة دقائق انقضت وانضم المزيد من الأطفال للمشاركة، وقع الاختيار من غالبية الصغار على لعب "الغميضة"، وبدأوا في الركض في كل الاتجاهات، وما هي إلا لحظات وصدحت أصوات الصراخ الحماسي في الأجواء.

تحولت واحدة من تلك الصرخات الضاحكة إلى شهقة مفزوعة، حين جذب اجتذب أحدهم الأنشطة التي تزين ثوبها، كمحاولة للإمساك بها خلال اللعب. ورغم أنها انتزعت دون قصدٍ، إلا أنها أصيبت بالجزع، وتوقفت في مكانها مشدوهة، مرتعدة الفرائص. انحنى "رقية" لتلتقطها من على الأرض، وقد تقوست شفتها للأسفل في حزنٍ لا يمكن نكرانه. دنت منها إحدى الفتيات تسألها:

مالك؟ مش بتلعب معانا ليه؟

أجابتها في عفوية، وعيناها تغرقان في الدموع:

-الولد ده قطعلي الفيونكة...

ثم أشارت بيدها نحو واحدٍ من الصبية بالتحديد، نظرت إليه صديقتها،
وحاولت تهوين الأمر عليها، فقالت:

-متزعليش، مش باينة، محدش هياخد باله.

هزت رأسها نافية، وردت بصوتٍ بالك:

-عمتو هتزعق عشان اتقطعت.

عضت الطفلة الأخرى على شفتها السفلى في حيرة، وأخبرتها بعد لحظة من
التفكير السريع:

-ممکن تتربط كده.

وقامت بتجربة ما هداه إليها تفكيرها المحدود؛ لكن محاولتها باءت بالفشل،
ارتاعت الصغيرة أكثر، وراحت تردد في بكاءٍ أكبر:

-أنا خايفة، هتزعقلي جامد، وممكن تضربني.

أشفقت عليها الطفلة الأخرى، واقترحت عليها في صوتٍ جاد:

قوليلها إن الواد ده قطعها، دي مش غلطتك.

ثم أمسكت بها من معصمها، وأضافت بنبرة مهددة:

-وأنا كمان هزعقله قصادك.

اتجهت الاثنتان للصغير الذي تسبب في إفساد مظهر الثوب الرقيق، وبدأت الطفلة الأكبر سنًا في توبيخه، وتهديده بجديّة، خاصة مع كونه غريبًا عن المنطقة، فزأر "يحيى" يرد مدافعًا عن نفسه في حمّة عجيبة:

مكانش قصدي، وإنتي ملكيش دعوة.

اغتاظت منه "رقية"، فراحت تهدده هي الأخرى بشجاعة رغم الرجفة الظاهرة في صوتها:

إنت وحش، هاقول لبابا عليك.

نظر في اتجاهها، ورد بوقاحة، كأنه لا يكثرث لتهديدها:

قوليله، بابايا هيضربه.

اتسعت عيناها في صدمة، وناطحته الطفلة الأخرى الرأس بالرأس، وكالت له من التهديدات المصحوبة ببعض الشتائم لتهينه، فواصل الرد عليهما بصوتٍ تعمد جعله حادًا وقويًا، مما جعل "رقية" تغادر راکضة بحثًا عن المساعدة اللازمة بعد أن تحول الأمر لمشكلة حقيقية .. كانت "فيروزة" في مرمى بصرها، لهذا بدت الخيار المناسب لإيجاد الحل.

.....

بين الفنية والأخرى، كانت "فيروزة" تدور برأسها على محيط المكان من حولها، لتتأكد من بقاء ابنة خالها تحت ناظرها، خاصة مع بدء ازدحام السراشق بالمدعوين، تجمدت عيناها على الصغيرة حين رأتها ترنو إليها بخطى راكضة، زوت ما بين حاجبيها، وسألته في اهتمام ملحوظ يشوبه القليل من القلق:

-في إيه يا "كوكي"؟

التقطت أنفاسها لهنية قبل أن تشكو إليها بصوت جمعت فيه بين اللهاث ونهنية البكاء:

-في ولد قطع الفيونكة بتاعة الفستان.

نظرت إلى الأنشطة الموجودة في راحة يدها، وتناولتها منها، ثم فحصت الثوب بعينين مدقتين قبل أن تخبرها مبتسمة في لطف لتهون عليها الأمر: حبيبي، خلاص متزعليش، أنا هصلحها لك.

ظلت "رقية" على عبوسها وهي تضيف:

-عمتو هتزعل.

طمأنتها "فيروزة" بنفس الأسلوب الحاني:

مش هنقولها، وهي مش هتاخذ بالها.

من زاويتها استطاعت "رقية" أن تلمح الطفل الفظ وهو يسير منفردًا، رآته ينظر إليها، قبل أن يخرج لسانه من فمه ليغيظها، فصاحت في تدمير وهي تشير بيدها ناحيته:

-بصي هو الولد ده، وقال هيضرب بابا كمان.

هنا برزت عينا "فيروزة" في غضبٍ مستنكر، واستدارت ناظرة إليه حيث أشارت ابنة خالها، ثم هتفت تتوعده بتحفرٍ واضح:

-ليه الكلام ده؟ أنا هبهله، عيب مايصحش يقول كده، لازم نحترم الكُبار.

.....

لم تمض دقيقة إلا وكانت "فيروزة" واقفة قبالة "يحيى"، حاصرتَه عند الزاوية، وحدجته بنظرة قاسية، بعد أن اشتاطت غضبًا وغيظًا من تصرفه الفظ، بدأت في تقريعه على سوء فعله؛ لكنه تجاهلها، وأخذ يركل كومة من التراب أسفل قدمه ليعثره. تصاعد الحنق بداخلها أكثر، وهتفت صارخة في وجهه:

-ينفع تعمل كده في فستانها؟

بفتورٍ علق عليها:

-مكوتنش أقصد.

هدرت به بتشنج وهي تستخدم يدها في التلويح:
-الي ما يقصدش يعتذر عن الغلط الي عمله، مش يقول كلام وحش
للأصغر منه.

وزع "يحيي" نظراته ما بين هذه الشابة الغاضبة الغريبة عنه، وبين الصغيرة
المبتسمة في نشوة انتصار عجيبة، ظهر الكدر في عينيه، وصاح متوعدًا
الاثنين، وهو ينحني بجسده للأمام، ليفر في خفة من حصار ذراعها
المفرد قبالة:

-أنا هاجيبلكم بابا.

شيعة بنظراتٍ مستشاةة، وردت عليه بصياح قوي:

هاته، يعني هخاف منه!!

بقيت أنظارها عليه رغم اختفائه في الزحام، ورددت مع نفسها باستهجان:

-إيه العيال دي؟؟!!

.....

بوجه متوهج بحمرة الغضب، اتجه "يحيي" إلى أبيه، بعد أن شق طريقه
وسط الحشد المتجمهر في السرايق، لم يجد صعوبة في إيجاد؛ لكن الأخير
نظر إلى ملامح طفله العابسة بشدة، والقلق يعتريه، خاصة مع تلك النظرة

الحانقة التي تطل من عينيه. سحبه بعيداً عن الصخب المحاوط بهما، وسأله
مسترياً:

في إيه يا "يحيى"؟

أخبره بعد زفير حاد، وهو يدير رأسه في كافة الاتجاهات إلى أن حدد بقعة
بعينها:

-الناس اللي هناك دول بيزعقولي.

حملق ناحية الوجهة المشار إليها، وتابع متسائلاً في تمهلٍ، ليفهم سبب
نشوب الشجار قبل أن يبادر بالرد الرادع:

-عملت إيه؟

تردد قبل أن يجاوبه كاذباً:

آ.. ولا حاجة.

استشعر "دياب" من ملامح صغيره المهترئة وجود خطب ما، الحكاية
منقوصة، إكمالها يتطلب الذهاب منه إلى الطرف الآخر ومعرفة التفاصيل
قبل تقييم الوضع بأكمله، قبض على معصمه، وسحبه خلفه هاتفاً بنبرة حازمة
لا ترد:

-تعالى نشوف الحكاية.

تثاقلت خطوات "يحيى" وهو يتبعه مجبرًا، فقد أدرك أنه وقع في مأزق بسبب رعونته الطفولية، وتباهيه غير الضروري مع صغيرة لا حول لها ولا قوة، قبل أن يتصاعد لتهديد نزع مع شابة بالغة، الآن عليه تحمل العواقب!

.....

احتدت نظرات "فيروزة" على الرجل القادم في اتجاهها وهو يجذب معه الطفل المشاغب، الملامح المألوفة لكليهما معًا، بالإضافة لبعض المشاهد غير واضحة المعالم لمواقف سابقة بدأت في اقتحام عقلها، لتذكرها بأنها رأتهما فيما مضى؛ لكنها لا تذكر حاليًا أين تحديداً، لهذا سعت جاهدة لاعتصار عقلها عَصْرًا علّ ذاكرتها تنشط قبل مجيئها.

في البداية ساورتها الشكوك وهي تتحدث إلى الصغير، أما الآن مع حضور أبيه فقد تضاعف إحساسها بأنها تعرفهما من مكانٍ ما، تغاضت "فيروزة" مؤقتًا عن حيرتها، وبدأت بالهجوم أولاً، وأصابع الاتهام موجهة للاثنتين:

إنت أبو الولد ده؟

الطباع الحادة للنساء دومًا تكون من نصيبه، لماذا هذا الحظ الغريب معه؟ أمكتوبٌ على جبينه صاحٌ لتفيس الانفعالات النسائية؟ امتعضت تعبيرات وجه "دياب"، ونظر لها نظرة مزعوجة وهو يرد مبررًا:

أيوه، وأنا كنت جاي عشان آ....

قاطعته قبل أن يختتم جملته بنفس الأسلوب المهاجم:
-كويس إنك عارف إنه غلطان، يعني يصح اللي عمله ده؟!!!
نقد صبره من هجومها العدائي تجاهه، وهتف في استياء وهو يرخي قبضته
عن رسغ طفله الذي أخذ يُطالع "رقية" بنظراتٍ فاحصة حادة:
-إديني فرصة أتكلم بس، هو أنا ملاحقك؟!
هدرت به "فيروزة" في انفعالٍ؛ وكأن غضب الدنيا قد تجمع في عينيها، غير
منتبهة لابنة خالها التي تنظر نظرة خجولة قلقة لهذا اللفظ الصغير:
-أيوه يعني عاوز تحور، وتغلوش على الموضوع، بحيث تطلعه منه زي
الشعرة من العجينة.
ضرب "دياب" كفه بالآخر معقبًا في استنكارٍ:
-لا حول ولا قوة إلا بالله، هو أنا لحقت أنطق؟
ردت عليه في حدة:
-ما الجواب ببيان من عنوانه.
صاح ساخرًا في صبرٍ نافذ:
-يا ربي على الجنان، أنا ربنا مايقطعش بيا!

.....

لم يصل الأمر بعد إلى جدالٍ يَصعب حله؛ لكنه أوحى ببوادر صدام شرس، قد يلوح في الأفق، إن استمر على هذا التواتر المتزايد. انتبه "تميم" لوقوف طاووسه الصلد مع أحد رفيقيه العزيزين، فأسرع في مشيه لينضم إليهما، لم يركز في بادئ الأمر مع الطفلين الواقفين بمحاذاتهما عند كل جانب، واللذين راحا يتابعان الصراع في صمت مشدوه، كأنهما لم يتسببا فيه منذ البداية.

وقف "تميم" بينهما متسائلاً في توجس، وقد رأى علامات التحفز والاستهجان على كليهما:

خير يا جماعة؟ في إيه يا "دياب"؟

ما إن تيقنت من وجود الصلة به، حتى التفتت "فيروزة" تنظر إلى "تميم" في غضبٍ، وهتفت تشكو إليه بغيط:

-شوف صاحبك.

تحولت أنظاره نحو رفيقه، وسأله متوجساً:

-عملت إيه؟

على الفور نفى أي تهمة عنه بأمارات استهجان ملأت وجهه كذلك:

-ولا أي حاجة.

هنا استطردت "رقية" قائلة، وإصبعها الصغير يشير نحو "يحيى":

-عمو "تميم" الولد ده بوظلي الفستان!

أيدتها "فيروزه" بتحفز واضح وهي تخاطب "تميم":

-سمعت؟

اتجهت كافة الأنظار نحو "يحيى"، فزجره والده متسائلاً بنظرة صارمة:

- "يحيى"! إنت عملت كده؟

نكس رأسه في خزي، واعترف بذنبه الصغير مُظهرًا ندمه:

مكونتش أقصد يا بابا.

رفع "دياب" يده أعلى رأسه ليحك منابت شعره وهو يعلق في لهجة شبه مازحة:

-يعني الغلط عندنا؟ يادي الكسفة اللي احنا فيها!

مد "يحيى" ذراعه للأمام مشيراً نحو "رقية" متهمًا إياها:

-بس هي زعقلتي جامد مع صاحبتها.

ردت عليه "رقية" بتجهم كبير وهي تضع يدها المتكورة أعلى منتصف
خصرها:

-وانت قولى هتجيب باباك يضرب بابا.

فاقت جملتها حد تصور "دياب"، فانزعج للغاية من تصرف طفله، ووبخه
بصرامة:

عيب كده يا "يحيى"، ماينفعش تقول الكلام ده.

استمر الصغير في إحناء رأسه حرجًا من سوء فعله، بينما استطرد "تميم"
هاتفًا في هدوء، ليكمل مسعاه في إصلاح ما أفسده الصغار بلهوهم العفوي:

يا جماعة حققوا عليا أنا، احنا ساعة فرح، وماينفعش نزل.

شبكت "فيروزة" ساعديها، وتساءلت بحاجبٍ مرفوع للأعلى:

-والفستان اللي باظ؟

أخبرها "دياب" وهو يضع يده على صدره:

عندي، هاجييلها عشرة بداله.

نظرت له بترفعٍ قبل أن ترفض عرضه بكبرياءٍ عجيب:

-لا شكراً مش عاوزين إحسان من حد.

رد "دياب" مستنكرا تعاليها المصطنع:

-إحسان إيه؟ ده تعويض بسيط، وآ...

قاطعته وهي تدير وجهها للجانب؛ كأنما تنأى عن الحديث معه:

-ما بقبلش العوض.

خشي "تميم" من تصاعد الأمور وتعقدها مجدداً، بسبب بعض التوافه، خاصة مع عودة طاووسه المشاكس لتلك النزعة المليئة بالعنجهية، في حضور رفيقه المتحفز دوماً للشجار على أصغر الأمور .. لهذا لم يترك الأمر معلقاً، وتحرك في اتجاه خطيبته يرجوها بلطف:

خلاص يا أبله، دول ضيوفنا برضوه.

هسهس "دياب" ساخراً في صوتٍ خفيض متذكراً لقب زوجته المميز:

-أبله تاني!!!

النظرة المستجدية في عينيه، مع اقترابه الخطير، كانا كفيلاً بتخليها عن عنادها، والإصغاء للصوت المنادي في رأسها بتلبية أمره في التو، ترققت نبرتها، ولانت ملامحها المتجهمة بشكلٍ ملحوظ عندما قالت:

عشان خاطرک بس ..

ابتسم في سعادة لتجاوبها معه، أمعقول ما يحدث بينهما من انسجام يدعو
خلايا الجسد للذوبان في إحساس ناعم يفوق الوصف، ربما حظى في هذا
الاحتدام العجيب بلحظة انتصار خاصة به. أفاق "تميم" من هيامه اللحظي
على باقي جملتها المحذرة:

-وقول لصحابك تاني مايزعلوش اللي من طرفي.

لم يستطع "دياب" منع نفسه من التعليق مازحًا وهو ينظر لطفله نظرة
معاتبة:

-صح، واللي مني مزعلني.

عبس "يحيى" أكثر، فواصل والده توبيخه:

-في حد يعمل كده مع الحلوين؟

حاول الصغير التبرير له:

-والله يا بابا آ...

هتف مقاطعًا في حسم:

-بابا إيه دلوقتي؟ اتفضل قولها آسف، ولم الدور.

أيده "تميم" في الرأي:

-بالظبط.

استحسنّت كذلك "فيروزة" هذا التصرف، وقامت بدفع ابنة خالها في رفقٍ لتقف أمامها، وراحت تنتظر إقبال "يحيى" عليها ليُبدي ندمه على ما اقترَف. أمسك التردد بخطوات الصغير، وتلكأ وهو يسير نحو الأمام، تسمرت قدماه على بعد خطوة من "رقية"، ونظر إليها بوجهٍ غير مبتسم وهو يقول:

سوري.

ثم أحنى رأسه على وجتها ليقبلها في سرعةٍ وسط دهشة الجميع، ثم انسحب مختبئاً خلف والده، تلون وجه "فيروزة" بالغيظ، وصاحت في إنكارٍ شديد وهي تجذب ابنة خالها إلى جوارها:

إيه ده؟

حمحم "دياب" هاتقاً في استهجانٍ زائف، وهو يبذل جهده لإخفاء ابتسامته:

أنا قولتلك صالحها، مش بوسها، عيب كده.

برر له "يحيى" تصرفه بعفويةٍ وهو يرفع رأسه لينظر إليه:

ما إنت قولتلي قبل كده الحلوين لما نزعلهم يتصالحوا ببوسة.

حك "دياب" مؤخرة عنقه بيده متمتماً في خوفٍ حرج:

هو أنا قولتلك كده؟!

احتدت نظرات "تميم" ناحية رفيقه، ولكزه في جانب ذراعه بخشونة طفيفة
قبل أن يسخر منه بوجه منقلب؛ لكنه لا يرتقي لحد الضيق:

-ونعم التربية والأخلاق!!!

.....

مسح بنظراتٍ ثابتة المكان من حوله وهو يطل برأسه من سيارة الأجرة التي استقلها، ثم أشار إلى السائق بالتوقف عند إحدى الزوايا، فامتثل الأخير لطلبه، وأبطأ من السرعة .. ما إن ترجل منها "حُسنِي" حتى أعطاه أجرته، دون أن يترك له الفائض. مشى - قليلاً إلى أن وصل عند ناصية الشارع الرئيسي -، سحب نفساً أخيراً من سيجارته التي أوشكت على الانتهاء، ثم ألقى بعقبها أسفل قدميه ليدعسه.

خطاً للأمام بحذرٍ، وعيناه ترقبان المنطقة بتركيز، ساعده هدوء الأجواء على التجول بحرية، ظل يسير بحيطَةٍ حتى بلغ بناية "خليل"، شمل محيطه بنظراتٍ فاحصة سريعة، فلم يجد أحدهم في الجوار، رفع رأسه للأعلى ليلقي نظرة على الواجهة، كانت إلى حدٍ ما معتمّة، مما منحه الشعور بالأمان للإقدام على خطته، تسلل إلى الداخل، عابراً المدخل بسهولة، بعد أن وجد البوابة غير موصدة، كان السكون تاماً حوله، ومع هذا تنامى شعوره بالحدق وهو يصعد الدرجات للطابق العلوي؛ حيث شقة "خليل"، فهناك موطن الخبيئة المنتظرة، أو كما يتوهم. كز على أسنانه يتوعده وهو يدس المفتاح المنسوخ في القفل:

هاخذ اللي ليا منك، حتى لو فيها موتي، ما أنا كده كده ميت!

لم يجد صعوبة في فتح الباب الخشبي، وطأ على مهلٍ وهو ينير كشاف هاتفه المحمول ليستكشف خطواته، أوصد الباب خلفه، وبدأ في مسعاه الذي جاء من أجله .. السرقة!

.....

الأجواء المشحونة ببوارد التوتر تبددت بالتدرج، إلى أن تحولت إلى أخرى لطيفة مرحة، يطغى عليها المزاح والتعارف الودي، كأن شيئاً لم يكن، وهذا ما أراد "تميم" الوصول إليه. نظرت "فيروزة" بتركيز لا يخلو من تحفز إلى وجهه المبتسم وهو يتساءل في حذر:

ها تقول صافي يا لبن؟

أضاف عليه "دياب" مشيراً بيده إلى صدره:

-الغلط عندنا، واحنا طالبين السماح، ده حتى العفو عند المقدرة.

سكتت لحظياً كأنما تمنح نفسها الفرصة قبل أن تبدي قبولها بهذا التصالح النادم؛ لكن الصغير "يحي" قال فجأة، وهو يتطلع في ابتسامة عابثة إلى وجه "رقية"، وأيضاً مستخدماً سبابته في الإشارة ناحيتها للتأكيد أنه يقصدها:

لو لسه زعلانة، أبوسها ثاني يا بابا؟

خرجت شهقة مصدومة من بين شفتي "فيروزة"، أتبعها نظرة صارمة من عينيها إليه، ليقوم بعدها "دياب" بإخراص طفله بوضع كامل راحته على فمه هاتفاً في لهجة مزجت بين الجد والهزل:

-أتم يا ض، كده هنلبس في الحيلة!

توجس "تميم" خيفةً من تجدد التوتر ثانيةً، فأدار ظهره نحو رفيقه وابنه، ليحجب الرؤية عن "فيروزة"، واستطرد يقول في نبرة شبه راجية:

خلاص حصل خير، مش كده؟

ضاقت نظراتها ناحيته، فالتسعت ابتسامته المهدبة والمستجدية، لم تكن لترد طلبه، فأومأت برأسها وقد لانت تعبيراتها المشدودة، تنفس الصعداء، واستدار يواجه رفيقه معقبا:

-يبقى حبيب يا إسطا.

أردفت "فيروزة" تحذر الصغير وهي تلوح بإصبعها:

يا ريت ده ما يتكررش تاني، ماشي؟

تساءل "دياب" مستفهماً:

-ليه اللي مايتكررش؟

أجابته بشفاه مقلوبة، وهي ترمقه بتلك النظرة غير الراضية:

-الحركات الي بتعلمها لابنك، ييوس البنات، عيب كده.

حمحم معلقًا بوجه مال للجديّة:

-في دي معاكي حق ...

لكن سرعان ما غطته بسمّة ساخرة وهو يختتم جملته؛ كأنما يريد إغاضتها كردّ مناسب لأسلوبها السمج في إدارة الحوار:

-بلاش بوس، نخليها أحضان.

جحظت عيناها مذهولة من تعليقه، والتفتت ناظرة إلى "تميم" تلومه:

-سامع صاحبك؟

هتف على الفور مصححًا، والقلق يملأ وجهه:

-سيهزر، وربنا ييهزر، ده إتني مش عارفة "دياب"، غاوي يقلب الجذ هزار.

حاوط "دياب" كتف طفله، ورسم ابتسامة مصطنعة على وجهه وهو يخاطبها:

-عمومًا احنا اتشرفنا يا .. أبلّة.

تعمد الضغط على الكلمة الأخيرة كأنما يغيظها باللقب لا يوقرها، وقبل أن

تفكر في الهجوم اللفظي عليه، استدار ساحبًا ابنه معه وهو يمتدحه بنبرة

شبه هازئة:

تعالى يا رافع راس أبوك، يا اللي جالبه وجاييله الكلام.
رغم سيره مع أبيه، إلا أن "يحيى" أدار رأسه نصف استدارة لينظر إلى
"رقية"، لوح لها بيده مودعًا إياها:
بأي يا حلوة.

بادلته "رقية" التلويح، فوكزتها "فيروزه" في جانب ذراعها وهي تهرها:
بس يا "كوكي"، كده عيب.

نكست الصغيرة رأسها في خجل، في حين تكلم "تميم" قائلاً بلطافة وهو
يشير بعينه نحو رفيقه وابنه اللذين ابتعدا عنهما:

لذيذ أوي "يحيى"، صح؟
نظرت له في غير اقتناع، قبل أن تنطق بتجهم ساخر:
أه فعلاً.

وجه "تميم" سؤاله للصغيرة، وهو ينحني للأمام ليبدو قريبًا من مستوى
نظرها:

لسه زعلانة يا "كوكي"؟
قالت نافية وهي ترمش بجفניה:

-لأ.

استقام واقفاً، ثم أسبل عينيه نحو طاووسه المزعوج متسائلاً في صوتٍ
تعمد جعله خفيضاً:

-واتي يا أبله؟

منحته نظرة غامضة لا يتبعها أي تعليق، فاستطرد يهمس لها بنبرة ذات
مغزى:

على فكرة، لو لسه مضايقة أنا ممكن أصالحك زي "يحيى"!

مجرد تخيل الفكرة في رأسها، ومحاولته تقيلها في وجتها، جعل قلبها يخفق،
وعيناها تتسعان، بل إنه حفز خلاياه، وجعل رعشة قوية تصيب
جسدها، تراجعت خطوة للخلف في تلقائية، ورفعت سبابتها تحذره
بتشددٍ غير ممازح على الإطلاق:

-إياك، أنا مش بحب كده!

أصابه الندم لرعوثه، واعتذر في لباقة:

-حقك عليا، ده أنا بهزر وربنا ...

أبقى عينيه عليها وهو يتابع الكلام بحزنٍ زائف:

-وبعدين أنا عارف نفسي، من يومي بائس، ومغضوب عليا.

اهتزت شفتا "فيروزة" عن بسمه خائنة، وأدتها في مهدا لتبدو جادة؛ لكنه التقطها، فقال مبتسمًا:

بس مسير المايلة تتعدل، والدنيا تحلو معايا.

داعبت كلماته فؤادها، وقاومت تأثيره اللذيذ عليها، ولئلا يبدو عليها تجاوبه مع السلس اللين من عذب عباراته، أشاحت بوجهها بعيدًا، وقالت بلهجة جادة وهي تشبك يدها في كف ابنة خالها:

يا لا يا "كوكي" عشان نتفرج على الزفة.

شيعها بناظريه إلى أن انغمسا وسط الحضور، فراح يردد مع نفسه في تهكم، ودون أن تفتر ابتسامته:

عقبال زفتنا .. اللي شكلها هتكون واحنا بنتخرج من الدنيا!

رفع أنظاره للسماء، وأخذ يدعو المولى بصدق:

يا رب يسرلي الحال، هون باللي فاضل، يا كريم!

.....

استعان بماسكة معدنية ليتمكن من تحريك حجر الفحم على أرجلته، فتزداد القطع توهجًا، وينبعث الدخان من خرطومها أكثر كثافة وقوة. حملت "سعاد" في وجه ابنها الذي بدا مغايرًا عما اعتادت أن تراه، واصلت

التحديق به بنظراتٍ مطولة مليئة بالحسرة والشعور بالخذلان .. ظنت أنها
تُطالع وجهًا شريفاً غير وليد رحمها، شخصاً آخرًا بدلته الأيام، وحولته لمسح
لا يعرف سوى القسوة والنكران. دنت منه وشملته بنظرة أخرى يكسوها
الحزن والقهر، ولدهشتها بادلها النظرات المستخفة، لم يطرف له جفن، ولم
يكثرث لأمرها، بل إنه جلس في سموٍ على المصطبة الخشبية، كأنه يجلس
على عرش "سبأ". لفظت كتلة مشحونة من الهواء من صدرها الملتاع،
وسأله بصوتٍ متلجلج:

-عملت كده ليه يا "فضل" في أبوك؟

أدار وجهه نحوها، ونظر إليها في صمتٍ، فتابعت بنفس النبرة المتألّمة:
هو يستاهل منك كده؟ بقى بعد العمر ده كله تبهده في آخر أيامه؟
ظهر الاختناق على صوتها وهي تواصل لومها:

هي دي وصية ربنا ليك؟ تحجر على أبوك؟!!

وكأنه لم يقترب جرماً يلومه عليه أهل الأرض جمعاء، نظر لها شزراً، ثم طرد
دخان الهواء الحارق من رثتيه قبل أن يرد موجزاً بتعالٍ:

حقي!

سأله في انفعالٍ بدأ في التزايد جراء طريقته المستفزة:

حق إيه؟ ده تعب أبوك وشقاه؟ عايز تاخده منه عافية؟ هو ده اللي اتربيت عليه.

بجودٍ مُطعم بصنوف القسوة المؤذية للروح أخبرها:

أه هاخده عافية وبالقوة، طالما قبل إنه يهدلني ويطردي من داري ...
احتدت نظرات "سعاد" نحوه، وحدجته بنظرة غاضبة اشتاطت مع قوله
الفج:

البيت ده معمول بفلوسي اللي كنت بيعتهالكم كل سنة، الطفح اللي كان
بيتجاب من فوايد فلوسي اللي شايلها في البنك، إخواني اللي اتجوزوا
واتبغددوا كان من شقايا ...

تدلى فكها السفلي في صدمة، بينما أكل "فضل" في عدائية:

ده أنا صرفت وأنا في الغربة أد ما صرف هو مليون مرة، فيها إيه لما
أحافظ على الفلوس اللي فاضلة بدل ما تضيع.

تحولت ملامحه للشراسة؛ لكن نبرته انخفضت إلى حدٍ كبير، مستحضرًا في
ذهنه مشاهد إذلاله في حضرة الغرباء لأكثر من مرة، فبدأ وكأنه يُحادث
نفسه بصوتٍ لم يتردد سوى داخله:

ما كفاية الذل اللي شفته، واللي راح مني عشان أفدي رقبتي.

حسناً لن تنكر "سعاد" أن مساهماته المادية قديماً في تيسير شئون المنزل المالية، فاقت بكثير ما كان ينفقه زوجها، خاصة في أوقات تزويج إخوته، ومع ذلك عنفته في نبرة مالت للحدية:

-أنت ومالك لأبيك .. هتستخسر كام قرش ادفعوا؟ ما هو كله في الآخر ليك إنت وإخواتك بعد عمر طويل!

هدر بها في حقدٍ، وقد اصطبغت حدقاته بحمرة الحنق:

-كام قرش!! دي ألوف ...

كانت على وشك الرد عليه والاعتراض مرة أخرى؛ لكنه أسكت لسانها بتهكمه الصارخ:

-بقولك إيه اللي متفهميش فيه، ماتكلميش فيه!

أطل الكدر من عينيها حسرة على ما أنجبت، وعاتبته في استياء مضاعف:

-بتبين أمك يا "فضل"؟ دي أخرتها؟

رمقها بنظرة احتقارٍ قبل أن يدس خرطوم الأرجيلة في فمه، فاستمرت "سعاد" في زجره:

حطب اعمل حساب الناس، هايقولوا عليك إيه دلوقتي؟

لوى ثغره هاتقاً في ازدراءٍ، بنبرة جعلها جافة صلبة كأنها زئير غاضب:

هو حد كان يطلع من جيبه ويديني؟!!!
ردت محتجة مجدداً على سلوكه المشين، والمرفوض بكل أشكاله:
بس إنت كده صغرت آ...
قاطعها في خشونة غليظة وهو يرفع كفه أمام وجهه كإشارة لإسكاتها:
ملكيش دعوة، أنا حر في مالي وما أملك!
ضربت كفها مرددة في تحسرٍ مقهور، وعيناها ترمقاه بنظرة العاجز، غير
القادر على التصرف في شيء:
يا حزني على ما جابت بطنك يا "سعاد"!
نهرها على بدء وصلة النواح السخيفة تلك بصياحه الجهوري:
ما كفاية ندب وتقطيم، دماغني ورمت.
أخذت العبرات تتجمع في طرفيها أسفاً على ما أفنت عمرها في تربيته،
غادرت المكان وهي تغمغم في يأس مقهور؛ لكن ذلك لم يهز شعرة من رأس
ابنها الجاحد، بل زاده عناداً وإصراراً على المضي قدماً في شروره:
من هنا ورايح أنا صاحب الكلمة ...
أظلمت نظراته، وغامت تعابير وجهه وهو يردد لنفسه بصوتٍ مسموع:

-أنا الأمر الناهي في البيت ده!

.....

بعد أن انتهى العرس، وغادر أفراد عائلتها باحة البيت الأمامي، توارت "هاجر" بداخل حجرة نومها بمنزلها الذي أشرفت على إعداده بالكامل وفق رغباتها، اتجهت في خطوات متهادية نحو مقعد تسريحة المرأة، وهي تحمل يديها جزءاً من ثوب عرسها، لئلا تتعثر فيه، شعرت بالتوتر يحتاجها، بنفس شعور الرهبة يتفشى فيها، ربما امتلكت من الخبرة الزوجية ما يؤهلها لتيسير أمورها في تلك الليلة الخاصة بحنكة وحكمة، ومع هذا بدت خجولة عن المعتاد. احتفظت بأفكارها المتخبطة لنفسها، وغرقت في الصمت، فلم تشعر بوجود "سراج" حولها، تطلع إليها الأخير مبهوراً بجمالها، الحلم غدا حقيقة واقعة، ويا له من شعور أن تذوب في أحضان معشوقك!

لم يتعجل في الظفر بما تخيله مؤخراً، ولجأ للحوار العادي لإذابة الجليد بينهما، فقال في جدية وهو ينزع رابطة عنقه المزعجة:

مش كنا جيينا "سلطان" معانا؟

نظرت "هاجر" إلى انعكاسه في المرأة من زاويتها، وخاطبته في نبرة أظهرت حرجها قليلاً:

-والله كان نفسي، بس أمي صممت ييات النهاردة بالذات معاها.

أخبرها بإصرارٍ وهو يخلع عنه سترته:

إن شاء الله من بكرة هاجبيه، ابني مايتش برا حضننا.

أثلجت عباراته العازمة صدرها، وبددت أي مخاوفٍ كانت تراودها بشأن علاقته المستقبلية برضيعها إن اكتملت الزيجة على خير، حينئذ التفتت إليه ناظرة في عينيه مباشرة، وسألته بتلهفٍ وهي تهض من مقعدها:

بجد يا "سراج"؟ أنت معتبره ابنك، ولا ده كلام بتراضيني بيه عشان تجبر بخاطري؟

دنا منها قائلًا بتأكيد، وعينه لا تنظران إلا لوجهها الناعم:

وربي المعبود أنا ماعتبروش إلا ابني من صليبي، والأيام هتثبتلك ده.

أسبلت عينها إليه، وقالت في ابتسامة رقيقة:

مصدقك يا "سراج".

امتدت يده لتمسك بكفها، شعر بلمس بشرتها على جلده، وراحت يده الأخرى ترتفع للأعلى لتتلمس وجنتها الساخنة، أحس بفيضٍ من المشاعر المتأججة تغمره، تهدد بعمقٍ وهو ما زال يتأملها في انتشاء، ليقول بعدها في صوتٍ هامس، له تأثير عجيب في أسر حواسها:

بس إيه الحلاوة دي، قر 14.

خفضت من رأسها نجلاً من نظراته الساهمة، وتكلمت بتلعثم طفيف وهي
تنسحب بلطف من أمامه:

-بلاش تكسفني بكلامك الحلو.

تبعها بنظراته المتحرقة شوقاً لارتشاف رحيقها المغربي وهو يُحادثها:
هو أنا لسه قولت ولا عملت حاجة؟

سارت نحو الدولاب، وادعت انشغالها بالتطلع إلى ما داخل ضلفتها، قبل
أن تقول بلهجة شبه جادة:

-لا أنا تعبانة، ويدوب هاكل لقمتين وأناام.

عاتها في نبرة لينّة:

-كده على طول، مش هنتسامر سوا؟ وناخد وندي؟ ده أنا مشاعري
قايدة نار

استدارت لتواجهه، وألصقت ظهرها بالضلفة الخشبية، ثم علقت في نعومة،
كأنما تدلل عليه:

-بكرة، ولا بعده.

رفع رأسه مستغرباً جملة قبل أن يهتف في حسم:

-بكرة ولا بعده! وربنا ما يحصل.

عيب يا "سراج"!

قالتها بدلالٍ مثير، كأنما رددت كلامها بحروفٍ غير الحروف العادية، تلك الحروف التي تطلق إشارات الرغبة والنشوة في خلايا الجسد الساكن، تبعها زوجها في لهفة، والشوق يهتاج في وجدانه، أغلق الباب ورائه إيذانًا ببدء ليلة دافئة ستعصف بكيانها مشاعره الجارفة، وتنقلها إلى عوالم حميمة تذوب فيها مرارًا وتكرارًا، متنعمة فيها بسحر الحب وإغوائه.

.....

على فراشه العتيق، وبين وسائده القديمة، استلقى "إسماعيل" بجسده الذابل وهو في حالة وهن شديدة، كأنما بلغ من العمر أرذله في بضعة ساعات، لم يأت بخاطره أبدًا أن يُقدم من جاء من صلبه على ارتكاب هذا الفعل المشين، وعلى حين غرة ليقسم ظهره، ويفتت ما بناه لسنوات. الجحود وقسوة القلب سمتان في غاية البشاعة، إن اجتمعتا في نفس أحدهم، خاصة المظلمة، فلن ترى منه إلا السواد الأعظم، والبغض الذي لا يضاهيه شيء!

وها هو قد اختبر بنفسه ظلام ابنه وإجحافه غير المنصف معه، كأنه عدو مقيت له لا والده الذي نشأ في كنفه. تساءل "إسماعيل" بغير صوت، وهو يتطلع بعينين فارغتين لنقطة وهمية أمامه:

حُب ليه يا "فضل"؟ أنا قصرت معاك في إيه؟

الخذلان المصحوب بكسرة النفس جعل قلبه يعتصر ألمًا على ما أفنى في ولدٍ لم يكن إلا طالحًا، ناكرا لكل شيء، حتى الإحسان! في النهاية كان كمن أنفق ماله على حديقة ظن أنها -في نهاية المطاف- ستصبح غناء، مليئة بما لذ وطاب؛ لكنها باتت خاوية على عروشها، فضاع ماله وجهده سدى!

تزايد شعوره بالوهن يغزو جسده الضعيف، تخشب أطرافه، وصار عاجزًا عن تحريكها قيد أنملة، بل إنه فقد الرغبة في هذا، كان على مشارف الموت بنظراته الخالية من الحياة، ووجهه الشاحب. فاضت من عينيه التعتيشتين عبرات احتوت على القهر، والحسرة، والألم، والانكسار. أحنى "إسماعيل" رأسه على صدره في خوارٍ مليء بالذل، وهذا الصوت ما زال يرن في عقله بحزنٍ عميق:

قلبي وربي غضبانين عليك .. أنا مش مسامحك.

ارتجفت شفتاه وهو يهسهس بصوتٍ متذبذب:

منك لله يا "فضل"، عمرك ما هتشوف طيب ...

اختنق الصوت المتقطع في جوفه وهو ما زال يردد:

-روح الله لا يسامحك ولا يعفو عنك.

كانت هذه كلماته الأخيرة، قبل أن يصير صوته حبيس جوفه، تقلصت عضلات وجه "إسماعيل" بشدة، جراء الألم الشرس الذي باغت عضلة قلبه المفطور، مزقته الوحزات الحادة، وانتشر- تأثيرها في صدره، شهقات مكتومة بدأت تصدر منه قبل أن تتحول لخرخرات متقطعة. أرجع رأسه للخلف محاولاً التقاط أنفاسه؛ لكن لا جدوى، انهارت أجهزته الحيوية، وراح الجسد المعذب في صمت يستسلم لسكرات الموت، وما هي إلا بضعة ثوانٍ وارتخت كافة الأطراف، وثقل الرأس وتمايل للجانب معلناً عن مفارقة الروح للجسد الفاني، ليتبع ذلك دمة أخيرة نفرت من عين انطفأ نورها نهائياً !!!

.....

الفصل المائة أربعة وستون

ممكن الأسرار الهامة .. جرى في المعتاد أن يكون بداخل غرف النوم؛ حيث تتواجد الخزائن، والأدراج الموصدة، لهذا كانت وجهته منذ البداية محددة، فقط فتش - باستخدام إضاءة كشاف هاتفه المحمول - عن الطريق إلى الحجرة، وجد ضالته بغير مجهودٍ يُذكر، ورغم كون الأثاث مغطى بالملاءات والأغطية البيضاء لئلا تكسوه الأغبرة، إلا أن المعالم الأساسية لكل قطعة كان بارزًا. فتح "حُسنِي" الباب، ودار بالإشارة المركزة على الأركان في مرة سريعة، قبل أن يُعاود الكرة ثانية في تمهّلٍ ليحدد موضع الدولاب.

سار ناحيته بخطواتٍ مهرولة، أمسك بأول ضلفةٍ ليفتحها، ولكون الدولاب قديمًا، فقد كان موصدًا بالمفاتيح، جذب اللوح الخشبي في عنفٍ ليتمكن من فتحه؛ لكنه فشل، سلط الضوء على باقي الضلف متوقعًا تواجد مفتاح منسوخ في واحدةٍ منهن؛ لكن دون جدوى! ضغط على أسنانه في غيظٍ، وهسهس لاعتنا:

إيه النحس ده؟ طب هفتحهم إزاي؟

أعمل عقله بتركيزٍ محاولاً الوصول لحلٍ عاجلٍ يُمكنه من فتح الدولاب، فكر في التفتيش في الأدراج، إذ ربما وضعت المفاتيح بواحدٍ منهم، بدأ مهمة

البحث الدقيق، غير مكترثٍ بترك بصماته في الأرجاء، لحسن حظه وجد ما يرغب بالدرج الأخير في تسريحة المرأة، كومة من المفاتيح المطابقة لتلك المستخدمة في الدواليب. التقط الكمية كلها، واتجه عائداً إلى الدولاب، يجرب واحداً تلو الآخر إلى أن تتمكن من فتح جميع الضلف، وشعوره بالانتشاء يزيد بداخله.

لم يهتم "حُسنِي" بإعادة كل شيء إلى مكانه، بل بدا أكثر تصميمًا على إظهار تواجده بالشقة. انتقل من رف لآخر يفتش في كل ركنٍ وفي عمق كل زاوية باحثًا عن أي من الأوراق التي تثبت تورط "خليل" في تزوير مستندات تفسير الشباب بصورة غير شرعية، أو أي دليل لأمر غير قانوني قد ارتكبه سابقًا لإدانته، وبالتالي تكون وسيلته في المساومة الجديدة، ومن منطق القوة!

.....

كان في غرفته وحيدًا، مهمومًا، متباعدًا عن حوله، غير منشغل بالثرثرات الجانبية عن أجواء العرس الذي حضره بلا ذهنٍ أو تركيز. جال بخلد "خليل" أن يكون "حُسنِي" قد قام بزيارة "حمديّة" في محبسها، ولربما عرف منها بعض التفاصيل الدقيقة مما لم يُفصح عنها له، انتقامًا منه، لكونه هجرها بعد جرميتها النكراء، لهذا زارها سرًا دون أن يُعلم أحدهم بهذا الأمر،

مستخدمًا التصريح الذي كان بحوزته صبيحة اليوم التالي لتهديده، مدعيًا
ذهابه إلى العلاج الفيزيائي.

عاد بذاكرته إلى حيث كان اللقاء، "حمدية" بعباءتها الحمراء، إيذاءً بقرب
تنفيذ حكم الإعدام بها، وهو بعكازيه واقفًا في انتظار قدومها، قابله بنظرة
بها كل كره الدنيا، وكأنه من استحثها على إلقاء نفسها في التهلكة، وإهدار
أرواح الأبرياء ظلمًا وبهتانًا. بدت ملامحها أكثر وجومًا، ونظراتها أكثر
عدائية، استطردت تخاطبه قائلة في ازدياء بعد أن ثركت بمفردها معه في
تلك الحجرة الرمادية الكئيبة:

دلوقتي افكرت تجيلي، وأنا بودع الدنيا؟
حاول الاستقامة في وقفته، وأخبرها بتلعثم:
إنتي اللي اختبرتي يا "حمدية" ط..ريقك.
صرخت به في عصبية:

-وأنا عملت كده ليه؟ مش عشان خوتنتي؟ اتجوزت وعشت حياتك،
وحرقت قلبي على نفسي .. ومن بعدها عيالي.
برر مدافعًا عن نفسه بلهجة جاهد أن تكون غير مهتزة:

-أنا مقص..رتش معاكي في حاجة، أنا كنت بعام..لك بما يرضي الله، كل
اللي كنتي بت..عوزيه كنتي بتلاقيه وزيادة.

احتقن وجهها، وتحول لمزيد من الإحمرار وهي ترد عليه:
-ده حقي، وحق ولادي.

رمقها بنظرة متأففة قبل أن يعقب في أسف:

-هت..فضلي زي ما إيتي، مش ش..ايقة إلا نفسك.

لم تتحمل تلك نظرة الإشفاق في عينيه، فقست عينها أكثر وهي تسأله:
-جاي ليه يا "خليل"؟

صمت ونظر إليها في تمنٍ، فأكلت صراخها:

-تشتت فيا؟ تشوفني قبل ما رقبتى تتعلق على حبل المشنقة؟

انقلبت تعابيرها بشدة، وتابعت في اتهام صريح:

-ولا تلاقي أختك وبناتها السو موصينك تعمل كده، ما إنتو كلكم
بتكرهوني.

دافع عن شقيقته قائلاً:

-هما أح..سن منك، رغم ظلمي ليهم س..محوني، وما تغيروش معايا.

هتفت مؤكدة في حرقه متهمه:

أه طبعًا، لازم يسامحك وياخدوك تحت جناحهم عشان يلهفوا كل حاجة في الآخر، ما إنت زي ما أنا شايقة رجلك والقبر.

حدجها بنظرة غير نادمة، وقال بجدة طفيفة:

أنا كنت مفـ..كرك اتغيرتي، نـ..دمتي على اللي عاملتيه، طالبة السمـ..اح قبل ما تقابلي وجه كريم.

ضحكت في حقد قبل أن تبتز قهقهاتها المريضة لتخبره:

أطلب السماح منك إنت؟

اشتطت نظراتها على الأخير، وصرخت في تشدد:

لأ، مش هنولها لك يا "خليل".

تلون وجهها ببغض يتضاعف مع كل لحظة وهي تصرح له بشراسة:

تعرف أنا جزء من ناري برد لما قتلت مراتك، ولو رجع بيا الزمن كنت قتلتها بدل المرة عشرة، والمسخوطة بنتك اللي عايشة في نعيي وحق ولادي اللي راحوا هدر، لو كنت فضلت برا كنت دبحتهالك، حسرتك عليها.

عجز عن الرد عليها من صدمته، وحاول مجاراتها مرددًا:

إنتي بني آدمة آ...

لم تعطه الفرصة لإكمال جملته، حيث انقضت عليه، بكل ما فيها من عدائية، شراسة، غضب، تريد الإطباق على عنقه، وخنقه، قست يداها على مجرى نفسه وهي تتوعده:

أنا هقتلك إنت كمان، هي موة ولا أكثر.

باغتته الصدمة، فانتفض مفزوعًا، وترك عكازيه يسقطان على الأرض ليتسببا في إصدار صوتٍ عنيفٍ لافتٍ للأنظار، جاهد لتحرير رقبتة منها، انحبست أنفاسه مع زيادة ضغطها المؤلم عليه، بالكاد انفلتت منه استغاثة متحشجة:

الح..قوني.

مع التطور المتلاحق في أقل من بضعة ثواني تدخل أفراد الأمن لتخليصه من براثنها، وإبعادها عنه، قال أحدهم كأنما ينهرها في غلظة:

سبيه يا "حمدية"، ابعدي عنه.

وتولت سيدتين تعملان في حراسة سجون النساء تكييلها؛ لكنها صاحت في جنونٍ وهي تتلوى بجسدها للإفلات من القبضة الأمنية:

هموته، مش هاسبيه يعيش.

صاح مسئول المكان بلهجته الآمرة:

خدوها من هنا.

استمرت "حمدية" في صراخها المتهاج وهي تُجرّ جراً إلى الخارج:

هموتك يا "خليل"، هموتك وأقهرك على كل حاجة في حياتك.

ارتخت أطراف زوجها في ذهول، فالّقى بثقله على المقعد القديم، محاولاً

استجماع شتات نفسه، ولسان حاله يردد:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

استفاق من هذا الشرود القاسي على شعوره بالثقل والضيق الشديدين،

أخذ يخاطب نفسه في ندم:

-أنا كنت إزاي معمي كده ومش شايف السواد اللي جواها؟!!

من حديثه معها لم يتأكد إن كانت متورطة مع "حُسنِي" في تحويل حياته

إلى جحيم، فظل على وضعه الحائر، والهواجس المخيفة تسيطر على كامل

تفكيره.

.....

بكل ما لذ وطاب، امتلأت مائدة السفرة بأصناف الطعام المطهو منزلياً،

وكذلك المُعد في أحد المطاعم الشهيرة، ليحظى الزوجان بوجبة عشاء دسمة

وسخية في ليلة عرسها المميزة. بعد أن تذوقا بوادى السعادة والاقتراب الحميمي، جلس كلاهما عند الطاولة، ترأس مقدمتها "سراج"، بينما جلست زوجته على ميمينته، وراحا يتناولان المأكولات باستمتاع لا يخلو من ضحكٍ وملاطفات مرحة، أجمت من لهيب الشوق بداخلهما، وعززت من عمق الرغبات بينهما.

أدار "سراج" طبق الدجاج المشوي للجانب، ليتمكن من نزع قطعة من اللحم الشهى بإصبعيه، ثم مد ذراعه نحو زوجته، وقرب اللقمة من فمها قائلاً بإصرار تشوبه المحبة:

تعدميني لو مكالتيش اللقمة دي.

أرجعت رأسها للخلف لتتجنب ملامسة الطعام لشفتيها، ورفضت بتهديب وهي تشير بيدها:

-والله شبعت، مابقتش قادرة.

ألح عليها بعينين تُطالعان إياها في هيام:

حبيب قطعة صغيرة، حته بس.

استسلمت أمام نظراته الساحرة في ملامحها بوله؛ فأشعرها بتأمله الحالم، بأنه يُجالس إحدى ملكات جمال الكون، وقالت في نعومة متدللة:

دي وخلاص.

فتحت فمها لتأكل اللقمة من يده، ووجهها يبتسم، فاستطرد معلقاً في
تحميس:

-ألف هنا.

انتظرت "هاجر" لأقل من دقيقة حتى مضغت الطعام وبلعته، لتنهض من
مقعدها، ويداهما تجمعان الصحون المتسخة والفارغة. نظر لها زوجها
مدهوشاً، وسألها:

-إنتي هتعملي إيه؟

أجابته في تلقائية وهي تنظر إليه:

هلم الأطباق، وأروق السفرة.

نهض بدوره من مقعده، وأرجعه للخلف، ثم أمسك برسغها، ومنعها من
إتمام عملها قائلاً بلهجة غير ممازحة:

-لأ سيبى كل حاجة في مكانها، مش عاوزك تعملي حاجة نهائي.

اعترضت عليه بحاجبين معقودين:

ليه بس؟

سلطت أنظارها على الأطباق المفرودة، وتابعت:

ده ربع ساعة وهاكون منضفة كل حاجة.
أبعد "سراج" يدها قبل أن تمسك بالصحن، وقال في إصرار:
-النهار ليه عينين، وفي اللي هايحي يريحك.
حاولت المناس من قبضته اللطيفة، وتمسكت برأيها قائلة:
-أنا مبجش حد غريب يخش بيتي ..
تطلع إليها في تعجب، وهي ما تزال تُخاطبه موضحة أسبابها:
ده غير الناس لو جت تباركلنا في الصباحية هايقولوا إيه والبيت متهدل
كده؟!!!
مسح المكان بنظرة سريعة قبل أن يحتاج:
فين البهدة بس؟
ردت مشيرة نحو مائدة الطعام:
هنا أهوو.
ارتفعت يده لتلمس وجنتها في نعومة قبل أن يخفض صوته ليكلّمها بصوتٍ
أقرب للهمس:
حطب وهما أصلاً مالهومش دعوة باللي بيحصل في بيتنا.

اعترضت في عبوس مصطنع لتكمل:

يا "سراج" آ...

قاطعها بابتسامة مبتهجة مسبلاً نظراته نحوها:

عيون "سراج".

حاولت الفرار من أمام موجة مهددة بمشاعر أخرى شغوفة أشعلت فتيل الرغبة بداخلها:

سيبني بس أخلص.

احتضن كفيها بيديه، وغازلها بغمرة من طرفه:

-أنا عايزك تركزي معايا، وتقولي كده، إنتي كل شوية بتحلوي بزيادة، إيه السر؟

التوت رقبتها قليلاً في حياءٍ، وتحاشت النظر إليه قائلة بضحكة خجولة:

-الله! ماتكسفينيش بقي يا "سراج".

امتدت ذراعه لتحاطبها من كتفيها، وأدارها ليسحبها إلى صدره قبل أن يجذبها لتسير في اتجاه العُش الشاهد على ميلاد حبهما:

-أنا كده مش هعرف أسيب البيت وأبعد عنك بالساهل.

ضحكت في نعومة، فصاح مهلاً:
-وربنا أنا أمي دعيالي في ليلة مفترجة.
استمر في توجيهها بتؤدة وهو يمازحها بكلماتٍ موحية، وتلك النظرة المتقدمة
تبرق في حدقتيه:
-تعالى جوا هاقولك كلمتين إنما إيه حكاية.
اعترضت في دلالي:
-طب مش تستنى أما نحلي الأول.
رمقها بتلك النظرة العابثة وهو يهمس لها:
-أحلى وأنا معايا طبق الحلويات كله؟
لكزته في صدره بغير قوة وهي تتدلل عليه:
-يووه عليك، مش هتبطل؟!
غازلها عن قصدٍ وهو يحتويها في أحضانه:
-أنا لسه ببتيدي يا "أم العيال".
رفعت حاجبها متسائلة في دهشةٍ لا تخلو من غبطة:
-أوام عملتني "أم العيال"؟

قال مؤكّداً بصدقٍ؛ كأنما لم يرَ سواها أمّا لأبنائه:
هو أنا أطول.

حيثُند شعرت بقوة المحبة الطاغية تجتاحها، بالرضا الكبير يملأ صدرها،
وكأنها نالت في نهاية صبرها الطويل مكافأة الله لها، لفت ذراعها حول
جسده، ودعت له في تهيدة:
-ربنا يخليك ليا ..

انخفضت نبرتها بشدة وهي تتم جملتها:
عوض ربنا مالوش زي .. الحمد لله يا رب.

.....

اجتمعا بعد أن تفرقا، التقيا بعد أن تباعدا، أصبحا بمرور الأيام أكثر تناغماً،
تفاهماً، وانسجاماً؛ كأن برعم الحب الناشئ بينهما قد نضج، وأزهرت وريقاته.
بات يومها لا يبدأ ولا ينتهي إلا بالحديث معه، ليغدو -بعد طول انتظار-
جزءاً أساسياً من حياتها، لا تريد الاستغناء عنه، تبقى لها خطوة أخيرة،
وأكيدة، توطيد هذا القرب بتلاحم جسدي في إطار شرعي، تذوب فيه
الأرواح، وتتشكل في كيانٍ متحد. وقفت "فيروزة" عند نافذة غرفتها
المضيئة، تداعب بإصبعها طرف الحجاب المحلول حول رأسها وهي تتأمل

الطريق من زاويتها، ارتسمت ابتسامة رقيقة على ثغرها وهي تكمل حديثها
بهدوءٍ عبر هاتفها المحمول:

ما أنا قولتلك مالهاش لازمة الأعدة عند "همسة"، خليها تاخذ راحتها في
البيت.

خاطبها معترضًا في انزعاجٍ لم تفهمه:

مجاتش من يوم ولا اتنين يا أبله.

أخذت تنظر إلى طلاء أظافرها، وانتقلت للحديث عما فعله رفيقه وابنه من
مداعبات متجاوزة بعض الشيء، استطاعت أن تسمع صوت ضحكاته
المستمعة وهي تشتكي إليه، فتبدلت نبرتها للعتاب عندما نطقت:

لولا إنه كان صاحبك مكوتتش عديت اللي حصل.

نما إلى مسامعها صوت تهيداته، فاستمرت تقول:

ما هو مش حتت ولد صغير يضحك على "كوكي" بحركاته دي.

وقبل أن يفكر في التبرير حذرتة وهي تستند بيدها على حافة إطار النافذة:

-ومتقولش إنهم عيال.

سمعتة يتكلم أخيرًا في إيجازٍ بعد صمتٍ غريب:

حاضر.

بدت وكأنها غير راضية عن رده المقتضب، فعنفته دون أن تسيء إليه:
-بس كده؟ ده ردك، إنت مابتكلمش ليه؟ وتأخذ وتدي معايا، قول
رأيك، هو أنا غلطانة في ده؟

قال في هدوء:

-لا.

ظهرت رنة الاحتجاج في صوتها وهي تُعيد عليه سؤالها:

-أومال مش بتقول رأيك ليه؟

أخبرها ببساطة أريكتها في التو:

-لأني عاوز أسمعك ويس.

رغم البهجة التي شعت في روحها جراء جملة الصديقة، إلا أنها استنكرت في
نعومة:

يا سلام؟

أكد عليها بما أنعش قلبها وملأه بدفعة من المشاعر الجياشة:

طبعًا، أنا لحد دلوقتي مش مصدق إني بكلمك عادي كده، إن بقى بيني
وبينك حاجات ومحتاجات.

كان حذرًا في التصريح عن مشاعره؛ لكن مضمونها المُبطن وصل إليه بكلماته التلقائية. على ما يبدو ما قيل لاحقًا من عذب الكلام لم تنتبه إليه، فقد استرعى انتباهها ذلك الظل المتحرك في باحة البناية، ركزت كل نظراتها عليه محاولة تبين ملامحه وسط الظلام السائد، دق قلبها في سرعة تأثراً بالرهبة المبالغتة التي تسربت إليها، انطلق لسانها يتساءل في تحير مرتاع:

-مش معقول، مين ده؟

من صوتها الخائف توتر "تميم"، وتساءل بلهفة قلقة:

-في إيه؟

جمدت "فيروزة" نظراتها على الوجه المبتسم في شرٍ بعد أن تحرك ليقف في بقعة مضيئة متعمدًا أن تراه، ليُعلم الجميع بوجوده في محيط العائلة، شَخِص بصرها فزعًا، وتصلبت في مكانها مصعوقة. رفع "حُسنِي" يده ليلوح لها صائحًا بصوتٍ جهوري تقريبًا لتتمكن من سماعه:

-سلام يا قُطة ..

هبط قلبها بين قدميها، وتضاعف شعورها بالرعب وهو يواصل الكلام مؤكدًا لها أنها ليست مرتة الأخيرة:

-أنا جاي ثاني .. عشان أخد اللي ليا.

فهمت بعبارة الموحية هذه أنه يقصد الصغيرة "رقية"، نظراته الخبيثة وملاحمه الدنيئة أصابتها برجة كلية، لم تتوقف عن متابعته بنظراتها المرعوبة حتى غادر المكان، لتنتبه بعدها لنداء "تميم" من الطرف الآخر في خوف شديد:

-ردي عليا يا "فيروز"، في إيه اللي حاصل عندك؟
تداركت نفسها، ولملمت بعثرتها اللحظية أمام هول المفاجأة المفزعة، لتخبره بأنفاس مضطربة وهي بالكاد تحاول السيطرة على نوبة الخوف التي تفشت في أوصالها:

- "تميم" إلحق، خال "رقية" كان نازل من عند بيتنا
!!!

.....

الفصل المائة وخمسة وستون

كل ما فيها رقيق، ناعم، يدعو للتوق والرغبة، كان بجديته معها يشبع جزءاً
ضئيلاً من مشاعرٍ تُريد أن تتفجر كالعيون من أعماقها، ترك لصوتها مهمة

تخدير حواسه، التسلسل تحت جلده، وإشباع خلاياه بعذب تهديداتها، حتى أصبح مدمناً لكل ما يصدر عنها .. صبر واصطبر، وأطال في انتظاره رغم الشوق الذي يُضنيه، لعل الروح -في نهاية السعي- تستكين بساكنها.

التبدل السريع في نبرتها، وما أتبعه من إعلامه برؤيتها لـ "حُسنِي" جعله يبلغ قمة غضبه وخوفه، انتفض كالمذعور عائدًا إلى داخل غرفته، كان الهاتف ما زال ملتصقًا بأذنه وهو يُخرج من ضلفة دولابه ثيابه ليرتديها على عجلة، أمرها مشددًا وهو يلتقط مفاتيحه كذلك ليدسها في جيب بنطاله: -اقفلي الباب عليكم كويس، أنا جاي في الطريق.

أتاه صوتها خائفًا وراجيًا:

-حاضر، ماتتأخرش.

وكان صافرات الإنذار بإعلان الحرب قد انطلقت في الأجواء ليتأهب الجميع ويتخذوا وضعية الدفاع المستميت، خرج "تميم" مهرولاً من غرفته، ليتجه صوب باب المنزل، لم يملك أفضلية الوقت ليقف ويطيل الشرح والتفسير لعائلته عن سبب خروجه المتأخر، ليأتي التبرير لاحقًا. ما إن كان على السلم حتى هاتف "ناجي" بلهجة غليظة قاسية:

-إنت فين يا "ناجي"؟ والرجالة اللي بيأمنوا المكان مش موجودين ليه؟

أجابه في اندهاش:

كله كان في الفرع يا ريسنا، احنا كنا بنقوم بالواجب وآ...
قاطعه في حدة:

أهوو اللي كنت خايف منه حصل، والبأف إياه موجود عند الجماعة.
دون إضاعة وقت في فهم التفاصيل أخبره في التو:
على طول هنكون عندك يا كبير.

جاءه صوته صارخًا أكثر منه أمرًا وهو يهتف به:
أوام.

أنهى المكالمة وهو يقفز آخر درجتين ليركض في اتجاه سيارته، ظل لسانه
يردد في رجاء:

ربنا يستر، عديها على خير.

لم ينتظر إعادة تسخين المحرك، لتسير السيارة بسلاسة، بل إنه أدارها
بخشونة غير مكترث بالزجرة الصادرة عنها، اشتاطت حدقاته، واصطبغت
بجمرة غريبة وهو يصر على أسنانه مغمغمًا في هسيس حائق:

اقسم بالله لو مس حد منهم بشعره، لهخليه يقول حقي برقبتي من اللي
هعمله فيه.

.....

عاد الرعب ليسري في بدنها بعد أن تناست ذلك الشعور .. المطمئن قليلاً
وسط هذه المخاوف المستجدة عليها أن هناك من تستند عليه بحقي، من
أصبح بمواقفه جدارها المنيع، يزود عنها الأهوال بلا تردد. امتثلت "فيروزه"
لأوامر "تميم"، وجرت نحو باب منزلها لتتأكد من غلقه، أنارت معظم
الإضاءة، وحاولت قدر المستطاع أن تغلق كافة النوافذ، وقلبها ما زال
ينبض بعنف. على إثر حركتها المستريية في هذا التوقيت، خرجت "آمنة"
من غرفتها تسألها وهي شبه ناعسة:

-في إيه يا "فيروزه"؟ ليه الدوشة دي؟

بصوت خافت عكس رجفتها قالت:

-خال "رقية" كان موجود هنا.

شهقت لاطمة على صدرها قبل أن تسألها في جزع وهي تدور ببصرها في
المكان:

-هنا فين؟

هزت كتفها قائلة وهي تشير بيدها:

-معرفش، بس أنا شوفته خارج من باب العمارة.

لطمت مرة ثانية على صدرها وهي تولول بتوجيس أشد:

يا نصيبي، لأحسن يكون ناوي على نصيبة.
نظرت إليها نظرة مرتاعة مثلها، في حين تابعت "آمنة" متسائلة بنفس
الصوت المفزوع:

حطب والعمل إيه؟ ده جاز يكون متفق مع شوية عصبجية يأذونا ولا آ...
قاطعتها وهي تطبق على جفنها محاولة ألا ينساق تفكيرها للأسوأ:
هو مشي أصلاً.

هتفت والدتها تأمرها في نفس النبذة الملتاعة:

-كلمي أختك قوليلها.

علقت في استنكار:

-السعادي؟ هقلقها معانا يعني؟ تفتكري هتسيب بيتها وتجيلنا دلوقتي
تشوف حل؟

لوت ثغرها مرددة في تحير لا يخلو من خوف:

-يعني هنتصرف إزاي؟ ده شكله مش ناوي يجيها لبر.

ظهر التردد على محياها إلى حد ما وهي تخبرها:

-أنا كلمت "تميم" وهو جاي في الطريق.

على ما يبدو لم تلحظ خجلها من اللجوء إليه، وعقبت في استحسان:
-كويس .. بس لازمًا نصحي خالك ونقوله.
هزت رأسها توافقها الرأي:
-ماشي.

استدارت "آمنة" متجهة نحو الرواق لتسرع الخطى وهي تكلم نفسها:
-استرها معانا يا رب، ده احنا غلابة.

.....

النظرة المتألقة في عينيها ناحيته في هذه اللحظة، كانت تحوي كل ما تمناه
يومًا معها، وإن لم يرها فعليًا تنظر إليه، فقط لو استدار وأبصر ما يضمه
القلب بحق، لتناسى هموم الدنيا وأثقالها. انشغل "تيم" مع من جاءوا معه
لفحص شقة خالها بتدقيق، وليتأكد أيضًا من تأمين البناية، بعد التقصير
الملحوظ في حماية الأعلى إليه. غادر رجاله الصالة، وتجمعوا بالأسفل في
انتظار جديد أوامره، بينما بقي في موضعه يفكر بعمق في الدوافع التي
جعلت "حُسنِي" يقوم بتلك الخطوة الجريئة رغم تهديده الصريح له. التفت
نحو "فيروزة" أولاً ليرى في عينيها نظرة سلبت لبه، وجعلته طامعًا في
المزيد، نظرة لم يشبع منها بعد، بصعوبة توقف عن تحديقه كالمهور فيها
ليتكلم موجهاً أسئلته لوالدتها وشقيقتها:

-مافيش حاجة ناقصة؟ إنتو متأكدين؟

أجابت "آمنة" بإيماءة من رأسها:

-أيوه، الحاجات المهمة كنت طلعت لميتها وسبيتها تحت عندنا.

أيدها "خليل" قائلاً كذلك:

-حتى الدهب، شايله في الدولاب جوا شكم..جية بقفل.

تساءل "تميم" في تحير أكبر وهو يمرر يده أعلى رأسه:

-يبقى كان جاي ليه؟

قالت "فيروزة" بنوع من التخمين، وقد انعقد حاجباها:

-ممکن حركة يخوفنا بيها، أو كان عاوز يشوف سكة يعرف ياخذ بيها "كوكي".

استبعد حدوث الأمر مفسراً:

ماظنش، لأنه مش هيوط نفسه في حاجة ممكن تتاخذ قانونياً ضده، وخصوصاً إن "رقية" حضانتها مع أبوها، ولو بفرض قدم ورق إنه مش قادر على رعايتها عمتها موجودة.

اندهشت "فيروزة" لتحليله المستفيض، وسألته بدافع فضولي متنامي بداخلها:

-إنت عرفت الكلام ده منين؟
منحها نظرة كاملة وهو يجيبها بثقة:
-سألت المحامي عشان أطمئن.
تضاعفت التساؤلات في عقلها، ولم تمنع نفسها من الإفصاح عن أحدهم:
-وايه اللي يخليك تعمل كده؟
كان رده تلقائيًا غير مراوغ:
-بعد ما قعدت مع خالك كنت محتاج أعرف كام حاجة كده.
باغتها اعترافه، وتساءلت في استهجان؛ كأنما لم تبدُ راضية عن قدومه في غيابها:
هو إنتو اتقابلتوا وأنا معرفش؟
رأى تعبيراتها المزعوجة، فاسترعى ذلك انتباهه، أحقًا استاءت لعدم لقاءها به؟ شعر بالنشوة تغمره لمجرد الفكرة، فاستطرد ملطفًا:
دي دردشة عادية.
لم يكن الوقت مناسبًا لنشوب أي جدالٍ، لهذا تجاوزت عنه مرغمة،
وقالت بتعابير منقلبة نسبيًا:

-أوكي.

بقيت أنظاره عليها للحظاتٍ إلى أن قطعت تأمله السارح فيها "آمنة"
بسؤالها:

حطب المفروض نعمل إيه دلوقتي ؟ نبلغ البوليس ولا آ...
قاطعها بحزمٍ قبل أن تنهي جملتها:
هتقولوله إيه ؟

نظروا إلى بعضهم البعض بنظراتٍ حائرة، فتابع كلامه المنطقي:
ده غير إن مافيش شهود تثبت إنه اقتحم الشقة، لأن معظم الحاجة زي ما
هي في مكانها، يعني غرضه يدور على حاجة معينة، وملقهاش.
هتفت "فيروزة" متسائلة في تحفز:
-يعني هنسيبه ؟

ركز عينيه عليها قائلاً بوجهٍ جاد:
-لا طبعا، ليه حسابه.

اقتربت "آمنة" في ترددٍ وهي تشير بيدها:
حطب ما تتكلم معاه ونشوف غرضه.

أدار رأسه في اتجاهها، وأخبرها بلهجة لم تسترح لها "فيروزة"، حيث
استشعرت خلالها نية مُبَيَّنة على القيام ضده بأمرٍ خطير:
هـيـحـصـل.

.....

اشتعل صدره ولم يهدأ، وزادته نيران النارجيلة التهاباً، نفث الدخان في
عصبية، وراح يشد نفساً آخرًا يؤجج به الألسنة المندلعة بين ضلوعه،
ظهرت حمرة الغيظ في عينيه، وامتزجت بغضبٍ لا يهدأ. راقبه زميله
الجالس معه على المقهى الشعبي بنظراتٍ شبه ساخرة، قبل أن يهزأ منه
علناً:

-يعني زي ما روح زي ما جيت ؟
كز "حُسنِي" على أسنانه قائلاً باقتضاب متجهم:
أيوه.

تكلم زميله في جدية:

-وليه اللف والدوران ده كله ؟ ما تطلب اللي إنت عاوزه وش.
استخف باقتراحه البسيط معلقاً بوجوم حائق:

من غير ما يكون معايا حاجة أمسك رقبتك بيها، ويكون تحت رحمتي !!؟

أخبره في نفس الهدوء المناقض لغضبه المتعصب:
-مش معاك باقي وصلوات الأمانة؟
هز رأسه موضحًا، وخرطوم النارجيلة بين شفتيه:
-أيوه، بس سهل يدفعهم، مالهومش قيمة أد كده دلوقتي.
اقترح عليه في خبث:
طب ما تلعبه بالحيلة؟
انزوى ما بين حاجبيه في حيرة وهو يسأله مستفسرًا:
-إزاي؟ مش فاهمك!
برزت ابتسامة شيطانية على محياه وهو يمتدح دهائه:
-أنا بردك اللي هفهمك؟ ده إنت أستاذ في اللعب بالبيضة والحجر.
زجره في صبر نافذ:
-ياض أنا مخي مقفل دلوقتي مش فايق أفكر، ولا أقرى عُقب الحكاية.
حرك رأسه بإيماء صغيرة قبل أن يميل ناحيته ليخاطبه على مهل:
-ساومه، فهمه إن معاك اللي أهم من الوصلوات، واشتري منه وماتبعش.
سأله ليتأكد مما استنبطه منه:

-يعني أقول معايا ورق مش موجود أصلاً؟

رد مؤكداً ببسمة صغيرة واثقة:

-أيوه، بس اتكلم بقلب كده، حسسه إنه رايح في داهية وجُر رجله لحتتك، ساعتها هتلاقيه بقى زي الكتكوت المبلول.

على ما يبدو لاقت الفكرة غير المتكلفة استحسانه، فاسترخى في مقعده، وغاص فيه قائلاً وهو يلامس بالخرطوم شفته السفلى:

حبيب سييني أنمخ كده وأسويها في دماغى.

أمسك زميله بكوب شايه ليرتشف الجزء الأخير الباقي منه، رفعه إلى فمه مردداً في غرور واضح:

-سويها لحد ما تستوي .. وادعيلي.

.....

استدعاء النوم في تلك الليلة، وبعد تلك التجربة الانفعالية، كان أمراً مستبعداً بالنسبة لها، تقلبت على جانبها في سريرها كل بضعة دقائق، سحبت الغطاء أعلى رأسها لتمنح نفسها المزيد من الظلام، إلا أنها ظلت أبعد ما يكون عن الغفلة .. وبالرغم من يقينها بأنه لم يتركها بمفردها، ووضعه

رجالاً حول محيط المنزل لمراقبته جيداً، إلا أن رهبتها كانت تتجدد بين الفنية والأخرى بداخلها.

كان كمن يشعر بها، صدح رنين هاتفها، وشق السكون السائد في غرفتها، فانتفضت معتدلة بعد أن أزاحت الغطاء عنها، لتمد ذراعها وتلتقطه من على الكومود، ابتسامة سعيدة ارتسمت على محياها مع قراءتها للقب "المعلم" الذي يحتل شاشتها. استهلت حديثها في صيغة تساؤلية بعد ضغطة سريعة على زر الإيجاب:

-إنت لسه صاحي؟

تهيدة عميقة التقطتها أذنها قبل أن يخبرها صراحة:

-وهايجلي نوم إزاي بعد اللي حصل؟

أراحت "فيروزة" ظهرها على الوسادة، وأمسكت بخصلة من شعرها المهوش تلفه على إصبعها وهي تتساءل في صوت مُرقق:

-إنت خايف عليا؟

اعترف لها بما نفذ إلى قلبها، وجعله ينتفض في ابتهاج:

-إن مكوتش هخاف عليك، هخاف على مين؟

صمت كأنما تستمتع بتأثير كلماته على خلاياها الحسية، فتنقلها إلى عوالم وردية، تشكلت في الفراغ من حولها، حيث تماوجت فيها الأحلام وازدهرت، أغمضت عينيها ليكتمل هذا الشعور الدافئ الباعث على الراحة والسرور، لم تشعر باستطالة سكوتها، فانتبهت لصوته المتسائل في جدية:

إمتي كويسة؟

لم تخبت هذه الابتسامة الراقية عن وجهها وهي تعترف له بصوت أقرب للهمس الناعم:

-بقيت أحسن دلوقتي.

وصله شعورها رغم عدم رؤيته لها، فقال كأنما يداعب وجدانها:
ده عندي كفاية.

لوهلة أحست بالندم لإرجائها تأجيل عقد القران، أليس من حق هذا القلب المتعب أن يستريح من الهموم التي تثقله؟ لماذا كل هذا التردد وهي متأكدة مما تكنه له؟ حتى في جلساتها الأخيرة مع طبيبتها "ريم" كانت لا تتوقف عن الحديث عنه، تأتي على ذكره في كل شاردة وواردة، لم ينقصها سوى إطلاق العنان لدفعة المشاعر المقيدة لتحلق في فضاء البهاء والهناء.
مرة أخرى انتشلها "تميم" من شرودها اللحظي متسائلاً:

مالك؟ ساكنة ليه يا .. أبله؟

التردد الظاهر في نبرته وهو ينطق حروف لقبها جعلها تتحفز، فسأله في
جدية:

هو أنت مش عاوز تقول اسمي ليه؟ على طول بتناديني أبله.. وأنا بقولك
يا معلم!

سكت لبرهة كأن الكلمات تاهت منه، لم تتعجل جوابه، وشاركته الصمت،
لينطق أخيراً بجذر:

إن كان عليا عاوز أناديكي بيه ليل نهار، بس الرك عليكى توافقي.
فهمت ما يرمي إليه مع ختام عبارته، فتهدت بصوت مسموع، وقالت بما
بدا موحياً له:

جائز ربنا ييسرها قريب.

هتف في شوق غارق في اللهفة:
-ياريت.

ادعت تشاؤها وهي ما تزال تبتسم، ثم استطردت متبربة منه:

هنام بقى، عاوز حاجة مني؟

اعترفت شفتاه بما ترجوه الروح، والنفس:

عاوزك إتني.

دق قلبها في ريكّة، وقد كسا بشرتها حمرة ساخنة، استجمعت شتاتها الذي
تبعثر مع وجده الثائر لتردد بتلعثم نجول:

تصبح على خير.

أنهت الاتصال في التو، قبل أن تسمعه يقول بكل ما ملأ قلبه من رجاءات
لا تفرغ:

تصبحي وانت معايا وويايا.

.....

تهيأت لأداء صلاة الفجر قبل أن يبرز خيط النهار الأول؛ لكن هذا
الشعور الخانق، الجاثم على صدرها، منعها من التركيز، بالكاد انتهت من
فرضها في الصلاة، لتنهض بتثاقلٍ من على المصطبة، وسارت الهوينى في
اتجاه الممر الصغير المؤدي إلى غرفة زوجها الذي ما زال حبيس جدرانها.
دقت عليه الباب، ونادته وهي تدير المقبض لتفتحه:

يا حاج "إسماعيل"! الفجر هيروح عليك.

كان موصداً من الداخل، فانتظرت لهنية حتى يُجيئها؛ لكن لا شيء .. لا
شيء مُطلقاً! ألصقت أذنّها بالباب، وواصلت الطرق، وهي لا تزال تُلح
عليه:

إنت متعودتش تتأخر على فرض ربنا مهما حصل.
وقفت في مكانها مُتحيرة، ثم كررت عليه بالحاج:
يا حاج "إسماعيل"، خصيمك النبي لتطلع.
تابعت دقاتها المزعجة على الباب دون كللٍ، مما اضطر ابنها للنهوض عن
فراشه ليعنفها في جحود:
إيه يامه الدوشة دي؟ هتهدي البيت؟
نظرت له شرراً، وقالت في عبوس:
بشوف أبوك، ولا ده كمان بقي مضايقتك؟
علق في سخطٍ صارخ وهو يدعك وجهه الناعس:
مش بالشكل ده، إيه! مش عارف أنا!
عاتبته في استياءٍ مستنكر:
يعني مش كفاية إنه حابس نفسه في الأوضة من ساعة النصيبة اللي عملتها
فيه، كمان مستخسر أشار عليه؟
برر لها فعلته النكراء بسماجة غير نادمة مُطلقاً:
أنا عملت اللي فيه مصلحته ومصلحتي، وربنا عالم نيتي إيه!

كلماته الأخيرة كانت تهكمية أكثر منها بلاغية، فغمغمت معقبة في ازدراء
وهي ترمقه بنظرة متحسرة:

-أيوه، صح .. نيتك الحلوة.

حدجها بنظرة جوفاء، لا تحوي أدنى مشاعر المحبة لأبوين جاهدا لتربيته، ثم
استدار مغادراً مكانه، استوقفته "سعاد" هاتفة في صدمة ذاهلة:

-إنت هتروح تنام؟ ما تخش تكلم أبوك وتحب على راسه.

لم يلتفت ناحيتها عندما رد:

-مش دلوقتي.

صاحت به مغتاظة وقد انتفضت عروقها في حنق:

-يا "فضل" راضي أبوك بكلمتين، إنت قهرته بعملتك.

نفخ عالياً، واستدار ليواجهها وهو يهسهس في قنوط:

-يووه يامه، طيرتي النوم من عيني.

هتفت في عصبية:

ما يطير ولا يروح في داهية، ده أبوك، واللي عملته فيه مش هيعدهولك

بالساهر!!

ثرثرتها غير المجدية كانت كالصداع في رأسه، ليهرب من إلحاحها، أطبق يده على المقبض، وهزه بعنف ليفتحه وهو يقول في زمجرة:
لو عاوزة تفتحي الباب أهوو.

راح يدفع الكتلة الخشبية بكل غلٍ وغضب وقوة لبضعة مرات، إلى أن تمكن من انتزاع القفل من مكانه، فانفتح الباب على مصراعيه، ولجت "سعاد" بعدها في خطواتٍ متلهفة وهي تنادي:

حاج "إسماعيل"!

وقف "فضل" عند عتبة الغرفة الفارقة بين الدخول والخروج، حائرًا في الإقدام أو الانسحاب، حك رأسه بأظافره، حسم أمره بالذهاب، فليس في مزاج يسمح له بتحمل توبيخات لاذعة، هم بالاستدارة والابتعاد؛ لكن صراخ والدته الفزع وهي تنادي على أبيه جمده في موضع قدميه:
قوم يا حاج، رد عليا.

يبطئ وجل استدار ليواجهها، فوجدها منكفأة على جسد والده تهزه في عنفٍ، وهي لا تزال تصرخ به:

يا حاج "إسماعيل"! جراك إيه؟ رد عليا يا حاج.

هوى قلبه بين قدميه في صدمة أولية، وتوقف عن التنفس للحظة وهو
يجبر عقله على استيعاب الموقف المريب وتفسيره، صراخ "سعاد" المفطور
جعله يتدارك حقيقة ما يحدث، خاصة عندما ولولت:

أبوك ماينطقش يا "فضل"، أبوك مات
!!

.....

الفصل المائة وستة وستون

الذهاب إلى هناك، واستحضار أسوأ ما جابهته لكسر- نفسها، وكشف سترها لم يكن مستحبًا على الإطلاق؛ لكنها مرغمة على ذلك، ليس من أجلها، وإنما لخاطر من جاءوا معها للقيام بهذا الواجب الضروري. انقباضة غير مريحة عصفت بقلبها والسيارة تقترب من حدود بلديتها، شعرت بوخزاتها القاسية تزداد في حديثها كلما تقلصت المسافة، انعكس تأثير تلك الزيارة على تعابير وجهها، فأصبح شاحبًا، ممتعضًا، يكسوه النفور.

سحبت "فيروزة" نفسًا عميقًا تستجمع به شتاتها المبعثر، وراحت تجاهد لضبط أنفاسها المضطربة. رغمًا عنها اضطربت النيران في صدرها، وبدأت أفكارها السوداوية في التزاحم بداخل رأسها المشحون .. نعتته في سرها بالمقيت، النجس، النذل، وغيرها من الألقاب غير المستحبة على الأذن، فقد استباح ما ليس له متناسيًا صلة الدم والقربة، ولم يتوقف أذاه عند هذا الحد، بل امتدت لأكثر من مرة كلما سنحت له الفرصة بهذا.

أطبقت على جفניה بقوة، مقاومة سحبها لدوامة مظلمة، لن تجني منها سوى إهلاك أعصابها، وزيادة حجم الشروخ بها. ضمت أنامل يدها لتشكّل قبضة متشنجة، والصقت يدها الأخرى بحقيبتها الموضوعة في حجرها، ظلت تكرر في نفسها بجملة مُحفزة:

إنتي رايحة تعملي الواجب وبس، إنتي أقوى من جبان زيه.

راحت تردد شبيه تلك العبارات في رأسها، لتستعيد انضباطها، وتحجم من الثورة المهددة بالانفجار إن التقت به وجهًا لوجه.

لم يخف على "تميم" تبدل أحوالها، وانقلاب سمعتها بشكلٍ مرئي للعيان، خاصة بعد أن أصر على الذهاب مع عائلتها في هذه الزيارة الاستثنائية، استقل جميعهم سيارته: خالها يجلس إلى جواره في المقدمة، وهي بجوار والدتها وابنة خالها في المقعد الخلفي، أما عن توأمتها وزوجها ورضيعها فقد

ركبوا في سيارتهم الخاصة، وتحركوا خلفهم ليلحقوا بهم. حانت منه نظرة مدققة في المرآة العاكسة أمامه، بمجرد أن تباطأت سرعة السيارة عند مفترق الطرق، تأمل ملامحها العابسة بشدة في غضبٍ يشوبه التوعد والوعيد لمن أذاها. أقسم على نفسه ألا يسمح له بأن يمسها بسوء، سينحر عنقه إن ضايقها بكلمة أو بنظرة!

انتبه لصوت خالها عندما أشار له قائلاً:

خـش يمين من هنا.

ألا يعلم الأخير عن معرفته الطريق إليه جيداً؟ كأنما يحفظه عن ظهر قلب، ظل "تميم" على سكوته وهو يدير المقود لينحرف بالسيارة نحو زقاق ضيق لا يتجاوز المترين، واصل الحركة بها في تودةٍ حتى خرج إلى طريقٍ آخرٍ تمتد على جانبيه مساحات مزروعة، تباينت في درجة اخضرارها. لدهشته تعجب "خليل" من عدم سؤاله، فنظر إليه متسائلاً بتحير:

هو إنت عـارف السـكة؟

أجاب بنظرة خاطفة إليه قبل أن تركز عيناه على المرآة الأمامية ليحدق في وجه طاووسه الحزين:

أيوه.

الفضول تسلل إلى داخل "فيروزة"، رفعت رأسها لتنظر إليه، والتقت العينان التعيستان بالعينين المتحفزتين، أوما برأسه ليطمئنها، فاستحضرت في ذهنها لحظة أن أطلعها باسترداد حقها ممن تجرأ عليها، لن تكون وحدها، هو معها، لن يتركها لمصير تجهله، سرعان ما غطى الألم حدقتها، ولم تخبئ ذلك عنه، فقرأ في نظرتها العميقة إليه طلبًا خفيًا للسند، للدعم، وللمُلْتَجَأ، منحها نظرة عطوفة حنون تخللها وعدًا بحمايتها، نظرتة المجردة من أي أطماع شهوانية - في هذه اللحظة - عنت لها الكثير. ابتسمت ابتسامة باهتة، ولم تنبس بشيء، فقال بصوتٍ شبه متحشرح مُعلِّمًا الجميع:

-أنا معاكم لحد ما نخلص مهمتنا ونرجع.

دعت له "آمنة" وهي تمسح عبراتٍ متأثرة بفاجعة الموت عن صدغها:

-ربنا يباركك يا ابني.

عاد لينظر إلى وجهها؛ لكنها كانت قد غاصت في سكونها المستريب، فأبعد ناظريه ليحدق في معالم طريقه المعروف، وصدره يتضرح بالحدق المبرر.

.....

تاهت منها لفظة البدء في الحديث، حين رأتها جالسة على المصطبة تضرب بكفها على جانبي رأسها وهي تهز جسدها باهتزازة متكررة حزناً وحسرةً على فقيد سنوات عمرها الطويلة. بدت "سعاد" وكأنها ازدادت أعوامًا على

أعوامها، وتمكن منها العجز عن آخر مرة رآها فيها أحدهم، أيفعل شعور
الفقد لعزير هذا التأثير المؤلم بالأحياء؟ نعم، ويزيد!

تقدمت "آمنة" ناحيتها لتواسيها -وسط المعزيات من النساء- بصوت
منتحب:

قلبي عندك ياختي، والله العظيم ما مصدقة اللي حصل.
رفعت رأسها المحني لتنظر إليها وسط غيمة الدموع التي تغطي عينيها، ثم
استطردت مخاطبها بحرقة وهي تلطم على صدرها:
-"إسماعيل" راح يا "آمنة"، خلاص راح ومعدتش راجع.

وقفت قبالتها، وكفكت عبارتها المناسبة بمنديلها قبل أن تنطق في نوع من
المواساة:

دي مشيئة ربنا، هو راح عند ربنا، وهيشوف "علي"، ربنا يرحمهم هما
الأتنين.

تقطع صوتها واختنق وهي تضيف:

أيوه، بس راح وهو غضبان، محسور على اللي جراه.
استرعت جملتها الغاضبة انتباهها، وسألتها في فضول تلقائي:
هو حصل إيه؟

قبل أن تفسر مقصدها، ظهر "فضل" في المشهد، وصاح في صرامة جافة خالية من أدنى إحساس أو تأثر:

-كفاية ولولة يامه، وخلينا نجهز للدفنة، وقت صلاة الظهر أزف.

حدجته والدته بنظرة مليئة باللوم، كأنما تحمله الذنب بأكمله لموت أبيه قهراً، واصلت نواحها الباكي متجاهلة إياه، بينما أولى "فضل" وجهه نحو الضيفة متسائلاً بلامح مكفهرة:

-إنتي اللي جتي بس يا مرات عمي؟

ردت نافية وهي تشير بيدها للخلف:

-لا، باقي الجماعة جوم معايا، هتلاقهم بيعزوا برا.

علق في عدائية وقد حلت الشراسة في عينيه:

-اللي مات أبويا أنا، مش أبو حد ثاني.

اندفع كالثور الهائج نحو باب المنزل قاصداً الاشتباك معهم دون أي مراعاة للظرف الحزين؛ كأنما كان يتحين الفرصة لإظهار بغضه وكراهيته. لحقت به "آمنة" تناديه:

-يا "فضل" استنى، مايصحش كده.

لم تستطع مجارة خطواته الراكضة، فتوقفت عند العتبة تردد في توجس
وقد أحيطت بمجموعة من النساء اللاتي امتلأ بهن بهو المنزل:
عديها على خير يا رب.

ارتجفت يدها وهي تدير المقبض لتترجل من السيارة، حاولت التغطية على
رهبتها المنبعثة من رواسب الماضي الموحجة، والتسلح بشجاعة تدعمت
بوجوده، نفساً تلو الآخر سحبته بعمق لتهدئ به من روعها. مسحت
"فيروزة" الباحة الخارجية للبيت بنظرة شاملة، رأت فيها تجمعات متفرقة
لغالبية رجال بلديتها، تعرفت على معظم الأوجه المألوفة، وعزفت عن تحيتهم،
كانت في قرارة نفسها قد عقدت العزم على نسيان كل ما له صلة بهذا
المكان الذي شهد على واحدةٍ من مآسيها القاسية؛ لكن هذا الظرف
تحديداً أجبرها على المجيء إليه، لملت شتاتها المهتر، وبدأت تدنو من
البيت بخطواتٍ ثقيلة، شبه متراجعة، تستحثها على الارتداد والعودة من
حيث جاءت.

بذلت كل جهدا لتبدو جامدة، صلبة، شديدة البأس وهي تواصل السير،
وحده من كان يعلم بتردها الخفي، استبقها "تميم" في خطواته ليعترض
طريقها قائلاً بلهجة جادة للغاية:

لو مش حابة تدخل خليك واقفة هنا.
تلاً في حدقتها نظرة غريبة، غير هادئة، في عمقها تعكس غضباً وكرهاً،
وكل المشاعر الحاقدة. حافظت على جأشها وهي تخبره:
عشان مرات عمي متزعش، ده غير الناس آ...
قاطعها في صوتٍ متزمت غير مرتفع:
ملكيش دعوة بالناس، محدش هيجبرك على حاجة مش عاوزاها.
بقيت تنظر إليه وهو يؤكد عليها من بين شفتيه:
ولو حد من اللي هنا فكر يضايقك بحرف مش هایشوف طيب.
الحماية، كانت ما ترجوه، وها هي وجدتها معه، ظهر خوفه عليها واضحاً
عندما تابع:
أنا هنا جمبك وسندك.
تدثرت بعاطفته الحقيقية، وارتخت تعابيرها المشدودة نسيئاً، قبل أن تقول
في النهاية:
شكراً على إنك هنا.
عاتها في لطف، وكامل نظراته المتلهفة عليها:

-أنا مش محتاج شكر يا ..

انخفضت نبرته للغاية عندما أتم جملته منادياً إياها باسمها مجرداً، وبعذوبة
لفت رأسها:

- "فيروزة"!

في هذه اللحظة ارتعش قلبها، وارتج كيائها، لم تر سواه، فبدأ وكأنه قد
استحوذ على كل الفراغ حولها، شردت في نظراته المثبتة عليها، تستمد منها
القوة، الثبات، والشجاعة لمواجهة ما هو قادم، نجح بطريقته المثابرة في ترميم
الشروخ غير الظاهرة فيها، قضى على الوحشة المخيفة في أعماقها، كان في
عينها يستحقها، لقد اكتفت به، واستأنست معه.

لمح "تميم" من طرف عينه خالها وهو يقترب منها بابتته الممسكة بكفه،
فقال بصوتٍ شبه مسموع:

- ماتجيش معانا الدفنة، خليكي في العربية .. وعشان "رقية" كان.

كانت على وشك الرفض؛ لكن خالها أيده في الرأي:

-أيوه، مـ.افيش داعي تبـ.قي موجودة، اسـ.تني مع بنتي.

العبء الذي على صدرها خف قليلاً؛ لكنه لم ينزاح كلياً، ومع هذا كانت
راضية عن القليل من السكينة التي نالتها في حضوره.

.....

للموت حُرمة، وهيبة، لم يعبأ بهما على الإطلاق، أعماه غضبه، وأفقده احترامه وسط الحاضرين، دفع "فضل" باندفاعه الأهوج أحد المعزيين عن طريقه، وخرج من باب منزله باحثًا بنظراتٍ نارية عن "فيروزة" تحديداً، ما اعتبرها أكبر خسائره، وسبب جميع نكباته، تصاعدت الدماء إلى رأسه حين رأى أكثر من يملكه بجوارها، اشتطت نظراته والتهبت على الأخير، لم يستطع كبح جماح نفسه، صاح مهلاً بزمجرة لفتت الأنظار:

هي دي الأصول يا بنت عمي؟

تحولت الأعين ناحيتها، فشعرت "فيروزة" بالخوف يتسرب إليها، ورغم هذا ثبتت، ولم ترتجف، بل أدارت رأسها لتحقق في وجهه القميء بكل بُغض واستعلاء، أحس "فضل" بنظرها المزدرية تصفعه على وجهه، فلم يجد سوى اتهامها علناً:

جاية وجاية الغريب معاكي؟ خلاص مافيش خشا ولا حياء؟!؟

حذره "تميم" بغلظة، وإشارة من سبابته، بعد أن تحرك خطوتين ليقف بجسده كالسد المنيع أمامها:

إياك تغلط!

قال أحد الأشخاص المتواجدين في محيط البيت:

-بالراحة يا "فضل"، ما يصحش كده.

التفت ليخاطبه موجهاً بكلامه اللاذع إهائته المتعمدة نحو "فيروزة" ومن معها:

-ما هو إنت طلع العيب من أهل العيب ما ييقاش عيب.

توقع "تميم" ما كان متوقعاً بتواجهه الثقيل السمج، إحداث الفوضى، وإثارة البلبلة، فتكلم في جدية لا تخلو من تهديد:

-أحسنلك تحفظ أدبك، وتصون لسانك، بدل الدفنة ما تبقى اتنين!

انتفضت عروقه غيظاً منه، وصاح مصفقاً بيديه:

-سامعين يا ناس، هما دول اللي جاينين ياخدوا بخاطرنا، شايفين.

تعمد قلب الحقائق وتشويها ليغدو في نظر الحاضرين المجني عليه لا الجاني، لم يكثر "تميم" بتصرفاته الغبية، وواصل تحذيره القاسي:

-بلاش النمرة دي علينا، بدل ما تهزق.

تدخل "فتحي" قائلاً بوجه جاد، وقد وضع يده على كتف "فضل" ليضغط عليه:

-لم الدور يا "فضل".

انتفض ثائراً في غضبٍ مضاعف:

-لأ يا حاج "فتحي"، أنا مسمحش للغريب اللي جه هنا، وأهاني سابق
يحضر جنازة أبويا كده عادي.

ردد أحدهم من الخلف في استنكار:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

بينما أضاف آخر معاتبًا:

-يا جدعان صلوا على النبي، بدل ما نشوف اللي راح مننا، واقفين تتخانق،
ده حتى مش أصول، والميت ليه حرمة.

جاء تعليق "فضل" وحقًا للغاية وهو يشير بيده نحو خصمه:
قولوا للدغوف ده.

بادله "تميم" الإهانة بأخرى أشد إيلامًا لشخصه المهان دومًا:
-ماتغلطش يا (...)!

اشتعل وجهه بحمرة الغيظ، وهدر يولول كالنساء المكلومات:

-شايفين يا ناس؟ سامعين؟ أديني بتشتم عيني عينك أهوو.

واحدٌ من رفاق "فضل" تحرك خطوة نحو ابنة عمه التي ترقب المشهد
بنظرات ساخطة، ثم لوح لها بيده كأنما يطردها وهو يهتف بصوت مرتفع:

-بت يا "فيروزة"، خدي الجدع ده وامشي من هنا.

اغتاظت من طريقته الفظة، وردت عليه بعناد:

-واحنا مش هنمشي.

كان كمن يدعو لإلقاء حتفه، حيث نطق "فضل" بنزقٍ ناعثًا إياها مما أثار حفيظة الجميع:

فَجَرَّت بعد ما مات جوزها، وعينها بقت بجحة.

لم تتحمل "فيروزة" صفاقته وكذبه، فصرخت به في حدة:

-احترم نفسك.

ظاهره الهادئ تلاشى مع إهانتها المتعمدة، فتهياً "تميم" للانقضاض عليه، بعد أن أخرج مديته من جيب بنطاله الخلفي، أشهرها في الهواء، وصاح بصوتٍ جهوري مخيف:

-إنت لسانك هيتقطع النهاردة.

شهقت "فيروزة" فزعًا وخوفًا على "تميم"، خاصة حين رآته يهجم بشراسةٍ مباغتة على غريمه ينتوي الفتك به، وتمزيقه إربًا، خلال ثانية واحدة تحول المكان إلى دائرة صغيرة مغلقة على من فيها؛ فـ "تميم" قابض بكفه القوي على عنق "فضل"، والأخير يحاول المناس من قبضته الضاغطة على مجرى

تنفسه بكلتا يديه، وفي نفس الوقت يخشى أن يمسه نصل المدينة، فيحدث به قطعاً أو ندبة تنضم لسابقتها المتروكة في وجهه منه. بالكاد نجح من حولهما في الفصل بينهما، وتخليص رقبة "فضل" الذي راح يسعل بحسرة مزعجة.

.....

طبقاً للأعراف المتبعة، حين يأتي أجل أحدهم، وينتقل إلى جوار المولى عزوجل، تُترك الخلافات والمشاحنات جانباً، ويتكاتف الجميع من أجل تقديم الدعم لأسرة المتوفي، من المفترض أن يكون الأمر هكذا، إلا معه! كان الوضع على النقيض، الغالبية في حالة تحفز وغضب، مشاعر الكراهية والعداء تعم الأرجاء.

لم تبقَ "فيروزة" في مكانها، أبعدها "تميم"، وأبقاها بجوار السيارة، مع الصغيرة "رقية" لينأى بها عن أي خطرٍ قد يحيق بها. كانت معترضة على إقصائه لها؛ لكنه أخبرها مؤكداً:

ده أحسن ليكي.

احتجت بوجهٍ متقلص في عضلاته:

وأسيبك لوحدك معاهم؟

قال بهدوءٍ واثق وهو ينظر إليها ملء عينيه:

متخافيش عليا، أنا أدهم.

بداخلها عاصفة على وشك أن تنفلت من خوفها عليه، كانت في أقصى-
مراحل صدقها مع نفسها حين رجته:

خذ بالك .. أنا لو أعرف إن ده هيحصل مكوتتش جيت.

ما لمسه منها جعل عالمه يهتز، ينتفض، يثور لأجل الذود عنها، رد عليها
دون سكينّة:

كله مقدر ومكتوب، المهم عندي إتني وبس.

طمح في رؤية نفس المشاعر المهمة في عينيها، ولم تبخل عليه، رأى مرة
ثانية في دُرتها عاطفة حقيقة موجهة إليه وحده، نبعت من قلبها، ونفذت إلى
قلبه، فأوجدت بينهما جسراً غير مرئي، تركها مضطراً ليعود إلى حيث يقف
الرجال، فأبصر "فتحي" وهو يفرد ذراعيه على استطالتهما لجانبه بعد أن
علق رأس عكازه على معصمه صائحاً في ضيق:

ماينفعش كده، اهدوا يا جماعة، احنا في حداد، واللي راح غالي.

ضم "فضل" شفّتيه في تأفف ناقم، ونظر إلى "تميم" شرّاً، قبل أن يبعد
عينية عنه ليحملك في رفيق والده الذي أكمل حديثه مخاطباً الجميع:

-استعينوا بالله من الشيطان الرجيم، واقرأوا الفاتحة على روح حبيبي
الغالي الحاج "إسماعيل".

ظلت أنظار "فضل" المستشاة مسلة على خصمه، وقال بزفير ثقيل:
-أعوذ بالله منك يا شيطان ..

ثم حاول إظهار القليل من الاحترام بختام عبارته:
-ماشي كلامك يا حاج "فتحي".

هتف الأول في استحسان رغم امتعاض تعابير وجهه:
-ربنا يهديك يا "فضل".

حاول "خليل" التدخل، وأردف قائلاً بعتاب مستتر:

-أنا واجد. بنا نكرم الضيوف، مهما كانوا م...ين، مش يقل منهم، ومن
جدالك بيتك، جـ.اب الحق عليك.

احتقره "فضل" بإهانة قاسية استنكرها المتجمعين:

-بلاش إنت تتكلم يا عم "خليل"، هتتعبنا معاك.

صاح "فتحي" في استهجان صارم:

- "فضل"!

برر وقاحته النكراء بقوله:

-ده أنا خايف عليه، نفسه قصير.

ليكتمل مشهد استفزازه، ظهر في الأرجاء "رشيد"، وحفنة من أقاربه،
تلون وجه "فضل" بجمرة حاقدة، وانعكست كذلك في نظراته إليه، نأى
بنفسه للجانب ليهينه، وراح يرمقه بالمزيد من النظرات الازدرائية، لمح
وهو يمد يده لتعزية "فتحي" أولاً:

-البقاء لله.

رد عليه الأخير مبدئياً عرفانه بقدمه:

-شكر الله سعيك، ابن أصول طول عمرك.

ثم ربت على ظهره يستحثه على السير معه:

-تعالى يا "رشيد".

حينئذ أولاهما ظهره لتحقيره، ولم يستدر إلا عندما سمع صوته يردد:

-البقاء لله.

بترفع وتعالٍ غير لاثقين به، نظر "فضل" إلى يده الممدودة ناحيته وهو يدير
رأسه في حركة بطيئة، ثم استطرد هازئاً به بأسلوبه الفج رافضاً مصاحته:

-وانت كمان جاي عشان تاخذ اللقطة!!؟

أبعد "رشيد" ذراعه، ورد إهائته بمحنة:

-لأ يا فلحوس، أنا جاي لأن الحاج "إسماعيل" يستاهل نزعل عليه، ده
قبل ما يكون جد ولاد مراتي ...

تقوس جانب فمه في بسمه ساخرة ساخطة، تلاشت قبل أن تكتمل مع
إكمال "رشيد" لعبارته بإهانة ضربته في مقتل:

-ولو كنت إنت مكانش حد وقف على ثربتك.

اتسعت عيناه ذهولاً من رده المهين، وصاح في إنكار:

-سامعين قلة الأدب؟

علق عليه "رشيد" في وقفته السامقة:

-إنت اللي جبت التهزيق لنفسك.

لم يتحمل سحق كرامته والدعس عليها من حاقيده، فصرخ في الواقفين:

-بقولكم إيه، اللي يحضر يكون بأدبه، يا يغور في ستين داهية.

موقفه الفاقد للاحترام جعله محط انتقاد المعظم، حيث احتج أحدهم على
سلوكه المشين قائلاً:

-الحاج "إسماعيل" لو كان عايش مكانش خلصه اللي حصل ده، وخصوصاً
من ابنه.

التفت "فضل" باحثًا عن مصدر الصوت، وقبل أن يبادر بإهاتته كغيره،
جاءت "سعاد" إليه، وصرخت فيه بمشاعرٍ ملتاعة وبقلبٍ مفطور:

-بتعمل إيه يا "فضل"؟ بتطرد أهل أبوك وناسه وحباييه؟ عايز تحرمه في
رقدته الأخيرة من اللي يقف يترحم عليه ويدعيه دعوة طيبة؟ خلاص
مبقاش ليك كبير ولا رادع!!!!

أريد وجهه بالغضب من استمرار وصلة إذلاله، رفع يده أمام وجهها يأمرها:
خشي مع الحريم جوا يامه.

ثم اندفع ناحيته بعنفوانه الحائق لئبعتها، فانتفضت رافضة لمستته وهي
تصرخ به في ألم:
-بعد إيدك ماتلمسنيش ...

تفاجأ الحاضرون بتصرفها، ونظروا لها مدهوشين، والفضول يزداد بداخلهم
لمعرفة سبب هذا النفور، لم تتوقف "سعاد" عن لومه علنًا:
-أبوك مات غضبان عليك، إنت هتشوف أيام سودة.

جاءت إحدى النساء لاصطحابها لداخل المنزل وهي ترجوها:
تعالِي يا "أم فضل" معايا.

صاحت في صوتٍ صارخ:

-اللي يقهر أبوه ويموته مش ابني.

أشار فضل للمرأة بعينه لإبعاد والدته، فحاطتها بذراعيها لتسحبها معها، جرجرتها عنوة؛ لكن ظل صوتها يردد في حرقه شديدة وهي تقاومها: منك لله يا "فضل"، حرقت قلبه وقلبي، عمرك ما هتشوف طيب.

انضمت أخرى إليها قائلة بتفهم:

-تعال يا حاجة معانا.

ما يحدث الآن كان مُهيئًا للغاية، مرفوضًا بشكلٍ قطعي، فاتفقه معه كان يُلزمه بعدم افتعال المشاكل إلى أن يصير قانونيًا المتصرف الوحيد في أملاك والده، وسكوته عما يحدث قد يجعل أصابع الاتهام تشير إليه، ويصبح معلومًا للجميع أنه المتورط في اقتراح منع "إسماعيل" من التصرف في أمواله، حاول "فتحي" تحجيم "فضل"، فدنا منه، وأوصاه بقسمات وجه مزعوجة على الأخير:

-لِم الليلة يا "فضل"، كده الناس هتقلب ضدك.

كز على أسنانه مغمغًا في تبرم:

-يا حاج "فتحي" ما أنا مستحمل البهدة وسأكت ...

اتجهت نظراته الحسود نحو "تميم" وهو يكمل في تقم:

-بس أني مش عاوز الطحش ده يحضر جنازة أبويا، دي للعيلة وبس.
سمع "تميم" إهانتته، وتحفز ضده مرة ثانية؛ لكن تلك المرة أراد إحراق دمه،
واستثارته بتصريحه الهادئ:

-ومين قالك إني غريب؟ ما أنا من العيلة، ولا مبلغكش إني خطيب ستك
وتاج راسك!!؟

كان كمن ينفث دخانًا من أذنيه، أصاب هدفه في مقتل، وجعل رأسه
يحترق من الغيظ والكد، لا من الحزن والأسى، دمدم في هدير مغتاض:
-سامع.

ولتريد من إحراق أمثاله من معدومي الكرامة والأخلاق، بصب الزيت على
النار لتأجيج ألسنتها الملتهبة، وقفت "فيروزة" إلى جوار "تميم" تنظر إليه
بنظرة المحبين المعروفة لأرباب العشق، لم تحد بلؤلؤتيها اللامعتين عن
ملاحمه الرجولية وهي تخبر الجميع بفخرٍ مُطعم بالعزم:

-أيوه، ده خطيبي، وكلها كام يوم وهيقي جـوزي
!!!

.....

الفصل المائة وسبعة وستون

في نفس البلدة، ومع نفس الشخصية الحقيرة، وأمام ذلك الحشد المتجمهر، انطلق من بين شفتيها، اعترافًا خطيرًا، جعل قلبه يرفرف في الأفق البعيد، ومشاعره تهتاج في عاصفة عشقٍ لا حدود لها. جمعها مكانٍ بعينه، واجتمعا في توقيتٍ معين، لتفيض بنفس الكلمات التي قيلت من قبل، آنذاك وأدت حبه في مهبه؛ لكن اليوم غدت سبب ابتهاجه وسعده.

بثباتٍ عجيب، وعينان لا ترمشان، أضافت "فيروزة" على مسامع الحاضرين:

-ولولا ظروف وفاة عمي كنا بلغناه بالخبر عشان يحضر ويكون شاهد على العقد.

كأنما اشعلت فتيل غضبه، انفجر فيها "فضل" ينعتها بوقاحةٍ منقطعة النظر، غير عابئٍ بتبعات لسانه الأرعن:

يا بجاحتك، عاوزه تتجوزي وعمك لسه مادفنش؟

ضاقت عينها في غيظٍ من فظاظته؛ لكن سرعان ما تحولت تعايرها إلى ذهولٍ مصدوم، حيث تأهب "تميم" للانقضاض على خصمه اللدود، فلم يمهده له وهو يكور قبضته، ليسدد أول لكمة في فكه، جعلته يرتد، ويترنخ بشدة، من أثر المفاجأة المؤلمة، قبل أن يتوعده علناً:

إنت ناوي على موتك النهاردة.

بالكاد منعه الرجال المتواجدين من المساس به، وإلا لدك عظامه، وطحنها. تدخل "فتحي" قائلاً في رجاءٍ ليحتوي الموقف المتأزم:

صلوا على النبي يا رجاله، بس ده لا وقته، ولا مكانه، الميت ليه حرمة.

رد عليه "تميم" في حمئة:

كان رعاها البغل اللي واقف.

احتى "فضل" بأجساد الرجال، ليصبح بعدها مدعيًا البراءة، وحفظًا لماء الوجه:

-شايفين الغلط؟ يرضيكوا البهدة دي؟

علق عليه "فتحي" بنظراتٍ غير راضية عن تصرفاته الوقحة:

ما إنت بردك يا "فضل" مش عامل اعتبار لا لكبير ولا صغير.

نظر إليه شزرًا قبل أن يدمدم في حرقة:

-دلوقتي بقيت أنا اللي غلطان؟

حدجه "فتحي" بنظرة صارمة وهو يخاطبه:

ماهي دي مش أصول، وأنا غلبت أفهمك.

هز رأسه معقبًا في ازدراءٍ ناعم:

ماشي يا حاج "فتحي"، أني الغلط راكبي، وأستاهل ضرب البلغ ...

لم يكذب ينهي جملته الساخطة تلك إلا وأشار بإصبع الاتهام نحو "فيروزة"، فقال علنًا:

-بس الرك على اللي مارعتش الأصول، وجاية فرحانة بمرقعته.

فارت دماء "تميم"، وكاد يطيح به مجدداً، لولا أن تدخل "خليل" ليعنفه
بخشونة رغم اللعثة الظاهرة في نبرته:

-بسم..بي الجواز على سنة الله ورسوله مرقعة؟ إخص على كده.

ثم بصق عليه في ثغور صريح.

ربت أحد الشيوخ الأجلاء على كتفه، ممن مشهود عنهم بسيرتهم الطيبة،
وحنكتهم الخبيرة في حل العضلات، ورجاه في ود:

-اهدى يا عم "خليل".

استمر "فضل" في تجاوزاته المسيئة، فتابع بافتراء:

ما هو مش منطقي إنها تتسرع على الجواز كده إلا إن آ...

لم يدعه الشيخ يكمل أكاذيبه، لهذا قاطعه محذراً بغلظة:

عيب يا "فضل" الكلام ده، إياك وقذف المحصنات!

كز على أسنانه مغتاضاً، والشيخ ما زال يخاطبه في تشدد:

-أنا بحذرك، كلمة زيادة وأهل البلد هيسيبوك ويمشوا.

اعترض عليه في غير رضا:

يا شيخنا آ...

مرة أخرى قاطعه آمراً الجميع:

-بيننا على صلاة الجنازة.

لم يُرده أحد، استجابوا له في طاعة، وتركوا "فضل" في موضعه، يعض على شفته السفلى غيظًا، وكمدًا، لينصرفوا في اتجاه مسجد البلدة، بعد أن تولى حفنة منهم حمل النعش للصلاة عليه.

.....

في تلك الأثناء، نأى "تميم" بـ "فيروزته" بعيدًا عن تلك الأجواء المحملة بالغضب، والكرهية، والعداوة الصريحة، أشار لها لتتبعه سائرة بخطواتٍ شبه متعصبة نحو السيارة، خاطبها في لينٍ محاولاً امتصاص الحنق المكبوت بداخلها جراء هذا الوضع:

-مالوش لازمة تعكري دمك مع الأشكال دي، هو عامل الشويتين دول عشان يلم الناس حواليه.

نظرت إليه صامتة، فأكمل في هدوء:

-واللي زي ده لما تعبريه وتديله قيمة أكبر من حجمه بيسوق فيها.

تهدت مليًا قبل أن تتكلم بقليلٍ من الأسى المعكوس على ملامحها:

معاك حق.

لم يستطع كبح نفسه وهو يعترف لها:

-زعلك عندي بالدنيا.

مرة أخرى نظرت في عينيه لتجده مشاعر الحب تنتفض فيهما، قوست شفيتها قليلاً لتظهر ابتسامة باهتة عليهما قبل أن تهمس:

-ما هو واضح.

ودّ لو استمر في تجاذب أطراف الحديث معها إلى ما لا نهاية؛ لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ظهر "هيثم" على الساحة بعد اختفاء مريب لبعض الوقت، علم منه أن زوجته كانت مشغولة بإرضاع طفلها، فتفهم حاجتها للبقاء في مكانٍ شبه معزول لتتمكن من إطعامه، تساءل الأول بفضول وهو ينظر للوجوه المتحفزة:

-في إيه يا ابن خالتي؟

جاوبه في غموض:

-نمرة فكسانة كانت بتتعمل واتفضت.

جاءه تعقيب في صيغة تساؤلية:

من البغل طبعا؟

قال وهو يومئ برأسه، وبتعابير شبه متجهمة:

-ها يكون مين غيره.

أضاف "هيثم" باستهجان:

-عمل حركاته الناقصة زي تلمي.

دون أن تتبدل تعايره المزعوجة أكد صحة تخمينه:
-بالظبط.

انسحبت "فيروزه" في هدوءٍ لتنضم إلى توأمتها، وراحت تثثر معها عما حدث قبل برهةٍ بعباراتٍ موجزة، ليظهر الاستياء على وجه الأخيرة مستنكرة سلوكياته المشينة. زمت "همسة" شفيتها، واستطردت معلقة وهي تهز ذراعها في حركة متكررة ومتناغمة ليخفو رضيعها:

-بصراحة واحد زيه المفروض يحس بالقهرة وكسرة القلب بعد وفاة أبوه، بس هو بني آدم فطيع، معندوش إحساس ولا دم.

بتأفف متزايد أخبرتها "فيروزه" وهي تدير رأسها في اتجاه "تميم" لتطمئن عليه من مكانها:

-ربنا يخلصنا منه.

عادت لتنظر إلى وجه شقيقتها عندما سألتها:

-إنتي هتعملي إيه؟

مسدت يدها على حجابها لتتأكد من انضباطه على رأسها، ثم أجابتها مع زفير سريع:

هشوف هيتفقوا على إيه.

لوت "همسة" ثغرها معقبة بجديّة:

-أنا رأيي نخلينا بعيد عن المشاكل، احنا مش ناقصين.

بعد دقيقة تقريبًا، جاء "تميم" ومن خلفه "هيثم" ليقول الأول في لهجة أمّرة، لا تخلو من بعض الصرامة، وعينهات تتطلعان إلى "فيروزة":
-إنتو هتفضلوا هنا.

أضاف عليه ابن خالته في صوتٍ يماثله في الجدية:

-بس مش هتستنوا في المكان ده، هنسيبكم عند حطة أمان عن هنا.

وافقته "همسة" الرأي، وأبدت استحسانها قائلة:

-كده أحسن.

في حين تساءلت "فيروزة" في اهتمامٍ جاد:

فين يعني؟

تبادل "تميم" مع ابن خالته نظرة سريعة قبل أن يأتيها رده:

-بيت العمدة.

سكنت لتفكر في اقتراحه المناسب للوضع الراهن، ثم التفتت ناظرة إلى "همسة" التي أيدت رأيه بقولها:

-وأنا لسه كنت بقول لـ "فيروزة" الكلام ده، مافيش داعي نكون سبب في أي مشاكل.

لم تطل الكلام أكثر من هذا، فقد سرت همهمات شبه مرتفعة جعلت الأنظار تتجه نحو باحة البيت؛ حيث بدأ الحضور في التجمهر إيدانًا بخروج جثمان الفقيد، أشار "هيثم" بيده لزوجته، وللبقية قائلاً:

حطب بينا، النعش اتحرك.

تحركوا تباغاً؛ لكن "تميم" تعمد التباطؤ في خطواته ليغدو سائراً بجوار "فيروزة"، لم يستطع منع نفسه من سؤالها:

-أنا عارف إنه مش وقته، بس ممكن أعرف حاجة؟

احتفظت بلامح وديعة رقيقة وهي ترد:

-اتفضل.

تنحنح في خفوت ليجلي أحبال صوته، قبل أن يتشجع قائلاً بترددٍ طفيف:

-الي قولتيه قصاد الناس من شوية، كان بجد، ولا ده آ...

فهمت ما يرمي إليه، كان يظنها تمزح، مجرد بضعة جمل تُخرس بها الألسن
قبل أن تنهش في سيرتها، لهذا قاطعته قائلة بثقة، وتلك اللعة تضيء في
عينها:

أنا مابقولش حاجة وأرجع فيها يا معلم.

حملق فيها مدهوشًا، فأسرعت الخطى لتهرب من هذه النظرات الوالهة،
الناطقة بأسمى معاني الحب، رغمًا عنه تشكلت ابتسامة ضاحكة مستبشرة
على وجهه، وهو يردد لنفسه في سرورٍ سرعان ما أخفى أماراته من على
تقاسيمه:

ربنا يرحمك يا حاج "إسماعيل"، موتك جه بفايدة.

.....

على الدرجة الرخامية الأولى للسلم الداخلي للبناية، جلس كلاهما معًا
استعدادًا لتناول الوجبة الشعبية (الكشري) بشراسة، بعد أن تم تكليفهما
بحراسة المكان ومراقبته طوال فترة غياب قاطنيه. نزع "حمص" الورق
المفضض المغلف لعلبته، لضمان حفظ الحرارة به، ثم أفرغ كيسًا صغيرًا كان
قد جاء مع الطعام بعد أن أزاح الغطاء البلاستيكي. تساءل "شيكاغو"
وهو يفعل مثله:

حط دقة زيادة ولا لأ؟

أجابه وهو يقلب محتويات علبته معًا:

-أه، أنا قولتله.

عقب "شيكاجو" بوجه شبه منقلب وهو يدس ملعقته في الخليط الساخن:

-المرّة اللي فاتت الصلصة كانت صايصة.

تقوست زاوية فم "حمص" الممتلئ بابتسامة مأكرة وهو يرد:

-هو احنا سكتناله يعني؟ ما خدنا حقنا وزيادة.

هز رفيقه رأسه بإيماءة راضية بعد أن تذوق أول ملعقة، لم يكثر بتناثر بقايا الطعام من جوفه وهو يخاطبه في لهجة جادة:

-بقولك صحيح، الواد "الأص" اتمسك بثربة حشيش.

أكتست تعابير "حمص" بالضيق، وتساءل مصدومًا:

-إنت عرفت منين؟

بلع "شيكاجو" قدرًا من طعامه، وتابع الكلام وهو يمسح السائل المناسب من على طرف فمه بظهر كفه:

-حد من المقاطيع اللي معاه حب يعلم عليه، وحبايي بلغوني.

عَرَّز "حمص" ملعته من جديد في علته، ليضمن امتزاج المكونات معًا بعد
إضافة الصلصة الحريفة إليها، ثم قال:

ده لبسه في الحيط.

وضع "شيكاجو" بين أسنانه زجاجة المشروب الغازي، لينتزع غطاها
ويفتحها، تجرع ثلثها في رشفة واحدة، ليطفئ اللهب المندلع في جوفه، ثم
تجشأ قائلاً:

-الكلام الداير إنها تصفية حسابات قديمة.

غامت ملامح وجه "حمص" وهو يكلمه:

عاوزين نشوفلنا حد ثاني نستقضى منه حاجتنا.

اقترح عليه بهدوء:

-في "العوكشة"، إيه رأيك؟

التوت تعابيره اشمئزًا وهو يردد في غير رضا:

ده واد فقري، وجِلدة.

.....

(اطرق على الحديد وهو ساخن) عمِل بتلك المقولة الشهيرة، فقضى- ما
تبقى من ليله يفكر، ويدبر، ويرتب أفكاره الشيطانية، ل يبدو أكثر تسلطًا،

وتطلبًا وهو يفرض شروطه عليهم، ليخرج راجيًا من هذه القضية الخاسرة. قطع "حُسنِي" الطريق أشواطًا، استنشَق آخر دفعة دخان من سيجارته، قبل أن ينهيها بإلقائها عند قدميه ليدعسها وهو يقترب من مدخل البناية. بدا في وضعية تحفز، وعيناه تبرقان بوميضٍ غاضب؛ لكن ما لبث أن تبدلت قسماته المشدودة إلى لمحات من الدهول والاستغراب عندما رأى الاثنين المرابطين عند السلم، خاصة مع الندوب وعلامات الشجار العنيفة المحفورة على وجهيهما.

تردد لحظيًا، واستجمع نفسه قبل أن يظهر عليه ارتباكُه من المفاجأة؛ حيث أنه لم يتوقع وجود أحدهم في هذا المكان، وتحديدًا هذه الأوجه الإجرامية. قرر تجاهلها، والمرور بجوارهما في هدوءٍ لتجاوزهما؛ لكن "شيكاجو" استوقفه متسائلًا في صلابة:

-رايح فين يا أخ؟

حدجه "حُسنِي" بنظرة باردة، قبل أن يأتيه رده مثل نظرتِه:

-وانت مالك؟

نهض من جلسته منتفصًا، وصاح بغضبٍ متصاعد في صدره، ونظرة حائرة تطل كذلك من عينيه:

-لا مالي ونص وتلاتربع.

انضم إليه "حمص" وترك ما في يده، ليقوم واقفًا، ويسأله بلهجة محققة:
جاي لمين؟

التفت ناحيته، ورد عليه بنفس الأسلوب اللفظي:
يخصك في إيه منك ليه؟

أجاب عليه "شيكاجو" بغلظة:

كل اللي في الناحية دي يخصوني ...

سدد إليه "حُسنِي" نظرة نارية، أتبعها ببسمة هازئة مرسومة على ثغره، فما
كان من "شيكاجو" إلا أن تابع بهدير مهدد:
هاتنطق ولا أعمل معاك السليمة؟

ضحك "حُسنِي" ساخرًا منه، قبل أن يتكلم بصعوبة وسط ضحكاته
المصطنعة ليزيد من استفزازه:

-الله! هو إنت منهم؟

ارتفعت نبرة "حمص"، ولكزه في صدره متسائلًا:

-ماتلو كش في الكلام، جاي لمين؟

لم يجبه، ونظر إليه بتعالٍ، كأنما يتحداه أن يتجرأ عليه، في حين استطرد
"شيكاجو" صائحًا:

-إنت لسه هتسأله، قلبه وشوف بطاقته.

لم يأخذها على محمل الجد، وركز أحدهما في ذراعه وهو يحتقرهما بكلماته
المزدرية:

-إيدك إنت وهو ياض، معدتش إلا إنتو يا كُناسة الشوارع، ده أنا أسويكم
بالأرض.

تحرك "شيكاجو" ليقف قبالة متحدثًا إياه بجراءة لا تخلو من نزعة التهديد:
كان غيرك أشطر ...

نظرة غامضة منحها لرفيقه، فهمها الأخير، وأوماً برأسه بخفة، قبل أن يأمره
صراحة:

-رقده

تحولت أنظار "حُسنِي" على "حمص"؛ لكن في لمح البصر كان كلاهما قد
تكالبا عليه، وأسقطاه أرضًا، رغم المفاجأة المبالغتة إلا أنه قاوم محاولتهما
لتقييده، وظل ينازعهما إلى أن خارت قواه أمام عنفهما المتزايد، لهث
وتقطعت أنفاسه وهو يسألها في عصبية:

إنتو مين؟

لم يبخلا عليه بقدرٍ من اللكمات، وبعض الوكزات واللکزات المؤلمة في صدره، وعنقه، ووجهه، حتى أجهزا تقريبًا على طاقته المشحونة ضدها، تمكن بعدها "حمص" من انتشال محفظته، ليخرج منها بطاقة هويته الشخصية، ولكونها على علمٍ مسبق باسم الشخص المراد الحيلة منه، كان من اليسير عليهما التعرف عليه، لوح بها إلى "شيكاجو" وهو يخبره بابتسامة لم يفهم مغزاها سواه:

هو اللي عليه العين.

خلت تعابير وجه "شيكاجو" من أدنى أمارات التعاطف وهو يهتف متوعدًا إياه:

-نهارك ماطلعلوش شمس.

أدرك "حُسنِي" أنه وقع في قبضة شرذمة من معتادي الإجرام، الندوب أصبحت أكثر وضوحًا، الشراسة باتت غير قابلة للإنكار، ازدرد ريقه غير الموجود في جوفه، وتساءل بصوتٍ جاهد لجعله غير مهتز:

إنتو مين؟

انطلقت شرارات عدوانية ممتزجة بانتشاء غريب من عيني "شيكاجو" وهو يخبره:

- احنا اللي هنسويك على الجانبيين، لحد ما يبانلك صاحبك .. بس قبلة
نشحنك على الشونة!

ارتجف قلبه رهبة، وقاوم هذا الشعور بالخوف ليقول في عدا، وهو يتلوى
بجسده ليتحرر من قيدهما المحكم كرمق أخير للنجاة ببدنه:

- حاسب يا (...) إنت وهو.

تبادل "حمص" نظرة سريعة مع رفيقه قبل أن ينطق بلهجة لم تحمل سوى
نية صريحة بإيذاء موجه .. موجه للغاية:

- ده بيغلط، نهارك كوييا!

.....

الحنين إلى الماضي بكافة ما يحتويه من ذكريات، أمنيات، آمال، وقدر من
الأحلام كان مطلوبًا في تلك الزيارة الاستثنائية، لتجاوز مرحلة
الضغوطات المؤذية للنفس والمتلفة للأعصاب. أحست "فيروزة" بالدفء
يتسلل إلى روحها بعد أن وطأت بيتها في البلدة، المكوث فيه لبعض الوقت
كان مفيدًا إلى حد ما، انتهت إلى توأمتها القائلة بسعادة ظاهرة عليها تناقض
الظروف الحادثة:

- زي ما نكون سينا البيت إمبراح، كل حاجة في مكانها، وزي ما هي.

لاذت بالصمت وهي تصغي إليها عندما أكملت بحماس:
-شوية تنضيف ويبقى زي الفل.

أكتفت بهز رأسها، واتجهت سائرة نحو الباب لتساعد خالها على الولوج، ثم
أزاحت الغطاء الأبيض عن إحدى الأرائك وهي تدعوه للجلوس:
تعالى يا خالي ارتاح هنا شوية.

أطلق زفرة متعبة وهو يلقي بثقل جسده على الأريكة، أراح رأسه للخلف،
وأغمض عينيه في إرهاق واضح عليه، ابتعدت عنه، وتحركت في اتجاه
"رقية" التي أخذت تتجول في المنزل وهي تتسائل في فضول طفولي:

-ده بيتنا يا "فيرو"؟

أجابتها بابتسامة صغيرة لطيفة:

-أيوه يا "كوكي".

زمت الصغيرة شفيتها، ووضعت يدها على بطنها لتقول ببراءة:

-أنا جعانة.

فتحت "فيروزة" سحب حقيبتها لتخرج من داخلها ورقة مغلقة، قدمتها إلى
ابنة خالها قائلة:

-معايا سندوتش جبنة، تأكله؟

هزت رأسها موافقة:

حبيب

ناولته إياه بعد أن فضت الورقة عنه، ومسحت على جانب وجهها بجنو
قبل أن تمرق في الردهة المؤدية إلى غرفتها القديمة، حيث استقرت شقيقتها
مع رضيعها. وقفت "فيروزة" عند عتبة باب الحجرة تسألها:

-أومال فين جوزك؟

جاوبتها بإشارة من رأسها:

-واقف مع "تميم" برا، هيشوفوا هنعمل إيه بعد كده.

تلقائياً استدارت رأسها نحو الشباك الموصود الذي يفصل غرفتها عن
الخارج، كأنها تطمح أن تنفذ نظراتها عبرته لتصل إليه، فتشعر بقربه،
ويشعر بوجودها حوله، توقفت عن التماوج في فضاءات خيالها الحالم مؤقتاً
لتردد في تبرم:

-وطبعاً ماما مش هترجع دلوقتي من بيت عمي.

اتخذت "همسة" حذرهما وهي توضح لها على مهلي:

ما إنتي عارفة إن دي الأصول والعوايد، والمفروض على الأقل نكون كلنا
هناك التلات أيام، بس عشان آ...

لمحة من التردد انعكست في نبرتها قبل أن تستأنف كلامها بمزيد من الحيلة:
-المشاكل وكده، فاحنا هنفضل هنا.

كانت في غنى عن الغوص في المزيد من التعقيدات، والاستفزازات
المستهلكة لطاقة الفرد على التحمل .. تهتدت بعمقٍ قبل أن تعقب عليها في
ملامح واجمة:

-أيوه .. عارفة، وربنا يهون.

.....

لو لم يكن قد تلقى ذلك الاتصال الذي أثلج صدره، وشرّحه قليلاً، لربما
بقي على حالته المستثارة، وذهب مرة أخرى إلى هذا الوغد الحقير لإشباعه
بالضرب المبرح جراء زلات لسانه الوقحة، تلك التي لم يتوقف عنها حتى بعد
دفن أبيه. لاحظ "هيثم" تبدل تعابير ابن خالته، فنظر إليه مستفهماً،
فأخبره في صوتٍ جاد:

-الواد اتجاب.

تساءل في تحير:

-واد مين؟

استخدم يده في الشرح وهو يجيبه:

-الي اسمه "حُسنِي"، قريب مراتك.
هز رأسه كمن تذكر الأمر، وعلق متسائلاً:
-أه، افكرته، طب كويس، وانت ناوي معاه على إيه؟
فرك "تميم" طرف ذقنه بيده؛ كأنما استغرق للحظة في أفكاره الخاصة،
لينطق بعدها بغموض:
نخلص من الحوار الي هنا، وأفوقله.

.....

-شكر الله سعيك.
ردد تلك الكلمات وهو يمد يده لمصافحة أحد الأشخاص ممن جاءوا لتعزيته
في وفاة والده، ثم عاد للجلوس مجدداً على مقعده الخشبي الموجود في
المقدمة، ليدير رأسه إلى الحاج "فتحى" الذي استمر في توبيخه بصوت
خفيض:

-يا غبي! أنا قولتلك تعمل كده؟ عاوز تلفت العين عليك؟
صر على أسنانه مدمدمًا بنبرة خافتة، ووجهه مغطى بأمارات الضيق
والغيظ:

-يعني أسكت لما أشوف الطحش ده قصادي؟ وأعمل فيها خروف!!؟

نظر له "فتحي" شزرًا، فاستمر يقول بنبرة مالت للارتفاع:
ده كان حتي أكله بسناني.
حذره بإشارة صارمة من عينيه ليلتزم الصمت، ثم خاطبه في هسيس
كالأفعى:

-أخذ الحق صنعة، مش جهجھوني كده.
رد بتبرم وهو ينهض لمصافحة آخر:
-أهوو اللي حصل بقي.
عاود الجلوس، وحدث في وجه "فتحي" حين أكد عليه بخبث:
لو سمعت كلامي هتكسب.

ظل على تعايره المكفهرة وهو يُحادثه بغير نفس:
ما أنا سمعته سابق، وشوف جرى إيه لأبويا.
كأن ما حدث لرفيق العمر لم يهز شعرة من رأسه، بل اعتبر أنه نال جزاء
ما يستحق لفعلة السابقة مع "أسيف"، حين اتخذ صفها، وعارضه بشكلٍ
جعله رغبته الانتقامية تتأجج فيه. استعاد إدراكه لما حوله، وقال بصوتٍ
جاف تعمد تطعيمه ببعض الوعظ الديني، للتغطية على ذنبه:

-لكل أجلٍ كتاب، عمره كان لحد كده، هنعترض على قضاء ربنا.

رمقه "فضل" بنظرة حادة، في عمقها يظهر الاحتجاج؛ لكن سرعان ما
قضى عليه "فتحي" في مهده بتبرير أسبابه:

-ولا كان عاجبك تبقى مرمي في الشارع رمية الكلاب، وخير أبوك يروح
لغيرك؟

أطال النظر إليه متذكرا حياة التشرد التي عاشها لأيام بعد أن قام والده
الراحل بطرده من المنزل، حيث ذاق فيها القسوة، والمُـر، والإهانة،
والمعاملة الدونية، ربما استمر هذا الوضع البائس لفترة أطول لولا أن انتشله
"فتحي" من القاع باقتراحه اللئيم، وقتئذ حثته دوافع الكراهية، ونوازع
الانتقام، للفُـجـر في الخصومة، والاقتصاص منه بدهاء، فكان بإقامة دعوة
قضائية تمنعه من التصرف في أمواله قانونيًا، وحدث ما صبا إليه، ونال
القهر من "إسماعيل"، ومات كمدًا وألمًا.

كالشيطان الذي يوسوس لضعاف النفوس، فيغريهم ويغويهم، إلى أن
يسقطوا في الهاوية، سرى صوت "فتحي" على مسامع الجالس إلى جواره
بقوله المليء بوعود طامعة:

-اصبر .. ده أنا غرضي مصلحتك، ومعايا كل اللي تفسك فيه هيتعمل.

نظر في عينه، وقال بإذعان واضح:

-ماشي يا عم "فتحي"، أديني وراك لحد ما أشوف آخرتها إيه.

في نفسه الخبيثة لم يكن يريد طاعته إلا ليصل إلى غاياته في الظفر بكل شيء كان على وشك الحرمان منه قسرًا: المال، الجاه، الحسب، السُلطة، القدرة، وقبل هذا .. هي، لا لمحة خالصة فيها، وإنما لنزعة مريضة فيه
!!

.....

الفصل المائة وثمانية وستون

نهتات البكاء وآثاته، كانت سائدة في كل بقعة محيطة بالمنزل، ليس للتضامن مع الوغد الجالس بالخارج على رأس المعزين، وإنما تقديرًا للفقيد الذي كان لا يدخر وسعه لمساعدة الكثيرين في البلدة. كففت "آمنة" دموعها المناسبة، بعد أن عصفت بها ذكريات الماضي الموجعة لرحيل شريك العمر، حاولت مواسة "سعاد" في مُصاها؛ لكنها تفاجأت بها تخاطبها في لهجة آمرة، وجامدة تدعو للاستجابة:

خدي بناتك، وإمشي.

توقفت عن البكاء لتنظر إليها مدهوشة، رأت في وجهها جمودًا أعجب، صمتت لوهلة كأنما تستوعب الأمر، ثم هتفت مستنكرة:

إيه اللي بتقوله ده يا "سعاد"؟

بنفس الطريقة الجافة أخرجتها أمام النساء المجتمعات في بهو المنزل:

-زي ما سمعتي، إمشي...

تدرج وجه "آمنة" بجمرة خجلة للغاية، ونظرت إليها متحيرة؛ لكنها استمرت في لهجتها الآمرة:

خدي بعضك وامشي مع بناتك قبل ما الليل يجي، إنتي عملي الواجب، وسعيكم مشكور.

تحولت ملامحها للتجهم الشديد، وقامت من مكانها معلقة باستهجان:
إنتي كده بتطرديني؟

لم تحد "سعاد" بنظراتها المتجهمة عنها، وأخبرتها في صوتٍ لم يصدر منها مُطلقاً:

-بعد كده هتشكريني.

أمام سكويتها القاسي، ونظرات الدهشة المملئة بها الأوجه، انسحبت "آمنة" من عزاء السيدات، وهي تحني رأسها في أسفٍ، ليتبع ذلك ترديدها الحزين عند عتبة باب المنزل:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، بقي دي آخرتها؟!

كادت تصطدم خلال سيرها المتعجل بـ "فضل" الذي اعترض طريقها، تماسكت، وحافظت على اتزانها، لتنظر إليه في حسرة، بادلها نظرات تحمل الإنكار لذهابها مبكراً، وصاح متسائلاً:

-رايحة فين يا مرات عمي؟

رمقته بنظرة حادة، وتحركت إلى الجانب لتتجاوزته وهي ترد في نبرة شبه غاضبة:

-اسأل أمك.

تدلى فكه السفلي مندهشًا للحظة، وتبعها بنظراته الفضولية متسائلًا في استغرابٍ حائر:

-اسأل أمي على إيه؟!

فرك يده -في حركة سريعة متكررة- شعره عدة مرات وهو يتحدث هاتفيًا إلى أبيه ليطلعه على آخر المستجدات الخاصة بالعزاء، لم يكن ليخطو خطوة دون الرجوع إليه، خاصة هذا الأمر تحديدًا، اتقاءً لشرور النفوس الخبيثة. أطلق "تميم" زفرة طويلة، أضاف بعدها في جدية:

-تمام، هشوف الوضع إيه يا حاج، وأعرفك.

بدت ملامحه إلى حدٍ كبير عابسة، وانعكس الضيق على نبرته أيضًا عندما تكلم إليه:

-أكيد طبعا، أنا عامل حساي.

استدار محدقًا في وجه ابن خالته، وقال موجزًا:
-مسافة الطريق.

ودعه دون أن تسترخي قسماته المشدودة:
-حاضر يا با، في رعاية الله.

بمجرد أن ضغط على زر إنهاء المكالمة، عاجله "هيثم" بسؤاله المتطفل:
-هتمشي؟

طرد الهواء من صدره في دفعة واحدة قبل أن يجاوبه:
-لو كان ينفع كنت فضلت معاك، بس عشان الأصول وكلام الناس.
أيده في رأيه متممًا وهو يُريح ذراعه على سقف السيارة:
-معاك حق، الحكاية مش ناقصة عك، وهنا ما بيصدقوا.
عقب عليه "تميم" في امتعاضٍ مستنكر:

-الناس في أي حته ما بتصدق تعمل من الحبة قبة، واحنا عندنا واحد
عامل زي ناخ الكير.

ابتسم في سخرية وهو يرد مخفضًا رأسه:
-على رأيك ...

سكت لهنيئة، ثم رفع رأسه استعدادًا لإكمال جملته؛ لكنه لمح أحدهم يقترب منها في خطى شبه مهرولة، وسط الفراغ الممتد من حولهما، استرعى الأمر كامل انتباهه، وقال بتلقائية:

-بص هناك كده، في حد جاي علينا.

تحولت عينا "تميم" إلى حيث ينظر ابن خالته وهو يسأله في اهتمام:
فين؟

صحح له مسار نظره قائلاً:

-يمينك ..

أمعنا النظر في الكتلة البشرية المقترية منهما، تلك التي بدأت تتضح معالمها، فنطق "هيثم" من جديد عاليًا:

-مش دي حماي اللي جاية من بعيد؟

تفرس في هيئتها، وقال موافقًا:

-أه هي ...

لكن ما لبث أن تساءل مُتعبجًا:

هي راجعة قبل مياعداها ولا إيه؟

زم "هيثم" شفّتيه للحظة قبل أن يُحادثه وقد استدار بجسده كلياً ليغدو في
مواجهتها:

بأين كده.

أطال "تميم" التحديق بها وهو يضيف:

دي كانت قايلة هتفضل لحد بعد العشاء هناك في بيت الحاج "إسماعيل".

اتفق معه في كلامه، فردد بتحير:

-أيوه، أومال حصل إيه؟

نظرة جانبية سريعة منحها له قبل أن يعاود النظر إليها قائلاً:

-دلوقتي نسألها ونعرف.

غمغم "هيثم" في توجيس:

-ربنا يستر وما يكونش قل بأصله.

أوماً بحاجبه هاتفاً:

هيان.

انتظرا قدومها إليهما، وبادر "هيثم" بسؤالها أولاً في نبرة مهتمة:

-السلام عليكم، إيه الأخبار يا حماتي؟

لم تتطلع إليه وهي ترد في وجوم مريب:

-جهر العربية يا ابني، احنا ماشيين.

لاحقها "تميم" بأسئلته متوقعًا حدوث الأسوأ معها:

-ماشيين ليه؟ حصل إيه؟ حد اتعرضلك ولا ضايقتك؟

توقفت عن المشي لتستدير ناحيته، ثم أخبرته بما أصابه بالمزيد من الحيرة:

-لا، بس قعدنا مالوش لازمة ...

أبعدت نظراتها عنه، وأكملت كلامها في جدية منزعجة:

-أنا هاخش أناادي على أخويا والبنات خلينا نلحق نمسك الطريق قبل ما الدنيا تضلم علينا.

لم يعقب أحدهما عليها، ظلا صامتين إلى أن غادرت، فاستطرد "تميم" مخاطبًا ابن خالته:

-شكل الموضوع كبير.

ربت "هيثم" على كتفه قائلاً بهزة واضحة من رأسه:

-الظاهر كده.

.....

الكدمات والتورمات التي افترشت أنحاء جسده، جعلته عاجزًا عن إيقاف شعوره بالألم، خاصة مع حركته العنيفة والمقاومة للقيد الإجباري المفروض عليه، حاول "حُسنِي" تحرير معصميه؛ لكنها كانا مثبتان بجبلٍ غليظ في مسندي الكرسي الخشبي المربوط فيه، انتفض بصدرة في قوة، علَّ بمحاولته اليائسة يزحزح الأربطة عنه، ورغم ذلك المجهود الكبير إلا أنه فشل أيضًا. جال بنظراتٍ جمعت بين الخوف والترقب المكان من حوله، فلم يتبين سوى تفاصيلٍ قليلة منه، حيث كانت الإضاءة باهتة، الجدران مطلية بلونٍ داكن، لم يستطع تحديد ماهيته، القش، الأقفاص، الألواح الخشبية، وبعض الكراكيب القديمة متناثرة هنا وهناك. تخشب في جلسته غير المريحة على الإطلاق وقد سمع صوت همهمات خارجية، أدار رأسه في اتجاه مصدر الصوت، وتجمدت عيناه على بابٍ معدني يُسحب للأعلى، برزت حدقاته على اتساعهما عندما رأى الاثنين اللذين تصارعا معه عند منزل "خليل"، رغم انحباس نبرته في البداية وتحشرجها إلا أنه صرخ فيهما بتشنج:

-أنا فين؟ وإنتو مين؟

ضحك "حمص" هازئًا منه، فواصل صياحه الهادر:

خاطفيني ليه؟ بيني وبينكم إيه؟

تبادل "شيكاجو" الضحك مع رفيقه مما استفز مشاعره، وأغاضه، لهذا هدر
مهدداً:

ده أنا هوديك في داهية!

مسح "حمص" على صدره في حركة دائرية، وأخبره بانتشاء مستمتع بإذاقته
صنوف العذاب:

- احنا الداهية يا (...).

تحقيره، والتقليل من شأنه استثار أعصابه بسهولة، لذا رد عليه بنبرة
هجومية:

فكني وأنا هوريك مقامك يا (...).

دنا منه "شيكاجو"، وربت على صدغه بما بدا أشبه بالصفعات القاسية
وهو يحذره:

ما تخدش الموضوع على صدرك أوي بدل ما تندم.

التهبت بشرته، وظهرت آثار أصابعه على خده، فصرخ فيه بغلي:

- إبعد إيدك، ده أنا هقتلك.

كركر ضاحكاً قبل أن يتر الضحكات المصطنعة ليقول بنوع من الاحتقار:

- مش هتعرف.

استمر "حُسنِي" على صياحه الحانق لاعتنا الاثنين بكلمات نائية:

فكوني يا شوية (...)، ده أنا هطلع (....).

كتف "حمص" ساعديه أمام صدره، ورفع كفه لمسح به على طرف ذقنه سائلاً رفيقه بنظرة ميتة:

هنسيه يغلط فينا كده؟

توحشت عينا "شيكاجو" بشكلٍ مرعب حين تكلم بابتسامةٍ أبرزت نزعته المبيتة للإيذاء:

-لأ طبعًا، المعلم قال إيه، اللي يغلط يتأدب، وبالأصول.

علق عليه "حمص" بتأييد مبطن:

-يبقى واجب نعرفه أصول منطقتنا.

النظرات الوحشية التي قرأها في وجهيها أوحى بشرٍ مستطر، هوى قلبه بين قدميه، وهلل متسائلاً بفرع:

هتعملوا إيه؟!

زادت بسمه "شيكاجو" اتساعاً قبل أن يميل ناحيته، ليدنو من أذنه، ثم

هسهس له بفحيح كالأفعى:

-إنت ضيفنا، وإكرام الضيف

برودة قارصة حلت ببدن "حُسنِي"، خاصة حين أتم جملة بنفس الصوت
الخافت المفعم بالشراسة:

-واجب علينا.

.....

استطالت فترة الصمت، وما تردد من بضعة عبارات طوال مسافة الطريق
كان موجزًا، مُحايدًا، لا يشير إلى موضوع بعينه، حتى نظراته إليها كانت
إلى حدٍ ما متباعدة؛ وكأن هناك ما يسعى لإخفائه عنها بتجنبها. تنامي هذا
الشعور بداخلها وهو يميل على خالها عند مفترق كل إشارة ليكلمه بصوتٍ
خفيض، عجزت عن تفسير ما يتردد خلاله.

أما عن والدتها فكانت أبعد ما يكون عنها، نظراتها تائهة، ملاحظها واجمة،
بالكاد تمنع نفسها من البكاء العميق، فقط تخونها الدموع بين الفنية
والأخرى، فتمسحها بمنديلها الورقي المهترئ دون أن تنبس بكلمة. لم تستطع
مقاومة الفضول المستعر بداخلها، فتساءلت عاليًا، لتبوح بما يعتمر رأسها
من أسئلة متصارعة، لا تجد لها أي أجوبة:

-في إيه يا جماعة؟ هو حصل حاجة؟

التفت "خليل" برأسه ناحيتها لينظر إليها، وقال نافيًا بلا ابتسام:

-لا .. كله تم..ام.

دقت النظر في وجهه، فرأت التردد ظاهرًا عليه، بل إنه تحاشى إطالة النظر، وهرب بعينه منها، فتساءلت بغير اقتناع:

متأكدين؟ أصل حاسة إن في حاجة غلط، أو إئتو مخبيين عنا حاجة؟
الكذب عليها لم يكن متاحًا لديه، لهذا كان الحل الأسلم له التزام السكوت،
وادعاء انشغاله بالقيادة، وذلك ما لم ينطلي عليها! أولت وجهها نحو والدتها
تسألها في إلحاح:

-وبعدين يا ماما إنتي مشيتي بدري ليه؟
جمدت "آمنة" نظراتها على الطريق، ولم تعقب، فاستمرت ابنتها تسألها:
مش المفروض بنقعد الـ 3 أيام؟
محاصرتها بالأسئلة لن يأتي بفائدة، هربت من هذه الضغوطات بصياحها
المزعوج:

خلاص بقى يا "فيروزة" هو تحقيق؟ أنا دماغي مش فايقه!
تعجبت من ردة فعلها المبالغ فيها، المناقضة لما كانت عليه باكر، خاصة أنها
من كانت توصيها طوال طريق الذهاب بالصبر، وعدم افتعال المشاكل، إن
مكثوا لمدة أطول في البلدة. هزت رأسها دون أن تشبع فضولها، ورددت:
طيب يا ماما.

ألصقت "فيروزة" حقيبتها بصدرها، وراحت تتأمل الطريق من جانبا، وهي تخبر نفسها في نبرة عازمة:

-عمومًا .. لو في حاجة، فأنا مسيري أعرفها.

.....

تهادت سرعة السيارة، وتباطأت حين انعطفت من الشارع الرئيسي، لتتجه إلى الطريق الجانبي المؤدي إلى البناية. أوقفها "تميم" بمحاذاة الرصيف، ثم ترجل أولاً، دون أن يُبطل محركها، ومسح المكان بنظراتٍ فاحصة، متأمله قبل أن ينطق في صوتٍ هادئ:

حمدلله على السلامة، اتفضلوا.

عندئذ ترجلت والدتها دون أن تنطق بشيء كعادتها الغريبة في الساعات الأخيرة، ولحقت بها الصغيرة "رقية"، في حين استعدت "فيروزة" للنزول بعدهما؛ لكنها لمحت بطرف عينها يد "تميم" وهي تمتد لتضغط على جانب ذراع خالها، كأنها إشارة خفية لأمر ما، فمكث الأخير في مكانه دون حراكٍ، ضاقت عينها باسترابة، ولم تمرر ذلك على خير، تعمدت التلكؤ وهي تترجل من جانبا، وحانت منها التفاتة جادة ناحيته؛ لكنه لم يكن ناظرًا في اتجاهها، وهذا شيء غريب، غير مستساغ عليها! انتهت إلى صوته يقول بعد نحنة سريعة:

-أنا عاوزك في مشوار كده يا عم "خليل".

تركز بصرها على خالها، ورأته وهو يومئ برأسه قائلاً دون جدال:
طيب.

استثير شعورها بالريبة، وتضاعفت أماراته بداخلها، مررت نظراتها المتفرسة على وجهي كليهما، وباتت شبه متأكدة أنهما يخفيان عنها أمر ما. لفت حول مقدمة السيارة، ومنعت "تميم" من ركوها، بوضع يدها على بايها المجاور له، حلق فيها مندهشاً، وحاول الفرار من نظراتها المتشككة عندما سألته مباشرة:

-إنت واخده ورايح على فين؟

حك طرف ذقنه قائلاً بصوت هادئ، وعيناه تحاولان ألا تنظر إليها:
مشوار على السريع.

انعقد حاجباها بشكل واضح، مما زادها بأساً على بأس، خاصة وهي تلاحقه
بسؤالها التالي:

-أيوه فين يعني؟

أعطاه رداً شبه مراوغ وهو يشير بيده:

-حتة مش بعيدة، جنبنا هنا.

ضاقَتَ عَينُها بِمَزيدٍ مِنَ الشَّكِّ، وَسأَلَتْه:

لِيه؟

قَبْلَ أَنْ يَفْكَرَ فِي مَنحِها الجَوابَ المُناسِبَ، حذَرَتْه مَشِيرَةٌ بِسبَابَتِه:

-ويا ريت تكون واضح معايا.

التحايل عليها، وحياسة الأكاذيب لم يكن خيارًا مطروحًا، لهذا لم يجد بدءًا من الاعتراف لها على مضض:

-هنقابل قريبه.

كل ليبب بالإشارة يفهم، خمنت دون الحاجة للتفكير هوية الشخص المقصود، وأفصحت عنه علنًا في صيغة متسائلة:

-خال "رقية"؟

قال متجهماً:

-أيوه.

منحته نظرة غامضة، تحوي غضبًا واضحًا، قد أخذ في التجمع في حدقتها اللامعتين، قبل أن تتراجع من مكانها، لتعود إلى مقعدها بالسيارة وهي تردد في حسم حازم:

-أنا جاية معاكو.

احتج على قرارها غير الصائب هاتفاً في صدمة:
-استني بس، مافيش داعي لوجودك، ده الموضوع هننتيه في السريع.
أغلقت الباب من خلفها بقوة، ونظرت إليه من نافذتها صائحة بعنادٍ أحق:
-حتى لو هتخلصه في دقيقة، برضوه هاروح معاكو، فمتحاولش تمنعني.
استند بقبضتيه على إطار نافذتها، ورمقها بنظرة معترضة معلقاً في انزعاج:
-إنتي عنادية أوي، وده ماينفعش، احنا مش رايحين نهزر.
بادلته نظرة أكثر عنداً وهي ترد:
-ومين قالك إني رايحة ألعب؟ أنا رجلي على رجلكم.
أطبق على شفتيه مانعاً نفسه من الكلام المنفعل لحظتها، فنظرت إليه في تحدٍ وهي تأمره:
-ويااا عشان مانتأخرش.
تحلى مضطراً بفضيلة الصبر، وسحب قبضتيه من على الإطار، ليردد في جديةٍ اكتسبتها نبرته وملاحظتها:
-ماشي يا أبله.

كانت تعلم في قرارة نفسها أنه لم يكن راضيًا عن تصرفها المعاند له، وذلك لحرصه الواضح على عدم تعرضها للأذى، ومع هذا أصرت على الحضور، لتكون على رؤوس الأشهاد فيما سيحدث لاحقًا.

.....

ما قيل عنه بأنه مكان قريب بداية الكذب، والخداع، وربما كشف خطورة الأمر المخبي عنهما. غامت تعابير وجه "فيروزة" وهي ترى السيارة تبتعد عن العمران، لتخرج نحو الطرق السريعة، قبل أن تنحرف في طريق جانبي، بالكاد لمحته، لتتطلق لما يقرب من عشرة دقائق وسط ما يعرف باسم طريق الملاحات. تباطأت السرعة بالتدريج حينما اقتربت من مكانٍ شبه مهجور، في قلب الأحواض المائية، دارت بعينها في المحيط الغريب الذي كانت تراه للمرة الأولى في حياتها، شعرت بالخوف يتسرب إليها، برعدة خفيفة تضرب بدنها، قاومت هذا الشعور، ونظرت إلى "تميم" الذي استطرد مخاطبًا الاثنين:

- احنا وصلنا.

ترجل أولاً ليلف حول مقدمة السيارة، حتى يساعد خالها على النزول، بينما تمهلت "فيروزة" في حركتها خشية ألا تنزل قدماها على تلك الأرضية الطينية، وتتعرقل في سيرها. تساءلت في فضولٍ يشوبه التوجس:

-هو احنا جايين هنا ليه؟

ساد في نظرتة إليها الأسف والضيق معًا، الأسف لكونها ستري جابتًا شبه إجرامي فيه لا يجيد السيطرة عليه حين تمس المخاطر أحبابه، والضيق لأنها ستعرف ما حرص على إخفائه عنها، لتحسين صورة خالها. تنفس "تميم" بعمق، وأنذرها -كنوع من التمهيد- قبل أن يتقدم في خطواته نحو الباب المعدني الموصود:

-بصي يا أبله، الشخصية اللي هتشوفها مش ملاك، ولا حد يستاهل المعروف، فخدي بالك.

توقعت حدوث الأسوأ، وقالت بعفوية:

-شكل في مصيبة حاصلة جوا.

لم يعطها الرد الشافي، وترك لها حرية تحديد مدى السوء بناءً على ما ستراه. كور قبضته، ودق على الباب المعدني بقوة رن صدها في الفراغ الممتد وهو يهدر بصوت أجش:

-افتحوا يا رجالة.

ما هي إلا لحظات، وسمع ثلاثتهم صوت الأقفال وهي تفتح من الداخل، ليظهر بعدها "ناجي" مرحبًا:

منور يا سيد المعلمين.

تفاجأ بوجود "فيروزة" معه، ونظر إلى رفيقه نظرة متعجبة مستنكرة الإتيان بها إلى هنا، فما كان منه إلا أن قلب ملامح وجهه وهو يغمغم بصوت شبه خافت:

متسألش.

رائحة عطنة، مع روائح أخرى غير مستحبة عبقت الهواء فجأة، وتفشت فيه، لذا وضعت "فيروزة" يدها على أنفها لتسده، وتمنع تلك الرائحة المنفرة من النفاذ إلى رئتيها، والتأثير على معدتها التي تقلصت، وانقلبت. واصلت السير خلف الرجال، وهي تجاهد لمنع شعورها بالغثيان، تغلبت مرة واحدة على هذه الأحاسيس المنفرة عندما رأت -من على بعد- وجه "حُسنِي" مكدومًا، وغارقًا في دمائه، اتسعت عيناها ذهولًا، وتسمرت في مكانها لهنيهة حتى تستوعب ما يدور، ثم صاحت بعدها في استهجانٍ شديد:

إيه اللي بيحصل هنا؟

انخفضت عيناها لتأمله وهو مقيدٌ كالبهائم في مقعده، تراجع "تميم" في خطواته، بعد أن رأى ما اعتلى قسماها من غضبٍ صريح، واتجه إليها، ليكون في مواجهتها، وقبل أن يفكر في تفسير أي شيء، تابعت استنكارها الصارخ موجهة أصابع الاتهام إليه تحديدًا:

عشان كده مكوئتش عاوزني أجي؟ ده اللي هتحل بيه الموضوع بشكل ودي؟

قبل أن يبرر أي شيء استأنفت هجومها المنفعل:

-لأ طبعًا، ده بالبلطجة، وشغل الفتونة، ولوي الدراع!!

رغم اختناق الجو بهذه الرائحة المقرفة، إلا أنه تنفس بعمق ليثبط أي انفعالات تستثار حاليًا بداخله، خاصة أنها تعنفه أمام رجاله، وقال بهدوء ممتزج بقدرٍ من التشنج:

-في أشكال ماينفعش معاها إلا العين الحمراء.

هاجمته بنفس الأسلوب المتعصب:

-أه وبعدين، هتنتهي على إيه؟

نظر لها بعينين محدتان، فواصلت لومه وتقريعه بغلظة:

-ترجع السجن ثاني، وتكمل اللي باقي من عمرك محبوس، وتبقى الحكاية خلصت على كده.

حذرًا بصوتٍ هادئ لكنه حازم:

-خلي الخناق بعدين، مش وقته.

رفعت إصبعها أمام وجهه تنذره في تشددٍ، وملاحه قد اشتعلت على
الأخير من طريقتهما:

إنت لو هتستمر على الأسلوب ده في أي مشكلة تقابلك، يبقى أنا محتاجة
أعيد تفكير في حاجات كثير.

سحب نفسًا آخرًا عميقًا، قبل أن يلفظه دفعة واحدة، ليقول برجاءٍ مهذبٍ:
يا أبله متكبريش الموضوع.

صاحت في سخطٍ ساخر:

أكبره؟ ده على أساس إن خطف الناس حاجة عادية؟

بالكاد ضبط أعصابه لئلا تنفلت، ورد مبررًا الإمساك به:

هو اللي جه لحد عندي برجليه، أنا مقربتش منه.

أمرته في غير مزاح، وب نظرة صارمة تملأ وجهها:

خلي رجالتك تفكه.

حدجها بنظرة غريبة، توقعت فيها أن يرفض ما قالت؛ لكنه خالف توقعاتها،

ونطق في عبوس بائن:

ماشى كلامك.

اندهشت من تصرفه رغم حالة الاستياء المسيطرة عليها، وتتبعته بنظراتٍ
محتقنة، وهو يأمر رجاله بتحرير "حُسنِي"، انتفض الأخير ناهضًا من على
المقعد وهو يشعر بخوار ساقيه، بالكاد وقف على قدميه، وانطلق مهددًا في
عدائية صريحة:

-ده أنا هوديكُم في داهية، هسجنكم كلكم

تجمدت نظراته على خالها، وهو يكمل تهديده بإهانة قاسية:

-وأولكم "خليل" الكلب.

شهقت "فيروزة" في استنكارٍ، بينما هاجت الدماء في عروق "تميم" وهو
يحذره بغلظة:

-ماتغلطش فيه بدل ما أقص لسانك.

تصنع "حُسنِي" الضحك، وهدر هازنًا منه:

-الفتوة الذكر ظهر يا جدعان

اشتاطت نظرات "تميم"، واكتست بحمرة أكثر غضبًا وحقًا عندما تطاول
متجرئًا على امرأته:

-لأوجايب السنيورة تتفرج عليا، نمرة حلوة تكسب بيها بونط .. حلو
أوي، عشان تتحطوا في الكلبش لو كشة واحدة.

ردّه عن الانقضاظ عليه كان صعبًا، خاصة مع تحفزه الواضح للفتك به، اندفعت "فيروزة" للأمام، وتجاوزت الرجال لتخاطبه في صوت مرتفع، حتى ينتبه لها:

-تكلم معايا أنا.

تحولت نظرات "حسني" ناحيتها، وأخذ يُطالعهها بغموض، أحست بنظراته غير المريحة عليها، والأصعب من ذلك إحساسها بالغليان المندلع حاليًا في "تميم" جراء ما تفعله، تغاضت عن هذا التفكير الموتر لتسأله بثبات:

حاوز إيه؟

أخذها على محمل الجد، وجاوبها بنظرات قوية مسلطة عليها كالصقر:

حقي كله.

حاولت تهديده لردعه، فقالت متحدية، كمن تناظره في القوة:

-إنت لو مفكر إنك بكده هتاخذ "رقية" مننا تبقى غلطان، أولاً لأن القانون

آ....

قاطعها بتلميح شبه فج جعل وجهها يحمر حرجًا من جرائته:

-القانون ده لا مؤاخذه تبليه، وآ....

قبل أن يتم جملة الوقة نسيًا، هدر "تميم" مانعًا إياه من التفوه بأي
إساءات نائية وهو يندفع قبالة:

لسانك لو طول معاها هاقطعه.

تنفست "فيروزة" الصعداء لوجوده بقربها، فكيف سيكون التصرف إن
وجه إليها ما لا يُسر من القول؟ سعت إلى ملمة الأمور قبل أن تتفاقم،
وأعادت لغة الحوار إلى مسارها بنقاشه:

إيه طلباتك؟

اتجهت عينا "حُسنِي" إلى "خليل"، وجاوبها مباشرة:

-وصلات الأمانة اللي مع خالك ...

صمت للحظة قبل أن يكمل في ابتسامةٍ لئيمة:

-بفوايدها.

هنا صاح "خليل" محتجًا في حقِّه:

إيه الك..لام ده، أنا سه..ددت نص القيمة.

اخشوشنت نبرة "حُسنِي" وهو يهب معترضًا على احتجاجه:

-وحق غربتي؟ والنصباية اللي اتعملت عليا منك؟

لريد وجه "خليل" بالغيط، وشعر بالضالة وسره يكشف على العلن، لم
ترغب "فيروزة" في رؤية خالها في موقف العاجز الذليل، وتكلمت مرة
أخرى تسأله:

كام يعني؟

كان الحظ ابتسم له بعد فترة من الفقر المدقع، كانت تلك فرصته الذهبية
للظفر بما يؤمن به مستقبه لسنوات قادمة، فلا يمد يده، أو يُصاب
بالعوز، عاد شعوره بالزهو يغمر جسده المتألم، حتى أنه تناسى أوجاعه مع
الأحلام الطامعة التي اجتاحت عقله، أدار رأسه ناحيتها، كما التمع في عينيه
الحقودتين وهجًا خبيثًا وهو يقوس ثغره قائلاً بجديّة:

نص مليون جنية يا قُطة !!

.....

الفصل المائة وتسعة وستون

هل يُجدي الندم بعد زلات الخطأ؟ ذلك السؤال ظل يتردد في رأسها بعد أن تداركت حجم الخطر الذي أوقعت نفسها فيه، بإصرارها غير الموفق على

حضور مثل تلك النزاعات، ظنًا منها أنها قادرة على المناطحة كالرجال، دون أن يُستخف بها، وتُعامل كفريسة سهلة المنال، فهي ليست في حضرة واحدٍ من الأشراف، وإنما تتعامل مع شرذمة من الأشرار. الأهم من ذلك، والذي استحوذ على تفكيرها لحظيًا قبل أن تُصدم بالمبلغ، إن عفا "تميم" عن ذلك الوجد، وأغفل عن وقاحته في الرد، فهل يغفر له تلميحاته غير البريئة نحوها؟ بالطبع لا، لن يسمح أبدًا بتمرير الأمر دون عقابٍ مؤلم.

خرجت من شرودها السريع، وتجمدت في مكانها مذهولة أمام الرقم الضخم الذي طلبه، بينما هدر "تميم" في استنكارٍ غاضب:

-كام؟!!!!

تولى "شيكاجو" لكز "حُسنِي" في كتفه محذرًا باستهزاء:

-اطبط نفسك، إنت شطحت بخيالك.

بينما صاح "خليل" محتجًا في حنق:

-دي .. مش قيمة الوصلات الفعلية، آخرهم كان 50 ألف.

نفذ "حُسنِي" الأذرع المسكة به، وراح يتجول بنظراته الواثقة على الأوجه المتطلعة إليه، قبل أن يركزها على "خليل" ليخاطبه بنبرة ذات مغزى:

هي دي قيمتهم دلوقتي، ولو مش عاجبك هفتح بوي وآ...
قاطعہ "تميم" في التو متسائلًا:
-وبعد ما ندفعهم هتعمل إيه؟
التفت ناحيته ليجابوب بابتسامة خبيثة:
-ولا كائنكم تعرفوني، هنسى إن ليا بنت أخت.
استجمعت "فيروزة" شتاتها بعد الصدمة الفورية لتقول بشيء من
المنطقية:
-ادينا وقت نخضرك الفلوس، هما مش جاهزين معانا.
هاؤ، على مين يا حلوة.
النظرة الشرسة المنتفضة في عينيه مع نبرته القوية المحذرة جعلتها تجفل حين
قال:
-احفظ أدبك في الكلام!
رفع "حُسنِي" يده معتمدًا بسخرية:
-لا مؤاخذه..
ثم حلق في وجه "تميم" متابعًا كلامه في صيغة تساؤلية:

-وايه اللي يضمنلي ماترجعوش في كلامكم؟
وقبل أن يحصل على الجواب، اتجه بناظره إلى "فيروزة" كأنما يقصدها وهو يقول:

-أصله شكله اتفاق حريم.

احتدت نظراتها من وقاحته؛ لكن "تميم" بادر بإخراسه وإيقافه عند حده بقوله الصارم المزجر:

-حرمنا بـ 100 راجل، وطالما ست الكل قالت كلمة، يبقى تبلع لسانك وتخرس.

كذلك تدخل "ناجي" منذرًا إياه:

-بعد إذنك يا معلم "تميم"، لو لسانه طال ثاني بحاجة معجبتنيش هاقطعه.
لم يخف "حُسنِي" بسمته الهازئة من استعراض العضلات المفتولة، والتراشق بالألفاظ الحادث أمامه، فقال في لحظة من السخرية:

-ماشي يا فتوات الحارة، قدامكم أسبوع، جهزوا الفلوس، وأنا مستني.
إشارة من يد "تميم" لـ "فيروزة" تأمرها بالتحرك دون أن ينطق، فامتثلت له بإيماءة من رأسها، وبدأت بالسير معه؛ لكن استوقفها صوت "حُسنِي" الصائح:

بس قبل ما أمشي عاوز عشراية حق بهدلتي هنا
استدارت تنظر إليه، فوجدته يستغل الفرصة ليقول مهدداً بابتسامة
وضيعة:

-ولا يرضيكي يا قطعة أطلع من هنا أعمل محضر في خالك؟
اختلج الغضب قسماها، وصاحت تنعته في غل:
إنت واحد حقير!

خرج "تميم" عن طور هدوئه الزائف، واندفع مُطبقاً على عنقه قاصداً خنقه
وهو يركز على أسنانه مدممًا:

مش قولتلك تخرس وتحفظ أدبك؟

لم يتحرك أي من الرجال لمنعه من إيذائه، مما جعل الخوف يدب في قلب
"فيروزة"، أحست بالخطر محدقاً به، فهرولت ناحيته ترجوه:
خلاص يا "تميم"، سييه علشاني.

اللعب على أوتاره الحساسة، وتحفيز الكامن في مشاعره، خلال المواقف
المتأزمة، لن يكون مفيداً الآن، توسلته مجدداً في خوف متضاعف:

مايستهلش إنك تودي نفسك في داهية، سييه، لو سمحت.

لمعت عينا "حسني" بنشوة الانتصار، وقال بصوتٍ مختنق:

-اسمع كلامها، مش هينفعك موتي.

رضخ مضطراً، ولم يسكن ما اشتعل بداخله من نيران الغضب، حرره، وتراجع بعد أن أعطى نظرة صارمة لـ "فيروزة" لتبتعد عن محيط ذلك اللعين، فاستجابت دون كلام، وأبقت على مسافة آمنة بينها وبينه "حُسنِي" الذي مسح بلسانه أسنانه الصفراء في فكه العلوي، وعلق ببرود مستفز:

-أنا نيلة النيلة، بس عاوز اللي يسكتني، عشان زعلي مش حلو.
وقعت عيناه مصادفةً على السوار الذهبي الذي برز من أسفل المنديل الملفوف حول معصم "فيروزة"، ظهر وهجه المغربي في حدقتيه الطامعتين، واستطرد يطلب منها بوقاحة فجأة:

-هاتي الإسورة دي وأبقى كده مرضي.
تلقائياً التفت يدها على السوار لتحميه، وضمت كفيها معاً إلى صدرها، كأنما تخشى فقدانه، بينما هدر به "تميم" مرة ثانية في غضبٍ أهوج:
-إنت اتجننت؟

رد مبرراً وهو يتراجع خطوتين للخلف لينأى من بطشه المهدد:
-ده عرض وطلب، عشان أسهلها عليكم.

زأر به "تميم" في نبرة خشنة قاسية:

هتأخذ اللي عاوزه على الجزمة ...

ثم أشار إلى رجاله أمراً:

طأوه من هنا.

ردد "حمص" بتحفيّز وهو يشمر عن ساعديه لينقض عليه:

-تمام يا ريسنا.

في لمح البصر، كان "شيكاجو" ممسكاً بذراعه الآخر يكبله، ومن الخلف

انضم إليهما "ناجي"، حاول "حُسنِي" الفكك، وصاح في تدمير محتج:

-بالراحة عليا، أقبض همشي، غير كده هستموتلكم فيها.

الأمر لم يكن من قبيل الصدفة أن يحمل ذلك المبلغ في جيبه، أو يزيد

قليلاً؛ لكنه أحضر- معه ما قد يلزم استخدامه، إن حدث طارئ ما،

وتأزمت الأوضاع في وقت العزاء، لذلك لم يفكر "تميم" مرتين وهو يخرج

من جيبه رزمة من النقود المطوية، ألقاها عند قدمي "حُسنِي" وهو يصيح

به بصوتٍ جهوري غاضب .. للغاية:

خدهم، وغور من هنا.

.....

التواجد في هذا الخلاء المقفر، ليس بالطبع المكان المناسب للعتاب، أو حتى إبداء الاعتذار، لن تساعد الأجواء على تحقيق ذلك. حاولت "فيروزة" أن تبدو لطيفة، أن تبدد ما عمّ من توتر ومشاعر حاقة، دنت من مقدمة السيارة، تلك التي يجلس عليها "تميم" بعد أن أرسل "حُسنِي" مع رجاله بعيدًا عن هنا، لمحته من زاويتها فرأت الغضب ما زال مستبدًا بملامحه، بلعت ريقها، وضمت شفثيها معًا، وهي تردد بصوتٍ يرن في عقلها: -ربنا يستر، وميكونش لسه مضايق.

أطلت "فيروزة" برأسها من النافذة المفتوحة على خالها الجالس بالمقدمة، وهمست إليه:

هتكلّم مع "تميم" دقيقة، وهنركب.

منحها الموافقة، فاستقامت في وقفها، وبدأت تشحذ قواها لتبدو متماسكة، ثابتة الاثفعلات، انتفضت حين رآته يستدير لينظر إليها في وجوم، قبل أن يتعد عن السيارة، ويمشي إلى الأمام بضعة أمتار، ترددت لحظيًا في اللحاق به؛ لكن لا مفر من المواجهة، تنفست بعمقٍ قبل أن تستجمع نفسها لتدنو من البقعة الواقف بها. بلغته، وصارت قبالتها، توقعت أن ينظر ناحيتها، أن يمنحها الاهتمام الذي تحبه منه؛ لكن لدهشتها صار يحيد بعينه بعيدًا عنها، كأنه ينبذ اقترابها، تأملت تعايره، فوجدتها قاسية، صلبة

كالجحر، قاومت الخوف الذي اعتراها لهنية من رؤيته على تلك الحال،
وسأله بلطافة:

-إنت زعلان مني؟

نفخ في سأم، ورد متسائلاً دون أن يمين عليها بنظرة واحدة:
-تفتكري إيه؟

همت بالرد والتبرير:

-أنا...

لكنه قاطعها بغير تساهل:

-راجعي نفسك، وبعدين قرري.

أدركت من تلميحه المبطن خطئها الفادح في عدم الوثوق به أولاً، وثانياً عدم توفيقها في انتقاء المناسب من العبارات حين تحدثت معه، هناك سمات مختلطة من العنجهية، التعالي، وربما عدم التقدير وهي تفرض عليه آرائها، لم تضع في الاعتبار أنها كانت تحدثه -أمام رجاله- بالمنطق أو التروي، وإنما تكلمت معه بلسان شبه لاذع، قد يكون جرحه في بعض المواضع، وقد يكون احتوى على القليل من الاحترام لشخصه المهيب، ومع هذا لم يكن

إلا صبورًا حليماً معها. شعرت بالخزي من نفسها، وتحركت نحو مرمى بصره،
وقالت في خجلٍ حرج:

إنت عارف إني مكانش ينفع أسيب خالي يروح لوحده، وهو في ظروفه
دي، وأكيد مقصدش حاجة من اللي حصلت جوا، أنا برضوه كنت بحاول
أمنع كارثة من إنها تحصل.

جمد نظراته الخالية من أدنى ذرة تعاطفٍ معها، قبل أن يسألها:

-وأنا قصرت مع خالك؟

ضغطت على شفثيها للحظةٍ قبل أن تهز رأسها نافية وهي تجاوبه:
-لا.

باعد ناظريه عنها، وتطلع إلى الأفق بنظراتٍ غائمة، غير مسترخية، انزعجت
لتجاهله المتعمد، وأحست بالضيق يضرب صدرها، تأملت ملامحه من
جديد، فرأت في وجهه التواءة زاويةٍ فيه في سخطٍ صريح، حاولت أن تبدي
ندمها، فاعتذرت عن رעותها قائلة:

-أنا أسفة.

الاعتذار المجرد من أدنى إحساس بالمسئولية، أو إدراك فعلي للخطأ في تقدير مدى خطورة بعض المواقف من عدوها لم يكن مقبولاً له، استمر "تميم" على حالته المستاءة، واستدار لينظر إليها في غير رضا وهو يعنفها: ما ينفعش كل حاجة تاخديها عند كده، لمجرد إنك عايزة تثبتي موقف.

لم تنجح نظرتة القاسية في منعها من التبرير بإصرار: ده غصب عني، أنا متعودتش حد يشيل المسئولية غيري، فصعب أتغير بين يوم وليلة.

عقب في لهجة صلبة يشوبها العتاب أيضاً: بس سهل تعتمدي عليا، توثقي فيا، لكن الي بشوفه منك غير كده، وده مش حلو.

استحقت ذلك التقرع، وأحنت رأسها في حرج وهي تخاطبه: أنا فعلاً اتصرفت باستعجال، و ...

كأنه لم يسمع ما تقول، فقاطعها مجدداً وهو يهتف بنبرته الغاضبة رغم خفوتها: إتي ييقالك الكلام لو قصرت معاكي في حاجة.

رسمت ابتسامة مهذبة على شفيتها وهي تواصل الاعتذار بوداعة: خلاص .. حقك عليا، أنا غلطانة، ماترعلش بقي.

تمهل في رده عليها، فتحرقت شوقاً للتأكد من عفوه عن زلتها؛ لكنه خيب
رجائها، وأخبرها بعد صمتٍ قليل في فتور:
-ربنا يسهل.

هَبْ بها الضيق، فصاحت في تشنج:
لو سمحت حاول تفهمني، قدر موقعي.

انفعالها عليه بعد اعتذارها منه لم يكن في محله، أو حتى موفقًا، بل إنه زاد
من الطين بلة، فراح يزيد من تقريعه لها:

-موقفك؟ ده على أساس إنك لما تظهرى قلة الذوق، وتركي دماغك وتمشي
اللي فيها يبقى 100 100 وزى الفل؟!!!

تدلى فكها السفلي وهي تطالعه بتلك النظرة الآسفة، حدجها بنظرة أخرى
أشد جفاءً وهو ينهي عتابه اللاذع:

-راجعي نفسك قبل ما تبرري حاجة.

استدار تاركًا إياها في مكانها؛ لكن صوته تردد أمرًا:

-ويالا بينا، ولا عاجبك الأعدة هنا؟

حاضر.

قالت بصوتٍ خفيض، وهي تطأ رأسها في ندمٍ مليء بالإحباط، قبل أن تقوم برفع رأسها لتعود إلى السيارة، وشعورها بالضيق يتعاظم بداخلها.

.....

حجرة الصالون تحولت إلى ما يشبه حلقة اجتماعات مغلقة، شديدة الأهمية، تُطرح فيها كافة الاقتراحات، لاختيار المناسب، وتنفيذه في النهاية. كان لابد من تواجد "آمنة" خلال تلك الجلسة، ومشاركتها في الرأي، إذ ربما تخرج بشيء مفيد. كانت فناجين القهوة ممتلئة إلى ما قبل المنتصف، ومع هذا نهضت "فيروزة" وأحضرت العصير البارد ليشربه الجميع. أصغت إلى والدتها حين تساءلت في حيرة وهي تضع أمام كل فرد كأسه:

هنتصرف في الفلوس إزاي؟ ده مبلغ كبير!

نظر إليها "خليل" في عجزٍ وهو يقول:

مش عـ.ارف، بس مش معـ.ايا يغطي.

ظل "تميم" مشدودًا في جلسته على الأريكة، متجاهلاً "فيروزة"، لا ينظر نحوها، يتابع ما يدور أن يعلق على كلامه، ومع هذا عقب على خالها ناطقًا بهدوئه الجاد:

ماتشلس هم يا عم "خليل"، أنا موجود.

التفت الأخير ناحيته ليهتف في حرج:

-وانت ذنبك إيه؟

أضافت عليه "آمنة" بنفس التعبير المتحرج:

-أحنا شاغلينك يا ابني بمشاكلنا، وانت مش ناقص.

دون أن يبتسم قال:

-وأنا مش غريب.

ردت "آمنة" في استحسانٍ شديد:

-أكيد، ده إنت سندننا بعد ربنا سبحانه وتعالى.

استقرت "فيروزة" في مقعدها المقابل لـ "تميم"، وراحت تكلمه في جدية،

وكامل نظراتها عليه:

بس ماينفعش نورطك في حاجة ملكش يد فيها، كفاية الأذى اللي كان

هيحصلك بسببنا.

توقعت أن ينظر إليها باهتمام، لكنه بدا غير مكترث بالتطلع إليها، وقال

بصوتٍ جاف:

-أنا مش ممانع.

أصابها المزيد من الضيق لأسلوبه المتجافي، وأحست باعتصارة مؤلمة تعصف بقلبها، لم تخطئ للدرجة التي تستحق بها معاملة كذلك! تراجعت عن شرودها اللحظي لتتنبه إلى "رقية" التي اقتحمت الغرفة، لتقفز في حجر "تميم"، وتتعلق بعنقه بذراعيها الرفيعين متوسلة إياه:

ما تخلهوش يا خدني يا عمو.

تذمرت "آمنة" لوجودها، وقامت ناهضة لتوبخها:

إيه اللي جابك يا "رقية"؟ مش احنا قولنا بنتكلم كلام كبار؟ عيب نسمعه؟

تشبثت أكثر بـ "تميم"، والتصقت به رافضة الابتعاد عنه، دفنت رأسها في كتفه، وقالت ببراءة:

أنا مش عاوزة أمشي من هنا.

مسح "تميم" برفق على ظهرها، وهمس إليها مؤكداً:

مش هايحصل، وده وعد مني.

أبعدت رأسها عن كتفه لتنظر إلى وجهه وهي تبتسم، ثم قالت في مرجح قبل أن تعطيه حضناً آخرًا:

أنا بحبك.

بالكاد نجحت عمتها في انتشالها من حضنه، وسحبها بعيدًا عنه، أمسكت بها من راسها، وجرتها خلفها قائلة بقسماتٍ شبه منزعة:
تعالى معايا.

رغم مغادرتها للغرفة، إلا أن أنظار "تميم" بقيت معلقة بطيفها الراحل، ثارت بداخله رغبة ملحة في الدفاع باستماتة عنها، وعدم السماح مطلقًا بالتفريط فيها. عاد الحوار إلى مساره مرة ثانية مع استئناف "خليل" للحديث بترديده:

-أنا ك..نت محوش قرش..ين على جنب، يدوب يجيبوا 100 ألف.
استطردت "فيروزة" مضيفة بلعثة حرجة:
وأنا معايا فلوس ورثي من آ...

حثتها حواسها على النظر إلى وجه "تميم" في تلك اللحظة، فأبصرته متحفزًا، متقلص العضلات، لا ينظر ناحيتها، فبترت كلامها، وصححت من جملتها:
قصدي الميراث اللي خدته، حوالي 150 ألف.
علق "خليل" بعد حسيبة سريعة:
ك..ده نص الم..بلغ.

تساءلت "آمنة" وهي تستلقي في مكانها مرة أخرى:

هندبر الباقي منين؟

اقتاحت "فيروزة" في صوتٍ جاد، ونظراتها تزوغ أحيانًا تجاه "تميم"، علّها تجده يختلس النظرات ناحيتها:
-ممكن نكملة لو بعنا حطة الأرض.

ردت عليها والدتها وهي تسوي مقدمة حجاب رأسها بيدها:

-بس دي صعب نلاقيها مشترى دلوقتي بسعر مناسب.

تكلّم "تميم" بمنطقية، وعينه تنظران إلى "خليل":

-فعلاً، ولو اتباعت بيع المضطر هتخسروا فيها كثير.

ما هذا الشعور الذي يحتاجها بالاختناق وهي يتم تجاهلها عن عمدٍ من قبله؟
ثقلت أنفاسها، وبدأت تعايرها في الانكماش تأثراً للأمر، لقد نجح حقاً في
إزعاجها بإظهار عدم مبالاته بشأنه، بل إنها تكاد تصل للجنون إن استمر
على هذا المنوال. تركزت عينا "فيروزة" عليه في غيظٍ وهو يهتف:

-في اقتراح عندي، ما تاخدوا الفلوس مني على سبيل السلف، بحيث
ننجز في الوقت.

انفجرت فيه بكل ما يعتريها من مشاعر حارقة، فخرج صوتها متعصبًا بشكلٍ
يدعو للتعجب:

-لأ طبعًا، نص مليون إيه اللي سلف؟!!!!

اندهش "تميم" لانفعالها الغريب، ونظر إليها بقليلٍ من الحدية، ثم علق
بترث:

ما إنتي معاكي نص المبلغ، أنا هكمل بالباقي، دي "رقية" غالية عندي زي
ما غالية عندكم.

تخرج "خليل" من مساعدته السخية، وأردف معترضًا عليه:
-والله يا ابني ...

رفع كفه مقاطعًا في هدوءٍ مُصر:

-ما فيش جدال في الحتة دي يا عم "خليل".

طرحت "فيروزة" مشاعرها الناقمة جابًا، وبدأت تتحدث في عقلانية، إليه
بالأخص:

-مممكن نوافق بس بشرط .. ده بعد إذنك يا خالي.

نجحت في اجتذاب نظراته إليها، وشعرت بالسرور يتسلل إليها لأنها
ظفرت بانتصارٍ صغير، أخفت ابتسامتها السعيدة، وحافظت على جدية
ملاحمها وهو يسألها:

-إيه شرطك؟

حممت قائلة على مهلي وهي ترمش بعينيها:
-أنا ممكن أديله فلوس المهر، ويعتبروا دين علينا نسدد هولك.
توقعت أن ينزعج للاقتراح، أن تتبدل تعابير لشيء مغاير غير ملامح
الصخر والوجوم؛ لكنه من جديد خالف ما كان متوقعًا بترحيبه:
-دي فلوسك وإنتي حرة فيها.
ردت عليه بحدية؛ كأنما تصح له لتغيظه فتذيب الجليد المغلف لوجهه:
-بس دي مش فلوسي، دي فلوسك إنت.
كان أكثر برودة مما مضى، وقال بترفع:
-المهر ما يتردش يا أبله طالما هنكمل الجوازة، إلا لو كنتي هتهيبها.
فزغ قلبها، وانعكس هذا على الشحوب المريب الذي اجتاح بشرتها، فهتفت
مستنكرة بشدة:
-أنا مقولتش كده.
أراح ظهره للخلف، وتكلم بنظرة قرأت فيها الجفاء:
-براحتك يا أبله.

طريقة تلفظه بلقبها الذي اعتادت منه التدليل كان مختلفًا، يميل إلى الرسمية والجمود، لم تستطع تحمل المزيد من هذا الأسلوب، فاض بها الكيل، وانهار قناع جمودها، لذا كالطفل الصغير المتذمر، صاحت تعارضه وهي تلوي فيها: خلاص نبيع أي حاجة عندنا.

سألها مستحضرًا المنطق في حل الأزمة:

-وعادي تخسروا ألوفا، وترموها كده؟ ده مش كلام ناس عاقلة وبتفكر. عاندته بتبرم طفولي:

-ماهو يا تقبل إنهم يكونوا دين، يا نلغي الاقتراح.

ثم رمقته بنظرة مليئة بالإصرار، فما كان منه إلا أن قال ببرود أكبر استشار بقايا هدوءها:

-اللي إتني عاوزاه يا أبله.

.....

كانت كالترس الذي يدور في الفراغ، وهي تحاول استمالة إليها، بعد فشل ذريع في جذبها لتبادل أطراف الحديث معها، فور أن انتهوا من تقرير مصير الأموال المدفوعة للمقيت "حُسنِي". ووقت "فيروزة" مع "تميم" عند عتبة باب الشقة ترجوه بنعومة ولطف:

خليك معانا شوية، منها ترتاح، وتاكل حاجة، ده إنت من الصبح دايج
ويانا من هنا لهنالك، والأكل يدوب بيجيز.

قابل دلالتها المستحب إليه بجمودٍ عجيب، فقال بنبرة ساد فيها طابع الرسمية:
-مالوش لزوم يا أبله.

ابتسمت قائلة بإصرارٍ وهي تنظر إليه ملء عينيها:
-احنا مش هناخد وقت في تجهيز السفرة، دول عشر دقائق بالكثير.
أولى وجهه شطر السلم مقتضِبًا في الكلام معها:
-شبعان ...

أوغر صدرها بعزوفه الصريح عنها، وساد في ملامحها تعبيرًا حزينًا، زاد
وضوحًا مع ابتعاده وهو يخبرها:
-بيتهيا لي مافيش حد هيضايكم، وعمومًا أنا هسيب حد من طرفي قريب
من البيت عشان لو في حاجة جدت.

خرجت نبرتها راجية مستعطفة إلى حدٍ كبير وهي تطلب منه:
طب خليك معايا أنا شوية.

أحست بغصةٍ تنتشر في حلقها، وبالوحشة تعصف في كيائها حين رفض
بجفاءٍ:

-مش عاوز.

كسا العبوس كل وجهها، وتقوست شفتاها للأسفل في ضيقِ بائن، لم ينظر ناحيتها وهو يودعها بنفس اللهجة الرسمية:

-سلام يا .. أبله.

تأملت حالها بأسى، ما هذه الكآبة التي حلت بها لابتعاده الغاشم، اندفعت مقبلة عليه على بسطة السلم، وسألته بصوتٍ مهموم:

-أبله! هو إنت لسه زعلان مني؟

هبط الدرجات دون أن ينظر إليها، وكلمها في غير تعاطف:

-خدي بالك من نفسك، تصبحي على خير.

نادته بصوتٍ مختنق وقد استندت بقبضتها على حافة الدرازين:

- "تميم"! استنى!

ندائها الناعم المحمل بالندم هز كيانه، جعل كامله يرتج؛ لكنه تسلم بجموده الزائف، وأطال في قساوته مودعًا إياها من جديد:

-سلام عليكم.

خشيت أن يكون بانسحابه الغريب على وشك هجرانها، والانزلاق من بين أصابعها، بل إنها توهمت أنه قد يعيد التفكير في مسألة ارتباطها بشكلٍ

جدي؛ كان ذلك جليًا عليه: في تصرفاته، في نبراته، في نظراته، وحتى في
ملاحظه. انقبض قلبها للفكرة، وهاجت مشاعرها السلبية وتفشّت كالوباء في
كل خلية حية تنبض بداخلها، أحست باضطراب أنفاسها، بثقلٍ يحتم على
صدرها، تراجعت مبتعدة عن السلم وهي تردد لنفسها في توجيس حقيقي:
يا ربي، هو أنا عكيت الدنيا أوي كده
!!؟

الفصل المائة وسبعون

الجانب الآخر غير المعروف عنه، وتحديدًا إليها، كان يسود في التور، حين تبلغ قسوته منتهاهها، وقت تعرض الأقرب، والأغلى إلى أزمةٍ ما. كان من التعقل بحيث لم يتصرف بغير تخطيطٍ أو تفكير، ادعى تصديقه لهذا الكذوب الطامع، وانطلاء خدعة اكتفائه بمبلغ مالي ضخم، فور أن يتلقاه، نظير بضعة إيصالات لا تستحق القلق لأجلها. أراد أن يقع في فخ الحيلة، أن يصدق بأنه بمقدوره الاحتيال على غيره، لتقوده قدماءه إلى حتفه، ونهاية مصيره المغلف بالطمع.

صدّق "تميم" بسذاجة مفتعلة، وحماسة زائفة- ما قاله "حُسنِي" خلال ابتزازه خال "فيروزة"، وأكد على كونه مهوّرًا قليل الحيلة، لن يستطيع صده، في حين أنه كان يجهز له فخًا محكمًا للتخلص منه، دون أي ريبة. ما كاد يفسد الأمر هو مجيء "فيروزة" ومحاولتها التفاوض مع حقيّر مثله، لن يكتفي بما يأخذه مُطلقًا، ففور أن تنفذ النقود من جيبه، سيعاود الكرة، ويطلب الأموال، بأي حيلة كانت مشروعة أم لا. تجاوز عن عصبيتها وانفعالها الزائد أمام رجاله ليمسك أعصابه، ويتصرف بحنكة، الأمر يدعو للتعامل بعقلانية ليحدث المراد في النهاية.

في اللحظة التي ألقى فيها رزمة النقود عند قدميه خلال تواجدهم بهذا المكان المهجور، كان "ناجي" يقف من خلف "حُسنِي"، ولديه قطعة في ورقة مفضضة من (الحشيش)، دسها في جيبه دون أن يشعر، مستغلاً التهاة بجمع المال، بعدئذ جذبه بصحبة "حمص" و"شيكافو" إلى الخارج، ثم استقل به سيارته إلى أقرب موقفٍ لنقل المواطنين بالمواصلات العامة، وهناك جاءت المهمة التالية لرجليه، بمراقبة ذلك الوغد دون أن يشعر بهما، ريثما يتم التقدم ببلاغ يفيد بقيام أحدهم بالترويح وبيع المخدرات عن طريق تلك المنطقة النائية، مستغلاً غفلة رجال الأمن عن معرفة هذا الأمر الخطير الذي يدور في الأرجاء.

ألا يعود فارغ اليدين كانا من أقصى طموحه لهذا اليوم، شعر "حُسنِي" بالانتشاء يغمره من رأسه لأخمص قدميه، وجيبه مملوء بمالٍ يكفيه لعدة أيام، قبل أن يحصل على جائزته الكبرى. جالت في رأسه عشرات الأفكار الحماسية عما يمكن أن يفعله، وراح يسرح في خيالٍ متخم بالأحلام المبهجة. خرج من شروده الممتع على لكزة في كتفه أعادته إلى أرض الواقع المزعج، نظر إلى جانبه فوجد أحدهم يعطيه مالاً ويطلب منه:

قول للسواق اتنين ورا.

نظر له بوجهٍ منقلب، وأخذ النقود ليعطيها لمن يجلس في الأمام مردداً:

-اتنين ورا يا أخ.

نظرة مشمئة صدحت على وجهه وهو يرى من يجلس حوله، ثم استطرد
مردداً لنفسه بنحوة خفيفة:

-كفاية ضحك بقى.

استمر في مخاطبة نفسي بآمالٍ واعدة:

-الواحد محتاج يشبرق على نفسه، ويسويه من العالم الفقر دي اللي تجيب
ورا.

عاد للتحليق في فضاءاته الواهية، فلم ينتبه للحديث الجاني بين السائق
ورفيقيه الجالسين في المقدمة، فقال الأول وهو يمعن النظر في أفراد الأمن
الظاهرين على مدى البصر:

-دي حملة ولا إيه؟

قذف السائق سيجارته شبه المنتهية من نافذته، وعلق في تأفف:

-ربنا يستر، الظابط اللي واقف فيها من النوع الرزل، وياما كدر ناس.

رد عليه الأول محذراً:

حطب قول لحبايينا في الموقف اللي جاين على نفس الخط ياخدوا بالهم.

هز رأسه مردداً بجدية معكوسة على ملامحه قبل نبرته:

ما أنا بعمل كده لما نعدي منه.

صوتٌ جهوري صدح في الفراغ الساكن آمراً:

-اركن الميكروباس ده على جنب.

حمحم السائق قائلاً في طاعة واضحة وهو يخفض من سرعة السيارة:

حاضر يا باشا.

قام بركن السيارة بمحاذاة الرصيف، وبدأ في تلقي أوامر الضابط التالية، من تفتيش المركبة بدقة، الإطلاع على هوية من يستقلونها، بالنسبة لمعظم الركاب كان الأمر روتينياً ومعتاداً القيام بمثل تلك الحملات الأمنية، لهذا لم يرتابوا فيما يحدث.

نظرة مدققة ألقاها الضابط على الأوجه المتفاوتة في ردادات فعلها تجاهه، قبل أن يعطي أمره التالي:

خزلي الناس دي، وفتشهم.

تذمر الركاب من تسلطه الواضح، وبدأت شكواهم في الظهور علناً؛ لكنه أخرجهم بأمره الصارم:

-واللي مش عاجبه، سييه على جنب، لحد ما نشوفه على مهلنا.

همَّ أحدهم بالاعتراض ساخراً:

طب ليه يا باشا؟ ده احنا أنصف من الصيني بعد غسيله؟

زجره بنظرة قاسية من عينيه:

إنت هتعارضني؟

رد معللاً سبب احتجاجه:

أصل ما يصحش اللي بيحصل ده، احنا ناس محترمة، ولا إكمن راكبين مكروباصات؟

سار الضابط ناحيته، حتى أصبح واقفاً قبالته، ثم ربت بيده القوية على كتفه قائلاً بتهكم:

-الكلام ده لما يكون الخط معلهوش ديلرز مدارين وسط الناس المحترمين.

التفت برأسه نحو أحد رجاله يأمره:

هاته، وشوف مزاجه.

غمغم السائق في صوتٍ خفيض للغاية وهو يرى ما يحدث معه ومع الركاب من تسلط مزعج:

-الليلة السوداء بتبان من أولها.

في تلك الأثناء لم يكن "حُسنِي" مشغولاً بما يحدث من تفتيش أمني، مثله مثل أي راكب آخر بادر بالتقدم للانهاء من هذا الأمر السخيف؛ لكن سرعان ما اكتسبت تعابيره قلقاً متوتراً، حينما تم إخراج الورقة المفضضة من جيب بنطاله، جحظت عيناه في ذهول للمفاجأة غير المتوقعة، ووقع قلبه بين قدميه في صدمة عندما تم أخذ النقود المطوية من جيبه الآخر. احتج على سلبه ما كان يملك صائحاً:

دي فلوسي، واخدها فين.

اقتاده الفرد الأمني ناحية الضابط قائلاً في لهجة رسمية:

-تمام يا باشا، لاقينا معاه رزمة الفلوس دي، واللفة دي كمان.

امتدت يد الضابط لتفحص أولاً الورقة المفضضة، قربها من أنفه، واشتم رائحتها المميزة دون أن يفضها، رفع أنظاره نحو "حُسنِي" متسائلاً بنظرة غامضة:

-وده إيه ده كمان؟

أمام ناظره، فتحها، وجعلها في مستوى نظره هاتفاً في نبرة مليئة بالاهتمام:

الله! ده حشيش!

برزت عينا "حُسنِي" في ارتعاب مفزوع، وصاح نافياً هذه التهمة الصريحة:

-وربنا ممدوسة عليا، دي مش بتاعتي.
مط الضابط فمه للحظة، وتسائل بنبرة محققة:
-يعني طالما مش تعاطي يبقى إيتجار؟ صح كده؟
تهمة أكثر إدانة وقعت على كاهليه، فخلق فيه مدهوشًا، وقد اتسعت
حدقتاه بشدة، خاصة والضابط يكمل:
-ودول طبعا فلوس البضاعة اللي بتلمها.
على الفور أنكر ذلك بحمئة:
-لأ وكتاب الله.
ضحك الضابط هازنًا منه قبل أن يتوقف عن الضحك ليخبره:
-احلف من هنا للصبح .. ده إنت ليلتك فل معانا.
ثم استدار أمرًا أفراد قوته الأمنية:
-خدوه لحد ما نشوف حكايته إيه.
حاوطه العساكر من جانبيه، وقيدوا حركته في لمح البصر، أحس "حُسنِي"
بانهيأ عالمه الذي لم يكتمل سوى في وحي خياله، وهتف في توسل:
يا باشا اسمعني.

تجاهله الضابط، وعاد لممارسة عمله آمراً سائق المركبة التالية بالتقدم نحوه:
-الي بعده.

رغم صراخه الباكي إلا أن الجميع تجاهل ما يحدث مع "حُسنِي"، فما ينتظره
الآن مصيراً مجهولاً محملاً بمفاجآت غير سارة على الإطلاق.

.....

انزوى بعيداً عن الضوضاء المنتشرة بالقرب منه، ليتمكن من الحديث هاتفياً
إلى رجله، كانت عينا "ناجي" مركزتان خلال مخابرته على "تميم"، حيث
بدا الأخير أكثر وجوماً، وضيقاً، حاد بهما بعيداً عنه ليتساءل في جدية تامة:

-عملت الي قولتلك عليه؟

أخبره "حمص" بنبرة متحمسة:

-كله في التمام يا ريس، اترحل على كلبوش خلاص.

لانت تعابيره الجامدة، وظهر عليها الارتياح وهو يعقب عليه:

-زي الفل، خليه يتعلم هو وقف ضد مين.

تساءل "حمص" في اهتمام:

-أي أوامر ثانية؟

قال في هدوء وهو يلف ذراعه خلف عنقه ليدلكه:

-لأ، ريجوا إئتو، وعدوا عليا عشان تاخدوا حلاوتكم.

هتف في سرور منهياً معه الاتصال:

ماشى يا كبيرنا، يدوم العز.

بوجهه المبتسم عاد "ناجي" إلى المقهى، ليجلس على مقعده المواجه لرفيقه،

وخاطبه في ابتسامة منتشية:

خلاص يا "تميم"، بقى بخ.

لم يبدُ على ملامح الأخير أدنى تأثر، ونطق في إيجاز:

-كويس.

أشار بعدها "ناجي" لعامل المقهى ليأتي له بكوبٍ من الشاي، ثم حمل في

رفيقه متسائلاً بنوع من الفضول الحائر:

بس مش حرام ترمي 10 آلاف جنية في الأرض؟

نظر إليه نظرة غامضة قبل أن يكلمه وهو يشعل سيجارة أخرجهما من

علبتها:

-ومين قالك إنهم راحوا هدر؟ ده الليلة خلصت كلها بكده.
من وجهة نظره -مقارنةً بالتفريط في هذا المبلغ الضخم- كان التصرف
معقولاً، مناسباً إلى حدٍ كبيرٍ للتخلص من هذا الجشع الديني، ومع ذلك
تساءل ليشبع نزعة الفضول بداخله:

على كده الجماعة يعرفوا باللي عملته؟
نفخ "تميم" الدخان في الهواء، وقال بتعقلٍ واضح:
-مالوش لزوم، خليها تيجي صدفة، عشان محدش يقول متورطين فيها.
أبدى إعجابه بقراره، وعلق مبتسماً:
-صح الكلام.

جاء العامل ومعه الصينية المحملة بكويين من الشاي الساخن، رص كل
واحدٍ أمام صاحبه، ثم انصرف بعد أن أسند كوب السكر الصغير في
المنتصف بينهما. أمسك "ناجي" بالكوب من حوافه، تجنباً للحرارة
الساخنة، رفعه إلى فمه، وارتشف رشفة صغيرة قبل أن يضعه في مكانه مرة
ثانية، لم يستطع كبح تطفله، وتجراً متسائلاً بخفوت:
-مش ملاحظ إن حريمك زودوها شوية قصاد الرجالة وآ...

اختلجت تعابير "تميم" غير المسترخية مسبقًا المزيد من أمارات الضيق،
قاطعته قبل أن يواصل إتمام جملته في نبذة حازمة:

- "ناجي"، إياك! أنت عارفي مابتسهلش في اللي يمس عيلتي.

رد مبررًا نزقه:

-أنا عارف والله، بس اللي أقصده تكون حمش شوية، يعني زي ما إنت
فاهم، لما بتسيب الحبل على الغارب للحريم، بيسوقوا فيها، ويركبوا،
ويدلدلوا.

رمقه بنظرة قاسية محذرة قبل أن يخرجه بفضاظلة:

مايخصكش برضوه ...

ثم نهض من كرسيه هاتفًا في صيغة يملأوها الصلابة:

خلص شايك، وحصلني، لسه ورانا شغل متعطل.

رمش بعينه مرددًا في حرج:

-ماشي .. أوام.

شيعه "ناجي" بنظراته المنزعجة نسيًا وهو يبتعد عن المقهى بخطوات شبه

متعصبة، قبل أن يردد معه نفسه في تهكم:

-الواحد مايعرفش يتفك معاك في كلمتين!

.....
تعاقب الليل، وجاء النهار، ثم هبطت ستائر الليل الجديد على السماء فغطتها، لم تصدق "فيروزة" ما يحدث معها من تجاهل تام من ناحيته، وكأن شأنها لا يعنيه، شردت في الفراغ تتساءل في تحير متزايد، أتراه لا يزال غاضبًا منها؟ ألم تبذل ما يكفي من الجهد لإظهار ندمها؟ زفرت في سأم، وقالت كأنما تُحدث نفسها في عزم متزعزع:

حبيب هبعت أسأل عليه، وأشوف كده، جايز يكون مشغول.

أرسلت إليه برسالة نصية، وتلھفت لمعرفة رده، خاصة حينما جاءتھا إشارة إطلاعہ على ما قامت بإرساله، ولصدمتها الكبيرة لم يعلق، فصاحت مستنكرة بلامح وجهه جمعت بين الذھول والاستھجان:

-مش معقول، مايردش على رسايلي مع إنه شافھا!!

قررت محادثته، وراحت تهز ساقھا في عصبية متوقعة أن يُجيب على اتصالھا؛ لكن خابت ظنونھا، واستمر على نهج تجاهله، فاشتاطت غيظًا من عنجهيته معها. كرت على أسنانھا مرددة في استياء:

-لأ كده كتير بصراحة، أنا مش عارفة أعمل معاك إيه؟

تحركت عائدة إلى سريرھا، وجلست عند حافته، تفكر في حيرة؛ ولكن بصوت مسموع:

-شكلك واخدها جد، طب أراضيك إزاي يا "تميم"؟
شعرت بالصداع يضرب رأسها من كثرة التفكير، فتمدت على الفراش،
وسحبت الغطاء على جسدها وهي تعترف لنفسها بندم حقيقي:
-دماغي دي ساعات بتوديني في داهية.

.....

من جديد عيش الحزن في قلبه، وتشعب في عروقه، ليغدو مسيطراً على
كامل وجدانه، حتى أن اليأس تفشى في روحه، فأصبح متشائماً عن ذي
قبل بدرجة كبيرة. كعاداته في كل مرة تسوء فيها الأمور وتتأزم، يلجأ إلى
متنفسه الوحيد، إلى من يثلج صدره بالكلمات، ويطيب أوجاعه بالآمال.
ترجع "تميم" جالسا عند قدمي جده المستريح أرضاً على سجاده، وراح يشكو
إليه ما امتلأ به الفؤاد من هموم وأثقال، فما كان من "سلطان" إلا أن نصحه
بروية:

على الأقل إديها فرصة.

أطلق زفرة بطيئة ثقيلة قبل أن يتابع شكايته:

-يا جدي حاولت، بس في كل مرة يحصل فيها موقف أ تدخل فيه، عشان
أحل المشاكل اللي واقعة فيها، بتحسني إن مش أهل للثقة دي، إني
غريب عنها، وما يفهمش.

أصغى إليه في إمعانٍ، ثم علق بهدوء:
-أعذرها، وانت اتكلمت مع الدكتورة بتاعتها.
أتاه تعقيبه مفعماً بالضيق والإحباط:
-حصل، ومستعد استحمل بدل العذر مليون، بس الأقي نتيجة، لكن في
الآخر برجع معاها لنقطة الصفر.
اليأس المستبد به كان كفيلاً لجعل الجد يدرك أن مسألة ارتباطهما على
المحك، تفرس أكثر في تعابيره متسائلاً:
-وناوي على إيه؟
هز كتفيه قائلاً في صوتٍ شبه متألم:
-مش عارف .. هي ليها حرية الاختيار.
لم يعلق "سلطان"، واستمع إلى صوت أنفاسه الثقيلة وهو يحاول ضبط
نبرته، لئلا يشعر بما يعتريه الآن. بالحزن ذاته السائد في صوته اعترف إليه
حفيده:
-أنا بحبها، بعشقها لدرجة محدش يتخيلها، بس لو مش عاوزاني يبقى
خلاص ..
دمعة نافرة طفرت من طرف، أزاحها بإصبعه وهو يضيف في مرارة:

-أنا مش عايز أكون نسخة من "خلود"، أتأذي من اللي بحبه لمجرد أفضل
معاه والسلام.

اعتدل "سلطان" في جلسته، وقال وهو يدير حبات مسبحته:

-ربنا يصلح حالك يا ابني.

تصنع "تميم" الابتسام، ونطق معذراً:

-حوشتك يا جدي معايا.

رفع كفه معقبا في تهيدة شبه متعبة:

-وأنا يعني بعمل إيه طول اليوم؟ أديني قاعد مستني اليوم اللي أرتاح فيه.

غامت تعابير "تميم" أكثر لمجرد التفكير في خسارته، وهتف داعياً المولى
بصدق:

-ربنا يديك طولة العمر، ويحفظك لينا، ده أنا من غيرك ولا حاجة.

أنهى جملته وهو يميل على كف جده ليقبله في احترام وتقدير، ليقوم
"سلطان" بعدها بالربت على ظهره والدعاء له:

-إن شاء الله هتتعديل قريب .. ربك مع المنكسرين جابر.

بعد اتصالٍ مبكرٍ للتنويه بقدومهم للزيارة، تأكدت "آمنة" من إعداد حجرة الصالون وترتيبها بشكلٍ لائقٍ ومنمقٍ، لاستقبال ضيوفها الهامين، ما إن جاءوا على الموعد، حتى رحبت بهم بودٍ كبيرٍ ومحبةٍ غامرة، لدرجة أنها غطت إلى حدٍ ما على مشاعر الحزن المتوقعة بالنسبة للفقيد الراحل قبل يومين؛ لكن من كانت تنتظره "فيروزة" غاب عن المشهد، ولم يأتِ مثلما ظنت. استطرد "بدير" كلامه قائلاً:

كان واجب نروح معاكو البلد.

التفتت "آمنة" تنظر إليه وهي تخاطبه:

-كفاية مجيتمك هنا يا حاج، وبعدين "تميم" ماسبناش للحظة.

التطرق لاسمه جعل نبضاتها تتسارع شوقاً ولهفةٍ إليه، أمازال على جفائه القاسي معها؟ ألم تشتاق العين لرؤياها؟ وجمت، وتآكل داخلها ضيقاً. حاولت الالتئاء عن حزنها البائن على محياها، وانشغلت بالاستماع إلى الحوارات الجانبية دون تعليقٍ أو مشاركة، جالت نظراتها التائهة على وجه "ونيسة" وهي تردد:

-ربنا يجعلها آخر الأحزان.

سمعت والدتها ترد بعد تهيدةٍ سريعة:

يا رب.

قفز قلبها مجددًا في مكانه، حتى كادت تظن أن في قفزه المباغته صوتًا
فاضحًا لأمرها، حين تساءلت والدتها في تلقائية مهتمة:

-أومال "تميم" فين صحيح؟

أجابت "ونيس" بابتسامة صغيرة ولبقة:

كان واقف تحت من شوية، قال يوصلنا، وبعد كده يطلع يشوف الشغل
اللي وراه.

هزت رأسها هاتفة في تفهم:

-ربنا يقويه ويعينه.

ساد حزنٌ أكبر على محياها وهي تفكر في أسي:

-بقي كده، موحشتكش خالص؟ إيه قسوة القلب دي؟

قضيت ما تبقى من الزيارة شاردة في أفكارها التعيسة، راودتها الهواجس
عن احتمالية تخلي "تميم" عنها، خاصة مع اقتصار حديث عائلته عن أمور
العزاء، والموت، وما يحدث من خلافات تخص الميراث وغيره، لم يتم
التطرق مطلقًا للحديث عن مسألة خطبتها، أو حتى إتمام الزيجة، أو
تأجيلها، مما عزز من تلك المشاعر السلبية بداخلها.

.....

ثلاثة أيام مروا عليها كأحمالٍ ثقيلة لا تنضب، ولا يخف ثقلها. كاد يأسها يتملك منها، لولا أن هداها تفكيرها للكلام المباشر معه، فإن كان لا يجذب وسائل الاتصال بكافة أشكالها، إذًا فلتكن المواجهة المباشرة، وليحدث ما يحدث، فليس هناك ما تخشى خسارته، بعد ذلك العذاب الموجه للقلب. لجأت "فيروزة" إلى حيلة القيام بزيارة مباغتة في منزلته، لتضمن تواجده، ولم تقدم على تلك الخطوة إلا حين رآته من نافذة منزل شقيقتها يصعد للأعلى، فاستأذنت توأمتها بالذهاب لبضعة دقائق للأسفل بحجة إلقاء التحية على الجد "سلطان"، ثم العودة إليها لإكمال العمل المنقوص.

بكل ألفةٍ وعدم تكلف، تقابلت "ونيسة" معها، ومنحتها كل الترحيب الحار الذي تستحقه، مما اعتبرتها دلالة طيبة على عدم وجود أي خلافات مُبينة، فأنى لها تستقبلها بهذه المحبة وهي لا تريدها؟ شعرت بالارتياح لذلك، وبدأت تعلل سبب زيارتها الاستثنائية:

-أنا كنت فوق مع "همسة"، بنلم كام حاجة ناقصة، عشان نودبها على الشقة، وقولت أعدي أسلم عليكم، يعني ماينفعش أكون هنا، وماجيش. ابتسمت لها الأولى في صفاءٍ، وشكرتها بلطفٍ:

-كلك ذوق يا بنتي، ده بيتك .. تنوري في أي وقت.

اختطف "فيروزة" النظرات نحو الردهة، محاولة الوصول بعينيها إلى باب غرفته الموصود من زاويتيها؛ لكنها لم تتمكن، كانت تحتاج لتبديل موضع جلوسها، لتصبح الرؤية أكثر وضوحًا. رسمت ابتسامة صغيرة على ثغرها، وتساءلت:

-أومال "هاجر" عاملة إيه مع عريسها؟
جاوبتها بأريحية:

-في نعمة والحمد لله، مبسوطة معاه، ربنا يهدي سرها، هي صبرت ونالت.
حافظت "فيروزة" على ثبات بسمتها وهي ترد:
هي تستاهل كل خير.

أضافت "ونيسة" قائلة بعفوية جعلت الشوق يدب في قلبها:
عقبال يا رب ما نفرح بيكي إتي و"تميم" قريب.
تضرح وجهها بحمرة طفيفة، وغمغمت في نبرة خجولة:
يا رب.

البقاء بلا حراك في انتظار خروجه على إثر سماعه صوتها كان أمرًا سخيًا،
لذا استجمع جأشها لتسألها بسذاجة مصطنعة:

-صحيح هو مش هنا ولا إيه؟

أخبرتها "ونيسة" بأسف غير زائف وهي تستخدم يدها في الإشارة:
-نزل من شوية، قبل ما تيجي بـ 5 دقائق، لو كان يعرف إنك جاية كان
استنى.

سرعان ما حلت غمامة من الإحباط على تقاسيم وجهها، اهتزت بسمتها
اللطيفة، وبدأت متكلفة نوعًا ما وهي ترد:
-أها .. ربنا معاه.

اقتربت عليها في جدية حين لاحظت ضيقها:
-تحبي أكله أقولك إنك هنا؟
يا لحظها التعس! لن تتمكن من رؤيته، وستعود كما جاءت خالية الوفاض،
معذبة الفؤاد! خرجت من سرحانها اللحظي لتعترض في تهذيب:
-لا، مافيش داعي، خليه على راحته.

كادت شهى زيارتها بعد أن فشلت في تحقيق مسعاها، لولا أن انضم إليهما
الجد "سلطان"، فوقف في مكانه بطلته المهيبة مستندًا بكفيه على رأس
عكازه، وجّه حديثه إلى "فيروزة" قائلاً بلهجة مالت للجدية:
-كويس إنك موجودة.

نهضت من مكانها لترحب به:

إزيك يا جدي؟

رد في هدوء تشوبه الجدية:

الحمد لله، أنا عاوزك في كلمتين.

توجست خيفة من أسلوبه الباعث على الريبة، ومع ذلك ردت:

أنا تحت أمرك.

قال وهو يستقر في أريكته المعتادة:

الأمر لله وحده.

تجمدت عينا "فيروزة" عليه، متوقعة الأسوأ قادم في الطريق، انقبض قلبها،

وتوترت حواسها حين استطرد مخاطبًا "ونيسة" ليصرفها:

يايديكي الحلوة يا "ونيسة" اعميلي فنجان قهوة.

قامت من جلستها وهي تقول:

من عينيا.

شكرها على مجهودها مظهرًا تقديره:

تسلميلي يا غالية.

بصبرٍ فارغٍ انتظرت ابتعادها لتسأله بتعبيراتٍ قلقة:

خير يا جدي؟

استنشق الهواء بعمق، ليستهل بعدها مفتتح حوارها معها:

عارفة يا بنتي، المواقف هي اللي بتحدد معادن الرجال، في ستات هتلاقيا بتصنع راجل يكون ضهرك، تتسندي عليه، ويحميكي وقت اللزوم، وستات تانية يدوب آخرها تري بغل عندها في البيت، لا ينفع، ولا يستر. تلك الدباجة الغريبة أكدت ما أنبأها به حدسها من وجود خطب ما بشأنها، بلعت ريقًا غير موجود في حلقها، وعلقت بإيجاز:
فعلًا.

لفظ دفعة من الزفير من صدره، وتابع بصوته الرخيم الهادئ:

-الراجل مهما كان صبور، وحمول، فييجي عليه وقت ما يستحملش فيه قلة القيمة ولا الإهانة، حتى لو كان من عزيز عليه، ولا إنسان بيعزه.

خمنت تلميحاته المبطنة، وهتفت تسألها دون مراوغة:

هو "تميم" اشتكالك مني في حاجة؟ أكيد قالك على اللي حصل مع خالي؟

نظر إليها بثبات، وقال منتقيًا كلماته:

مش شكوى على أد ما هو زعل من اللي حاصل.

زاد العبوس في ملامحها وهي تبرر له:

-أنا خفت عليه إنه يتهور، واتفجئت بتصرفه، ف تعاملت بحدة شوية ...
لم ينطق معلقاً بشيء، فاستمرت في التوضيح، بشيء من الندم:
-بس لما قعدت مع نفسي وراجعتها، لاقيتني غلطانة، وبحاول أعتذرله، بس
هو مش قابل.

أتاها تعقيبه منطقيًا:

-لو الراجل اتقل من احترامه، وخصوصًا من واحدة ست، صورته في
عيون رجالته بتهز، ودي مش أول مرة.

استشعرت الخطر في استئناف علاقتها الشائكة مع "تميم"، فوجل قلبها،
وهتفت تقول في جزع:

-أنا مقصدش والله، ده كان شيء تلقائي.

حذرها "سلطان" بلهجة غير لينة:

-حافظي على هيبة راجلك، ده لو فعلاً شايفاه كده .. راجلك مش غريب
عنك.

كادت تبكي خوفًا من خسارته، وهمست في تلثم:

يا جدي ...

أدار الجد عكازه بداخل راحته في حركة دائرية مستمرة، وأخبرها دون أن تتغير نبرته الجادة:

إنتي غالية عندنا كلنا، وهنكون سندك على طول مهما حصل، حطي ده في راسك، اللي بيدخل وسطنا، يبقى من أهلنا، مش شرط نسب ولا غيره، المهم يكون عاوزنا نبقى أهله.

طفرت الدموع من عينيها تأثراً، فراحت تفتش في حقيبتها عن منديل ورقي تمسح به آثار بكائها الموجوع قبل أن تعود "ونيسة"، حاولت استعادة ثباتها، والظهور بمظهر غير متأثر، خاصة مع إشغال "سلطان" للأخيرة بطلبات مفتعلة، حتى اطمئن لعودة الأوضاع لشكلها الطبيعي، فراح يمتدح زوجة ابنه في ثناء:

مافيش زيك بيعرف يعدل دماغه بجهوته.

استأذنت "فيروزه" بالذهاب، وقد نهضت من مكانها، فاعترضت عليها "ونيسة" في دهشة:

ما تخليكي أعدة، هو أنا لحقت أرغي معاكي.

تصنعت الابتسام وهي تكرر اعتذارها بتهذيب:

مرة ثانية، عشان ألحق "همسة"، زمانها ملبوخة مع ابنها.

كانت حجة منطقية للهروب مؤقتًا بأحزانها ومخاوفها؛ لكن رغم هذا منحها الفرصة لإعادة تقييم القادم من حياتها من منظورٍ مختلف تمامًا.

.....

ما عاد أي شيء يهم لديها سوى استعادة ما كانت عليه معه، ودّت بشدة لو تمكنت من إعادة الزمن إلى الوراء، إلى حيث ما قد يُقال عنه مجازًا مُشادّتها الكلامية، وقتئذٍ لتركت له حرية التصرف كاملة في شأن عائلتها دون تشكيك أو تخوين، بلغ إحباطها منه مبلغه وقد أوشك الأسبوع على الانقضاء، فمن المفترض أن يكونا على اتفاقٍ واضح بشأن ما سيتم مع الجشع "حُسنِي"، كررت محاولة الاتصال به واستغلال تلك الحجة القوية للتواصل معه، وها قد أتت بمفعولها، لم يردّها؛ لكنه صدمها بإرجاء الحديث عن هذا الأمر لسببٍ لا تعلمه بعد.

لم ترغب في سبر أغواره، ومناكفته، لئلا تزيد من إفساد العلاقة، حاولت أن تبدو مهتمة به، لا متلهفة بشوقٍ عليه، فتنحنت متسائلة:

إنت مش ظاهر ليه؟

جاوبها بفتورٍ:

عادي.

شعرت بالجفاء في نبرته، ومع ذلك تابعت سؤالها التالي بتفاؤلٍ:

-كله تمام معاك؟

رد في إيجاز موجز:

أه.

تغاضت مرة ثانية عن تباعده المحسوس، وانتقلت لسؤالٍ روتيني آخر
مستهلك على المسامح:

-خلصت شغلك ولا إيه؟

علق ببرود:

-يعني.

استفزها بطريقته المتجافية، فلم تتمكن من ضبط أعصابها، والتمسك يهدوئها
الزائف أمام جموده القاسي، خرجت عن شعورها، وصاحت في تشنج:

-هو إنت مش طابق تكلمني؟

كان مترفعًا -ومغيظًا- في جوابه:

-مكوتتش رديت.

صرخت بكل ما اعتلاها من كبت وغيظ:

-إنت رديت عشان اللي اسمه "حُسنِي"، مش عشانِي.

علق في لهجة جافة للغاية:

عادي.

بلغت ذروة استحمالها، فاستمرت في صياحها بصبر نافذ:

على فكرة مش بحب الأسلوب الناشف ده.

توقعت أن يتأثر لعصبيتها، أن يتراجع عن بروده؛ لكنه واصل إغاضتها
بردوده المقتضبة:

براحتك.

خبا صوتها المنفعل بعد صمت ثقيل سمع فيه أنفاسها المضطربة حين قالت
بيأس تعيش:

هو أنا بتكلم معاك بالشكل ده؟ إيه اللي اتغير فيك؟

رد بعد لحظة من السكوت:

-أنا زي ما أنا.

سألته في ألم ظاهر في توسلها المستتر:

-أومال في إيه؟

أخبرها ببساطة:

-مافيش، أنا بس قولت أعاملك زي ما بتعامليني، وخصوصًا قصاد رجالي
أو الغرب، إيه الغريب في كده؟

هذه المرة أبدت ندمها بصدق:

-أنا أسفة .. خلاص أنا عرفت إني كنت قليلة الذوق جدًا، وغلطانة، حقك
عليا، مش هيحصل ثاني.

لانت نبرته الجامدة وعاتبها:

-هيفيد يايه الأسف؟ وإنتي مستقلة بيا، وأنا عمري ما هحرجك قصاد
حد، وأظنك مجرباني.

أحست بالاختناق يسود في صوتها وهي تعيد عليه اعتذارها:

-سامحني، مش هيتكرر، صدقتي.

زفرة ثقيلة سمعتها تخرج منه قبل أن يعقب:

-ربنا يسهل.

آلمها بُعاده القاسي، والتاعت بهجره الجافي، ظنت أن قلبه خلا من الميل
إليها، فلم تعد تستهويه، استطاع أن يسمع رنة الضيق في صوتها وهي
تستطرد:

-إنت مكبر الموضوع.

أوضح لها في هدوء:

-ماينفعش أصغره، ولا حتى أفوته، مهما كان الاحترام حلو ومطلوب،
مالوش علاقة براجل ولا ست ...

صمت والقلب يتألم، وزاد هذا الشعور مع إكمال "تميم" لجملة:

لو مش عاوزة تقولي حاجة ثانية، فأنا هقفل.

تنفست بعمق لتسيطر على بكائها الوشيك، ثم قالت ممهدة كإشارة
تحذيرية:

-أوكي، هي حاجة أخيرة، ويا ريت تسمعي كويس.

رد في هدوء:

-تفضل.

عرفت من أين تؤكل الكتف، كيف تُعيد الشريد إلى أوطانه، كيف تضمه
إلى داخل دائرته، بكلماتٍ سريعة مباشرة جمعت بين التهديد والقبول نطقت
"فيروزه" بثباتٍ ووضوح:

- "تميم" لو مسامحتنيش، مش هقولك إني موافقة يكون كتب الكتاب
والدخلة على آخر الشهر، سلام

!!

.....

الفصل المائة وواحد وسبعون

الموافقة المشروطة، وما على شاكيتها، من مساومات مغرية، كان غير مستلذ له، رغم تلهفه الحارق لسماع تلك الكلمات المعلنة عن قبولها بالزواج منه، إلا أنه لم يكن مقتنعًا بالأمر. أراد أن تكون موافقتها نابعة من داخلها، لرغبة حقيقية منها في ذلك، وليس محاولة أخيرة يائسة لاسترضائه بعد جرح رجولته مرة بعد مرة. وقف "تميم" مشدوهاً في شرفة غرفته لبعض الوقت، لا يعرف بماذا يجيب أو يرد بعد أن أنهت الاتصال، تاركة له حرية الاختيار.

حز في قلبه أن يراها مرغمة على حياة لا تستسيغها، الموت أهون عليه من أن يشعر بأن حبه ميؤوس منه، ومن طرف واحد. سحب شهيقاً عميقاً حبسه في صدره، قبل أن يحرره، وصوتٌ يتردد في رأسه:

مش ده اللي عاوزه منها!

حملق في شاشة هاتفه متطلعاً في صورتها المحفوظة عليه، ووجهه يعكس حيرته وحزنه، وألمه، تساءل في مرارة:

ليه مش عارفة تحسي بيا؟

بدأت سحابة من الدموع ترحف إلى حدقتيه وهو ما زال يسأل نفسه:

أنا إيه بالنسبالك؟

أخفض الهاتف بعد ذلك، وهو يتنفس بعمق ليسيطر على ما يعتريه من ضيق متأثر، ثم تحرك عائداً إلى الداخل، والهموم تثقل كاهليه. كان بحاجة للمشورة، لسماع الرأي السديد، لما يرشده لفعل الصواب، لذا لم يتردد في الذهاب إلى جده، والاستعانة به، علّ القلب الضائع يهتدي إلى مرساه.

.....

تقلبت على فراش من الجمر طوال ليلها، وهي تترقب وصول أدنى ردة فعلٍ منه، مضت عليها الدقائق طويلة، كأنها لا تريد الانقضاء، وعلى عكس المتوقع، جاء انتظارها بلا طائل، لم يصدر عنه شيء، أي شيءٍ مُطلقاً، مما استدعى شعور الإحباط بها. اعتدلت "فيروزة" في نومتها، وأسندت ظهرها لعارضة السرير، حملت للمرة المائة في شاشة هاتفها، وهتفت في تدمرٍ يائس:

ده مافيش ولا أي رياكشن منه؟!!!

جال بخاطرها أمراً مستبعد الحدوث، خشيت التفكير فيه؛ لكن لسانها نطق به بصوتٍ مهتز:

معقولة.

بدأت الفكرة السوداوية من احتمالية عدم إتمام الزيجة تتوغل في رأسها،
وزادت مع تفكيرها التحليلي الذي راحت تعبر عنه بكلماتٍ مقتضبة:

في حاجة غلط، إلا لو ...

نفت شكوكها بقولها المذبذب:

مش للدرجادي.

حاولت شطف تلك الهواجس عن تفكيرها، وركزت في أمرٍ آخر بدا
منطقيًا، فحدثت نفسها:

حطب افرضي إنه رفض أصلاً الاقتراح.

برقت عينها في ارتياحٍ وهي تردد:

معنى كده إنه ...

عجزت لوهلة عن إكمال جملتها، وانعكست تعابيرها المفزوعة على وجهها،

لتقول بعدها كإفصاحٍ خافت عن مخاوفها:

غير رأيه خالص.

نفت ما راودها بادعائها غير الواثق:

-لالالا .. ماظنش، أكيد هو متمسك بيا.

لم تكن واثقة بالفعل من هذا الكلام، ربما لفترة الجفاء الأخيرة التي سادت بينهما التأثير السلبي عليه، فعدل عن فكرة الزواج كلياً. تهدل كتفها، وانتشر الحزن على ملامحها وهي تُعطيه أسبابه:

حطب هيمسك بيا ليه، وأنا عمري ما حسسته إني مهمتية بيه؟!
تركت الهاتف من يدها، وكورت قبضتها لتضرب بها على الغطاء بضعة مراتٍ متتالية، وهي توبخ نفسها:
أنا غبية فعلاً، معرفتش أحافظ على الإنسان الوحيد اللي على طول واقف جمبي.

ما آخر ذلك السكون المستنزف للأعصاب؟ ألن يخرج عنه ليثلج صدرها الملتاع؟ ألم يحن بعد إليها؟ أم تراه اعتمد القسوة سبيلاً؟ اعتصر- الألم قلبها لمجرد التفكير في هذا الاعتقاد، وراحت تسأل نفسها كأنما تعترف بما يتعذر عليها نطقه في العلن:
هو أنا فعلاً بحبه؟

.....

منذ الساعات الأولى للنهار، كان "تميم" ماكثاً في غرفة جده، يريد منه النصيحة والمشورة، حكى له ما دار من مكالمة شبه حاسمة للقادم من حياته مع من يعشقها، بالطبع ليس بالأمر الهين عليه أن يتتعد عنها؛ لكن

إن كان تواجهها معًا مُقيّدًا، فع الوقت ستتحول براعم الحب النابضة في قلبه إلى مسوخ تقضي على كل ما هو طيب بينهما. لم يقاطعه "سلطان"، وتركه يفرغ ما في جعبته، إلى أن انتهى من الكلام، حينها جاء دوره، وسأله بهدوء:

لأنت قررت إيه في النهاية؟

أخفض رأسه، وحدث في نقطة وهمية عند قدميه، ليجابه بعدها بعد زفير قصير:

لأنت عارف إني عايزها يا جدي، بس واضح إنها لأ.

لم يعلق الجد، وتركه يسترسل في إبراز دوافعه:

-بدليل إنها مطوحت في الميعاد من الأول، ودلوقتي الموضوع بقى مساومة عندها.

قتل غصة مؤلمة علقت في حلقه وهو يتابع بمرارة:

-ودي الحاجة الوحيدة اللي ماينفعش أجبرها عليها.

طالعه "سلطان" بنظرة متعاطفة وحنون، حافظ على صمته ليكمل حفيده بتنهيدة موجوعة:

لو غصبت نفسها على العيش معايا، مع الوقت هتكرهني، وده مش هتحمله.

رد عليه جده بهدوء:

-سليها على الله، محدش عارف الخير فين.

هز رأسه باهتزازة خفيفة وهو يرفع عينيه إليه، ليضيف الجد بتفاؤل:

-بس وقت ما ربك يأذن، هتلاقي علامات التيسير قصادك.

تهد مطولاً قبل أن يخبره "تميم" بتعبير مبهم غير مقروء:

-كله خير... كله خير.

.....

قبيل الظهيرة، في هذا الوقت تحديداً، تواجد في منزل عائلتها، وهو مُتيقن من انشغالها بالعمل في محلها، لإطلاعهم على المستجد بشأن "حُسنِي"، وما وصل إليه -عبر محاميهِ- من أخبارٍ بعد تجديد حبسه. دار بعينه على المكان وهو يشعر بالاشتياق إليها، إلى نظرة ناعمة منها، إلى كلمة رقيقة تصدر عنها، مصحوبة بضحكة متدللة تداعب الأوتار؛ لكن كيف للحظة عابرة أن تُبدل هذه المشاعر السامية إلى أخرى مُوغرة. تجاوز "تميم" عن لهفته، وغطى عليها بلامح جادة متصلبة، ثم أكد له بثقة كبيرة:

مش عاوزك تقلق يا عم "خليل"، الموضوع عندي، وخلاص اتحل.
سأله في دهشة وهو يرمقه بتلك النظرة الحيرى:
إزاي؟ ده الـ.. مفروض كنت..! نجمع الف.. لوس، ونديها له.
ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يخبره بغموض:
ربنا كريم، وبعدين لا يفيل الحديد إلا الحديد، المهم ارتاح، وبتك في أمان.
هتف "خليل" شاكرًا المولى:
الحمد لله.
ربت "تميم" على فخذه استعدادًا للنهوض، وقال مستأذناً:
طيب يا عم "خليل"، هاقوم أنا، ونتقابل ثاني على خير.
جاءت إليه "آمنة" تسأله في استغراب:
إنت لحقت يا ابني، ده القهوة لسه على النار.
اعتذر منها بلباقة:
معلش، أنا كنت جاي في كلمتين على السريع وماشي، تتعوض وقت ثاني.
سألته بغتة بما جعل دقات القلب تتسارع:
طب و"فيروزه"؟

لاذ بالصمت مرغماً، لا يريد الاعتراف لنفسه بأنه يتحين الفرص لرؤيتها
بالرغم من ضيق صدره، لكنه قسا على شوق قلبه، وفعل ما لا يُحبذه،
متحملاً تبعات اختياره المتجافي. عاد من شروده السريع، وتنبه إلى صوتها
القائل بنوعٍ من العتاب اللطيف:

دي هتزل لما تعرف إنك جيت ومشيت من غير ما تشوفها، وبعدين
مش كنت تستنى تعرف بالأخبار الحلوة دي معانا منك؟ ده حتى مزاجها
مقلوب الأيام اللي فاتت، ومش على بعضها نهائي، فجايز ده كان يفرحها.
أحزنه سماع هذا، وتلقائياً انقلبت تعابيره، ليردد بعدها في جدية:
هابقى أكلما أطمئن عليها.

تصنع الابتسام ليخفي ضيقه المتفشي فيه، وقال بأدب:
عن إذنك ..

خَفَّض من نظراته في احترام، وتقدم في خطواته، ليصل إلى باب الشقة
وهي من خلفه تهتف:
إذنك معاك يا ابني.

أوصلته إلى الخارج وهي تدعوه بصديق:
ربنا يباركلنا فيك، ويخليك لنا.

منحها نظرة ممتنة قبل أن يهبط درجات السلم، والألم ما زال مستبداً بقلبه،
ألم يأن الوقت بعد لتشعر به بحق؟!

حينما ضاقت بها السبل، وعجزت عن إيجاد الحل المنطقي لمعضلتها، لجأت
إلى طبيبتها النفسية، إذ ربما مع استفاضتها في البوح بما يمتلئ به عقلها من
مخاوف وهواجس، أرشدتها وسط دوامتها اللا متناهية إلى الدرب الصحيح.
اتفقت "فيروزة" على لقائها في دار رعاية المسنين، وقت الظهر، في
الحديقة المورقة. كانت المقابلة تسير على ما يرام، بها الكثير من التفريغ
العاطفي للكبت المشحون بداخلها، إلى أن تلقت هذا الاتصال، خرجت
عن مألوفها المعتاد، وراحت للحظات فيما يشبه الغيبوبة الذهنية، بعد أن
أطلعتها والدتها هاتفياً على زيارة "تميم" للمنزل، وفي غيابها، كأنما تعمد فعل
ذلك ليتجنب الالتقاء بها، سرعان ما انتفض فيها الغضب وهتفت بكدرٍ
متزايد في صوتها:

كان موجود، ومسألش عليا؟!!!

علقت والدتها في هدوء:

قال هايكلمك.

بالكاد سيطرت على نبرتها المحتدة، وقالت:

حبيب يا ماما.

سألتها "آمنة" مستفهمة:

هتتأخري؟

ردت بوجوم شديد:

-لا، هخلص اللي ورايا، وأرجع.

جاءها تعقيبها مختمًا المخابرة:

ماشى يا "فيروزة"، مع السلامة.

ألقت بالهاتف على الطاولة في عصبية، لتتطلع إلى طبيبتها بنظراتٍ
مستشاةة، قبل أن تتابع شكواها إليها بتشنج:

-سمعتي بنفسك يا دكتورة "ريم"، متجاهلني بشكل كامل، يعني خلاص
خد القرار.

امتصت حنقها الظاهر عليها بسؤالها في نبرة هادئة وذات دلالة مباشرة:

حطب ليه ماتفسريش الموضوع على إنه حاجة ثانية؟

على ما يبدو لم تستوعب وسط غيظها المغزى وراء هذا السؤال،
فاستمرت على عصبيتها عندما ردت:

حاجة ثانية إليه ؟ ده أنا قولتله موافقة نكمل الجوازة.

طلبت منها "ريم" بتريث متعقل:

من فضلك إهدي، ده مش أسلوب للنقاش، ولو اعتمدتي على الطريقة دي في الكلام معاه هتتفهم غلط.

نظرت إليها بعينين ضيقتين، وأطبقت على شفيتها مانعة نفسها من التعليق، في حين بادلتها "ريم" نظرات خبيرة وهي تواصل تعرية الحقائق لها: هيعتبرك بتقللي من احترامه، وما فيش تقدير ليه.

نفس العبارات المعاتبة تكررت على مسامعها بشكل آخر، مع اختلاف الشخصية، بذلت جهدًا لتضبط من أعصابها، واعتذرت في عبوس: أسفة.

ردت عليها بمنطقية:

١-اعتذار ممكن مايكونش مجدي لو وصلتي في الخلاف لعدم الاحترام. كانت كمن يتجرد من دروعه في إسقاطها الحر معها، احتدت نظراتها المستنكرة إليها، ومع ذلك استأنفت "ريم" كلامها اللاذع بأسلوب رزين وهادئ:

ده اللي عاوزة أوصلهولك يا "فيروزة"، صحيح إنتي قولتي موافقة فعلاً، بس موافقة مرهونة بشرط معين، يعني حظيتي حاجة قصاصد حاجة.

رمشت بعينها في ضيقٍ عارم، و"ريم" ما زالت تتكلم بغير تحيز:

-وده طبعا مرفوض عند راجل بطباع "تميم"، دمه حامي، وليه شخصية قوية ومستقلة، محتاج اللي قصاده يحترمه، ويديله التقدير اللي يتناسب معاه.

تصلبت في جلستها، واستقام كتفها وهي تريح ذراعها على الطاولة، لتقول بعدها في استياءٍ منزع:

-أنا كده ما بقتش عارفة أعمل معاه إيه.

لاحت بسمه رقيقة على ثغرها وهي تخبرها:

-الموضوع بسيط جداً، حظي فيه ثقتك، وحسسيه بده.

عقبت على الفور في حمئة ظاهرة في نبرتها:

حطب ما أنا بعمل كده.

أثاها تبريرها منطقياً، ويحمل اللوم في طياته:

-أيوه، بس بعد إيه؟ لما الدنيا تكون اتعقدت.

اربد وجهها بالمزيد من علامات الضيق، وتضاعف مع استمرارها في تقريعها بشكلٍ مهذب:

-وده يعتبر سوء تصرف منك.

ردت بشيء من العجرفة:

-ماشي، بس يخليه يرفضني؟

الأسلوب المَعاند، والمتخم بنزعة التعالي المكروهة، كان غير مقبول في التعامل معه، لهذا أرادت "ريم" الإشارة إلى تلك السمة التي اتخذت مسارًا كبيرًا في الظهور ضمن طباعها المستحدثة مؤخرًا، عن طريق اللجوء لحيلة ذكية، لوضع يدها على ذلك العيب الخطير. لفظت الهواء من رثتها، وأخبرتها ببسمة هادئة:

-وده مضايقتك؟ ماهو عرض وطلب، ليه مستغربة؟

سادت رنة الغيظ في صوتها وهي تجيبها:

-يعني أنا بالنسبالة واحدة بتفرض نفسها عليه؟ أومال فين المشاعر الحلوة، اللي كان ييلمح بيها؟ اختفت فجأة؟

زمت شفيتها للحظة قبل أن تخبرها ببساطة:

-هتظهر، بس مش في وقت الأزمات.

كانت على وشك الاحتجاج عليها؛ لكنها أسكتتها بإشارة مرفوعة من يدها قبل أن تكلمها بهدوئها المعتاد:

-وبعدين ما تنسيش لازم المشاعر بينكم تكون متبادلة، مش من طرف واحد بس، والطرف الثاني مستقبل فقط، أو يحسس اللي قدامه إنه بيمين عليه لما يتعاطف معاه، كده مش علاقة سوية، دي بوادر لعلاقة فاشلة.

أرجعت "فيروزة" ظهرها للخلف، وشبكت ساعديها وهي تمط شفيتها في تجهمٍ شديد، راقبتها "ريم" بنظراتها المتفرسة، وداومت على معابقتها بأسلوبها الرقيق، فقالت:

-زي ما هو بيستوعبك وقت عصبيتك، هو متوقع منك إنك تعمل كده كمان معاه، مش تمنى عليه، ولا تقابلي دعمه بعدم تقدير وإهانة.

هاجت مشاعرها من جديد، وانتفضت مدافعة عن نفسها:

-أنا مقصدتش، كان غصب عني، وفي نفس الوقت كنت بحميه من مصيبة كان هيقع فيها لو اتهور، ليه دلوقتي عاوز يبعد؟

امتد النقاش في تلك الجزئية لبعض الوقت، ما بين شدٍ وجذب، إلى أن تساءلت "ريم" في الأخير وهي تنظر في عين مريضتها مباشرة:

- "فيروزة" إتي تهربي من إجابة السؤال اللي سألتهولك أول ما تكلمنا، بتلني وتدوري ومش عاوزة تجاوبي عليه، إتي بتحبيه ولا لا؟

تحاشت النظر إليها، لئلا ترى صراع التخبط الدائر في رأسها، سمعتها تقول في هدوء:

لو قدرتي تجاوبي على السؤال ده بصدق قصاد نفسك، هتعرفني إنتي
عاوزه تعملي إيه معاه، وهتحدي هتكلمي اللي جاي من حياتك إزاي ...
بلغ الحوار مُنتهاه معها، فأنهته بجملة تحذيرية لخصت اللقاء، ووضعتها عند
أول الطريق:

غير كده إنتي بتعملي حواجز، وهتفضلي عند نقطة الصفر، مع الفرق إنك
هتفقد الحب، والأمان، والسند اللي بجد.

.....

لقتها مشاعر الغضب، الكدر، الألم، والحزن، بعد تلك المصارحة المتخمة
باللوم والتوجيه؛ اللوم لإساءة التصرف في أمورٍ تتطلب حنكة وذكاء،
والتوجيه لاستعادة ما هو على وشك الفقد بالحكمة والتروي. مكثت
"فيروزة" في دكانها بمفردها، بعد أن صرفت مساعدتها مبكراً، لتزوي مرة
أخرى وسط دوامة أفكارها المتصارعة. تهيدة سريعة لاحقتها بأخرى وهي
تُعيد على نفسها ذلك السؤال بعينه؛ حيث نظقت به بصوتٍ خافت مهموم:
ليه دخل حياتي من الأول لما هو مش عاوزني في الآخر؟

فركت جبينها بإصبعها وهي تستند بمرفقها على سطح مكتبها، قبل أن
تتساءل في جدية:

حطب وأنا؟ عايزاه ولا لأ؟

وجدت الأفكار السوداء طريقها إلى عقلها المرهق، فقالت في نبرة محبطة:
هتفرق في إيه؟ كل اللي كنت بستناه وبحلم بيه بيروح قبل ما يبتدي.
لكن ما لبث أن قاومت ذلك الزحف المهلك بتأكيدها:
بس هو غيرهم.

لمع في حدقتها وميضًا حزينًا وهي تتمم باشتياق:
على طول معايا، وفي ضهري.
تقوست شفتها للأسفل ليتكلم مشهد العبوس على وجهها وهي ما زالت
تُخاطب نفسها:
أنا اللي اتصرفت غلط من الأول، عاملته على إنه غريب، وهو أقرب
واحد ليا.
استوت على مقعدها، ولملمت أشياءها المبعثرة في حقيبتها، لتردد في عزم
شديد الجدية:

-لازم أتكلم معاه، مش هسيب الموضوع متعلق كده.
نهضت من مكانها، وتابعت استرسالها أحادي الجانب مقررة بحسم:
-النهاردة هنيه، يا نكون سوا، يا إما كل واحد يروح لحاله.

.....

أوصدت باب محلها، ووضعت القفل بين مقبضيه، لتنتقل بعدها سائرة في اتجاه دكان عائلة "سلطان" بخطوات متحفزة، شبه متعجلة، وصوت دقات قلبها يصم أذنيها من فرط قلقها. تنفست "فيروزة" بعمق لتضبط انفعالاتها المتوترة، واستعدت لتعبر من الزقاق الضيق إلى الشارع الواسع، حيث يتواجد الدكان على ناصيته، بدا الطريق خاليًا من السيارات؛ لكن أحدهم قطعه بغتة ومن الاتجاه المعاكس، بالكاد نجت من اصطدام وشيك، وتراجعت للخلف وهي تسمع صوت صرير احتكاك المكابح بالأسفلت، تجمدت في مكانها مشدوهة، قبل أن تتحول نظراتها المرتاعة نحو السيارة، وقائدها الأرعن.

التقطت أنفاسها المضطربة من الصدمة المباغتة، واستدارت توبخ المخطئ بحدة:

مش تحاسب، في ناس ماشية على الأرض.
أطل صاحبها برأسه من النافذة، وصاح بها بفضافة أدهشتها كليًا، وألجمت لسانها للحظة:

إنتي اللي غبية، وعامية، ما تفتحي وتبصي قدامك، ولا هو رمي بلا؟!!
استفاقت من ذهولها المؤقت لتهدر به في غضب متصاعد:

-احترم نفسك، يعني غلطان وبجح؟ ده بدل ما تعتذر؟!
ترجل من سيارته ليواجهها، وقال في إهانة فظيعة جعلت الأنظار تتجه
إليها:

-اعتذر لي يا (...)، يخربيت أبو اللي علمكم المشي.
على إثر نعته النابي، اتسعت عينا "فيروزة" في ذهول، قبل أن تتبدل
للقساوة، تجمع غضبها على الفور، وراحت توبخه في تشنج:
-أما إنت واحد قليل الأدب، ومش محترم بصحيح.
لم ترده نظراته القاسية، بل إنه تقدم ناحيتها هادراً بصوتٍ جهوري، وملوحاً
بذراعه في وقاحة جريئة:

-تعالى علميني الأدب يا (...).
احتج أحد المتواجدين على أسلوبه غير اللائق في الحديث إليها، واقترب
منه يعنفه في غير رضا:
عيب الكلام ده ...

نظر له الرجل الغريب باستخفافٍ، فتابع ذلك الفرد تقرّيعه:
-ما يصحش تتعرض لبنات الناس بالشكل ده؟

حاد بنظراته المتأففة عنه ليمح "فيروزه" نظرة احتقارية مشمئزة وهو يخاطبه
بطريقته الفجة:

دي واحدة صايعة و(...).

شهقة أخرى مستنكرة انفلتت من بين شفثيها على إثر سبابها المهين لها،
كان ذلك الرجل وقفاً للدرجة التي جعلت المتجمهرين يزومون في استهجانٍ
شديد لوضاعته المتجاوزة معها.

.....

في تلك الأثناء، بين رجاله وقف شامخاً، صليداً، حازماً، يُلقي الأوامر هنا
وهناك، ليتأكد من إنجاز المطلوب في وقتٍ وجيز. أعطاه أحد عماله ورقة
ليطلع عليه، فقرأها في إمعانٍ قبل أن يزيل آخرها بتوقيعه، استدار برأسه
نحو آخر يناديه في جزع:

الحق يا معلم "تميم"!

سأله بحاجبين معقودين:

في إيه؟

جاوبه العامل بصوتٍ لاهث:

جماعتكم بيتخافقوا على أول الشارع.

برزت عروقه وانتفضت في كامل جسده مع تلك الكلمات المستثيرة
للأعصاب، اندفع كالثور الهائج ركضاً ولسانه يتوعد بحنقٍ جم:
ليلته مهبية!

اختطف النظرات خلال اندفاعه الغاضب ليعي من المقصود بجماعته،
فالعامل لم يفصح بشكلٍ مباشر عن هوية من تتعرض للاعتداء، أنبأ قلبه
بأنها المقصودة، وصدق النبأ حين رآها تنفعل في وجه أحدهم، اخترق
صفوف البشر التي أعاقته عن بلوغها بدفعهم لجانيه بكتا قبضتيه، سمع
نعت ذلك الوغد الوح إلهيا، فاشتد هياجه، وهدر بصوتٍ زلزل صداه في
الأرجاء:

إيه الي بتقوله ده يا (...)، قسماً بالله ما سايبك النهاردة.

لم يستطع أي فرد منعه من الوصول إليه، بل يمكن الجزم بأنهم اتفقوا فيما
بينهم دون ترتيب على إفساح المجال له للاقتضاض عليه. ترك "تميم" العنان
لنوبة غضبه المندلعة لتنفجر في وجهه، لكمه بقساوة، بعد أن أطبق بقبضته
القوية على عنقه، تفاجأ الرجل بهذا الهجوم الغاشم عليه، وحاول صده إلا
أنه فشل أمام سيل اللكمات العنيفة، حتماً فسدت ملامحه، وامتلات
بالتورمات والكدمات المختلفة.

لم يستغرق الأمر سوى أقل من دقيقة لتدرك "فيروزة" أن حاميتها على وشك زهق حياة أحدهم للذود عنها، لمجرد أنه سمع بالأمر، رغم الجفاء والتباعد بينهما. رأته في كامل غضبه واهتياجه، هوى قلبها جزعاً عليه، ونادته بصراخ مرعوبٍ وقد رأت الآخر يلكمه في فكه كمحاولة بائسة لحفظ ماء وجهه بعد بعثرته:

- "تميم"، خد بالك.

لف "تميم" ساقه حول ركبة الرجل، ثم ثناها في خفة وسرعة ليطرحه أرضاً، فارتطم جسده بالأسفلت الصلب، وصاح متألماً، لم يعبأ بصراخه الموجوع، وجثا على صدره بركبته ليثبتته على وضعيته المستلقية، ثم أطبق على عنقه مجدداً، وأخذ يخمش في جلده بأظافره وهو يزيد من ضغطه القاسي على مجرى تنفسه. بصق عليه وهو يواصل تهديده العدواني الشرس:

عامل فيها راجل على واحدة ست؟ طب قابل الرجالة اللي بجد.

قاومه الرجل قدر استطاعته رغم الألم المنتشر- في بدنه، حاول النهوض؛ لكن "تميم" كان يعيده لاستلقائه الأول بتحكم واضح، التقط الرجل بيده حجراً لمحّه من طرف عينه، وحاول إصابته به في لحظة غادرة؛ لكن "فيروزة" صرخت لتنبيهه:

- حاسب يا "تميم"!

تفادى الضرر الجسيم الذي كان من الممكن أن يصيب وجهه على إثر تحذيرها، وسدد بكوعه لكزة عنيفة كادت تطيح بفك الرجل؛ لكنها جعلت خيوط الدماء تتفجر من بين أسنانه. وجدت "فيروزة" نفسها تتراجع بشكل لا إرادي للخلف، لتتخرط وسط النساء بعد أن تجمع بعض الرجال حول "تميم" لإقصائه عن الرجل الذي سيهلك بين برائنه، إن استمر على نفس النهج العنيف معه. نجحوا في إبعاده، وشكل البعض بأجسادهم حاجزًا يحول بينهما، ثم قال أحد عجائز المنطقة كمحاولة للسيطرة على الموقف قبل أن يتفاقم، ويتطور للأسوأ:

صلوا على النبي يا معلم، اهدي كده.

توعده "تميم" بعدائية وهو يمسح العرق من على جبينه:

مش هاسيه ابن (...) ده!

رد عليه الكهل بهدوء:

إنت عرفته غلطه.

مضت "فيروزة" في طريقها إليه، إلى أن أصبحت بجواره، توسلته في رجاء شديد:

عشان خاطري، خلاص، سييه.

التفت ناحيتها فرأى الخوف متجليًا على قسماتها، كررت عليه استجدائها:
-بلاش تضيع نفسك، ده واحد ما يستهلش، عشان خاطري.
بالكاد استجمع نفسه، وصاح بهديرٍ غاضب:
غور من هنا يا (...).

تنفست "فيروزة" الصعداء لاستجابته المحمودة، ورمقته بنظرة ممتنة دون
أن تبتسم، بينما نهض الرجل من رقدته المهيئة، بمساعدة أحدهم، عاونه على
المشي إلى أن بلغ سيارته، استقلها بعدها هاربًا وهو يئن من الألم الشديد.
ما إن تأكد "تميم" من رحيله، حتى عاود النظر إلى "فيروزة" بعينه
المشتعلتين، لن تنكر أنه دبّت في أوصالها رعدة خائفة، تجاوزتها بنظرة
تقدير إليه، قابلها بجمودٍ، ثم أبعد ناظريه عنها، ليصيح في زمرة البشر-
المحتشدة:

-خلاص يا جدعان، الحكاية اتفضت.

بدأ أهالي المنطقة في التفرق والابتعاد، كلٌّ ذهب في طريقه، لتخلو
الساحة بعد أقل من دقيقة من الزحام. أصبحت "فيروزة" بمفردها معه،
وقبل أن تفكر في الكلام، أمرها بلهجة من يقرر:
-تعال!

تبعته في صمتٍ حكيم؛ لكنها لم تتوقف عن اختلاس النظرات إليه وهي تسير باعتزازٍ معه، غمرها ذلك الشعور الدافئ الذي افتقده -بوجوده- طوال فترة خصامهما، ودّت لو رجعت بالزمن للوراء وتصرفت بتلك الطريقة، لربما فازت بأكثر من مجرد محاولة غير مضمونة للتصالح، ونيل الغفران.

أشار لها بالجلوس على المقعد المواجه لمكتبه بداخل الدكان، وسألها في اهتمام، وعينه تشملاها بنظراتٍ فاحصة لتتأكد من سلامتها:

-إنتي كويسة؟

ردت بعد ضغطة حرجة على شفثيها:

-الحمد لله..

غالبت التردد الذي أمسك بلسانها لتطمئن عليه، فسألته أيضًا باهتمام يفوقه:

-حصلك حاجة؟

رد نافيًا وهو يتحرك مبتعدًا عنها ليقترّب من مدخل الدكان:
-لا.

بقيت نظراتها المتلهفة عليه، تفحص بعض الخدوش التي أصابت وجهه، وهو يعطي العامل أمره الصارم:

قفل بقيت الطلبية، وماتسلمش الحاجة من غير إذن التوريد.

رد الأخير دون جدال:

حاضر يا ريس.

لم تكن إصابته تدعو للقلق، بضعة أيام وستختفي آثارها بالكامل، كأنها لم تكن. أطالت النظر، واستطالت فيه باستمتاع؛ كأنما تعوض ما فاتها من حرمانٍ بغيابه عنها، عاهدته رجلاً وهو يعمل، وأكثر رجولة وهو في أشد المواقف خصومة. أحست بفيض من المشاعر الغريبة يجتاحها في تلك اللحظة، مشاعرٌ تتوق إلى الارتواء في أحضانها، الشعور بالقوة تحتويها وهي محاصرة بين ذراعيه، أفاقت من تماوج أفكارها الحاملة عندما اقترب منها، وسألها بلهجة مالت للرسمية:

جاية هنا ليه؟

رغم إحساسها بالخرج لأسلوبه المغلف بالجمود، إلا أنها تمسكت بهدوءها، وسألته في صوتٍ رقيق معاتب، وتلك النظرة التواقة تطل من لؤلؤتيها:

هو إنت مش عاوز تشوفني؟

جلس على كرسيه، وقال مصححاً دون أن تلين نبرته:

مش القصد، بس في حاجة حصلت عندهم؟

هذه الرسمية المستفزة جعلت الخيالات الحاملة تتلاشى، وتحل محلها ما خشيت الاعتقاد فيه من أفكار سوداوية، تنهدت سريعاً، ثم عبست وهي تجيبه باقتضاب:

أه .. في.

سألها بصيغة شبه آمرة:

إيه؟ قوليلي.

أطلقت زفرة سريعة مغتظة من جفائه، ونطقت مرة واحدة:
إنت.

رفع حاجبه للأعلى متسائلاً في قليلٍ من الاستغراب:
أنا؟!

أومأت برأسها مؤكدة في عتابٍ لم يصل للحدة:
أيوه، طالما إنت مردتش عليا في اللي قولتله، فأنا فهمت إنت عاوز إيه.
مرر يده على رأسه، وسألها وهو يريح ظهره للخلف:
إيه اللي فهمتيه؟

أجابته بشيءٍ من العصبية دون أن ترتفع نبرتها:

إنك غيرت كلامك، ومش عاوز الجوازة تكمل، بس محروج تقولي كده،
فأنا جاية النهاردة عشان أعفيك من الحرج ده.

نظر لها مليًا بلا تعقيب، فاعتازت مجددًا من صمته، وسألته:

-كلامي مضبوط؟ صح؟

رفع ناظريه عنها ليحديق في العامل الذي جاء متسائلًا:

نجيب إيه يا معلم؟

أشار بعينه إليه وهو يجاوبه:

-هات ليون للأبلة.

التفتت ناظرة للعامل تعتذر له:

-شكرا، مش عايزة حاجة، فافيش داعي تتعب نفسك.

وكانها لم تنطق بشيء، أمر العامل بلهجته الحازمة:

-روح، هات الليون، ومتأخرش.

استدارت "فيروزة" تنظر إلى "تميم" بنظرات مغتظة، فتجاهلها، وحدى

في وجه العامل الذي هز رأسه في انصياح وهو يرد:

-تمام يا معلم.

عاودت التحديق هي الأخرى في العامل، لتجده انسحب من محيطها،
سحبت شهيقًا عميقًا، حبسته لثوانٍ في رثتها قبل أن تحرره وتدير رأسها في
اتجاه "تميم"، تطلعت إليه مجددًا بثبات، ثم استطردت قائلة بغصة محسوسة
في صوتها:

-عمومًا أنا مش هاخذ حاجة مش بتاعتي، المهر والشبكة جاهزين في أي
وقت تقدر تبعت تاخدها، والفلوس اللي دفعتها لـ "حُسنِي" هرجعها لك
معاهم.

بادلها نظرات جامدة، غامضة، لم تطرف عيناه، ولم ترخ ملامحه، بل راح
ينقر بأصابعه على سطح المكتب وهو يسألها في إيجاز:
-وبعدين؟

اكتفت "فيروزة" من معاملته القاسية، وتعلمت درسها بحقي، هبت واقفة،
وعلقت حقيبتها على كتفها لتخبره بتعايير مكفهرة:

خلاص كده، وكتر خيرك يا معلم على اللي عملته معانا كلنا.
توقف عن النقر، واعتدل في جلسته، ثم سلط كامل أنظاره عليها وهو
يأمرها:
-اقعدي.

زوت ما بين حاجبيها مرددة في استنكارٍ:

نعم.

تحفز في جلسته، وخاطبها بهذه اللهجة الحازمة:

-اللي سمعته، اقعدي .. أنا مردتش عليكِ لسه.

عاندته في غيظٍ:

-أنا محدش يديني أوامر، وخصوصًا لو مافيش بيني وبينه حاجة.

نهض واقفًا لبدو أكثر محابة عن ذي قبل بتعايره الصارمة، ونظراته المهدة، أحست برعشة طفيفة تصيب ظهرها، وتنتقل سريعًا إلى أطرافها وهو يركز على أسنانه محذرًا:

-والحكاية مخلصتش يا أبله، اقعدي بدل ما اعمل مصيبة ثانية، أنا جايب أخرى.

استسلمت على الفور، وتخلت عن عنادها، لتعاود الجلوس في مقعدها وهي تغغم بخفوت:

-استغفر الله العظيم.

لم يجلس مثلها، بل دار حول المكتب وعيناها ترقبانه بتوتر متحفز، ابتعد عن محيطها ليتوجه إلى واحدٍ من عماله، أمره في صوتٍ قوي جعلها تخشى- مجادلته في لحظات عصبيته:

مش أنا قولت تحط الرصة دي هناك، الربع نقل هاتحملها كمان شوية، كفاية لكاعة، ولا لازم يعني أعملها شغلانة معاكو؟!!!
اندهش العامل من حمته، ومع هذا قال في طاعة:

حاضر يا معلم، هنخلصها في السريع.
أعطاه أمره التالي بنفس الأسلوب:
-وافتح سكة من الناحية دي، العربيات مش هتعرف تعدي.
قال وهو يسرع الخطى لتنفيذ ما تلاه عليه:
-أوامرك يا كبير.

رجع إليها "تميم" وهو يسير معتدًا بنفسه، فتنحنحت ناهضة لتخبره بوجهه شبه متورد:

لو مشغول نتكلم وقت ثاني.

جلس هذه المرة مواجهًا لها، وقال بغير ابتسامة:
-خلاص فضيتلك.

ظلت واقفة تحمق فيه من مستوى نظرها بتوترٍ حائر، أرادت النفاذ إلى داخل رأسه لتعرف ما الذي يفكر فيه بشأنها، الغموض المحاوط به جعلها في حالة من التخطب، اللوعة، والرغبة! دبت فيها رجفة خفيفة عندما أمرها: -اقعدي.

استجابت لأمره بامتعاظٍ ظاهر على ثغرها، وراحت تنظر إليه في تحفزٍ وقد بدأ يخاطبها من جديد بجديّة:

-شوفي يا أبله، لما طلبت إني اتجوزك لأني عاوز ده فعلاً، لا يعتبر الموضوع زي أي جوازة والسلام، ولا شايفك واحدة كويسة، تنفع تبقى مراتي، إتي أعلى وأعلى من كده بكثير.

أخذت تعابيرها المشدودة تلين جزئياً، خاصة عندما تابع:

-مش عاوزك تبقي مجبورة ولا مغمصوبة على الجواز، لمجرد بس ترضيني أو ترضي غيرك.

أحنت رأسها على صدرها قليلاً، وأصغت إليه وهو يواصل معاتبته لها بعتاب المحبين:

-زعلي منك معروف سببه إيه.

بترددٍ بائن على محياها، وواضح في نبرتها كذلك، أسبلت عينيها قائلة:

أنا بعترف إني اتصرفت غلط، مكانش ينفع أكلّمك بالشكل ده، بس والله كنت خايفة عليك تهور.

سكت، وترك لها المجال لتتكلم، فأردفت في هدوء:

-الواحد ساعة الغضب مايفكرش كويس، وإنت عصبيتك صعبة حبتين. رمقها بتلك النظرة الغامضة، العميقة، وهي ما زالت تخاطب ودّه بلين الكلام:

-بس بعد كده لما راجعت نفسي اتأكدت إن كان ممكن أتكلم بأسلوب ثاني، والنتيجة هاتكون أحسن.

عقب عليها بجملة استرابت منها:

-ساعات اللسان يسبق التفكير، وللأسف ده ممكن يضيع الحلو.

سألته بتوجيس، وقد خبا التورد الدافئ من وجهها:

قصدك إيه؟

لم تهتز تعبيراته وهو يخبرها بصوته الجاد:

قصدي إني مش هربط موضوع مسامحتي بالجواز، فلو إنتي عاوزة الليلة تنتهي لحد كده، فده عشانه اختيارك إتي، مش لأنني ماسمحتكيش.

انخلع قلبها مع قراره الصادم لتوقعاتها، واعترضت في ذهول:

-بس آ...

قاطعها مؤكّداً بإشارة من يده أمام وجهها لتسكت:

-إنتي هتفضلي غالية، وليكي قيمتك مهما حصل.

تطلعت إليه بنظراتٍ مصدومة، قابلها بنظراتٍ تعكس كبريائه الجريح:

-وأنا عاوز الاحترام والود بينا يزيد بالجواز ما يقلش.

بلعت غصة مريرة في حلقها، وردت بصوتٍ شبه خافت:

-تمام .. فهمت.

قام من مقعده ليتابع بنفس الصوت الجاد:

خدي وقتك وفكري براحتك من غير أي ضغوط.

تبعته بنظراتٍ شبه تعسة وهو يتحرك مبتعداً عنها عند مدخل الدكان،

نظر مرة ثانية نحوها، بحزنٍ مناقض للجمود الذي استحوذ على نظراته قبل

قليل، ثم خاطبها في صوتٍ هادئٍ مستسلم وهو يدس يديه في جيبه

بنطاله:

-وأنا قابل بأي قرار ليكي.

نهضت بدورها، وعدلت من وضعية ذراع حقيبتها على كتفها، قبل أن

تنطق في صوتٍ شبه مختنق:

حبيب .. شكرا يا معلم على كل حاجة.

الخدلان، يا له من شعور مؤلم! يسحب معه كل ذكرى طيبة وجميلة، فقط إن سمحت له بالاستحواذ على الجيد في حياتها. بدأت "فيروزه" بالسير؛ لكنها توقفت قبالة لتواجهه في وقفته السامقة، ثبتت عينيها عليه وهي تقول في تصميم:

قبل ما أمشي..، أنا ما برجعش في كلمة قولتها طالما مقتنعة بيها، وإلا مكوئتش قولتها من الأول ...

حرق في نظراتها إليه بتعاطف خفي، فأكملت على نفس المنوال:

بس لو الطرف الثاني مش عايز أصلاً، وقتها يبقى الكلام مالوش لازمة.

لمعت عيناها بدمعات متسللة، حين تابعت بنبرة مالت للندم:

-وساعتها الحلو اللي جوايا مش هيظهر، ويروح زي حاجات كتير حلوة بنتمناها وتضيع مننا في لحظة عناد.

علق عليها بتهديد خافتة:

-الغالي يبقى غالي عشان اللي بيقدره.

أتاه ردها تلقائياً، محملاً بالمشاعر العميقة:

-وانت أكثر من غالي.

منحته نظرة أخيرة فُجرت فيه ذلك الجمود القاسي، قبل أن تحيد بعينها بعيدًا عنه استعدادًا لذهابها، تحرك "تميم" ليسبقها في خطواتها، اعترض طريقها بجسده، فارتدت بشكلٍ عفوي للخلف، نظرت إليه باستغرابٍ متحير، تلونت شفاته ببسمة خفيفة، أتبعتها نظرة دافئة في عمق جوهريتها متسائلًا:

موافقة تتجوزيني يا أبله؟

وكان وهج الحياة النابض قد أعاد النضارة إلى بشرتها، سرعان ما تبدل الحزن بفرحة حيّة لا يمكن إنكارها، ابتسمت في رقةٍ وهي تجيبه بمراوغةٍ يشوبها الدلال:

إنت عارف الرد.

جاءها تعقيبه متحديًا، وب نظرة ذات مغزى:

حطب الشهر فاضل عليه 12 يوم، واخدة بالك من ده؟

أشرقت، وتفتحت، وظهر البهاء عليها. ضحكت "فيروزة" في صفاءٍ قبل أن تقبل التحدي بقولها:

حطبًا، الرك بقى على اللي يعرف يخلص كل حاجة فيه، من توضيب شقة، وتجهيز عفش وآ...

أشعلت جمرات الحب بداخله، تلك الجمرات التي لم ينطفئ لهيبها يوماً،
قاطعها "تميم" بثقة، وهذه النظرة المغترة تسود في عينيه:
-كله بأمر الله هيخلص.

زادت من مستوى التحدي، فأخبرته بإشارة من حاجبها:
-وريني شطارتك.

انتصب في وقفته المهيبة، وازداد ثقة على ثقة وهو يؤكد لها بما لا يدع مجالاً
للشك في قدراته:
-أنا أد القول .. يا أبله.

ابتسمت في نغومة مغرية، جعلت القلب يرفرف في سماء الحب، لترد
بعدها:

-متأكدة من ده ..

تقدمت في خطاها ناحيته، طالعت بنظرة شغوف أوجت بالكثير، والكثير
مما ينتظره، بل إنها جعلت عاصفة من العواطف المحمومة تنطلق في كيانه،
مالت نحوه قليلاً، فبدا صوتها قريباً، دافئاً، تلفح حرارته صدغه، وهي
تهمس له، بما بدا أقرب للاعتراف بهيمته المستحبة إليها:

ما هو ما ينفش حد غيرك يكون المعلم "تميم سلطان"

!!

.....

الفصل المائة واثنان وسبعون

جاء إليه ملكومًا، مكدومًا، متكدّرًا، تصرخ عظامه من الأوجاع الشديدة،
ويصيح جلده من الجروح الغائرة التي لن تلتئم إلا بعد بضعة أيام من العلاج

الكثيف. جلس الرجل الغريب ببطءٍ على المصطبة، كأنما يخشى أن يتصدع ما تبقى متماسكاً منه، التفت ناظرًا إلى "فضل" بنظراتٍ حاققة، قبل أن يستطرد في الكلام بحرقّة:

- احنا ماتفقناش على كده.

وضع الأخير مَبْسَمِ النارجيلة بين شفثيه، وسحب نفسًا طويلًا، أجم به صدره المشتعل، قبل أن يطلق سحابة من الدخان، ليقول بعدها ببرودٍ، غير مكترث للحالة الشنيعة التي أصبح عليها:

خلاص هزودك قرشين.

أغاظه فتوره في التعامل مع وضعه الحرج، وصاح مستنكرًا بغلٍ يصدح في نظراته أيضًا:

- ده أنا كنت هروح فيها، جسمي كله اتخرشم ومابقاش فيا حته سليمة.

نقل "فضل" مبسم النارجيلة من يده لليد الأخرى، حتى يتمكن من دسها في فتحة صدر جلبابه، أخرج ورقة مطوية من النقود، أعطاها إلى هذا الغريب قائلًا بتعابيرٍ شبه ممتعضة:

يا عم خلاص ماتنوحش، خد دول ...

تناول منه الورقة، وتفحصها بعينين تشعان غضبًا، في حين تساءل "فضل"
بسماجة؛ كأنما فعل معه معروفًا كبيرًا يستحق الشكر عليه:

مرضي كده؟

رفع الرجل الغريب الورقة نصب عينيه، وصاح في حدة متعصبة:

-إيه ده يا "فضل"؟ لأ ماينفعوش؟

ألصق مجددًا المبسم بشفته السفلي، وتكلم بترفع وهو يمين عليه بنظرة من
طرف عينه:

-أنا كلامي معاك كان إمسح بكرامتها الشارع، مكانش في اتفاق على ضرب
وسحل، إنت اللي خالفت الاتفاق.

هدر الرجل في غيظٍ أكبر:

-لا يا شيخ؟!

نفخ "فضل" الدخان بسماجة باردة، فانتفض الرجل واقفًا، ونوبة من الألم
الشديد ضربت في أوصاله، تحامل على نفسه، وهتف يلومه بحنقٍ متزايد:

-ما إنت لو مرسيني على الفولة من أولها كنت عملت حساي.

علق عليه في سخافة استفزته:

حد قالك ماتبقاش غشيم وتطول وقفتك معاها، هما كانوا كلمتين تهزيق
على الطائر، وتخلع.

تصاعدت الدماء في رأسه المكدم، وارتفع صوته المحتج:
-وأهوو حصل اللي معملتش حسابه، وروحي كانت هتطلع في إيد الجدع
اللي جه يحمئها.

تصنع الالبتسام السمج، وقال وسحب الدخان تنطلق من جوفه:
مردودك في مصلحة ثانية.

زأر الرجل معترضًا بهكم ضاربًا كفيه معًا كعلامة على فض التعامل بينهما:
مصلحة ثانية؟ دي جبرت على كده، خلصت يا عمنا.

ثم انحنى ملتقطًا طبق الفاكهة الموضوع أمامه ليأخذه وهو يضيف في عبوس
شديد:

-وهات دول.

رمقه بنظرة مزدرية موجًا إياه بتأفف:

حفس!

في تلك الأثناء، اشترأبت "سعاد" بعنقها لأكثر من مرة لتمكن من النظر
من عند زاويتها لصاحب هذا الوجه المألوف، اعتصرت ذهنها عصرًا لتتذكر

أين رآته من قبل. في البداية خانتها ذاكرتها، وتعذر عليه معرفته؛ لكن مع سماعها لصوته الأجش، وتفرسها في تعايره المليئة بعلامات الإجرام، استطاعت أن تتعرف عليه. أصابها الكدر لتواصله مع ابنها، وتساءلت بين جنبات نفسها عن الرابط الخفي الذي يجمعهما معًا، أنبأها حدسها أنه يدبر لكارثة ما سيئة معه، وإلا لما حرص على مقابلته هنا بالمنزل، بعيدًا عن أعين العامة من أهل البلد.

انتظرت على أحر من الجمر مغادرته، لتخرج من مكنها، وتذهب إلى ابنها، وقفت قبالة ترمقه بنظراتها الساخنة، قبل أن تبادر بسؤاله دون تمهيد، وبنوع من التحفز:

هو الواد الشُّضلي ده بيعمل إيه هنا؟

نظر إليها "فضل" من طرف عينه، وأجابها بغموض لم تسترح له: عاوزه في مصلحة.

قطبت جبينها متسائلة في استهجان:

مصلحة إيه اللي معاه؟ ده واد سوابق، وبتاع مشاكل.

علق في جمود، وتلك النظرة القاسية تنفر من عينيه إليها: ما يخصكيش يامه.

كظمت غيظها منه، وانتقلت لسؤالها الآخر في تحفز أكبر:
حبيب روح المحكمة عملت إعلام الوراثه؟
نفخ دخان النارجيلة عاليًا، ثم قال نافيًا بنفس الطريقة المتعجرفة:
-لا.

اشتاطت نظراتها من تقاعسه المستفز، وسألته في حدة:
ليه يا ابني؟

لوح باللبسم في وجهها مبررًا بسخافة:
-مافضتتش.

وضعت "سعاد" يدها أعلى منتصف خصرها، وسألته في تجهم محفور على
ملاحمها:

-وهتروح امتي؟

نفخ في صبر نافذ قبل أن يجاوبها:
-معرفش.

استمرت في الضغط عليه بإلحاحها الزائد:

حطب إخوانك البنات عاوزين حقهم في ورث أبوهم، ماينفعش العطلة دي.

نظرة جافة، قاسية سددها إليها وهو يقول بنبرة حقودة:

-بعدين، مستعجلين على إيه؟!!!

هدرت به بانفعالٍ مستنكرة تعليقه:

-ده حقهم، ولا ناوي تأكله عليهم؟

ألقى بمبسم النارجيلة جانبًا بعصبية، وصاح في صوتٍ خشن مرتفع:

-حقهم خدوه من زمان.

تفاجأت والدته من رده، واتسعت عيناها صدمة لوهلة، سرعان ما تحولت

إلى إنكارٍ شديد، فدنت منه ملوحة بيدها وصارخة في وجهه:

-إنت بتقول إيه؟

نهض بتشنج من جلسته المسترخية، وانتفض يزجر في احتجاج مغلول:

-سنين بنبتلهم كل شهر فلوس، إيه مايشبعوش؟!!

هتفت تعارضه في استهجان:

-إنت هتحاسبهم على اللي كان أبوك بيعمله معاهم بطيب خاطر؟!!!

اندفع في خطوات متعصبة ليتجاوزها متجهاً نحو باب البيت وهو يخبرها:
محدث ليه حاجة عندي.

لحقته مرددة في استياء كبير:

حرام عليك، هتاكل مال الورث بالباطل؟

التفت يرمقها بنظرة نارية، انبعثت فيها شرور النفس البشرية، قبل أن يهدر
في نغم متزايد:

ده مالي وحالي، مش هفرط فيه لمين ما كان!

لطمت "سعاد" على صدرها، وراحت تنوح في مرارة:

هاقول إيه بس غير ربنا يخلص منك، إنت ظلمت أبوك وهو عايش،
وبتظلم إخوانك وهو ميت، فكرك هتعدى كده من غير حساب؟

نظر لها بغير مبالاة ليعقب في نوع من الاستخفاف:

هابقى استغفر ربنا .. ما هو غفور رحيم.

ثارت على ردوده المتلاعب بالدين، واندفعت ناحيته تضربه في صدره
بقبضتها وهي تعنفه:

ياخي إنت جنس ملتك إيه؟ اتقي الله، ده الظلم ظلمات يوم القيامة.

أبعد يديها عنه بقوة، ورد في خشونة، وعيناها تطلقان بالشرر:

ده مالي وحالي، مش هفرط فيه، سامعة يامه...

حملت فيه مذهولة؛ كأنها ترى شيطانًا خبيثًا غير فلذة كبدها، تركها ترمقه بتلك النظرات المصدومة ليقول في حزم:

قفلي على السيرة دي نهائي، كفاية ورمتي دماغي بالهري ده.

فتح الباب، وخرج مدمدماً في حدة:

-الواحد مش عارف يلاقي الراحة في بيته.

ثم صفق الباب في عنف خلفه، لتنتفض "سعاد" في مكانها وهي ما تزال على حالتها تلك. لم تصدق ما تبصره عيناها، وما تسمعه أذناها من فجور وجحود لا قبل لها به. أهذا هو وليد رحمها؟ أهذا من أرضعته لأشهر من لبنها؟ بالطبع لا، فمن تراه الآن هو مسخّ مشوه لبقايا إنسانٍ عمّ الظلام روحه. رفعت سبابتيها للسماء تدعو عليه بحرقة، وقلبٍ مفطور:

حسبي الله ونعم الوكيل، إنت مش هاتشوف طيب أبدًا يا "فضل"،

مش هاتشوف نهائي بسبب جحودك ده!!!

.....

لو كانت السماء تُمطر ذهبًا، لما ابتهج وهاجت مشاعره بتلك الطريقة السارة. هرول "تميم" عائداً إلى منزله، ومظاهر الفرحه تقفز من عينيه. وجد والده جالساً إلى مائدة الطعام، أسرع ناحيته، وانحنى يقبل أعلى كتفه، ثم سحب المقعد وجلس على يساره متسائلاً بصوتٍ شبه لاهث من فرط انفعاله:

مجتش الدكان ليه يابا؟ ده أنا قاعد مستنيك على نار.

أخبره أباه في هدوء:

-يدوب خلصت أعدتي مع تجار سوق الجملة، وعمك "عوف" صمم يوصلني، وبالمرة طلع سلم على جدك.

قال مبتسماً بسعادة غير قابلة للإنكار:

فيه الخير.

تساءل "بدير" في اهتمام:

إنت كنت عاوزني في إيه؟

جاوبه بفرحة عارمة، تكاد تنطلق من عينيه قبل نبرته:

-وافقت يابا خلاص.

تعمد التلاعب معه قليلاً، فتساءل بشيءٍ من المراوغة مدعيًا عدم فهمه:

مين دي اللي وافقت؟

غمز له قائلاً بابتسامة نضرة:

-اللي عليها العين يا حاج.

بادله والده الابتسام، وقال في تغزل:

صاحبة التفاح الصباح.

أوما برأسه إيجاباً وهو يرد بنفس التعابير المبتسمة:

-أيوه يابا، خلاص هنتجوز على آخر الشهر.

خاطبه "بدير" في لهجة مالت للجديّة:

ده يدوب مش فاضل غير حاجة بسيطة.

هز رأسه مرة أخرى هاتفاً:

-أيوه.

تسأل "بدير" مستفهماً، وقد انعكس على ملامحه طابع جدي:

حطب وظروف وفاة عمها وآ...؟!

قاطعه مؤكداً:

-ماظنش في مانع عندهم، وإلا مكاتتش أكدت عليا.

ربت "بدير" على جانب ذراعه متمنياً:

-ربنا يقدملك اللي فيه الخير.

كانت "ونيسة" تمشي- الهوينا وهي تحمل وعاء الشوربة الساخن، لئلا تُقذف محتوياته خارجه مع أي اهتزازة مفاجئة. وضعتها في منتصف المائدة، ورفعت ناظرها إلى ابنها قائلة بتلقائية:

-شوية شوربة إنما إيه تُرم العضم.

رد "تميم" بحماس كبير يفوق المعتاد منه:

-تسلم الأيادي يا ست الكل، يا مدلعانا.

ابتسمت لثنائه، وقالت في ود:

-يسلملي حسك يا غالي.

هَمَّت بالتحرك، والعودة إلى المطبخ لإحضار باقي الطعام؛ لكنه استوقفها بقوله الفرح:

-خلاص يامه هتجوز على آخر الشهر.

حملت فيه مدهوشة للحظة قبل أن تعم الفرحة سائر ملامحها، لتردد في سعادة عارمة:

-بجد، الله أكبر، مبروك يا ضنايا.

راحت تُطلق الزغاريد ابتهاجًا بالخبر السعيد، فقهقه "تميم" ضاحكًا في نشوة
لمظاهر تعبيرها العفوية عن نبأ زواجه، وردد في امتنان:
دي بركة دعاكي ليا يامه.

لم تكف عن إطلاق الزغاريد إلى أن تقطعت أنفاسها، فتوقفت للحظات
حتى تلتقط أنفاسها من جديد، عندئذ طلب منها "تميم" بتهذيب:
عاوزك تكوني مع الجماعة تشوفي إيه ناقصهم، عشان احنا مزنوقين في
الوقت.

أشارت بسبابتها نحو عينيها قائلة:

عينيا يا حبيبي، ده يوم المنى.

نهض "تميم" بهدوء من مكانه، وقال وهو يشير بيده نحو الردهة:

-أما أخش أفرح جدي، وأناذيله عشان يتغدى.

استحسن "بدير" ذهابه، وخاطبه داعيًا في حنو:

-وماله .. ربنا يزيدك من الفرحة والهنا.

تحرك في خفة تجاه الممر المستطيل الممتد بين غرف المنزل، وصوت
الزغاريد يلاحقه، شاعرًا بدبيب السعادة ينتفض في كل ذرة من خلاياه
الحسية.

طرقاته على باب حجرته بدت أشبه بالقرع المبهج على الطبول، كأنما يعزف مقطوعة موسيقية ذات ترانيم خاصة، استأذن "تميم" بالدخول قبل أن يلج للداخل، ألف جده جالساً -كعاداته- على مقعده، وممسكاً بمصحفه الشريف بين يديه يقرأ فيه بعض آيات الذكر الحكيم. دنا منه قائلاً دون تمهيد، وابتسامة عريضة تنير صفحة وجهه:

حصل المراد يا جدي.

رفع "سلطان" ناظريه نحوه وهو يختتم بترتيلٍ عذب ومسموع لما يقرأه حالياً:

إِنَّمَا يُؤَوِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ..

كأنما جاءه الرد السماوي على لسان جده، فتمتم في خشوع:

صدق الله العظيم.

انحنى جاثياً على ركبتيه أمامه، ثم أضاف في عينين تدمعان فرحة:

فعلاً يا جدي، دي مكافأة ربنا لصبري.

وضع "سلطان" كفه على كتف حفيده، وربت عليه بضعة مرات قائلاً في صوتٍ رخيم:

-ربنا يراضيك من وسع، وكل ما ترضى باللي كاتيهولك، هيد هشك بعطائه.
لم ينجل من الدموع التي انسابت تأثراً على صدغيه، وردد في رضا كبير:
-ونعم بالله.

امتدت يده لتحتضن كف جده، دلكما برفق، وركز بصره عليه متابعاً:
-أنا فرحان أوي يا جدي، النهاردة بس حسيت إن الحياة دبت في روحي.
ابتسم الجد في سرور لرؤيته مبهجاً، وقال في نبرة ذات مغزى:
-ولسه لما تتدلع مع مراتك، وتأخذوا على بعض ...

اتسعت بسمه "تميم" أكثر، وتحولت إلى الضحك والجد يكمل جملته بمزاح:
-بس ماترجعش تشتكي لما النكد بيداً!

بادله الضحك المرح، وقال دون أن تخبث بسمته الصافية:
هو أنا ليا لي مين غيرك ينصحنى؟

ثم قرب كفه من فمه ليقبله في توقير، ودعا له بحب لا شك في قوته:
-ربنا يديمك فوق راسي.

استل "سلطان" يده برفق من بين راحتيه، ومسح بها على خده الندي
قائلاً في عطف:

-وبياركلي فيك يا حبيب جدك.

.....

كما للموت سكرات، فإن للحب دلالات! أحست "فيروزة" بالضجيج يعم في كيانها، وتحديدًا تلك العضلة النابضة بين ضلوعها، لم تسكن، ولم تهدأ، ولن تستكين إلا بإتمام العهود. بدت متقبلة لهذا التغير الشامل دون الشعور بالتردد أو الخوف، يمكنها الآن الإعلان صراحة عن رفع رايات استسلامها لسلطان العشق. صعدت درجات السلم المؤدية إلى طابق منزلها في نشاطٍ غير مسبوق، وصوتٌ يصرخ في رأسها بالحاح:

-أيوه أنا بحبه ..

نجلت وتوردت بشرتها لهذه المصارحة الجريئة غير المنطوقة؛ وراحت تؤكد لنفسها:

-ومسيري هاقولها له، وهيحس بيا أكثر ساعتها.

أخرجت مفتاح البيت من حقيبتها، دسته في قفله، وانزلق يُفتح في يسرٍ، وطأت الصالة ملقية التحية، وهي محملة بالآمال والتطلعات لحياة مشرقة تمحو بها مساوئ الماضي. وجدت والدتها جالسة على واحدة من الأرائك، تضع "رقية" بين ساقها لتتمكن من تمشيط شعرها، أقبلت عليها قائلة بعد نفيس عميق:

ماما، أنا عندي ليكي خبر مهم.

نظرت إليها في اهتمام، وسألتها:

خير يا بنتي.

إن شاء الله كتب الكتاب والدخلة آخر الشهر.

على ما يبدو صُدمت بالخبر، وانعكست علامات صدمتها على محياها،

لتهتف بعدها في غير تصديق:

آخر الشهر ده؟

هزت رأسها إيجابًا وهي ترد:

أيوه يا ماما.

ظهر القليل من التردد على قسماتها وهي تبرر لها:

بس يا بنتي، الظروف اللي احنا فيها، وعمك الله يرحمه مفاتش على وفاته

أد كده، والناس هتتكلم وتقول وتعيد.

اختلج وجه "فيروزة" الضيق سريعًا، واشتاطت قائلة في تزمّت:

مالناش دعوة بجد، إنتي لياك أنا وبس، ولا مش من حقي أفرح؟

أجابتها بجذر:

-لأ من حقل، ده اليوم اللي بستناه ...

ابتلعت "آمنة" ريقها وهي تراقب انفعالات ابنتها المتزايدة، ثم أضافت على استحياءٍ يشوبه القلق:

-بس مرات عمك هتزل، وهاتقول مرعناش الأصول.

على خلاف المعهود في مثل تلك الظروف الحزينة، كان من المفترض أن يتم إرجاء أي مناسبات سارة، لحين مرور بعض الوقت على التعافي من المشاعر المؤلمة الخاصة بفقدان أحدهم؛ لكن لأنها لم تعد تكن مثل هذه المشاعر التقديرية لأمثال هؤلاء، ممن تناسوا صلة الرحم، فقد أصبح الوضع سيان بالنسبة لها، تجاوزت عن همومها، وتعاملت مع المسألة بشكلٍ شبه عادي، لن توقف حياتها على أحدهم، وتحديدًا من استباحوا ما لا يخصهم لأجل أهواءٍ مريضة وشكوكٍ لا صحة لها، لمجرد الخوض في عرضها، والنيل من سمعتها.

هنا ارتفع الغليل في صوتها وهي تخبرها بألم ما زال ينبض كلما تذكرت أحداث الماضي:

-ومين امتي حد منهم كان راعى الأصول معايا؟ كفاية اللي عملوه فيا، سيبيني أعيش حياتي، وأرمي اللي حصل ورا ضهري.

لم تحاول إفساد فرحتها، يكفيها ما ذاقته من آلام وأوجاع بقيت آثارها لوقتٍ قريب، هزت رأسها بالقبول وهي تكلمها:

إنتي معاكي حق، اعملي اللي يريحك، وربنا يقدم اللي فيه الخير.

رغم الغضب الثائر في صدرها، إلا أنها لم تدعه يملكها، ويطغى على فرحتها المنتظرة، حولت "فيروزة" نظراتها عن والدتها لتحملق في ابنة خالها التي استطردت قائلة ببراءة:

هلبس الفستان الأبيض يا "فيرو"؟

مالت ناحيتها، وطبعت قبلة حانية على وجتها وهي تؤكد لها:

طبعًا يا عيوني، أحلى فستان لأحلى "كوكي" في الدنيا.

احتضنتها "رقية" في عفوية، فضمتها ابنة عمتها إلى صدرها، أطبقت على جفניה للحظاتٍ تستعيد في ذهنها لقاءها الأخير مع "تميم"، عادت إلى تحليقها الوردي في أفق الأحلام، فأشرقت ملامحها مرة ثانية كوردة بتول تفتحت، وأينعت، وصارت أشهى وأجمل مع أول ضوءٍ للنهار لامس براعمها النقية.

.....

أرادت التهيؤ نفسيًا لما هي مقبلة عليه، خاصة مع تكرار التجربة، ومعايشة تفاصيلها المؤثرة للأعصاب بشكلٍ أو بآخر. قامت "ريم" بدورها مع مريضتها على أكمل وجه، منحتها بعض النصائح الهامة للتعامل مع الموقف، ولم تدخر وسعها في مساعدتها على إزاحة رواسب الماضي الموجع، وإحلال الذكريات الطيبة محوذة الأثر كبديلٍ عنها، لتتخذ موضعها في بواطن نفسها. امتدت يد "فيروزة" لمصافحتها بحرارة في ذلك اللقاء الأخير الذي يجمعها بها، واستطردت تشكرها في امتنان:

حقيقي يا دكتورة "ريم" إنتي كنتي زي مراية لنفسي.. وقفتي جمبي في أصعب المواقف، وعمرك ما يأستي مني أبدًا، رغم إن اللي مريت بيه كان يهد جبال.

ردت عليها طبيبتها تدعمها في ثقة:

مكوتنش هنجح لوحدي يا "فيروزة"، لو مكانش عندك الرغبة والإرادة إنك تتخطي المحن دي، صدقيني ولا كنت هاقدر أعمل حاجة.

ابتسمت "فيروزة" لمؤازرتها الكبيرة، بينما تابعت الأخيرة على نفس المنوال الهادئ:

-كثير غيرك فضل حابس نفسه جوا دوامة الماضي، مرضاش يتحرك، قفل على نفسه، بس لأنك إنسانة قوية وعندها عزيمة عملتي المستحيل، ورجعتي وقفتي على رجليكي بشجاعة وصمود.

غمرها إحساسًا عظيمًا يدعو للاعتزاز والفخر بما أنجزته، سحبت يدها من راحتها، وكررت على مسامعها:

-شكرا يا دكتورة "ريم"، حضرتك دلوقتي بقيتي أكثر من أخت ليا، بعتر بصداقتك ومعرفتك.

أخبرتها "ريم" في ودٍ وهي تشبك كفيها معًا:

-ده أنا أتشرف بده، ولو احتاجتي مشورتي أو مساعدتي في أي حاجة، وفي أي وقت، فأنا موجودة.
-أكيد.

قالتها "فيروزة" وهي تستعد للانصراف بصدرٍ منشرح، وتعايرٍ بشوشة، فاليوم فعليًا قد أسدلت الستار على ماضٍ ولى بكل ما فيه من مآسٍ، وبدأت في الولوج لمرحلة أخرى أكثر نضجًا من حياتها.

.....

خلال الأيام التالية، جرى العمل على قدم وساق، فتحول منزلها إلى ما يشبه خلية النحل، الكل يتسابق لتجهيز ما ينقص، واستكمال ما يحتاج لإعادة توضيب، قبل مجيء اليوم الموعود. لم تصدق "فيروزة" عينها حين رأت (عش الزوجية) وقد صار مُعدًا لاستقبالها كهروس جديدة، شتان الفارق بين ما كان عليه بيتها المتواضع مع شبيه الرجال "آسر"، وبين رمز الرجولة "تميم"، فالأخير أثبت لها عن جدارة واستحقاق - أنه قادرٌ على الإيفاء بوعده مهما واجه من عراقيل.

لحسن حظها أنها لم تطل في مدة الانتظار، وإلا لقضت المزيد من ساعات الليل ساهدة، حاملة، وطوال النهار تغرق في أحلام يقظتها الوالهة. تركت العنان لقلبي ليختبر هذه المشاعر الجميلة بكامل طاقاته، منحت نفسها الحرية الكاملة، وتحررت من القيود التي وضعتها لتمنع نفسها من الوقوع في الحب، والتلفح بنيران العشق. لأول مرة تشعر أنها طليقة، غير نادمة على اختيار هذا الدرب لتسلكه، بل بدت مؤخرًا تلوم نفسها على تأجيل تلك الخطوة لشكوك واهية.

تبقى لها فقط حسم أمر الذهاب إلى مركز التجميل بدلاً من التزين في منزلها، عارضت رغبة "تميم" في التواجد بواحدٍ من المراكز الشهيرة التابعة للفندق المقام به مراسم عقد القران؛ لكنها رضخت أمام عناده وإصرار من حولها، لتعم في النهاية البهجة على الجميع بقبولها.

وفي اليوم المنشود، كان الجميع على أهبة الاستعداد لوضع اللمسات الأخيرة، لإسدال الستار على قصة غرام لطالما ظن "تميم" أنها لن تكتمل، ولن يجتمع بها إلا بمشيئة المولى وإرادته جلّ وعلا! بالطبع بذل جهده لرؤية العروس خلصة؛ لكن مُنع كليًا من الظفر بلمحة منها، وقفت له "هاجر" بالمرصاد، وأغاضته بتشدها الزائد، فوقف عند باب غرفتها بالفندق كالذليل يرجوها:

-يرضيكي تعلمي في أخوكي حبيبك كده؟

ردت بتسلية، كأنما تعانده عن قصدٍ، وهي تسد بجسدها الفرجة المواربة التي تمنعه من رؤية من بالداخل:

-أه يرضيني، لسه الوقت مجاش عشان تشوفها.

ألح عليها بنظرة تدعو للتعاطف معه:

-ده أنا هشوف إن كان ناقصها حاجة كده ولا كده.

لم تشفق على حاله المتلهف، وقابلت إلحاحه ببرود مستفز:

-إنت مش المفروض تروح للحلاق تتوضب، وتلبس؟

اغتاظ من تشدها المبالغ فيه، ورد في تجهم:

-أنا أخرى رباعية وأكون جاهز، إنما إنتو يومكم بسنة.

بالضبط كده، يومنا بالسنة، نشوفك السنة الجاية.
مد قدمه ليمنعها من غلق الباب، وحاول دفعه برفق وهو يتذلل إليها بمحبة
أخوية:

ماتبقيش بايخة، ده أنا وقفت جمبك، وعملتلك الحلو كله.
شهت قائلة في فزع، وبلامح مرتاعة بشدة:
ليه ده أبويا ده ولا مين اللي جاي هناك؟
مع نظراتها المتسعة التفت برأسه للخلف ساحبًا قدمه، وتساءل في توتر:
فين؟

أشارت بعينها لنقطة وهمية وهي تؤكد له:
هناك.

أدار رأسه الناحية الأخرى لينظر إلى حيث أشارت؛ لكنه تفاجأ بها تغلق
الباب بجدّة لينتفض مصدومًا على حيلتها الساذجة التي انطلت عليه، سمع
صوتها وهي تناكفه من الداخل بضحكاتٍ مستمتعة:

-لا مؤاخذه يا "تميم"، بس دي العوايد.

كور قبضته بقوة، وضرب على الباب الموصود في غيظٍ وهو يتوعدها بمزاح:

حبيب يا "هاجر"، ليا لي كلام مع جوزك.
انصرف بعدها مجرّراً أذيال الخيبة ورائه؛ لكن ما لبث أن راح يُمني
نفسه بالأمنيات، والآمال، فقال في زفيرٍ مزعوج:
-معلش، اصبر، فات الكثير.

.....

ساعدتها الإرهاق اليومي قَبيل هذه الليلة على النوم بعمقٍ، وإن كان
لساعات قليلة؛ لكنها ألّهمت عقلها عن التفكير فيما هي مقبلة عليه من مصيرٍ
رجت أن يكون أفضل مما مضى-. خاصة أن الوقت قد أزف لكشف
المستور عن سرها الخطير، ذاك الذي لم تطلع عليه أحد سوى طبيبتها.
كانت "فيروزة" تخشى من ردة فعل "تميم" إن علّم بعذريتها، وأدرك أنها لم
تخض تجربة الزواج الكامل من قبل، كيف تبوح له بأنها لم تحظَ بليلةٍ دافئةٍ
تتخلّى فيها الفتاة عن تاج العفة، لتغدو امرأة مفعمة بالأنوثة الشهية؟

وثرها التفكير في الأمر، وأرعبها إلى حدٍ ما، لولا النصائح الذهبية التي
ظلت تملّحها "ريم" على مسامعها، طوال جلساتها العلاجية، لتتعامل مع
هذه المسألة برويةٍ وهدوءٍ، علّها تمضي- بها على خيرٍ إن وصلت إلى ليلة
الزفاف.

مكثت بغرفتها المحجوزة مسبقًا بالفندق، واستقرت على المقعد بعد أن ارتدت ثوب عرسها، بمساعدة شقيقتها ووالدتها فقط. تأكدت من تغطيته لكافة جسدها، حتى عنقها، كانت ياقته مستطالة بالقدر الذي لم يظهر من رقبتها شيئًا، كأنما تخشى أن ينظر أحدهم إلى ندوبها، ويعايرها بها بنظرة أو كلمة مبهمة. عادت إلى المقعد، وجلست عليه، لتقوم إحدى فتيات مركز التجميل بلف ساترًا ذي وجهين من القماش والبلاستيك حول الثوب للحفاظ على عدم تلطيخه خلال تزيينها.

أحنت "فيروزة" رأسها للأمام، تاركة لمصففة الشعر تصفيف خصلاتها قبل أن تجمعها في عقدة، لتضع فوقه حجابها الأبيض، لمحت والدتها وهي تضع الطعام في صحن صغير لتطعمها، فتذمرت في إرهاق:
ماليش نفس يا ماما.

ردت عليها "آمنة" وهي تملأ المعلقة بالأرز المختلط بالبطاطس الموضوعة بالفرن:

ده لسه اليوم طويل، قوتي قلبك بلقمتين.

انفضت معدتها وزمجرت لرؤية الطعام، ففتحت فمها، ولاكت ما قدمته لها. نظرت "آمنة" إلى "همسة" المشغولة بوضع مساحيق التجميل على وجهها هي الأخرى، وحادثتها في صوتٍ شبه ممتعض:

مش كنا طلعنا من البيت أحسن؟ لازمتها إيه التكاليف دي كلها؟
علقت "همسة" بضحكة مرحة:

خطيبها مصمم يعملك أحلى حاجة، حد يقول للدلع لأ؟
ابتسمت "فيروزة" على استحياء، وتساءلت لتغير من مجرى الحوار الذي
حين يتطرق إلى سيرته يصيها تلقائياً بالخجل الممزوج بالتوتر:
-أومال مين كان على الباب؟

أجابت "هاجر" تلك المرة وهي تنضم لباقي النساء:
-العاشق الوالهان خطيبك.

دق قلب "فيروزة" في ربة، وتلبكت بشكلٍ شبه فاضح وهي تتوسلها:
ما تخلهوش يدخل يا "هاجر" بالله عليكي، أنا لسه مجهزتش، ومش
مستعدة وآ...

ضحكت في استمتاع قبل أن تقاطعها قائلة بطرافة:
-اطمني، في أسد قصر النيل واقف على الباب.

تنفست في ارتياح، وبدأت في استعادة هدوئها بعد عاصفة اللهفة التي
اجتاحتها، وكادت تطيح بثباتها الزائف لمجرد توقع قدومه إلى هنا. عدّلت من
وضعية رأسها، ونظرت إلى المصففة تطلب منها بلباقة:

من فضلك ماتحطيش ميك آب كثير، مش بحب الأفورة.
امتدحت الشابة حُسنها، فقالت في إعجابٍ ظاهر في عينيها قبل نبرتها:
ما شاء الله عليكي، إتي مش محتاجة أصلاً.

.....

بقلبٍ لم يعد يحمل بين ثناياه سوى المحبة، الشوق، والاشتياق، وقف
"تميم" بشموخٍ أمام باب القاعة المخصصة لإقامة الأفراح يستقبل مدعويه،
تعجب المعظم لتواجهه بدلاً من الاختفاء والاستعداد كالبقية؛ لكنه خالف
المعتاد، وانتظر بنفسه وصول المعظم. كان من أوائل الحاضرين للتهنئة رفيقاه
العريزان "منذر" و"دياب"، واصطحبا معهما والدهما، وزوجة الأول،
والابن الأكبر للأخير. بعد أن اتجه "طه" للجلوس مع رفيقه "بدير"، بقي
الأصدقاء معاً يتسامرون في مرج، استطرد "منذر" قائلاً فيما يشبه
المداعبة:

-أخيراً عملتها.

ردد "تميم" ضاحكاً في سرور:

-الحمد لله، أتم السابقون، ونحن اللاحقون.

علق عليها في رجاء:

-ربنا يتم على خير، ويجعلها نعمة الزوجة.

قال رافعًا كفيه للمساء مُؤمّنًا عليه:

-اللهم آمين.

أومأت "أسيف" برأسها تهنئه في لباقة واضحة، وهي تهدد رضيعها:

-ألف مبروك.

نظر ناحيتها بنظرة سريعة، ارتكزت معظمها على الصغير، وقال في تهذيب:

-الله يبارك فيكي، عقبال فرحتكم بـ "زين".

هتفت في لطف:

-شكرا على ذوقك.

أشار "تميم" بيده نحو القاعة مرددًا:

-إنتو أصحاب فرح، مش محتاجين عزومة.

قهقه "منذر" في مرج، وقال وهو يتناول رضيعه من زوجته ليحمله عنها:

-أكيد.

تحركت أنظاره نحو "دياب" الذي هتف في حماس وهو يلقي بكفه في باطن

راحة رفيقه لمصاحته بحرارة:

-أبو الصباح.

جذبه "تميم" إلى صدره ليحتضنه مردداً:

حبيبي.

تراجع عنه الأول، وراح يزيد من تهنئته الحارة بنفس الأسلوب المداعب:

مبروووك يا غالي، وربنا يجعلها جوازة السعادة والهنا.

ابتسم لابتهاجه، وقال بملامح بشوشة:

-الله يبارك فيك يا "دياب".

مال رفيقه عليه برأسه، وغمز له بطرف عينه هامساً بما يشبه النصيحة
المازحة:

ما تخلع يا ابني، بدل ما تلبس مؤيد.

أشار له بكفه معترضاً:

-لأ أنا راضي ومبسوط.

لم يكبت ضحكته المتسلية وهو يعقب:

-يعني أقصدك أطلع منها؟ هنياله يا سيدي.

ربت على صدره بضربات خفيفة قائلاً:

متشكر.

محمد "دياب" مُضيفًا:

-جماعتنا معرفتش تيجي، خلاص بقى على وش ولادة.

رد عليه "تميم" في اهتمام:

-ربنا يقومها بالسلامة، وتعيش وتخاوي.

هنا ارتفعت يده للأعلى في احتجاج ساخر:

-كفاية علينا كرم ربنا، أكثر من كده هقلبها مدرسة.

كركر "تميم" ضاحكًا في استمتاع على طرافته التي لا تنتهي، تبع بنظراته

الصغير "يحيى" الذي تقدم منه بعد أن دفعه والده إليه وهو يأمره:

تعالى جمبي يا "يحيى"، بارك لعمك "تميم".

بوجه يدور في كافة الاتجاهات، ونظراتٍ شبه زائغة تساءل الصغير في

جدية:

مبروك، أومال فين "كوكي" الحلوة؟ عاوز أَلعب معاها وأنا لابس البدلة

الجديدة دي.

حاوط "دياب" كتفي طفله قائلاً بنحنة خفيفة:

-الي مصيتني في كل حته أهوو.

حذره "تميم" بنظرة شبه صارمة:

لم ابنك يا "دياب"، ها .. سامعني؟ بناتنا مش زي أي حد.

اتسعت بسمته اللاهية وهو يرد بعد نحنة مقتضبة:

-احم، ده حبيب أبوه، وپراعي الأصول.

عقب "تميم" بغير ابتسام:

-أه طبعا، وأبوه معروف، پراعيها على الآخر.

مسح "دياب" في افتخارٍ على صدره هاتفاً بابتسامة يختلجها الضحك:

-أومال!

.....

لاحقاً، تنقل "تميم" من طاولة لأخرى لتحية ضيوفه مرة ثانية، وهو ينظر

في كثيرٍ من الأحيان إلى ساعة يده، شعر بالوقت يمرُ بطيئاً، أضناه

الانتظار، وأحرقه الشوق. تقدم ناحية الطاولة الجالس بها جده، مال عليه،

يقبله من أعلى كتفه، ثم سألَه في نبرة مهتمة:

-ناقصك حاجة يا جدي؟

أجاب "سلطان" نافيًا:

-لا يا ابني، الحمد لله في نعمة ...

ثم زوى ما بين حاجبيه متسائلًا في هدوءٍ جاد:

-المهم فين عروستك؟

أشار حفيده إلى نقطة ما بالفراغ وهو يجيبه:

قربت تنزل من فوق.

سأله الجد ببوار ابتسامةٍ صغيرة؛ كأنما يؤكد له على أهمية التحلي بفضيلة الصبر:

-شوفت آخرت الصبر الجميل إيه؟

أوما برأسه مؤكدًا:

فعلًا يا جدي، رضا ربنا مالوش حدود.

دعا له جده في سرورٍ:

-ربنا يرزقك السعادة والخير، ويديم نعمه في حياتك.

-اللهم آمين.

قال جملته المقتضبة تلك، وهو ينحني مجددًا على رأس جده ليقبله في احترام، قبل أن يستقيم واقفًا لينظر إلى أبيه الذي انضم إليهما، هنأه الأخير في حنو واضح:

مبروك يا ابني.

أقبل عليه يحتضنه في سعادة وهو يقول:

-الله يبارك فيك يا بابا.

وجّه "بدير" إليه سبابته مشددًا عليه:

-مش هوصيك بقى، راعي ربنا في مراتك، وصونها، عشان تحفظك وتصونك في غيبتك.

هز رأسه في طاعة وهو يردد:

-حاضر يا حاج.

شعر "تميم" بيدٍ قوية تربت على ذراعه، فالتفت تلقائيًا نحو الجانب ليجد "سراج" واقفًا إلى جواره يخبره في حماس:

-المأذون وصل يا عريس.

ابتهجت أساريره هاتفًا بقلبٍ يرقص طربًا:

-زي الفل.

أشار له "بدير" بيده قائلاً:

حبيب، يالا عشان تشوف عروسك.

استأذن بالذهاب من جده، وأسرع في خطاه نحو الخارج، ولسانه يردد في
تضرع:

-اكرمنا يا رب، وكلها على خير.

.....

استقبلته والدته وهو الفندق المتسع بعد أن اجتمعت مع بعض نساء العائلة
للترحيب بالضيوف، وكذلك للتواجد مع العروس، حين تهبط من غرفتها
استعداداً لبدء مراسم عقد القران، ومن ثم إقامة حفل الزفاف. احتضن
"تميم" والدته في محبة أمومية شديدة، تراجع عنها لترفع كفها إلى وجهه تمسح
عليه بوجه، دمعت عيناها وهي تخبره في صوت دافئ:

-زي القمر يا ضنايا.

قبل أعلى رأسها متكلاً في امتنان:

-الله يباركلي فيكي يامه.

دعت له "ونيسة" من جديد وهي تضبط رابطة عنقه لتضعها في منتصف
ياقة قميصه الأبيض:

-ربنا يفرح قلبك زي ما بتراضينا دايماً.
اتسعت ابتسامته السعيدة وهو يخاطبها متضرعاً:
يا رب أمين.
في دلالٍ وعبثية، دنت "هاجر" من شقيقها تمازحه:
عروستك حكاية يا "تميم"، قمر ماشاء الله.
رمقها بنظرة مغتظة من فعلتها السابقة، وتصنع العبوس معاتباً:
دلوقتي رضيتي عني؟
وضعت يدها أمام فمها وهي تضحك، لتضيف بعدها:
أه خلاص، الحظر اتفك، مش هنوصيك عليها بقى، دي الفاكهة بتاعتنا.
ظل على عبوسه الزائف وهو يعقب عليها:
-الناس كلها بتوصيني عليها، طب مافيش توصية ليا أنا؟ وربنا ده أنا
غلبان، وطلع عيني الأيام اللي فاتت.
تدلت في حديثها معه، فقالت:
-معلش بقى، هي تستاهل الحلو كله.
هز رأسه هاتفاً في إذاع:

-وماله، لأجل الورد يتسقي العليق.

.....

راودته كل الأماني، وعبثت بمخيلته كل الأحلام الرومانسية، الهادئة منها والجامحة، حين اقترب منها، وهي توليه ظهرها بثوب عرسها البهي، تنتظر قدومه إليها، ليصطحبها إلى البهو الفسيح، حيث ينتظرهم الجميع. بدا وكأن العالم خلا إلا منهما، اضطربت دقات قلبه، وأخذت تتسارع في عدوٍ محبوب إليه، تنفس بعمقٍ ليهدي من هذا الهاجئ الشائر بصدرة، تقدم أكثر إليها، ليلتف حولها، حتى أبصرتها عيناه، ويا ليت ما نظر إلى حُسنها الآخاذ، وفتنها المذهبة للعقول!

سلبت له، وسرقت قلبه، تدلى فكه في دهشةٍ وهو يحوب بعينين فاحصتين لكل تفصيلة فيها من رأسها لأخص قدميها؛ كأنما يريد لكل هذا البهاء والسحر أن ينطبعا في ذاكرته للأبد. كان ثوبها كقطعة فريدة، غير متكررة، صممت خصيصًا لأجلها، مرصعًا بقطع لامعة صغيرة الحجم تغطي منطقة الصدر، وتمتد حتى الخصر الذي يضيق قليلًا، ثم يبدأ في الاتساع بطبقات قماش التل المتراصة فوق بعضها البعض إلى أن تصل لنهايته. لم تكن بحاجة لوضع كمياتٍ مهولة من مساحيق التجميل، بل القليل كفاها، وجعلها في أبهى صورها.

انفجرت شفتاه تقول في استحسانٍ عظيم:

-اللهم صلي على النبي، ماشاءالله على الجمال، هو في كده.

بصوتٍ شبه مهتز من فرط التوتر الخجل، حذرتـه "فيروزة" وهي ترفرف بجفنيها:

-ما تبالغش!

دار حولها دورة كاملة، ليملي عينيه من سحرها الآخاذ، ثم بسط كفيه مرددًا في عبثيةٍ لذيدة، وهذه النظرة الشقية تطل من عينيه:

-هو أنا قولت حاجة لسه؟

تشعبت حمرة دافئة في بشرتها النضرة، وتحاشت النظر إليه وهي تستشعر ارتفاع خفقاتها المرتبكة. ألقدها من مداعباته المتغزلة بها مجيء توأمتها، فقالت وهي تنحني لتضبط طرحة الثوب الممتدة على الأرضية اللامعة:

خلوا الرغي بعدين، المأذون جه تحت، عاوز يكتب الكتاب، عشان نبدأ بعد كده الزفة والفرح.

تفاجأت "فيروزة" بإحضار "تيم" لهذه الفرقة الشعبية، المتخصصة في إحياء الأفراح بقرعهم المميز على الطبول والمزامير. حقًا لم يرتض أبدًا إلا بإقامة كل ما له علاقة بحفلات الزفاف، دون أن يتغاضى عن أي تفصيلة واحدة، وإن

كانت غير هامة بالنسبة لها، كأنما يعوضها عما فات ولم تستطع معاشته.
انعقد حاجباها إلى حدٍ ما، ورمقته بتلك النظرة المندهشة وهي تسأله:

برضوه صممت تعمل زفة؟

بهديءٍ مناقض لتلك المشاعر المتهاجة في كيانه، تطلع "تميم" بنظراتٍ هائلة،
والهة، تشع فيضًا من المحبة الخالصة، إلى حبيبته التي أصبحت قاب قوسين
أو أدنى من الاقتران باسمه، تأنق بابتسامة في غاية العذوبة، وحادثها
بتنهيذة عاشقة، بل تكاد تنطق بكل ما تغنى به شعراء الغرام:

-الغالي للغالي يا أبله .. "فيروزة" ..

!!!

الفصل المائة وثلاثة وسبعون

بدأت في تلك اللحظة المميزة وكأنها ثمرة ناضجة، تشتهيها الأعين، يطيب أكلها، وها قد حان وقت قطفها. شعرت "فيروزة" أمام تلك النظرات المتتمة

التي يرمقها بها، كأنما حلقت فوق السحاب، تلقائياً استحضر عقلها مشاهد سريعة مبهمة لمراسم عقد قرانها الأول، كانت بغير فرحة، تؤدي دورها كأني عروس، دون الشعور بشيء سوى الرهبة والقلق مما هو قادم، أما اليوم فمع نأدته العذب بحروف اسمها، تخللتها مشاعر غريبة، استثارت حواسها، وداعبت أعماق أعماقها.

نقضت عن رأسها الذكريات المزعجة، وجعلت كامل تركيزها منصّباً على ما تعايشه الآن، رجفة طفيفة عصفت بها مجدداً، لا رهبة من المجهول، وإنما توقفاً للتقرب أكثر منه، أيمكن للحب أن يسمو بالمشاعره بهذه الطريقة؟ جاءها الرد في بواطن عقلها بالإيجاب.

أشار لها "تميم" لتتعلق في ذراعه وهو يخاطبها بتنهيده حارة مفعمة بالمزيد من الأشواق، ليستحثها على التحرك:
مش يالا بينا.

برجفة خفيفة مدت ذراعها نحو خاصته، تأبطته في ترددٍ خجل، وشعورٍ مغري بالاحتواء قد بدأ في التسلل أسفل جلدها، ربما روى القليل من ظمأ القلوب العطشى. بمجرد أن لامسته أحست بثقل أنفاسه، وبتصلبٍ طفيف يسيطر عليه. سمحت هي الأخرى- شهيقاً عميقاً حاولت به ضبط الانفعالات المضطربة التي اجتاحتها حالياً مع اقترابه الموتر لها. نظرة جانبية

خاطفة منحته لها، فرأته ينظر إليها ملء عينيه بمحبة تفوق الوصف؛ كأنما لا يبصر سواها، ومن ينظر لغير القمر وهو يمتلكه بين راحتيه؟ توهجت بشرتها، وشاعت فيها حمرة متدرجة، اختفت جزئياً أسفل مساحيق التجميل؛ لكن أثرها الدافئ شعرت به كلياً.

سارت على مهلٍ لئلا تتعثر في أطراف ثوبها الطويل، ومن خلفها لحقت بها توأمتها، تنحني كل بضعة خطواتٍ لتفرد لها ما يلتف من القماش أو يتعقد. صدحت الزغاريد المبهجة حين خرجت إلى العلن، كانت الفرحة غير مزيفة، صادقة، نابعة من قلوب صافية، طافت بنظراتٍ سريعة على الوجوه المحدقة بها، فوجدتهم قد اتفقوا جميعاً على إظهار مشاعر الود والسعادة لكليهما.

تقدمت "ونيسة" أولاً لاستقبالها، وراحت تهنئها بعد زغردة عالية:

مبروك يا بنتي، ربنا يتم بخير، ويرزقك سعادة الدنيا والآخرة.

تشكلت بسمة ناعمة على ثغرها، وردت بصوتٍ شبه مهتز من الخجل الممزوج بالحياء:

-الله يبارك فيكي يا طنط.

حملت فيها "فيروزة" وهي تخاطب ابنها، بما يشبه الوصية:

عروستك بين إيدك أهي، تحافظ عليها، مش هوصيك.

عفوياً أرادت النظر إليه وهو يعلق على والدته، فوجدته يحدق فيها بنظراته العميقة، التي تنطق بشغفٍ نفذ إلى وجدانها على الفور من مدى صدقه، ارتفع ديب قلبها، وصار كالمجنون وهو يؤكد عليها:

يامه اطمني، دي مخطوطة جوا قلبي.

قطع تواصلهما البصري مجيء "آمنة" التي وقفت أمام ابنتها تبارك لها:

ماشاء الله يا بنتي، ربنا يفرح قلبك ويسعدك.

ابتسمت وهي تعقب عليها:

الله يبارك فيكي يا ماما.

أوصتها هي الأخرى على زوجها:

خلي بالك منه، ده سيد الرجالة، وحطيه جوا عنيني.

طأطأت رأسها في استحياء، وهمست بصوتٍ متلجلج من ربكتها:

حاضر.

أن تكون محط الأنظار في ليلة كتلك احتاج لبذل جهد جهيد للبقاء في سكينته، وإن كان القلب في أوج حماسه وانفعاله السار.

.....

أصر "بدير" على عقد مراسم القران أولاً، قبل الشروع في إقامة أي مظهر من مظاهر الفرح، ليكون ابنه على حريته مع زوجته، بعد أن طال انتظاره وترقبه لهذا اليوم المنشود. تحولت مقدمة القاعة بعد عشر- دقائق، إلى مجلس يضم المأذون الشرعي، وكيل العروس، وعدد لا بأس به من الشهود، في حين جلست "فيروزة" على مقعدها بالكوشة، وحولها النساء المبتهجات من العائلتين. تساءل المأذون بصوته الهادئ وهو يدور بنظره على من حوله:

مين وكيل العروسة؟

تكلم "خليل" قائلاً وهو يتحفز في جلسته:
-أنا إن شاء الله.

هز رأسه في استحسان، وتساءل مجدداً:

على بركة الله .. والشهود جاهزين؟

أجاب عليه "تميم" وهو يشير بنظراته إليهما:

جدي إن شاء الله، وصاحبي "منذر".

حرك المأذون رأسه بإيماء بسيطة، قبل أن يقول:

-تمام، إيدك يا عريس.

تعانقت الأيادي معًا، وحُبست الأنفاس لوهلة، ليردد بعدها المأذون في صوت هادئ جمهوري مستخدمًا الميكروفون ليصل الصوت لجميع من في القاعة:

بسم الله نبدأ.

.....

غاصت في أمانيتها وأحلام يقظتها خلال عقد القران، تنظر من عليها إلى كل من جاء للحفل لمشاركتها فرحتها، لم تصدق أنه في بضعة أشهر تبدل بها الحال، وصارت واحدة أخرى غير تلك المضطهدة المغلوب على أمرها بعد معاناة امتدت لفترات طويلة، كانت اليوم أكثر قوة، إرادة، ورغبة في التمتع بمباهج الحياة، والعيش في صنوف الحب الجميل. رغمًا عنها، انعقدت المقارنات في رأسها، ويا ليت عقلها يكف عن ذلك الأمر! فشتان الفارق بين الليلتين، واحدة أجبرت فيها على ابتلاع مرارة الظلم، والارتضاء بمن أمطرها بمعسول الكلام، فقط للهروب من افتراءات الألسن، فعاشت أسوأ كوابيسها، وآخر بذل الغالي والنفيس لحمايتها من شرور البشر.. دون أن يكثر لأمر سلامته شخصيًا، المهم أن تشعر في الأخير بالأمان، والسكينة، إلى أن استشعر قلبها حبه الصادق النابع من بواطنه.

تدثرت بالعواطف الذكية التي راحت تنشط في ذاكرتها، مع كل موقف أثبت لها فيه أنه جديرٌ بها، وقتئذ أدركت أنه منحها أسمى معاني الحب العذري، ذلك الحب الخالي من الأطماع، والأهواء، خرجت من شرودها عندما تنبّهت لصوت "تميم" وهو يردد في نشوة عارمة عُمّت أرجاء القاعة:
-وأنا قبلت الزواج منك.

اتجهت عينها إليه وسط الزحام المحاوط به، لم تستطع تبين وجهه المختفي خلف من هم فوق رأسه، فحادت بنظراتها نحو شاشة العرض التي ركزت فيها على ملامحه، رأتَه في كامل بهجته، لم يكن مدعيًا، ولم يزف مشاعره، بل بدا متفاخرًا أنه حظى بها كزوجةٍ في النهاية بعد مشقة واجتهاد، حينئذ زاد شعورها بالاعتزاز والشوق، فرجلٌ مثله استحق امرأة مثله!

دقائق أخرى مضت عليها وهي تتلقى المباركات والتهنئات ممن حولها، إلى أن خف التزامم، وظهر "تميم" من بين هؤلاء، عندئذ شعرت بخفقات متلاحقة تعصف بقلبها، دبّت في شغافه ارتجافات الفرحة، وتفشت في أوصالها ارتباكة عظيمة، لم تهدأ باقترابه، ولن تهناً إلا في أحضانه!

وقف قبالتها يرمقها بنظرة مطولة، احتوت على الكثير مما أراد البوح به والتعبير عنه؛ لكنه امتنع مرغماً عن ذلك، تقديسًا لما بينهما من مشاعر سامية، وعواطف غالية، لا يجوز الإفصاح عنها إلا في طقوس خاصة تليق

بها. كانت كالحلم الذي اقترب كثيراً من تحقيقه، وأوشك على الغوص في
كافة تفاصيله، ومعايشتها بروحه ووجدانه، تقوست شفتاه عن بسمه نقيه،
أضأت وجهه أكثر وهو يستطرد مهناً بقليلٍ من الغزل:
مبروك يا جميل.

رمشت بعينها في توتر، وقالت بصوتٍ خجول:
-الله يبارك فيك.

خفضت من رأسها لتجده يمد يده ناحيتها، رفعت ناظرها إليه تسأله بنظرة
متسائلة حائرة، فأجاب مفسراً في تهذيب:
-الزفة مستنيانا.

اعترضت في ترددٍ واضح:
-مكانش ليه لازمة وآ...

قاطعها قبل أن تهوي جملتها بعشمٍ وصدق:
-أنا بعيش معاكى كل حاجة كأنها أول مرة ..

رمقته بنظرة مليئة بالاهتمام، لمعت بشدة، وظهر التأثر عليها عندما تابع:
-لأني عايشها بقلبي.

منحته يدها في استسلام، وهي تطالعه بنظرة حانية، تحوي قدرًا من المشاعر الشغوفة، فاشتبهى ضمها بشدة، ورغم ذلك قاومت رغبته الملحة، وأرجأها لوقت لاحق، حين ينفرد بها، عندئذ ستختبر معه كافة درجات الهيام، وهو يجيد التعبير باحترافية عن هذا!

.....

ثبتت في مكانها تصفق بيديها في وقارٍ، وهو أمامها يرقص مع رفاقه في بهجة عارمة، كانت عيناها لا تفارقان وجهه، تتبعه في لهفة أينما اتجه، كأنها تخشى- أن تضيعه في لحظة تلتهي فيها عند متابعة غيره، ومن وقت لآخر التفت ناحيتها يمنحها ابتسامات ناعمة ونظرات شغوفة مليئة بالرغبة، قابلتها دومًا بنظرة متدلة مرحة كأنما تحوي في باطنها على دعوة خفية لتذوق فاكهة الجنة الشهية.

وقعت عينا "فيروزه" مصادفة على الصغير المشاكس، ذاك الذي راح يُراقص "رقية" في مرج متحمس، تصنعت العبوس، وأرسلت إشارة صارمة إلى "تميم" بمجرد أن نظر ناحيتها، تطلع الأخير إلى حيث أشارت، فهز كتفيه مرددًا بضحكة حيرى:

حطب أعماله إيه؟

حدجته بتلك النظرة القوية، فرضخ أمام تحذيرها المبطن، وتحرك تجاه
"يحيي" يطلب منه مبتسمًا:

تعالى ارقص معايا.

رفض الصغير بعنادٍ طفولي وهو يتمايل بجسده:

-لا، أنا عاوز أرقص مع الأمورة دي.

ردت عليه "رقية" بصوت مرتفع تصح له:

-اسمي "كوكي".

بادلها الصغير الابتسام، وعَرَفَ بنفسه وهو يمد يده لمصاحفتها:

-وأنا "يحيي".

صاحته، فوجدته يجذبها إليه، ويضمها إلى صدره، فحانت من "تميم" نظرة
جانبية نحو "فيروزة" فوجدها تحدجه غير راضية عن الانسجام الحادث بين
الصغيرين، فتنحنح مناديا على رفيقه:

-يا "دياب"! حل الإشكالية دي بسرعة بدل ما يتنكد عليا.

جاء إليه متسائلاً في دهشة:

-إشكالية إيه؟

عاتبه "تميم" بوجه شبه جاد:

-ماينفعش اللي بيحصل ده، مرة بوس، ومرة حضن!

رد عليه "دياب" بمزاح وهو يمرر يده بين شعره:

-لأ معاك حق، طب أداري عليهم بضهري ولا إيه؟

رمقه بنظرة حادة قبل أن ينذره بغيط:

-بقولك لِم ابنك، تقولي أداري؟

حافظ على ابتسامته المرحّة وهو يخبره:

-خلاص يا سيدي اعتبرني خطبتها لابني، ومؤجلين الخطوبة لكّام سنة
قدام عقبال ما ياخدوا الابتدائية.

نظر له "تميم" في استخفافٍ قبل أن يعقب:

-إنت الكلام معاك ماينفعش، كل حاجة واخدها هزار ...

ثم التف نحو "رقية" يأمرها بلهجة جادة وهو يتصنع الابتسام:

-تعالِي يا "كوكي".

اعترضت عليه، وقالت وهي تتمايل في مرج:

-عاوزة أرقص مع "يحيى" شوية يا عمو.

هنا رد عليه "دياب" مبتسمًا على الأخير:

-سمعت بنفسك.

تركزت كافة الأنظار مع الصغيرين، خاصة "يحيى" الذي تكلم في هدوء وهو يخرج من جيب سترته قطعة مغلفة من الحلوى:

-أنا جبتلك شيكولاته من جوا، خدي.

تناولتها "رقية" من يده وهي تبادله ابتسامة لطيفة، قبل أن تقول:

-شكرا.

انتفض كلاً من "تميم" و"دياب" في صدمة حينما أتت "فيروزة" بغتة، وصاحت في استنكارٍ، كأنما أمسكت الجميع بالجرم المشهود، لا بتبادل قطعة من الحلوى اللذيذة:

-ده اسمه إيه ده؟

أجاب "دياب" بتعابير شبه جادة، تشوبها بسمة مهذبة:

-بيصالحها، مش كان مزعلها المرة اللي فاتت؟

حولت أنظارها نحو "تميم"، وسألته في تحفز:

-وانت موافق على كده؟

تنحنح في خفوتٍ قبل أن يقول محايدًا:

-الصلح خير.

أوشكت على الاعتراض، لكنه سحبها من ذراعها، وحاطها من خصرها
بذراعه الآخر، ليلصقها ب صدره، جذبها بعيدًا عنهم، وطوقه ما زال مُحكمًا
حولها. مال على أذنها يهمس لها في عذبة:

-بصي، احنا نسينا من العيال دلوقتي، وتعالى أقولك كلمتين كده حلوين
تستاهلهم.

حركته المفاجئة أربكتها بشكلٍ كلي، أحست بفيضٍ من المشاعر الغريبة
المصحوبة برعشات متقطعة تجتاحها في غزوٍ كامل مباغت يضرب كل جزء
حسي بها، تلعثت وهي تحتج عليه:

-بس آ...

قاطعها مجددًا بصوته الهامس، المذبذب لكيانها، دون أن تخف قبضته عنها:
-ياللا بينا بس، ده أنا مصدقت إنك بقيتي ليا، وكلها شوية وأخذك في
حضني.

ارتج داخلها، وتزعزعت أعمدة الصلابة مع لهيب أنفاسه اللافتة لبشرتها.
ادعت تماسكها، وبحث بنظرها عن توأمتها، وجدتها على مقربة منها،
فطلبت منها:

- "همسة"، عينك على "كوكي".

هزت الأخيرة رأسها موافقة، في حين استمر "تميم" في الابتعاد بطاووسه
الصارم عن الصخب المحيط بهما، ليواصل كلامه إليها بلطافة:
ده إتي شكلك هاتبقي حماة صعبة.

عند هذا القرب المغري أخبرته بابتسامة واثقة، ونظراتها اللامعة تكاد تنفذ
إلى عمق عينيه:

طبعا، مش هاسكت عن الغلط.

وجدته يخفض عينيه ليتطلع إلى شفيتها باشتهاء واضح، جعلها تهتز، خاصة
حين غازلها بتنهيدة حارقة:

-قمر، أوي.

حاولت الانسلاخ من ذراعه المطبق عليها، والتحرر من هذا التهديد المحفز
لرغبات تتولد بداخلها؛ لكنها فشلت في الإفلات من حصاره المطوق لها،
بلعت ريقها، وحذرت بصوت متلجلج خجل:

-مايصحش.

استمر على قربهِ الخطير، وشدّد من ضمه غير الكامل لها، وهو يخبرها بنبرة ذات مغزى بعد أن أصبحا شبه معزولين عن الزحام الموجود بالقاعة:

ده احنا لسه هنقول اللي يصح، واللي مايصحش لما نبقي لواحدنا.

تلبكت، وسرت فيها رعدة لذيذة، قاومتها بعزم متأرجح بين الثبات والاستسلام أمام تلك المغريات المتصاعدة. استجمعت شتاتها لتقول بغموض حرج، معكوس في نظراتها التي بدأت في تحاشيه:

-أنا كنت عاوزة أقولك على حاجة كده.

دار في خلدِه أنها تعاني من آثار زائرتها الشهرية، فهتف في توجيس مفزوع:

-أوعي تقولي ظروف، كده أبقى أنا نحس بجدا!

كتمت ضحكة خجلة على إثر ردة فعله الطريفة، وقالت وهي ما تزال على ترددِها:

-لا، حاجة ثانية مهمة.

منحها نظرة مترقبة، غير متعجلة، كأنما يجبذ أن تطيل في سكوتها، ليزيد من تودده إليها بالتصاقه المتعمد بها، زاد التردد على محياها أمام شغفه الصريح، أرادت البوح بسرّها؛ لكن تاهت منها الكلمات، كأنما لم تعرف كيف تبدأ في

مفاتيحه، وكيف تستطيع ذلك دون تمهيد مسبق عن هذه المسألة الحرجة؟ أترأه سيفرح حين يعلم؟ أم سيكون الأمر سيان لديه؟ لم تكتمل فرصتها بسبب مجيء "ماهر" وشقيقته، والطبيبة "ريم". تطلعت إلى ثلاثتهم في سرور، وبدأت ذراع "تميم" ترتخي قليلاً عن خصرها، ركزت بصرها على الأول وهو يخاطبها مبتسماً في وقار:

-مبروك يا "فيروزة".

ردت مبتسمة ابتسامة رقيقة:

- "ماهر" بيه، الله يبارك فيك.

آه لو استطاعت أن ترى نيران الغيرة المشتعلة في حدقتي "تميم"، وغيره يناديها باسمها متجرّداً من أي ألقاب! انتفض جسدها فجأة وقد شعرت بذراعه القوي تحاوط خصرها من جديد وتشدّد عليه، ألصقها به، كأنما يعلن صراحة أنها صارت ملكيته، غير مستباح لغيره بالتجاوز معها، وقتئذ استدارت برأسها نصف استدارة لتنظر إلى وجهه من هذا القرب الشديد، رأت تعابير مشدودة، ملامحه متجهمة، نظراته تكاد تلفظ حنقاً. ازدردت ريقها، ونظرت بتوترٍ مرة ثانية إلى "ماهر" وهو يخاطب زوجها:

-مبروك يا عريس.

مد يده لمصافحته، فوجدت "تميم" يبادلها المصافحة بقوة وهو يقول، دون أن تخف وطأة ذراعه على خصرها:

-الله يبارك فيك.

سحب "ماهر" يده، وخاطبه بلهجة محذرة:

-خذ بالك منها، ولو زعلتها في يوم هتلاقيني فوق دماغك.

للعجب صارت ضمة "تميم" لها أكثر تملكًا، ضاعف من إلصاقها بجانبه، حتى شعرت أنها ستذوب بداخله، حتى أن صوته صار أكثر تحكمًا وهو يعقب عليه:

-اطمن يا باشا، هي في أمان معايا.

حاولت "فيروزة" أن تخفف من التوتر الذي استشعرته بالترحيب بطبيبتها: -دكتورة "ريم"، كنت هزعل لو ماجتيش.

بالكاد نجحت في التخلص من حصار "تميم" لتتمكن من احتضان الأخيرة وهي تخبرها في محبة:

-مقدرش محضرش فرحك، ربنا يتمم بخير ويسعدكم.

تراجعت قليلًا عنها، وردت في ابتسامة صغيرة:

-يا رب.

ثم تركزت عيناها على رفيقتها، وسألتها في نبرة مهتمة:
فينك يا "علا"؟ اتأخرتي ليه؟
قبل أن تبدأ في الكلام، أجب عنها "ماهر" ساخرًا:
عقبال ما لبست، واتزوقت، مفكرة نفسها العروسة.
هتفت شقيقته تحتج في حنق:
دي كلها حاجة بسيطة، وتتجوز.
رد عليها بنفس الطريقة المستخفة:
ده بعد ما تطلعي اللي فاضل من عين "وجدي".
استغلت "ريم" فرصة انشغال "فيروزه" بالحديث، لتدنو من "تميم"،
وتستأذنه في جدية:
-ممكن كلمة يا أستاذ "تميم" على جنب.
تحرك مبتعدًا معها لعدة خطوات وهو يقول:
-اتفضلي يا دكتورة.
توقفا عند مسافة معقولة، لا تثير الاسترابة عند النظر إليهما، واستطردت
تُحادثه على عجالة، لا تخلو من جدية:

أنا عاوزاك النهاردة يكون بالك طويل مع "فيروزة"، مافيش داعي للاستعجال في أي حاجة، سيبها تاخد عليك الأول، ده هيكون أحسن ليك وليها.

قال بوجه متبرم قليلاً:

-ربنا يسهل.

واصلت التأكيد عليه بنفس النبرة المحذرة:

- "فيروزة" مرت بتجربة صعبة، ومحتاجة مننا كل الدعم عشان تستعيد ثقتها في نفسها، وخصوصاً إنها بتعيد تجربة الزواج معاك.

لم يستسغ تلميحتها المتواري بانسياقه وراء شهواته - كحيوان جائع يستعد لالتهام فريسته - بدلاً من احتوائها بالعطف والحنان، جمّدت تعايره، ورد في جدية تامة:

يا دكتورة محدش هيفخاف عليها زي.

ابتسمت في لباقة وهي تواصل الكلام:

-أكيد، وده مخليني مطمئنة، بس برضوه ماتستعجلش.

بزفير سريع قال وهو يدير رأسه نحو "فيروزة":

-إن شاء الله.

رأت الأخيرة ملامحه المزعوجة، فتحركت في تؤدة نحوها وهي تتساءل بنظرة
حيرى، مستشعرة وجود خطب ما:

-في حاجة يا دكتورة؟

ردت نافية بنفس الوجه الهادئ:

-لا، ده أنا بوصيه عليكى.

ساروتها الشكوك قليلاً مع محاولتها المكشوفة للهروب من نظراتها المتفرسة،
انتبهت مرة أخرى لـ "تميم" وهو يدعو ضيوفها للمكوث:

-اتفضلوا يا جماعة، شرفونا جوا.

استعدت للذهاب خلفهم؛ لكنه استوقفها بإعادة إحكام الطوق القوي حول
خصرها، تسمرت في مكانها، واستدارت ناظرة إليه باستغراب حائر،
فرمقها بنظرة تحوي حنان الدنيا ودقها المغري، التفت ذراعه الأخرى حول
ظهرها، وقربها برفق إليه، لتستند بكفها تلقائياً على صدره، كأنما تمنع نفسها
من الالتصاق به، أسبل عينيه نحوها ثم رجاها بخفوت:

خليكى جمبى.

سألته في تشككٍ بدأ يحوس بداخلها:

في حاجة حصلت وانت مش عاوز تقولي؟ طب دكتورة "ريم" قالتك
على حاجة؟

رد نافيًا في استراحة:

-لا أبدًا، دي بتوصيني عليكي.

ابتسمت قليلًا، وهزت رأسها في تفهمٍ قبل أن تحاول المناص منه، لم يفلتها،
وأصر على بقائها هكذا، فتخرجت كثيرًا من وقتها الرومانسية، وهمست
في ارتباك:

-ماينفعش كده.

غازلها بنظراته الجريئة، وهتف في حرارة وهو يزيد من ضمه:

-هو إيه اللي ماينفعش؟ إتي مراتي دلوقتي.

تلوت بجسدها محاولة الفكك منه، ووجهها ينطق بحمرة قوية، تلعثت وهي
تردد:

-الناس بتبص علينا.

لم يكثر لكائن من كان، وراح يقول في تحدٍ مستمتع:

-مالناش دعوة بيهم ...

من موضع يديها استشعرت تسارع نبضاته، كأنها تعترف لها بما يعجز
اللسان عن قوله، انتفض ما بين ضلوعها، وذاب كليًا وهو مستمر في
مداعبة أذننها بجلو كلامه:

-وبعدين هو حد يبقى في حضنه القمر، ويسيبه؟ ده يبقى أهبل!!
تراجع كلاهما عن بعضهما البعض في حرج شديد، وقد صدح من خلفهما
صوتًا معنفاً:

خلي جو الغراميات ده بعدين يا سي "روميو".
أطرق "تميم" رأسه في تحرج، وقال بصوتٍ شبه متقطع مبرراً وقفته العبيثة
مع زوجته:
يا بابا ده أنا آ...

قاطعته في تشديد:

ياللا قدامي، ليكم بيت ترغوا فيه براحتكم.
هز رأسه في إذعانٍ كامل، وأشار لزوجته بيده لتتأبط ذراعه، ثم مشى معها
متصنفاً الجدية، قبل أن يميل برأسه عليها ليخبرها بصوتٍ خافت منزعج،
وهو يراها تحاول بجهدٍ إخفاء ضحكاتها المرحية:

مش بقولك أنا محظوظ .. أوي !!

.....

الفصل المائة وأربعة وسبعون

بمسحة سريعة من طرف لسانه اللزج، على تلك الورقة، تمكن من لصق
طرفها معًا، ليحصل على سيجارة يدوية الصنع؛ لكنها محشوة بمخدر
الحشيش. حشر ذلك الرجل الغريب سيجارته بين شفثيه، وراح يشعل
طرفها بتأنٍ، ليسحب بعدها نفسًا عميقًا يوجب به صدره المشتعل بالمزيد
من الأنفاس المذهبة للعقل، أطلق سحبًا من الدخان في الهواء الطلق، ثم
تبادل مع رفيقه السيجارة، وسأله في صوتٍ خفيض مهتم:

جرب كده وقولي.

تناولها من الآخر، وبدأ في استنشاق دخانها باستمتاع واضح، ليعقب بعدها
بأنفاسٍ معبقة بالتبغ غير البريء:

-الصف عالي المرادي.

هز الأول رأسه في استحسان، وقال بغمزة من عينه الملتهبة من أثر ما
يتجرعه من مواد مخدرة:

-مش قولتلك، حته معتبرة.

وافقه الرأي، وعلق في تلذذ:

-أصلي يا واد عمي.

سار كلاهما على الطريق الزراعي شبه المعتم -والممتد على مدى البصر-
وسط الحقول- في تكاسلٍ وثقل؛ لكن صدحت أصوات ضحكاتها المصحوبة
ببضعة تعليقاتٍ خليعة، لتبدد السكون السائد إلا من أصوات نقيق
الضفادع، وصرير الجنادب. تساءل الثاني وهو شبه مترنخ في خطواته:

مش معاك حنة زينا؟

أجابه وهو يشير إلى جيب قميصه:

معايا، بس دي شايلها لما نوصل مطرحنا.

ألح عليه بلسانه الثقيل:

هاتها، ده لسه الطريق طويل.

تساءل الأول في نبرة هازئة:

إنت خستعت ولا إيه؟

نقى ادعائه مبررًا:

-لا يا عم، ده بس عشان نتنشط كده وتفوق، دي الليلة شكلها فل.

لم يبدُ ممانعًا لاستخدام القطعة الأخيرة، فوقف الاثنان عند بقعة شبه
مضيئة، وقام الأول بإعداد سيجارة أخرى، بنفس القدر من الاهتمام
والرعاية. أشعل طرفها، وتذوق طعمها بانتشاء كبير، ليعطيها لرفيقه فيجرها

هو الآخر؛ لكنه تغاضى عن إطفاء عود الثقاب الذي استخدمه، وألقاه
ياهمالٍ على كومة من المزروعات الجافة الموضوعة عند أول الحقل للتخلص
منها باكر. بعد بضعة أنفاسٍ مصحوبة بلحظاتٍ من العبثية والمجون، انتبها إلى
سحابة الدخان التي حاوطتهما، التفتا خلفهما، ليجدا السنة اللهب قد بدأت
ترتفع للأعلى، وبخ الثاني زميله في عتابٍ شبه مهيّن:

يا دغوف مش تاخذ بالك، كده هتقيد النار في الزرعة كلها!

رد بغير مبالاة:

هي تخصنا أصلاً.

حذره في شيءٍ من الجدية:

بس جايز حد يوعلنا.

قال بضحكاتٍ قصيرة متقطعة:

-ولا حد هيبقى دريان بينا ...

على ما يبدو بلغت عدم مبالاته أقصاها، فأخرج من جيبه زجاجة صغيرة،
تحتوي على مشروب مُسَكَّر، وقام بسكبه كاملاً على كومة الزرع، لتتوهج
السنة اللهب، وتزداد حدة، ضحك مجدداً بصوتٍ غريب، ثم هتف في
استمتاع مريض:

-وأهوو خليها تصهرح وتسهلل.

شاركه زميله الضحك الماجن، وعقب وهو بالكاد يحاول تمالك نفسه وسط
نوبة الضحك الهيستريّة:

-أما إنت عليك حركات.

راح الرجل يدندن في صوتٍ مرتفع ومزج وهو يرقص حول النيران الحمئة:
نار .. نار .. نار، وأنا قلبي قايد نار.

تمايل زميله بجسده معه، وطاف حوله في خلاعةٍ إلى أن انتشرت النيران
في معظم الحقل، توقفا عن اللهو، وتعلقا في ذراع أحدهما الآخر للحفاظ
على توازنهما، سارا مرة ثانية في ترنج، والأول يتكلم في لسانٍ ثقيل:
حطب بينا بقى بدل ما النفسين يطيروا.

غادر الحقل، وألسنة اللهب تتصاعد للأعلى في نشاطٍ وقوة، كأنها كانت
تتحين الفرصة للتوهج والانتشار، وها قد وابتها الفرصة لتأتي على الأخضر
واليابس بلا هواده أو رحمة!

.....

أصبح الهواء فيما حول المقهى الشعبي المتواجد على أطراف البلدة معبّأ
بأدخنة النارجيلة المنتشرة بداخله وخارجه، واختلطت مع الدخان المنبعث

من حجر المعسل، غطت الرائحة القوية للمدخنين على رائحة شوي اللحم، وأصبح مذاق ما يتناوله رواد المكان من أطعمة مصبوغًا بالتبغ والدخان. أشار "فضل" لعامل المقهى بيده ليبدل له حجر الفحم بعد أن انطفأت جذوته، واستدار ناظرًا إلى رفيقه حين كلمه في لهجة شبه جادة: ما تشيلها من دماغك.

التهب نظراته، وصارت أكثر شرًا وهو يعقب عليه في إنكارٍ ساخط: -أشيلها؟ ده أنا مافيش حُرمة استعصت عليا زها استكمل باقي جملة بين جنبات نفسه متذكرًا ما تعرض له من إذلال جسيم طال رمز فخولته:

غير ما النكبة اللي بقيت فيها بسببها. تنبه من جديد لرفيقه وهو يسدي له النصيحة: يا عم شاور على أي واحدة تكون طوعك، وتحت رجلك. قال بغليلٍ مرتفع في صدره، وبعينين تطلقان بالشرر: -مافيش إلا هي، هاخذها وأكسر رقبتها. حك رفيقه جانب رأسه باللبسم، قبل أن يدسه بين شفثيه وهو يضيف في مكر:

-صحيح، عرفت إن أم عيالك بطنها شالت ثاني؟!
زاد الكدر في عينيه وهو يعقب بقنوطٍ شديد:
-وش البومة، آل يعني المشرحة ناقصة قتلى!
تابع في خبث، كأنما يقصد استفزازه:
-ده يقولك "رشيد" عامل عمايله، ومروق على أهل بلده بسبب حبلاها ده.
بدا غير مبالٍ بأمورها، ونطق هازئًا:
-يعني جاب الديب من ديله!
امتدت يده لتمسك بالكوب الزجاجي، وتجرع آخر رشفة في شايه قبل أن
يغمغم قائلاً:
-الناس بتحكي ويتحاكى، هو أنا اللي بأقول.
لوى ثغره مدممًا في حنقٍ محسوس في نبرته:
-تلاقيا نمرة عاملها عشان يقول بيها إنه راجل ويعرف آ...
ثم ضحك ضحكة سخيفة مصطنعة كأنما يقصد بذلك منع نفسه من قول تلميح
خليع، وعاد ليتابع كلامه باستهزاء:
-فاهمني، وهو خروف لا يهش ولا يينش.

رفع رفيقه حاجبه متسائلاً في دهشة مفتعلة:

معقولة؟ قول كلام غير ده.

أكد عليه بثقة عجيبة:

أه يا بابا، هي كانت أول ولية تجيب عيل؟ ما أنا جايب منها كوم، وبعدين ما أنا رميتها لغيري، فضلة .. ماتسواش!

حقده المير تجاه "سها"، جعله يلفق الأكاذيب، ليظهرها بمظهر السوء، وإن لم يكثر لعواقب زلات لسانه. قطع لغوها الفارغ نداء أحدهم المفزوع وهو يركض من مسافة بعيدة، تنبه جميع من في المقهى إليه، وعلى وجه الخصوص "فضل"، خاصة عندما خاطبه هذا الرجل بأنفاسه اللاهثة:

إلحق يا سي "فضل".

نظر إليه شزراً قبل أن يسأله بتأفف، وهو يحرق دفعة من دخان النارجيلة:

في إيه يا غراب البين؟

أشار له نحو الفراغ وهو يحببه في جزع:

النار قايدة في الأرض بتاعتكم، جابت عاليها واطيها.

انتفض واقفاً بعد سماعه لتلك الجملة الصادمة، ودفع بقدمه النارجيلة لتبعثر محتوياتها على الكليم، وصوت صراخه المرتاع يصيح عاليًا:

-بتقول إيه يا وش الفقر؟!!!

أكد عليه من جديد وهو يحاول التقاط أنفاسه:

-النار ماسبتش شبر إلا وطالته.

لطم يديه على صدغيه هاتفاً في تحسّرٍ شديد قبل أن يهرول كالمجذوب نحو أرضه المشتعلة:

-يا دي الخراب المستعجل اللي حط على دماغ الواحد.

.....

مر عليه وقت لا يعلمه سوى المولى عزوجل، وهو يتقرب انتهاء فقرات حفل الزفاف التي ظن أنها لن تنتهي أبداً، وصل المطاف إلى فقرة تناول قالب الحلوى، تأهبت "فيروزة" في جلستها على الكوشة، وظهر التوتر على محياها، حاولت التماسك، ومقاومة الخيالات التي راودتها بشأن ما يحدث من تجاوزات ومداعبات بين الأزواج في تلك اللحظة المرحّة، أدارت رأسها في اتجاه "تميم"، واشترطت عليه بجديّة:

-يا ريت اللي بنشوفه ويحصل في آ...

وصل إليه تلميحتها المتواري دون الحاجة للمزيد من الإيضاح، فقاطعتها مؤكداً عدم ارتكابه لأي تصرف قد ينجّلها:

-اطمني .. كل اللي عاوزاه هيحصل.

أحست بالارتياح لتفهمه العقلاني، خاصة أن بعض الأزواج لا ينجلون من وضع زوجاتهم محط الأنظار باختطاف قبلة جريئة على مرمى ومسمع من الحاضرين. تركت باقة الورد موضعها، ونهضت في تهملٍ لتشاركه ذكرى أخرى جديدة، ستضاف حتماً إلى قائمة ذكرياتها معاً.

توقف الاثنان في منتصف القاعة تقريباً؛ حيث تم وضع القلب الطويل، ناول أحد مشرفين التنظيم السكين للعروس، لتمسك به أولاً، قبل أن يضع "تميم" قبضته على يدها، شعرت بقوة أصابعه وهي تضم كفها، كأنما تحتويه في سطوة غير مشكوك فيها، نظرت إليه ملء عينيها بنعومة يشوبها التوتر، فرأته يمنحها كل ما تحتاج للشعور به وهي إلى جواره من أحاسيس صادقة، عاشقة، تفيض بالحب والحنان. تساءل مبتسماً، وعيناه لا تبرحان صفحة وجهها النضرة:

جاهزة؟

هزت رأسها مرددة ببسمة رقيقة:

-أيوه..

ارتفعت يداها معاً للأعلى، ليبدأ تقطيع القلب، وهبطتا بالتدرج في تناغم لطيف وهادئ، دون أن تحيد النظرات الساهمة عن بعضها البعض؛ وكأنها

كانت فرصتها المتاحة لعيش لحظة حاملة وهما عند هذا القرب. تدارك "تميم" استطالته في النظر إلى عروسه الجميل عندما خاطبه المشرف:
-أفضل يا فندم.

حول عينيه ناحيته ليجده يمد يده بشوكة موضوع بها قطعة من الحلوى، أخذها منه، وقدمها للعروس وهو يتسم لها، أمسكت بها بيدها وتناولت ما بها، فلم يعترض على تصرفها، وفعلت المثل معه، لتنتهي الفقرة بتصفيق المدعوين، وعودتهما إلى الكوشة مصحوبين بالزغاريد وموسيقى الأفرح.

.....

من تلك البقعة النائية عن الزحام، أخذ يراقب شاشة العرض بتعابير شبه عابسة، يتطلع إلى ما تبصره عيناه من محبة غير قابلة للإنكار بضيق، ورغم محاولاته المضنية لتقبل الأمر، إلا أن هناك غصة كانت عالقة بقلبه، استدار "هيثم" مبتعدًا عما يشاهده، وتحرك برضيعه جيئة وذهابًا في نفس المكان يهدده في رفيق، إلى أن أقبلت عليه زوجته، توقف عن السير، ونظر إليها وهي تخاطبه:

عنك يا "هيثم"، تلاقي "خالد" تعبك.

قال بتجهم ما زال معكوسًا على ملامحه:

-لا، معظم الوقت نايم.

ابتسمت وهي تأخذه في أحضانها:

-كويس.

أشاح "هيثم" بوجهه بعيداً عنها، ليخفي ضيقه البائن عليه، وتعلل بحجة واهية:

-أنا همر على التراييدات، هاشوف إن كان حد ناقصه حاجة كده ولا كده.
هزت رأسها مرددة من خلفه:

طيب، وأنا هاروح عند "فيروزة".

من الجيد أنها لم تكن ناظرة إليه، وإلا لرأت ضيقه المتزايد في مقلتيه، ففطنت إلى انزعاجه من حفل الزفاف المبهرج، ابتعد عنها قبل كشف أمره، وواصل السير حتى اعترض طريقه "بدير"، فاستوقفه الأخير، وأجال ناظريه عليه، استطاع بخبرته أن يلاحظ تبدل قسماته، حافظ على جمود تعابيره، وسأله في اهتمام:

عامل إيه يا ابني؟

بوجه يعكس امتعاضه أجاب:

-الحمد لله يا جوز خالتي.

استحثه "بدير" على التحرك معه قائلاً:

تعالى اقعد مع جدك شوية، بيسأل عليك من بدري.
لم يجد بداً من الفكك منه، وقال مستسلماً:
حاضر.

سار معه إلى الطاولة الجالس عليها الجد "سلطان"؛ حيث القليل من
الهدوء، بعيداً عن صخب الموسيقى المزجج، سحب "هيثم" المقعد، وجلس
إلى جواره متسائلاً في جدية:
خير يا جدي؟

لم يمهّد "سلطان" في حديثه إليه، وسأله مباشرة دون مراوغة، وهو ينظر
في عمق عينه التعسة:
مبسوط؟

جاوبه بلامح مكفهرة:
مش عارف.

صمت الجد، ولم يعقب متوقعاً أن ييوح بمكنونات صدره، وقد كان؛ حيث
استطرد مستفيضاً بألم محسوس في نبرته:
بس اللي ماتت دي كانت قبل ما تكون مراته أختي، وحازز في نفسي-
أشوف الحلو كله بيتعمل لغيرها.

علق عليه "سلطان" بهدوء:

محدث بياخذ أكثر من نصيبه، وأختك ربنا كرمها وقتها، واتراضت، بس نصيبها انتهى معاه لحد كده، وراحت عند اللي أحسن مني ومنك، هتعترض على مشيئة ربنا؟

استبد به ضيقه، وطفا على السطح، خاصة وهو يحتج عليه:

-لا، بس هي ملحقتش تفرح زي أي واحدة، اتاخذت غدر.

تنفس الجد بعمق، وخاطبه بلين الكلام، علّه يقتنع:

-ربنا ليه حكمة في قضائه، افكر قوله تعالى وهو يقول في كتابه الكريم
(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَقْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ
لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۖ) شوف دلوقتي كلنا بندعي
لأختك بالرحمة، والجنة، تخيل لو كانت فضلت على حالها، وظلمها للغير،
كانت هتلاقي اللي يدعيها؟

أطرق رأسه كأنما يفكر في حديثه، فتابع الجد على نفس الوتيرة الهادئة:

-في يا ابني ميت بيتقال عنه ده ارتاح، وميت تاني بيتقال ده مُستراح منه،
يعني هتلاقي الناس فرحنا إنه مات، وتقولك كويس إن ربنا ريحنا منه.

ضغط على شفتيه لهنية، ثم زفر قائلًا:

معاك حق.

شدد عليه الجد مجددًا بنبرة جمعت بين اللين والحزم:

حط ده في راسك عشان ترتاح، إنت ربنا كرمك، وعوضك بزوجة طيبة، بتحبك، وعارفة إزاي تصونك في غيابك، ومش بس كده رزقك كمان بابن صغير من صلبك، هيكبر ويشيل اسمك، اجتهد إنك تزرع جواه الخير، عشان وقت العجز تحصد خير.

حرك رأسه بإيماءة صغيرة وهو يخبره:

حاضر يا جدي.

مد "سلطان" يده ليربت على كتفه هاتقًا بود:

-ربنا يرزقك الرضا، ويصلح حالك.

نهض "هيثم" من مكانه وهو يرد:

يا رب ...

ثم تلفت حوله متسائلًا:

-أجييلك حاجة يا جدي؟

أجابه مبتسمًا في حبور:

لأ، الحمد لله، أنا مرضي على الآخر.

أحنى "هيثم" رأسه على جبينه يقبله في تقدير، وقال ممتنًا:

-ربنا يخليك لنا يا جدي، ودايمًا تكون لنا العون والسند.

حافظ "سلطان" على نقاء بسمته وهو يدعو له عن طيب خاطر:

-ربنا يهديك ويراضيك.

.....

بالكاد تمسك بآخر ذرات صبره الذي طال، واستطال، وأوشك على الانقضاء من كثرة الترقب والانتظار، مع انتهاء مراسم حفل الزفاف على خير، أما آن له بعد أن يظفر بكلها؟ انتظر "تميم" بجوار باب سيارة رفيقه "منذر" الذي أصر على قيادة سيارة الزفاف لإيصاله إلى منزله، على أن يتبعه شقيقه، وباقي المشاركين فيما يعرف بـ (زفة السيارات).

اختلس النظرات نحو طاووسه المتباهي، كانت كالملكة المتوجة، تحاوطها ذوات الحسن؛ لكنها أكثرهن بهاءً وتأثيرًا، ويا ليت الأعين تشبع من النظرات! فما عاد يعلم حاليًا سوى أن دمائه المتدفقة في عروقه أدمنت عشقها، وباتت تحترق شوقًا على جمرات العشق لنيل ودّها، فأنى له الإتيان بالصبر وهو أسير تعويذة جمالها؟ حاد مرغما بصره عنها ليتطلع إلى "منذر" وهو يخاطبه بهزاج:

عاوزينك ترفع راسنا يا عريس.
ابتسم في ثقة قبل أن يرد:
من الناحية دي اطمئن.
تدخل "دياب" في الحوار هاتقًا بعبثية:
طبعًا، الخبرة كلها معانا.
سكت واكتفى بالابتسام، فأضاف بنفس الطريقة المازحة:
كله بالحنية بيفك.
علق عليه "منذر" ساخراً، وضحكة تبعت كلامه:
ده بأمانة ما مراتك معلمة عليك.
تنحني قائلاً في حرج طفيف وهو يدعك مؤخرة عنقه:
مش أوي .. ربنا يجعل سيرتها خفيفة علينا، ده أنا هاخد تكديرة محترمة
إكمن مخدتهاش معايا.
رد عليه "تميم" بلطف:
تتعوض في مناسبات تانية.
هز رأسه مغممًا:

إن شاء الله.

في تلك الأثناء، ساعدت كلاً من "هاجر" و"همسة" العروس على الاستقرار في المقعد الخلفي، وقمن معاً بضم أطراف الثواب وجمعه، لئلا يعلق بالباب حين يتم غلقه. لوحت "فيروزة" بعد ذلك لوالدتها التي كانت مشغولة بحمل الرضيع "خالد"، ثم بحثت بعينين تواقيتين عن زوجها، رآته عند المقدمة يضحك وسط رفيقيه، فابتسمت لضحكاته العذبة، مستشعرة تلك الأحاسيس الشائكة اللذيذة التي لازمتها مؤخراً، حين تكون قربه، فماذا إن افرد بها؟ بالطبع لن يدخر وسعه في التعبير عملياً وحسيّاً عن مشاعره لها، توقفت عن الاستغراق في ضجيج أفكارها شبه الجامحة، وادعت التهاؤها بمتابعة ما تردده "همسة" من نصائح مرحّة، لإضفاء جو من الرومانسية على العروسين، فما زادها هذا إلا ارتباكاً وتوتراً.

تجمدت حدقتها عليه وهو يستدير عائداً للسيارة، ليستقر إلى جوارها، شعرت بتلاحق خفقات قلبها، باندفاعه العاصف بين ضلوعها؛ كأنما يريد التحرر والذوبان بين يديه. توالى الارتجافات الخفيفة على بدنّها بشكلٍ لا يوصف، عندما وجدته يلتصق بها، شعرت بأن دروعها المنيعّة، على وشك الانهيار، مع لطف عباراته الرنانة، حين يتغزل بها بالبسيط من الكلمات، لم تسكن مشاعرها المضطربة إلا حينما تخللت أصابعه كف يدها، نظرت أولاً إلى يديها المشبكة معاً قبل أن ترفع حدقتها إليه، لتجده يطالعها بما نفذ

إلى جوهر الفؤاد تَوَا من فرط عذوبته. تقوست شفتا "تميم" عن بسمه
صافية وهو يهمس لها:

مبروك يا أحلى طاووس!

زوت "فيروزة" ما بين حاجبيها في دهشة خفيفة، قبل أن تردد:
طاووس؟!!

مال نحو أذنبا ليكرر مؤكداً عليها، في نبرة متملكة، داعبت مشاعرها
الأنثوية:

-أيوه، طاوسي الأبيض!

خفقة تبعثها أخرى أشد وطأة على قلبها، مصحوبة بتماوجات من المشاعر
المرهفة، سيطرت على كامل بدنها، وبدأت في تأجيج جذوات الحب
بمحسونها، حاولت استعادة يدها من بين أصابعه؛ لكنه رفض، وأصر على
الإمساك بها بهذا القيد شبه المحكم، ثم أخبرها بصوته الخفيض، وعيناه
تنظران إليها بتصميم:
-مابقاش في بُعاد ثاني.

.....

خيل إليه أن الجميع اتفقوا فيما بينهم، وتضافرت جهودهم بشكل يدعو للعجب- من أجل تعطيله، ومنعه من الصعود مع عروسه لمنزل الزوجية، فعلى ما يبدو كل من تذكر مسألة ما راح يخبره بها، ليملاً رأسه ويشحنه بغير المستحسن من الأمور في تلك الليلة الخاصة. تذر "تميم" في استياءٍ منزع، وهو يلوح بذراعه في الهواء:

-الي عنده حاجة يا جدعان يأجلها، أنا عريس، والنهاردة دخلتي، والله ما يصح الي بتعملوه معايا.

لم يكبت "منذر" ضحكاته العالية، وقال في تسلية:

يا عم استمتع بآخر لحظات حريتك.

رد عليه في غيظ:

-أنا عاوز أتحبس.

حذره "دياب" بهرج واضعاً يده على كتفه:

-وترجع بعد كده ترعل، وتقول يا ريتني، ده حتى دخول الحمام مش زي خروجه.

علق عليه في تذرٍ وهو يزيح يده عنه:

-أدخله، وبعد كده اشتكي.

غمز له مصححًا بمكر:

-ما أنت دخلته قبل كده؟ هتطمع؟

رمقه بنظرة حادة قبل أن ينهره:

-أهو الأر ده اللي جايني ورا.

ارتفعت أصوات الضحكات الرجولية الصاخبة، واستمروا على نفس المنوال
المشاكس له، فقط من أجل اللهو معه، إلى أن أزف الوقت، وحانت لحظة
صعوده، عندئذ شعر بالارتياح، وبدأ يشحذ قواه من أجل التمتع بساعاتٍ لا
تعد ولا تحصى من نعيم الجنة في أحضانها.

.....

كان من الأسلم لها، أن تبدل ثيابها، بمساعدة والدتها، تجنبًا لما يمكن أن
يحدث من ثبورٍ متوقع إن وقعت عيناه على آثار ندوبها المحفورة على جانب
كتفها، فتفسد ليلتها قبل أن تبدأ، ويحدث معها مثلما حدث سابقًا، الجفاء
الكامل المصحوب بازدياء مهين. أرادت التمهيد له عن ذلك مسبقًا، قبيل
تعريه جسدها، فلا تصبح -في اعتقادها- مثارًا للاشمئزاز. ضمت "فيروزة"
طرفي رובה الحريري الأبيض معًا، وأحكمت ربط الوثاق حول خصرها،
لئلا ينحل، ويظهر القميص الموجود أسفل منه، والكاشف لمفاتنها كأنثى
شهية.

توسلت لوالدتها بعينٍ راجية:

خليكي يا ماما معايا شوية.

رفضت "آمنة" بمنطقية، وهي تمسح على وجنة ابنتها المتوترة:

-لأ ما يصحش، جوزك يقول عني إيه؟ عزول بينكم؟

أطبقت على شفيتها تكبت ترددها، فواصلت والدتها كلامها المعائب في
جدية:

-وبعدين خايفة كده ليه؟ إنتي مش اتجوزتي قبل كده؟

شعبت بشرتها من الحجيء على هذه النقطة الحرجة، وقالت في لعنة ظاهرة:
-أيوه، بس آ...

قاطعتها "آمنة" قبل أن تمنحها الفرصة للتبرير، لتشد عليها:

خلاص جمدي قلبك كده، وإياكي تجيبي سيرة المرحوم، مافيش راجل
يحب مراته تتكلم عن واحد ثاني قبله.

بالجود ذاته المسيطر الآن على تعايرها سكنت "فيروزة"، ولم تفصح عن
سرّها، وشردت في أفكارها المتخبطة، خشيت "آمنة" من محاولة ابنتها
إفساد ليلتها مع زوجها بالخوض في ذكريات الماضي، فكررت عليها تحذيرها:

-افردي وشك، واضحكي، بلاش عكنة.

على مضض أخبرتها:

-حاضر.

تحركت "آمنة" تجاه الأريكة بعد أن حملت ثوب العرس، ثم فردته عليها بشكلٍ جمالي، ولملمت بعض الأشياء المبعثرة هنا وهناك، لتحافظ على نظام الغرفة، أبقت "فيروزة" نظراتها القلقة عليها، وسألها في صوتٍ مهمم:

حطب إتي هتعملي إيه دلوقتي؟ هترجعي البيت؟

لم تلتفت ناحيتها حينما جاوبتها:

-هطلع أبات عند أختك، والصبح إن شاء الله هشأر عليكي، قبل ما أروح البيت لخالك.

اندهشت لبقائه منفردًا، وسألها:

-هو مش هيبات معاكو؟

أجابت عليها بعد زفيرٍ متعب:

-مرضاش خالص، بس سايب "كوكي" معايا.

ردت وهي تسير نحو التسريحة لتمشط ما تترد من خصلاتها:

-تمام.

تأكدت "آمنة" من إتمام كافة مهامها، وألقت نظرة شاملة على محتويات الغرفة، قبل أن تسير ناحية الباب. توقفت عند أعتابه، واستدارت توصي ابنتها مرة ثانية:

خدي بالك من نفسك، وأوعي تزعلي جوزك، راضيه دايماً عشان ربنا يباركك ويراضيكي فيه.

شدت "فيروزة" من يaqتي رويها، لتظهر فقط مساحة صغيرة، تكاد تكون محدودة من عنقها، وقالت في إيجاز، بلا ابتسام:

إن شاء الله.

لوحث لها والدتها بيدها تودعها، ودعت لها بعاطفة أمومية، قبل أن تغادر البيت، :

-ربنا يسعدك يا حبيتي، ويرزقك بالخلف الصالح.

ذهبت عنها، وبقيت بمفردها حبيسة مخاوفها، حاوطت نفسها بذراعيها، لتبت قدرًا من الدفء إلى جسدها، بعد أن استشعرت برودة غريبة تضرب أطرافها، تهتت داعية الله في سرها:

يا رب عديها على خير.

.....

تلكاً، وتذمر، وتحامل على نفسه، إلى أن ظهرت أخيراً أمام عينيه، وقررت
الانصراف. تصنع "تميم" الابتسام وهو يبصر - حماته تدنو منه حاملة في
يدها حقيبتها، قال بنوعٍ من المجاملة الزائفة وهو يقف بجوار إطار باب
الشقة المفتوح؛ لكنه في قرارة نفسه يريد طردها:

ما لسه بدري يا حماتي؟

ضحكت قائلة بلطف:

-بدري من عمرك يا ضنايا ...

توقفت قبالة، وربتت على كتفه عدة مرات داعية له:

-تهنى مع عروستك يا رب.

تنحى للجانب قائلاً بابتسامة عريضة:

-الله يكرمك.

خرجت من البيت، ووقفت عند مطلع الدرج تودعه من جديد:

-تصبحوا على خير.

قال في تعجلٍ وهو يحرك الباب برفق استعداداً لغلقة:

-وانتي من أهله، عن إذنك.

لم ينتظر ردها، بل عاجل في دفعه لينغلق كلياً، حينئذ فرك كفيه معاً،
وردد في نشوة أخذت تتصاعد في بدنه:

أخيراً التار رحل، يا ساتر، ده أنا قولت هاقضيها كلام لحد ما النهار يطلع.
سحب نفساً عميقاً يثبط به المشاعر التي هاجت، واهتاجت، وأنت من
كثرة المماثلة. تنحنح "تميم" بصوتٍ شبه مرتفع مُخبراً بقدومه، بعد أن عدا
في اتجاه الردهة، ليصل إلى من تعذب مراراً وتكراراً ليلبغ معها نهاية سعيه
الدؤوب. وقف عند باب حجرة النوم المقفول، طرق عليه برفقٍ، وتساءل في
تحفزٍ متحمس:

إيه الأخبار؟

أتاه صوتها مسموعاً من الداخل:

ثواني، وطالعة.

هتف في تشوقٍ وهو يتراجع خطوتين للخلف:

ماشي يا قمر.

انتزع سترته، وحل رباط عنقه، ثم فك زرار ياقة قميصه، وراح يتطلع إلى
الباب بترقبٍ شديد، ولسانه يتمتم في خفوت:

ليلتنا فل إن شاء الله.

أولى ظهره للباب متراجعا لخطوتين، حينما سمع المقبض يُدار إيذانًا بفتحه، أراد الترفق وهو يتودد إليها، لعلمه بمدى الارتباك الذي يسري في أوصال العروس، في هذه الليلة تحديداً، خاصة عندما تنفرد مع زوجها ويختلي بها .. وبالرغم من سابق خبرته في الزواج إلا أنه استشعر بقوة أنه يخوض التجربة لأول مرة، لأنها تعتمد كلياً على جوارحه، مشاعره، وما ضمنه الفؤاد، لا على ما فرضه العقل والمنطق.

قصف قلبه مع صوت صرير الباب وهو يفتح على مهلي، وتضاعف القصف عندما سمع صوتها الناعم يخاطبه:

-الأوضة فاضية لو حابب تغير هدومك.

ببطء يتخلله كل الشوق، التلهف، الرغبة، والاشتياق، استدار "تميم" ناحيتها ليتطلع إليها بنظراتٍ شمولية، تجولت على مهلي مستمتع، بدءاً من تفاصيل وجهها، وانتهاءً بمسح قوامها. كانت جميلة بثوب عرسها، وصارت أجمل وأشهى بالحرير الناصع الملامس لجسدها. خجلت من نظراته التي تطوف عليها مراراً وتكراراً، كأنما يمنح نفسه كل الفرصة للنظر إليها بلا مقاطعة، ولا ممانعة. توردت بشرتها بجمرة دافئة تأثراً بنظراته الشغوفة، وأخفضت رأسها في حياءٍ، استجمعت "فيروزة" جأشها لتحرك، وسارت

أمام ناظريه لتجاوزه وهي تقول في لعنة مرتبكة، كانت لذينة على مسامعه:

خذ راحتك جوا.

من فوره تحرك "تميم" ليعترض طريقها، فانتقلت للجانب المعاكس لتجاوزه، وهي تشعر بتسارع نبضاته، وجدته يستوقفها باعتراضها مرة أخرى، تشجعت لتنظر إليه بنظرة متسائلة، فجواب على سؤالها غير المنطوق يسألها بنبرة موحية:

-رايحة فين وسَيباني؟

تهربت من تلميحه المتواري، ورمشت بعينها قائلة:

عشان مضايقتكش.

تعقدت ملامحه متسائلاً في إنكار:

-تضايقتني؟

هَمَّت بتجاوزه، والهروب من محيطه؛ لكنه منعها من المرور، وامتدت قبضته لتمسك بكفيها الباردتين، ارتجفت مع لمسته الدافئة، ورفعت عينيها إليه، لتجده يرمقها بكل ما فيها من حنان، عمق من نظراته إليها، واستطرد يكلمها بأنفاس تضطرم عشقاً:

-إنتي مش عارفة أنا حلمت باللحظة دي كام مرة، وفضلت أستناها من
إمتي ...

لمعت حدقتها بدمعاتٍ خفيفة متسلسلة، تأثراً بجديته، خفق قلبها أكثر مع
اعترافه الصادق:

-ده أنا ما بطلتش دعاء، ولا حتى فقدت الأمل إن ربنا هيجمعنا في يوم.

أسبلت عينيها ناحيته، وسألته في غير شك:

-للمرجادي؟

قال بيقين كامل، ونظراته تزداد عمقاً:

-أيوه، ما أنا معرفتش أحب غيرك.

لدهشتها، شعرت بنفسها تبكي فرحةً خلال سماعها لوصلة اعترافاته، تلك
التي احتلت شغاف القلب، وتربعت في ثناياه، أمال رأسه ناحية شفيتها
المرتعشتين هامساً في هيامٍ واله:

-إنتي أول وآخر حب في حياتي.

اضطربت أنفاسها وهي تردد بصدرٍ شبه ناهج:

-وأنا ..

اقترب بشفتيه من خاصتها متسائلاً بأنفاسٍ أحرقتها لهيب الحب:

إنتي إيه؟

خففت من صوتها وهي تفتح قلبها لأول مرة معترفة له:
-أنا محبتش غيرك.

تلامست الشفاه في نعومة مغرية، فسرت عدة رعدات قاصفة، عاصفة،
مهيجة للمشاعر، لثمها "تميم"، ومنحها قبلة صغيرة، رقيقة، ممهدة لما هو آتٍ،
لتزداد رويدًا رويدًا في عمقها، مع استمراره في تذوق رحيق شفيتها
الشهيتين، أحست "فيروزة" يديه تجذبها في تمهلٍ إلى أحضانه،
استسلمت وهي تحت تأثير قبلاته الطاغية، مستشعرة باقتحام قوافلٍ من
البهجة إلى أعماق أعماقها، تستحث فيها كل ما هو كامن للانتفاض،
والاشتعال.

حرر "تميم" كفيها؛ لكنه حاوط خصرها بذراعيه، شعرت به يضمها،
ويلصقها ب صدره، فأرخت راحتيها على كتفيه، دون أن تتحرر الشفاه،
انسجما، وتناغما، وتناسا ما سواهما، بدا الانسحاب في تلك اللحظة أمرًا
مستحيلًا، تلاحمهما المفعم بالرغبة والشوق جعلهما يتمتعان بكل ثانية، كأنها
لحظة استثنائية لن تتكرر!

تراجع "تميم" لمسافة لا تقدر بعقلة إصبع ليلتقط أنفاسه، ودقات قلبه تثور كالبركان الهائج من شدتها، همس منادياً باسمها، كما لو كان يعزف مقطوعة فريدة:

- "فيروزة"!

عادت لتتنفس بعد أن توقفت للحظات عن الشعور بأي شيء سوى تيار المشاعر الجارفة الذي اجتاحتها، وأباد ما بها من دفاعات ظنت أنها ستصمد للأخير. ردت النداء بآخر تائه، مغري، يدعو للمزيد في طياته:

- "تميم"!

تكررت القبلية، ولم ينتقص الشغف، بل تنوع، وتعدد، وأصبح له صنوفاً في التعبير عنه، بالكاد جارته في عظم عشقه، وراحت ترجع رأسها للخلف وصدرها يلهث من فرط الحماس، أخذها "تميم" في حضنه، وأسند رأسها على كتفه، ليدور بيده صعوداً وهبوطاً على ظهرها في رفيق، تهدد ملياً، وأخبرها بحب ما زالت جمراته تتقد:

- ياه، أد إيه كان نفسي أخذك في حضني.

تلقائياً امتد ذراعاها خلف ظهره لتحاوطه، التصقت به مثلما التصق بها، حتى شعرت وكأنها ستذوب في أحضانه، أعطى "تميم" جبينها قبلة، وسألها في عتاب:

-وعايزاني أسيبك كده بالساهل؟

رفعت عينيها لتنظر إليه، وقبل أن تفكر في منحه الجواب، وجدته يرخي ذراعًا ليلفه حول ركبتيها، حملها في خفة، فشهقت لحركته المفاجأة، وسألته في دهشة حرجة:

-إنت بتعمل إيه؟

هتف معترضًا بابتسامة بشوشة:

-لا، أنا من حقي أشيلك.

ركلت بساقيها في الهواء، وتلوت بجسدها محاولة التحرر منه وهي تحتج في خجل:

-ماينفعش، نزلني لو سمحت.

مازحها بنفس الوجه المسترخي في تعايره:

-يا أبله أنا شيلتك وإنتي غميانة أكثر ما إنتي فايقة.

كتمت ضحكتها المرحّة، وعاتبته في دلالٍ أغراه:

-برضوه أبله؟ مزهقتش؟

سار حاملًا إياها نحو غرفتها قائلاً بنبرة ذات مغزى، وهذه النظرة اللعوب

تتراقص في حدقتيه:

-أزهق ؟ ده أنا لسه هاقول أحلى كلام ليكي.

واصل السير بها إلى أن مددها على الفراش، استلقت على ظهرها، وحاولت الاعتدال، قبل أن يغرقها بفيض مشاعره، قائلة بجدية، رغم رنة التردد المحسوسة في صوتها:

حطب .. "تميم"، أنا لازم أقولك على حاجة.

على ما يبدو لم يركز مع جديتها، والتفت حواسه بالتمتع بهذا الجمال المسجي أمامه، منحها ابتسامة نقية وهو يثني على ما وهبه الله لها من سمات تسلب العقول:

-هو في كده، ماشاء الله، ده أنا قاعد مع حورية من حوريات الجنة.

ضمت ركبتيها إلى صدرها، وطالعتة بنظرة جادة، وهي ترجوه:

-اسمعي بس.

استلقى إلى جوارها، وأمسك بكفها يداعب جلده بإبهامه، نظر إليها في وجد متعظم، واستطرد هامسًا:

-سيبك من أي حاجة تنكد علينا، الليلة ليلتنا.

سحبت يدها من راحته، واعتدلت جالسة لتخاطبه في جدية تامة:

-معلش، دي حاجة مهمة.

جلس مستقيماً هو الآخر، وأبدى استعداداً لسماعها، فقال:

-إيه يا حبيبة قلبي؟

أمسك التردد بلسانها وهي تستجمع كل شجاعتها لتخبره:

-أنا .. زمان لما حصلت حريقة الدكان ...

سكنت لحظياً، فأكمل جملتها بمزيدٍ من التوضيح؛ كأنما يساعدها على تفريغ ما يجوس في صدرها:

-بتاع عم "غريب"؛ أبو "هيثم" الله يرحمه.

هزت رأسها هاتفة:

-أيوه هو.

امتدت أصابعه لتداعب بشرة وجهها الرقيقة بجنو رقيق، فاقشعرت من لمسائه المغرية، تلك التي تبعث إشارات خفية لتأجيج الرغبة فيها، حاولت تجنبها قدر المستطاع، والتركيز على ما تريد قوله، سمجت نفساً عميقاً، لفظته دفعة واحدة، وحادثته:

-بص، أنا أصلي .. يعني مكوتش حابة افكر اللي حصل وقتها، لأنه كان مؤذي أوي ليا.

علق عليها في هدوء، وأصابعه تنخفض نحو كتفها لتمسح عليه في لين:

-كانت أيام وعدت، ماتفكيرش فيها.

-أبعدت يده برفقٍ عن كتفها، وقالت برأس مطأطأ في توجيس:

-المهم النار طالت جزء من جسمي، وعملت فيه زي آ.. تشوه.

-تجمد في مكانه لحظيًا ومصدومًا من الوصف الأخير لما أصاب جسدها رغمًا عنها، كانت لا تزال منخفضة لرأسها في قلبي مرعوب وهي تواصل كلامها إليه:

-أنا حبيت أقولك بده، عشان ما تتفاجئش، وتقرف مني.

-انتفض في استهجانٍ مستاء وهو يكرر في صيغة تساؤلية:

-أنا؟ أقرف منك؟ إنتي بتقولي إيه؟!!

-حاولت أن ترفع عينها لتتطلع إليه وهي تبرر له أسبابها:

-معلش، عشان آ..

-قاطعها قائلاً بصوتٍ حازم، حاسم، منهى لأي هواجس تدور في عقلها:

-إنتي أنقذتيني من الموت يا "فيروزة".

-هب ناهضًا من جوارها، وخلع قميصه عنه في حركة شبه منفعلة، فحملت فيه مدهوشة، وسألته بعضلات وجه متقلصة، إربد بها القلق الكبير أيضًا:

-إنت بتعمل إيه؟

استدار لتنظر إلى ظهره العاري، وأشار بيده الأخرى لموضع التشوه
المنتشر فيه مرددًا في صوتٍ شبه حاد:
-شايقة ده، لولاكي كان زماني مُت.

انفجرت شفتاها عن صدمة ذاهلة، وتبعته بنظراتٍ تائهة لم تفق بعد من
دهشتها وهو يحثو على ركبتيه أمامها، احتضن من جديد كفها، وأردف
يخبرها بصوتٍ شبه منغل:

-إنتي الملاك اللي ربنا بعته ليا يطلعني من وسط النار.
تاهت منها الكلمات، وارتعش قلبها وهو ما زال يأسرها باعتراقاته:
-كنت متأكد إني عارفك من زمان، بس معنديش حاجة ملموسة، لحد ما
لاقيتك مرتبطة برسمة الطاووس، ساعتها زاد يقيني إناك نفس البنت اللي
رمت نفسها في النار عشاني، ومن غير ما تعرفني، عشان تنجديني من
الموت.

جف حلقها، ولم يكف قلبها عن الخفقان، وصوته يعاتبها في رفي:
-تقومي تقولي الكلام البايخ ده؟
ارتجفت، وهي تهمس بآلم:
غصب عني .. سمعته زمان، وقهرني.

نهض جالسًا إلى جوارها على الفراش، ترك كفيها، واحتضن وجهها براحته،
قربها إليه لتشعر بجر أنفاسه عندما استطرد مزيدًا في اعترافه بعشقها:

-إنتي غالية أوي، وغلاوتك كل يوم بتزيد في قلبي.

ارتعشت شفتها منادية باسمه:

- "تميم".

قرب وجهها منه، وهتف مؤكدًا بصدق خالص:

-أنا بحبك.

همست من بين شفتيها باسمه، بطريقة ناعمة، جاذبة، مغرية، كأنما تقدم له
دعوة مفتوحة للتخليق في أفقٍ لظالم انتظره، وعاش وهمه في أحلامه
المحرمة:

- "تميم"!

كادت شفتاه تلتصقان بخصتها وهو يتابع وصلة اعترافه:

-أنا عرفت يعني إيه العشق معاك.

حركت وجهها لتلامس وجنتها صدغه، مرغتها فيه برفق، وكررت نداء
الإغراء الخفيض الناعم:

- "تميم"!

أغمض عينيه مستمتعًا بما يظفر به من درجات الإغراء والإغواء، ليردد في خفوت:

-إنتي عطية ربنا ليا.

انبعثت منها تأويمة مشبعة بدفءٍ لا قبل لها به، وهي ما زالت تناديه، بما دغدغ روحه، واستثارها:

- "تميم".

-واستحالة أفرط فيكي.

قال عبارته تلك وهو ينحني على شفيتها يقبلها بشراسة ورغبة، في حين امتدت يده الأخرى لتزيح عن كتفها رובהا برفق، فانكشت، وتصلبت، خشية إحساسه بالنفور منها، لم يمنحها الفرصة للفكاك منه، حاصرها بقربه المهلك، ضمها إليه، فكادت تذوي في أحضانه، وأغرقها بالمزيد من القبلات الجائعة، الباعثة على موجات من النشوة، والرغبة، فأخذها الدوار، تأوّهت في صوتٍ حاولت كتمه وهو يلامس بشفتيه منحني عنقها، لينخفض نحو موضع ندوبها، نادته بتنهيدة خافتة للغاية:

- "تميم"!

لم تعرف ما الذي ادخره الزمن لها وهي بين أحضانه، فما حُرمت منه قسرًا، نالته نصرًا، غابا معًا عن الوجود، وهاما في ملكوتٍ خاصٍ بهما، مرت

الدقائق عليها كأنها أزمنة وأزمنة، هفا إليها، والتف عشقا، إلى أن صار كل ما بها مستسلما له، تحرقت للامتلاء، وتلهف للارتواء .. عند المنتهى فاضت واستفاضت، وانكشف السر عنها.

نهض "تميم" عنها، واعتدل محققا في صدمة غير متوقعة، متأملا بشارة لم تأت في الحسبان أبداً، بعد أن تفجرت ينابيع العشق، وأعطت دلالاتها الحية، ليهتف في عدم تصديق:

-مش معقولة، إتي كنتي آ...

أكلت الجملة عنه، بوجه مشتعل من حمرة الخجل:

-بنت بنوت.

ظل على حالته المصدومة وهي تفسر له:

-دي الحاجة الثانية اللي كنت عازة أقولها لك.

تهللت أساريه وابتهجت على الأخير، بل كاد يقفز من فرط سعادته وهو يتساءل في نفس الصوت المذهول، ويده تمر على أعلى رأسه:

-يعني أنا أول حد؟

تطلعت إليه بجياء وهي تشد الغطاء على جسدها تغطيه؛ لكنه دنا منها معاودا الجلوس ملتصقا بها وهو يخبرها بغموض:

-دلوقتي أنا فهمت.

نظرت بتحير وهي تسأله:

فهمت إيه؟

أخذها في حضنه، وشد من ضمه إلى جسده، ليحتويها، ثم قال مبتسمًا
في نشوة عارمة:

-كلام الدكتور، والتوصيات الغريبة.

رمقته بنظرة مطولة جمعت بين الخجل من اعترافها والثقة في تقديره، عضت
على شفثها السفلى، وهمست بتحرّج:

محدث يعرف بالحكاية دي غيرها، حتى ماما معندهاش خبر.

رفعها بقبضتيه في خفة ليجلسها في حجره، ولفها كليًا بذراعيه، كأنما يحميها، ثم
مال على أذنها يداعب طرفه بهمسسه المشتعل:

- "فيروزة"!

لم تبعد نظراتها المليئة بالحب وهي تقول:

-نعم.

أحنى رأسه عليها، يريد نيل عشرات القبلات من العسل المصفى الموجود
على شفثها، بدت أشهى وأغوى وهي بين أحضانه، وألذ وأطيب وهي

تمنحه أكثر مما تمنى في أقصى أحلامه، توغل "تميم" بنظراته الساهمة في عمق
لؤلؤتها الساحرتين، وهو يدنو بهوادة مهلكة للأعصاب منها، لفح لهيب
أنفاسه بشرتها الساخنة، وهياها للمزيد من نوبات الحب العاصف وهو
ينطق هامسًا:

إمتي قلبي، من غيرك أنا ميت !!

.....

الفصل المائة وخمسة وسبعون

لم يكف، ولم يكتف بعد منها، أرادها بشدة، ورغبتها فيه صارت أشد، تلاحت الأجساد، وتعانقت في تناغم عجيب، كأنما يعزفان مقطوعة موسيقية في انسجام واضح، قد استطاعت التوليف بين قلبيهما. حلقا، وغردا، وارتفعا، وتفردا في أفقهما الحالم .. بهذا السمو نالت الحب، وبهذا العلو ظفر بكامل الود.

ظلت "فيروزة" يقظة رغم استغراق زوجها في النوم، لم تستطع استدعاء سلطانه مثله، فعقلها لا يزال مشحونًا، بما اختبرته في الساعات الماضية، من تجربة حميمة وحسية، أعادت إليها كامل ثقتها في نفسها كأنثى، وحولتها في طياتها إلى امرأة مفعمة بالرغبة. أدارت رأسها في اتجاه "تميم" الذي كان نائمًا

على جانبه وفي اتجاهها، كما لو أنه يريد أن تكون أول ما تبصره عيناه حين يستيقظ، أما ذراعه فكانت ملقاة عليها، لتضمن بقائها في أحضانه، وملتصقة به. تطلعت إليه عن كثب بأريحية واضحة، ودون خجل، تأملت ملامحه عند هذا القرب المغربي، كان وسيماً للحد الذي يجعلها تظل محدقة فيه دون أدنى شعورٍ بالملل.

جال بخاطرها مشهداً ما يزال حيّاً في مخيلتها، حين تطلعت إليه قبل عقد قرانها ببدلته السوداء، وملامحه المبتسمة؛ كان أنيقاً، منمّقاً، مُخالفًا للشكل التقليدي الذي كان عليه في عرسه السابق، بدا معها أكثر حبّاً، حيوية، وانتشاءً. ذقنه كانت نابته، لم يحلقها بشكلٍ كامل، على عكس خصلات شعره التي قصّرت كثيراً. ما أدهشها حقّاً هو امتلاكه لنفس الندوب، كأنما تشاركاً خفيةً في أمر اعتبره دليلاً على شجاعة باسلة، ورمزاً يدعو للافتخار لا الخجل.

لن تنكر أنها استلذت بإحساس قبلاته الدافئة على ندوبها، بدت وكأنها تمحو ما ظنت أنه لن يمحى. تشاءبت في كسلٍ، وبالهدوء ذاته الذي بقيت عليه لبعض الوقت، أزاحت ذراعه عنها، ثم نهضت بتريثٍ من طرفها بالفراش، تريد الاغتسال. تحركت تجاه تسريحة المرأة، نظرت إلى الحلي المتناثرة على السطح الزجاجي، رتبها بشكلٍ منمق في علبة القطيفة، وذاكرتها

تتنشط بموقف جدالهما معاً لإصراره على ارتداء شبكتها في الحفل، وقتئذ عارضته في منزلها بعنادٍ غريب:

-أنا قولتلك مش هلبسها، مالهش لازمة.

تحفز "تميم" في جلسته على الأريكة، وسألها بضيقٍ ظاهر في صوته:

ليه بس؟ ده احنا مصدقنا نظبط حكاية الكوافير والقاعة، هنيجي على دي كمان ونعقدها؟

-ده كان اتفقنا من الأول إني هحفظ بيها كأمانة، والمفروض أردھا، وده وقته.

سكت للحظاتٍ كأنما يبحث عن الكلمات المناسبة لإقناعها، رفع مرة ثانية نظره إليها، وقال بعد زفيرٍ سريع:

-ماشى، جه وقته، بس أنا عاوزك تردھالى فى بيتنا، بعد الفرح.

أراحت ظهرها للخلف، وعلقت بجانبٍ مرفوعٍ للأعلى، كما لو كانت تريد إغاضته:

-خلاص هسيبھا هناك قبلھا.

تحلى بالصبر، وتزين بفضائله وهو يصر عليها بلطفٍ يشوبه الهدوء:

-وتزعلي أمك، وأمي؟

تجهمت تعابيرها قليلاً، فواصل الضغط عليها بنفس الأسلوب المستعطف لقلبيها:

-بلاش دول، جدي الراجل الكبير الي متعشم يشوفك لبساها؟

مطت شفتيها في تبرم، فسألها بتهذيب، وهو يرمقها بنظرة عطوفة:

-يرضيكي تكسري بخاطر الناس دي كلها؟

لانت قسماتها العابسة، فابتسم في عذوبة وهو يرجوها:

-ده جبر الخواطر على الله، خدي فينا ثواب، اتفقنا.

تهدت على مهل، وتكلمت أخيراً:

حاضر.

مع قبولها غير المشروط انفرجت أساريره، وضحكت عيناه وهو يمازحها:

-شوفتي لما بتقولي حاضر وشك بينور إزاي.

زوت ما بين حاجبيها مرددة في جدية:

-ده بجد؟

استمر في التغزل بها -وأيضاً بنظراته الدافئة- قائلاً:

طبعاً، وبتبقي وإنتي مكشرة أحلى من القمر.

أفاقت من الذكرى على واقع أكثر حلاوة، التفت ناظرة إلى "تميم" بعينين
تعشقان النظر إليه، هممت مع نفسها متسائلة، وهي لا تعرف أنها تبتسم:

معرفش إنت إزاي بتخليني اعمل كل اللي إنت عاوزه بالسهولة دي؟

عادت لتنظر إلى سوار الجد "سلطان"، وضعت في مكانه بالعبة إلى جوار
البقية، ثم أغلقها برفق، وبدأت بالسير على أطراف أصابعها في اتجاه الحمام.

.....

لم يؤذن بعد لصلاة الفجر، وهي كانت ما تزال بداخل حمام بيتها الجديد،
تنعم بالماء الدافئ، أحست "فيروزة" بارتخاء عضلاتها، بإزاحة التوتر عن
كامل جسدها المتعب من عناء يومها الطويل، انتهت على مهل من
الاستحمام، وراحت تلف جسدها بالمنشفة العريضة، تذكرت أنها نسيت
إحضار ما ترتديه بالداخل، فهسهست في حرج منزع:

إيه الغباء ده؟ مش كنت أخذ بالي!

استخدمت المشط الموضوع في أحد أدراج مرآة الحمام، لتمشط شعرها
المبتل وتعقده كعكة قبل أن تضع منشفة أخرى جافة عليه، انتفضت
بارتعاشة مباغته حين سمعت دقات خفيفة على الباب، تحشر صوتها وهي
تردد:

أيوه.

جاءها صوت "تميم" متسائلاً:

خلصتي يا حبيبتي.

ردت بنفس الإيجاز الحرج، وهي تشعر بانبعاث الحرارة إلى وجنتيها:

أيوه، طالعة أهوو.

وضعت يديها على خديها تتحسسهما، فشعرت باشتعالٍ متزايد عليهما،

خاطبت نفسها في خجلٍ شديد:

هايقول عليا إيه لما يلاقي وشي زي الطماطم.

تنفست بعمق لتثبط من تصاعد خفقات قلبها، وراحت تكرر على نفسها:

هتكسفي من إيه، ده جوزك.

استقامت في وقفها، وانتصبت بكتفها لتبدو كما دعاها مؤخراً، طاووسه

المختال، مع فارق أنها متلفحة بالمناشف القطنية البيضاء. تحركت نحو الباب

لتفتحه، فألفته منتظراً عند عتبه، ما كان بها من اعتداد بالنفس تطاير مع

نظراته الهائمة عليها، سرعان ما تهدل كتفها، وانكشيت بشكلٍ أوحى

بارتباكها الخجل، عندما رآته عاري الصدر أمامها، هي لم تعتد بعد على

هيئته تلك، حاولت التحرك لتجاوزه؛ لكنه اعترض طريقها بمط ذراعه،

وإسناده على إطار الباب، كأنما يفسد محاولتها للتملص منه. تراجعت خطوة

خجولة للخلف، وتحاشت لهنية النظر إليه أو حتى الكلام معه، مستشعرة
بداخلها أنه يضعها تحت مجهر عينيه، يُمتعها بكل ما فيها من تفاصيل
مشوقة وشهية.

أطال في صمته، وزاد من تأمله العميق لها، مما دفعها للتصرف، واستعادة
جأشها الهارب، تشجعت للنظر ناحيته، رغم ما يتقد بمواطن أنوثتها من
جمرات اشتعلت جذوتها مع نظراته القوية. رمشت بعينها تستأذنه بصوتٍ
خرج من بين شفيتها مهتراً:
-ممكن أعدي.

تقدم بتؤدة خطوة ناحيتها، ودون أن يرخي ذراعه
-أنا ملحقش أشبع منك.

حاولت الثبات في موضعها، مقاومة تيارات المشاعر المتدفقة في دماها، كأنما
أرضها الخصبّة تتعطش للارتواء من جديد بفيض أنهاره العذبة، خرجت
نبرتها ترجوه:

- "تميم"، لو سمحت.

أخفض ذراعه، ودنا منها، محاولاً تلمس جلدها المبتل، وصوته قد صار
خفيضاً مؤثراً عليها:

هقولك بس كلمة.

لم تخمد حركة جسدها مع لمساته التي تدفع بالمزيد من التيارات الشعورية في كامل خلاياها؛ كأنما تستحثها على الانتفاض من سباتها الواهي، أبعدت نظراتها الكاشفة لأمرها عن مرمى عينيه، بدت كما لو كانت تتوسله وهي تحاول المرور من جواره:

خليني أعدي.

أعاق سيرها، وتحرك ناحيتها في نفس التوقيت لتجد نفسها قد التصقت بصدرة العاري، ومرمية في أحضانه، شهقت بأنين خفيض، ورفعت رأسها لتتظر إليه، وكفاها يستندان على عضلاته، وجدته يطالعها بحبٍ عميق قبل أن يهمس قائلاً بنبرة راجية رغم كونها آمرة:

هتسمعيني الأول.

أحست بجفافٍ غريب يحتاج حلقتها، بلعت ريقًا غير موجود بجوفها، ورددت في طاعةٍ غريبة وهي تسحب يديها:

طيب.

مرر يده أعلى شعره القصير، واستطرد موضحًا ببسمة متأنقة في سحرها:

-شوفي، أنا كنت مستعجل شويتين، وماصبرتش لحد ما أصلي معاكي
ركعتين نبدأ بيهم حياتنا.

نظرت إليه في غرابة، فأكل بنفس الوجه المبتسم:

-فمحتاج منك كده مساعدة بسيطة عشان أعتسل واتوضى.

حلت الحيرة على ملامحها وهي تسأله:

-مساعدة إيه دي؟

أشار بيده نحو الفراغ مجاوبًا إياها:

-توريني مكان الحاجة..

تسمرت في مكانها، والتفتت برأسها لتشير نحو الأدراج الموجودة في زاوية

الحمام وهي تخبره بعفوية:

ما إنت عندك هنا الفوط، وهنا الـ...آ...

حين استدارت بوجهها لتنظر إليه، وتتم جملتها للنهاية، وجدته ينحني عليها

برأسه، ليطلع قبلة عميقة على شفثيها، توقفت لحظيًا عن التنفس، ولفها

دوار سريع، نقلها إلى مواضع السمو في علاقتها معه، احتضن صفحة وجهها

براحتيه، لتشعر بمذاق الشهد يتسرب إليها، تراجع "تميم" بعد لحظات

معدودات عن شفيتها -ودون أن يحرق وجهها المحاصر بقبضتيه- ليهمس
بأنفاس مشبعة بلهيب العشق:
بجبك.

.....

قيل شروق الشمس، بوجه مغبر، وقسمات غلفها السواد، عاد إلى منزله
مجرّجاً قدميه، ومصحوباً بدعوات مستهلكة على أذنيه، تدعو له بالعوض،
والصبر على فيجته العظيمة. فتح "فضل" الباب، ووطأ بيته يلقي
باللعنات، وهو يتحسر على ما أنفق من مال ذهب سداء في ملح البصر-
ألقي شاله المحاوط بعنقه أرضاً، وارتمى على المصطبة يضرب كفّاً بالآخر وهو
يبرطم بعبارات مبهمة. اقتربت منه "سعاد" ترمقه بتلك النظرة الشامته قبل
أن تخاطبه بتقاسيم منقلبة:

شوفت ربنا عمك فيك إيه؟

هدر بها في عصبية بما اختلج صدره من غضب مكبوت، وصورة احتراق
الحقل عن بكرة أبيه تصدح في فضاء عقله:

-كفاية تعتيت في جتتي يامه، أنا مش ناقص حرقه دم بزيادة، وخليني
أشوف النصيبة اللي حلت على نافوخي.

احتقن صوت أكثر وهو يضيف:

ده خراب مستعجل!

بدت والدته غير متأثرة بحالة الهياج المستبدة به، لوحت بكفيها أمام وجهه
تنذره بقساوة:

-يا كاش تتعظ، وترجع الحقوق لأصحابها، بدل ما إنت واكلها.

هَبْ واقفا ليصرخ في وجهها بعنف:

-في إيه يامه؟ ارحمني شوية!

ارتدت خطوة للخلف على إثر صوته القوي، لتتأى بنفسها عن بطشه يده
الوشيك، وواصلت تقريعه بغير أكراث:

-دي لسه البداية، كفاية أبوك مات بحسرتة، وقلبي غضبان عليك.

هاجت أعصابه، وانقلت زمامها ليصبح مهدداً في غليل ما زال يشتعل فيه:

-بقولك إيه، يا تسكتي، يا تروحي تشوفي وراكي إيه.

شهقت "سعاد" في استنكارٍ عظيم، قبل أن تلطم على صدرها وهي تنهز:

-هتمد إيدك عليا؟ ما هو ده اللي ناقص يا ابن بطني.

كور "فضل" قبضته، وضرب بعنف على الحائط، ليبتعد عن محيطها هادراً
في احتياج مخيف:

-يووه، كفاية بقي، ارحمني، وسبيني في البلوة اللي أنا فيها.
نظرت إليه بغير أسف، ودمدمت في ملامح مقهورة ممتعة:
أنا ماشية من وشك.

شيعها بنظراته النارية إلى أن غابت عن محط أنظاره، فأخذ يدور في
موضعه جيئةً وذهابًا، واضعًا يده أعلى رأسه الذي أوشك على الانفجار،
ضغط على الأتون المشتعل بداخله، وراح يسأل نفسه في تحيرٍ بائس:
حطب العمل إيه؟ ده كله راح في غمضة عين!
كز على أسنانه في غضبٍ مغتاز وهو يتابع بوعيد:
أه لو أعرف واد المحروق اللي عمل في أرضي كده!
اشتاط على الأخير، وهو ما زال يتوعده بعقابٍ شديد في شراسته:
ده أنا هكله بسناني، ومش هيكفيني عمره كله قصاد الأرض اللي ولعت.
أطاح في غمرة عصبيته ببعض منقولات المنزل، غير عابئٍ بإفساد ترتيب
مظهره العام، ووسط تلك الانفعالات الثائرة، برق عقله بفكرة شيطانية،
سرعان ما سطعت تفاصيلها كالداهية، لتستحثه على تنفيذها في التو، حط
غضبه الهائج إلى حدٍ ما، وهدأ نسبيًا، توحشت نظراته، وقد تكلم مع نفسه
مبررًا ما سيقدم على فعله:

مافيش إلا كده، ما هو كله من فلوس أبويا، وفلوسه بقت حقي دلوقتي.

.....

بالكاد كانت تستعد للاستلقاء قليلاً على سريرها بعد سهرٍ طويلةٍ لم تتذوق فيها طعم النوم، حين اقتحم غرفتها باندفاعٍ غير مسبوق، احتدت نظرات "سعاد" نحو ابنها، واعتدلت في رقتها تعنفه بغيظ:

جاي ورايا ليه؟

تقدم نحو فراشها بكل عنفوانه، وسألها في نبرة خشنة للغاية:

فين يامه الشكجية بتاعة الذهب؟

اتسعت عيناها في توجيسٍ ذاهل، وسألته بقلبٍ يدق في جزع:

عاوزها ليه؟

جاوبها في نبرة تُقرر لا تُخير:

محتاج أبيع الذهب اللي فيها، عشان أفك بيه زقتي، وأعوض الخسارة اللي قسمت وسطي.

نهضت من طرف سريرها تحتج عليه بحنق:

ده مالي وحالي، هتاخده غصب عني؟

نظر لها ببرودٍ قبل أن يخبرها بصفاقة:

مضطر، والمضطر يركب الصعب.

لم ينتظر تعليقها، واتجه نحو دولاب ثيابها قائلاً:

إمتي شايلاه أكيد هنا.

حاولت اعتراض طريقه، وإيقافه قبل أن يصل إليه، فتعلقت بذراعه، وبذلت جهداً لمنعه من المساس بأشيائها؛ لكن قوة أطماعه جعلته يزيحها بعيداً عنه، ويفتح الضلفة الخاصة بها، ليفتش بعثية بين الرفوف، إلى أن وجد صندوق مجوهراتها العتيق، انتشله من موضعه بالأسفل، ففزع قلب "سعاد"، صرخت به بتوسل:

ابعد عن حاجتي يا "فضل"، ده أنا عيناه لإخواتك بعد ما أموت.

حاوطه بذراعه في قوة، لئلا تختطفه منه، واستدار يصرخ في وجهه بغيطٍ شديد:

كل حاجة إخواني، إيه؟ ما بكفاية بقى!!!

فشلت والدته في استعادة ما يخصها، ونظرت إليه بنظرة العاجز المغلوب على أمره، لتهتف بعدها في استياءٍ عارم:

إنت السواد اللي جواك عامي قلبك، ومخليك جاحد على أقرب الناس
ليك.

لم يعبأ بها، وأولاها ظهره لينظر إلى وهج الذهب المغربي الموجود بداخل
الصندوق بعد فتحه، بعينين تتراقص فيها شياطين الأنس، استغلت
"سعاد" لحظة التهاة عنها، لتدور حوله، وتمسكت بقبضتين من حديد
بصندوقها؛ لكنه -للقاحة- زاد بأساً على بأس، ودفعها بعنف حتى كاد
يسقطها على ظهرها، وهو يهدر في صوتٍ جهوري غاضب:
-حاسبي إيدك، ده حقي.

تماسكت قبل أن تفقد اتزانها، وتحدث طمعه بإصرارها العنيد:
-سيب دهي.

في التو أغلق الصندوق، ولفه أسفل ذراعه قائلاً بترميت:
-لا، هاخده ...

لمح ما يتدلى على صدرها من سلسلة عريضة، كانت مختبئة خلف حجابها
الطويل، دون تفكيرٍ اختطفها عنوة، وهو يخبرها بتوحش:
-وهاي دي كمان.

شهقت لتجرؤه عليها، ناهيك عن سرقة الوقة لما تملك، وهتفت في حرقه:

حرام عليك، ده إنت ناقص ترميني في الشارع عشان طمعك وجشعك.
ضم السلسلة إلى ما معه قائلًا بفجاجة:

-كفاية الإسطوانات الفارغة دي، مسيري هرجعهملك لما تُفرج معايا.
تهكمت على كلامه المستفز:

هتُفرج إزاي معاك وإنت عليك غضب ربنا؟!!

نظر لها شزراً قبل أن يعلق في أسلوبٍ فجٍ مثير للاشمئزاز:

-كل الغارة دي عشان كام حته ذهب خدتهم؟ قولتك هردهم، في إيه؟ ده
بدل ما تدعيلي؟!!

احمر وجهها على آخره، وامتلات عيناها بالدموع المقهورة وهي تتطلع إليه،
جلست في وهنٍ على طرف فراشها تصرخ فيه بألم وانكسار:
منك لله يا "فضل"، ربنا يسلط عليك عباده.

سد لها نظرة قاسية ساخطة، ليرد بعدها في قنوط:

يا ساتر، يامه بقولك الضرورات تبيح المحظورات، تقومي تدعي عليا؟
تحرك قبالة باب الغرفة متابعًا كلامه بجحودٍ كبير:
-الظاهر مخك تعب من بعد موت أبويا، ارتاحي أحسن.

سمعت ترهاته الفجة، ودمدمت في حرقه أشد، وهي ترفع كفيها إلى السماء:
حسبي الله ونعم الوكيل فيك، ربنا يخلص منك.

.....

رمت شعرها بلا عناية خلف ظهرها -شبه العاري- بعد أن قامت بتجفيف
خصلاته؛ لكن بقيت آثار حمائمها ظاهرة على بشرتها المنتعشة، ركزت
"فيروزة" كل أنظارها على انعكاس وجه زوجها في خلفية مرآتها، كان "تميم"
قد ارتدى تيشرتًا بدلاً من إبقاء نصفه العلوي مجردًا من الثياب، أراحها
تصرفه المهتم، إلى أن تعتاد على وجوده الذكوري في محيطها، وجدته يبادلها
نفس النظرات المفتونة، كأنه يراها للمرة الأولى، لذا لم تخل من تغطية
ندوبها، وتركت رובהا النبيذي -المائل لقميصها الحريري ذي الحملات الرفيعة
الذي ترتديه- موضوعًا على طرف الفراش. ابتسمت في دلالٍ من مقعدها،
وسألته وهي تضع مسحة من أحمر الشفاه على حبتي الكرز:

-بتبصلي كده ليه؟

تمنق في رده البليغ عليها:

-بجلي عيني من القمر اللي معايا.

توردت أكثر، ودبت في بشرتها الكثير من مظاهر الحيوية والحماس،
حاولت التغاضي عما يعتريها الآن من مشاعر مرهقة تعشق هذا النوع من
التودد اللطيف، وسألته وهي تمنع النظر فيما تحتويه قبضته:
معاك إيه؟

تقدم ناحيتها قائلاً وهو يظهر ما تخفيه راحته إليها:
تفاح.

حاوطها من الخلف، فتقلص جسدها مع ضمته التي جذبتها، احتوتها،
وأذابتها، بضعة لحظاتٍ وكانت حرارة جسده تغمرها، فبث إحساس الدفء
فيها، سرعان ما تحولت رجفتها إلى وخزات لذيذة تستثيرها حين همس
بالقرب من شحمة أذنها:
جايه للتفاح.

اقشعرت بتلاذ مع حر أنفاسه، وبدأت في الدوبان أكثر بين حصار ذراعيه،
خاصة وهو يدفن رأسه في منحنى عنقها ليمطرها بالمزيد من القبلات
الشغوفة، التواقة دومًا إليها. سحبها لتنهض وهي بين أحضانه، وأدارها كليًا
لتنظر إلى عينيه وهما تصرحان بحبه، زادت من دلالتها عليه، ورفعت
ذراعيها لتطوق عنقه، ثم ابتسمت قائلة في غنج:
ده إنت مقطعه بنفسك.

أبقى "تميم" ذراعًا حول خصرها، واستخدم يده الأخرى في وضع قطعة من
ثمرة التفاح بين شفثيها قائلاً:
-وهاكلك كمان.

قطمتها بتؤدة، وقالت وهي تلوّكها في مرج:
-إيه الدلع ده كله؟

انفجرت شفثاها عن شهقة خافتة، وقد شدد من جذبها إليه لتشعر بسطوة
قبضته القوية على ظهرها، لامس ثغره زاوية فمها وهو يخبرها بصوتٍ بات
أقرب للهمس:
-ولسه في كتير.

تأوهت معترفة له وهي على وشك الغرق في دوامات غرامه العاصف:
-أنا معرفش إنت خلتنى أحبك إزاي.
جاءه جوابه هامساً، مليئاً بالإغواء:
عشان أنا أستاهل اتحب ...

غابت في لحظة من التيه وهو يمنحها كل الحب الذي تستحقه، سألها
بخفوتٍ وهي تذوب بين ذراعيه من فرط الشوق والتحرُّق للانتشاء:
-صح؟

بالكاد سمع نبرتها من بين تهديداتها وهي تجيبه:

-أيوه، إنت مافيش زيك.

غاصا معًا للحظاتٍ حميمة امتدت لدقائقٍ معدودة فيما يشبه نوبة مفاجئة متخمة بطوفانٍ من المشاعر المحمومة، فأشعلت التوق، وأوجدت الوجد، وروت الظمًا. استكانت على الفراش، مستلقية على ظهرها، وذراعه من أسفلها تقربها إليه، مسدت يديها على صدره في رفيق، واستطردت قائلة في ترددٍ:

-كان عندي ليك سؤال.

نظر إليها من موضعه متسائلًا باهتمام:

-ليه هو؟

همّت بالاعتدال من تمددخا؛ لكنه أعادها إلى استلقائها قائلاً بعبثية:

-تعال في حضني شوية.

منحته تلك النظرة الشقية وهي تسأله:

-ماشبعتش؟

أجاب ويده تجوب على منحنياتها في حنو:

-لا.

حركت كفها لتضعه على يده، فتوقف حركته المدغدة لجسدها، ثم تهتدت
متسائلة بعد هنيهة من ترتيب الأفكار التي تدور في رأسها:

-اشمعي صمت نعيش هنا؟ في البيت ده عن غيره؟ وخصوصًا إنه في نفس
المكان اللي اتجوزت فيه قبل كده.

أصر على بقاء عينيه عليها وهو يخاطبها:

-تصدقيني لو قولتلك إني حاسس إني لأول مرة بتجوز.

نطقت دون تفكير، وعيناها تؤكدان ذلك أيضًا:

-مصدقاك.

قرب شفتيه من جبينها، وقبله مليًا قبل أن يقول:

-وده عندي كفاية.

لحظات من الصمت الهادئ سادت بينها إلى أن قطعت مكررة عليه
سؤالها:

-بس مجاوبتنيش ليه هنا بالذات؟

قال بلمحة شبه حزينة رغم ابتسامته:

-عشان البيت ده ليه مكانة عزيزة وغالية عندي أوي.

تحمست للإصغاء إلى باقي حديثه، وانعكس ذلك على تعبيرات وجهها، ونظراتها نحوه. تنفس "تميم" بعمق، ثم تابع:

ده بيت جدي "سلطان"، اللي اتجوز فيه ستي، وعاش معاها لحد ما ماتت، مقدرش بعدها يقعد فيه ...

خفق غصة طافت في حلقه، وأضاف بريق لامع في عينه جراء دموعه المتسللة:

عز عليه يدخل مكان هي مش فيه.

بدت متأثرة بما قال، والتمت عينها كذلك بعبرات خفيفة، طردتها بعدة رفرفات متواترة من جفניה، لتتساءل في جدية:

للدرجادي كان يبحبها؟

أكد عليها مبتسمًا:

أيوه، زي ما أنا بحبك بالضبط، ويمكن أكثر مني، ما أنا مش عارف بصراحة، لأن معشتش الحب في زمانهم.

ما كان منها إلا أن قالت في لطف:

الله يرحمها، ويديله الصحة.

تهده معقبًا وهو يحمل في سقفة الغرفة:

يا رب.

استغرقه الأمر لحظةً ليستأنف الكلام بصوته الهادئ:

-زمان بقي كانت الناس بتأجر بيوت، بإيجار رمزي، محدش يشتري، لأن الحال على الأد، وصاحب الملك لما مات ولاده حبوا يبيعوا العمارة باللي فيها، أنا اشتريت البيت ده، واحتفظت بيه، ولما ربنا كرمني خدت الشقة الثانية، على أساس أفتحهم على بعض، بس حصل ظروف حبسي-، وخرجت من السجن على جوازي بـ "خلود"، وملحقتش أعمل حاجة من اللي خططتلها في خيالي.

المجيء على ذكر سيرة ابنة خالته جعلها تشعر بالغيرة، وبالانزعاج، رغم أنها توفت إلا أن ذلك الإحساس بقي متحفزاً في داخلها. انتهت إليه وهو يواصل حديثه إليها:

-وسبحان الله زي ما يكون ربنا مقدر إني أعيش في البيت ده معاكي. على ما يبدو تركز تفكيرها حول "خلود"، وطبيعة علاقته بها رغم كونها معقدة في بعض التفاصيل التي ليست على علم كامل بها، تصلبت قليلاً وهي تستجمع نفسها لتسأله:

حييت مراتك الأولى؟

شعر بتصلبها وهو يحاوطها بذراعه، استل يده من أسفل قبضتها الموضوعة فوقه، ليعاود الطوف على جانب جسدها بجنو رقيق، قبل أن يبادر بالقول:

-الله يرحمها، هي كانت بتحبي، وأنا بحكم القرابة والعشرة احترامتها، واتمّنت لما انفصلنا تراعي اللي كان بينا ...

لم يرغب في إضافة المزيد، فاستدار مستلقيًا على جانبه ليواجه "فيروزة"، حملق فيها بعمق وهو يسألها في فضولٍ طفيف:
هي عند ربنا دلوقتي، بس إيه اللي فكرك بيها؟
نظرت إليه في قليلٍ من الضيق، وقالت بتهرب:
عادي يعني.

انتقلت ذراعه الأخرى لجانبها، فشكّل طوقًا حولها، ثم رفع رأسه قليلًا مخاطبًا إياها:

- "فيروزة" عاوزك تتأكدي إنك اللي في القلب وبس.
ردت عليه في دلالٍ تشوبه لمحة من العنجهية:
ما هو واضح، ده إنت طلع عينك عشان تتجوزني.
قابل ذلك بضحكة مرحة وهو يؤكد عليها:

مقدرش أنكر، وإنتي تستاهلي كل التعب.

أعقب ذلك جذبة قوية لخصرها، جعلتها ملتصقة بكفيها في صدره، تلوت
ببدنها محاولة الخلاص من قيده المحكم وهي ترجوه:

- "تميم"، لو سمحت.

ضحك في استمتاع وهو يرى مقاومتها الواهية بالمقارنة مع قوته، جاهدت
لدفعه من صدره، وخلق مسافة بينهما وهي تتذمر من فشلها في إبعاده:

-إنت هتعمل زي ما كنا بنتصور، مصدقت تلزق فيا.

قال بتفاخر، وهذه الابتسامة المغترّة تنير ثغره:

-كله بالحلال يا أبله، قبل كده مكوتتش أقدر.

تصنعت الجدية، وزادت من مقاومتها له مرددة:

حطب حاسب شوية يا معلم.

كأنها استشارت غيظه بجملته تلك، فعَمِدَ إلى معاقبتها بأسلوبه الخاص جدّا،
منحها نظرة غامضة أربكتها مرددًا:

معلم، وأحاسب ..

تأوّهت بغتة عندما سحبها أسفله، ليطبق عليها بكه وهو يكلمها بنبرة عبثية:

-لأ تعاليلي شوية، ده أنا دوخت السبع دوخات عشان أوصل للحظة دي.
عرفت "فيروزة" هذه النظرة العابثة المطلة من عينيه، تلك التي تلتهمها،
وثُعيد تشكيلها بطريقة لا تعرف كيف تصبح فيها هائمة بفلكه الفسيح،
حاولت الفرار من تهديده المغري، فقالت بلجلجة ترجوه:
-استنى بس.

رمقها من عليائه قائلاً بنبرة لاهية أوحى بالكثير والكثير:
-ده أنا ورايا توريد لازم أراجعه صنف صنف معاكى ...
كركرت ضاحكة في ميوعة، واجتهدت لتنسل من تحته، لكنه بدد مقاومتها
الدؤوبة بقبلاته الشغوفة، كان قادراً على استخراج كافة مشاعرها المكبوتة،
بنظرة عميقة من عينيه، بكلمة رقيقة من بين شفثيه، بمداعبة خبيرة من
أصابع يديه، أتاها أول علامات ذوبانها الكلي مع ترديده المبطن بسحر
البسيط من عباراته:

-وهبدأ بالتفاح الأحمر !!

.....

الفصل المائة وستة وسبعون

بدأ عبق الحب يفوح حقًا، ويملاً قلبه الهائم في رحاب هواها، منذ اللحظة الأولى التي نطقت فيها بأنها تعشقه، ورغم صدمته المسرورة للغاية من اعترافها الزق بوقوعها في حبه، إلا أنه لم يتمكن من التعبير عن مدى فرحته العارمة بحقيقة إحساسها ناحيته إلا بصورة حسية، ملموسة، تترسخ في الوجدان، وتجعل الصخر يزوي أمام فيضانات المشاعر المتدفقة، كأنما حطت غيمات سحب محبوس عذب مائها على صحراء قاحلة اشتاقت منذ أدهر لما يروي عطشها.

لكن المفاجأة التي غطت على كل شيء، وجعلته لوهلة عاجزًا عن التفكير أو الاستيعاب هو اكتشافه لمسألة عذريتها، كيف يمكن أن تبقى هكذا بدون مسايس؟ ألم تعش لأشهر مع زوجها تحت سقف واحد؟ أم تراه كان زاهدًا فيها؟ وكيف يزهد مثله بالظفر بمحاسن زواجه منها وهو على يقين كامل برغبته فيها؟ هناك سر خطير بالأمر، سر لا يعلم تفاصيله بعد، ربما كان السبب في انهيارها، في دفعها لحافة السقوط، في إغراقها وسط دوامات الألم والتعاسة، وبُغض الحياة، قبل أن تستعيد نفسها.

في أعماقه كان يشعر بالرضا الكبير، بالسرور العظيم، وبعوض المولى له، ومع ذلك لم يتجرأ وقتئذ على سؤالها، ليس خشية من المواجهة، أو الشك في أمرها، وإنما لطمعه في أن يحظى بكامل ثقتها، قبل أن تتطور علاقتهما المستجدة لما هو أعمق وأقوى، لذا عليه أن يصبر لبعض الوقت، وينتظر بلا تعجل، فيتخذ مكانه بدلاً من طبيبتها التي ناحت، وباحت، وراحت تحكي لها عن كامل أسرارها.

شعر بها وهي تتقلب على جانبها، بالكاد غشيته النوم بعد غفلته العميقة قبل حمامها الدافئ. على قدر المستطاع حافظ "تميم" على انتظام أنفاسه، ليبدو نائمًا وهي تتحرك بأريحيتها على الفراش، لئلا تشعر بالخجل، وتبتعد عنه، بعد أن تنعم بدفئها. امتدت ذراعه في حذر نحو الكومود ليلتقط هاتفه المحمول، نظر إلى التوقيت، ما زال الوقت مبكرًا، همّ بإعادته إلى موضعه الأول؛ لكنه شعر باهتزازة صغيرة، تعلن عن وصول رسالة نصية، تصلب قليلاً وهو يفتح ليقرأ محتواها، وجدها رسالة من ابن خالته، فحرك شفثيه دون صوت:

-لما تصحى من النوم كلمني ضروري.

بجدسه المستريب، أدرك وجود خطب ما، فسحب ذراعه بحرص شديد، ونهض بلا صوت من على طرف الفراش، ليسير على أطراف أصابعه

متسللاً خارج الغرفة. أغلق الباب في هدوء، ومشى بعيداً ليهاتفه. بعد تحية سريعة، تساءل في صوت جاد وخفيض:

في حاجة حصلت؟

أخبره "هيثم" دون تمهيد:

مرات عم "خليل" نفذوا فيها حكم الإعدام النهاردة الفجر.

بهتت ملامحه لحظياً، ثم قال في أسف:

الله يرحمها، كل واحد بياخذ جزاء أعماله.

تابع "هيثم" كلامه إليه بنفس النبرة الجافة:

أنا قلت أعرفك عشان أنا موجود مع الجماعة، لأن بلغونا نستلم الجثة،

وتصرح الدفن.

حك "تميم" مقدمة رأسه مردداً في همس:

تمام.

أضاف أيضاً فيما بدا وكأنه تشدد طفيف:

حماتي بتقولك كمان متجيش سيرة لمراتك إلا بعدين، مالوش لزوم تعكنن

عليها وعليك.

رد في تبرم:

-ربنا يسهل ..

سكت لحظيًا، وخاطبه وهو يلف في مكانه بحركاتٍ شبه عشوائية:

-عمومًا لو احتاجتوا حاجة كلمني يا "هيثم".

رد عليه مؤكدًا:

-متقلقش، كله مقضي بأمر الله.

طلب منه "تيم" بنوعٍ من التعاطف:

-ابقى اطمئن على عم "خليل"، وتابعوه.

علق عليه ببساطة:

ما احنا هنكون معاه اليومين دول.

استحسن رده، وقال:

-كويس.

اختتم "هيثم" مخابرته معه قائلاً:

-ماشي يا عريس قلقتك.

لم تبدل نبرته الخافتة وهو يعقب منهياً الاتصال كذلك:

-ولا يهملك، سلام.

أطلق "تميم" زفيرًا طويلًا، ليردد بعدها في إشفاق:

-وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. ربنا يحسن ختامنا جميعًا

كان من الجيد بالنسبة إليه -ووفقًا لظروفه المستجدة- أن يتبع نصيحة "آمنة"، فلا داعي لإفساد صباحه الجميل بمثل تلك الأخبار التعسة، والتي حتمًا لن يكون مردودها محمودًا في بقية يومه.

.....

على غير المتوقع، لم تأت، ولم تمر عليها، ولم تهاتفها حتى، كأنما تناست أمرها كليًا، ولأنها حادة الذكاء بطبعها في بعض الأمور، وشديدة الملاحظة في أمورٍ أخرى، كان من غير اليسير عليه أن يخدعها بسهولة؛ لكنه تحايل، وراوغ، وتحاور، واعتمد على الحظ في تسيير الظروف. مشطت "فيروزة" شعرها، وعقدت خصلاته معًا في ذيل حصان، ثم التفتت -من مكانها على مقعد تسريحة المرأة- ناظرة إلى زوجها الممدد على الفراش تكلمه في استغراب:

-أنا اتفاجئت إنها مشيت ومعدتش عليا، مع إنها ماكدالي ده من إمبراج.
وسد ذراعه خلف رأسه المستريح على عارضة السرير معللاً في هدوء:

-جائز عشان تسيينا على راحتنا.

ابتسمت وهي ترد:

-ممكّن برضوه.

نهضت من مكانها، واتجهت إليه وهي تضم طرفي رويها الأحمر معًا لتغلقه، ثم جلست على الطرف الآخر من السرير، وتطلعت إليه وهو يواصل محادثتها:

-وبعدين "هيثم" موجود، يعني لو في حاجة حصلت هيتصرف.

بدت معالم الانزعاج تتسلل إلى محياها، ورددت في ريبةٍ تشعر بها تراودها في أعماقها:

-ربنا يستر، قلبي مش مطمّن.

رمقها "تيم" بتلك النظرة المرحّة وهو يمازحها:

-إنتي هتدوري على النكد من أول يوم، طب خلينا نقدم شوية في الجواز. انقلبت تعابير وجهها إلى تجهّمٍ شديد، وسألته بصيغة تحمل اللوم:

-يعني أنا نكدية؟

مال ناحيتها، ثم مد يده ليجذبها من ذراعها إليه، لتبدو أكثر قربًا منه، وقال باسمًا:

لأ يا ستي أنا اللي بائس.

تبدد الوجوم، وحلت علامات الإشراف على وجهها مرة ثانية، أتبعها
ضحكات قصيرة عالية، بعد بعض المداعبات والمغازلات الشقية، التي جعلتها
تفيض حبًا وحنانًا، وتخرج عن طور التعاسة الملازم لها. اعتدل "تميم" في
رقدته، وأمرها بـ"بود" وهو يشير إليها:
تعال.

استجابته له، فتبعته ناهضة من مكانها وهي تسأله بفضول:
هنروح فين؟

اتجه نحو الدولاب ليفتح الضلفة، وأجابها:
مأجر يومين كده في شاليه، أهوو نغير جو، ونبقى على راحتنا أكثر.
رفعت حاجبها في دهشة لا تخلو من إعجاب، ثم عقت مبتسمة:
ده إنت عامل ترتيبك لكل حاجة.

استدار ناحيتها، وقال متغزلًا، وهذه النظرة الناعمة تطل من عينيه:
طبعا، هو حد يبقى متجوز القمر ده كله، ومايدلعوش.
خففت من ذراعها، لتضعه على منتصف خصرها، ثم خاطبته في دلالي:

-أنا هتغر في نفسي.

رمقها بتلك النظرة العميقة، قبل أن يؤيد كلامها بمزيد من التملق اللذيذ:

-حقك، لو الطاووس متغرش، هايبقى مين ثاني؟!

كان شارد اللب، ساهم النظرات، تبدو في عينيه التعاسة جلية، كما تظهر عليه علامات الإعياء، والحزن. تحرك "خليل" مستندًا على عكازيه، بعد أن فُتح باب المنزل، ما إن بلغ أقرب أريكة حتى ألقي بثقله عليها، تبعته شقيقته تواسيه وهي ترأف بحاله المهموم:

-دي مشيئة ربنا يا "خليل"، هي خدت جزائها.

لم ينظر إليها، بدا منفصلاً عن حوله بذهنه، كان محددًا في نقطة وهمية بالفراغ؛ كأنما مر على عقله شريطًا تسجيلاً -لا يراه سواه- يعرض عليه سنوات حياته مع زوجته الأولى، بكل ما فيها من حلوٍ ومرٍ، نزاعٍ واتفاقٍ، إلى أن وصل معها لمفترق الطرق. تنبه لصوت "همسة" وهي تردد في تعاطف:

-معدتش يجوز فيها غير الرحمة دلوقتي يا ماما.

لم يطق البقاء ورأسه ممتلئ بعواصف أفكاره المتصارعة ومشاعره المتأرجحة ما
بين لوم وحزن، وقهر وغيط، تحامل على نفسه لينهض من أريكته، سأله
"آمنة" في اهتمام:

خير يا خويا؟ عاوز حاجة أعملها لك.

استند مجدداً على عكازيه، وقال برأس مطأطأ في خزي:

س.. بيوني لوح.. دي شوية.

اعترضت على ذهابه قائلة بتوجيس:

-أسيبك وانت في الحالة دي؟ خليك معانا.

رد بإصرار:

-لأ.. أنا عاوز أفضل مع نفسي.

أشارت لها "همسة" بالتوقف عن الضغط عليه، فهزت رأسها كتعبير عن
تفهمها، ثم استطردت هاتفة على مضض وهي تسير إلى جواره:

حاضر يا خويا، ارتاح إنت ومتشغلش بالك بحاجة، المهم عندنا سلامتكم.

تعلقت أنظار كلاً من "هيثم" و"همسة" عليهما، إلى أن غادرا محيطهما،
فتساءلت الأخيرة في اهتمام جاد:

هنعمل إيه يا "هيثم"؟

تهد سريعا، وعقب وهو يدير سلسلة مفاتيحه في سبابته:
خليكي معاهم النهاردة، وأنا هاخلص شغلي وأعدي عليكى آخر اليوم.
هزت رأسها متممة:

طيب .. خلي بالك من نفسك.

التف متجها نحو الباب وهو يتابع كلامه إليها:
حاضر، لو ناقصك حاجة كلميني أجيبالك وأنا جاي.
تحركت خلفه مرددة بتهذيب:

ماشي يا حبيبي.

ودعته بابتسامة لطيفة قبل أن تغلق الباب، ثم استدارت سائرة في اتجاه
المطبخ بعد أن ألقت نظرة سريعة على "رقية" التي انشغلت باللعب مع
دُمياها. وقفت عند حوض غسل الصحون لتبدو قريية من أمها، وهددت
رضيعها متسائلة:

-بقولك يا ماما، أعرف "فيروزة" باللي حصل؟

أدارت الأخيرة رأسها ناحيتها ترد محتجة في ترمت:

-لا يا "همسة"، عاوزة تنكدي على أختك يوم صباحيتها؟ ده حتى يبقى
فال وحش!

علقت بنبرة غير مبالية:

هي مكاتش بتحبها من الأساس، فمظنش هتفرق معاها إن كانت "حمدية"
عايشة ولا ميتة.

عبست "آمنة" بتعبيراتها قائلة في ضيق:

-برضوه، خليها تتهنى مع عريسها يومين، مش كفاية معدتش عليها!
ضحكت بخفوت، وقالت في عبثية:

هي فايقلنا، تلاقيها غرقانة في العسل مع المعلم "تميم".

أندرتها والدتها بإشارة صارمة من عينيها:

-بطلي نبر، وتعالى نشوف هنعمل إيه في الأكل.

أومات رأسها قائلة بطاعة يشوبها القليل من الابتسام:

حاضر، هنيم "خالودة" على السرير، وأجي أقف معاكى.

.....

لا يعرف ما الذي حدث رغم قيادته الحذرة على الطريق؛ لكنه شعر
باضطراب حركة السيارة الاعتيادية بشكل دعاه للانتباه، ومن ثم سماعه
لصوت غير مريح أقلقه للغاية، ليلاحظ بعدها وجود عطب ما بالإطار
الأمامي، فاضطر أن يتوقف على الجانب، وقام بتبديله. ظلت "فيروزة"

باقية في السيارة، نزولاً عند طلب زوجها بملازمة مكانها إلى أن ينتهي من مهمته الطارئة، اشأبت بعنقها محاولة رؤيته، ثم سألته:

ليه الأخبار؟

نهض واقفاً، ومسح بخرقة قديمة يديه، قبل أن يجاوبها بأنفاس إلى حدٍ ما لاهثة:

خلاص، بدلت الفردة النائمة بالاستبن.

استحسننت صنيعه، وعقبت:

-كويس إنها جت على أد كده.

هز رأسه قائلاً:

-الحمد لله، قضا أخف من قضا.

راقبته بنظراتها المهمة، وهو يحمل الإطار المستبدل، ويضعه في صندوق السيارة، قبل أن يسحب زجاجة مياه يحتفظ بها كذلك بالصندوق ليغسل بها يديه. أغلقه ثم سار نحو المقدمة، واستقر إلى جوارها مردداً:

-تتوكل على الله.

وضعت يدها على كتفه تضغط عليه في رفي، لتوصيه بعدها بابتسامة رقيقة:

-سوق على مهلك، خلينا نوصل بالسلامة.

ربت "تميم" على يدها الحانية، وأسبل ناظريه ناحيتها، ليرمقها بنظرة
شغوفة، تواقّة، مشتاقّة، ثم استطرد هاتفاً في سرورٍ ينعش ثنايا القلب:
عينيا.

.....

أسكره حبها حد الثمالة، فحجب عنه ما سواها، وأسقطه في هوة الولع
الشديد بها، تلك الهوة التي لا يريد الخروج منها ما عاش من عمره! وقف
كلاهما يستندان إلى حافة الشرفة الفسيحة التي تقع في الدور الثاني من
المصيف المستأجر، بحيث يتمكن الراي من مشاهدة البحر وشاطئه الرملي
دون عوائق. أراحت "فيروزة" مرفقيها على السور، وقالت بعد شهيق
عميق معبأً برائحة البحر، ملأت به صدرها:
حلو المكان، والمنظر من هنا تحفة.

امتدت ذراعه لتحاطب خصرها في رفيق، ونظر إليها ملء عينيه هاتفاً:
-الصراحة الحقة دي كنز لي يقدرها ...

اجتذبتها إليه في تودّة، لتصبح ملاصقة لصدره، ثم شدد من ضمه لها، وبدأ
في مغازلتها هامساً بالقرب من أذنها:

بس بقت أحلى وإنتي فيها.

ارتعش قلبها، وتلبكت وهي تتخيل ما يمكن أن يفعله معها وسط تأثير تلك الطبيعة الخلابة، تسربت حمرة طفيفة إلى وجنتيها، وجاهدت ألا تنظر ناحيته، ليظل بصرها معلقًا بالأمواج الهادئة. كأنما قرأ ما دار في خلدها من جموح عابر، فبادر بتنفيذ ما تمنته في أحلامها، على طريقته المغرية. تأويمة ناعمة انقلت من بين شفتيها، وهو يمرر يده على خدها كأنما يدغدغه بلمساتٍ محفزة، حاولت الانسلاخ من حضنه المغربي؛ لكنها كانت محاصرة بين جسده، وبين سور الشرفة، همست إليه بصوتٍ كان أقرب إلى الإغواء عن الرجاء:

- "تميم".

أثاها صوته خافتًا، عميقًا، ومؤثرًا بقوة على خلايا الحسية، والشعورية: عيون "تميم".

أطبقت على جفنيها، وتركت للخيال المحض الفرصة لمعايشة ما يفعله بكامل الوجدان، والإحساس، أخرجتها قبلاته الخبيرة من حالة الإدراك، ودفعها نحو متاهات العشق، فتاهت الأحرف، وتبخرت العبارات، لتغيب في مزيج مشوق من العواطف الجياشة، كان كل جزءٍ فيها يناديه، يبتغيه، يريد منه المزيد، سحبها معه بهوادةٍ نحو الداخل، بعيدًا عن الأعين المتلصصة،

وراح يغرقها بأضعاف ما حظيت من قبلات، كل واحدة منها توقد الكامن فيها من رغبة وتوق. بالكاد توقف "تميم" عن إكمال نوبة الحب التي أشرق معها القلب، وابتهجت بها الروح ليقول بصوتٍ لاهث:
بجبك.

شاركته نفس المشاعر، فهمست:

-وأنا محبتش زيك.

مع عفوية اعترافها المتكرر، أيقن أن أسعد لحظات حياته ما زالت في الانتظار، ويا له من محظوظ لينال مكافأة صبره بعشقها! التف ذراعه حولها، فشعرت بقوة ضمته المملكة تأسرها، تخطفها، وتنقلها إلى هذا العالم الجديد كلياً عليها، توقف مرغماً عن نيل مآربه منها حين سألته:
هناكل إيه؟

قال في شيءٍ من الجدية وهو يرخي ذراعيه عنها:

-بصي .. أنا هنزل أجيب أكلك، وإنتي ارتاحي شوية، مش هتأخر عليكي.

هزت رأسها مرددة وهي تتحرر من حصاره:

-أوكي.

لم يترك يدها، بل جذبها مرة واحدة ناحيته لترتطم بصدرة، فتحيط بها
ذراعه الآخر، ليقول في عذوبة، وعيناه تجريان على صفحة وجهها:
هتوحشيني الشوية دول.

ضحكت في ميوعة عفوية، قبل أن تعلق وهي تضربه ضربة خفيفة على
صدره بقبضتها المضمومة:
ماتبقاش بكاش.

عقد حاجبيه مردداً:

-بكاش!

حركت "فيروزة" شفيتها لترد؛ لكنه كان الأسبق في لثمها بخاسته، ليعطيها
قبلة مولعة، شغوفة، ذات تأثير أقوى وأعمق عليها، التقطت أنفاسها
بصعوبة، ونظرت إليه من بين أهدابها المسبلة لتسمعه يردد:

ده أنا صبرت صبر محدش صبره، عشان في الآخر ربنا يكرمني بيكي.

وكان في عبارته لومًا مستتراً، فراحت تسأله في استغرابٍ مستنكر:

-وأنا كنت فين من ده كله؟ إزاي مخدش بالي؟

قال ويداه تمسدان ظهرها في نعومة ورفق:

-مكانش ينفع أقول حاجة من غير ما أكون متطمئن إنك عاوزاني.

امتلاّت نظراتها بالندم الواضح، فتابع متسائلاً في ترقب:

-بس يا ترى كنتي حاسة بيا؟

أسبلت لؤلؤتيها لتجاوبه بعد صمتٍ مدروس، وبابتسامة ناعمة تزين شفتيها:

-كنت شاكة، حاسة بحاجات، وتلميحات، وكذبت نفسي..، قلت احتمال تكون أوهام.

شعر بالنشوة لسماعه مثل تلك الاعترافات العفوية، وتساءل متشوقاً:

-ودلوقتي؟

شبت على أطراف أصابعه لتغدو أكثر طولاً، ثم لفت ذراعيها حول عنقه، وتعلقت به، منحته تلك النظرة اللعوب، المصحوبة ببسمة ضحوك وهي تخبره في عبثية:

-ندمانة إني ضيعت الوقت اللي فات ده كله من غير ما نكون سوا.

كأنما أوقدت جمرات الحب، وأوصلتها في التو لأوج اشتعالها بهذه العبارة المفعمة بكل ما كان يرجو سماعه، أقبل عليها يقبلها في شغف، وهو يهمس مُجَدِّداً اعترافه:

-بعشقك.

بادلته الاعتراف بآخر ضاعف من توهج مشاعره:

-وأنا بحبك أوي.

أرجع رأسه للخلف مهللاً في ابتهاج عظيم:
الله!

عاود التحديق في عمق عينيها الساحرتين، وتكلم في لوعة وشوق:
-يأما كان نفسي أسمع الكلمة دي منك، ومن قبل ما أسمعها، إنك تحسبها.
للحظات معدودات غابا مرة ثانية في آفاق سماء الحب التي تظللها، بصعوبة
واضحة عليه، تراجع "تميم" عنها ملتقطاً أنفاسه وهو يهمس لها بنبرة موحية:
-شوفي أنا لو فضلت كده، مش نازل، ولا طالع، ولا رايح في حته.
علقت في دلال الفتاة العاشقة للحب وتبعاته:

-وأنا عاوزاك جمبي.

سحبها إلى أعتاب موجة عاصفة مزلزلة للكيان، تجاذبا، تقاربا، تداعبا،
تلاطفا، تعمقا، إلى أن غاصا فيها بكل ما اندفع في جسديهما من طاقات
متواترة، ومتزايدة، فجرت كل خلاياهما بالرغبة والتوق، لتجعلهما في الأخير
يحظيان بذكرى أخرى جديدة لن تنسى بينهما.

.....

استلقت باسترخاء على الأريكة المنبسطة الموضوعة في الشرفة، رافضة تناول المزيد من الطعام، بعد أن امتلأت معدتها بالشهي اللذيذ منه. تمنعت حين امتدت يد "تميم" لإطعامها بلقمة أخرى، ورفضت بتهذيب وهي تبعد رأسها عن أصابعه:

-والله شبعت، مش قادرة خالص.

قال في تصميم، وهو يرمقها بتلك النظرة الحنون:

عشان خاطري، الحنة دي ويس.

أشارت "فيروزة" إلى بطنها المنتفخ، وقالت بمزحة:

-أنا طلعلني كرش خلاص.

ابتسم معلقًا في غير أكثرات:

ما يطلع ويقلل، إيه يعني؟

أشارت بيدها معترضة في لطيف:

-لأ برضوه، أنا أحب أحافظ على وزني.

لم تفتر ابتسامته وهو يخبرها بصدق، بكلمات نفذت في التو إلى أعماق قلبها:

-وأنا حابك في كل حالاتك.

حانت منها نظرة دافئة إليه يغلفها التوق، وردت وهي تميل برأسها ناحيته لتتناول من يده ما يقدمه لها:

-ربنا يقدرني وأسعدك.

جعلها تقطع جزءًا صغيرًا مما في يده، وتناول البقية وهو يضحك باستمتاع، لتشاركه الضحك هي الأخرى مبدية تمتعها بمداعباته الشقية قبل أن تتطلع مرة أخرى إلى الشاطئ. في هذه اللحظة تحديدًا، أراد "تميم" بشدة رفع حاجز الحذر بينهما، والاسترسال بلا قيود أو معوقات، سحب نفسًا عميقًا لفظه على مهل، ثم استهل كلامه مناديا في عذوبة:

- "فيروزة".

استدارت بوجهها المبتسم تجاهه، وردت:

-نعم.

لم يطرف بعينه وهو يُحادثها بهدوء:

-ممكن أسألك على حاجة.

بدت متحمسة لسماعه حين قالت:

-اتفضل.

تنحى هاتفًا بمزيدٍ من الاحتراز:

هي حاجة محيراني شوية ...

رمقته بنظرة ذكية متشككة قبل أن تتشجع للتوضيح في صيغة متسائلة:

بخصوص إمبراح؟

بترقب يحاوطه المزيد من الحيلة أوجز في رده:

أيوه.

انتظر منها أن تتابع الحديث، وركز كل بصره عليها يتابع أدنى تغيير في ملامحها، وحدث ما ظنه، حيث بدأت بسمتها النظرة تذبل قليلاً، وحتى نظراتها ساد فيها حزناً غريباً. انتقى بعناية كلماته وهو يستطرد متسائلاً:

هو ال ... المرحوم مقربش منك؟

وكان غضب الدنيا قد تجمع في عينيها وهي تقاوم اندفاع الذكرى المشؤومة إلى عقلها، هتفت في حرقه رافضة حتى الدعاء له بالرحمة:

الله ينتقم منه، ويحاسبه على كل اللي عمله فيا، كان السبب الأساسي في انتكاستي.

لم يضغط عليها ليحصل منها على المزيد من المعلومات، بل انتقل من موضعه ليجلس بجوارها، مسح يده على جانب ذراعها، وقال في صوتٍ اخشوشن قليلاً، وحمل بين طياته الوعيد:

أه لو كان لسه حي، مكوتتش سييته للحظة يعيش فيها بعد ما أذاكي،
الموت خلصه من اللي كان هيشوفه على إيدي.

خنقت "فيروزه" غصة مؤلمة أصابت حلقها، وتابعت بجدقتين اجتمعت فيها
العبرات المتأثرة:

هو كان عنده علة، طلعتها فيا، بحيث يداري على عيبه، ويا ريته أكتفى
بكده ده كان ...

عجزت عن ضبط انفعالاتها الثائرة على إثر ما اقتحم مخيلتها من آثار وجيعته،
فانفجرت بأكية بشكل هيس تري وهي تستعيد ذكريات أخرى أشد إيلا مًا
على روحها، شعر "تميم" بالندم على تطرقه لهذا الأمر، وجذبها بجنوح نحو
صدره ليحتويها بذراعيه، ترفق في ضمها، وراح يقبل جبينها معتذرًا في
أسف:

حقك عليا، خلاص اهدي، كله ده انتهى.

بكت على صدره قائلة بصوتها يملأوه الشجن:

- "تميم"، أنا معاك ببدأ صفحة جديدة من حياتي، مش عاوزة أفكر
الماضي، أنا مصدقت عديته.

أراح الموت "آسر" من بطش شرير لا يعلمه سوى الله، زاد "تميم" من قوة
ضمه لها، وكرر اعتذاره النادم:

-أنا محقوكل، مكانش قصدي أفكرك.

بقيت لبرهة في أحضانه، تلمم شتاتها الذي تبعثر، إلى أن سكنت تمامًا،
وهدأت أنفاسها المنفعلة، أبعداها عنه قليلاً دون أن يحررها، نظر إلى وجهها
المبتل، ورفع يده نحو بشرتها يزيح عبراتها الساخنة عن وجنتيها قائلاً
بابتسامة غير واثقة:

-خلاص بقي، مش عاوزين نبوظ الأعدة الحلوة دي.

هزت رأسها توافقه الرأي، فاقترح بوجهٍ حاول جعله هادئ التعبيرات
ليخفي ورائه ما استعر في قلبه من غضبٍ مبرر، لعجزه آنذاك عن درأ
مصائب ذلك الوضع عنها:

-إيه رأيك تنزل نتمشى شوية على البحر؟

حركت كتفيها مرددة في تحير:

-مش عارفة.

أصر عليها بلطف:

-الجو حلو، وحرام نضيع الفرصة دي.

لم تبدُ في حالة مزاجية تسمح لها بالتجول؛ لكنه جعل الرفض خياراً
مستبعداً بمنحها قبلة رقيقة على خدها وهو يطلب منها:

عشان خاطري.

أزاحت "فيروزة" بظهر كفها العالق في أهدابها من دموع تشوش رؤيتها،
وأبدت قبولها بإيماءة صغيرة من رأسها، لانت تعابيرها العابسة إلى حد كبير،
وأضأت نظراته مع بسمتها الخفيفة .. أعاد "تميم" جذبا لأحضانها،
فاستراحت برأسها على صدره، شعرت بالدفء يغمرها مرة أخرى،
لتستعيد بهوادة مرحها مع قدرته العجيبة على تطيب جراحها غير الظاهرة،
فقد كان محترفاً بطريقة خاصة -للاغاية- في ذلك الأمر، بل وله أسلوبه
الشهي المثير في إعادة القلب لإشراقه، واستعادة الروح لابتهاجها

!!!

.....

الفصل المائة وسبعة وسبعون

حين يُقبل عليهما الصباح، كان يشعر بها تنسل من جواره، وهي حريصة كل الحرص على عدم إصدار أي صوتٍ، كأنما لا ترغب في إيقاظه، أو علمه بالأمر، للغرابة ظل مدعيًا استغراقه في النوم، ومع هذا بقي مندهشًا -

وحائرًا في نفس الآن- من تصرفها المريب، فقد كانت تغيب لما يقرب من
الربع ساعة بداخل الحمام، ثم تعاود الاستلقاء إلى جواره على السرير؛ وكأن
شيئًا لم يكن.

في هذا الصباح تحديدًا، قرر عدم تمرير الأمر دون اكتشاف السر- الكائن
وراء نهوضها المبكر، فحين همت بالتحرك، اشتدت قبضته المحاولة
لخصرها، ومنعها من التحرك، فأحس بتصلبها، كأنما فزعت لاستيقاظه،
سألها بصوتٍ شبه ناعس:

-رايحة فين وسيداني؟

حاولت تداركت نفسها، وقال بصوتٍ متوترٍ شبه متلعثم:
-ما فيش.

علق عليها بتشكك:

-بس إتي كل يوم على كده.

اعتدل في رقدته، ونظر إليها متفرسًا قبل أن يتساءل في تصميم:

-في حاجة مضايقاكي؟

حاولت "فيروزه" تسوية خصلات شعرها النافرة، وفركت عينيها سريعًا
لتريح آثار النعاس عنها، قبل أن ترد نافية بنفس الطريقة المتعثرة في الكلام:

-لأ، ده .. أنا بس آ..

لاحظ لجلجتها المتزايدة، فتساءل متوجسًا:

-ليه؟ اتكلمي، في حاجة حصلت؟

بلعت ريقها، وأخبرتها وقد خفضت من رأسها:

مش حابة إنك تشوفني منكوشة ولا معمصة وأنا لسه قايلة من النوم.

ابتسم قليلاً في دهشة، ثم وضع يده أسفل ذقنها ليرفع وجهها إليه، وتساءل:

ليه يعني؟

مطت شفيتها مبررة في حرج:

-المفروض تلاقيني على طول حلوة وآ...

قاطعها قبل أن تكمل حديثها متسائلاً:

-ومين قالك كده؟

جاءه ردها بسيطاً ومباشراً:

-بدل ما تتضايق من شكلي!

استغرب تفكيرها، وسكت لهنيئة قبل أن يكلمها باسمًا، وفي نبرته دفقة من

الحنان:

طبيعي في أوقات هشوفك تعبانة، وأوقات تانية حلوة، وأوقات غيرها
مهدود حيلك، زي ما إتي هتشوفيني على كل الحالات.

وجدت نفسها تبتمس تلقائياً، فتابع بمحبة صافية، ونظراته المفتونة مركزة
عليها:

-المهم في الآخر إنك معايا في كل الأوقات.

إشراقة وجهها تضاعفت مع اعترافه الأخير، وهو يثبت لها يوماً بعد يوم أن
عوضها كان أجمل معه. ابتسمت وهي تطلب منه تهذيب:

طيب ممكن أروح أغسل وشي.

غمز لها قائلاً بلووم:

-وأنا جاي معاك.

أدركت أن وراء ذلك الحماس نوبة متجددة منعشة للقلب من خزان مشاعره
الفياضة، تلك التي لا تنضب مهما اغترفت منها.

.....

اشتم رائحة جلبابه العطن، فنزعه عنه باشمئزاز معكوس على محياه، وألقاه
فوق كومة متراكمة بجوار فراشه، ليفتش في ضلفة دولابه عن بديل آخر
يصلح للارتداء، وجد قطعة مهملة في الزاوية؛ لكنها قديمة، اضطر على

مضض وضعها على جسده، ثم مشط شعره المهوش، وشد أكمام جلبابه،
ليخرج بعد ذلك من حجرتة غير المرتبة متجهًا نحو المطبخ. لحظه التعس لم
يجد ما يصلح للأكل في الثلاجة، وكانت بطنه تزار من الجوع، نفخ
"فضل" في سأم وراح يردد في تبرم:

حطب إيه العمل؟ أني الحال ده ماينفعش معايا.

غضبها منه كان لا يزال في أوجه، لم تهدأ ثورتها منه، ولم تصفح إلى الآن
عنه، كان مرغماً على الذهاب إليها، وطلب العفو، وإن اضطر على الكذب
وادعاء الندم لتسير له أموره العالقة. دق على باب غرفتها المغلق، وفتحته
دون سماع إذنها بالدخول، ليقف عند عتبه مردداً بعتابٍ لزج:
جري إيه يامه؟

تفاجأت "سعاد" من اقتحامه خلوتها، ونظرت له بغیظٍ مبكوت، لم تبدُ
ملاحظها رائقة ناحيته. انقلبت تعبيراتها أكثر وهو مستمر في مخاطبتها:

هتفضلي أعدة جوا أوضتك كده وحابسة نفسك؟

كتفت ساعديها أمام صدرها، ونظرت له شزراً قبل أن تجاوبه في سخط:

أه يا "فضل"، أنا مبسوفة كده ...

ما لبث أن صارت نبرتها أكثر حنقا وهي تسأله في ازدراء:

-ولا ناوي تطردني من فرشتي كمان؟

ضحك ساخرًا في سخافة؛ كأنما يهزأ من جديتها، ليرد بعدها:

-مش للدرجادي يامه.

علقت عليه بسحنة منقلبة:

-ما هو ده اللي كان ناقص.

سار ناحية طرف فراشها، وجلس عليه محاولاً المسح على ذراع والدته،
فنفضت يده عنه، كأنما لدغها عقرب، تغاضى عن تصرفها، وقال بنفس
السماجة المستفزة:

-مكانوش حنتين ذهب خدته في وقت زنقة، بكرة أجييلك غيرهم.

رمقته بنظرة احتقارية، قبل أن تشيح بوجهها بعيداً عنه، وهي تبرطم:
-كان القرد نفع نفسه.

صدمه تعليقها، فتساءل بعينين تعكسان كدره:

-بتقولي إيه يامه؟

أطلقت زفرة مزعوجة، وسأله بعبوس شديد:

-إنت عاوز إيه مني دلوقتي؟

تصنع الابتسام وهو يجاوبها:
-بطمن عليكي.

كانت على يقين كامل أنه يُحادثها كذبًا، فأمثاله لا يعبأون سوى بأنفسهم
فقط، لهذا ردت قائلة بنقم:

-وأديك اطمنت، سييني في حالي بقي.

حك طرف ذقنه مرددًا في جدية:

-يامه أعدتك دي جابتك ورا، وختل صحتك في النازل.

نظرت له من طرف عينها، قبل أن تشيح بوجهها عنه وهي تغمغم:

من عمالك السوداء.

لم يكثر بضيقها الشديد منه، وابتسم ابتسامة زائفة مستطردًا:

-بقولك إيه ..

ظلت توليه وجهها، رافضة النظر إليه، وهو ما زال يقول:

ما تقومي كده يامه تعملي أكلة حلوة من إيديكي، ألا بطني تعبت من
النواشف، والرممة.

عاودت التحديق في وجهه؛ ولكن بنظرات تشع غيظًا وغلاً، وأصبحت أكثر تجهماً عندما أكل ببرود:

-وبالمرة تشوفي هدومي المتكومة دي، لأحسن عفت وعازرة تتغسل، بدل ما أنا مش لاقى هدمة نظيفة ألبسها.

لم تعد تتحمل سماع سخافاتة المؤذية لها، بل إنها لم تطق وجوده بقرها، فاض الكيل، وامتلاً الصدر غضباً، لذا انفجرت صارخة في وجهه:

-بقى جايلي عشان كده؟ قوم من هنا.

نهض واقفاً على مضض، وأخبرها مستخدماً يده في الإشارة:

ما هو البيت حاله يضرب يقلب وآ...

قاطعته بصياح بدا أقرب للصراخ وهي تضرب بكفيها معاً في يأس متحسر:

-واد يا "فضل" سيبيني في حالي، إياكش ربنا ياخدني وأرتاح!

تراجع مرتدّاً للخلف وهو يهسهس في وجوم:

يا ساتر، في إيه يامه بس؟

واصلت الصراخ الهادر في وجهه:

غور من وشي، أنا مش نقصاك!

رمقها بنظرة مغلولة قبل أن يندفع خارجًا من الغرفة، صافقًا الباب بعصبية خلفه وهو يردد بغیظٍ مستاء:

معدتش في راحة في البيت ده!!

في غمرة اندفاعه ركل الطبلية الصغيرة الموضوعة على حافتها بقدمه، فطرحت أرضًا، لم يهتم بإعادة وضعها، تركها على حالتها تلك، ليتابع مشيه بخطواتٍ مالت نحو التمثل، وقد شرد لحظيًا في خياله الواهي، متوقعًا أن تسير كامل خططه على ما يرام، مسح براحة كفه على صدره موهماً نفسه:

معلش، مسيرها تروق وتحلى.

.....

منذ أن وصلت إلى هنا، ورغم جمال المناظر الطبيعية بالمكان، وكثرة الحضرة بها، إلا أن قلبها شعر بالانقباض، فيظل الحبس حبسًا وإن كان في قفصٍ مصنوعٍ من ذهب! التفتت "ونيسة" ناظرة إلى زوجها بترددٍ، كان الأخير قد أتى معها للمشفى النفسي، للقيام بزيارة شقيقتها، بعد أن سمح الأطباء المعالجون لحالتها النفسية بهذا الأمر. أرادت أن تستمد منه القوة والثبات، فقلبها ما زال يؤلمها على ما أصاب "بثينة" بالرغم من كل شيء.

رأى "بدير" الحيرة جلية على وجه زوجته، فتساءل بجديّة:

متأكدة يا "ونيسة" إنك عاوزة تفضلي لوحك معاها؟!

استقرت جالسة على الأريكة المربعة بالحديقة المورقة الخاصة بأهل المرضى،
وخاطبته برنة ألم محسوسة في صوتها:

-دي أختي، هتعملي إيه بس؟ ربنا يُلطف بيها، ويهون عليها اللي هي فيه.
حذرها مجدداً بلهجة غير متساهلة وهو يشير بسبابته:

-بس خدي بالك من كلام الدكتور، هي مش مضمونة، ومعدتش مسئولة
عن تصرفاتها.

هزت رأسها في أسف، ثم قالت بحزن:

-يا حبة عيني، ربنا معاها، ويزيح عنها.

صمت مُكرهاً، لا يريد الكلام فيزعجها بواقعية حديثه المؤلم عن تبدل
شخصها، فليست من ستقبل على زيارتها تحمل نفس سمات الود والألفة،
الحال تغير معها كثيراً. أكملت "ونيسة" بعد أن مصمصت شفيتها:

-ده أنا مصدقت إنهم سمحوا بزيارتها.

ردد في هدوء أخفى وراءه قلقه:

-ربنا يعدي الزيارة دي على خير.

انتظر كلاهما لبعض الوقت، إلى أن لمح "بدير" إحدى الممرضات وهي تقترب منهما، وكلتا قبضتيها تحاوطان كتفي "بشينة"؛ كأنما تستحثها على الحركة نحوهما، قام واقفاً وشملها بنظرة مدققة قبل أن يستأذن بالذهاب:

حبيب أنا هاروح أشوف إن كان ناقص حاجة كده ولا كده، وبالمرة أدفع شهرية قعاها

سألته "ونيسة" في اهتمام:

هو "هيثم" بعت معاك الفلوس يا حاج؟

أوما برأسه مجيباً إياها بعد زفير سريع:

-أيوه، زي تملي، ما هو قطع رجله من هنا.

طلبته منه بما يشبه الرجاء، وتلك النظرة الحزينة تُطل من عينيها:

ما تكلمه كده بينك وبينه خلي قلبه يحن عليها، دي مهما كان أمه.

حرك رأسه بهزة خفيفة، وعلق وهو يهيم بالتحرك:

حاضر، ربنا يهديه لحاله.

ابتسمت قليلاً حين عقت:

يا رب، ويرزقك الخير كله يا حاج.

ودعته بنظراتٍ ممتنة، سرعان ما تحولت للهفة عندما رأت شقيقتها تدنو منها، نهضت لتأخذها في أحضانها وهي تهلل في شوقٍ كبير:
- "بثينة"، وحشاني ياختي.

منعتها الممرضة من الاقتراب منها بتحذيرٍ صارم وواضح:
من فضلك يا حاجة، خليكي في مكانك، ده أسلم ليكي.
تدلى فكها السفلي في صدمة مندهشة، وقالت محتجة بتذمر:
عايزاني ماخدش أختي في حضني، ولا حتى أقعد جمبها؟ ده أنا عاوزة
أملي عيني منها.

استمرت الممرضة على أسلوبه الرسمي في التعامل معها، وقالت:
معلش، ده لمصلحتك ولمصلحتها.
رضخت مضطرة لتعليماتها الواضحة، وجلست صاغرة على الأريكة المواجهة
لتلك التي تستقر عليها شقيقتها، اقتربت منها بجذعها، وسألتها في صوتٍ
حنون تملأوه اللهفة:

عاملة إيه يا حبيبتي؟ إن شاء الله تكون صحتك بقت أحسن.

بالطبع لم تكن لثجيبها "بثينة"، بل بقيت على حالة الجمود المريبة تلك؛ لكن نظراتها الغامضة أوحى بشيء غير مريح، ومع ذلك تغاضت "ونيسة" عما شعرت به، وانتابها لحظيًا من هواجس، لتقول معذرة بمحبة ودودة:

حقك عليا، أنا مقصرة معاكى أوي، بس يعلم ربنا، أول ما الدكاترة بلغونا إن الزيارة بقت مسموحة ماستنتش، وجيتلك على طول.

توقعت أن ترى أدنى ردة فعلٍ منها؛ لكنها ظلت كالأصنام، لا حياة، ولا حراك، فقط صدرها يتحرك علواً وهبوطاً، ليدل على انتظام أنفاسها، أما نظراتها الجامدة المركزة عليها كانت تخفي فيها شيئاً شريراً. لعقت "ونيسة" شفيتها، وامتدت يدها لتمسك بالكيس البلاستيكي المسنود وراء ظهرها، أظهرته لها قائلة باهتمام وابتسام:

جبتلك كام عباية جديدة تغيري فيهم، ولسه هاشوف ناقصك إيه وأجيبهولك معايا المرة الجاية.

نظرة خاطفة سددها "ونيسة" نحو الممرضة التي التفت بالحديث مع زميلة لها، كما أن هدوء شقيقتها شجعها على الانتقال من موضع جلوسها لتدنو منها، جلست على الأريكة المجاورة لها، وبدأت أكثر قرباً منها، متجاهلة عن عمد تحذير الممرضة، وأردفت مخاطبها في حماس:

-كان عاززة أطمئنك على "هيثم"، الحمد لله ربنا صلح حاله، ورزقه بعيل حته سُكرة، سموه "خالد"، أهوو يبقى قريب من اسم المرحومة.

بالطبع لم تكن لتجرؤ على إطلاعها بمسألة زيجة ابنها، نظرًا لحساسية الوضع، فاكثفت بما أخبرتها به من أنباء سارة لا ضرر فيها عليها، حافظت على صفاء بسمتها وهي تكمل:

-والحق يتقال مراته شايله على كفوف الراحة، إن شاء الله يبقى يحبيهم ويجولك.

ما لم تعلمه "ونيسة" أن الغليل الحاقد قد تصاعد في صدر شقيقتها، وراح مفعوله المؤذي يسري في عروقها، كأنما يغذي نفسها العليلة بالمزيد من الكراهية والحق، بلغ غضبها أقصاه في لحظات، وأوشكت على الخروج عن طور جمودها الزائف، تبيست عضلاتها، وتشنجت أطرافها، وعيناها لا تزال مُسلطة على شقيقتها، إلى أن سألتها الأخيرة بعفوية:

إنتي معايا ياختي؟

عندئذ خرج الوحش الكاسر من مكنه، واندفعت "بثينة" بكل ما بها من بغض مشحون، وعداء مقصود نحو شقيقتها تريد الفتك بها، انقضت عليها، وأطبقت على عنقها، تحاول بيديها خنقها في قوة مهولة لا تعرف من أين استجمعتها. كادت "ونيسة" تلفظ أنفاسها الأخيرة مع انقطاع الهواء عنها،

لولا أن نجدتها الممرضة في اللحظة الأخيرة. أبعدتها بصعوبة عنها، وحررتها
من براثنها بمساعدة ممرضات أخريات، لتسعل بعدها سعالاً حرجاً وآثار الألم
لا تزال عالقة بحلقها، تم إقصاء "بثينة" وإبعادها عن محيط شقيقتها، لتعاود
الممرضة تعنيفها:

مش أنا حذرتك متقريبش منها!

سعلت "ونيسة" مرة ثانية، وقالت في صدمة متحسرة:
أنا متخيلتش إنها كده.

ردت عليها الممرضة بغلظة طفيفة:

إلي قصادك دي بقت واحدة ثانية، وماظنش إن الدكتور بعد ما يعرف
باللي حصل هيسمح بالزيارة من ثاني.

لم تستطع منع عبارتها من الذرف حزناً عليها، انصرفت الممرضة بتعجلٍ
لتلحق بزميلاتها، بينما بكت "ونيسة" في قهرٍ عاجز، لتردد بعدها بصوتٍ
خافت يعبر عن ألمها:

قلبي واجعني عليكي ياختي، لطفك يا رب!

.....

مثل تلك الجولات الليلية، على الشاطئ الخالي من البشر، كانت وسيلته للتقرب الودي الممزوج بقليلٍ من الحميمية منها، والإحساس بها محاصرة بين أحضانه، تذوب فيها، وتمنحه استسلامها، عندئذ يمنحها كل الدفء، ويغرقها بمشاعرٍ كانت لا تظن أنها موجودة. ارتفعت ذراع "تميم" لتضمها من كتفها، ألصقها بكتفه، وسار معها حافيًا على امتداد الرمال - قبيل غروب الشمس - ودون أن تمس قدمها بقايا تكسر الأمواج الدافئة على الشاطئ. حاول جذبها برفقٍ لتمشي معه بداخل المياه؛ لكنها كانت تقاومه وتسحبه معها نحو الخارج، استحثه فضوله على سؤالها:

ما تبلي رجلك في المياه، ماشية بعيد عن البحر ليه؟

شعر بها مستنفرة إلى حدٍ ما وهي تعترف له بعزوفها عن التمتع بمزاياه:

- لا مش حابة، أنا أخري أبص عليه من بعيد، لكن مانزلوش، ولا حتى أبل رجلي، استحالة!

تطلع إلى لؤلؤتيها البراقتين بانعكاس آخر ضوءٍ للنهار فيهما، وتساءل مندهشًا:

- معقولة؟

قتلت "فيروزه" غصة مؤلمة ضربت بحلقها، وأخبرته مقاومة الذكريات الحزينة المتدفقة على عقلها:

-البحر غدار، خد مني بابا زمان، ومن وقتها علاقتي بيه من بعيد لبعيد.
ندم -بداخله- لأنه أفسد ما بينهما من ملاطفاتٍ دون قصدٍ منه، وردد
مواسيًا:
-الله يرحمه.

ساد الحزن على محياها وهي تتابع استرسالها بإحساسٍ مؤلم لا مفر منه:
حقيقي الواحد من غير أب، يتيم، وحيد، مالوش ظهر ولا سند.
كانت تحملق في الأفق الممتد أمامها، وسحابة من الدموع ترحف نحو عينيها،
تنفست بعمقٍ لتمنع نفسها من البكاء تأثراً لفراق الأُحبة؛ لكن صوت زفيرها
خرج كشهقة متكومة حين شعرت بضمة قوية تحتويها مجددًا، أطبقت على
جفنيها في تعاسة راحت تسيطر عليها، دبت فيها رعشة خفيفة وصلت
كذلك إلى قلبها، وصوته الخافت يتسلل إلى أذنها ليهمس لها مؤكّدًا:
-أنا ضهرك وسندك.

خرج صوتها ناعمًا، منتحبًا، وخفيضًا وهي ما تزال مغمضة لعينيها:
-أكيد.

استرخى ذراعيه عنها دون أن يحررها، أدارها ناحيته برفقٍ، وابتسم قائلاً
بقليلٍ من المرح وهو يدور بناظريه على وجهها العابس:

تعرفي إن يقولوا النداهة بتطلع للناس في الوقت ده.
استرعى الأمر انتباهها، فرددت بلامح اتخذت طابعًا جديدًا:
نداهة؟!!!

أومأ برأسه موضحًا في صوتٍ هادئٍ وجاد، ويداه تتجولان صعودًا وهبوطًا
على جانبي ذراعها:

-أيوه، ده بنت حلوة كده جميلة زيك، بتظهر وسط البحر، بتسحر
الشباب، فمش بيشوفوا إلا هي وبس.

استخفت بكلامه، وتحدثت من زاوية فمها متسائلة:
ده بجد؟

هز رأسه مؤكدًا بثقة، وبنفس النبرة الجادة:
-أيوه، معروفة للكل.

استنكرت حكايته، وقالت بحاجبين معقودين:
-والناس بتصدق فيها؟ لأ مش معقول، أكيد تخاريف!
رد مُزيدًا في الإيضاح المقنع:

ده في حكايات وأساطير عنها، المهم لما الشباب دول يوصلوها، بيتعلقوا
بيها، وتخليهم ينزلوا البحر وهما مش دريانيين، على أساس يعني يوصلوها.
سألته في اهتمام، وكل أنظارها على ملامح وجهه الجادة:
-وبعدين؟

هز كتفيه قائلاً ببساطةٍ شديدة، وقد أبعد يديه عن ذراعيها ليدسهما في
جيبى سرواله القصير:
-مافيش .. بيغرقوا!

انفجرت شفتاها عن صدمة لحظية، قبل أن تهتف في غيظ:
-لا والله؟!

استمر "تميم" على نهجه المازح قائلاً ببسمة صغيرة:
-هما قالولنا كده.

ساورتها الشكوك لهنية أنه يستخف بعقلها، فسألته بنظرة ذكية تشك في
أمره:

-مين دول اللي قالولك؟

صمت للحظاتٍ، وعيناه قد حادثا عنها لتتطلع إلى أمواج البحر، قبل أن
يجاوبها بشيءٍ من الجدية:

مش عارف، بس الناس بتوع زمان بيحكوا فيها، وعشان كده تلاقي البحر
فاضي وقت المغربية، وقبل الفجر.

لن تنكر أنها شعرت بقشعريرة باردة تنتشر- في أوصالها، لم تستطع
مقاومتها، وظهرت آثارها سريعًا على بدنها، تطلعت للأمام مثله، وتساءلت
في صوتٍ شبه متوتر:

إنت كده بتطمني ولا بتخوفني؟

التفت ناظرًا إليها وهو يقول بصدق:

تخافي إزاي وأنا جمبك يا حبيبتى؟

حملت هي الأخرى في وجهه، فتابع بنفس التسلية المرحية:

-وبعدين النداهة بتطلع للشباب اللي زي.

اغتاظت من لمسة الغرور التي استشعرتها في صوته، فكورت قبضتها،
ولكزته بخشونة في كتفه وهي تسأله بنبرة متحفزة:

-أه قولتلي بقى، بتطلعك النداهة يا معلم؟!

لم يمنع نفسه من الضحك على ردة فعلها، انقلبت من بين شفثيه المبتسمتين
ضحكات قصيرة نابعة من القلب، قبل أن يتوقف وتمتد قبضته لتمسك بها
من معصمها، أسبل عينيه نحوها هامسًا:

-وهعمل بيها وأنا معايا القمر كله!؟

ما عادت تستطيع مقاومة تأثيره الطاغي عليها، في جده وهزله، له أسلوبه الخاص في جعلها طوع بنانه، في استثارة التوق والرغبة بها، أشاحت بوجهها بعيداً عنه، وقالت بتبرم زائف:

ثبتي!

جذبها إليه ليقول بنبرة عابثة، وهذه النظرة الماجنة تنطلق من عينيه:
-التثيت ده ليه مكانه، مش هنا.

استجمعت جأشها لتتملص منه، فاستعادت يديها، وتراجعت خطوتين قبل أن تسقط في هوة الحب التي يسحبها إليه بتعويذته العجيبة، اقترب "تميم" منها خطوة، وخاطبها مبتسماً:

-شوفي يا أبله، مافيش أحلى من نزول البحر في عز الضهر، والشمس فوق دماغك تتورك.

نظرت إليه في ذهول لا يخلو من التعجب، تضاعف أكثر وهو يضيف:
-ساعتها بس بتبقى جاتلك ضربة شمس، واتحرقت، وخذت لون محترم، ويا حظك الحلو بقى لو في قناديل، هتتهرى قرص وتسلخات.
لوت ثغرها هاتفة في استنكار:

-كده إنت بتشجعني على نزول البحر؟

تصنع الجدية عندما جاوبها:

-لا، أنا بس عاوز أشوفك بتضحكي ...

ومضت عيناها بوهج الحب كتأثير لعذب عبارته، وزادت لمعاناً حين أضاف
بتهميدة لامست فيها حرارة أشواقه:

-وده حصل.

عقبت عليه مبتسمة في نعومة:

طب ما تقول نكتة أسهل من جو الرعب ده.

رد في هدوء يشوبه المرح:

-معرفش، ماليش في التنكيت.

عاود التطلع إلى عمق عينيها بنظرة بها دلالات الإغواء المحكم، شعرت بيده
تتخلل أناملها، وتجذبها نحو سلطانه المهلك وهو يخبرها مبتسماً في مكرٍ
عابث:

-وإن كان على نزول البحر، فأنا أشيلك وتنزله سوا.

أجفلت شاهقة على اقتراحه؛ وإن كان بغرض التسلية، وراحت تحذره
بتعابير انقلبت للقلق:

-لأ، إياك!

ثم جاهدت لانتشال يدها من كفه، رفض تركها، وقال بإصرار:

-بس اسمعيني وجري.

اتتابتها حالة من الخوف الكبير، وهتفت فيه بتوسلٍ ظاهر في نبرتها، وفزع معكوس في نظراتها إليه:

- "تيم"، لو سمحت، أنا مش عاوزة.

قرأ علامات الرهبة جلية على ملامحها، فلم يستمر في مزاحه، وحرر يدها قائلاً في صوتٍ أجش:

-حاضر، اللي إتني عاوزاه.

هدأت نسيئاً، وتنفس الصعداء؛ لكن سرعان ما انتفض جسدها برجفة لذيذة وهو يخبرها بنبرة عازمة:

-بس مسيري هعملها في يوم، إن شاء الله أشيلك على كتفي، بس هننزله سوا.

رمقته بنظرة حادة، وهي تتراجع بضعة خطوات مبتعدة عنه، كأنما تخشى- تنفيذ الأمر، حافظ على صفاء ابتسامته وهو يدير رأسه ليحقق في الشط الممتد على مرمى بصره، هبت نسيمات من الهواء المنعش على كليهما،

جعلت الأجواء تميل نحو البرودة قليلاً، لفت أنظاره أحد الشباب وهو يركض على الشاطئ مقترباً منها، كان من الممكن أن يتجاهله، لولا أن لاحظ حركة عينيه وهما ترتكزان بدقة وجراًة على شيء بعينه، ربما غفل "تميم" عن التنبيه له، وجهه ناظره إلى حيث يُمعن النظر، فأربدت قساماته بالضيق الشديد، وأخذ الغضب يتصاعد في صدره، منذراً بمشاجرة وشيكة، بالكاد ضبط أعصابه، ودنا من زوجته الشاردة في تأمل البحر، ليسحبها من معصمها بخشونة طفيفة خلف ظهره، وهتف متوعداً بشراسة استغربت منها:

-شكل اليوم مش فايت النهاردة، هخزأ عين ال (...)!
ذهلت لتفوهه بلفظة نائية، وردت في استنكار:

-ليه الكلام ده؟

أجاب في غلظة:

-ده أنا لسه مقولتش حاجة!

كان على وشك توبيخه؛ لكنها انتهت للشاب الذي فر راکضاً بسرعة غريبة حين مر من جوارهما، كأنما ينجو ببدنه قبل أن يتم البطش به لاكتشاف اختلاسه النظرات الوقحة نحوها. سألته مجدداً في انزعاج مستاء وقد استلت يدها من قبضته:

-إيه الأسلوب ده؟ إنت بتقول شكل للبيع؟
لم تلن ملامحه القاسية، وخاطبها في عصبية:
-بقولك إيه، حاولي تاخدي بالك من لبسك.
زوت ما بين حاجبيها مرددة في دهشة:
لبسي؟!!!

لفظ كتلة من الهواء الحارق عن صدره، يثبط بها الغليل المستعر فيه لعدم
تلقينه ذلك القمى الدرس الذي يستحقه، لم تعرف "فيروزه" ما الذي يدور
في رأسه من أفكار عدوانية، واغتازت من صمته المريب، متوقعة أنها
المقصودة بغضبه غير المفهوم، لهذا اشتدت قسامتها، وعاتبته في لوم:
-وده يخليك تتكلم معايا بالأسلوب ده؟

صحح لها في نبرة شبه ثقيلة:
-أنا مقصديكش إتي، بس كويس إنها جت على أد الزعيق، بدل ما ارتكب
جناية.

سألته في حمئة وهي تلوح بذراعها:
على إيه كل ده؟

خاطبها بلهجة مالت نحو التشنج:

ما أنا ماستحملتش ال (...) ييص عليكى بقلة أدب.
فشلت في تحجيم زلات لسانه، وهدرت صائحة فيه بوجه اختلجته حمرة
منفعلة:

-أنا لبسي محترم يا "تميم"!
سلط نظره على صدرها، وأشار بعينه إليه وهو يخبرها:
عارف، بس محتاجة تلبسي- من تحته حاجات تانية كده، بدل ما كل
المسائل ظاهرة.

برقت عيناها واتسعتا على الأخير في ذهول تام أولاً، قبل أن تتحول
تعايرها للحر الشديد، بعد أن أدركت أنه يتحدث عن مفاتها البارزة من
أسفل القماش الملتصق بها بسبب الرياح. من فورها لفت ذراعها حول
نفسها؛ كأنما تحجب تفاصيلها المغوية عن عينيه الحائقتين، قبل أعين الناس
المستبيحة لما ليس لها، لتستدير بعدها مهرولة بخطواتٍ مسرعة هاربة منه،
لتعاود أدراجها في اتجاه الشاليه.

.....

كم ودّت لو كان المفتاح بجوزتها، لما اضطرت أن تنتظره بالخارج وهي في
أوج حرجها وغضبها معاً، حرجها لكونه لفت النظر إلى قممها المشدودة
بطريقة جعلتها تستنكر غفلتها عن ارتداء حمالة صدر غير قطنية خلال

تجولها معه، وغضبها لهياجه الاتفعالي الذي كاد يتطور للأسوأ في لحظة غابرة. وقفت في مكانها تهز ساقها في عصبية، وذراعاها ما زالا ملفوفان حولها، بمجرد أن رأته "فيروزة" مقبلاً عليها، أدارت وجهها للناحية الأخرى، وأولته ظهرها، متعمدة تجاهله. ما إن سمعت الباب يُفتح حتى تقدمته، وولجت للداخل قاصدة غرفة النوم، في حين تلكأ "تميم" في خطواته تاركاً تبعات الغضب تتلاشى بالتدرج.

اتجه نحو الشرفة ليشعل إحدى سجائره، وبقي لبرهة في مكانه لا يُحرك ساكناً، ضجر من الانتظار غير المجدي بعد أن توقع انضمامها إليه في أي لحظة ليتعابا ويتصالحا، أطفأ سيجارته الثالثة قبل أن تنتهي، واستدار عائداً إلى غرفة النوم، كان الباب موارباً، والغرفة شبه غارقة في الظلام، دفع الباب برفق منادياً في صوتٍ حذر:

- "فيروزة"، إتي نمتي؟

لم تجبه، فتابع الكلام وهو ينير الإضاءة:

ده أنا قاعد مستنيكي برا.

سلط نظره على الفراش، فوجده خالياً، جنع قلبه، وتحولت أنظاره نحو الشرفة، فوجد "فيروزة" واقفة أمامها، بعد أن بدلت ثيابها بمنامة فضفاضة، طويلة الأكمام، لا تتناسب مع الأجواء الرومانسية لعروسين في أول أيامهما

معًا، خمن أنها قد أتت بها في حال نبذ القرب منها بسبب ندوبها، هذه الندوب التي لو تعلم أنها صارت معشوقته لشعرت بالفخر الشديد لامتلاكها إياها، ناهيك عن كونها برهانًا ملموسًا على تضحياتها العظيمة من أجله.

تقدم ناحيتها بتؤدة وهو يحك مؤخرة عنقه بيده، وقف خلفها، وناداهها بصوتٍ شبه خافت:

- "فيروزة"! الوقت لسه بدري، تعالي تقعد سوا.

لم ترد عليه، ففطن لكونها ما تزال على ضيقها، اعتذر منها في هدوء: -حقك عليا.

أتبع ذلك محاولة جادة لإحاطتها من الخلف وضمها؛ لكنها انتفضت نائية عنه في تباعدٍ غريب اندهش منه، وحز أيضًا بقوة في قلبه. راقبها بنظراته وهي تتجه إلى دولاب الثياب، فتبعها قائلًا:

-مكانتش حكاية يا "فيروزة"!

كأنما كانت تنتظر منه تطرقه للأمر، لتعنفه بصوتٍ جاهدت ألا يبدو مرتفعًا أو حادًا:

-حتى لو في حاجة غلط فيا، عرفني بهدوء، إيه الصعب في كده؟

أطرق رأسه مُكرِّراً أسفه بصوتٍ هادئ:

-خلاص بقي، حقك عليا.

فتحت ضلفة الدولاب، وأخرجت منها سترة اعتادت ارتدائها عندما تخرج،

ألقتها على ذراعها، واستدارت لتواجه هاتفة بانزعاج:

-إنت زعلت مني لما أخرجتك بأسلوبي، وكنت هتنتهي جوازنا قبل ما يكمل.

تلبدت ملامحه في غير ارتياح، بينما استمرت "فيروزة" في عتابها له:

-ليه مش عاوزني أضايق لما ألاقيك بتعمل كده معايا؟!

قال بزفيرٍ سريع:

غصب عني، كانت لحظة وعدت، ماتقليبيهاش نكد.

استثار أعصابها بكلماته الأخيرة، فرغماً عنها احتدت نبرتها وهي تكرر على

مسامعه:

-نكد؟ هو إنت لسه شوفت حاجة من النكد اللي بجد.

اندفعت بغضها المكبوت نحو باب الغرفة، دُهِش "تميم" لتصرفها، وسألها

وهو يتحرك من خلفها:

-رايحة فين؟

توقفت عن السير، واستدارت لتنظر إليه بتحذير واضح، قبل أن ترفع
يدها أمام وجهه لتشير له بالتوقف، ثم أخبرته في غير مزاح:
نام لوحذك بقى.

رمش بعينه غير مصدقٍ ما تفعله؛ لكنها تركته لدهشته، وبادرت بالسير
مبتعدة عن محيطه، حلّ الضيق على قسماته، وهتف بها من ورائها-
بصيغة أمرة:

-استني هنا.

اعترضت بتصميم معاندٍ له:

-لا، اشبع بالأوضة، وبالسرير، أنا هنام برا.

رقق من نبرته وهو يناديها:

-يا "فيروزة"!

توقفت أمام الأريكة التي تتوسط الصالة الفسيحة، نظرت إليه في غيظٍ،
قبل أن تمسك بالسترة وترتديها بعصبية، لتخبره بعدها وهي تركز على
أسنانها:

-وهنام بالجايكيت كمان، عشان محدش يبص عليا يا سيد المعلمين.

ما زال "تميم" على حالته المدهوشة، والمصدومة من تصرفها الذي بدا -من وجهة نظره- طفوليًا إلى حد كبير، تجاهلت "فيروزة" نظراته الغريبة نحوها، وألقت بثقل جسدها على الأريكة، ثم تصنعت الابتسام، ووضعت ساقها فوق الأخرى استعدادًا للنوم، لم تخفِ ابتسامتها السخيفة عن محياها وهي تخبره:

-ومن غير زعيق ولا خناق أهوو، نام وقت ما تحب يا معلم، ولو عايز تنزل فبراحتك، إنجوي بالبحر.

قبل أن تُشبك كفيها معًا، مدت يدها لتغلق مصباح الأماجورة الملاصقة للأريكة، ثم اختتمت كلامها معه:

تصبح على خير.

غرقت الصالة في الظلام في لمح البصر.. و"تميم" ما زال واقفًا في مكانه يُطالعها بنظراته المتعجبة، توقعت "فيروزة" أن يقوم بردة فعلٍ غير راضية؛ لكنه انصرف مبتعدًا عنها، لتنفخ في تبرم مزعوج، فتقلبت نائمة على جانبها وهي تحدث نفسها:

-بدأنا النكد بدري بدري!

.....

حاولت الاستعداد لإغفاء يشوبها كل الاستياء، بعد أن ظهرت أول علامات الجفاء بينهما، مسحت "فيروزة" دمة نافرة من طرفها لا تعرف إن كانت حزناً على تصرفه، أم ضيقاً من هجرها المتعمد له، تصلب جسدها على الأريكة، واستنفر في تحفز غريب، شبه خائن، تواق لمثل تلك اللمسات الخبيرة، عندما شعرت بيده الحنون تمسح على كتفها، لتسرح بعد هذا نحو ظهرها مما جعله يتقوس قليلاً، كتمت صوت أنفاسها، وادعت استغراقها في النوم؛ لكن على ما يبدو فشلت فشلاً ذريعاً في إقناعه، حيث مال على أذنها يهمس لها بعذوبة:

حتى لو زعلانين من بعض، ماتسبش السرير وتنامي لوحداك.

لفحت أنفاسه الحارة بشرتها، وأسكرت نبرته الساحرة عقلها، كشفت عن ضعفها أمام قوة تأثيره عليها، قاومته بياأس متوقعة استسلامها سريعاً:
-بعد عني.

شعرت بذراعه تمر عليها لتحاطبها، وهو ما زال يهمس بصوته الآسر:
مقدرش.

إنه ذلك الدفء المغري الذي يسحبك طواعية نحو موجات من المشاعر والأحاسيس العميقة، أوشكت على التخلي عن غضبها، لكن عقلها قاوم إغرائه، فاعتدلت في رقدتها مهددة بالذهاب:

خلاص هاقوم من هنا وآ...

بترت جملتها في منتصفها، لتتحول لشهقة خافتة، عندما مرر ذراعه الآخر أسفل ركبتيها ليحملها عنوة، اعتدل واقفاً بها، غير مصدقة أنها بين ذراعيه، وعيناه تطالعهما بشغفٍ لذيذ، استعادت قدرًا من صمودها المتلجلج، وقالت بتذمر:

إنت بتعمل إيه، نزلي.

مال برأسه نحو جبينها، وطبع عليه قبلة صغيرة معتذرة، قبل أن يحدق فيها قائلاً ببسمة منمقة:

ماينفesh أسيبك زعلانة.

كادت ترد عليه؛ لكنه أسكتها بقبلة حسية فتتها على الفور، بعد أن بث فيها ما هو قادر على إحيائه في وجدانها، لم تقاومه، لم تصده، ولم تمتنع عن مبادلتها واحدة مثلها، بل يمكن الجزم بأنه ذوى مع عمقها كل الخصام، وذاب مع تأثيرها كل البعاد، تراجع برأسه عنها لتلتقط أنفاسها، فهمست بلهاتٍ خفيف:

خلاص حصل خير.

جال بعينه المتفرستين على صفحة وجهها البهي، فكانت تتحاشى النظر إليه؛ كأنما تخشى اكتشاف اتقاد مشاعر الحب في بدنها، ظن أنها ما زالت تحمل في قلبها القليل من العتاب، فراح يقول في مرج شبه جاد:

حطب إن شاء الله يا رب يجرا لي حاجة لو ماسمحتنيش
انقبض قلبها من عبارته، وتعلقت بعنقه قائلة في خوفٍ حقيقي:

-بعد الشر عنك.

أنزلها على قدميها فجأة، وادعى كذباً الشعور بالألم، واضعاً يده على صدره، وقد انحنى للأمام بشكلٍ يدعو للاسترابة:

آه..

شحب وجهها قلقاً عليه، وسألته في تلهف:

-مالك؟ إنت كويس؟

ضغط على شفتيه قائلاً بوجهٍ متقلص العضلات:

-باين عليك ماصفتيش من ناحيتي، والدعوة استجابت.

ردت نافية في التو:

-لا.. خلاص سامحتك والله.

عندئذ استقام واقفاً، وأشرقت تعابيرها بابتسامة عريضة وهو يقول:
حييتي.

اغتاظت من تلاعبه بأعصابها، ومن سذاجتها لتصديق مثل تلك الخدعة
الحمقاء. اكتسبت تعابيرها قدرًا من الكدر وهي توبخه:
إنت تهزري بقى، طب حاسب.

حاولت المرور من جواره؛ لكنه استوقفها بالإمساك بها من رسخها، جذبها
إليه في قوة طفيفة لترتطم ب صدره، وصوته يرن بتسلطٍ متحكم:
أحاسب مين، ده حتى الصلح خير.

قبل أن تفكر في مقاومته، كان "تميم" قد انحنى ليحملها في سرعة لم
تستوعبها لحظتها، ألقاها على كتفه، فتدلى جسدها خلفه وسط شهقاتها
المصدومة، أحكم تقييد ساقها بذارعه القوي، لئلا تفكر في ركله، ضربت
يديها على ظهره صائحة فيه في استنكارٍ جلي:

- "تميم"، نزلي، كده مايصحش!

انقلت من بين شفيتها شهقة كانت أقرب لصرخة صغيرة، وقد شعرت
بوخزات مفاجئة من الألم تنتشر على كل عجزيتها بغتةً، جراء تلك الصفعة

التقريعية المعاقبة لها، شهقة أخرى لحقت بالأخرى وهو يكرر نفس الفعلة
الحازمة على مؤخرتها مع أمره الصارم:

-يا لا يا أبله على سريك.

تلونت كامل بشرتها بحمرة عظيمة، وصاحت في استهجانٍ حرجٍ للغاية:
-إنت بتعمل إيه؟

بدت تقاسيم وجهه جادة وهو يخبرها محذراً، رغم الوميض العابث المتراقص
في حدقتيه:

-ده تحذير يفكرك إن مهما حصل بينا، تفضلي في أوضتك، وماتسيدهاش!
أدركت حسيًا، وجسديًا، وعقليًا جدية تحذيره، فقالت بطاعة واضحة:
-خلاص ماشي ...

رجته بدلالٍ مهتز وهي تحاول رفع رأسها المتدلّية:

-مممكن تنزلي بقي؟

انعكس على وجهه شبح ابتسامة أكثر عبثية عما مضى.. وقال في نبرة
موحية، أشعلت نيران الحب في جسدها، ويده تستعد لجولة أخرى من
الصفعات اللذيذة التأديبية:

ماشي كده على الناشف، ده أنا لازمًا، وحتما، ولا بد أفكرك بطريقتي

!!!

.....

الفصل المائة وثمانية وسبعون (الجزء الأول)

استعانت بثقل وزنها، وحملته كاملاً على ركبتيها، كمحاولة جادة منها لغلق الحقيبة، بعد أن ملأته عن آخرها بثيابها معاً، بالكاد تمكنت من غلق السحاب لمنتصف المسافة، فاستقامت واقفة، واستدارت ناظرة إلى زوجها

الواقف بجوار النافذة يراقبها في استمتاع، على أمل أن تنجح في النهاية في مهمتها. منحته "فيروزة" نظرة مزعوجة تعكس ضيقها من عدم إنجاز الأمر الذي ظنت أنه يسيراً، بينما بادلها "تميم" بسمة شبه مغترّة وهو يكتف ساعديه أمام صدره. تجهمت بعبوس واضح، وخاطبته:

مش حكاية يعني!

هز كتفيه معلقاً بنفس الابتسامة الهادئة:

-إنتي اللي صممتي، أنا مقولتش حاجة.

نخت في صبرٍ نافذ، وطلبت منه بانفعالٍ طفيف:

-اتفضل اقلها.

أرعى ساعديه، وتحرك ناحيتها قائلاً بغرورٍ محسوسٍ في صوته:

-بس كده، عينيا.

تراجعت خطوتين للخلف، لتفسح له المجال، ثم نظرت إليه ملء عينها وهو ينجز ببساطة شديدة مهمتها؛ كأن الأمر لا يتطلب كل ذلك الجهد منها. أشاحت بوجهها للجانب تغغم في صوتٍ خفيض غير مفهوم، فالتف ناحيتها متسائلاً بعنجهية أصابتها بالغيظ:

-في حاجة تانية؟ ولا كده تمام.

شبكت ذراعيها معًا، وردت نافية:
-لأ.

وضع "تميم" قبضتيه على خصرها، يداعب جانبيها برفق قبل أن يخبرها في
صوت هادئ، ونظرات مشوبة بالحب:
فكي يا حبيبتى التكشيرة دي.
ردت في عبوس:

-كان نفسي نطول في الأعدة يومين زيادة، احنا ملحقناش.
جذبها إليه في تودة، فاضطرت أن تحل تشابك ذراعيها، وتستند بمرفقيها
على صدره، لتغدو أكثر قربًا منه، مستشعرة الحرارة المنبعثة من جسده،
ركز بصره عليها، وقال باسمًا في ود:
-وأنا والله، بس حمل الشغل كله على أبويا، وإن شاء الله نعوضها وقت
ثاني.

أتبع ذلك تجسيدًا حسيًا لمشاعره ناحيتها، أغمضت عينيها لتسرح في أفقها
الوردي مع ما اعتادته منه من قبلات شعورية فاقت حد الخيال، تبث في
خلايا جسدها أحاسيسًا تواقه لم تعرفها إلا معه! بالكاد ترك لها فرصة
لتلتقط أنفاسها التي قطعت، قبل أن يهمس لها في نبرة متيمة:

-نفسي الوقت معاكي ما يخلصش.

ردت بصوتٍ خفيض، وهي تشب على قدميها لترتفع قليلاً، فتضاهيه في
طوله:

-الحياة لسه قدامنا.

لثم شفتيها بقبلة أعمق، قادرة على تحريك الراكد من المياه، ليتراجع مردداً في
لهاتٍ:

-ربنا يقدرني وأسعدك.

انخرطاً في لحظة خاصة بهما، طالت، واستطالت، ونقلتها إلى عنان السماء،
فاهتاج الوجدان، وتحرق الجسد للارتواء، قطع ذلك الانسجام العميق رنين
الهاتف، فانسلت "فيروزة" من أحضان زوجها وهي تتحسس صدرها
الناهج؛ لكنه لم يتركها تباعد، ظلت قبضته ممسكة بجانب خصرها، تطلعت
إليه وهو يعتذر منها:

-معلش يا حبيبتى، ثواني كده ..

أخرج الهاتف من جيب بنطاله الخلفي، ونظر إلى شاشته هاتفاً:
-ده أمي بتتصل.

هزت رأسها تخبره في ترحاب:

-رد عليها.

ابتسم لها، وأجاب على المكالمة قائلاً:

-أيوه يا ست الكل ...

بصنعة لطافةٍ تحررت من قيده غير المحكم حول خصرها، لتترك له مساحة من الخصوصية معها، واتجهت إلى مرآة التسيريحة حتى تعيد ضبطت هيئتها، أصغت إليه وهو يخبر والدته مبتسماً، وعيناه تنظران إليها:
-الحمد لله تمام، الله يسلمك يا رب.

اعتلى ثغره ابتسامة أكثر إشراقاً عندما واصل الكلام معها:
ليه بس تتعي نفسك؟

مرر يده على رأسه، وتابع في صوتٍ اتخذ طابعاً جدياً:
طيب حاضر هاقولها الأول، وهرد عليكي بعدها.
بدأ في التحرك ناحيتها وهو يختتم اتصاله معها:
ماشى يامه، في رعاية الله.

عندئذ تساءلت "فيروزه" باهتمامٍ بعد أن أعاد وضع الهاتف في جيبه:
خير في حاجة؟

تنح بصوتٍ خفيض قبل أن يجاوبها:
هي أمي عاملة حسابنا في الغدا معاهم النهاردة، لما عرفت إننا راجعين.
ردت بعد لحظة من الصمت المتردد:
-مكانش ليها لازمة تتعب نفسها، احنا هنتصرف يعني.
برر لها حُسن نواياها قائلاً:
هي حبت تريحنا، وأنا مرضتش أديها كلمة إلا لما أتشاور معاكي.
تقوست شفتا "فيروزه" عن بسمه منمقة وهي تخبره:
-مافيش مشكلة يا حبيبي.
استحسن قبولها، ومنحها نظرة ممتنة قبل أن يقول:
-ربنا يخليكي ليا.
استدارت محدقة في انعكاسها في المرآة مرة ثانية، وراحت تضبط حجاب
رأسها، قبل أن تستأذنه:
-ممكن أعدي على ماما شوية، هي وحشاني وعاوزة أطمئن عليها.
حاوطها من الخلف، وأراح ذقنه على كتفها، ثم أبدى موافقته قائلاً:
-أه وماله، خليك معاها.

صححت له قائلة بجديّة قبل أن يعتقد في بقائها غالبية اليوم:
-لا، أنا هقعّد شوية، وأروح المحل بتاعي أبص على البنات.
منحها قبلة جانبية على وجنتها وهو يرد موجزًا:
-ماشي.

ابتعد بترٍ عنها، وبدأ في جمع ما تبقى من متعلقاتها الشخصية، لتتبعه
"فيروزة" في تعجلٍ، واضعة بعض الأشياء الصغيرة المتناثرة هنا وهناك في
حقيبة أخرى صغيرة، لينتهي كلاهما من إعداد كل شيء. تساءل "تميم"
مهتمًا:

-في حاجة ناسينها جوا؟

هزت زوجته رأسها بالنفي، وقالت:

-لا، أنا بصيت.

انحنى ليحمل الحقائب بكلا يديه، واستطرد في همّة:

-تمام، نتوكل على الله، ونرجع لبيتنا.

حافظت على رقة بسمتها وهي تستعد للتحرك في إثره:

-ياذن الله.

.....
بمجرد أن عادا من رحلتها القصيرة، أوصلها إلى بيت أهلها، ومكث لبعض الوقت تقديرًا واحترامًا لوالدتها التي استقبلته بحفاوة كبيرة، قبل أن يستأذن مغادرًا المنزل، تاركًا إياها تمكث به ما تشاء من وقتٍ. سوت "فيروزة" خصلات شعرها المتحررة، وجمعتها في عقدة فوق رأسها، لتشرع بعدها مخاطبة والدتها ومعبرة لها عن شوقها إليها:

-وحشتيني أوي يا ماما الكام يوم دول.

قوست "آمنة" ثغرها لتظهر ابتسامة صافية عليه وهي ترد:

-واتتي أوي، المهم عندي تكوني مبسوفة مع جوزك.

لمعت عينا "فيروزة" بوميض مبهج قبل أن تخبرها:

-والله يا ماما، أنا عمري ما كنت أتخيل إنه يطلع منه الحاجات الحلوة دي كلها، وخصوصًا إن معرفتي بيه في الأول مكانتش أد كده.

ربت أمها على كتفها مرددة:

-ربنا عوض صبرك خير.

احتفظ وجهها بتعايره الراضية وهي تقول بصدق:

فعلاً، ربنا كرمي آخر كرم.

تساءلت "آمنة" بغريزة أمومية معتادة:

مبسوطة معاه؟

لم تختب السعادة من على ملامحها وهي تؤكد عليها:

-الحمد لله.

أخذتها والدتها في أحضانها، ودعت لها وهي تمسح على ظهرها صعودًا وهبوطًا:

-ربنا يديم عليكى نعمه.

أمنت عليها في رجاء:

يا رب أمين.

ابتعدت "فيروزة" عن حضن والدتها، وتساءلت في ابتسام واهتمام:

إنتو إيه أخباركم؟ طمنوني عليكم؟ "همسة"، وابنها، و"كوكي"، وخالي؟

كلكم كويسين؟

قالت مع هزة من رأسها وجوبًا، قبل أن ينعكس القليل من الحزن على محياها:

-كلنا بخير الحمد لله .. بس خالك بعافية شوية!

شعرت بالقلق من كلماتها الأخيرة، ولاحقتها بأسئلتها في جزع:

ليه؟ ماله؟ هو تعبان ولا حاجة؟

أمسك التردد بلسان "آمنة" وهي تجيبها:

-أصل حصلت حاجة كده .. مرضناش نقولك عليها.

تفرست "فيروزة" في وجه والدتها محاولة كشف غموض ما لا تريد البوح عنه، فكسا التوتر كامل تعبيراتها، كما خفق قلبها في اضطرابٍ مقلق، استجمعت جأشها، وتساءلت بصوتٍ حاولت جعله ثابتًا قدر المستطاع:

-حاجة إيه؟ قولي يا ماما، قلقتيني.

لم تجد بُدًا من إخبارها، فهتفت مسترسلة في الحديث دون استباقٍ مُمهد:

- "حمدية" نفذوا فيها حكم الإعدام، ومن ساعتها وهو حاله اتبدل.

أصابها صدمة لحظية، أربكت حواسها لوهلة، غير متوقعة أن تنفذ فيها كلمة القضاء الأخيرة خلال أيام زيجتها الأولى. أتى تعقيبها متناقضًا مع مشاعرها غير المتسامحة معها:

هي خدت جزائها، معدتش يفيد الكلام.

علقت عليها "آمنة" في أسف:

-الله يسامحها، ضيعت عمرها وبيتها في ساعة طيش.

لم تجذ "فيروزة" الخوض في سيرتها، فعزفت عن الكلام عنها، وقالت وهي تشير بعينها نحو الردهة المستطيلة:

-أنا هاقوم أطمئن عليه.

لاقي اقتراحها استحسانًا من أمها، وراحت تؤيده:

-أه يا ريت، جاز يفرح لما يلاقيكي قصاده.

تصنعت الابتسام، وهممت في هدوء حذر:

-إن شاء الله.

.....

عيناه الوقتان كانتا تجريان على منحيات جسدها، وهي تميل هنا وهناك لتؤدي عملها الذي جاءت من أجله، ادعى انشغاله بالبحث عن أمرٍ ما في هاتفه؛ لكنها كانت فرصته الثمينة لفحص مقوماتها دون أدنى انتباهٍ منها، أمسكت به والدته وهو يسترق النظرات نحو الخادمة التي صمم على تواجدها بشكلٍ شبه يومي. تقدمت ناحيته، وقطعت عنه الرؤية بالوقوف مباشرة في مرمى بصره، تنحنح "فضل" مدعيًا إجلالاً أحباله الصوتية، وهتف مادحًا:

-شوفتي يامه، البت لهلوبة وأنجرت كل حاجة في السريع إزاي؟

زمت شفتيها معلقة في غير اقتناع:

قولتلي.

نهض واقفاً، ووضع ابتسامة لزجة على محياه قبل أن يضيف:

عشان تعرفي إني غرضي أريحك، بدل وجع القلب اللي إتني فيه.

سخرت منه هازئة وهي تزيحه عن طريقها لتتحرك في اتجاه المصطبة الخشبية:

-ياما جاب الغراب لأمه.

ضجر من جفائها المتعمد، وصاح في كدر:

-يامه إتني مش عاجبك أي حاجة؟ أعمل إيه بس عشان أرضيكي؟

استراحت في مكانها، ونظرت في عينيه قائلة بثبات لا يخلو من جدية:

-ترجع الحق لأصحابه، ساعتها بس آ...

قاطعها قبل أن تتم جملته هادراً بغضبٍ أهوج:

قفلي على السيرة دي.

علقت عليه في تشدد:

فكرت أنا لو سكت إخوانك هيسكتوا؟ ولا حتى إجوازتهم؟ ده ميراث أبوهم الشرعي وآ...

مرة ثانية قاطعها هاتقًا بنفس الصوت الهادر:

-كل واحدة خدت حقها زمان، وبعدين ما الأرض اتحرقت، وبقينا مديونين لطوب الأرض، عايزين إيه تاني؟!!!

ناطحته الند بالند، واستطردت مدافعة عن الحق باستماتة؛ كأنما لم تعد تكثر لغضبه الأرعن:

-عمر ربنا ما هيرضى عنك طول ما إنت ظالم، ومفتري، وواكل ورث غيرك.

صر على أسنانه صائحًا في غلي:

-بقولك إيه يامه، سيبك من الهري ده كله، محدش هياخد ملهم ...

ثم ضرب كفه بالآخر في عصبية وهو يكمل:

-المولد اتفض خلاص.

نظرت له بغير أسف، وهي تكاد لا تصدق ما جنته يداها من تدليل زائد، وتحيز كامل ناحيته، كما لو كانت قد أنجبت ذكرًا أحاديًا في كينونته؛ لكنها

نالت في النهاية ابناً طالحاً يُفسد في الأرض أكثر من إصلاحه فيها! انتهت
"سعاد" له بعد أن شردت لهنية حين قال ببسمة غير مستساغة عليها:

قوليلي مانفسكيش البيت الفاضي ده يتملّى علينا زي زمان؟

مصممت شفتيها معقبة عليه باستهجانٍ، وهذه النظرة المغتظة تنطلق من
حدقتها:

حس ولادك بالدنيا، خدهم تحت جناحكم، وراعي ربنا فيهم، هما دول
الأبقى ليك.

وكانها لم تنبس بشيء، تجاهل كل كلامها معلقاً في ازدراء بائن في طريقة
تحدثه إليها:

-بعدين ...

دنا منها، واحتل الجانب الفارغ من المصطبة، ليلوي ساقه أسفل جسده،
ثم خاطبها وهو يرسم تلك الابتسامة البلهاء على وجهه ذي الملامح
المكفهرة:

-المهم أنا عاوزك في حاجة كده.

حدجته "سعاد" بنظرة دونية قبل أن تدمدم في حدة:

-أنا قولت، اللي إنت بتعمله ده كله وراه حاجة، عمره ما كان لله في الله.

هتف في صبرٍ نافذ:

-يامه خليني أخلص وأقول الكلمتين.

نفخت عاليًا، لتردد بعدها بسأم:

-سمعي، إياكش تحل عن دماغي.

انتصب "فضل" بكتفيه، معتقدًا بهذا أنه صار أكثر مهابة وتباهيًا، ثم
استطرد مخاطبًا إياها فيما يشبه الاستهلال لأمر هام:

-دلوقتي أنا شاب عزابي، لا ليا واحدة تونسني، ولا واحدة تاخذ بحسي.

ضاقت نظراتها بشكٍ، وسألته في تجهم أكبر:

-والمطلوب مني إيه؟

زادت بسمته السمجة اتساعًا، فأدركت المغزى الموحى من وراء هذه النعرة
الكاذبة، خاصة أن نظراته الخبيثة أكدت حدسها، فهتفت رافضة دون
تفكير:

-إنسى إني أتحشرلك في أي جوازة ...

همّ بالاحتجاج عليها؛ لكنها أخرسته بما بدا أقرب للتهكم:

-ده أكيد أمها داعية عليها اللي هتتبلي بيك.

تغاضى عما اعتبره لغوها السخيف، وهتف في تلهف عنيد:

-وأنا مش عاوز إلا واحدة، من لحمي ودمي!

زادت تعابيرها عبوسًا وهي تسأله، رغم يقينها بمعرفة من يريد:

قصّك مين؟

تأكدت هواجسها حينما أجاب مبتسمًا على الأخير:

- "فيروزة" بنت عمي.

سكتت للحظاتٍ تراقب تلك اللفظة العجيبة على تعابيرها، قبل أن تفسدها

بقولها غير الاحترافي، متعمدة إغاظته:

-اسكت مش اتجوزت!!!

حلت الدهشة على كامل تقاسيمه، فتجمد لشوان؛ كأن الخبر الصادم شل

ذهنه عن التفكير، استفاق من ذهوله معتقدًا أنها حيلة مأكرة من والدته

للمناس من تلك الزيجة، فصاح في حني:

-إيه الكلام البايخ ده يامه؟ ما تهزريش وآ...

باستمتاع ظاهرٍ على تعبيراتها قاطعته وهي تبسم بتشف:

-وربنا دي الحقيقة، مرات عمك اتصلت بيا من كام يوم تعرفني، وأنا

فرحتلها من قلبي الصراحة.

هَبَّ "فضل" ناهضًا من جلسته المسترخية في اندفاع، ليصرخ بعدها
مستنكرا حدوث الأمر برمته:

-اتجننوا دول ولا إيه؟ إزاي تتجوز أصلاً ومافتش سنة على موت
أبويا؟!!!!

ظلت "سعاد" على وضعها الهادئ، وقالت ببرودٍ لتزيد من استفزازه:
-وايه اللي يمنعها؟ طالما بالحلال.

تصاعد الغضب في صدره، وكز على أسنانه لاعتًا:
-بنت ال (...)!

نظرت إليه والدته شزراً، وهممت في جدية ضاعفت من غليل صدره
المشتعل:

-ده ربنا بيعحبها إنه نجدها منك.

حدجها بنظرة مُميتة، بها كل ما يحترق في نفسه من شرور مؤذية؛ لكنها لم
ترتدع، أو حتى تهابه، بل إنها استمرت على نفس المنوال المتلذذ في
مضايقته، وأضافت:

-وعريسها مش غريب، اسمه "تميم" باين، اللي جه هنا وأدبك.

هدر بها بانفعالٍ أكبر وهو يلوح بيده في الهواء:

-بس يامه، كفاية بقي!

ضمت "سعاد" مرفقيها إلى صدرها، ورفعت ساعدها الأيمن لتستريح بذقنها على راحة كفها، قبل أن تتابع كلامها إليه:

-أل وأنا كنت عاوزة أجوزها لك، ده أنا بحمد ربنا ليل نهار إنه ماستجابش لدعائي.

وكانها تتعمد إحراق أعصابه بعباراتها المستفزة، فانتفض صارخاً في وجهها:
خلاص يامه، اسكتي، كفاية حرق دم فيا.

لم تعبأ بهياجه المهدد، وهتفت في تحفزٍ وهي تقوم من مقامها:
ده إنت لسه هتشوف الغلب كله!

سدد لها نظرة مغلولة، قبل أن يغادر محيطها متوعداً في شراسة:
-بقي كده، قسمًا بالله لأخربها عليها، مش أنا اللي أتسك على قفايا،
وأسكت!

شيطان رأسه لم يكن ليدعه يمرر ذلك دون انتقامٍ مهلك، حيث بدأت الأفكار الخبيثة والمأكرة بالازدحام في عقله، محاولاً انتقاء الأسوأ فيها، الأكثر دهاءً منها، والأقوى في تأثيرها المؤذي عليها، لعله حينئذ يعيث في حياتها الفساد، ويمحقها !!

.....

الفصل المائة وثمانية وسبعون (الجزء الثاني)

لم يكن لزامًا عليها مواساته، أو حتى ادعاء تعاطفها مع وضعه المأساوي؛ لكن شيء ما بنفسها استحثها على إظهار الدعم له، تطيب جراحه غير المرئية، مثلما كان يحدث معها، حين بدت بحاجة ماسة إلى مثل تلك المؤازرات الودية. طرقت "فيروزة" على باب غرفة خالها، واستأذنت بالدخول بعد أن أدارت المقبض وفتحته:

-ممكن أخش؟

انتبه لها "خليل" وهو ما زال جالسًا على مقعده المدولب، تطلع ناحيتها
بنظراتٍ تَعْسَةٍ، ثم حرر زفرة ثقيلة مشحونة بالكثير في صدره قبل أن
يخاطبها بصوتٍ شبه متحشرح:
تعـ.الي.

ولجت للداخل، وأغلقت الباب في إثرها، وضعت ابتسامة لطيفة مقتضبة
على ثغرها وهي تستهل حديثها معه:
حامل إيه يا خالي؟
تهد مجددًا، وقال:
الحمـ..دللـه.

اقتربت أكثر منه، وجلست على طرف الفراش لتبدو في مواجهته، ثم مدت
يدها لتمسح على ذراعه المسترخي على مسند مقعده قائلة في نبرة شبه
حذرة:

-يستاهل الحمد، ماما قالتلي على اللي حصل.
غامت عيناه، وتلبدت ملامحه أكثر وهو يعقب:
كل واحد دياخذ نصيب..به.

سكتت مصغية إليه في اهتمام، فأكمل على نفس الوتيرة المهمومة:

-والزمن مهما طال أو قصر الكل هيتحاس..ب.

وافقته الرأي بهزة خفيفة من رأسها، قبل أن تؤكد على ذلك بترديدها:
فعلاً يا خالي، ربنا اسمه الحكم العدل، وزى ما هو رؤوف رحيم، برضوه
شديد العقاب.

أكتفى بإيماءات بسيطة من رأسه، فتابعت متسائلة بنوع من الإشفاق:
بس إنت ليه حابس نفسك كده؟ احنا عاوزينك معانا، و"كوكي" بالذات.
عند ذكر ابنته، انقبض قلبه في جزع، لا يعلم إن كان الزمن سيمنحه الفرصة
لتربيتها بالشكل الجيد الذي يطمح أن تكون عليه، لاح شبح الموت في
مخيلته، وبدأت الهواجس تسيطر عليه، فانتفض موصياً ابنة شقيقته بجدية
في غاية الشدة:

-البت دي أمانة في رقبتك يا "فيروزة" لو جرالي حاجة.

ارتاعت لفكرة خسارته، وهتفت في استنكار:

-بعد الشر عنك، إن شاء الله تربيه بنفسك وآ...

قاطعها قبل أن تواصل ترديد نفس العبارات المستهلكة على الأذن:

علمها اللي ماعرفتش أغرسه فيها، خليها تبقى زيك.

رغم أنها تمت سماع مثل تلك الكلمات سابقًا، في الأوقات التي احتاجت فيها لتصديقه وثقته بها، إلا أنها نفضت عن عقلها أي ضيقٍ، وعلقت عليه محاولة الابتسام قليلاً لتخفيف توتر الأجواء:

هاتبقى أحسن مني كمان، بوجودك معانا يا خالي.

بدا وكأنه قد تنفس الصعداء بعد عبارتها هذه، فبادلها بسمة باهتة، وعاد إلى صمته الحزين. لم تدعه "فيروزة" ينخرط في دوامة البؤس، وهتفت ناهضة من مكانها بحماس:

-ياللا بقي، كفاية حبسة في الأوضة.

أحنى رأسه على صدره، مستسلمًا لشعوره باليأس؛ لكنها ألحت عليه بتصميم أكثر عنادًا وهي تجثو على ركبتيها أمامه:

-أنا مش هسيبك النهاردة، وجاية أقعد معاك، وأشوفك بتضحك.

رفض بهدوء:

مش قـ.ادر.

تصنعت العبوس، وأصرت عليه وهي تنظر إليه من موضعها:

-كده إنت هتزعلي يا خالي، يرضيك أمشي من هنا زعلانة؟

أمام نظراتها الحانية تخلّى عن عنده، وأوجز في رده:

لأ.

استندت على كفها لتنهض وتستقيم واقفة، ثم هللت في فرحة:
ده حتى "كوكي" هتفرح لما تشوفك تاني بتلاعبيها، وقاعد وسطتنا.
رمشت بعينها تسالاه مرة ثانية:

جاهز تخرج من هنا يا خالي؟

استأنس بالكلام معها، وانتابه إحساسًا عميقًا بالارتياح لنقاء قلبها، وصفاء
سريرتها، رغم كل الصعاب القاسية التي مرت بها. حرك رأسه بالإيجاب
قائلًا:

عشان خاطرك.

مالت عليه لتحضنه صائحة في سرور:

-ربنا يخليك ليا.

استبقته "فيروزه" بخطوات شبه قافزة نحو الباب، فراح "خليل" يدفع
كرسيه المدولب للخارج ليتبعها، وقد شعر بعد حديثه الموجز معها، أنه أزاح
هما ثقيلًا كان وما زال يؤرقه كل ليلة؛ من سيعتني بابنته إن فارقت الروح
هذا الجسد الفاني؟!

.....

لاحقًا، بعد مضي النصف ساعة، بصالة المنزل الفسيحة، وفي حجرها المريح
جلست محبوبتها الشقية واستكانت، وأخذت تؤرجح ساقها في الهواء، كأنما
تتدلل عليها. رمت "رقية" ابنة عمها بنظرة معاتبة، ورسمت تلك التكشيرة
العجيبة على محياها، قبل أن تلومها في تجهم طفولي، يدعو للابتسام:

-كده ماخذتنيش معاكي؟

وعدها "فيروزة" باسمه في وداعة:

-المره الجاية هاخذك، وأفسحك، لحد ما ترهقي.

-إنتي بتضحكي عليا!

رفعت يدها أعلى رأس الصغيرة، وبدأت تمسد خصلاتها في رفق وهي تؤكد
عليها:

-لا والله، هي المرادي بس، بعد كده هانروح مع بعض.

قفزت "رقية" من حجرها، حين تنهت لصوت مقدمة برنامجها المفضل،
وهتفت في غير مجادلة:

-ماشى.

تابعتها "فيروزة" بنظراتها المهمة وهي تشعر بالرضا لرؤيتها بخير، جال بخلدها
خاطرًا عرضيًا، ماذا لو كانت يد الأذى طالتها؟ بالطبع لم تكن بينهم الآن،

استعازت بالله من هذا الهاجس المخيف، وانتقلت بعينها نحو والدتها التي
صاحت تأمر الصغيرة في حزم:

تعال يالا عشان تأكلي يا "كوكي" وإنتي بتتفرجي على الكرتون.
ردت عليها الصغيرة مبتسمة في براءة:

-أنا عاوزة "فيرو" تأكلني.

احتجت "آمنة" بتعابير وجه جادة وهي ترفع مَطَبَقِيَّة الشوربة الدافئة نصب
عينها:

-لا مش هينفع.

قطبت "رقية" جبينها، وتساءلت وهي تتحرك عائدة إلى مكانها بجوار
"فيروزة":

ليه؟

ببساطة ووضوح أجابتها عمتها:

عشان ما تبهديش هدومها.

كتفت الصغيرة ساعديها أمام صدرها، وتمسكت برغبتها هاتفة بعناد:

-لا ماليش دعوة، أنا عاوزة أكل معاها.

حاولت "آمنة" إقناعها بالعكس، ومع هذا لم تنجح، وأخذت "رقية" تقفز في مكانها بغير تركيز، فأطاحت دون قصد بالمطبخية من يدها، فلم تستطع الحفاظ عليها، وانسكبت محتوياتها على ثياب "فيروزة"، لتتطلخ بالكامل، وتهض منتفضة من مكانها في صدمة فزعة. تجمدت الصغيرة مذهولة تتأمل ما فعله طيشها الطفولي، في حين هدرت بها عمتها توبخها في غيظ:

عجبك كده؟ ارتاحتي دلوقتي؟

تدخلت "فيروزة" من فورها، وحالت دون أن تطالها يد والدتها لتأديها، وقالت مهدئة من ثورة غضبها المتصاعدة:

خلاص حصل خير يا ماما.

هتفت في تدمير:

خير إيه بس؟ ده إتي هدومك باظت!

ثم التفتت إلى الصغيرة مكلمة تقرعها لها:

-كده ينفع البهدلة دي؟ ما أنا قولتك من الأول.

حاولت المرور وتجاوز ابنتها لتصل إلى الصغيرة، فتكور قبضتها وتلكزها بوكزة جانبية موجهة؛ لكن منعها "فيروزة" من بلوغها، وهتفت في تعقل محاولة امتصاص غضبها:

مش مشكلة، أنا هشوف حاجة من هدومي القديمة في الدولاب وألبسها.

قالت من بين شفتيها في استياءٍ عارم:

هاقول إيه بس ..

ربتت "فيروزة" على كتف والدتها، ورددت:

معلش يا ماما، خير.

ثم استدارت مخاطبة "رقية" بلهجة مالت للحزم:

روحي على الأوضة، وأنا شوية وجيالي.

أطاعتها في أدبٍ، وهرولت مغادرة المكان بخطى سريعة، لتبقى "فيروزة"

بمفردها مع والدتها، فتكلمت الأخيرة قائلة بعد زفيرٍ سريع:

إنتو تفضلوا معانا بقى للغدا، كلمي جوزك وقوليله.

اعتذرت منها ابنتها في حرجٍ طفيف:

معلش يا ماما، خليها وقت ثاني، حماتي عزمانا النهاردة.

اندهشت "آمنة" للخبر، وقالت وهي ترفع حاجبها للأعلى:

-والله؟

ثم أتبع ذلك هزة خفيفة من كتفيها، لتضيف في استحسان:

-كتر خيرها، هي ست صاحبة واجب طول عمرها.
اتفقت معها في الرأي، وبدأت في التحرك بعيدًا عن الفوضى الحادثة في
محيطها؛ لكن استوقفها تعقيب والدتها الجاد:
-والأهم من ده كله بتحبك.
رفعت ناظرها نحوها، وأكدت بابتسامة ممتنة:
-ده حقيقي، أنا مشوفتش زينا في طيبة قلبها.
دعت لها والدتها برجاء:
-ربنا يحب فيكي خلقه ..
ردت عليها دون أن تفتر بسمتها:
يا رب.
أوصتها والدتها مشيرة بيدها في لهجة غلب عليها طابع الجدية:
-الحقي بس غيري هدومك، وخليني ألقعها قبل ما أحطها تتغسل في
الغسالة.
اعترضت وهي تخفض رأسها لتتطلع إلى ثيابها المتسخة:
-مالوش لزوم، هابقي أخذها معايا.

هتفت معاندة في تصميم:

-لأ، البقعة تلزق ودي فيها سمنة، سبيها، مش هتاخذ مني غلبة.

أمعنت النظر في البقع المتناثرة هنا وهناك على ثيابها، فأيقنت أنها إن لم تتصرف وتتخلص منها فوراً، سيبقى أثرها مطبوعاً ويفسدها بالكامل، هزت رأسها قائلة بانصياع:

حاضر.

.....

ما وجدته مناسباً للارتداء في دولاب ثيابها، بعد فحصه بدقة، كان بنطالاً قماشياً من اللون الأسود، ذي أرجل واسعة، وخصر يضيق حول منطقة الأرداف، يعلوه كنزة بيضاء قصيرة ومنزوعة الأكتاف تصل إلى خصرها، فاخترت سترة زهرية اللون لتضعها عليها؛ لكنها كانت أقصر منها في الطول. لم تكن الخيارات متاحة كثيراً، فالبقية كانوا متهاكين، أو يظهر عليهم القدم، وغير ملائمين للخروج من المنزل. أعادت "فيروزة" ضبط حجاب رأسها، وجذبت أطراف الكنزة لتغطي ردفها البارزين نسيئاً، لم تكن مستريحة في هذه الثياب؛ لكنها اضطرت أن تكون بديلها المؤقت لحين عودتها لبيتها.

ودعت والدتها، وغادرت المنزل لتسير في الشارع متجهة إلى الدكان أولاً، أرادت رؤية "تميم"، وأخذ مفتاح البيت منه، بعد أن أدركت تناسيها

لمحفظتها في سيارته، حين فتحها لتنظر إلى هيئتها قبل أن تصعد لرؤية عائلتها، وضعها آنذاك بالمقعد الخلفي فوق حقيبتها، وجذبت الأخيرة دون أن تتأكد من وضعها بداخلها، حتماً سقطت أسفل المقعد، أكدت على نفسها هذا بصوتٍ يدور في عقلها:

مالهاش تفسير إلا كده، يا رب بس ماتكونش ضاعت!

كانت تسير متعجلة نسيئاً، تحتاط من نظرات الناس إليها، خشية أن ينظر أحدهم بوقاحة إلى جسدها، وهي لم تكن معتادة على ذلك. ما إن أصبحت قريبة من محيطه، ضاقت عينها بفضولٍ مستريب، فقد لمحت "تميم" من ظهره يقف على مقربة من إحدى السيدات المتلفحات بالسواد، لم تستطع تبين ملامحها من زاويتها البعيدة، توقفت في مكانها تراقبها عن كثب، وهي تشعر بالغيرة تتزايد بداخلها. تساءلت مع نفسها بغير صوتٍ:

هو إيه اللي يحصل هناك بالضبط؟!!

التهت عن سبب مجيئها، وراحت تمنع النظر فيما يفعلاه معاً، وهذا الشعور المزعج يأكلها، لصدمتها! رأت المرأة تتعامل بأريحية وألفة كبيرة مع زوجها، وكأنه لا توجد حواجز بينهما، فوجدتها تربت تارة على جانب ذراعه، وتارة أخرى على ظهره، وفي بعض الأحيان تضحك بصوتٍ مرتفع لافت للأنظار، اشتعلت بها نيران الغيرة أكثر، فأكثر، وأحرقها المشاهدة عن بعد،

انصرفت مندفة بعيدًا عن الدكان وهي بالكاد تكبت غليلها، هسهست
متوعة بحقد:

ماشي يا "تميم"!

لم تستطع كبح مشاعرها الحارقة كثيرًا، فأمسكت بهاتفها المحمول، وكتبت
بعصبية رسالة نصية قرأتها بلسانها كذلك:
يا رب تكون الأعدة حلوة .. وطرية.

ضغطت على زر الإرسال وصوت أنفاسها المنفصلة شبه مسموع لها، تابعت
السير المتعجل إلى أن بلغت محلها، ربما أحسنت التصرف بابتعادها وهي
في تلك الحالة العصبية؛ لكنها لن تمرر الأمر على خير، فزوجها غير متاح
لغيرها!

.....

من حُسن حظها أنها انشغلت قليلاً بجديث مساعدتها عن العمل، وما
دار خلال الأيام الماضية، من بعض الاتفاقات المربحة ماديًا لها، بعد تهنئات
فرحة بعودتها من أجازتها القصيرة. حافظت "فيروزة" على ثبات بسمتها
العملية وهي تصغي إليهما؛ لكن بقي ذهنها مشحونًا بالأفكار الغاضبة، تركت
واحدة تنصرف مبكرًا، والأخرى استأذنت لتأتي بالجديد من المطبوعات.
أوصتها قبل أن تغادر بلهجة متشددة:

-متأخريش، تستلمي الأورد و تيجي على طول.

ردت الفتاة وهي تعلق حقيبتها على كتفها:

-حاضر يا أبله.

للغربة! شعرت بالضيق لهذا اللقب المقترن بشخصها، خاصة أنه تزامن مع هذا المشهد المؤذي لمشاعرها كزوجة قبل أن تكون أنثى تغار على نصفها الآخر. غمغمت مع نفسها بإحباط يائس:

-أبله! ده أنا شكلي هطلع متأرطسة في الآخر.

خرجت من شرودها اللحظي على صوت أحدهم قد وطأ أعتاب محلها هاتفاً في تهذيب:

-لو سمحتي، ممكن مساعدة.

ألقت عليه نظرة سريعة شاملة، قبل أن تنهض واقفة لترحب به في طريقة عملية بحتة:

-اتفضل يا فندم، أنا تحت أمرك.

تنحنح في خفوتٍ وهو يضبط نظارته الطبية على أنفه، ليقول بعدها بتعابير جادة:

-أنا كنت عاوز أجيب بلورات في عيد ميلاد ابن أختي نوزعها على قرايئنا.

سألته وهي تدور حول مكتبها لتتحرك في اتجاه الأرفف المخصصة لبيع البلورات الكريستالية:

-أوكي، في تصميم معين حابه؟

لم تلمح هذه النظرة المدققة لمفاتنها على وجهه، فكامل تركيزها كان منصباً على مسح الأرفف لانتقاء المميز من معروضاتها، التوى ثغر الرجل ببسمة طفيفة وهو يدنو بتؤدة منها، مستمتعاً بما يراه خلصة منها، تصنع الجدية حين لاحظ استدارتها، واستطرد يخبرها وهو يشير بيده:

-ممكن أشوف الأشكال اللي عندك.

تعاملت معه دون تشكيك في نواياه:

-في هنا في الرف كام حاجة حلوة، وفي لسه هايجيلي المحل كمان يومين، ده لو حضرتك تحب تستنى.

ثم مدت يدها لتنتقي البعض منهم، ووضعتهم على الطاولة الزجاجية الفاصلة بينهما، ادعى اهتمامه بشيء معروض بالأعلى، فقال وهو يشير ناحية إحدى البلورات الموضوعة في الرف العلوي:

حطب ممكن أشوف اللي فوق دي.

أمعنت النظر في الرف الأخير من موضعها، وسألته لتتأكد من مقصده
وهي توجه سبابتها إليها:

-تقصد دي؟

أخفض رأسه قائلاً بتضليل:

-أيوه، معلش هتعبك معايا.

سحبت المقعد الخشبي ذي الشكل الدائري منزوع المسند والظهر، وقربته
من الرفوف وهي ترد:

-ولا يهملك.

صعدت بحرص عليه، ورفعت ذراعها للأعلى لتلتقط هذه البلورة، ثم
هبطت عن المقعد لتناولها إياها وهي تكلمه:

-اتفضل.

أخذ يفحصها بنظرة مهتمة، كأنما يبدو متحيراً في اختياره، ثم طلب منها
بجرح:

حطب ممكن اللي جمبها، وأنا أسف على الدوشة اللي عملها لك.

ردت دون تكلف وهي تضع بسملة رسمية على محياها:

-ده شغلي، لحظة.

عاودت الكرة، وصعدت على المقعد مرة أخرى، لتأتي له بالمطلوب، دون أن تعي حقاً أنها منحه فرصة من ذهب ليدور بعينين تلمعان فيها نظرات شهوانية على استدارة جسدها المشوقة، بالكاد كانت "فيروزة" تهبط عن المقعد من وضعها اللافت للأنظار حين ولج زوجها للمحل. نظرت إليه نظرة متفاجئة ومصدومة لرؤيته، خاصة لأنها تقابلت مع نظراته المظلمة مما جعلها تتوتر بشكل غريب، كأنما أمسكت بالجرم المشهود. استطرد "تميم" مُلقياً التحية بصوتٍ أجش وخشن:

سلام عليكم.

في البداية لم يلقي الرجل له بالاً، ومنحه نظرة عابرة، سرعان ما تبدلت لشيءٍ من التلبك عندما وجده يحده بنظرات لا تنتوي خيراً، تضاعف هذا الخوف بداخله، وقد أبصره يقبل ناحيته بتعابير متوعدة، كأنما يريد التشابك معه، أخرج من جيبه منديلاً ورقياً جفف به عرقه البارد وهو يردد:

-وعليكم السلام.

على عكس توقعه، تقدم "تميم" ناحية زوجته متسائلاً في صوتٍ جاف:

-في حاجة محتاجاها يا أبله وأنا أجيبها؟

عاملته بنفس الجفاء، وأخبرته:

هو حبيب يشوف البلورات اللي فوق، وأنا بجيبها له.
كتمت شهقتها عندما وجدته يجذبها من ذراعها لتقف خلفه في قسوة غريبة،
وصاح مخاطبًا الرجل بعينين تطلقان شرًا:
خليكي إتي، وأنا هتعامل ...
سلط "تميم" كل بصره المحتقن عليه، وسأله في تحفز يُنذر بالشر:
عاوز إيه بقي؟
لم يبدُ الرجل مستريحًا لوجوده، وهتف متهربًا:
طب .. آ.. نخليها لما يجيلك الجديد، جازي يكون في حاجات أحلى.
طرق "تميم" براحه يده على سطح الطاولة الزجاجية في عنفٍ لتهتز
البلورات الموضوعة عليه، وخاطبه في حدةٍ محسوسة في صوته:
مافيش غير الموجود هنا، ده لو عاجب يعني.
فرت الدماء من وجهه، وبدا شاحبًا إلى حدٍ كبير عندما همهم في تلثم
أها .. طيب .. آ.. هاخذ لفة، و.. أرجع.
هدر به "تميم" في نبرة اخشوشنت أكثر:
بالسلامة.

لم تحاول "فيروزه" ردّه أو حتى معاتبته اعتراضاً منها على أسلوبه الفظ مع زبائنها، وانتظرت ذهاب الرجل لتسأله بضيقٍ وهي تبتعد عنه لتجلس عند مكتبها:

في إيه يا "تميم"؟

تحرك خلفها قائلاً باستهجانٍ متهمٍ، وهو يكبت بصعوبة نوبة غضب وشيكة:

-لا مافيش، افتحي الكاميرا.

نظرت إليه متسائلة باسترابة:

ليه؟

رد عليها بسؤالٍ آخر:

-ولا إنتي مش مشغلاها يا أبله؟!!!

أكدت عليه بدهشة أكبر فاقت ضيقها منه:

طبعا شغالة.

أمرها بلهجة لا ترد:

-رجعي الفيديوهات بتاعة آخر خمس دقائق ..

رمقته بتلك النظرة المدهوشة، فتابع بنفس الصيغة الآمرة:

-لما البيه المحترم كان واقف هنا

للحظة ظنت أنه يفتعل تلك المشاجرة غير المبررة ليقلب الطاولة على رأسها، ويغطي على ما لا يريد تفسيره لها، انتفضت واقفة من على مقعد مكتبها تسأله في احتجاج:

-إنت قصدك إيه بكده؟

أجلسها عنوةً بدفعة قوية من يده على كتفها وهو يجاوبها بغموض ضاعف من هواجس عقلها:

هتعرفي لما تشوفي بنفسك.

أرغمت نفسها على التعامل بحكمةٍ وروية مع بوادر الأزمة الوشيكة، وراحت تفحص ما سجلته كاميرات المراقبة الموجودة بمحلها من عدة زوايا، اتسعت عينها في ذهول مذعور حين رأت ما حدث، واختفى لون بشرتها الطبيعي تأثراً بما أدركته، ألقت نظرة سريعة مرتاعة على وجه زوجها الغائم، وهتفت مدافعة عن نفسها:

-مش معقول، ده كان واقف محترم.

أحست بقبضة "تميم" تعتصر كتفها وهو يعلق على ما رآه معها:

أه بأمانة ما مخليكي طالعة نازلة عشان يتفرج على لبسك الضيق.
انكشيت على نفسها في حرج، وهي تكاد لا تستوعب مدى الحمق والغباء
الذين وقعت فيها لتعامل بسذاجة مع أمثاله من معدومي الضمير. تأوهت
"فيروزة" في ألم وقد اشتدت قبضته على كتفها، وأجبرت نفسها على
الالتفاف والنظر إلى "تميم" حين تابع من بين أسنانه بصوت لم يكن مرتفعًا؛
لكنه أداها:

-الي بالأمانة مكانش لبسك النهاردة.
عللت السبب وراء ذلك، فقالت بتوتر:
ما هو "كوكي" دلقت الشوربة عليا، وهدلتنى، فاضطريت ألبس حاجة من
حاجتي القديمة، ومعرفش إنها ضاقت أوي عليا كده.
سألها بنظرة جعلت قشعريرة باردة تنتفض في كامل جسدها:
-ومشيتي بيه في الشارع؟ والناس اتفرجت عليكى؟
أنكرت على الفور برجفة محسوسة في رنة صوتها:
-لا، أكيد دي مش نيتي ...

حدجها بنفس النظرات الباعثة على الرهبة، فاستأنفت تبريرها رغم ما
يعترها من قلق غريب، خاصة مع ثباته الاتفعالي غير المعتاد عليه:

حتى أنا جيت الدكان عندك عشان أخذ منك مفتاح البيت، لأن محفظتي
نسيتها في العربية، ولاقيتك واقف مع واحدة عمال تضحك وعایش حياتك
ولا همك!

كلماتها الأخيرة استفزته، فحذرها بخشونة بعد أن حرر كتفها من أسفل
قبضته:

-ماتغيريش الموضوع!

وضعت "فيروزه" يدها على موضع الألم تدلكه في رفقٍ، وراحت تعارضه
بتشجيع:

-لأ معلش، أنا من حقي أعرف مين دي اللي كانت معاك؟

أخبرها بزفيرٍ ثقيل، وهذه النظرة القاسية تكتسح وجهه:

-وأنا جيتلك مخصوص عشان كده، مهانش عليا أسيبك لراسك، وتظني فيا
الظنون، بس كان من حظي أشوف بيحصل إيه هنا.

لعلقت شفيتها، واستطردت هاتفة في حمئة:

-أنا كنت قادرة أتعامل على فكرة.

منحها نظرة هازئة مستنكرة قبل أن يتراجع مبتعدًا عن مكتبها وهو يقول:

-أه ما هو واضح.

استغلت ابتعاده عن محيطها لتهبّ واقفة، ثم تقدمت في اتجاهه خطوة حذرة، لتسأله بعدها في غيرة غير مشكوك فيها:

-برضوه مقولتليش مين الست دي؟

لم ينظر ناحيتها وهو يجيبها:

-دي واحدة من معارف أبويا، في مقام أمي، وأكبر منها في السن.

هتفت تسأله في غيظ:

-وعشان كده واحدة عليك أوي؟

باستعلاء متجافٍ تطلع إليها "تميم"، ليعقب في قسوة صريحة:

-ما هو عشان أنا في الأساس مراعي غيبتك، بعدت من غير ما أخرجها، وقت ما لاقيتها بتعامل بنفس الطريقة اللي مش حايها ...

رغم ما به من غضب مستعر ينهش في صدره، لعدم فتكه بهذا الدنيء النجس، إلا أنه كبته مضطراً، محاولاً بجهدٍ جهيد ألا يحرر ثورته الهائجة، بدت أنفاسه محمومة وهو يكمل كلامه:

-بالظبط زي ما عملت دلوقتي، مع إن سهل أضرب كرسي في الكلوب، وأقلع عين اللي يبصلك، وإنتي عارفة ده كويس.

استخدم سبابته في الإشارة مع ختام جملته، فحركت "فيروزه" شفيتها
مكررة دفاعها عن نفسها:

-وأنا معرفش إنه بني آدم بالقذارة دي.

رمقها بنظرة جافة من عينيه، خالية من الدفء، ومغايرة لما اعتادت عليه
منها، ازدردت ريقها، ورققت من نبرتها تناديه في حذر:
-"تميم"، أنا ...

قبل أن تعطيه عبارة مفيدة قاطعها في صوتٍ أمر مليء بالصرامة:
-اقعدي في مكتب وماتقوميش منه لأي سبب، وأنا هاجيب العربية
ونمشي.

بترددٍ محسوس في صوتها حاولت الاعتراض على أمره:

-بس البنت اللي شغالة معايا آ....

قاطعها وهو يسرع الخطى نحو الخارج:

-كلميا تحل محلك، سلام.

تجمدت في مكانها تتابع ما كان أثره قبل لحظة في استياء واضح، تجلت
التعاسة على قسماات وجهها وهي تردد مع نفسها:

-هو احنا بنلحق؟!!

.....

هام مرة ثانية في شروده الصامت المحفوف بالكثير من الرغبات العنيفة في إيذاء ما يبيح لنفسه ما ليس له، كان منفذه الوحيد للتنفيس عن المكبوت من مشاعره المستثارة الحديث مع جده الغالي. زاره في غرفته، وجلس مقابله على طرف السرير، ثم بدأ في التكلم بشيء من الاحتراز:

عامل إيه يا جدي؟

شمه "سلطان" بنظرة خبيرة جابت على تقاسيم وجهه بتفريس، ليشرع متسائلاً بعدها في مرج:

إيه يا واد؟ مصدقت، غرقت في العسل ونسيت جدك؟
حرر دفعة من الزفير الحانق من صدره، ونفى ذلك بغير ابتسام:
أبدأ والله، ده إنت على راسي.

ارتكزت عينا الجد عليه، وسأله في هدوء:

إيه أخبارك؟ كله تمام معاك؟

مجددًا طرد الهواء من رئتيه قبل أن يجاوبه في فتور:

الحمد لله في نعمة.

مهد لاسترساله معه بقوله العادي:

-بس وشك بيقول غير كده.

تهرب من منعه التفسير بتعليله غير المقنع:

-يعني .. متخدش في بالك يا جدي.

أراح "سلطان" ظهره للخلف، وارتنن بقبضته على رأس عكازه، ثم أخذ يلفه يمينًا ويسارًا بحركة رتيبة متكررة، قبل أن يستطرد:

حبيب أنا عاوز أقولك كلمتين بما إني عارف طبعك الحامي، اللي مع أول مناغشة هيطلع وينط.

وكأنه قادر على قراءة ما يجول في عقله من مناوشات حامية الوطيس، كما لو كانت الحرب على وشك الاندلاع، نظر إليه يامعان وهو ييدي ترحيبه بنصائح الثمينة:

قول يا جدي.

استفاض الجد في توضيحه العقلاني:

-الست من دول تحب راجلها يكون حمش، شديد على غيرها، بس في نفس الوقت حنين معاها، صارم، بس محافظ على كرامتها وقيمتها، يعني يضرب ويلاقى، لو كان قاسي مع غيرها، تلاقيه مضلل عليها، واخذها تحت

جناحه، ما يخلهاش تشوف منه الوش الوحش دايماً، لأ في وش الحنية
والدلع، والطبطة ...

تطلع إليه مبهوراً، كأنما عرف كيف يطفئ لهيب النار المتأججة فيه، أصغى
إليه بانتباه تام وهو يواصل مخاطبته:

عشان لو عمل العكس ساعتها الحب اللي موجود في الأول هيروح، ومع
الوقت مش هايبقى غير الشوك والضيق، والخنقة.

تخلل صدره المتاع بغضبه قدرًا لا بأس به من الارتياح، فهتف في امتنان،
وقد نهض من مكانه ليقترّب منه:

-والله يا جدي كلامك جاي في وقته.

أحنى رأسه على كف جده يقبله في توقير، فمسح "سلطان" على رأس
حفيده داعيًا له بما يحتل القلب من محبة صادقة:

-ربنا يهدي سرك ويصلح حالك.

.....

أغلب الوقت كان نائيًا عنها، متجافيًا معها، لا يكلمها إلا قليلًا، وبمختصر.
الكلام، كأن في ذلك نوع من العقاب لها، حتى حينما استقبلتها والدته بحفاوة
حارة، بدا على جفائه الداعي للريبة وإثارة الشكوك، لهذا اضطرت

"فيروزة" للتعامل بحنكة وإخفاء ما بينهما من توتر وخلاف، على أمل أن تمر هذه المشكلة الجديدة على خير، بحثت عيناها عنه عندما وجدته اختفى بالداخل لفترة استطالت مدتها، ولم تمتلك هذا القدر من الجراءة لتنهض من موضع جلوسها للبحث عنه، تساءلت في باطن عقلها بتحير شديد:

يا ترى بتعمل إيه يا "تميم"؟ وهنحل الحكاية دي إزاي؟!
نفخت في سأم، وبدأت أفكارها في التخطب، انتشلتها من هذا التصارع المستنزف لصبرها صوت "ونيسة" القائل بودية:
قومي يا بنتي غيري هدومك، هتلاقي في أوضة "هاجر" كام قميص بيت نضيف.

اعتذرت بلباقة:

مالوش لزوم.

سألها "ونيسة" في نبرة يشوبها العتاب:

إنتي مكسوفة ولا إيه؟ ده بيتك، إنتي مش ضيفة ...

ضمت شفيتها معًا، فأصرت عليها بود أكبر:

ياللا يا حبيبتي، خدي راحتك.

ربما كان في نهوضها فرصة مناسبة لرؤية زوجها الغائب عمداً عنها، وتفقد أمره، أظهرت ابتسامة لطيفة على فمها وهي تخبرها مرة أخرى:
شكراً يا طنط.

بجملٍ شبه ظاهر آثاره على وجهها، بدأت "فيروزة" في السير نحو الردهة المستطيلة، وعيناها تسبقها في التفتيش عن زوجها، بمجرد أن دنت من باب غرفته، وجدته واقفاً عند أعتابها، خفق قلبها بقوة، وهمت بالتكلم؛ لكن خرجت الحروف على شكل تأويهة مباغتة عندما قبض على رسغها، وجذبها في لمحة خاطفة إلى الداخل، موصداً الباب خلفها، انتشرت رعدات متفاوتة في قوتها في كامل بدنهما، استجمعت رغم ذلك جأشها، لتظهر ثابتة أمام نظراته غير المريحة، وسأله في نبرة لائمة:

إيه ده؟ إنت بتعمل إيه؟

لا تعرف لماذا أُجبرت قدماها على التراجع بشكلٍ تلقائي للخلف، كما لو كانت تحاول إيجاد مسافة آمنة بينهما، كأنما تخشى- من طريقة تطلعه إليها، هوى قلبها بين قدميها، وشعرت برجفة أقوى تنتابها عندما بدأ يتحرك ناحيتها قائلاً بغموض ضاعف من هذا التلبك المستحوذ عليها:
ليا لي كلام معاك.

سأله بصوتٍ متحشرج، وهي ترمش بعينها في قلق:

-كلام إيه؟

رأته يشمر عن ساعديه، ويثني أطراف أكتاف قيصه في تمهلٍ مهلك لأعصابها المستنزفة مسبقًا، زادت قوة الخفقان بها، وأحست بتحفزٍ عجيب يحتاج كل ذرة في جسدها، حذرت بصوتٍ مذبذب وهي ترفع سبابتها أمام وجهه، دون أن تتوقف عن الارتداد للخلف:

-بص.. مامتك برا، وجدك كمان.

التوى ثغره بشبح بسمة غريبة، وقال في غير مبالاة على الإطلاق:

-وايه يعني؟

تفشت حمى التوتر في كامل أوصالها، مع حركته البطيئة نحوها، وراحت الخيالات العجيبة الخجولة تحتاج ذاكرتها، واقتربت بسابقتها المخرجة لها، تلك التي ذقت فيها تقريبًا جعلها تنهذب معه بشكلٍ فتنه بها، تضاعف ارتباكها، وهتفت في صوتٍ مرتجف، غير رادع له، بل تكاد تُجزم أنه زاده بأسًا على بأس:

-هيقولوا عنك إيه؟ مايصحش اللي بتعمله ده.

تقوست شفته أكثر، وقال في نبرة ذات مغزى:

-مين قالك؟

التصق ظهرها بالدولاب، وأصبحت شبه محاصرة، تفكر بغير هدى عن وسيلة للنجاة من عقابه الوشيك، ورغم تخطيطها إلا أنها سمعته يقول باستمئاع:

بالعكس هيعتبروا الموضوع عادي جدًا، راجل واخذ راحته مع مراته حبتين.

زحفت وتزحّفت بظهرها على الدولاب لتفر من نظراته المتوعدة لها، مستشعرة زيادة الوخزات الحسية في جسدها دون مساس، توسلته بصوتٍ مهتز:

- "تميم"، أنا ...

شهقت في تلبكٍ كبير وقد أمسك بها من رسخها يسألها بصوتٍ خفيض؛ لكنه باعث على كل مشاعر الرهبة:

-البنطلون مش ضيق صح؟

هددته في يأس، وقد تقلصت عضلاتها:

-أنا مش هاسكت، لو قربت مني، هآ...

قاطعها مكملًا الجملة عنها:

هتصوتي؟

هزت رأسها دون أن تنطق، فضحك في خفوت، ليخبرها بعدها بهسيس:
-براحتك، وقوليلهم جوزي كان بيأدبني لأني غلطانة.
احتد شعورها بقوة الوخزات المنتفضة في بدنها، واستعطفتها رغم يقينها بأنه
لن يصغي لتوسلها الهزيل:
-ماشي إنت معاك حق تتضايق، بس بلاش هنا.
لاح على ثغره بسمه مأكرة، والتمعت في عينيه تلك النظرة الشقية، ليتبع
ذلك همسه الخطير:
-ده مافيش أحلى من إنه يكون هنا.
بنداءٍ لن يشكل فارقًا معه استجدته:
- "تميم"!

شهقة أخرى مذهولة انفلتت منها وهي لا تعرف كيف امتلك من القوة
البدنية ما جعله يشدها بعيدًا عن دولاب الثياب، أم أن مقاومتها خارت مع
تأثير تهديد كلماته الممهدة لتأديبه الخاص، في طرفة عين وجدت "فيروزه"
نفسها موضوعة على ركبتيه، منكفأة على وجهها، ويدها تستندان على
الأرضية، قبل أن تفكر في التخلص من هذا الوضع المخزي، التفت ساقه

حول ساقها، وضمتهما معًا، ليحكم قبضته عليها، صارت تحت سطوته كليًا،
غير قادرة على الفكك أو المناص منه، توصلته بصوتٍ مرتعش:
-أنا أسفة، مش هتحصل ثاني.

تحفرت يده لمنحها ما ظن أنها تستحقه، فأخذ يربت على ردفها بهوادة
ألهمت بشرة وجهها حرجًا وخجلًا دون أن تبدأ جولته المحمومة فعليًا،
استغفرت حين نطقت بغير تفكير:

ما أنا محاسبتكش على وقفك إياها، وعدتها.

كتمت شهقة بدت أقرب للصراخ حين انطلقت أول صفعه قاسية أصابت
هدفها، أعطائها أخرى مماثلة في القوة وهو يكلمها بغير تساهل:

دي ليها كلام ثاني، بس خلينا نخلص كل حساب لوحده

لنتوالى بعدها الصفعات التأديبية الجادة، في تواترٍ متزايد ومحفز للغاية،
جعل الأمر يصل بينهما في نهاية المطاف، إلى رحلة اجتذاب وتقارب شديد
الحمية، دفعهما نحو عالم أصبحا يتناغمان فيه بشكلٍ مُذِيبٍ للخلاف،
ومُنْعَشٍ للوجدان !!!

.....

خلف الأبواب الموصدة، وعلى متكئ بعينه، حين يلتقي الجسد بوليفه
المكمل له، وتعانق الروح مثيلتها، فإذ بالجليد ينصهر، والفوارق تتلاشى،
حتى الحواجز تتكسر- وتمحق، عندئذ يصبحان ككيان متحد، تجمعهما
المودة والرحمة، ويزداد ما بينهما عمقًا! انزوت "فيروزة" في أحضان زوجها،
يحتضنها من ظهرها، ويضمها بذراعيه إلى صدره، وهما ينمان متجاوران
بالفراش، شعرت وهي تتململ داخله، بمدى التجاذب بينهما، باشتعال شرارة
الحب كلما ظنت أنها ستخبو بقاء حميمي، كانت اللفة تتجدد قبل اللقاء،
وتتحول لنوع من الدفء المغري بعد الامتلاء.

لم يكن ما يمارسها معًا عنفًا بغيضًا يدعو للنفور والهجر في الفراش، بل هي
مناوشات لطيفة، ومداعبات شقية، تستثير الحواس الكامنة، وتستحث
الخلايا المقاتلة، على الاستسلام طواعيةً، والتخلي عن الدفاعات الحصينة،
للاستمتاع بما شرعه المولى وأحله بين الزوجين. رجفة لذيدة أصابت جسدها
حينما ارتفعت ذراع "تميم" للأعلى لتمسك على شعرها بجنو، وصوته يهمس
في أذنها متسائلًا:

مبسوطة؟

أجابت مبتسمة في رقة، رغم يقينها أنه لن يرى تعابير وجهها:
أيوه.

امتدت لمساته الحنون على طول كتفها، وانخفضت نحو ندوبها، قشعريرة أخرى نالت منها جعلت قلبها يردد وهو يتلمسها بحذرٍ شديد، كأنه يُعاود تشكيلها على طريقته، ذابت مع سحر اللمسات، وانتشت مع تأثير حرارة الأنفاس على جلدها، سرعان ما خفت حركة يده عندما باغتته متسائلة في رنة من العتاب:

-بس ماينفعش كل مرة تعمل معايا كده ...

توقف عما يفعل، وانتبه لها كلياً وهي تكمل بضيقٍ محسوسٍ في صوتها:

-أنا بحس بقلة قيمة ليا، وخصوصاً أنا مش عيلة صغيرة!

ارتفع عنها مرة واحدة لينظر إليها بعد أن شعرت به يتصلب مشدوهاً، التفتت ناحيته، واستلقت على ظهرها، لتكون الرؤية واضحة ومباشرة، وجدت علامات الجدبة مطبوعة على ملامحه قبل نظراته المسالطة عليها. أخبرها "تميم" دون أن يرف له جفن:

-أنا عمري ما أقل منك، ولو في حاجة بتضايقك مني يبقى بلاش منها من الأساس.

صححت له بتوترٍ ملحوظ:

-مش قصدي، بس أنا مش عايزة ده يكون الأسلوب بينا دائماً.

لانت تعابيره المشدودة، وخاطبها بود وهو يرسم ابتسامة صغيرة على محياه:
حبيبي .. كل يهمني إنتي وبس، وأنا كان كل غرضي أناغشك، وأهزر
معاك، وزى ما قولتك اللي يضايك مش هعمله.

تدلت عليه، وامتدت يداها لتتعلق بعنقه، ثم غزلته بنظرة شبه عابثة:
-مش أوي .. بس بالراحة عليا.

أحنى رأسه على وجهها ليلثم شفيتها بخاسته، وأعطاهها قبلة رقيقة مشوقة
وفي نفس الآن معذرة، قبل أن يتراجع عنها مفصحا أيضا بهذا:
-حقك عليا.

استغلت الفرصة لتعابه مرة ثانية عما بدر منه، فأضافت:

طب ووقفك مع الست إياها؟

ضحكت عيناه، وقال باسمًا بطريقة باعثة على الإغواء:

-مافيش واحدة غيرك تملئ عيني، حتى لو كانت مين .. وبعدين حد يبقى
معاه القمر ويص فوق في السما؟!

أشعرها ذلك بالرضا التام عن حالها، فانتعش قلبها، وفاض بما امتلأ به من
سرور عظيم. قبلة أخرى منحها لها، قبل أن ينهض عنها هاتفاً:

قومي يا حبيبي غيري هدومك وخدي دش، عشان تبقي على راحتك.

التفكير في مغادرة الغرفة الآن، بعد نوبة الحب المتجددة بينهما كان مستحيلاً
بالنسبة لها، أخفت وجهها خلف كفيها، وصاحت رافضة بحرج شديد:
- لا مش هينفع، أهلك هيقولوا عني إيه؟ أكيد فاهمين اللي حاصل بينا.
ابتسم قائلاً في هدوء، رغم رغبته العارمة في الضحك:
- متقلقيش ده بيتك الثاني.

أمسك "تيم" بمعصمها ليبعدها عن وجهها، وأصر عليها:
قومي يالا، محدش هيقولك حاجة.

قاومته قدر استطاعتها، وردت بعناد:
- مش هأحصل.

اقترح بتلقائية:

- أشيلك وأخرج طيب؟

هتفت محتجة على الفور، وهي تنكمش على نفسها من شدة حرجها لمجرد
تخيل إقدامه على تنفيذ الأمر:

- لا، إياك!

أرخی قبضتيه عنها، وتركها مستقيماً في وقفته، ليلح عليها:

حطب قومي من نفسك بقي.

اعتدلت في رقدتها، وسألته بتشكك، وهي تجمع بكلتا يديها خصلات
شعرها النافرة معًا:

-إنت متأكد محدش هيعلق؟

نظر لها مليًا كأنما يفكر في الأمر، ثم وضع يده أسفل ذقنه، وأجاب متصنّعًا
الجديّة:

-بصي- هي أمي هتبصلك وهي بتضحك، وجدي هيرمي كلمتين ينارزني
بيهم، وأبويا احتمال يطردنا، ويقول بيتي الطاهر ده مايحصلش فيه الدلع ده
غير وأنا مش موجود.

لم تعرف "فيروزة" إن كانت تضحك، أم تغرق في خجلها أكثر؛ لكن على كل
الأوضاع كانت مبهجة من حياتها الجديدة، خاصة أنها أصبحت رسميًا جزءًا
أساسيًا ينتمي لتلك العائلة الأصيلة. استجمعت جأشها، وراحت تمازحه
وهي تمد يدها لتفتح درج الكومود باحثة عما تربط به شعرها المحلول:

-هاقولهم إنت السبب، بتضحك عليا، وتستدرجني.

رد بعثية:

-أه صح، بأمانة ما جرجرت لحد الأوضة هنا.

على ما يبدو لم تسمع كلامه الأخير لرؤيتها ما لفت أنظارها بشدة، إنه واحدٌ من مشابك رأسها المفقودة، ذاك الذي يحمل رمز زهرة الأوركيد، التقطته بأناملها، والتفتت دفعة واحدة لتسأله في لهجة يشوبها كل التحير والدهشة:

-المشبك ده بيعمل إيه هنا؟

أمعن النظر فيه، وصمت للحظاتٍ، كأنما يستجمع أفكاره، ليخبرها بعد ذلك بعدم تدقيق:

-أنا لاقيته صدفة زمان، بس مش فاكِر إمتي، وسبته في الدرج. لو هالة ارتبطت الذكرى بحادثة مشاجرته مع "خلود" آنذاك، فنفض الأمر عن ذهنه لئلا يسود التوتر مع زوجته، فتسيء فهمه، إن اعتقدت أنه ما زال مشغول البال بها، انتشلته "فيروزة" من سرحانه السريع باعترافها، وهي تضعه نصب عينيه:

-ده بتاعي

نظر لها مندهشًا وهو يسألها:

-بتتكلمي جد؟

أكدت عليه بلا شك:

أه والله .. أنا مش فاكدة راح مني إمتي، بس أيام ما كنت شغالة على عربة الأكل كنت بلبسه على طول، ومعاها الطرحة الصغيرة دي.

قالت جملتها وهي تشير إلى منديل رأسها الموضوع في نفس المكان بدرج الكومود، تقدم "تميم" ناحيتها لينظر إلى ما قام بجمعه عن طريق الصدفة، ارتسم على ثغره ابتسامة مغترة للغاية، وأخذ يقول في تعجب:

سبحان الله، مين كان يصدق إني أجمع كل اللي يخصك ...

نظرت إلى عمق عينيه الصادقتين وهو يواصل مُحادثتها:

-لأ وبعد اللي حصل ده كله، يتقفل علينا باب واحد.

بادلته الابتسام، وعلقت في مرج:

صدق اللي قال ما محبة إلا بعد عداوة.

شعرت بقبضتيه تستريحان على منحنى خصرها، أعقبها قوله اللعوب الذي نفذ إلى شغاف قلبها كسهم خارق:

حطب تعالي أدكي شوية محبة غاليين من بتوعي.

.....

مضت الأيام والأسابيع بينهما وكلاهما يزداد قربًا ووفاءً على نحو جيد، خاصة بعد أن طرقت السعادة باب حياتها أخيرًا، تبقى فقط شيء بعينه

كان ينغصه على نحو مزعج، هذه البلورة التي تتوسط رصة الأطباق الباهضة في الرف العلوي بالنيش، كأنها جوهرة ثمينة يخشى أحدهم التفريط فيها، الغموض ما زال يحاوطها بشكلٍ يدعو للاستراحة. لم يبعد "تميم" ناظره عنها بسهولة، رغم محاولاته المضنية تجاوز الأمر، وعدم إعطائه الأهمية الكبرى؛ لكنه دومًا يتذكر ارتباطها بهدية من اعتبره -مجازًا- عدوه اللدود.

اليوم أراد حسم هذه المسألة والتكلم معها عنها، فأخذ يرتب أفكاره في رأسه بتأنٍ، كما لو كان يدرس ما متاح لقوله، وما هو غير المسموح باستخدامه، تجنبًا لنشوب أي مشكلة بينهما قد تمتد آثارها على مدار بضعة أيام، وهذا ما لن يتحمله مُطلقًا! تنبه "تميم" لصوتها المنادي من خلفه:

-الآكل جاهز، تعالى قبل ما يبرد.

استدار متطلعًا إليها وهي ترص أطباق الأرز عند كل جانب، دنا من مكان جلوسه قائلًا ببسمة باهتة نسيًا:

تسلمي يا حبيبتي.

نظرت إليه بتفريس، ثم وضعت يدها اليسرى على منتصف خصرها، وأخبرته بتفاخر:

-المرادي بقي الأكل حكاية، هيعجبك جدًا!

رفع حاجبيه في دهشة، وعلق متسائلًا بهرج:

-يعني مش زي الفرخة اللي ماتت غرقانة في الشوربة؟!!!
رمقته بتلك النظرة المتحفزة وهي تصغي لتلميحه الساخر عن آخر محاولاتها
الفاشلة في طهي الدجاج، صححت له بكتفين منتصبين وهي تشير بيدها:
هي اللي كانت بايظة وماستحملتش تتطبخ بزيادة حبتين.
هتف مومئاً برأسه:

معايي حق، هي فعلاً باظت، وماستحملتش، لدرجة إنها طقت من
جنايها، ولحمها فك من العضم.

حممت محتجة في غيظٍ متصاعد نسيئاً:
إنت بتتريق؟ قصدك إني مابعرفش أطبخ كويس؟ ده أنا كل يوم بوصفة
شكل.

رد في امتنان:

-كتر خيرك.

عادت لتضيف في نزعة من الغرور:

مش معنى إن الواحدة في أول جوازها يبقى عندها كام هفوة تتمسك عليها
ذلة.

صدحت بسمه صافية على وجهه وهو يمتدحها:

-لا عاش ولا كان الي يذلك، كل الي بيطلع من إيدك حلو.
أصاها الكبر من ثنائيه؛ لكن ما لبث أن تبدل للتجهم وهو يتابع رافعاً كفيه
للسماء، كأنما يدعو:

-وربنا يباركلنا في بتوع الديلفري، مش متأخرين عننا الحمدلله، ده تقريباً بقوا
من العيلة.

هددته في نبرة مغتظة:

خليك كده اتريق لحد ما ألم الأطباق وماتكلش.
تراجع عن مناكفتها هاتفاً بصوتٍ تتخلله الضحكات القصيرة:

هو أنا أقدر؟ هاكل وأنا ساكت يا أبله.

أشارت له بالجلوس وهي شبه عابسة:

حطب اتفضل دوق الفاصوليا وقولي رأيك.

مسح "تميم" مائدة الطعام بعينه، وامتدح مرة ثانية صنيع يديها رغم عدم
تذوقه بعد لأي من مأكولاتها:

ده كفاية إنك عملاه عشاني.

تبدد كل العبوس من على وجهها، وحل الرضا على تقاسيمه، جلست
"فيروزة" تتناول بشهية ما اجتهدت في إعداده من طعام، ولدهشتها

تحسنت كثيرًا عما سبق، وكان المذاق طيبًا! انتظرت بشغف سماع رأيه،
وتطلعت إليه بنظراتٍ متلهفة، كمن يترقب إعلان نتيجة امتحانه. بلع "تميم"
ما ملأ به جوفه، وأخبرها مبتسمًا:

-الله على الحلاوة، تستاهلي بوسة.

أصابتها الكبر مجدّدًا، وتساءلت في لؤم، وهي لا تقاوم اتساع بسمتها
السعيدة:

-بوسة واحدة بس؟

قَهقه ضاحكًا، ثم قال:

-دسته بحالها، وإن شاء الله ما حد حوش.

شاركته الضحك، وتناول معًا الطعام وهما يتسامران تارة، ويمزحان تارة
أخرى، إلى أن فرغا كليًا منه. تعاون "تميم" مع زوجته في جمع الصحون
المتسخة، والأطباق المليئة بالبقايا، ونقلها إلى المطبخ لتقوم بتنظيفها، فكر
لوهلة في اقتناص فرصة مزاحها الرائق، وسؤالها عما يؤرق تفكيره، لذا
استطرد مُمهدًا بتريثٍ شديد الحذر، وهو يزيح البقايا في سلة القمامة:

-إيه رأيك لو غيرنا مكان النيش؟

سألته دون أن تنظر إليه، لانشغالها في غسل الصحون:

هنحطه فين؟ ما احنا من الأول قولنا ده المكان المناسب ليه.

أخبرها بلمحة من التردد:

من باب التجديد.

قالت معترضة بلا تغيير في نبرتها:

هو احنا لحقنا؟

بلع ريقه، وتابع بجذر واضح:

أصل أنا شايف إنه عامل زحمة على الفاضي، ومضيق المكان، ومعظم الحاجات اللي فيه مالهاش لازمة.

استدارت "فيروزة" لتواجهه، وقالت بمرح تشوبه الجدية:

ده إنت ممكن تفرط في أي حاجة، إلا اللي موجود في النيش، ده ثروة قومية.

أدرك أن المراوغة معها لن تجدي نقعًا، سيظل يلتف ويدور حول ما يريد السؤال عنه، ولن يصل في الأخير لنتيجة مفيدة، لهذا تساءل مباشرة دون احتراز:

هو صحيح البلورة اللي إتي حاطها فيه دي شاريها؟!!!

ضاحت عيناها باسترابة واضحة، وسألته في صوتٍ متشككٍ دون أن تمنحه
الجواب الذي يتحرَّق لسماعه:

هي مش عجبك ولا إيه؟

سكت للحظاتٍ معدودات، يفكر فيما سيخبرها به، التحايل، وتجميل
الحقائق لم يبدُ مناسبًا بعد أن حُصر في الزاوية، زفر مليًا قبل أن ينطق
أخيرًا:

أصلي ملاحظ إنك على طول بتلمعيها، وخايفة عليها، على عكس أي
حاجة ثانية.

لفتت انتباهه قائلة بوجهٍ غرق في الجدية:

على فكرة مش لوحدها بس، كل اللي في النيش بلمعه أول بأول عشان
التراب.

أعاد تكرار سؤاله عليها بشكلٍ أوضح:

إنتي شريها ولا هدية؟

أوجزت في ردها، فقالت:

هدية!

غامت تعايره بشكلٍ مفاجئ، وبدت نظراته أكثر ضيقًا عما مضى،
فاضطرت أن تكمل:

-دي هدية من "كاران"، جبهالي تذكر قبل ما أسافر وأرجع على هنا.
لم يستطع إخفاء ردة فعله المستاءة وهو يعقب في اقتضابٍ شديد:
-كويس.

أكدت عليه بتوجسٍ وقد رأت ما أصابه:
على فكرة هي مجرد حاجة عادية.
ادعى انشغاله بإكمال إفراغ البقايا من الأطباق، وقال:
-تمام.

لم تقتنع "فيروزة" برده أبدًا، شعرت بوجود ضغينة ما في صدره لوجود ما
يربطها بالماضي الذي جاهدت لتجاوزه، وإن ادعى العكس، لهذا حسمت
رأيها، أغلقت الصنبور، وجففت يديها بتعجلٍ في المنشفة المعلقة على مقبض
أحد أدراج المطبخ، وأخبرته وهي تتحرك من مكانها نحو الخارج:
-"تميم" لو البلورة دي هتعمل مشكلة بينا أنا ممكن أشيلها، وأعنيها في أي
مكان ثاني.

ناداها من ورائها لتقف:

- "فيروزة"!

لم تصغ إليه، وتابعت مشيها المتعجل قائلة بتصميم:

- لا خلاص، مالوش لازمة وجودها.

اعترض على قرارها رغم ضيقه:

- استني، طالما دي هدية عادية.

فتحت ضلفة النيش، وشبت على قدميها لتتمكن من الوصول إلى الرف

العلوي، ثم التقطتها من مكانها، وهي لا تزال تتكلم في تحفز:

- وعلى إيه أجيب لنفسي وجع الدماغ.

نظر إليها في صمت بعد أن لحق بها، فاستمرت في مخاطبته بعزم:

- أنا هبقى اديها لـ "رقية" تلعب بيها.

استحسن الفكرة، وارتخت تعابيره المتجهمه، وضعت "فيروزة" البلورة على

الطاولة، وتقدمت ناحيته تسأله في جدية، وكامل نظراتها المتحققة عليه:

ها مبسوط كده؟

تقوست شفتاه عن بسمة عذبة وهو يخبرها بصدق لم تشكك فيه أبدًا:

- أنا مبسوط عشان إتي معايا.

وقفت قبالة تطالعه عن قرب، فراحت يده تداعبان جانبي ذراعها صعودًا وهبوطًا قبل أن تستقر عند خصرها، ضحكت من دغدغته الخفيفة على لحمها، وقالت في دلال:

-بتعرف إزاي تخليني أعمل كل اللي إنت عاوزه.

قربها من خصرها إليه، هاتقًا في صوتٍ يحوي الرغبة في طياته:
-وأنا مش عاوز إلا إنتي.

دفعته بكفيها من صدره لتمنعه من جذبها إلى أحضانه قائلةً بجدية:
حطب حاسب عشان المواعين.

ثم تجاوزته سائرة بغنج، فدقق النظر في تفاصيلها المشوقة معلقًا بتوعد:
-ماشي، بس لينا لقاء بالليل يا أبله.

ضحكت في استمتاع قبل أن تدير رأسها وترمقه بتلك النظرة الماكرة، لتتكلم بعدها بجملة موحية:

-أنا out of service

فهم من تلميحها المتواري أنها في فترة إجازة إجبارية نظرًا لقدم زائرتها اللطيفة، فصاح متذمرًا باستياء طفلٍ حانق:

-تاني؟! هو أنا بلحق!

هزت كتفيها مدعية قلة حيلتها، قبل أن تقول وهي تزيد من اتساع
ابتسامتها المتسلية:

-الأيام بتعدي بسرعة بقي، هعملك إيه؟

كور قبضته، ولكز بها في ضيق سطح المائدة متابعًا صياحه المغتاض:
حلول عمري نحس، ومبصوصلي في الشوية الحلوين اللي بقعدهم معاكي.
ارتفع صوت ضحكاتها الرنانة وهو يقف في مكانه يلوم حظه العثر الذي يمنع
-اضطرابيًا- اقترابه الشغوف منها.

.....

سحابة وراء أخرى انطلقت بكثافة من جوفه، وانتشرت في سماء الغرفة،
لتعقبها كذلك برائحة الدخان الخائقة، غير مكترث بسعاله المتحشرج والمتتابع
جاء ما يدخنه بشراهة من مادة الحشيش. حكَّ "فضل" بطرف المبسم
ذقنه، وراح يفكر مع نفسه بغير صوتٍ، والشرر ينتفض من حدقتيه
الحمراوتين:

طبعًا إنتي غرقانة في العسل أديلك كام شهر مع الدغوف، وشوية
وهتطلبي القرشين اللي باقيين معايا، وأبقى أنا طلعت من المولد بلا حمص.
احتقنت نظراته أكثر وهو يواصل حديث نفسه البغيض:

-لا نافع معايا شغل، ولا حريم، ولا حتى الهوا.

سحب نفسًا آخرًا لفظه ببطءٍ من بين شفثيه، وتكلم في نفسه:

-وشوية الأونطة اللي عاملهم على الناس عشان أطلع منهم بقرشين مسيرهم
كمان يتكشفوا

شرد مجددًا في الترهات التي يسمعها هنا وهناك على ألسنة أهل بلدته،
وكلها تنال منه، وتنهش في البقايا المتبقية من كرامته المهدورة، وسمعته
الملطخة، تلك التي أفسدها عن عمدٍ بجريرة أفعاله، لم يحمل نفسه اللوم
أبدًا، وألقى بكل أخطائه عليها وحدها؛ كأنما هي المحفز الرئيسي- لارتكابه
الموبقات، والوقوع في الأزمات. كز على أسنانه مدمدمًا في وعيدٍ:

-لازم أخرب عليك حياتك، أمرر عيشتك وأسودها.

برقت عيناه بشيءٍ مخيف، لا يظهر إلا شرًا شديد الخبث، أتبعه قوله
المغلف بالعزم:

-ما فيش إلا كده.

التوى ثغره ببسمة منتشية، وقال في تشفٍ، وبقلبٍ يملؤه السواد الأشد:
-يا أكش يكون فيها موتك، وأبقى خلصت من فلوسك، وشفيت غليلي
بالمرة.

.....

في بقعة معتمة بالمجهول المحاوط بها، دارت حول نفسها في دوائر عشوائية باحثة عن بصيص من الضوء، لعلها وسط هذا الظلام المخيف تهتدي إلى طريقها، زاد ديب الرعب في قلبها، وبدأت في تلمس مسارها حين سمعت همهمات غير واضحة تأتي من منطقة قريبة منها. دقت "همسة" النظر في الظلال المبهمة، محاولة تبين ما تراه، انقبض قلبها بشكل مخيف، وأحست ببرودة قارصة تضرب أوصالها، قاومت على قدر المستطاع هذا الشعور المفزع المتسرب إليها، وتابعت السير الحثيث؛ لكن عند منطقة ما يتخللها إنارة باهتة، انفرجت شفتاها عن صرخة غير مسموعة، خاصة عندما رأت توأمها تركض هاربة من كلب أسود اللون، متوحش الأسنان، كان يُطاردها، صرخت مجددًا تناديا:

خدي بالك يا "فيروزة"، ده جاي وراكي.

حاولت الوصول إليها؛ لكن كان هناك ما يعيق قدماها، ويمنعها عن الحركة، كأنما قد أصابها الشلل، فراحت تلوح لها بذراعيها، وصوتها المحذر يجلجل في الفراغ الممتد إلى ما لا نهاية:

حاسبي يا "فيروزة"، ده يقرب منك!

لم تصلها تحذيراتها الهادرة، وانقض الكلب الشرس على توأمتها ناهشاً قطعة من لحم ذراعها، وصراخ الأخيرة يرن صده المفزع في الأجواء، التاعت "همسة" للمنظر الشنيع، وأخذت تولول مستغيثة:

الحقونا، حد يغيت أختي.

أبقت ناظرها على شقيقتها وهي تتصارع مع هذا الكلب، وصوتها لم يتوقف عن النداء وطلب النجدة حتى بح وانقطع في الأخير، عندئذ انتفضت "همسة" مستيقظة من نومها العميق منادية بلهاتٍ منفعل:

- "فيروزة"!

أفاق "هيثم" على صوتها الصادح ليلاً، وتقلب على جانبه لينظر إليها بنصف عين متسائلاً بصوتٍ ناعس:

في إيه يا "همسة"؟

دعك عينيه قليلاً، ليتمكن من رؤية ملامحها وسط عتمة الغرفة، كرر سؤاله عليها:

إمتي كويسة؟

أجابته وهي تنير المصباح الملاصق لفراشها:

أيوه، بس شوفت كابوس مخوفني.

أطبق "هيثم" على جفنيه مانعاً الضوء من إزعاج حدقتيه اللاتين لم تعتادا
بعد عليه، وقال بتثاؤب:

-استعيزني بالله، ونامي.

أرجعت "همسة" ظهرها للخلف، وخاطبته بتخوف:

-أنا قلبي مقبوض، حاسة إن في حاجة هتحصل لأختي.

نفخ في ضيق، وسحب الغطاء على كتفه متسائلاً بتذمر:

-إمتي مش كنتي معاها النهاردة، وكانت كويسة؟

جاوبته بتردد:

-أيوه، بس المنام اللي شوفته...

قاطعها ناصحاً في غير أكرات:

-ماتبقيش تتقلي في الأكل قبل ما تنامي، ده اللي بيحب الكوايس.

تطلعت إليه بنظراتٍ منزعة، وقد رأته يشد الغطاء أعلى رأسه، قبل أن
يأمرها:

-ويا لا اظفي النور ده، عشان ورايا شغل كثير بكرة.

زفرت في تأفف، وغمغمت بغير ارتياح:

ماشي.

أغلقت المصباح، وتمددت على ظهرها لتحقق في السقفية المعتمة، مستعيدة في ذهنها مشاهدًا لا تزال حية في مخيلتها، عاد الخوف ليحتل قلبها، ولسانها ما زال يردد برجاء:

يا رب استر.

.....

وردها ذلك الاتصال المريب من والدتها، لم تفهم مغزاه، ولم تعلم منها شيئًا سوى أنها تريد رؤيتها في الحال لأمرٍ طارئٍ لا يحتمل التأجيل، مما اضطرها لإخبار زوجها، وطلب الإذن منه للسماح بذهابها عند بيت عائلتها. وقفت "فيروزة" أمام تسريحة المرأة، تنظر بتركيزٍ إلى حجاب رأسها وهي تلفه، لتتأكد من ضبط مقدمته في شكل مثليٍ مدبب، قبل أن تكمل غلق أزرار بلوزتها الوردية، في حين جلس "تميم" على طرف الفراش يرتدي جواربه وهو يتساءل متعجبًا:

-لازمتها إيه الزيارة دي؟

أخبرته في تحيرٍ لا يقل عنه:

مش عارفة، بس ماما مصممة أروح عندها حالاً، حتى مش مستنية أخلص شغلي، وأعدي عليها.

ما لبث أن راودتها الهواجس السوداوية، فاستدارت ناظرة إلى "تميم" وهي تخاطبه في جزع:

-لأحسن يكون خالي تعب وهي مش عاوزة تقول.

تفهم مخاوفها، خاصة أن صحته كانت عليه مؤخرًا، وقال مطمئنًا إياها:

-ربنا يستر، وتبقى حاجة بسيطة ...

ثم نهض واقفًا من موضعه، وتابع:

-عمومًا أنا جاي معاك.

لم ترغب في تأخيره عن عمله، وطلبت منه بلباقة:

-مالوش لازمة تعطل نفسك، كفاية عليك توصلني، إنت مش وراك

مصالح؟ وآ..

قاطعها قائلًا بإصرار:

-مايجراش حاجة، خلىنا نطمئن.

لاحظ أمارات القلق تكسو كامل تعبيراتها، فمسح برفق على وجتها مضيئًا

في صوت هادئ:

-إن شاء الله خير، سديها على الله.

لم يخفِ التوتر من صوتها عندما ردت:
-ونعم بالله.

استعد "تميم" للذهاب معها، دون أن يبدو عليه القلق مثلها، واصطحبها إلى خارج المنزل، لينطلقا معًا في اتجاه بيت عائلتها، ولا يعرف أحدهما ما الكارثة التي تنتظرهما هناك.

.....

منذ أن عرفت مصادفة بما يدبر له من مكيدة وضيعة، بناءً على اقتراحات رفاق السوء الذين كانوا يجتمعون معه يومًا بعد يوم في منزلها، لم تستطع "سعاد" منع نفسها من التدخل والتصرف بأي صورة، إيقافًا ومنعًا للمشاكل الجسدية المتوقع حدوثها، جراء خططه الجهنمية، تلك الغائب عنها تفاصيلها بالضبط. أعاقها عن تحذير "آمنة" عدم حوزتها على هاتفٍ محمول، فابنها العاق قد أخذ خاصتها عنوة، وباعه مع هاتف زوجها لبيتاع لنفسه واحدًا جديدًا، غير مبالي بأمرها.. فقط إحدى بناتها أتت لها بواحدٍ زهيد السعر، في نفس اليوم الذي صادف ذهابه إليها، دعت الله ورجته أشد الرجاء ألا يكون اتصالها متأخرًا، صاحت "سعاد" في ابنتها تهرها:

-أتأكدي الرقم صح ولا لا؟

أخبرتها بتبرم:

هو يامه، هي مغيرتوش من زمان.

هتفت بها تأمرها بصبر نافذ:

حطب أطلي عليها أومال.

ردت بهدوء مناقض للعاصفة المسيطرة على والدتها:

حاضر، بس تشحن البطارية.

في استنكارٍ مغتاظ صاحت متسائلة:

وانتي معكيش رصيد؟

جاوبتها نافية ومبررة في نفس الوقت:

لا، الباقية خلصانة، ما إنتي عارفة جوزي منشفها معايا حبتين من ساعة

اللي عمله "فضل"، ده غير فضايحه اللي مالية البلد.

ضربت "سعاد" على فخذيها مرددة في رجاواتٍ أكبر:

عديها على خير يارب.

استمرت ابنتها في الكلام معها كأنما تُعلمها بما اتفقت عليه مع شقيقاتها:

- احنا خلاص وكلنا محامي يجييلنا حقوقنا يامه، مش عاوزينك تزعلي مننا،

طلالما المعروف مش جايب نتيجة مع أخويا.

قالت في حدة، وعقلها مشغولٌ بما يدور بعيدًا عنها:
-اعملوا اليّ تعملوه، خلاص أنا حطيت إيدي منه في الشق!

.....

بزفيرٍ شبه لاهث، وصدرٍ ينهج من المجهود المبذول في وقتٍ وجيز، وقفت
"فيروزة" عند أعتاب باب منزلها، تُطالع والدتها بنظرات شمولية فاحصة،
بعد أن فتحت له، قبل أن تلتقط أنفاسها، وتساّلها في لهفةٍ قلقة:

خير يا ماما؟ كلّم كويسين؟

أجابتها "آمنة" بترددٍ كبير معكوسٍ على كامل ملامحها:

أه الحمد لله ...

حانت منها نظرة سريعة من فوق كتفها، لتنظر إلى زوجها الواقف خلفها، ثم
جذبتها من ذراعها، لتهمس لها في تبرم:

-إنتي جبتي جوزك معاكى ليه؟

اندهشت من سؤالها الباعث على كل الريبة، وهتفت في استنكارٍ:

-في إيه يا ماما؟ هو إنتي مش عاوزاه يكون موجود ولا إيه؟

بدا وكأنها غير مُرحبة بوجوده، وظهر هذا جليًا في نبرتها وهي تخبرها بصوتها

الخافت، خشية أن يسمع "تيم" حوارهما:

-أصل آ...

قاطعتها "فيروزة" بصبرٍ نافذٍ، وقد استحوذت عليها شكوكها:

ما تكلمي يا ماما على طول.

ولج "تميم" لداخل الصالة متلكنًا في مشيه، ومتعجبًا في نفس الوقت من الاستقبال الفاتر من قبل حماته، على غير المعتاد منها. ألقى التحية، وانتظر في مكانه متوقعًا أن تقوم بالرد عليه؛ لكن باغت ثلاثتهم ظهور "فضل" من الداخل ليصبح عاليًا بنبرة أبرزت نيته غير المبشرة بالخير:

-أصلها خايفة تقولك إن أنا هنا.

ما إن أبصرته "فيروزة" حتى انفجرت صارخة في وجهه بانفعالٍ تصاعد في صدرها فجأة:

-إنت بتعمل إيه يا حيوان في بيتنا؟!!

علق عليها بوقاحة فجأة وهو يتصنع الضحك لاستفزازها:

-جاي أتملى في جمال أمك.

أشارت له "فيروزة" بسبابته طاردة إياه بإهانةٍ لاذعة:

-اطلع برا يا (...)

بينما هدر "تميم" في تحفٍزٍ وقد تقدم في خطاه، ليتجاوز زوجته، ودمائه تغلي
وتفور في حمئة شديدة الوطيس:

-البغل النجس ده بيعمل إيه هنا؟

نظر "فضل" إليهما شزراً، كأنما يستمتع بمشهد إهائته، وقال في برودٍ قاصداً
إخراجهما عن شعورهما:

-بالراحة يا عريس الغفلة على نفسك، ألا يطلقك عرق!

هدده "تميم" بنبرة مظلمة، وعيناه تحتقان بشدة:

-إنت مش عاوز ترحم نفسك من الأذى؟ إيه ما بتحرمش؟!

حاولت "فيروزة" منعه من الاقتراب منه، لأنها تعلم تمام العلم أنه قادرٌ على
استدراجه نحو ارتكاب جريمة ما وسط غضبه الأعمى، وتوريطه بشكلٍ
تعجز فيه عن إنقاذه، فتعلقت بذراعه، وجذبتة إلى الخلف بكل قوتها؛ لكن
"فضل" استمر في استثارة أعصاب المتواجدين بتصريحه غير البريء:

يا عم ده أنا جاي أخدمك خدمة العمر، وأعمل فيك معروف.

صاح به "تميم" بنبرة حادة، ونظراته المزدرية تطوف عليه:

-إنت يطلع منك معروف؟!!!

كركر ضاحكًا بصورة بعثت الغثيان على النفس، قبل أن يتر ضحكاته
المفتعلة ليردد في خبث:

مش بكشفلك حقيقة مراتك!!

اهتاجت أعصاب "تميم"، وارتفع هدير صوته المهدد بشدة، وهو يلوح
بسبابته أمام وجهه:

إياك لسانك الزفر يغلط فيها.

دس "فضل" يده في جيب بنطاله، ليخرج ما خبأ فيه، قبل أن ينطق في
وضاعةٍ مقبئة، ونظراته النارية مسلطة عليها:

ده الغلط كله منها

أبرز قطعة ثيابها التحتية نُصب أعين ثلاثتهم، وتابع مبتسمًا بابتسامة
شيطانية:

-وبأمارة ما كانت لبسالي ده.

شهقت "فيروزة" في صدمة، وارتخت قبضتيها عن ذراع "تميم" غير مصدقة
ما أحضره معها، بينما اعتلى الدهول المرتاع ملامح وجه "آمنة" وهي تتطلع
بعينين جاحظتين إلى ما يخص ابنتها، هوى قلبها بين قدميها وهو يسألها
علنا:

مش ده لبس بنتك الطاهرة يا أم الشريفة ولا أنا غلطان؟!
ردت عليه زوجة عمه متسائلة بصوتٍ مهتزٍ، بما أوحى بشيءٍ من الإدانة
لابنتها:

إيه اللي جابه معاك؟

لوح "فضل" بقطعة الثياب في الهواء مستمتعًا بما رآه من ردات فعل
متباينة، وقد أيقن أن خطته أصابت هدفها، وفي مقتلٍ! ما سيقال بعد
ذلك أو يبرر لن يجدي نفعًا، فالشرح حتمًا وقع في علاقة الزوج بزوجه
بمجرد بث نوازع الخيانة وزرع الشكوك فيها، أفاق من لحظة انتصاره الجليلة
على صوت "تميم" الصارخ في جنونٍ:

إنت اتخبلت في مخك؟

استوعبت "فيروزة" ما فعله، وخرجت عن صمتها المصدوم، لتصرخ هي
الأخرى بتشنجٍ واهتياج:

يا قدر، يا حيوان، يا (...)!

نظرة سريعة ألقتها على وجه زوجها المتقلص للغاية؛ كأنما استعرت نيرانِ أتونٍ
من الجحيم أسفل جلده، رأت نظراته محتقنة على الأخير، كل ما فيه ينضح
بغضبٍ حارق لكل ما هو حي، تحركت لتقف أمامه، ورفعت يدها لتمسك
بذقنه، وتجبره على النظر إليها، ثم راحت تدافع عن نفسها باستماتةٍ وخرقة:

-والله العظيم ده كداب يا "تميم"، أنا معرفش حاجة عن اللي معاه ده!
هتف "فضل" من ورائها قائلاً بسخريةً متهمّةً، كما لو كان يزيد من تأجيج
النيران المحتدة:

قالوا للحرامي إحلف قال جالك الفرج.

النظرة في وجه "تميم" في تلك اللحظة تعني رغبة أكيدة، ونية صريحة غير
نادمة، في إزهاق روح أحدهم في التو؛ لكن جلّ ما كانت تخشاه وسط هذا
التهديد الخطير، هو تصديقه لكذبتة الدنيئة، وانسياقه وراء حيلته المهلكة،
خاصة وهو مستمّر في اتهامها بكل ما بذىء:

-أنا شباب زي بعض، قولي كانت جامدة معاك ولا مسدتش
!؟

.....

الفصل المائة وثمانون (الأخير - الجزء الأول)

من قال أن لحظات السعادة ممتدة للأبد؟ هناك فترات إخفاق، وفترات تعاسة، فترات زهو، وفترات إحباط، فترات صحو، وفترات انكسار، فترات فرح، وفترات ألم ومعاناة. أربعة أشهر مضت عليها معه ذاقت فيها صنوف الحب، وأصناف الشوق، ربما تخلل تلك المدة بعض المشاحنات البسيطة، الخلافات في وجهة النظر، والقليل من المعارضات لبعض الأمور العادية؛ لكنها في المجمل لم تصل لهذا الحد الخطير مُطلقاً!

أمام سيل اتهامات "فضل" الباطلة حملت "فيروزة" بعينين جاحظتين فيه، وقد بدأ جسدها في التصلب، تبيست قبضتها على ذراع زوجها،

غير مصدقة كم الافتراء الظالم الملقى عليها، وهذه المرة الطعن المباشر في شرفها، مع فارق أنه قصد عن عمدٍ تليفيق هذا الاتهام الخسيس في وجود زوجها لتجعلها في موضع شك، واحتمالية ظنه السوء بها، وهذا جلّ ما كانت تخشاه، أن ينساق وراء بذاءات لسانه النجس!

طفا بقوة كل ما هو بشع، سيء، مهين، ومؤلّم من ذكريات على سطح ذاكرتها، فتجسدت المشاهد حيةً في مخيلتها، وتزاحمت مع مثيلاتها، لتعود إلى نقطة البداية، إلى حيث بدأ كل شيءٍ من قساوة واتهام، ضرب واعتداء، كسرة وانهزام، فأصبحت على شفير السقوط في دوامة تدمير ذاتها. لم تكن "فيروزة" لتحمل خسارة آخر من منحته ثقته، من أعطته نفسها، ومن وهبته البقية المتبقية من روحها، فقط إن صدق للحظة أنها مُدانة، وأنها باعت جسدها لغيره، حتماً ستكون النهاية؛ لكنها مُهلكة على كل الأصعدة. ماذا عن زرع الشكوك في نفسه؟ ألن يكون ذلك كفيلاً بزعزعة أي استقرار مهما بلغ الحب بينهما مبلغه؟

تخيرت، واحتارت، وتشتت، وانهارت، فعجزت عن النطق، ووصلت إلى حالةٍ من الجمود الإجباري، ذلك الحجاب الذي يفرضه عقلها قسراً عليها، ليجعلها فاقدة للإدراك الحسي، فتصبح جسداً بل روح، عادت "فيروزة" إلى تلك الحالة المرضية التي كانت تصيها عندما لا تتحمل مواجهة حقيقة شديدة الإيلام تصدها بالواقع، متوقعة أن النهاية قد باتت وشيكة،

وشبكة للغاية، والخسارة حقًا لن تُحتمل مهما ادعت قدرتها على تجاوز
الأزمة، الهروب كان سيئًا، وإن كان مؤقتًا!

أحس "تميم" بزوجته تتخشب وهي متعلقة بذراعه، شعر بانتفاضات
متشنجة تصيبها، فالتفت ينظر لها سريعًا فرأى وجهها شاحبًا، تعبيراتها
جامدة، ونظراتها متسعة في جحوظ، والأهم أنها فارغة من الحياة. أدرك
حينئذ -وبعد معاهدته لمعظم نوباتها- أنها تمر بأزمة أخرى جديدة؛ لكنها
أشد وطأة في شراستها، جذبها بتخوف لم يظهره إلى صدره، وحاوطها
بذراعه بعد أن استله من أسفل قبضتها ليحول دون سقوطها. تابع "فضل"
ما يفعله بتشيف، وهتف في استفزاز:

-شكلها قصرت معاك!

هدر به "تميم" لاعتنا بنظرات توحشت على الأخير:
-أنا هدفك بالحيا بعد ما أقطع لسانك ده يا (...).

تصنع الضحك، وعلق في سخرية:

-ولا تقدر، بدل ما تتشطر عليا، وتعمل فيها راجل، لِمَ مراتك.

التقطت يد "تميم" الأخرى مطفأة السجائر في خفة، ثم قذفها في وجهه
بقوة، فأصابت أنفه، وجعلته يتأوه من الألم، استغل التهاه ليعبد "فيروزة"
عن مرمى بصره، وسحبها للخلف بذراعه المحكمة حول جسدها، كأنما يريد أن

يؤكد لها بوجوده إلى جوارها، ومع هذا القرب الشديد، أنه ملاذها الآمن،
ودرعها الحصين، والقادر على الذود عنها باستبسالٍ واستماتة، حتى الرmq
الأخير. ظل يضمها في هذه الثواني الحرجة، كأنما يريد لها أن تنزوي بين
ضلوعه، فتختبئ من المخاطر المحاصرة بها، إلى أن يدراً عنها الأذى بكافة
أشكاله وصوره.

واصل "تميم" تهديده اللفظي له:

-نهايتك على أيدي النهاردة.

تحسس "فضل" التورم البارز في أنفه، وهتف هازئاً:

-إنت أخرك كلمتين وبس ...

صمت "تميم" لانشغاله بدفقةٍ أخرى من التشنجات الخفيفة التي نالت من
جسد زوجته الغائبة عن الوعي، احتواها بذراعيه، وحاول السيطرة على
نوبتها، فاعتقد "فضل" أنه في موضع قوةٍ بسكوت الأول، وغمرته حالة من
الشعور بنشوة الانتصار، خاصة أنه اعتبر ما يردده من عبارات مهددة عن
انتقامه الأرعن منه مجرد هذيان فارغ، لن يحدث أبداً، فرك أنفه، وفتح
أوداجه مردداً في حقارة:

عشان تحس إنك راجل قصاد واحدة آ...

لم يتم جملة الموحية إهانة فجة للنهاية، فقد سبقته يد "تميم" التي أمسكت بمزهريّة صغيرة، ليقذفها في وجهه بكل ما يعتريه في هذه اللحظة من غضب وغليل مشتعلٍ بصدّره، فأصابته إصابة مباشرة في حاجبه، وجعلت خيطًا عريضًا من الدماء يتفجر فيه، وينزف بغزارة، ليغرق صدغه، اعتقد "فضل" أنه قد أطاح بعينه، وراح يتحسسها بهلع كبير، ناظرًا إلى الدماء المصبوغة على أصابعه، في حين اندفعت "آمنة" هي الأخرى مدافعة عن ابنتها، بغريزة أمومية انتفضت فيها:

-اتقي الله، إنت كداب وضلالي، أنا بنتي مش كده!

رد عليها بحرقّة:

-اقلب القِدرَة على فومها.

شهقت مستنكرة بشاعة لسانه القاذف بالاتهامات الباطلة، وتطلعت إليه مصعوقة، غير مصدقة ما يردده ببذاءة مستبيحًا الخوض في الأعراض بمثل هذا الفجور. لم يكن "فضل" قد أفاق بعد من إصابته الأولى، إلا وقد تلقى أخرى جعلته يصرخ عاليًا من شدة الألم، حيث وجد مدية "تميم" مقذوفة في اتجاهه، وأصابت هدفها في التو، وغرزت بعمق في كتفه، مما جعل صدى صراخه يبدو كعويل النساء المكومات. لم يستطع كبّح صوت صرخاته الموجوعة، ولم يقدر على المساس بالمدية المغروزة، تركها في مكانها

دون أن يمسه، ليشرع بعدها مستدعيًا بعض الرجال المستأجرين، ممن اتفق معهم سابقًا على الصعود، والوقوف إلى جواره، عندما تتطلب الحاجة لذلك، وها قد أتى دورهم ليعينوه على شره!

.....

استدعاهم "فضل" برنة من هاتفه المحمول، فجاءوا ملبيين النداء في الحال، اقتحموا المنزل بعصيم، وسلاسلهم الحديدية، مع بعض الأسلحة البيضاء، وتفشوا في أرجاء الصالة كالجراد المنتشر، ليحاوطوا بـ "تميم" وزوجته، ويشكلوا حائطًا بشريًا، يمنع كائنًا من كان من الاقتراب من رب عملهم الحالي، ارتاعت "آمنة" من هيئتهم الإجرامية، وفزعت بشدة لما وجدته في أيديهم من أدوات قتل بدائية، شهقت صارخة في هلع، وانكمشت على نفسها، لتستحثها غريزة البقاء على التحرك، فأسرعت في خطاها مختبئة خلف ظهر "تميم"، الملجأ والملتجأ لكل من هو مستضعف.. كان الأخير ينظر باستهجان حارق إلى ما يفعله هذا الوغد الحقير، يحاول تقييم الأمور في روية وتعقل، فحياة الأبرياء على المحك!

تخطى "فضل" في فجوره أي تصور، وفاق في تنديسه حرمت المنزل أي تخيل، كيف بلغت به الجراءة أن يقوم بهذه الأفعال المستنكرة مع من تجمعه

صلة الدم المباشرة؟ فماذا إن كان غريبًا عنه؟ أي انحطاط وصل إليه
بتصرفاته المأجنة؟!

وكأنه استعاد شيئًا من كرامته المبعثرة بتواجدهم حوله، فنطق "فضل"
بتفاخر:

جيتم في وقتكم.

رد عليه "تميم" بهدير مجلي، قاصدًا إهائته، رغم احتمائه وسط هؤلاء
المجرمين:

جايب اللي تتحمى فيه يا (...)?!!!

اشرب بعنقه ليتمكن من النظر إليه من خلف أظھر عتاة الإجرام، ورد
عليه في نبرة يشوبها الألم:

ما أنا عارفك، إيدك طارشة، والصرلحة مش ضاربة معايا أتخرشم، وأنا
راجل داخل على وش جواز، من بنت بنوت، لسه بشوكتها، مش واحدة
طريقها سالك لكل حد ماشي عليه.

هدر به "تميم" بصوت مجلل به كل الوعيد:

-هتوت على إيدي، وهفصل رقبتك عن جسمك.

استمر "فضل" في استفزازه علناً وفي حضرة هؤلاء، معتقداً أنهم يمنعون بطشه عنه:

-بدل ما تقطعلي رقبتى، ادبجها هي، تلاقىها مقرطسك.

لو كانت النظرات تحرق لأصبح "فضل" في التورماداً متناهراً، تعصف به الرياح، فيتبخر في الهواء، ولا يبقى له أي أثر، هاج "تميم" متوعداً بشراسة منقطعة النظر:

إنت ساعاتك في الدنيا معدودة!

تساءل أحد المجرمين في تحفّر، وهو يرفع عصاه الغليظة في الهواء، كتهديد صريح:

أؤمر يا ريس ونجيب خبر كل اللي هنا.

ضحك بافتعالٍ، وقال مدعيًا عدم أكثرائه:

سيبوه يهلفط، ما هي الشيلة ثقيلة ...

ثم أمسك بقطعة الثياب التحتية، وقذف بها عند قدميه، بعد أن أشار لأحد الرجال بالتحرك جانباً، كأنه يعطيه دليل الإدانة، ليضيف بعدها في تهكم سافر:

خده، جاز ينفعك.

لولا وجود زوجته في أحضانه، ووالدتها المغلوبة على أمرها خلفه، طالبة
لحمايته، لانقض في الحال عليه، زاهقاً روحه، ولما تركه على قيد الحياة، غير
عابئ بمن حوله من أكثر البشر- شرًا. نظرات "تميم" وحدها كانت كفيلة
بإفزاع "فضل"، ففر هاربًا ومختبئًا خلف الحائط البشري، وهو غير قادرٍ
على إخراج المديّة من لحم كتفه، ظل يردد بصوتٍ شبه ساخر رغم
حشرجته:

ياما كان نفسي فيك يا بلح، بس طلعت لا مؤاخذه آ....

افتعل الضحك قبل أن يختفي عن المشهد، متعمدًا إتلاف أعصاب "تميم"
بصوته المنفر، وجعل حمته الذكورية كرجلٍ شرقي ثور، ويثأر لنفسه بقتل
زوجته اعتقادًا منه أنها غارقة حتى النخاع في الخيانة .. هكذا أوهم نفسه،
وظن أنه نجح في ذلك.

.....

كل شيءٍ قابل للتغير إلا شرور النفس وخبثها، حين تتمكن من الشخص،
وتصبح سمة متأصلة فيها، حينئذ يتحول لكتلة ملعونة تُفسد من تطالها!
كانت لحظات سريعة في مرورها، عصبية في الإحساس بها! بمجرد أن غادر
"فضل" ومن معه من معتادي الإجرام منزلها، هرولت "آمنة" نحو باب

المنزل توصده، كأنما تخشى بشدة من احتمالية عودتهم، وتهديدهم مرة أخرى بشكلٍ أوقع وأقسى.

تنفست الصعداء، وراحت تسحب شهيقاً وراء الآخر، لتثبط به من كم انفعالات الرهبة المسيطرة عليها، ثم كففت دمعها المنساب بكفيها، لتستدير بعدها ناظرة إلى "تميم" الذي انحنى حاملاً زوجته بين ذراعيه، لم تجد أثراً لقطعة الثياب التي ألقتها أرضاً، نفضت حيرتها، وانتبهت مجدداً إليه، شيعته بنظراتها الملتاعة وهو يدخلها إلى غرفتها، لتبدأ بعدها في السير المتعجل واللاحق به، تسمرت عند سريرها وقد رأتها يمددها عليه، شملته بنظراتها الحزينة هاتفة بنبرة مدافعة:

-والله العظيم ده واد كداب، بنتي مش كده، هي مظلومة.

سكت ظاهرياً، ولم يسكن ما بداخله من عواصف محتاجة، كررت كلامها من جديد بتوسل:

-ماتصدقوش يا ابني، عُمر ما "فيروزة" تعمل الغلط، هو ضلالي، وعاوز يخرب عليكم!

كأنها تُحادث الفراغ، لم يلتفت "تميم" ناحيتها، وبقي يوليها ظهره، نادته بصوتٍ أموي يحمل كل الرجاء في طياته:

- "تميم" يا ابني.

لم يكن بحاجة لسماع كلامها هذا ليصدق من هي زوجته، هو يعلم تمام العلم مدى نقاء سريرتها، ومدى طهرها، ناهيك عن معرفته بسر- عفتها، هذا الأمر الذي أبقاها طي الكتان رغم فرحته العارمة بكونه أول رجل في حياتها. استقام واقفاً، ومنحها تلك النظرة المميّنة، المليئة بكل ما يستعر فيه من غضبٍ وحق، قبل أن يدمدم بهسيسٍ ثقيل:

-النهاردة هاجيب أجله.

هتفت مدعورة تستجديه:

-لأ يا "تميم"، ماتوديش نفسك في داهية.

الكلام المسترسل دون تنفيذٍ فعلي على أرض الواقع لن يأتي بمفعوله مع أمثاله، مثله يحتاج لعقاب رادع يقضي- عليه نهائياً، وقد آن وقت حصاد رأسه الخبيث!

.....

أخفت الظلمة السائدة في عينيه خوفه النابع من قلبه على زوجته الراقدة أمامه، لا حول لها ولا قوة، حل "تميم" ربطة حجاب رأسها، وأرخاه عن عنقها، ثم جلس على الطرف قريباً منها، امتدت يده لتدلك برفق وجتها الباردة، باعثاً الدفء على بشرتها، ناداها رغم اختناق صوته بغليله الثائر فيه:

- "فيروزة" ...

صمت لهنية ليضبط نبرته، ثم تابع في ثباتٍ عجيب، كأنما يريدُها أن تتبع
صوته في غياباتِها:

-أنا عارف إنك سمعاني ...

أحنى جسده عليها، وأمال رأسه ناحية وجهها، ليبدو صوته قريبًا، مؤثرًا،
ونافذًا إلى أعماقها، لعله يرشدها في ضلالاتها لنقطة العودة إلى إدراكها:

-إنتي أشرف واحدة عرفتُها، فخر لأي حد يعرفك.

لامست شفتاه جبينها، وراح يتابع كلامه في صوتٍ خفيض:

-وعمري ما هصدق أي حاجة تتقال عنك.

تراجع عنها مسافة بسيطة لينظر إليها ملء عينيه، لدهشته! وجد العبرات
تنساب من طرفيها وسط هذا الجمود الخفيف المقيد لبدنها، اعتصر- الألم
قلبه، وأضناه، كأنما قد طعنه أحدهم فيه بوخزاتٍ قاتلة، مسح بيده ما بلل
خديها، وهتف قاطعًا وعدًا لن يقبل مُطلقًا بالتراجع عنه:

-حقك هاجيبه، ولو فيها موتي!

نهض من مكانه، واستقام واقفًا ليبدو أكثر شموخًا، صلابة، وقسوة عن
ذي قبل، أخرج هاتفه المحمول من جيبه، وعبث في قائمة الأسماء لديه،

باحثًا عن اسم بعينه، هاتف أولاً الطبيبة "ريم"؛ لكن تعذر عليه الوصول إليها، فرقمها كان خارج التغطية، لعن في صوت خفيض عدم قدرته على التواصل معها، وأدار رأسه محققًا في وجه "آمنة" التي كانت تبكي ابنتها في حسرة وهي جالسة عند الطرف الآخر من الفراش، تحفز في وقفته المنتصبة واشتات مرة أخرى عندما سمعها تنوح بانكسار:

-اشمعي إتي يا بنتي اللي بيتعمل فيكي كده؟ ليه الكل دايماً جاي عليكي؟!
مهما حاول ما زال عاجزًا عن تهدئة انفعالاته المستثارة، وتثبيط انفعالاته الهائجة، بالكاد كان يحاول الظهور بمظهر المتعقل المسيطر على الأمور؛ لكنه كان على المحك، يوشك على الانفجار في أي لحظة. سحب شهيقًا عميقًا لفظه دفعة واحدة، وسألها في صوت جاف خالٍ من الضعف:

هو الدوا بتاع "فيروزة" لسه عندك؟

استغرقها الأمر لحظة لتركز معه، أزاحت بظهر كفها دموعها المتدفقة، وأجابته بإيماء مصحوبة من رأسها:

-أيوه، أنا عيناه في درج الكومدينو عندي في الأوضة.

هتف يأمرها بصوت لا يُرد:

هاتيه نديها منه على طول.

قامت واقفة على قدميها، وأطاعته قائلة:

حاضر يا ابني.

انصرف من غرفتها وهي شبه تركض لتأتي له بما طلب، بينما ظل "تميم" باقيًا في موضعه يرمق "فيروزه" بنظراتٍ مطولة، جمعت بين اللوعة، والرغبة في الانتقام.

.....

غالب مشاعره المتأثرة بوهنها، وبدأ في تحكيم صوت العقل، ليستغرق في أفكاره المتصارعة، محاولاً ترتيبها ليصل إلى الطريقة المثلى في تحقيق انتقامه العنيف. فرك "تميم" رأسه المضغوط بكفيه، مانعاً نفسه من فقدان السيطرة على ما تبقى به من انضباط مهدد بالانهيار، من الجيد أن الصغيرة "رقية" وأبيها كانا غير متواجدين بالمنزل، وإلا لتحولت الأمور لفوضى عارمة!

طراً بباله أحد الأسماء المحظور عليه التواصل معه بأي شكلٍ، لكون شره مستفحلاً، ووحشياً للغاية؛ لكن لا مناص من مخالفة الاتفاق، والوصول إليه في التو، لم يفكر مرتين، وإلا لأظهر تردده وتراجع عما انتواه، نظراً لحساسية الوضع المحيط بزوجته. اتصل بـ "ناجي" قائلاً دون تمهيد:

فضيلي نفسك حالاً.

جاءه صوته متسائلاً في اهتمام:

ليه يا ريسنا؟

أجابه بعينين غائمتين، وبنبرة ثابتة، باعثة على القلق:

عاوزك توصل لكبير "الهجامة".

هتف "ناجي" مصدومًا:

مين؟

قال بنفس الثبات الجاد، والممزوج بالعزم:

ألي سمعته، رتبلي أداة معاه، والنهارة!

ظهر التردد على صوت "ناجي" وهو يخاطبه:

ماشى، بس ده آ... هايبقى صعب شوية، إنت عارف الجماعة دول خطرين

...

بدا غير مبالٍ بتحذيره المتواري، ورد عليه متسائلًا بتصميم:

هتعرف توصله ولا لأ؟

أجابه بعد سكوتٍ طفيف:

أيوه، بس إنت عاوز كبيرهم ليه؟ لو في مصلحة تقدر تقوم بيها قولي، وآ..

دون إعطائه أي تفاصيلٍ مشبعة لفضوله المستريب، قاطعه "تميم" بصوتٍ مبتس، يؤكد على حتمية تنفيذه:

-اللي أمرتك بيه تعمله وانت ساكت، مفهوم؟

لم ينتظر تعليقه، أو حتى مسأيرته في الحوار، أغلق الاتصال فجأة، وكل ما فيه يدعو للثأر الفوري ممن نهش في عرض زوجته بافترائه المهترئ!

.....

بكت بكاء المعذب العاجز عن إظهار براءته، ومن حوله يؤكدون إدانته بلا دليل، إلى أن أتت نجدة السماء، فكان اتصالها الملح، والذي لم تتنبه إليه في البداية، لانشغالها بما يحدث مع ابنتها؛ لكن ما إن سمعت رنين الهاتف، ونظرت إلى الرقم الغريب الذي لم يتوقف عن الرنين، حتى أجابت عليه، تفاجأت بسماع صوت "سعاد"، وهتفت قائلة بلهاتٍ:

-كويس إنك اتكلمتي في وقتك.

نطقت الأخيرة تحذرها في تشديد، وبصوتٍ مرتفع -أقرب للصراخ- بات مسموعًا لـ "تميم" أيضًا:

-خدي بالك يا "آمنة"، "فضل" شكله ناوي على نية سودة لبنتك ...

تقدمت "آمنة" بالهاتف ناحية زوج ابنتها، ليسمع بوضوح ما تنطق به،
فالتقطت أذناه كلامها القائل:

-أنا سمعاه بنفسني بيتفق مع كام حد يجوا لعندك.

طلبت منها في تلهف بعد أن لامست دليل براءة ابنتها باعترافها النزق:
عيدي الكلام ده ثاني.

في صبرٍ نافذ كررت عليها:

-بقولك "فضل" ناوي يعمل في بنتك حاجة، حلفان يأذيها، ويطلع عليها
القرافة، خدي بالك منها، ده بقى شيطان ماشي على الأرض.
عندئذ اختطف "تميم" الهاتف من يد حماته، ووضعه على أذنه صائحًا
بانفعالٍ يحوي تهديدًا صريحًا:

-شوفي يا حاجة ابنك طالع النهاردة القرافة، ويا أنا يا هو!

لم يكثر بشهقاتها المصدومة، ولا بالهمهمات الجانبية الصادرة حولها، أعاد
الهاتف إلى "آمنة"، وتراجع مبتعدًا قبل أن يخرج عن طور سكونه الزائف.
أنهت معها الاتصال في عجلة، وتبعته قائلة بصدرٍ متهدج:

-سمعت بنفسك؟ شوفت كان ناوي على إيه من الأول؟

لم يقم وزنًا لكلامها، ورد بصوتٍ اخشوشن على الأخير:

كل ده ما يهنيش، هو قضى على اللي باقي من عمره لما فكر يمس مراتي!
صوته المخوف بهذا الهدير جعلها ترتجف، ترتعب من تخيل ما يمكن أن
يفعله به، وتبعات ذلك على مستقبله، أدركت أنه لن يمر الأمر على خير
أبدًا، لذا توسلته في توجيس مرعوب:

-بلاش تضع نفسك عشان واحد زي ده، هي نيتة من الأول وحشة،
ما تخليهوش يخسرك كل حاجة في لحظة طيش، إنت عندك بيت، وعيلة،
ومراتك اللي بتحبك.

لم تشفع توسلاتها في رده عن الإقدام على ما ناواه، أعاقه فقط عن
التحرك حالته زوجته غير المستقرة، تمهل مضطرًا إلى أن يطمئن عليها،
وخلال فترة سكونها الإجبارية أجرى عدة اتصالات هامة، رتب فيها
أوضاعه لمقابلة من يعرف عنه بزعم "الهجامة"، غير مبالي بسماع "آمنة"
لمعلومات مقتضبة عما سيفعله، فكل شيء في لحظة أصبح قاب قوسين أو
أدنى من التحطم والانهيار.

.....

بعد وقتٍ مضى- عليه بطيئًا، استفاقت "فيروزة" من إغماءتها، بتقليب
رأسها يمينًا، ويسارًا، قبل أن تصدر من بين شفتيها تأويهة محملة بالأنات،
ليتبعا صوتها المنادي بتحشرج:

- "تميم"!

كان الصوت خفيصًا بعيدًا، ازداد وضوحًا عندما كررت مرة ثانية:

ما تصدقوش يا "تميم"!

جلس من فوره على طرف الفراش، وقد تركزت عيناه عليها، هزها برفق وهو يبادلها النداء:

- "فيروزة"!

بمجرد أن تسلت نبرته المألوفة إلى إدراكها الحسي، انتفضت مندفة للأمام، وهي ما تزال تصرخ باسمه:

- "تميم"!

جحظت بعينها في فرع، والعرق البارد يتصبب بغزاة من جسدها، لهثت بصدرٍ ناهج، كأنما قد خرجت لتوها من سباقٍ للعدو، ارتعشت شفتها وهي تقول بصوتٍ تحول للبكاء:

ده كداب، مفترى، وآ...

قاطعها قبل أن تتم جملتها للنهاية مؤكدًا:

أنا مصدقك إتي!

اندفعت إلى حضنه المفتوح أمامها، وارتمت فيه، باحثة عن أمانها المفقود بين ذراعيه، ضمها إلى صدره، وألصقها به، تاركًا إياها تبكي على كتفه في حرقه وقهر، ورغم ما يعتريه حاليًا من مشاعر متأججة مستعرة، إلا أنه تعامل مع زوجته بهدوء احتوى ما يريد بها حاليًا من اضطراب وخوف. سكنت قليلًا ورأسها مسنودة على كتفه، في تلك اللحظة بالذات لم تجد من الكلمات ما تعبر به عما يجوس بداخلها من أحاسيس مختلطة، ما بين الخوف والأمان، الرهبة والاطمئنان.

اشتدت ضمته، وأحست بقوته تُعيد إليها ما ظنت أنها فقدته، كادت تستكين كليًا لولا أن همس لها بعزم أروعها:
حقك هاجبيه.

نبرة صوته أوحى بأنه لا ينوي خيرًا على أدنى الأصعدة، حتمًا سيلقي بنفسه في التهلكة من أجل حمايتها، ويا ليت ما يفعل! أرجعت ظهرها للخلف لتنظر إليه بارتياح من وسط غيمة الدموع المنتشرة في حدقتها، سأله بقلب يقصف بعنف في التياح:

إنت هتعمل إيه بالضبط؟

لم يجبها، مما ضاعف المخاوف بداخلها، وجعل ديب الخوف يتفشى أكثر في كامل وجدانها، هتفت به تستجديه:

ما توديش نفسك في داهية يا "تميم" عشان واحد جبان زي ده، أنا ...
انقطع صوتها وتحشرج، فقاومت بكائها الوشيك قدر المستطاع لتخبره بلوعة
حقيقية:

-أنا عاوزاك جمبي.

النظرة القاسية في عينيه أكدت أنه لن يتراجع على الإطلاق مهما ذرفت من
عبرات، استعطفته بصوت تحول للهاث من بين نهنات بكائها:
يا "تميم" ده هيخليك بالي عمله نخسر- بعض، وهو ده الي عايزه في
الأساس.

لم يتنسم، ولم تلمن ملامحه، بدا وجهه كالصخر جامدًا، غير مقروء
التعبيرات، امتدت يداه لتحتضن وجهها المرتجف، نظر لها مليًا، وقال
بصوت لا يحمل الشفقة، وتصميم قذف الرعب ليس فقط في قلبها:
هرحك منه نهائي !!

الفصل المائة وثمانون (الأخير - الجزء الثاني)

بُهِتت، وذُهِلت، وحل برأسها كل الارتعاب، شعرت بعد تصميمه غير القابل للعودة بانقباضة قاسية تعصف بثنايا قلبها، بل كاد من إثر صدمتها المخيفة ينسحق، ينمحق، ويتمزق إلى أشلاء. هبت "فيروزة" مذعورة واضعة كلتا راحتيها على كفيه المحتضنين لوجهه تتوسله بعينين تستدعيان أنهر الدموع من شدة خوفها عليه:

-لأ يا "تميم"، أوعى تعمل كده.

برفقي لا يخلو من قليلٍ من القوة استل "تميم" كفيه من أسفل يديها، وهتف في إصرارٍ ضاعف من مخاوفها أضعافاً مضاعفة:

معدتش ينفع.

نهض من جوارها متغاضياً عن نظراتها المرتاعة، فقامت بدورها من موضع رقدتها بعد أن أزاحت الغطاء عن جسدها، هرولت خلفه مقاومة الدوار الخفيف الذي أصابها جراء حركتها المفاجئة، وصرخت به باستجداءٍ بالك:

-استنى يا "تميم"، بالله عليك تسمعني.

توقف عن السير ليستدير ناحيتها، لحقت به، وتابعت في رجاء أكبر:
هو ده اللي عاوزه منك، يقضي عليك وعليا، يفرق ما بيننا، يضيعنا.
بدت ملامحه أكثر صلابة، تصميمًا، وعزمًا على المضي قدمًا حتى النهاية في
انتقامه الحتمي، أخبرها بغير استرخاء:

-الي يمسك بسوء مالوش الحق إنه يعيش.

جال بخاطرها تصورًا خياليًا لنهاية الوضع بشكلٍ شنيع ومأساوي، فقط إن لم
تبذل كل ما في وسعها لإيقافه، لذا وضعت "فيروزة" يديها المرتجفتين على
ذراعيه ترجوه بقلبٍ مذعور، وتعابيرٍ لا تتم سوى عن الهلع:

عشان خاطري اهدى، أنا خايفة عليك، مقدرش أعيش من غيرك.

تلك الكلمات المؤثرة، النابعة من القلب، والتي نفذت إلى ما بين ضلوعه،
صدَّ بإرادة من حديد تأثيرها، وخاطبها بصوتٍ جافٍ، أجش، كأنما لم يعرف
الرفق أبدًا:

-حقك هاجيبه، ولو فيها موتي.

انخلع فؤادها أكثر، وظنت أنه سيقتلع من شدة ارتياحها، بكت بحرقة،
واستعطفته، وهي بالكاد تجثو على ركبتيها، علَّه يستجيب لتوسلاتها:

يا "تميم"!

أمسك بها من كتفها يجبرها على النهوض وهو يأمرها:

-اقفي على رجلك، مش اللي زي ده يخليكي تركعي.

من بين دموعها الغزيرة اعترفت له بصدق، بما نفذ إلى الوجدان كالسهم المارق:

عشانك أعمل كل حاجة، بس ماتضعش من إيدي.

جذبها إلى أحضانه، مشددًا من ضمته الأخيرة لها مؤكدًا لها:

خليكي فأكرة إن محبتش إلا إتي.

لم تستطع رده، ولا حتى إيقافه، انسل من حضنها، مودعًا إياها، ومنطلقًا

خارج المنزل، وصوت صراخها يناديه باحترق يشع في كامل روحها:

- "تميم"!

.....

في مكانٍ شبه مقفر، يحاوطه الخراب والركام من كل جانب، ناهيك عن

أكوام القمامة ذات الرائحة العفنة، أوقف "ناجي" سيارته، عند ما تُعد مجازًا

بوابة للمرور إلى الداخل، من الصعب تخيل كيف تكون الحياة في منطقة

منفرة كتلك، وللهشة هناك مئات الأشخاص من كل الأعمار يعجون بها.

بنظراتٍ شمولية حذرة مسح محيطه بناظريه، وتقدم للأمام مُلقياً التحية بثبات:

-سلام عليكم.

رمقه أحد الرجال من ذوي الوجوه الإجرامية بنظرة احتقارية، قبل أن يرد مقتضباً، كما لو كان يترفع عن الحديث معه:

-وعليكم ...

في حين سألّه آخر مستفهماً بنبرة غليظة، وقد أبرز سلاحاً آلياً كان ملتصقاً بجانبه:

-إنت مين؟ وعاوز مين في حتتنا.

ابتلع "ناجي" ريقه، ووزع نظراته بينهما، قبل أن يجيب:
-كبير "الهجامة".

ضحك المتواجدون في سخرية هازئة منه، ليعلق الرجل الأول بتهكم شبه مهين:

-ليه هو كوبارتنا فاضي يقابل اللي زيك؟

استجمع جأشه أمام تلك الوجوه الشيطانية، ورد في هدوء:

-قوله من طرف المعلم "تميم سلطان"، وهو هيقابلني.

أمسك الرجل الثاني بياقة "ناجي"، وعبث بها بسخطٍ، فأبعد الأول يده عنه، وحده بنظرة قاسية، فلوى الرجل ثغره في ازدراءٍ، ثم استطرد:
-شكلك واثق أوي من نفسك.

رد عليه بجدية رسمها على كل ملامحه:

عرفه إني موجود، وبلاش تضيع وقتي ووقتك.

رغم لمحة التهديد المستترة في صوته، إلا أن ذلك الرجل تغاضى عنها مؤقتًا ريثما يتأكد من صدق أقواله، وإلا لصب عليه غضبه. بإشارة صارمة من عينيه صاح في أحد الواقفين يأمرهم:

-بلغ العصفورة.

رد عليه آخر مُظهرًا طاعته له:

-وجب يا زميل.

انتظر "ناجي" بتوترٍ جاهد لإخفائه على مقربة من البوابة، غير قادرٍ حتى على تغطية أنفه، لمنع تلك الرائحة المنفرة من النفاذ إلى أنفه، وإلا لما سَلِمَ من تعليقاتهم السخيفة الهازئة به. تنبه لصوت أحدهم يسأله في نبرة تهكمية:

-والحلو من نواحيننا، ولا من فين؟

ترفع وهو يجاوبه بسخافة:

من بعيد.

قبل أن يبادر بالرد عليه ظهر من يدعى بـ "العصفورة" هاتفاً بلهاتٍ:
خلية يخش، الكوبارة مستنيه.

تنحوا الرجال للجانب، وأزاحوا العوارض الخشبية، ليتمكن من الدخول
تاركاً سيارته بالخارج، اصطحبه "العصفورة" في عربة التوكتوك عبر ممرات
ضيقة، وأزقة أكثر ضيقاً بين بيوت مبنية من الصفيح والطين اللبن إلى
فضاءٍ فسيح، بعيداً عن الرائحة القابضة، ليستنشق بعض الهواء النظيف،
كان وسط كل هذا الخراب والبؤس يقبع بيتاً ضخمًا، وفخمًا في هيئته، على
النقيض كلياً مع مظاهر الفقر المدقع بالخارج، حينئذ أدرك أنه مجرد تغطية
محكمة لتخبة ما يحدث بالداخل.

ترجل "ناجي" من العربة، ليقابل فئة أخرى من الرجال الأشداء، العتاة،
شديدي الإجرام، كل منهم يحمل في يده سلاحاً حديث الطراز، ألقى عليهم
التحية، وسمحوا له بالمرور إلى باحة البيت، هناك أبصر- حديقة غناء
مورقة، ونافورة تنتفض بالمياه في الوسط، وعلى يساره وضعت بعض
الأرائك المخصصة للحدائق. تباطأت خطواته بالتدرج حين رأى من يُلقب
بـ "الهجامة" جالساً على الأريكة المريحة، وفي يده مبسم النارجيلة،
أخفض رأسه قليلاً احتراماً له وهو يستطرد قائلاً:

-سلام عليكم.

لفظ "الهجوم" سحابة كثيفة من الدخان من رئتيه، وابتسم مرحبًا به بحفاوة استغريها:

-أهلاً بطرف الحبايب، أنا مصدقتش لما جالتي المكلمة.

تشجع "ناجي" ليرفع أنظاره إليه، فرأى شابًا حسن المظهر، ضخم البنيان، على ما يبدو يتمرن يوميًا بانتظام، ليبدو مفتول العضلات، غير الصورة المتوقعة في ذهنه من مقابلة رجلٍ ممتلئ بالشحم واللحم، مترهل الجسد، كبير في السن، وربما في وجهه توجد علامات الإجرام. ما كان ينقصه ليبدو كحارس شخصي لواحدٍ من الشخصيات الهامة هو ارتدائه لبدة رسمية، ورابطة عنق أنيقة. تنحنح "ناجي" معلقًا في لباقة:

-احنا نتشرف بيك يا كبير.

ترك "الهجوم" الملبس من يده، واستقام في جلسته المسترخية، مُسلطًا كافة أنظاره عليه وهو يسأله في اقتضابٍ متحفز:

-خير؟

ازدرد ريقه الجاف في حلقه، وأخبره في هدوء:

-الريس "تميم" عاوز يقابلك .. ضروري.

شدد على كلمته الأخيرة ليؤكد على أهمية الأمر، فما كان من "الهجام" إلا أن قابل ذلك بترحيب واضح وهو يتسم في غرور:

-وأنا جاهز، واعتبر اللي عاوزه حصل من قبل ما أعرف إيه هو.

أخرج "ناجي" مظلوفًا أبيض اللون من جيب بنطاله، وضعه قبالة على الطاولة البلاستيكية القصيرة، وأردف موضحًا:

-وده عربون المحبة.

امتدت يد "الهجام" لتلتقط المظلوف، فضَّه من الجانب ليرى الأوراق النقدية الضخمة، ابتسم في حبور، وعلق:

-دائمًا عامر ..

ثم صاح موجهاً أمره لواحدٍ من الرجال المتواجدين خلفه:

-قوم بالواجب مع ضيفنا.

أطاعه الرجل في انصياع تام وهو يومئ برأسه:

-حاضر يا كوبارتنا.

.....

إن تراخت، واستكانت، ورضخت للأمر الواقع، فهذا يعني حتمًا خسارته للأبد، وهذا ما لن تتحمله مطلقًا بعد أن ذقت فاكهة الجنة معه، وتنعمت

بفردوسها على الأرض في أحضانه. ضمت "فيروزة" طرفي حجابها المحلول
معاً، عقدته دون أن تعبأ بشكل هيئته، وهرولت متابعة ركضها الهابط على
الدرج لتلحق بزوجها وهي تناديه بصوتٍ يح من كثرة الصراخ:
مش هاسيبك تضيع وتضيع نفسك يا "تميم".

التفت أمراً إياها بشيءٍ من الغلظة عند مدخل البناية دون أن يتوقف عن
السير:

-اطلعي فوق.

التفت ساقها بالأخرى، وكادت تنكفئ على وجهها لولا أن أمسكت
بالدرازين، فمنعت نفسها من الوقوع، متوقعة أن يأتي لمساعدتها، وعلى غير
المعتاد منه، لم ينظر خلفه، وواصل مشيه السريع نحو الخارج، عادت إلى
اتزانها، وأكملت ركضها خلفه إلى أن وصلت سيارته، اعترضت فتحه
للباب، ودفعته بكامل انفعالها لتغلقه، ثم استدارت ملتصقة بالباب، لتمنعه
من فتحه، وسألته بصوتٍ لاهث يحمل اللوم:

هتخليني أجري وراك في الشارع كمان؟

بوجه غائم، وتعايير غير مبشرة أخبرها دون أن ترتفع نبرته:

-اسمعي الكلام، واطلعي.

ردت بعنادٍ، دون أن يرف لها جفن:

لو مشيت فأنا رجلي على رجلك.

وقبل أن يفكر في الاحتجاج على تهورها المضاهي له، تحركت من مكانها،
ودارت حول السيارة لتفتح الباب الأمامي، واستقرت في مكانها قائلة
بتصميم:

مش هسيبك لوحدك.

نفخ في صبرٍ نافذ، مدرّكاً أن التخلص منها بات عسيراً، أرشده تفكيره إلى
اصطحابها إلى بيت عائلته، فهناك لن تستطيع المناص، ووقتها سيكمل ما
بدأه .. للنهاية!

.....

خلف البيت المتسع، في مكانٍ يبدو كغرفة احتجازٍ، جدرانها رمادية داكنة،
خالية من النوافذ، إلا من واحدة علوية، يحاوطها الزجاج، وقضبان من
الحديد، بها كراكيب وبقايا أثاث متناثرة بشكلٍ عشوائي عند الأركان،
احتشد بعض الرجال حول واحد مقيد من يديه خلف ظهره، يجثو على
ركبتيه في وضع ذليل، مهين، منكس الرأس، ويصرخ من أثر العدوان
الوحشي عليه. طقطق "الهجوم" أصابع يديه معاً، قبل أن يسطعها هاتفاً في
صوتٍ أرفع أشد الرجال شجاعة:

-الرحمة دي مش عندي، دور عليها عند غيري.

هتف الرجل يتوسله في ذعرٍ مسيطرٍ عليه:

-يا ريس غلطة ومش هتتكرر.

لم يرأف به، ولم يمنحه نظرة غفران، بل بدا أكثر إصرارًا على تعذيبه حتى النهاية، أقبل عليه وقد تناول سلاحًا ناريًا من أحد أتباعه:

-الغلطة عندي بفورة، ورصيدك في السماح خلص.

ارتاع الرجل في فزعٍ أكبر حين رأى ما بيده، وهدر يستعطفه ببكاءٍ وهو يرتجف كليًا من شدة ارتياحه:

-ده أنا راجلك، ذراعك اليمين، طول عمري تحت طوعك.

سحب "الهجوم" زر الأمان عن سلاحه المعبأ بالذخيرة الحية، وأخبره في هدوءٍ قاتل، وهذا البريق الوحشي يظهر في عينيه:

-ذراعي لما يأذيني أقطعه، وانت خونت العهد.

باتت المسافة الفاصلة بينهما خطوتين، والسلاح الناري مصوب نحو رأسه، مُدركًا الحقيقة المؤلمة، أن عمره أوشك على الانقضاء، استخدم آخر وسائله في استجداء شفقتة:

-يا كبير، طب ورحمة "الهجوم" الكبير ما ...

لم يتم جملة له للنهاية، فقد ضغط "الهجوم" على الزناد لتحرر طلقة غادرة استقرت في رأسه، وفجرتها، لتودي بحياته وتهيبها في التو، انتشرت بركة من الدماء حول الجثة المنكبة على وجهها، بصق عليه "الهجوم"، وخاطبه كتحذير مستتر لمن يقف من الرجال:

غلطت لما حلفت بيه، راس أبويا محدش يحلف بيها وهو خاين.

من بين المتابعين وقف "ناجي" يشاهد المشهد الدموي بصدرٍ منقبض، فبالرغم من ارتكابه لبعض الأمور المتجاوزة، إلا أنه لم يصل لهذا القدر من الإجرام والوحشية. ارتد للخلف في تلقائية بعد سماع الطلقة رغم توقعها، ردد مع نفسه في شيءٍ من التوجس، ناظرًا إلى قسوته مع الخائنين:

يا ساتر، ربنا ما يوقعني معاه.

تنبه إلى صوته وجفل عندما سمعه يأمر رجاله:

-شفوه، وادفنوه.

علق واحد منهم مُطيعًا أمره نافذ الوجوب:

عُلم.

رجفة غادرة تسللت إلى بدن "ناجي" وقد رآه مقبلاً عليه، خاصة أن وجهه لم يظهر عليه دليلاً لندمه على قتله، استدعى شجاعته الهاربة، وتكلم في عفوية:

-أجيك وقت تاني يا كبير لو مشغول.

قال "الهجوم" في هدوء بارد، كأنما لم يزهق روح أحدهم قبل لحظات معدودات:

-لا، أنا فاضي، دي شوية تسالي كده.

بدأ بالسير معه نحو الخارج، ومغادرة حجرة التعذيب تلك؛ لكن اعترض طريقهما أحد الأشخاص، حيث صاح بصوت شبه مندفع، كأنما على عجلة من أمره:

-يا كبير، في حد من طرف حبايبنا من عزة العترة عاوزك في مصلحة.

نظر إليه بتعالٍ، ثم خاطبه في كلام مبطن:

-الأهم يقدرني، ساعتها هيلاقيني أنا والرجالة.

ابتسم الرجل معقّباً:

-اعتبره حاصل يا كوبارة، هافهم منه إيه الحوار وأرسيك عليه.

لوح له بذراعه مردداً:

ماشي الكلام.

محمد "ناجي" معقبا ببسمة مهزوزة:

صيتك مسمع يا ريس.

لم يخف على "الهجوم" رهبته منه، وقال منتصبا بكتفيه في عنجهية:

أهم حاجة في شغلاتنا الخطرة دي هي السمعة، لو راحت، يبقى عليه
العوض في الهيبة!

لم يستطع سوى مجاراته في رأيه، وإن كان على غير وفاقٍ معه، فتحدث بعد
إيماءة خفيفة من رأسه:

-كلام موزون.

.....

بدت المصائر محتومة، والأقدار مكتوبة، فقط تبقى للزمن تحديد ميقاتها!
تطلعت "فيروزة" بعينين متوجستين إلى زوجها تارة، وإلى الطريق تارة
أخرى، لم يتخذ مسارا مغايرا للمألوف، كان يقود السيارة في اتجاه بعينه، مما
دفعها لسؤاله في فضول متحفز:

إنت رايح فين؟

أجابها في جمود، وكامل نظراته القاسية على الطريق:

هوديكي عند أهلي.

أدارت رأسها في اتجاهه، وتكلمت إليه في جدية:

ده بني آدم قدر، كل غرضه يخرب ما بينا، ما تخليهوش ينجح في ده.

نظرة خاطفة منحها لها، كانت مليئة بالعزم والتصميم، أتبعتها قوله الواضح:

إنتي مش محتاجة تبرري، هو نهايته وجبت.

مرة ثانية ارتجف قلبها وارتعش من الخوف، صرخت في صوتٍ مشروح

تستجديه:

برضوه يا "تميم"؟ ليه مش عاوز تسمعي؟ مش إنت مصدقي، ومتأكد

من براءتي؟

أكد لها عدم نيته على التراجع:

مش هسمحله يفلت باللي عمله.

مدت يدها، ووضعتها على جانب ذراعه، ضغطت عليه قليلاً، واستمرت

في توسلها المليء بعواطفها الجياشة:

يا "تميم" أنا عاوزاك جمبي، ليه هتحرمني منك؟ وتخلي حبنا يروح.

سكت ولم ينطق بشيء، فأضافت على نفس الوتيرة المتخمة بالمشاعر:

- "تميم" إنت صبرت كثير واستحملت واستنيت عشان نكون في الآخر
سوا، دلوقتي هتضيع حياتنا عشان كلب زي ده؟
بقي على صمته المؤلم لها، وكادت تستخدم نفس الوسيلة الضاغطة عليه؛
لكنه أوقف السيارة عند مدخل بيته، وترجل منها هاتفاً بصيغة أمرة:
تعالى.

سألته في لوعة:

-وانت هتروح فين؟

حاوطها من كتفها بذراعه ليستحثها على التحرك معه، سارت إلى جواره
متسائلة مرة أخرى:

-إنت طالع معايا صح؟

ربما لم تسمع رده بشكلٍ منطوق؛ لكنه اصطحبها للأعلى، فأبقت نظراتها
المرتاعة عليه تراقبه عن هذا القرب، توصلته وهو يدس المفتاح في قفل
باب بيت عائلته ليفتحه:

لو أنا غالية عندك ماتسبنيش.

كأنما وخزته بكلمتها الأخيرة، قاوم لحظة من الضعف أمام نظراتها الخائفة
ليقول في هدوءٍ مريب:

طول عمرك غالية.

دفع الباب بيده الأخرى، ثم ولج إلى الداخل، ساحبًا إياها برفق، فتعلقت بذراعه مجددًا، وصرخت فيه بصوتٍ شبه بالك:

حرام عليك، عاوز تضيع نفسك؟ إن مكانش عشاني، فعشان خاطر أهلك.

على إثر صياحها المفزع، الهادر في أرجاء الصالة، خرجت "ونيسة" من الداخل وهي تجر ساقها، أمعنت النظر وقد ضاق ما بين حاجبيها، لتجد ابنها وزوجته ينظران إلى بعضهما البعض بشكلٍ يدعو للريبة وإثارة الشكوك، وما زاد من الهواجس بداخلها بكاء "فيروزة" الغريب، وعباراتها الباعثة على الشك، دنت منها متسائلة في توجس:

-في إيه يا ولاد؟ إيه اللي حصل؟

استدارت "فيروزة" ناظرة إليها لتجاوبها بما ضاعف من مخاوفها:

الحقي يا طنط، حشوه، هيودي نفسه في داهية عشان واحد ما يستهلش. امتدت يد "تميم" لتمسح على وجنة زوجته المبتلة بحنو، فعادت لتنظر إليه برجاءٍ يقطع نياط القلوب، تهدد لافظًا الهواء من صدره، ثم خاطبها بهدوءٍ عجيب، كأنما يودعها بشكلٍ غامض:

إنتي هتفضلني عندي أغلى حاجة، وعمري ما أسمح لشعراية بإنها تأذيكي.

تقدمت "ونيسة" نحو ابنها لتسأله بصدرٍ منقبض:

رد عليا يا "تميم"، في إيه اللي حصل؟

خرج من الداخل الجد "سلطان"، فاعتقدت "فيروزة" أن في وجوده السبيل لردع حفيده، ومنعه من الإقدام على مثل تلك الأفعال الخطيرة، هرولت ناحيته، وتعلقت بذراعه هاتفة فيه بصوتها المنتحب:

يا جدي امنعه، هيضيع بسبب كلب مايسواش.

رفع الجد أنظاره نحوها أولاً، فأبصرها تكاد تنفطر خوفاً، قبل أن يحول ناظره، ويتطلع إلى حفيده بتفريس، منحه نظرة متسائلة دون أن يكون بحاجة لسؤاله، فما كان من "تميم" إلا أن جاوب في عزمٍ غير قابل للتفاوض:

غصب عني يا جدي، المرادي غير، وإنت عارفي.

ضم "سلطان" شفثيه معاً لهنيهة، رمقه بهذه النظرة المتفاهمة، النافذة لدواخله، حرك ثغره بعدئذ قائلاً بما بدا أشبه بالنصيحة:

صدق قلبك يا ابني، وماتعملش إلا الصح

!!!

.....

الفصل المائة وثمانون (الأخير - الجزء الثالث)

في مكانٍ مُقفّر، وسط تلك الصحراء القاحلة، حيث الفراغ الممتد من مساحات شاسعة، أبطأت سيارتا دفع رباعي من سرعتيهما، لتتقفا على مقربة من تلك السيارة، ترحل من السيارتين عدد لا بأس به من الرجال المدججين بالسلاح، يتقدمهم "الهجوم" بخطاه الواثقة، وعلى وجهه ابتسامة مسرورة، هل كاسراً السكوت السائد في هذا المجهول:

-والله زمان، أنا مش مصدق عيني.

أتاه صوته على نفس القدر من العلو والتحية:

مرحب بالناس المهمة.

امتدت يده لمصافحة "تميم"، واستطرد قائلاً بزهو:

معلم "تميم"، عاش من شافك يا سيد الرجالة.

بادله الأخير المصافحة أن تحرك ناحيته لإلقاء التحية عليه مردداً:

-ريس "كرم".

قهقه ضاحكاً في دهشة مستمتعة قبل أن يعقب وهو يحثه على السير بعيداً

عن الرجال المحاطين بهما:

-ياه، بقالي زمن ماسمعتش الاسم ده ...

استغرب "تميم" من عبارته، بينما واصل "الهجوم" التوضيح:

من أيام أبويا الله يرحمه، لدرجة إني نسيته، ده إنت رجعتني لسنين ورا
بالاسم ده.

علق "تميم" في هدوءٍ حذر، رغم علامات الضيق الظاهرة على محياه:
-الله يرحمه.

استمر "الهجوم" في الشرح مبتسمًا بانتشاء؛ وكأن ما يرتكبه من جرائم
دموية وسيلته المتاحة للتسلية:

-كل الرجالة بتناديني "الهجوم"، أو "كوبارتنا"، وأنا بكرهمم .. على طريقي.
آثر "تميم" الصمت، ولفظ دفعة من الهواء المشحون بغضبه من صدره،
فتساءل "الهجوم" مستفهمًا بتعابير اكتسب طابعًا جديًا مغايرًا لما كان عليه
قبل ثوانٍ:

خير؟ وردني إنك عاوزني في مصلحة.

بنفس الضيق البادي عليه أخبره "تميم" بما يشبه الاعتذار:

-معلش هتقل عليك.

عاتبه في وجوم:

-والله أزعل منك لما تقول كده، إنت عارفني، اللي يفديني بروحه، أشيلهاله
لآخر العمر.

جال بذاكرته لمحة خاطفة من فترة احتجازه بالسجن، حيث تدخل مصادفة في إحدى المرات التي نشب فيها شجاراً عنيفاً بين النزلاء، للزود عن "الهجوم"، دون أن يكون على صلة وثيقة به، وقتئذ تمكن من منع أحدهم من وخزه غدرًا بسلاح أبيض، وقام بكسر ذراعه، ليعتبر الأخير ما فعله بمثابة توثيق لرابطة أخوية من نوع مختلف، إن احتاجه يومًا وجده إلى جواره. نقض الذكرى عن عقله مؤقتًا، وهتف في غير ابتسام:

تسلم، ده العشم برضوه.

أخرج "الهجوم" المظروف الأبيض من جيب بنطاله، وأعاده إليه قائلاً:
-تفضل ..

تناوله "تميم" الطرف المألوف منه، ونظر إليه متسائلاً في تعجب:
-ليه ده؟

أجابه مقتضباً وهو يومئ له بعينه:

عربونك

تساءل مرة أخرى في استغراب أكبر:

-بترجعه ليه؟

أخبره باسمًا:

يا سيدي اعتبر المصلحة اللي عاوزها تحية مني ليك، ده كفاية إني شوفتك.

رفض مُبدئًا تصميمه:

-لأ معلش، الاتفاق اتفاق.

عارضه في صوتٍ هادئ، ينم عن محبة وأخوية قوية:

-معاك إنت، تؤمر تُطاع.

أصر عليه في جدية شديدة:

-ده شغل، ومايزعلش حد.

هتف "الهجوم" معترضًا بعناد:

-لأ يزعلني أنا، ده أنا مرضتش أكسف الراجل بتاعك، وقولت دي فرصة حلوة أشوفك فيها ...

ثم وضع يده على كف "تميم" ليجبره على إخفاضها قائلاً:

-عين فلوسك في جييبك.

رفع ذراعه للأعلى متجاوزًا يده، وقال رافضًا:

-لأ، لو مخدتهومش هاعتبر المصلحة ملغية.

بدا التردد ظاهرًا على وجه "الهجام"، فتابع "تميم" بنفس النبذة المصرة:
- اعتبره عرق الرجالة، ده حقهم.

صمت لحظيًا، كأنما يفكر في الأمر، واضعًا يده على طرف ذقنه يفركها قليلًا، قبل أن ينطق في نهاية الأمر، وبابتسامة تعلن قبوله لعرضه:
- مش هردك.

أعاد الظرف إلى جيبه، ثم تساءل في نبذة مهمة:
- ها، مين اللي عليه العين، وخلاك تقابلني؟
غامت عينا "تميم" بشكلٍ مخيف، وأخبره بعد زفيرٍ سريع، بجزءٍ لا يضاهي
أبدًا ما يكتبه في صدره من غليلٍ حارق:

- واحد عاوزك تجيبه عندك، يتمنى الموت وما يطلوش.
هز رأسه معلقًا في ترحيبٍ؛ كأن المسألة لا تعني شيئًا له:
- بسيطة، لو عاوزني أشفيه كمان ده موجود.

كان يعلم أن المقصود من تلك العبارة، هو إجراء عملية استئصالٍ لأعضائه
الحيوية من أجل بيعها في السوق السوداء لفئة المتاجرة بالأعضاء البشرية،
توحشت نظرات "تميم"، وصارت أكثر إظلامًا، عندما خاطبه بمنق
متصاعد:

-الموت راحة ليه، وأنا مش عاوزه يرتاح.
شبك "الهجام" أصابع كفيه معًا، فرقعهم دفعة واحدة، وتكلم في ثقة عارمة:
-اديني اسمه، وعنوانه، وهتلاقيه مشحون في ظرف كام ساعة عندي.
نظر إليه "تميم" بغموض، فأكد "الهجام" بنفس النبرة الواثقة:
-وشغل نضيف، من غير شوشرة، ولا سين وجيم.
استحسن الأمر، فقال موجزًا:
حلو الكلام.
انتصب "الهجام" بهامته، والتفت ناظرًا إلى رجاله المجتمعين على مسافة
بضعة أمتار، ليضيف في غرور:
-إنت عارف شغلي، يحير المتحير، ومش أنا اللي هاقولك.
حاول الابتسام مجاملًا، فبدت بسمته متكلفة إلى حد كبير، وهو يعلق:
طبعا، مش كبير "الهجامة"!

.....

كانت أقرب للانبيار الكامل، في حالة من اللاوعي والصراخ، تبكي
بهيستيرية، وجنون، حتى احمر كامل وجهها من كثرة بكائها المذعور، ففي

خضم لهفتها للحاق بزوجها نست "فيروزة" هاتفها المحمول، وبالتالي تعذر عليها كليًا التواصل بأي شكلٍ مع زوجها، لإقناعها بالعدول عن قراره المرعب، مما زاد من مخاوفها، وضاعف من ذعرها عليه. لم يختلف حال "ونيسة" عنها؛ لكنها بدت أكثر تماسكًا بالمقارنة بها، خاصة أنها كانت معتادة على مثل تلك الأزمات المتعصبة، بالرغم من عدم إلمامها -حاليًا- بتفاصيل الموضوع الشائك الذي قد يدفع ابنها للتصرف برعونة، تطلعت الأخيرة إلى "فيروزة" بعد أن أعدت لها مشروبًا باردًا لتتناوله، خاصة مع الإعياء الظاهر عليها، أصرت عليها لتأخذه، وقالت في إلحاح وهي تجلس بجوارها على الأريكة:

-اشربي اللمون ده، واهدي، وإن شاء الله عمك "بدير" جاي وهيتصرف، دي مش أول مرة "تميم" يفكر فيها بالشكل ده.

في قرارة نفسها أرادت "فيروزة" تصديق ما تقوله، أنها غضبة مؤقتة ستنتهي بزوال العارض المؤثر، وتعود الأمور إلى مجرياتها الطبيعية؛ لكنها تعلم تمام العلم أن الحقيقة مغايرة كليًا لما ترجوه، أبعدت يدها الممدودة إليها، ساكبة قدرًا من المشروب على ثيابها، وهتفت بصوتها المنتحب:

مش عاوزه أشرب حاجة، أنا عاوزه جوزي يرجع.

جاءها صوت الجد هادئًا ومطمئنًا:

-هيرج يا بنتي، اطمني.

استدارت ناظرة إليه بعينيها المنتفختين، وعاتبته:

-إزاي تسبيه يا جدي؟ ده هيضيع نفسه.

نظر إليها بغموض، وهو يلف رأس عكازه بين راحته، فتابعت في صوتٍ ينم عن هلعها:

-المرادي غير ... هيقته!

قالت كلمتها الأخيرة في صوتٍ عاد للبكاء العاجز مجددًا، ففزعت "ونيسة"، وسألتها بقلبٍ مرتجف:

-مين هيقته مين؟

أدارت رأسها في اتجاهها، وأجابتها بشيءٍ من الحزي:

- "فضل" ابن عمي.

هنا صاحت "ونيسة" في حدة:

هو ما بيتهدش البني آدم ده، عاوز إيه منكم؟

دفنت "فيروزة" يديها بين كفيها، وراحت تصرخ في هياجٍ منفعِل:

-أنا السبب، لو مكوتش وافقت أتجوز "تميم" مكانش ده حصل.

رد عليها "سلطان" بصوتٍ حازم لا غاضب:
- ماتحمليش نفسك ذنبك مالكيش فيه، كل واحد بيثيل شيلته ...
بدت نبرته أكبر للهدوء وهو يتابع:
- وأنا عارف حفيدي، طالما حد غلط، هيرييه بالأصول اللي عارفها كويس.
خفضت يديها لتنظر ناحيته، ثم صاحت في بكاءٍ حارق:
يا جدي بقولك هيقته.
اختنق صوتها، وتقطع وهي تكمل بصعوبة:
- وساعتها "تميم" هيروح خالص.
لطمت "ونيسة" على صدرها، ورددت في نبرة بدت متوسلة، مليئة
بالاستجداء:
- ابني يا حاج.
نهض "سلطان" واقفاً من موضعه، انتصبت هامته، ورفع رأسه للأعلى
قائلاً في صوتٍ صارم:
- مش عاوز كلام، أنا عارف حفيدي كويس، ومتأكد إنه هيتصرف صح.

غادر المكان، دون أن ينبس بالمزيد، فعادت "فيروزة" لتدفن رأسها بين كفيها متابعة بكائها المرير، ومن بين نهنهاتها راحت تدعو في رجوات شديدة: يا رب اهديه ورجعه ليا، يا رب ماتخسرني فيه.

.....

أثناء قيادته على الطريق، نظر إلى هاتفه الذي لم ينقطع عن الرنين بتحفر، لم يجب عن أي اتصالٍ ورده مؤخرًا، فقط بدا مترقبًا لمكالمة بعينها، تلك التي ستأتي بما اعتبرها مجازًا البشارة، حينئذ سيقص من ذلك الوغد الدنيء، وبوحشية تامة، تجعله متوسلاً الموت؛ لكنه لن يأتيه! مع تكرار الصوت المزجج، تطلع "تميم" إلى شاشة هاتفه بعبوس، اضطر أن يجيب على هذا الاتصال، فأصغى إلى صوت والده المتسائل في هدوء رغم رنة الغضب المحسوسة فيه:

مكوتنش ناوي ترد على أبوك؟

على مضضٍ جاوبه:

إنت فوق راسي يا حاج.

سكت "بدير" للحظات، بدا فيها صوت أنفاسه مسموعًا، إلى أن تكلم أخيرًا بجنو أبوي:

ارجع يا "تميم".

رغم بساطة الجملة، إلا أن تأثيرها عليه كان عظيمًا، مؤلمًا بدرجة جعلت قلبه ينقبض، ونظراته تشتعل، قتل "تميم" غصة عالقة في حلقه، وقال في حرقه، وقد اشتدت قبضته على المقود:

حق مراتي يابا.

أخبره في تعقل:

هنجيبه، بس مش بالطريق الي إنت ناوي تمشي فيه.

رغمًا عنه ارتفع هدير صوته وهو يُحادثه:

معدتش ينفع أي مهاودة معاه، هو عدى كل الخطوط الحمراء.

ما زال "بدير" محافظًا على ثبات صوته الهادئ عندما عقب:

-يبقى نأدبه بالأصول، ولا إنت عاوز تحسنا عليك لما نلاقيك متعلق على

حبل المشنقة؟!!!

لم يخبث غضب "تميم" شيئًا، بل إنه تضاعف وصار أكثر حدة وهو

يستحضر- في ذهنه ما فعلته بكل دناءة وخسة، احتدت نبرته قائلاً

باحتراس، رافضًا أي شكلٍ من أشكال التهذؤ وضبط النفس:

ده معدتش ينفع معاه أصول، ويابا لو مفكر إن حته وصل هيخليه يطل
فمش هيحصل.

رد عليه "بدير" بصوت مال للحزم:

مش هتجادل معاك كثير، عاوزك في البيت قدامي.

وقبل أن يفكر في الرفض، أكمل والده جملته:

ده لو إنت مقدر أبوك فعلاً، وعامل لكلمته احترام.

بجملته الصريحة وضعه ما بين مطرقة الثأر، وسندان طاعة الوالدين، لم
ينتظر "بدير" تعقيبه، أنهى المكالمة، وتركه يكتوي بنيرانه غضبه المستعرة
كلما استحضر- الذكرى، وينسحق كالطحين بين الرحى بوأد رغبته في
الانتقام امتثالاً لأمره. لكز "تميم" المقود في عصبية، مختنقاً بما يهيج من
مشاعر ثائرة بداخله، وصوت لعناته الهادرة ينفذ من نوافذه المغلقة
للسيارات المتحركة بجوار خاصته.

.....

كلص يختال بنجاح عملية سرقة، جلس "فضل" منتشياً في المقعد الأمامي
للسيارة التي استأجرها، للمرة الأولى يشعر أنه انتصر- انتصاراً عظيماً، في
معركة دوماً كان فيها الخاسر على مدار جولاتها الممتدة، وإن كان انتصاره
الزائف بالافتراء والكذب، مد يده برزمة من النقود إلى زميله مشدداً عليه:

-راضي الرجالة كويس، وقولهم مش هاتكون أول مرة.

هز رأسه صاعراً وهو يكلمه من النافذة:

-ماشي يا ريس "فضل".

استقام واقفاً ليشرع في التحرك مبتعداً عنه، حتى ينفذ أوامره، بقيت عينا "فضل" مركزتان عليه؛ لكنه لم يكن منتبهاً له بشكلٍ كامل، فقد شرد في خيالاته الحاملة، متوهماً قيام "تميم" بتعنيف زوجته بشكلٍ قاسٍ، قد يؤدي في النهاية إلى قتلها، انتفخت أوداجه، وامتلاً صدره بالهواء في تفاخر وهو يتحدث بين جنبات نفسه:

-زمانه دبحك يا بنت ال (...).

أراح مرفقه على إطار النافذة متابعاً حديث نفسه:

-ولو معملش كده، دماغه هتفضل تودي وتجيّب، ومش هيرتاح أبداً.

عبث شيطانه الماجن برأسه، ووسوس له مرة ثانية بفكرة أخرى جهنمية لاقت قبولاً كبيراً لديه، لما لا يستغل هذه المسألة، ويلفق المزيد من الأكاذيب عن ابنة عمه، وينشرها في بلدته؟ فالناس لن تقاوم فضولها في الخوض في شرفها، وتصديق ما قد يُقال عنها رغم يقينه من براءتها؛ لكنها ربما تكون وسيلته في التغطية على فضائحه المشينة. تلون ثغره ببسمة خبيثة، والتمعت عيناه بهذا الوميض اللئيم وهو يؤكد لنفسه في صوتٍ خافت:

هيجرى إيه؟ ده جازز بالحكاية دي الناس تنسى- اللي حصلي، ويفكروا
إنها عملت كده عشان تداري على عمايلها السوداء.

فرك كفيه معًا في نشوة متزايدة، وراح يستمتع بهذيانه، تنبه لصوت مرافقه
عندما خاطبه:

-خلاص يا ريس "فضل"، الكل اتراضى.

أشار له بيده ليركب السيارة وهو يعقب عليه:

-زي الفل ..

استقر الرجل في مقعد القائد، فأكمل "فضل" أمره لها وهو يسمح على بطنه
براحته:

-اطلع بينا على الحاتي اللي في النواحي دي، هاتلنا منه كباب وكفتة.

اندهش الرجل لعرضه السخي، كأنه لم يتوقع ذلك منه، خاصة و"فضل"
يردد في سرور غريب:

خلينا ننسب.

هز رأسه هاتقًا بابتسامة سعيدة:

عينيا.

انحرف بالسيارة عبر الشوارع الجانبية إلى أن وصل إلى واحدٍ من أشهر المطاعم المتخصصة في تقديم اللحوم المشوية، بدا من غير اليسير إيجاد مكانٍ مناسب لصف المركبة، نظرًا لضيق الطرقات، اشرب "فضل" بعنقه من النافذة المجاورة له، ولمح بقعة شبه خالية على مرمى بصره، أشار إليها بيده أمرًا من معه:

-اركن هناك، في حطة فاضية.

سأله متحققًا:

-فين يا ريس "فضل"؟

أجابه مشيرًا نحو إحدى السيارات حديثات الطراز:

عند السكودا السوداء دي.

أومأ برأسه متسائلًا:

طيب، عاوز أجيب أد إيه يا ريس؟

لوى ثغره مرددًا في امتعاض، وقد تجهمت تعابيره قليلًا:

-كفاية كيلو، يدوب أنا وانت، بلاش طمع.

نظر له الرجل من طرف عينه معقبًا بغير صوتٍ في تبرم:

-يعني هاكل الكيلو لوحدي، ما إنت هتلهف بقليله ثلاثرعه.

تنحني مدعيًا امتثاله لطلبه قائلاً:

ماشي.

رفع "فضل" سبابته قائلاً في لهجة متشددة، وبها نوع من التحذير:

متأخرش، وقوله يحط طحينة وعيش سخن، بلاش يستعبطك.

ترجل من السيارة بعد أن ركنها في هذا المكان الخالي هاتفاً:

عينيا.

شيعه "فضل" بعينين نهمتين وهو يختفي عن أنظاره، ليعاود الاستمتاع

بنصره الحقيق، مردداً في صوت خفيض:

يا سلام، الواحد ماتبسطش في حياته أد النهاردة.

أفسد عليه ما اعتبرها لحظاته المميزة هذا الرنين المزجج، نظر إلى شاشة

الهاتف متعجباً من ذلك الرقم الغريب الذي يلح على الاتصال به، أجاب في

تخير، سرعان ما تلاشى عندما سمع صوت والدته المألوف، انقلبت تعايره،

وغامت بتأفف وهو يسأله في نفاذ صبر:

عاوزة إيه يامه؟

ردت عليه في عصبية:

خربتھا وارحت يا "فضل"؟

تجاهل سؤالها، وصاح في استنكارٍ حاد:
-إنتي جبتي تليفون جديد من ورايا يامه؟ أكيد واحدة من المزاغيد إخواني،
مش كده؟ ما هما عاملين رباطية عليا!
صرخت به في حمئة:
-ده اللي همك؟ هتروح من ربنا فين؟
أبعد الهاتف عن أذنه ليغمغم بسبة خافتة، ثم قال في تكبر:
-محدث ليه دعوة باللي بأعله.
هتفت به في يأس يشوبه كل اللوم:
-راعي عضم التربة، دي بنت عمك، واللي يمسه يمسه.
في جحود لا يحتمل قال:
-أنا مابرا عيش حد، وده اللي عندي.
استمرت "سعاد" في تقيعه قائلة بحنق:
-يعني موت أبوك بقهرته، وماسبتش الغلبانة في حالها، وآ....
لم يرغب "فضل" في سماع هذا التوبيخ المستفز والمفسد لنشوته، فقاطعها
في قساوة:

يا يابي، مابتزهقيش يامه من الحوارات دي، أه ارتحت، ولسه مبسوط.

علقت عليه في قهر:

منك لله يا "فضل"، ربنا عمره ما هيسيبك.

صاح بها بنفس المشاعر المتحجرة:

-اققلي يامه، وولولي براحتك، أنا مش ناقص غم.

ضغط على زر إنهاء الاتصال قائلاً في نفور:

هو أنا ناقص وجع دماغ.

أعاد "فضل" رأسه للخلف، وأراحها على مقعد السيارة ناظرًا للأعلى
بابتهاج مريض؛ لكن ما لبث أن خبا ذلك السرور حين قرأ اللافتة العريضة
التي لم يكن قد انتبه لها منذ البداية، ردد حروفها بصوتٍ لم يتجاوز ما بين
شفتيه:

-البنية مهددة بالسقوط، رجاء عدم ركن السيارة بالأسفل.

لا يعرف ما الذي جعله في تلك اللحظة يتحول من الانبساط للانقباض،
أكفهرت كل تعابيرها، تلبد "فضل" في جلسته، وانكمش بشكلٍ غريب،
أحس بشيءٍ غير مريح، باعث على الخوف، والإظلام التام، لم يكن قد أتم
جملته للنهية إلا وقد هوت كتلة خرسانية -ضخمة الحجم وثقيلة الوزن- من

الأعلى، لها نتوءات حديدية مدببة استقرت فوق سطح سيارته، عند جانبه تحديداً، كأنها تقصده، جعلت رأسه يتهشم، عظامه تتفتت، أطرافه تتمزق، وجسده ينسحق في لمح البصر.. لتتحول السيارة إلى قطعة من الصفيح الغارق في الدماء.

على إثر الصوت المفزع، وكتل الغبار المتناثرة في الأرجاء، انتفض جميع من في الشارع يصرخون في هلع. عمّت الفوضى في لحظات معدودات، واحتشد الأهالي في غمضة عين حول مكان الانهيار، لتحل عليهم الصدمة المخيفة. هلل أحدهم مشيراً بيده للأعلى؛ كأنما يخمن ما حدث:

ده في بلكونة وقعت.

أضاف آخر وهو يشير نحو إحدى السيارات:

-الظاهر جت على العربية اللي هناك دي.

للعجب! لم تتعرض أي سيارة أخرى للدمار مثلما حدث مع سيارته على وجه الخصوص، بل لم تمس أقل واحدة من مجموع العربات المصفوفة بسوء سواها. الأشلاء الممزقة التي برزت في محيط السيارة جعلت المشهد أكثر تقززاً ورعباً، صرخت النساء من هول المنظر، وامتنع الرجال عن تقديم المساعدة، فقد استمرت البناية في التساقط، كتلة وراء الأخرى؛ ولكن

على نفس الموضع من السيارة، لتغرق تحت أطنانٍ من الركام وتُباد كليًا عن
بكرة أيها !!

.....

الفصل المائة وثمانون (الأخير - الجزء الرابع)

خشي من احتمالية تأخره عليه، وتعرضه للتوبيخ اللاذع منه، خاصة أن المكان في هذا الوقت كان مزدحمًا بشكلٍ لا يُطاق، ولسان "فضل" لا يتوقف عن السب واللعن تحت أي ظرف، أخرج رفيقه هاتفه المحمول من جيبه لينظر إلى التوقيت فيه، أطلق زفرة مزعوجة، وقد تأفقت ملامحه، اشرب بعنقه مجددًا لينظر إلى العاملين المنهمكين في إعداد طلبات الطعام،

وضع يده على بطنه يتحسسها، يكاد يسمع صوت قرقرة معدته من الرائحة الشهية المغرية، قاوم جوعه قدر استطاعته، سئم من الانتظار، وضاق صبراً، لهذا صاح عاليًا من موضعه ليدفعهم للتعجل في تسليمه ما يخصه:
-الله يكرمك خلصني أوام، أنا مستعجل.

احتج عليه أحد الواقفين على مقربة منه في تهكم:
-يعني لسه جاي وعاوز تمشي ؟ ده الناس هنا بقالها فوق الساعة.
نظر إليه قائلاً بتعايرٍ منقلبة:
-معلش، أنا على سفر.

رد عليه الرجل بشيءٍ من التهكم:
-الله يسهلك.

نفخ رفيق "فضل" مرة ثانية، وراح يُعاود النظر في شاشة هاتفه، قبل أن يعيده إلى جيبه، عندئذ تحسس المديّة التي تم نزعها سابقًا من كتف "فضل" بعد ادعاء تعرضه للإصابة عن طريق الخطأ، وتضميد جراحه مؤقتًا في إحدى العيادات الخاصة بأحد أطباء الجراحة، لم يرغب في التخلص منها، واحتفظ بها لنفسه بعد أن قام بتنظيفها بمطهرٍ، كنوع من الذكرى، أخفى ابتسامة منتشية وهو يتلمسها بأصابعه المدسوسة في جيبه:

ده أنا نسيت إنها معايا، وربنا خسارتها تترمي، دي من النوع الغالي ...
سرعان ما تجهمت تعابيريه نسيًا وهو يكمل حديث نفسه:
بس "فضل" هيسبغلي في الراحة والحاجة لو شافها معايا.
برقت عيناه بوميض مستمتع حين طرأ بباله فكرة مستهلكة؛ لكنها كانت
مرضية لها، فأخذ يخبر نفسه:
هبقى أداريها فترة لحد ما ينسى.. وبعد كده أخذها اتمنظر بيها قصاد
المقاطيع أصحائي.
انتشله من شروده الحالم صياح أحدهم بلهاتٍ منفعل:
يا جدعان، إنتو أعدين هنا ومش شايفين الكارثة اللي برا.
انتبه الجميع لحديثه الهام، وبادر أحد الأشخاص بسؤاله في فضولٍ متزايد:
يا ساتر، حصل إيه؟
أشار الرجل بيده نحو الخارج موضحًا في نفس الصوت المنفعل:
على أول الشارع في بلكونة وقعت من عمارة الاتحاد.
سأله آخر في قلق:
وحد جراه حاجة؟

هز كتفيه في تحير، وأجاب:

-مش عارف لسه، بس الناس هناك أم.

لكز أحد الأشخاص كتف آخر قريبًا منه يستحثه على التحرك وهو يقول:

-بيننا نشوف لحد ما يخلصوا الأوردرات.

بدأ بعض المتواجدين بداخل المطعم بمغادرته لرؤية الحادث، في حين بقي

رفيق "فضل" قابلاً في مكانه، تقدم في الصف، وهتف مجدداً بصوته المرتفع:

يا عم خلصني وهات الكباب خليني أشوف مصالحي.

رد عليه العامل من خلف الحاجز الزجاجي:

طيب .. اصبر، ولا روح معاهم اتفرج لحد ما نجهزلك طلبك.

اعترض عليه في عناد:

-لأ مش ماشي قبل ما أخذ الكباب.

خاطبه العامل في سماجة:

-يبقى استنى دورك وإنت ساكت.

قوست الأخير فمه في نفور، وغمغم مع نفسه بسخطٍ وهو يشيح بوجهه:

-معاملة زفت، ماتتخيرش عن "فضل"!

العودة بلا تحقيق أدنى درجات الانتقام اعتبره أمرًا مخزيًا، لم يجرؤ "تميم" على الذهاب إلى المنزل، واتجه إلى الدكان ليمكث به منفردًا بحاله المضطرب، تجنب جميع العمال الاقتراب منه، خاصة بعد تحذيره الصارم بعدم إزعاجه، تركوه في عزلة بالداخل، وواصلوا عملهم بهمة دون التفكير في اللجوء إليه إن استدعى الأمر لهذا. فقط واحدٌ من العمال تشجع ليهاتف الحاج "بدير" ليطلعه على حالته، فأخبره الأخير بالانصياع لأوامر ابنه، وانتظار مجيئه للتصرف والتعامل معه.

خلال تطوافه الطويل في تفكيره العميق والمتصارع ما بين فعل الصواب، وارتكاب الخطأ، أحس "تميم" بالتخبط، والتحرُّق، فالقلب رغب منه التروي، والعقل أصر على الشار وقطع الأعناق. لم تنقشع غيمات غضبه المستعرة بعد، بل كانت تتراكم، وترداد قتامة كلما استحضر. ذهنه كلمات "فضل" السقيمة، إن لم يكن واثقًا في براءة زوجته، لانساق بلا تعقلٍ وراء أكاذيبه، وفعل الأسوأ، ما لا يأتي على عقل بشو؛ لكن ثقته بها غير محدودة، غير قابلة للتشكيك.

استند بجبينه على قبضتيه المضمومتين، وراح يتنفس بثقلٍ، كأنما ينفث
حمماً من اللهب من صدره، ارتفع رأسه المنكس عندما سمع صوت والده
يناديه في حنو:
- "تميم".

عيناه الغائمتان كانتا كفيلتان للإشارة إلى مدى ما يكبته من ثورة عارمة،
ضم شفتيه بقوة، وتحفز في جلسته بشكلٍ لافت لتشنجه، دنا منه "بدير"
قائلاً بأسلوبه الهادئ السلس:
- كويس إنك جيت على هنا.

جلس على المقعد المواجه لمكتبه، وسأله في اهتمام، ونظراته مسلطة عليه:
عامل إيه دلوقتي؟

لم يستطع "تميم" تخبئة أفعاله المشحون، تحرر قدراً منه وهو يجاوبه في
حدة، انعكست في نبرته قبل ملامحه:

هاقولك إيه يابا؟ إني مش قادر أوري وشي لمراتي، ولا حتى هابقي
عارف أرفع عيني في عينها وأنا مجبتلهاش حقها لسه؟
صمت "بدير" للحظة قبل أن يسأله بتريث:
هتجيب حقها وتودي نفسك في داهية؟

هتف في نبرة متحفزة على الأخير، وقد إربد وجهه بالمزيد من أمارات الحنق:
-الشرف ما فيش فيه كلام يا بابا.

بسط "بدير" كفه على سطح المكتب، وأخبره بتعابير هادئة مستكينة:
-اصبر، واحتسب، وافكر كلام ربنا لما يقول "وَاللّٰهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ" ..
كان كمن أصيب بخرس مؤقت، ألجم لسانه، وأصغى إليه وهو يتم جملته:
-يعني حكم ربنا نافذ رغم إرادة البشر، مشيئته هتحصل شئنا أم أبينا.
رغم هياجه ردد "تميم" من بين أسنانه:
-ونعم بالله ..

واصل والده الكلام معه لإقناعه بالتريث، مستخدماً أسلوبه السهل اللين:
-إنت ربنا عوضك ورزقك بنعم كثير، والحاقد اللي زي البغل ده عاوز
يعميك عن خير ربنا، وياخدك لطريق مالوش نهاية، إنت في امتحان
دلوقتي ربنا حطك فيه، وعاوز يشوفك هتعمل إيه، ففوض أمرك ليه،
وانتظر النتيجة، وزى ما هو سبحانه بيكون غفور رحيم مع عباده، بيكون
برضوه المنتقم الجبار وشديد العقاب مع الظالمين.

أخفض رأسه مطبقًا على جفنيه، كأنما يحاول تحجيم ما يتقد بداخله من مشاعر هائلة، تسعى لكل ما هو مُخرب، امتدت يد والده لتمسح على كفه في مودةٍ، وأضاف:

-والظالم مهما اشتد ظلمه نهايته أقرب مما يتخيل.

اختنق صوت "تميم" لشعوره بالتقصير، وظهر واضحًا عندما عقب في ألم: صعبان عليا حالي يابا، لما مرّاتي تستنجد بيا، وأبقى مش قادر آ... قاطعه مبتسمًا في تأكيد:

-مراتك بتحبك، وعاشة تحت ضلك، هتحرّمها من قربك يانك تعمل الذنب وتبرر؟

لم يستطع مغالبة غضبه المتصاعد، فغطت آثاره على كامل وجهه حين علق منفعلًا:

-يعني أسيه كده يعمل ما بداله؟ يطعن في شرف مرّاتي وأنا واقف أتفرج؟ تكلم معه "بدير" بهدوء:

-ومين قالك إنه هيتساب كده؟ ربك قادر على فعل كل شيء، وخصوصًا لما البشر يعجز عن التصرف.

طرد "تميم" الهواء في زفيرٍ طويلٍ محملٍ بالاستياء، استمر والده في التحدث إليه بطيب الكلام:

-استهدى بالله، وأرمني همومك عليه ...

ثم نهض واقفًا وهو يطلب منه:

-قوم معايا نروح البيت، مراتك مستنياك هناك.

كان يطلب منه ما لا يملكه حاليًا، فواجهة نظراتها المليئة بهذا الشعور المقهور لم يكن مستعدًا له، اعتذر منه مبررًا في ضيقٍ ما زال محتلاً كيانه:

-شوية بس يا با، مش عارف أقابلها وأنا كده.

تفهم عزوفه، وقال ناصحًا إياه:

طيب .. بس خليك فاكّر إنها مفطورة من العياط عشانك، فماتسباهش لوحدها، كسرة القلب وحشة، وهي عشانة فيك أوي.

هز رأسه في طاعةٍ قبل أن يرد بصوتٍ انخفض بشكلٍ تدريجيٍّ، كأن الإعياء تمكن منه:

-حاضر يا با.

ابتسم "بدير" في حبورٍ، ودعا له عن طيب خاطرٍ:

-ربنا يكرمك ويراضيك.

تركه بمفرده، وغادر في هدوء، ليظل "تميم" حبيس همومه الثقيلة، رغمًا عنه
فقرت دمعة عاجزة من طرفه، أزاحها قبل أن يراها أحدهم، ليردد بعد ذلك
بين نفسه في تحيرٍ موجع:

أخذ حقها منك إزاي وأنا متكتف كده؟!!!

كاد يغرق في همومه الثقيلة مرة ثانية لولا رنين هاتفه، نظر إلى الاسم
الصاحح على شاشته، فوجده لشقيقته، كانت من عاداتها ألا تتصل إلا لو
كان الأمر هامًا، تجاهل اتصالها متوقعًا أنها تلعب دور الوسيط في تهدئته،
فربما اشتكت إليها والدته، وطلبت منها التدخل لإيقافه عن تهوره. لم يرغب
في مصارحة أحدهم عما يحوس في نفسه، أطرق للحظات، ولم يكثر
لمكالمتها؛ لكن تكرر اتصالها، وبدا مُلحًا بشكلٍ مزعج، كان على وشك
التغافل عن إجابتها لولا أن قرأ رسالة نصية منها وصلت إليه، ردها بغير
صوت:

الحقني يا "تميم"، ابني في المستشفى، وأنا لوحدي.

عندئذ انتفض من مقعده، ويده تعبت بأزرار الهاتف ليتصل بها، بمجرد أن
أجابت عليه، سمع نهينات بكائها، سألها في جزع:
إمتي فين بالظبط؟ أنا جايلك على طول.

بدا وكأن في همها النجاة مؤقتًا من بوتقة أحزانه، لينشغل كليًا بأمرها ويلتهى عقله عن التفكير فيما يحرق أعصابه ويتلف البقايا الصامدة فيه.

.....

ظل ملازمًا لها طوال فترة بقائها بالمشفى لتطبيب جرح صغيرها الذي تعرض لحادث منزلي أدى لجرح راحة يده، أثناء لهوه بواحد من الصحن الفخارية حين غفلت عنه للحظات، فسقط من يده، وتكسر، مما جعل جلده الناعم يُجرح من الأجزاء الحادة، وينزف بغزارة. تنفست "هاجر" الصعداء عندما تأكدت من زوال الخطر، وعادت به إلى منزلها بصحبة شقيقها، وضعتة بالفراش، وخرجت إليه قائلة بزفير متعب:

-الحمد لله نام، عدت على خير.

تطلعت إليه بامتنانٍ وهو جالس على مائدة الطعام، ثم تابعت بعد تهيئة سريعة:

-مش عارفة كنت هاتصرف إزاي لو مكونتش معايا.

قال بنفس التعابير الواجمة:

-أنا سندك يا "هاجر"، وقت ما تعوزيني كلميني.

تخرجت نسيًا وهي تخبره:

فكرتك مشغول، وخصوصًا لما مردتش عليا على طول، ده غير إن
"سراج" مسافر في شغل، كنت هابقي في حيص بيص، لا هاعرف أروح
ولا أجي لوحدي.

فشل في الابتسام وهو يحاول طمأنتها:
أنا معاك في أي وقت، وكويس إنك بعتي رسالة.
عقت عليه في عفوية:

ده اللي جه في بالي ساعتها.

أومأ برأسه بخفة، وقال:

-ربنا يحفظه لك ابنك، ويباركك فيه.

اتسعت بسمتها وهي تكلمه:

يا رب، وعقبال ما تفرح بعوضك يا "تميم".

سحبت المقعد لتجلس في مواجهته، تفرست في ملامحه التعسة بفضول شبه
متحير، ثم سألته بنظرات ضيقة:

مالك شايل اهم ليه؟

أراح ظهره للخلف، وراوغها موجزًا في الرد:

-ما فيش.

انتفضت بغتة كأنما تذكرت شيئاً، تراجع خطوة للخلف، وراحت تقول في عتاب:

-الكلام خدني ومجبتلكش حاجة تشرها.

اعترض على ذهابها قائلاً:

-مالوش لزوم.

هتفت في تصميم وهي تسرع الخطى:

-والله ما يحصل.

توقفت عند أعتاب مطبخها مقترحة في حماس:

-هاجيبلك عصير فريش يرد الدموية في وشك.

لم يعارضها، والترم الصمت مرة ثانية؛ لكن بقيت أفكاره الصاخبة تهتاج في رأسه، ما زال وجه هذا القمئ وهو يدلو بدلوه الكاذب عليه حاضراً بقوة في مخيلته، انقبضت أصابعه وتكورت في شكل قبضة متشنجة، ضرب بها على سطح المائدة في حنق وهو يغمغم لاعتنا إياه بهسهسة خافتة:

-كلب نجس، (...)!

تذكر أنه لا يزال محتفظًا بقطعة الثياب التحتية في جيبه، أخرجها منه لينظر إليها عن كثب، وألسنة اللهب تتقاذف في حدقتيه، كيف لو غدٍ مثله أن يحصل على مثل تلك الأشياء النسائية الخاصة؟ على الأغلب سرقتها خلصة في غفلة من الجميع، وفي وقتٍ كان متواجدًا به بمنزل العائلة، دون أن ينتبه له أحدهم، وما أكثر زيارته السمجة! التفت فجأة نحو شقيقته التي راحت تمازحه في دهشة:

-إيش إيش، إنت جايب الحاجات الحلوة دي لمراتك ولا إيه؟
طوى القطعة بتعجلٍ، فخاطبته ضاحكة:

-وماله، دلعها واتمتع معاها.

كان على وشك إعادتها إلى جيبه، لولا أن شددت عليه، بشيءٍ أكد كذب افتراء هذا الحقير:

-بس شيل تيكث السعر من عليه، لأحسن تبقى عيبة أوي في حقك.
أمعن النظر في ورقة السعر الملتصقة على الجانب، والتي غفل "فضل" عن نزعها، تفحص القطعة بتدقيقٍ، فوجد المزيد من الملصقات الخاصة بالمقاس، والموديل، استرعى الأمر انتباهه بشدة، فإن كانت زوجته تخونه حقًا، وهذا ما لم يصدقه من الأساس، فكيف إذا ارتدت هذه الثياب وأهلكتها وهي ما تزال بحالتها الجديدة؟!

الكاذب الفاسق أراد فقط زرع الفتنة بينهما، وإفساد زيجتهما بأحقر الوسائل الممكنة، دون أن يكثر لنتائج فعلته المشينة! ما ضاعف من شعور "تميم" بالاحتراق، هو تركه له هكذا دون تأديبه بما يستحق، فإن رحمه اليوم، وعفا عنه، فلن يمضي الغد دون أن يزيد من خسته، لذا بدا من الأفضل من وجهة نظره معاقبته على كل جرائمه شر عقاب. مرة ثانية تنبه لشقيقته وهي تسأله في دهشة:

مالك يا خويا؟ سرحت في إيه؟

نقى بتصنع:

-ولا حاجة يا "هاجر".

لم تكن مقتنعة برده، وسألته وهي تحاول سبر أغواره:

-الموضوع شكله كبير، ده أنا بكلمك وإنت في عالم تاني.

تحجج بحجة واهية قبل أن يقرب كوب المشروب من فمه ليرتشف منه القليل:

معلش، تلاقيني بس تعبان.

أخبرته على الفور في جدية:

حطب قوم روح لمراتك، زمانها مستنياك.

من أجل خاطر زوجته قرر إرجاء تفكيره الانتقامي مؤقتًا، نهض من مقعده، وقال:

معالي حق، هي محتاجاني دلوقتي.

ابتسمت وهي تدعو له:

-ربنا يخليكم لبعض، ويخليك لينا.

بادلها ابتسامة صغيرة تبددت سريعًا حين أولاهها ظهره، لينصرف بعدها وهو يسعى للسيطرة على غضبه الآخذ في التصاعد.

.....

أشفق على حال حفيده، وانزوى بغرفته يقرأ القرآن راجيًا المولى عز وجل أن يرده إلى صوابه، وألا يخسره في لحظة طيش هوجاء، فقد كان له بعد ابنه السند والسلوى. لم يعلم إن كان ما مر به لاحقًا هو حلم عابر، أم رؤية مليئة بالبشرى، حيث أحس الجد "سلطان" أنه لم يعد بمفرده في غرفته، جاءت إليه من بين ضباب غريب من افتقدها، أتت باسمه مثلما اعتاد أن يراها في كل وقت، وإن ثقلت المهموم على كتفيه، ثمة هالة آخاذه بها دفعته للهِتاف باسمها في شوقٍ شديد:

- "فُتْنَة"!

أضافت رؤياها شعورًا متلهفًا على قلبه الملتاع، فراح يسألها في عتاب
محب:

فينك من زمان؟ كل ده غايبة عندي؟

أدمعت عيناه تأثرا وهو يكمل:

-نفسي أجيلك أوي، بس اللي حايشني عنك الواد "تميم"، خايف أسييه
لوحدته يضيع نفسه.

أمعن النظر في يدها، كانت تحمل لفافة بيضاء بها، قربتها من بصره، فحاول
تبين ما بها؛ لكن نظره لم يسعفه، لهذا تساءل متعجبًا:

-إنت جايبة إيه معاكي؟

لم تجبه، فتابع أسئلته المتحيرة لها:

-دي ليا؟

هزت رأسها بالنفي، فانتقل لسؤاله التالي:

-أومال لمين؟

أشارت بعينها إلى الصورة الموضوعة على الكومود المجاور لسريره، التفت
ناظرًا إلى حيث تشير؛ كان الإطار الخشبي يضم صورة فوتغرافية له مع
حفيده الغالي، فسألها مندهشًا:

- "تميم"؟

أومات إيجاباً، ويدها ما تزال ممدودة باللفافة، حاول أخذها منها متسائلاً:
فيها إيه؟

ضحكت تلك الضحكة المسرورة التي تدخل على قلبه الرضا، فابتسم باكياً،
كم اشتاق لسماع صوتها، للبقاء بقربها، للشعور بها! وكأنه لم يعد هناك ما
يُقال بينهما، فبدأ طيفها في التلاشي، فزع قلبه، وهتف في حزنٍ ممتزج بكل
اللهفة:

- "فُتنة"؟ رايحة فين وسيداني؟

اغرورقت حدقتاه بالدموع وهو يعاتبها لرحيلها الخاطف:

- أنا ملحقش أشبع منك.

أفاق من غفلته الغريبة، والدموع ما تزال تبلل صدغيه، مسحها بظهر كفه
مردداً في غرابةٍ شديدة:

- لطفك يا رب.

عاود القراءة في مصحفه الشريف، فوقعت عيناه على الآية الكريمة: **وَأَمْرَأَتُهُ
قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَهْأً يَأْسَحَقُ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقٍ يَعْقُوبُ**

وكأنه فهم الرسالة الخفية من وراء هذه الرؤية السارة، لذا حلت البسمة
على وجهه المرهق، وقال في سرورٍ انتشر في نفسه:
-البشارة جاية قريب .. إنت الكريم يا رب!

.....

مثل تلك الأخبار المفجعة لا تأخذ وقتًا طويلاً في المعرفة والانتشار، حيث
وصل النبا إلى "آمنة" عن طريق إحدى معارفها بالبلدة، دون أن تلم
بتفاصيل الوفاة أو كيفية حدوثها، اتصلت الأخيرة بها لتعلمها لتجيء في التو،
وتكون في مقدمة الحاضرين، وتقدم كامل الدعم لـ "سعاد" في مصابها الأليم،
نظراً لصلة القرابة بينهما، لم تحاول "آمنة" الاسترسال في الحديث معها،
واقترضت في ردودها المصدومة إلى أن أنهت المكالمة، عندئذٍ أطلعت ابنتها
"همسة" -والتي كانت متواجدة معها في نفس الآن بالبيت- على الخبر
الصادم، فتفاجأت بما حدث، وهتفت متسائلة في ذهول تام:

معقولة الكلام ده؟ طب حصل إزاي وإمتى؟

أجابتها بنبرة حيرى:

محدث عارف يا بنتي، بس هانقول إيه غير ربنا خلص منه.

علقت عليها في غير أسف:

هو خذ جزاته، ده بذنّب "فيروزة" واللي عمله فيها.
غامت تعابير أمها، ورددت:
أه والله، ربك مُطلع وشايف.
تساءل "همسة" في قدرٍ من الحيرة:
طب تفتكري "فيروزة" عندها خبر يا ماما؟
حكّت "آمنة" جبينها بإصبعها، وقالت نافية:
ماظنش، ده أنا مش عارفة أوصلها ...
ثم أشارت بيدها نحو هاتفها المحمول المسنود على الطاولة لتتابع مفسرة:
هي نسيت موبايلها هنا.
سألها "همسة" مرة أخرى وهي تميل على الأريكة الغافل عليها رضيعها
لتنفقه:
ومتعريفش هي فين؟
جاوبتها في تعجلٍ:
ما هي نزلت ورا جوزها من بعد اللي حصل.

سكنت ابنتها قليلاً كأنما قد استغرقت في أفكارها، لتقول لاحقاً في نوع من التخمين:

جائز يكونوا عند حمايتها، مالهومش مكان ثاني يروحوه.

اقتрحت عليها "آمنة" في غير تفكير:

تعالى نشوفها هناك، وبالمرة نعرفهم باللى حصل.

هزت رأسها موافقة، وأضافت:

ماشى، أنا هلبس "رقية" تكونى إتى جهزتي.

تحركت والدتها متجهة نحو غرفتها في عجلة، ولسانها يردد بنبرة عازمة:

على طول أهوو.

.....

تهدل جلده، وتكرمش تحت عينيه بشكلٍ مخيف، عندما سمع الأنباء غير

السارة من مهندس الزراعى بشأن تعرض كامل محصوله للإصابة بآفة

خطيرة أفستت نتاج أرضه، وهو لا يزال موجوداً على عروش. هبّ

"فتحي" واقعاً، ثم قال وهو لا يزال غارقاً في صدمته:

معناته إيه الكلام ده؟

أخبره المهندس في نبذة آسفة:

-يعوض عليك ربنا يا حاج.

هلل مذهولاً بعد أن جمحت عيناه:

-يعوض عليا ربنا؟!!!

علق عليه المهندس في هدوءٍ محاولاً توضيح تبعات سوء اختياره:

-أنا نصحتك من الأول، وقولتك مافيش داعي نجرب حاجة مش مضمونة، النوع اللي استخدمته غير معروف، مالوش مصدر ولا أساس، وانت أصريت على رأيك، فطبيعي تكون دي النتيجة.

تنشطت ذاكرة "فتحي" بلقاء سابق جمعه بـ "فضل" وأحد مندوبي واحدة من المؤسسات الزراعية المتخصصة في إنتاج المبيدات المستجدة، كان اتفاقهم بشأن شراء ما ينقصهم بسعر زهيد، من أجل خفض قيمة التكاليف، وجمع المزيد من الربح في نهاية الموسم الزراعي، فجاءت النتيجة عكس كل التوقعات، مخيبة للآمال، ومصيبة بالإفلاس.

كان وجه "فتحي" يلمع كأنه يفح النار وهو يصيح بنبرة أشبه بالزئير:

-الله ينتقم منه، هو اللي شار عليا الشورة الهباب دي، وأديني خسرت الجلد والسقط.

اندفع كالمجنون مواصلاً صراخه فيمن حوله بمضيئة منزله:

-شوفولي الزيت "فضل" ده فين!

جاءه الرد من أحدهم وهو مطرق الرأس:

-في أخبار مش ولا بد يا حاج "فتحي".

هتف في حرقه، والحنق يتقاذف من عينيه:

-تاني؟ هو في مصايب أكثر من كده؟

تردد الرجل في إخباره؛ لكنه نطق في نهاية المطاف بنوع من الأسى:

- "فضل" تعيش إنت.

هتف مذهولاً، وهو يحاول الحفاظ على توازنه:

مات؟

أكد عليه الرجل بأسف:

-أيوه، لسه الخبر واصلنا من واد كان معاه في مشوار، وموته كانت صعب

شويتين.

بحث "فتحي" عن أقرب مقعد ليجلس عليه قبل أن يفقد توازنه من كم

الصدمات، حل الهم بأنواعه على تقاسيمه وهو ما زال يدمدم في حرقه:

-يعني هو مات وأنا اتخرب بيتي.

ظهر الغليل في صوته وهو يصيح داعيًا عليه، وضاربًا بكفيه على فخذه:
-روح الله يحكمك مطرح ما روح يا "فضل" يا ابن "سعاد"!!

.....

كل اقتراح فكر فيه تضمن مخاطرة غير محمودة العواقب؛ لكن لا مناص من
دراً الأذى بشيءٍ رادع، أبطأ "تيم" من سرعة سيارته حين ظهرت بنايته
على مرمى بصره، شمل المكان بنظراتٍ خاطفة ليبحث عن بقعة خالية يركن
فيها. لحظه وجد منطقة مناسبة مواجهة للمدخل، فانتقل إليها على الفور،
وأطفأ المحرك. ظل باقياً لبرهة في مكانه، محاولاً تفريغ عقله من كم الأفكار
المتزاحمة فيه، قطع رنين هاتفه المحمول الصمت المشحون المستغرق فيه،
التقطه بيده من على التابلوه، وتحدث إلى المتصل بفتور:

-أيوه يا "هيثم".

هتف الأخير في صوتٍ شبه لاهث؛ كأنما يمهّد لشيءٍ خفي:

-إنت فين يا "تيم"؟

تساءل في اقتضاب:

-خير؟

أجابه متسائلاً في غموض:

عرفت باللي حصل للبغل "فضل"؟

الإتيان على سيرته في هذا الوقت تحديدًا يعني استثارة أعصابه، وهذا ما لم يطقه "تميم"، انفجر صارخًا في ابن خالته بحقد:

ـماله الـ (...) ده؟ عمل إيه تاني؟

ردد "هيثم" مندهشًا:

ـتاني؟ هو كان في أولاني؟

صاح به "تميم" في صبرٍ نافذ للغاية:

ـلخص في الكلام يا "هيثم".

ـتنح ابن خالته قبل أن يخبره بلمحةٍ من التشفي:

ـبص هو لا هيلحق يعمل تاني ولا تالت، ربنا خده وريحنا من قرفه.

ـهبطت الخبر على رأسه كالصاعقة، فبرقت نظراته، وهتف مصدومًا:

ـإيه!

ـأكد عليه فيما بدا أشبه بالشماتة:

ـأه والله، أنا زيك مصدقتش لما مراقي قالتلي، يقولك مات في حادثة

بشعة، بس لسه معندناش التفاصيل.

من بين شفتيه ردد "تميم" في صدمة ما زالت لها تأثيرها عليه:

يا سبحان الله!

علق "هيثم" قائلاً:

-أهوو ريح واستريح.

وكأنه يُحدث الفراغ، لم يكثرث "تميم" لما يقوله، بل أخذ يكرر في صوتٍ خافت، يكاد يكون مسموعاً للطرف الآخر:

صدقت يا أبويا لما قولت **وَاللَّهِ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ..**

.....

لم تتوقف عن البكاء مُطلقاً بالرغم من تأكيدات "ونيسة" المتواصلة بأن زوجها بات في مأمن من الخطر، لم تقتنع "فيروزة"، ولم تصدق ذلك، ظنت أنها تحاول تهدئتها بهذا الكلام لتكف عن النحيب. بقيت في وضعية استنكارٍ رافضة الإصغاء إليها، حتى انعكس التأثير السلبي على بدنها، فبدت أكثر إعياء، وذبولاً. حذرتها حمايتها مجدداً بلومٍ رغم حنو نبرتها:

يا بنتي ماينفعش اللي إتي عملاه في نفسك ده!

كانت تبكي بصوتٍ متقطع، تهز رأسها برفضٍ صريح، فاستأنفت الأولى كلامها إليها، لعلها تتخلى عن عنادها، وتهداً:

ما أنا قولتلك عمك الحاج "بدير" راحله الدكان، وهو بخير.
ردت بكاءً:

-لا، مش هطمن إلا لما أشوفه قصادي.

وضعت "ونيسة" يدها على ذراعها، ضغطت عليها برفق، وأكدت عليها في يقينٍ واضح:

-بصي طالما أبوه كلمه، اعرفي إنه مش هيخرج عن طوعه، وهيسمع الكلام.
نظرت إليها كأنما تفتش بين عينيها عن صدق عباراتها، فأضافت "ونيسة" في لطف:

-وبعدين كنتي هتلاقيني أعدة كده قصادك لو هو فيه حاجة؟! أنا برضوه أمه، وبخاف على ولادي من الهوا الطاير.

على ما يبدو اقتنعت "فيروزة" قليلاً بحجتها المنطقية، فبدأت تسحب أنفاساً عميقة تثبط بها نوبة بكائها، في حين قربت "ونيسة" صحن الفاكهة الذي أتت به لها منها قائلة بلهجة شبه أمرة:
كلي بس حاجة إنت وشك لونه مخطوف.

رفضت بشكلٍ قاطع تناول ما يسد جوعها:

-مش عاوزة.

ضربت "ونيسة" كفها بالآخر، وأخذت تهتف في تدمر:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، وذنب الأكل إيه تغضبي عليه؟

تمسكت برأسها قائلة في عند طفولي:

-ماليش نفس، أنا عاوزة "تميم"، كلميه يا طنط.

أخبرتها في قلة حيلة:

يا بنتي ما أنا طلبته قدامك كذا مرة ومردتش عليا، وأبوه دلوقتي هيجي
ويجيبه معاه.

هتفت في لوعة:

يا ريت.

تهدت "ونيسة" مضيفة في توجس استبد بها، حاولت قدر المستطاع
إخفائه:

-ربنا يسترها علينا وما يشمتش فينا عدو.

موجة من الدوار العنيف كادت تطيح برأسها، بالكاد تماسكت لئلا يظهر ضعفها، حاولت الظهور بمظهر الثبات وهي تستطرد في رجفة طفيفة:

طنط أنا هاقوم أستنى "تميم" جوا في أوضته.

ربتت "ونيسة" على كتفها مرددة:

ده بيتك يا بنتي، ارتاحي مطرح ما تحبي.

من بين الحزن المرسوم على صفحة وجهها، ظهرت بسمة باهتة ممتنة على شفتي "فيروزة"، قبل أن تعود وتسحبها لتبدو عابسة من جديد. نهضت من مجلسها مغادرة الصالة، سارت في تؤدة، وبغير اتزان، نحو غرفته، استندت بكفها على طول الحائط الممتد في الرواق، إلى أن وصلت إلى الباب، دفعته بوهن، ووطأت للداخل وهي بالكاد كانت على وشك فقدان وعيها، أغلقته من ورائها، ثم تقدمت نحو الفراش ملقية نظرة تعيسة عليها، بكت مرة ثانية، قبل أن تستلقي بجسدها عليه، تاركة لهذا الشعور العجيب بالإغفاء يغمرها، كأنما كانت تنشده لتريح عقلها المستنزف، وتسريح من أوجاعها الـ لا متناهية

!!!

.....

الخاتمة-

استجمع شتات أفكاره المتبعثرة، وأفاق من تبعات الخبر الصادم الذي أخذ معه جزءًا لا بأس به من الرغبات الانتقامية المكبوتة بداخله، نظر في غير تركيز إلى مؤشرات السيارة المركونة، كان كل شيء ساكنًا، تنفس بعمق، ونفض عن كتفيه ما ظل يؤرقه طوال الساعات الماضية، ليترجل منها في تباطؤ، ثم سار نحو مدخل بناية عائلته، استوقفه مرة أخرى رنين هاتفه المحمول، فنظر إلى اسم المتصل، بالطبع مثل هذه الأخبار تنتشر سريعًا كما يتعكر الماء النقي ببقعة حبرٍ سوداء، أطبق على جفنيه للحظة، ثم ضغط على زر الإيجاب هاتفًا في هدوء:

-أيوه يا "كرم".

استمع إلى صوت ضحكات الطرف الآخر قبل أن يعلق في نبرة جمعت بين
الهزل والتحذير:

-إنت الوحيد اللي مسموحله يناديلي كده، ده بس عشان غلاوتك.

صمت "تميم"، ولم يعقب بكلمة، فتابع "الهجوم" حديثه:

-أنا وردني خبر إن اللي عليه العين اتكل، ملحققتش أوجب معاه.

تهدد في بطء، وأخبره بوجه غير مسترخي:

-أها .. ما أنا عرفت.

تابع "الهجوم" كلامه قائلاً بعزم:

حبيب بما إن المصلحة اتفركشت، عاوز أقابلك عشان أرجعلك العربون
وآ...

قاطع "تميم" رافضاً بلباقة:

-لأ خلاص، دول طلعا من ذمتي، مش عاوزهم.

أصر عليه في إلحاح:

-لأ ماينفعش، أنا لازماً ...

قاطعه مرة ثانية مبدئياً تصميمه:

-ماfish داعي، كفاية إن الليلة خلصت على أد كده.

ضحك "الهجوم" للحظة قبل أن يقول مازحاً:

طول عمرك ابن أصول، وملكش في شغلنا ولا سكتنا.

من جديد سكت "تميم"، لم يكن رائق المزاج ليبادل الثثرة، ولم يكن مستريح البال ليتمازح معه، لذا بقي على سكوته الظاهري، وأصغى إليه وهو يستأنف قائلاً:

-نتقابل بقى على خير، ولو إني عارف إن لو اتقابلنا تاني هيبقى على شر.

أتبع ذلك ضحكة قصيرة، ليضيف مختبئاً المكالمة:

-وماتنسأس، لو عوزتني في أي وقت، إنت عارف هتوصل لكبير "الهجامة" إزاي.

لفظ دفعة من الهواء، وقال مقتضباً:

-أكيد.

كان آخر ما نطق به "الهجوم" قبل أن يغلق الخط:

-سلام يا سيد المعلمين.

ظل "تميم" متجمداً في مكانه للحظات، مقطب الوجه، غائم النظرات، سعى خلال تلك الثواني في انتشال نفسه من غمار المشاعر الحارقة المضطربة في عمق أعماقه، ليستعيد هدوئه، على الأقل حين يواجه زوجته التي تنتظره على أحر من الجمر، لتعرف ما الذي فعله لرد اعتبارها، والمدهش أنه لم يقترب أي ذنب، بل كانت عدالة السماء هي الناجزة، ونهايته كانت حقاً مروعة!

.....

بخطوات خذلة، صعد الدرجات إلى أن وصل إلى باب المنزل، تردد لهنية في الدخول، فخبية الأمل ما زالت مسيطرة عليه، لكونه لم يقتص منه بشكل شخصي، استعاذ بالله من وسوسة شيطان رأسه المضل، ذاك الذي يجعله غير راضٍ عن قضاء الله، دس المفتاح في قفله، ثم أداره ليفتح الباب، الهمهمات السائدة في الصلاة توقفت دفعة واحدة حينما أطل منه. ألقى "تميم" التحية في هدوء وهو يومئ برأسه، فنهضت والدته من جلستها لتحييه في ترحابٍ ودود:

-وعليكم السلام يا ابني، حمدلله على سلامتك.

وزع نظراته سريعاً على وجوه "آمنة"، "همسة" مع رضيعها النائم، والصغيرة "رقية"، لم تكن زوجته بينهما، مما أوغر صدره، اكتفى بمنحهن بسمه هزيلة

باهتة قبل أن يركز كامل نظره على وجه والدته التي بادرت بإخباره وهي
تلمس كتفه في حنو:

-دريت باللي حصل؟

فهم ما ترمي إليه، وقال في إيجاز غير راغب في التحدث عن هذا اللعين:
-أيوه.

أضافت عليها "آمنة" في غير تعاطف:

-ربنا انتقم منه، وريح الناس من شره.

أكدت "همسة" كذلك وهي تنقل رضيعها لكتفها الآخر لينام عليه:
-ده حقيقي.

استدار برأسه ناظرًا مجددًا لوالدته، حين قالت بتعابير شبه ممتعة:

-ولو إن الواحد مايحبش يشمت في الموت، بس ربنا نجاك يا ابني.

تهد بعمق، وتساءل وهو يجول بنظراته في أرجاء الصالة:

-فين مراتي؟

أجابته والدته موضحة في حزن:

-أعدة جوا في أوضتك، مرضتش تخرج منها.

انقلبت ملامحه ضيقًا على حالها، وخاطبها في وجوم:
-أنا هارو حلها.

ربت "ونيسة" على ظهره قائلة:
-خذ راحتك.

بدأ في السير مبتعدًا عنهن؛ لكن اعترضت طريقه الصغيرة "رقية"،
استوقفته بجذبه من معصمه، ونادته بصوت حزين:
-عمو "تميم"!

جثا على ركبته ل يبدو في مستوى نظرها، وقال بشيء من الرقة:
-أيوه يا حبيبتي.

ارتمت في أحضانه تطلب منه براءة:

-ماتسبش "فيرو" لوحدها، هي زعلانة إنك بعيد عنها.

ضمها إليه، خائفًا تلك الغصة المؤلمة الموجودة في حلقه، لفظ كتلة حارقة من
الهواء من رثتيه، وسحب شهيقًا عميقًا يثبط به ما يحتاجه من مشاعر
محتاجة، لو كان غيره من يمر بتلك الاختبارات العصيبة، دون وجود رابط
أو ضابط، لخرج الطابع البري الهمجي عن السيطرة، ووصلت الأزمات

الحرجة إلى أقصاها. جاهد "تميم" ليحافظ على هدوئه الزائف، ثم مسح على
ظهر الصغيرة بحنو أبوي قبل أن يؤكد لها بصدق:

-أنا مقدرش أسيبها.

مرغت "رقية" رأسها في كتفه، وقالت في محبة صافية:

-أنا بحبك أوي.

في براءتها الكثير من السلوى، والتطبيب للأوجاع غير المرئية، رفع ذراعه
للأعلى، ووضع راحته على رأسها ليمسد على جديلة شعرها قائلاً:

-وأنا كمان.

تراجع عنها، واستلها من أحضانه ليعيدها للخلف خطوة وهو ممسك بها من
جانب ذراعها، تمكن من النظر إلى وجهها البريء، ثم أخبرها بلهجة اتخذت
طابعاً آمراً:

خليكي مع عمتك، واسمعي كلامها.

هزت رأسها في طاعة مرددة:

-ماشي.

منحها قبلة صغيرة على وجتها قبل أن يودعها:

مع السلامة.

استقام واقفاً وهو يراها ترحل عائدة إلى البقية المتواجدة بالصالة، من زاويته
نظر إلى "آمنة" التي شبكت يدها في كف الصغيرة، وقالت مستأذنة
بالذهاب:

-يدوب احنا نقوم.

أحت عليها "ونيسة" لتبقى، فقالت في جدية:

خليكم أعدين شوية، ده احنا متونسين بيوكم.

اعتذرت منها بخرج:

معلش، كفاية دوشناكم معانا طول اليوم، وإنتو ملكوش ذنب.

ردت عليها في عتابٍ رقيق:

-احنا عيلة واحدة يا "آمنة"، عيب ماتقوليش كده، واللي يمسكم يمسننا.

ظهرت ابتسامة صغيرة على وجهها وهي تشكرها:

-ربنا يخليكم لينا.

تنحنحت "ونيسة" متسائلة بعد لحظة من التردد:

لو إني محروجة أسالك، بس إنتو رايعين الجنازة والعزا؟

فاجأها السؤال كما باغته وهو يقف في الركن الخلفي بعيدًا عن مدى
بصرهن، كيف يمكن لشخص طبيعي أن يتجاوز عن سيئات آخر بهذه
السرعة لمجرد هلاكه؟ من المستحيل التعايش مع الواقع الأليم بمثل تلك
السلاسة. تطلعت "آمنة" بتحيرٍ إلى ابنتها، لتتولى الأخيرة الرد بدبلوماسية:

-بتهيا لي معدتش ينفع.

استحسن "تميم" رأيها، وظل متابعًا للنقاش الدائر، حيث اقترحت
"ونيسة" بتعقل:

-الأسلم إن كل واحد يفضل بعيد عن الطرف الثاني، مهما كان النفوس
هتفضل شايلة ومعبية.

وافقتها "همسة" الرأي، وأردفت قائلة:

فعلاً، للأسف صعب الكل ينسى بالساهل.

وضعت "آمنة" يدها على كتف ابنتها تستحثها على التحرك معها، لتتكلم
بعد ذلك في تهذيب:

-ربنا يقدم الي فيه الخير، عن إذنكم.

تحركت "ونيسة" في تودة لتوصلهن إلى الباب قائلة:

-شرفتونا.

زفر "تميم" مرة ثانية، وواصل مشيه للداخل؛ لكن هذه المرة استوقفه جده الذي على ما يبدو كان ينتظره منذ برهة، خطا ناحيته في تخاذلٍ لم يستطع إخفائه عنه، والأخير استقبله بكل اهتمام، طالباً منه:

قبل ما تخش لمراتك عاوزك شوية.

كان على وشك الرفض، فخرج صوته مضطرباً متدمراً:
جدي آ...

تمسك بطلبه قائلاً بنبرة مالت للحزم:

تعالى، وبلاش مكبرة.

في أعماقه المعتمة، كان "تميم" بحاجة ماسة للضوء الذي يخرج من ظلمته، إلى بهجة الحياة وضياؤها، وربما في استرساله مع جده السبيل إلى هذا السلام المفقود.

.....

ظلت نظراته هائمة، تائهة، تقف عند حافة ذكريات ما قبل موت "فضل"، هذا الحد الفاصل ما بين الانسياق وراء دوافع الثأر والانتقام، وبين ترك الماضي جانباً، والتطلع للأمام. أفرغ "تميم" مكنونات صدره له، عله يمنحه النصيحة السديدة، بعد أن تخبط في صراعات رأسه، انتبه إلى صوت جده

الذي ما زال يخاطبه بود، كأنما يحاول إرشاده للطريق الذي كاد يحيد عنه
تحت وطأة الضغوط:

حكم ربنا كان أسرع ونافذ.

ربما هدأته كلماته الإيمانية؛ لكنها لم تشف بعد غليله المتقد، استمر "سلطان"
في إقناعه بلهجته الهادئة:

-يمكن في موته رحمة ليك، ونجاة من شر مكوتش عارفه.

احتج في تدمر:

-بس حق مراتي .. صعبان عليا إني مجبتوش.

أخبره مبتسمًا في رضا:

-ومين قال إنه مجاش؟ ده جالها من رب السماوات والأرض، عاوز ترضية
أكثر من كده إيه؟

أطرق رأسه في تردد، فأكمل "سلطان" بنفس الوتيرة الهادئة:

-سبحانه وتعالى ليه حكمة في كل شيء..

انتقل الجد من أريكته ليجلس هذه المرة على طرف السرير بجواره، حاوط
حفيده من كتفيه بذراعه، وراح يخبره في نوع من النصيحة:

-ارمي الماضي بكل اللي فيه، وركز في اللي معاك، وبص للي جاي ...

سكت للحظة مستحضراً رؤياه الطيبة، وقال بغير تفسير:

عطايا ربك مابتنتهيش، ليها وقت وميعاد.

نظر إليه "تميم" بعينين تحتجزان الدموع، رمش بجفنيه ليطرد العالق في أهدايه، البقاء جامداً لم يعد مجدياً، وقد ضاق ذرعاً بمشاعره التي تخنقه، تحرر من قيوده معترفاً في ألم:

قلبي موجوع يا جدي.

أمثاله ممن تربوا على القيم الأصيلة، كاحترام الشرف وتقديسه، كان من غير اليسير عليهم التعايش مع بعض الوقائع الصادمة ببساطة، وكأنها لم تكن، خاصة حينما يتم الخوض في الأعراض، وهو ذاق ويلاته عندما دافع عن شقيقته قديماً، وعاود الكرة مع زوجته الآن. لم يكن ليناً أبداً ويستعيد سكينته إن لم يخرج ما يثقل صدره، ربت الجد على جانب ذراعه قائلاً في سلاسة:

-والدوا موجود عند مراتك.

من بين دموعه التي كفكفها نظر إليه متحيراً، فتابع مبتسماً بثقة:

-روحلها، وخليك وياها، ساعتها هتلاقي الراحة ...

وقبل أن يتردد في الاستجابة لأمره، أخبره بلهجة لم تخل من السخرية
المريّة:

-اسمع كلام واحد رجل برا ورجل جوا.

انقبض قلبه لمجرد ترديده هذه العبارة الدارجة، وراح يقول في جزع:

-ربنا يديك طولة العمر.

هز الجد رأسه بهزات خفيفة، وقال في حبور:

-ربنا يرزقك بكل ما تتمنى.

.....

بحرص شديد، فتح الباب المغلق، ليلج إلى الداخل، قاصداً ألا يشير
بتواجهه أدنى إزعاج، فلا تستيقظ وتفزع لرؤيته بهذه الحالة الفوضوية.
تسلل "تميم" على أطراف أصابعه، ودنا من سريره بعد أن أوصد الباب من
خلفه، توقف عند حافة الفراش ليتأملها، يكاد يقسم أنه عند التطلع إليها
تشيع في روحه كل السكينة المنشودة، نزع عنه قميصه المتعرق، وركع على
ركبتيه ليبدو قريباً من وجهها النائم، أمعن النظر في قسماها المبللة ببقايا
دمعائها، متذكراً توسلها الشديد له لئلا يرحل ويتركها سعيًا وراء انتقامه،
آلمته الذكرى، وحز ذلك في قلبه، أقبل برأسه عليها، ثم همس لها معتذراً
بأنفاس لا تزال ضائعة:

-حقك عليا، أنا السبب في دموعك دي.
رفع يده ليتلمس في رقّة وجتها، وتابع في ألم:
أصعب حاجة مرّيت بيها معاكى إني أحس إني ممكن أخسرك.
أغمض عينيه ليقضي على آخر ذرات غضبه مستحضراً نصائح جده الغالية
له، عاود فتحهما، وتأمّلها مُجَدِّداً ميثاق الحب معها:
-ربنا يقدرني وأعوضك عن كل أذى شوفتيه في حياتك.
وكأن في صوته إشارات تنبيه لعقلها الغافل، فأعادها إلى يقظتها بشكلٍ
جزئي، فتحت عينيها بثقلٍ، ونادته في صوتٍ متحشرج:
- "تميم!"
ابتسم لها رغم الألم، وقال:
-أنا هنا.
رجته في وهنٍ قبل أن يطغى سلطان النوم عليها، معتقدة أنها لا تزال غارقة
في هلاوسها:
-ماتبعدهش تاني.
مسح على خدها بإبهامه، ووعدّها:

حاضر.

استند بيده على الطرف لينهض واقفاً من جلسته، ثم اقترب من دولابه ليبدل ثيابه بأخرى نظيفة، بعد أن يغتسل ويمحو آثار هذا اليوم المشؤوم، ربما بدأ بغير خير؛ لكنه لن يتركه ينتهي ويمضي سوى بكل الخير.

.....

حين استفاقت من سباتها المرهق، ورأته ممدداً إلى جوارها لم تصدق عينيها، فركبتها، ودعكتها، ورفرفت بهما، لتتأكد أنها لم تعد غارقة في غمرة أحلامها الوهمية، التفتت كلياً بجسدها ناحيته، وجلست مربعة ساقيها، وأراحت ذقنها على راحتيها المضمومتين معاً، اعتلى شفتاها ابتسامة عظيمة، كأنها زهرة أشرقت، وأينعت، وحن وقت قطفها. فتح "تميم" عينيه متفاجئاً بها على تلك الوضعية، سألها مندهشاً وهو ينظر إليها بنصف عين:

في حاجة حصلت؟

تهدت مطولاً في راحة، كأنما خرجت لتوها من نوبة حب عنيفة، وقالت نافية، وتلك النظرة المسترخية تحتل وجهها:

-لا، بس أنا مش مصدقة إنك موجود هنا.

استخدم "تميم" مرفقيه، ليتزحف للخلف، ثم استند بظهره على عارضة الفراش متطلعًا إليها بشوقٍ، فواصلت الكلام في نبرة إلى حدٍ ما بدت متأثرة:

عارف أكثر حاجة خوفت منها إيه؟

سألها بنظرة مستفهمة من عينيه دون أن ينطق، فأجابت في تخوفٍ وقد تراخى ذراعاها:

-إني أخسر السند في حياتي، وخصوصًا إني .. من بعد بابا الله يرحمه، مكانش في حد سند ليا، زي ما إنت على طول معايا.

امتدت يده لتمسك بكفها، ضم أناملها بأصابعه، وضغط عليها في رفيق، قبل أن تنفرج شفتاه لتجدد اعترافه:

-أنا بحبك.

اختفى الحزن من على صفحة وجهها، وبدأت تفك وثاق ساقها لتستعد للنهوض وهي تخبره:

-وأنا بعشقك.

لم يتركها "تميم" ترحل عنه، بل جذبها إلى أحضانه في جذبة قوية غير قاسية، وحركها في خفةٍ لتغدو أسفل منه، تعلقت بعنقه، وطالعت بهيام،

فأطبق على كلها بكله، وراح يغرقها بعشرات القبل التواقة الملهفة،
مستثيراً فيها حواسها، وموقظاً بها مشاعر اللهفة والرغبة، أطلق في خضم
قبلاته الخبيرة طاقة فياضة من الحنان، وأعطته من بين تأويهاها لمحات من
السحر الآخاذ، وحينما انتفضت خلاياها، وانتعشت كورقة شجر أصابها
الندى، منحتة نفسها كما لم تمنحه من قبل، كأنما تدمغ حبها ببصمة عشقه
للأبد.

.....

بعد مرور شهرين،،،

تتابعت دقائق قلبها، وانتابتها قشعريرة غريبة وهي لا تزال جالسة في هذا
المكان، مترقبة صدور نتائج التحاليل الطبية، كان من الصعب عليها إخفاء
الأمر على زوجها؛ لكنها أرادت التأكد أولاً، لتحظى بمتعة رؤية تأثير الخبر
عليه .. الاختبار المنزلي للحمل الذي أجرته أتى ببشارة محمودة، تلون
الشريطان؛ لكن ما زالت الشكوك تساورها، فقد قرأت عن مثل تلك
الأخطاء واردة الحدوث، لهذا أرادت قطع الشك باليقين بتحليل الدم،
انتظرت بأعصاب متوترة خروج النتيجة من الداخل، قفزت واقفة من
مقعدها المعدني لتقترب منها متسائلة في تلهف:

ليه الأخبار؟

رسمت الطيبة بسمه لطيفة على ثغرها وهي تجاوبها:

ألف مبروك، حامل.

هتفت في سرور شديد:

الحمد لله، إحساسي كان صح.

أُكملت الطيبة موضحة في نبرة شبه جادة:

إنتي في الشهر الأول لسه، في دكتور معين بتتابعي معاه، ولا تحبي
نرشحك حد؟

ردت بنفس الصوت الفرح المليء بالحماس:

مش فارقة، المهم إن ربنا كرمني في الآخر.

مدت الطيبة ملفها الورقي ناحيتها، وقالت في تهذيب:

مبروك يا مدام، وإن شاء الله يكمل على خير.

أخذته منها مرددة في امتنان:

يا رب، شكرا لذوقك، تعبتك معايا.

هزت رأسها قائلة بلباقة وهي تهم بالتحرك بعيدًا عنها:

ده شغلي يا فندم.

غادرت "فيروزة" المعمل المتخصص وهي في قمة سعادتها، ظل لسانها يردد
شاكرا:

يا ما إنت كريم يا رب.

طوت الملف الطبي، ووضعت في حقيبة يدها بعد أن استلت منها هاتفها
المحمول، بنفس القدر المرتفع من الحماس اتصلت بزوجها، ترقبت رده،
وقالت في عجلة ما إن سمعت صوته:

ألو، أيوه يا "تميم".

سألها برسمية محسوسة في نبرته:

خير يا أبله؟

سألته بحاجبين مضمومين:

هو في حد جمبك ولا إيه؟

حمم مجيبًا إياها بنبرة موحية:

معلمين السوق، ما إتي فاهمة.

تقوست شفتها عن بسمه مرحة وهي تفسر مقصده:

أيوه تقولي أبله قصاد الغرب، وتدليني واحنا سوا.

جاءها رده مؤيداً:

بالضبط كده.

بلعت ريقها، وعادت لذروة حماسها وهي تخبره:

حبيب أنا عاوزة أشوفك دلوقتي حالاً.

سألها في توجيس:

في حاجة حصلت ولا إيه؟

راوغته في الرد، وقالت في استمتاع:

هتعرف لما أقابلك.

علق عليها بعزم:

حبيب، أنا جايلك المحل.

في التو خاطبته بجدية لتزيد من تحيره:

-لا، أنا مش هناك، تعلا لي عند أول مرة اتقابلنا فيها عند الكورنيش.

سكت للحظة كتعبير عن استغرابه، قبل أن يهتف في جزع:

-أوعي تقوليلي إنك ناوية تقفي بعربية أكل ثاني هناك، ما أنا عارف دماغك

ساعات كده تشطح بحاجات.

عبست لكلامه، وعلقت في تحفزي:

-وايه العيب في كده؟ ما دلوقتي في بنات كتير واقفين هناك وآ...

قاطعها قائلاً في حزم:

يا ستي أفتحلك مطعم بحاله، بس اتجديني إتي وظيفتي نفسك في الأكل.
احتجت على اتهامه المبطن بعدم قدرتها على الطهي، وصاحت مدافعة عن
نفسها:

على فكرة أنا طبيخي تحفة، أجدع من أضرها شيف.
استطاعت أن تسمع صوت ضحكته المرحه وهو يؤكد:
-ومعدتي تشهد بكده.

لم تجبت ابتسامتها النضرة من على محياها وهي تلح عليه:
حطب يالا تعالى متأخرش، هستناك هناك.

قال في طاعة أراحته:

حاضر، مسافة الطريق.

.....

كل ما مرت به من ذكريات مصيرية بدأ من هنا، من عند هذه البقعة، هنا شهدت ميلاد الصراع، واحتدام الأزمات، وأيضًا هنا بذاتها ستشهد على توطيد العلاقات. راحت "فيروزه" تتطلع لحركة المارة في وسط النهار، وصدرها مبهج، وقلبها في أوج فرحته، ترقبت مجيء زوجها، لمحته قادمًا من على بعدٍ وهو شبه متعجل في خطواته، جلس إلى جوارها على القطع الحجرية قائلاً بتذمر، وبصوتٍ أقرب للهاث:

-مش كنت قابلتك في المحل وخلاص.

ردت في وداعة:

-هنا أحسن.

التقط أنفاسه، وتكلم في غير تمهيد:

-صحيح كنت عاوز أعرفك إن "حسني" اتطس حكم، المحامي كلمني، وعرفني بده، بعد البلاغات اللي كانت متقدمة فيه في قضايا النصب والهجرة غير الشرعية، ده غير طبعًا القضية الأساسية بتاعته.

بنفس الصوت الهادئ علقت:

-ربنا يبعد أذاه عننا.

ثم رمقته بتلك النظرة الدافئة الحنون، وسألته في رقة، بما بدا سخيًّا له،
ومناقضًا لاستدعائه الهام على وجه السرعة:

-إيه رأيك في الجو؟

بادلها نظرة مزعوجة، وواصل تدمره:

حر، والشمس حامية، وبأدعي ربنا الشتا يجي ...

ضحكت ملء شديها، حتى فاضت الدموع السعيدة من عينيها، نظر إليها
مدهوشًا، وسألها بتبرم:

هو إتي جيباني على ملي وشي عشان كده؟

هزت رأسها نافية، فقال بغيط:

-أومال إيه؟

من بين ضحكات القصيرة أجابته بنزق:

- "تميم"، أنا حامل.

على ما يبدو لم ينتبه لما اعترفت به في التو، فقال في انزعاج:

-وايه يعني إنك ...

برقت عيناه في ذهولٍ صادم، وحملق فيها بدهشةٍ أكبر، قبل أن ينطق
بتلعثم:

-إيه؟ بتقولي إيه؟

خفت ضحكاتها للغاية؛ لكن بقيت ابتسامتها تنير وجهها، وكررت على
مسامعه من جديد، ضاغطة على كل حرف في كلمتها الأخيرة:
-أنا حامل.

هب واقفاً من موضعه، وصاح محذراً بسبابته المرفوعة أمام وجهها، ويده
الأخرى تمر أعلى رأسه في ارتباكٍ متعاضم:
-بالله العظيم، ده مش هزار يا "فيروزة".

هزت رأسها نافية:

-لا والله ...

ثم مدت يدها داخل حقيبتها لتخرج الملف الطبي وهي تؤكد على صدق
عبارتها:

-والتحليل معايا أهي.

تناول الأوراق منها، ونظر لها بتحير، قبل أن يغلق الملف قائلاً في لهفةٍ ما
زالت تتزايد مع كل لحظة:

-أنا مش فاهم حاجة، بس إتي حامل حامل؟!!!
استرخت في جلستها، وأجابت بثقة:
-أه والله.

كالصبية الصغار دار "تميم" حول نفسه وهو يرسم تلك الابتسامة البلهاء
على وجهه، توقف عن الدوران ليخاطبها في حماسة كبيرة:
-اقسم بالله لولا إنا في الشارع، وممكن نتأخذ فيها على القسم، لكنت آ...
فهمت تلميحه العاثر، فتورد وجهها نجلاً، وحذرتة بعد نحنة خفيفة:
-احم .. عيب.

عاد ليجلس إلى جوارها، وردد في ذهول مسرور:
-أنا هابقي أب، الله!

سألته "فيروزة" في فضول:

-يا ترى عاوز ولد ولا بنت؟

جاوبها في نفس الدفقة من الحماس المسيطرة عليه كلياً:

-أي حاجة، كله من عند ربنا حلو، بس تقومي بالسلامة الأول.

علقت ذراعها في ذراعه، واستندت برأسها على كتفه؛ لكن ما لبث أن
أبعدتها لتنظر إليه في صدمة عندما أخبرها بجدية تامة:

-بس لو ولد هنسميه "علي".

رددت متسائلة بنفس التعابير المصدومة:

على اسم بابا؟

أوما برأسه مؤكداً في تصميم عجيب، وهي ترى الحب جلياً في عينيه:
-أيوه، خلينا نحي ذكراه من ثاني.

لفت ذراعها الآخر حول ذراعه، وزاد تمسكها به، ثم أسبلت عينيها
الرقراقتين بدمعائها المتأثرة ناحيته، قبل أن تبادر بتكرار اعترافها المفضل
لديه:

-أنا بحبك أوي.

شمّلها بنظرته الدافئة، الغارقة ولهاً في محراب عشقها، ثم قال بنوع من
التباهي وهو يمسح بيده على كفها:

-وأنا حبيتك الأول.

.....

الأبوة مكتسبة، لا يتم الشعور بها، إلا حين يحمل الأب وليده بين ذراعيه؛ لكن معه كان الوضع مختلفًا، منذ اللحظة التي علم بها بمسألة حملها، وهو يشعر بمدى مسؤوليته تجاه ما تحتويه أحشائها، وحين أتت البشارة بأنها أنثى، ابتهج، واختال بعطية المولى له، كان "تميم" ينتمي لذلك النوع النادر من البشر الذي يقدر كل ما هو مؤث، ويُعلي من شأنه، ويا ليت مثله الكثيرين!

ظل الخوف مستبدًا به، لا يغيب عنه للحظة، وهو يجول في الردهة جيئة وذهابًا منتظرًا إبلأغه بالأخبار السارة، لا يعرف كيف انقضت أشهر الحمل عليه وهو ينتظر بلهفة صغيرة تواق للعيد مرور الأيام ليحمل بين ذراعيه قطعة منها. دنا "تميم" من جده الجالس على المقعد المعدني، وقف قبألته، ثم سأله في توتر:

-دعيتها يا جدي ولا لأ؟

أجابه "سلطان" وهو يضم كفيه معًا ليستند بهما على رأس عكازه:

-مأبطلش يا ابني.

التفت مآدقًا في وجه وألته الجالسة إلى جواره، وسألها بنفس النبرة المتوترة:

-وأنتي يأمه؟

أخبرته بقليلٍ من الحزم:

-كلنا بندعيها يا حبيبي، بس اركز إنت، وأقف على حيلك.

تحرك مجددًا في تلبكٍ وهو يخاطبها:

-مش قادر، أعصابي تعبانة.

ردت عليه والدته وهي تبتسم:

-ربنا يكرمها، وتقوم بالسلامة.

سألها في تحير:

-تفتكر هتطلع شبه أمها ولا شبيبي؟ أنا عاوزها نسخة من أمها.

مازحه جده متسائلًا:

-وتطلع عينك برضوه؟

قال في غير اكتراثٍ وهو ينظر في اتجاهه:

-مش مهم، بس كفاية إنها تبقى حنة مني ومنها.

سأله "بدير" كنوعٍ من المشاركة في الحوار:

-كلمت أمها؟

استدار تجاهه، وأجابته:

-أيوه، وهي جاية في الطريق.

أضافت "ونيسة" قائلة بعد أن وضعت حقيبتها في حجرها:

-الحمد لله إننا كنا حوالينا وقت ما الطلق جالها، وكويس إنكم سايين شنطتها
عندنا تحسبًا لو ده حصل.

علق عليها "تيم" بلامح شبه مزعوجة:

-مكوتتش هسامح نفسي وأنا مش معاها.

نظر له "بدير" في استهجان، وقال بوجه منقلب، قاصدًا التلميح بشيء
بعينه:

-هو إنت سايها تاخد نفسها أصلًا؟

تنحى معقبًا عليه وقد فهم عبارته المبطنة، المشيرة إلى ملازمته لها على
مدار الساعة:

-خلاص يا حاج، مش وقته!

سأله "ونيسة" في فضول:

-فكرتوا هتسموها إيه؟

-دون بماطلة أجابها متحمسًا:

-أيوه، اتفقت خلاص مع "فيروزة" يبقى اسمها "درة".
رمقته "ونيسة" بنظرة ملأتها الدهول قبل أن تردد:
-"درة"؟

توجس من ردة فعلها، وسألها:

-وحش ولا إيه؟

هزت كتفها، وأجابته بعفوية:

-لأ غريب شويتين، بس طالما عاجبكم يبقى خلاص.

رد عليها الجذ مستبشراً:

-كله جميل، ماشاءالله، ربنا يجعلها درة غالية في حياتك.

هتف مؤمناً في تفاؤل:

-يا رب يا جدي، يا رب.

.....

مضت السنوات، وتعاقت، وجاءت اللحظة التي تولى فيها مسئوليته
الأخرى تجاه من اعتبرها -مجازاً- ابنته البكرية، كانت لحظة فارقة له كأب،
جلس في تفاخر متباهياً بما أصبحت عليه "رقية" الآن؛ شابة طموحة،

ناجحة، تدعو للفخر والاعتزاز، رغم أنها تجاوزت فقط العشرين من عمرها ..
مرر أنظاره على الجالسين في صالون منزله، وحانت منه نظرة سريعة نحو الحائط، حيث تستقر عدة إطارات لصور فوتوغرافية خاصة بجده الراحل،
ووالديه، كم اشتاق لهم! وم بدا أقرب بالشبه إلى جده وقد تخطى منتصف الأربعينات بعامين! نفث لمحات الحزن من رأسه ليرسم ابتسامة لبقة وقورة على محياه، واستطرد مخاطبًا رفيقه "دياب" في جدية:
ده ابني طبعًا.

التفت ناظرًا إلى زوجته الجالسة في مواجهته، وتعمدت اختيار هذا المكان تحديدًا لتتمكن من التواصل معه بصريًا دون الحاجة للنطق، من نظراتها المسلطة عليه، كاد يسمع احتجاجًا صامتًا، فقال في تشددٍ غريب:
بس زي ما إنت عارف بنتنا غالية، واللي عاوزها لازم يطلع عينه عقبال ما يطولها.

ثم رمق "فيروزه" بتلك النظرة المفيدة في مغزاها بأنه فعل ما أمرته به سابقًا،
بينما علق "دياب" في ترحيبٍ وهو يتابع بتعجبٍ ما يدور بينهما من نظراتٍ غريبة:

-واحنا جاهزين لأي حاجة، مش هنلاقي أغلى منها نطلبها لـ "يحيى".
تنحنح "تميم" مضيئًا بنزعة من العنجهية:

حبيب أدونا فرصة نسأل عليه، معلش دي الأصول.

رد عليه رفيقه مداعبًا في مرج:

-اسأل، وجاوب، وخش الامتحان العملي والنظري كمان، المهم في النهاية توافقوا.

نهضت "فيروزه" واقفة، وحطت على تعابيرها تلك العلامات الجادة، ثم نادى على زوجها في تحفظ:

- "تيم"، عاوزاك شوية.

نهض بدوره، وقال متصنعا الابتسام:

حاضر ..

جال بنظراته على الحاضرين جميعًا وهو يستأذن منهم:
عن إذنكم.

استوقفه "منذر" عند عتبة باب الغرفة ماسكًا إياه من ذراعه، وطلب منه بصوت خفيض:

بالراحة علينا شوية يا صاحبي، ده احنا عيلة واحدة.
خاطبه في خفوت، وبعبارة موحية، مُبديًا قلة حيلته:

-وأعمل إيه مع الحكومة؟ ما إنت شايف بنفسك.
أخفى ضحكته المستمتعة وهو يرد بربته خفيفة على كتفه:
الله يعينك، بس أكيد ليك طريقتك معاها.
التمت عينا "تميم" بنظرة غريبة، وأخبره بنوع من الزهو:
هخليها تلين.
حافظ "منذر" على ابتسامته المرحّة، وقال مشجعاً إياه:
مستنين يا بطل.
قبل أن يغادر "تميم" الغرفة وجه أمره لابنته:
شوفي يا "درة" ضيوفنا يشربوا إيه.
هزت رأسها في طاعة رغم تعبيرات وجهها المزعوجة، سارت عائدة إلى
المطبخ وهي تبرطم بضيق:
كل حاجة "درة"! أومال "علي" و"أنس" فين؟ ده بابا قال إنهم
يساعدوني.
اتجهت أنظارها لهذا الفتى الواقف بجوار الثلاجة ممسكاً بكوب من الماء
يرتشف منه، عندما نطق بنزق:

-أنا موجود في الخدمة.

رمقته بنظرة ضيقة مزعوجة من وجوده، ظنت أنه يهزأ بها، فقالت في لهجة
أمرّة مترفعة، وهي تشبك ساعديها أمام صدرها:

حطب تعالى شيل الصينية.

أسند "زين" الكوب على المسند الرخامي، وتقدم ناحيتها ببدلته الكحلية
الأنيقة متسائلاً في عتابٍ لطيف:

-ما فيش لو سمحت؟ أي حاجة ذوق منك

ما كان منها إلا أن ردت بسخافة:

-خلاص، بلاش، ولا الحوجة لحد.

أنهت جملتها وهي تحمل الصينية الأخرى المملوءة مسبقاً بالمشروب الغازي،
حملتها إلى الخارج وسط ذهول "زين" الذي راح يردد مدهوشاً من تصرفها
الفظ:

-ليه ده؟ هي داخلة شمال فيا كده ليه؟!!!

.....

اندفاعها المتعصب إلى داخل غرفة نومها، يعني أنها غير راضية عما يحدث،
وهناك ما يزعجها بشكلٍ ما. من معاشرته الطويلة لها، بات "تميم" يفهم

تصرفاتها دون الحاجة للتكهن، تبعها في هدوء، وأغلق الباب ورائها، ثم ركز كامل بصره عليها وهي متأنقة في بدلتها البيضاء، لونه المفضل على الدوام، كانت محتشمة، وقورة؛ لكنها ما زالت تحتفظ بسماها الشقية التي تغويه بنظرة أو ابتسامة متدلة. قاوم جموح خيالاته في هذه اللحظة الجادة حين هتفت في تزمّت:

مش معنى إنه صاحبك توافق على طول، لأ لازم تشد عليه، زي ما بتشد على "علي" و"أنس".

هز رأسه معقباً وهو يدس يديه في جيبي بنطاله الأسود:
حاضر يا "فيروزة".

رأت تراخي رابطة عنقه، فتحركت في تلقائية نحوه، ثم وضعت يديها على ياقة قميصه الرمادي لتضبطها، قبل أن تنتقل نحو رابطة عنقه وتعيد عقدها في مهارة واحترافية وهي ما تزال تكلمه:

-وماتنساش مافيش خروج ولا مقابلات لواحدكم من غير ما يكون في كتب كتاب.

وضع "تميم" إصبعيه بين ياقة قميصه والفراغ الضيق الملامس لعنقه محاولاً خلق مسافة أكبر للتنفس، ثم أخبرها ساخراً:

ماشي، هنفذ الوصايا العشرة معاكم، هعمل حظر تجول كمان، إيه رأيك؟

حدجته بنظرة نارية قبل أن تهتف في حدة، ودون أن ترتفع نبرتها:

-إنت بتتريق؟ بكرة نشوف هتعمل إيه مع "درة"؟

رفع حاجبه قائلاً في تحدٍ:

-ومين قالك إني هفرط فيها بالساهل؟

سألته في لحظة من السخرية:

هتسيبها تعنس جمبك؟

التوى ثغره ببسمة غير مبالية وهو يجاوبها:

-أه تعنس وتشيب كمان، دي الغالية على قلبي، النفس اللي بخاف عليه يروح في لحظة.

شعرت بالغيرة من وصفه المشوق، وقالت في عبوس وهي توليه ظهرها:

-أكثر من أمها طبعًا.

وقف خلفها واضعًا يديه على كتفيها، دلکها في رفق وهو يهتف بالقرب من أذنها:

مين قال؟

حاولت إزاحة يده عن كتفها قائلة بنفس الوجوم المغتاظ:

حاسب.

مال برأسه نحو منحى عنقها المتواري أسفل حجابها، ودفن رأسه فيه، كأنما يريد سماع نبضاتها المتسارعة، والشعور بدفقة متجددة من دفء المغري، اضطربت أنفاسها وهو يرتفع بشفتيه متجهاً إلى صدغها هامساً لها:

ده إتي قلبي.

قاومت خبرته المحنكة في إغوائها واستدراجها نحو فحّه بنجاح، واستلت نفسها منه، لتستدير ناظرة إليه وهي تقول بوجهٍ اختلجته حمرة طفيفة:

أضحك عليا زي تملي.

قبض على معصمها، فاحتدت نظراتها بشكلٍ كبير، حاولت التحرر من قيده المتحكم بها؛ لكنه بادر وجذبها إليه، أسرها في حضنه، وحاوطها بذراعيه، لتلتصق أكثر ب صدره، تلوت بجسدها محاولة المناس منه وهي تهتف في تدمر:

إيه اللي إنت بتعمله ده؟ مش وقته خالص.

قال بنظرة تعكس شقاوته:

وايه اللي يمنع؟

اتسعت عيناها في استنكارٍ وهي تعلل له:

إنت بتهزر؟ الناس قاعدة برا.

أخبرها في تلذذ وابتسامته العابثة تتراقص على ثغره:

-في تكة أطردهم، وأفرکش الجوازة، المهم إنك معايا.

انزوى ما بين حاجبيها معترضًا على تصرفه:

مش للدرجادي، احنا كبرنا على الحاجات دي.

هتف في تسليّة:

الحاجات دي عندي مالهاش سن، وبعدين كل ما تكبري حبة في قلبي

تزيدي محبة.

ضحكت في ميوعة، وعلقت:

بكاش ...

ثم تصنعت الجدية وأمرته:

حاسب، وخلينا نطلع نشوف ضيوفك.

تحركت يدها في تمهلٍ على ظهرها تمسده، رمقها بنظرة شقية عما مضى - وهو

يسألها في توقٍ:

-بأقولك إيه، مش ناوية في المناسبة السعيدة دي ترقصيلي مرة كده من نفسي؟!

تشوق لسماع ردها، فرفضت في جدية واضحة:
قولتلك مابعرفش.

منحها تلك النظرة العطوف المتذلة وهو يلح عليها:
حاولي طيب، دي من أحلامي، وأنا استنيت كثير.
صمتت لهنية قبل أن تقول في عبثية؛ كأنما تريد استفزازه وإغاضته:
خلاص هابقي أرقص في فرح "كوكي".

شدد من ضمه لها كأنما يعاقبها على اقتراحها النزق، قبل أن تنخفض إحدى يديه وتمنحها رتبة تأديبية على ردفها، جعلتها تشهق وهو يعنفها:
-لا والله، يعني يوم ما تشطحي تنطحي؟ بناقص منها رقصة.

استخدمت كل قوتها لتدفعه من صدره، فنجحت في التخلص من قيده، أو هكذا ظنت حين تراخت قبضتيه عنها، لتعتقد أن لها الغلبة؛ لكن ما لبث أن أعادها إلى أحضانه بسحبة قوية، فتأوهت مقاومة إياه، سرعان ما انخفضت إلى استسلام مطيع وهو يلامس بشفتيه بشرة وجهها، سرت فيها نفس القشعريرة الخجلة اللطيفة؛ وكأنها لا تزال حديثة العهد بمشاعر الحب

العفيفة، قبل وجتها بلطف، محفزًا الكامن من حواسها، قبل أن تتحرك
شفتاه للجانب لتلامس زاوية ثغرها، حينئذ انقلبت منها آنة خافتة متأثرة،
لفح بشرتها بحرارة قربه، ثم همس لها مكرًا اعترافه؛ بصوت خطف الفؤاد
قبل الأنفاس:

قلبي محبش إلا طاووس واحد بس ..

أغمضت عينيها مستمتعة بهذه الأحاسيس المرهفة التي تتدفق عليها وتغرقها
في نبعها، زاد خفقان قلبها مع إكماله لجملة المميزة:
هو إتي!

ليتبع ذلك قبلة عميقة، كانت ولا تزال تمنحها في كل مرة يتقاربا فيها، هذا
الشعور الواصل بالكمال وتمام الجمال.

-تمت-

الأعمال السابقة للكاتبة منال سالم:

الأعمال الالكترونية:

- دغني أحطم غرورك
- رهان ربحه الأسد
- الفريسة والصيد - الجزء الأول
- خطأ لا يمكن إصلاحه (رفقاً بالقوارير)
- فريسة غلبت الصيد - الجزء الثاني
- فراشة أعلى الفرقاطة - الجزء الأول

- دمية لغنها الحب (نوفيل قصيرة)
- كتاب الحب (نوفيل قصيرة)
- سيدرا (نوفيل)
- وجه لا يصدأ أبداً (نوفيل قصيرة)
- اليوميات الرمضانية (نعمل إيه في أماني، حتى مطلع الفجر، في بيتنا بطلة، خير يعود لك شر يرجع لك)
- أربعة شكلوا حياتها (رواية شرقية)
- شهد الأفاعي (رواية شرقية)
- كبرياء رجل شرقي (نوفيل قصيرة)
- راسين في الحلال
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول)
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني)
- وانحنى لأجلها الذئاب (الجزء الثالث)
- فتاة الكومبو (نوفيل قصيرة)
- ميري يتحدى ملكي (يوميات رمضان مشتركة مع ياسمين عادل)
- وبقي منها حطام أثني (عمل روائي مشترك مع ياسمين عادل)
- دواعي أمنية .. مشددة
- الدكان

- ذو الوشم (قصة قصيرة)
- أطيف عابثة (قصة قصيرة)
- قبضة من أثرها (قصة قصيرة)
- المكتوب الأخير (قصة قصيرة)
- وسقطت ورقة التوت (قصة قصيرة)
- ديلارا (قصة قصيرة)
- هي والربان (الجزء الثاني من فراشة أعلى الفرقاطة)
- خطوات نحو الهاوية (قصة قصيرة)
- المحترم البري
- الحب.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء رابع)
- أوتار الفؤاد.. أوس (ملحق ثلاثية الذئاب-جزء خامس)
- غسق الأوس (ملحق ثلاثية الذئاب -قصة قصيرة- جزء سادس)
- القائمة السوداء (قصة قصيرة)
- الطاووس الأبيض (الجزء الأول)
- الطاووس الأبيض (الجزء الثاني)
- الطاووس الأبيض (الجزء الرابع)

الروايات الورقية:

- كلارا (عمل مشترك مع حنين الحسيني) عن دار إبداع
- ذئاب لا تعرف الحب (الجزء الأول) عن دار إبداع
- ذئاب لا تغفر (الجزء الثاني) عن دار إبداع
- وانحنت لأجلها الذئاب (الجزء الثالث) عن دار إبداع
- للحب شعائر خاصة عن دار إبداع
- رفقا بالقوارير (الجزء الأول) عن دار إبداع
- مريم ابنة عمران - لم أك بغيا عن دار إبداع
- خطأ لا يمكن إصلاحه (الجزء الثاني) عن دار إبداع
- لتكن لي غفراة (عمل مشترك مع ياسمين عادل) عن دار إبداع
- أنى لك هذا؟ عن دار إبداع
- بابا سوبرمان، كتيب للأطفال (عمل مشترك مع آية رفعت) عن دار إبداع

